

البداية والنهاية

للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء
إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

أشرف على تحقيقه: فضيلة الشيخ
مصطفى بن العدوي

خرج أحاديث هذا الجزء:
أبو يحيى محمد بن أحمد بن عبده

الجزء الثالث عشر

دار ابن رجب

بسم الله الرحمن الرحيم


البداية والنهاية

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع : ٢٠٤٥٣ / ٢٠٠٤
I.S.B.N. : 977 - 390 - 044 - 4

دار ابن رجب طبع. نشر. توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة

استهلَّت هذه السنةُ والسلطانُ صلاحُ الدينِ محاصرٌ حَلَبَ، وقد أشرفَ منها على نيلِ الطلب، فسألوه وتوسَّلُوا إليه أنْ يصالحَهم، فصالحهم على أنْ تكونَ حلبُ وأعمالُها للملك الصالح فقط، فكُتب بذلك الكتابُ، وأُبرم الحسابُ، فلمَّا كان الليلُ بعَث الملكُ الصالحُ إسْماعيلُ إلى الملك الناصرِ يسألُ منه زيادةَ قلْعَةِ عَزازَ، على ما شرَّفه به من الإعزازِ، وأرسَل بأُختٍ له صغيرةٍ وهي الخاتُونُ بنتُ نورِ الدينِ؛ ليكونَ ذلك أدعَىٰ إلى قَبُولِ السؤالِ، وأنجعَ لحُصولِ النَّوالِ، فحينَ رآها الناصرُ قامَ قائماً كالقَضيبِ الناضرِ، وقبَّل الأرضَ، وأجابَها إلى سُؤالِها، وأطلَق لها منَ الجواهرِ والتُّحفِ ما رأىٰ أنَّه عليه فَرْضٌ، ثم ترحَّلَ عن حلبَ فقصَد الإسماعيلية الذينَ اعتَدَوا عليه فحاصَر حصْنَهم مِصْيَابَ فقتَل وضربَ وسبَىٰ، وأخذ أبقارَهم، وخرَّب ديارَهم، وقصَّر أعمارَهم، حتى شفَع فيهم خالُه شهابُ الدينِ محمودُ بنُ تكِش صاحبُ حماةَ؛ لأنَّهم جيرانُه، فقبِلَ شفاعتَه، وقد أحضَر إليه نائبُ بَعْلَبَكَّ الأميرُ شمسُ الدينِ محمدُ بنُ عبدِ الملك بنِ مُقدَّم الذي كان نائبَ دِمَشْق جماعةً من أُسارىٰ الفرنْجِ الذينَ عاثُوا بالبقاعِ في غيبةِ السلطانِ واشتغاله بحصارِ مِصْيَابَ، فجدَّد له العَزْمَ على غَزْوِ الفرنْجِ والانبعاثَ فصالَح الإسْماعيليةَ أصْحابَ سِنانٍ، ثم كرَّ راجعاً إلى دِمَشْقَ في حراسةِ الرحمنِ، وقد تلقَّاه أخوه شمسُ الدولة تُورانْشاه فتسالَما وتعانَقا وتناشَدا الأشعارَ، ولمَّا دخَل السلطانُ إلى دمشقَ في سابعَ عشرَ صفرٍ فوَّضها إلى أخيه شمسِ الدولةِ تُورانْشاه ولقَّبه الملكَ المعظَّمَ، وعزَم السلطانُ على السَّفرِ إلى مِصْرَ، وكان القاضي كمالُ الدينِ محمدُ بنُ عبدِ اللَّه الشَّهْرَزُوريُّ قد توفِّي في سادسِ المحرَّمِ مِن هذه السنَةِ، وقد كان مِن خيارِ القضاةِ، وأخصِّ الناسِ بنُورِ الدينِ الشهيدِ، فوَّضَ إليه نظرَ الجامعِ ودارَ الضَّرْبِ وعمارةَ الأسْوارِ والنظرَ في المصالحِ العامَّة.

ولمَّا حضرَتْه الوفاةُ أوصَىٰ بالقضاءِ لابنِ أخيه ضياءِ الدينِ بنِ تاجِ الدينِ الشَّهْرَزُوريِّ فأمضىٰ ذلك السلطانُ الملكُ الناصرُ صلاحُ الدين رعايةً لحقِّ الكمالِ الشَّهْرَزُوري، مع أنَّه كان يَجِدُ عليه؛ بسببِ ما كان بَيْنَه وبيْنَه حينَ كان صلاحُ الدينِ شِحْنةً بدِمَشْقَ، وكان يعاكسُه ويخالفُه، ومع هذا أمضَىٰ وصيَّتَه لابنِ أخيه، فجلَس في مجلسِ القضاءِ على عادةِ عمِّه وقاعدتِه ورسمِه، وبَقِي في نفسِ السلْطانِ من توليةِ شرفِ الدينِ أبي سعدٍ عبدِ اللَّهِ بنِ أبي عصرُونَ الحَلَبيِّ، وكان قد هاجَر إلى السلطانِ إلى دِمَشْقَ فوعَده أنه يُولِّيه قضاءَها، فأسرَّ بذلك إلى القاضي الفاضلِ، فأشارَ القاضي الفاضلُ على الضياءِ أن يَسْتَعْفِيَ من القضاءِ فاسْتَعْفَىٰ فأُعْفِيَ، وتُرِكَ له وَكالةُ بيتِ المالِ، ووَلَّى السلْطانُ ابنَ أبي عَصْرُونَ على أنْ يَسْتَنيبَ القاضيَ مُحْيِيَ الدينِ أبا المعالي محمدَ بنَ زكيِّ الدينِ، والأَوْحَدَ، عنه ففعَل ذلك، ثم بعدَ سنواتٍ اسْتَقلَّ بالحكْمِ محْيِي الدينِ، أبو حامدِ بنُ أبي عَصْرون عوَضاً عن أبيه شرَفِ الدينِ؛ بسببِ ضَعْفِ بصَرِه.

وفي صفَر من هذه السنة وقَف السلْطانُ الملكُ الناصرُ قرية حَزْم على الزاوية الغَزَّاليَّة، ومَنْ يشتغلُ بها بالعلُوم الشرعيَّة، أو ما يحتاجُ إليه الفقيهُ، وجعَل النَّظَرَ لقُطْب الدين النَّيْسَابُوريِّ مُدَرِّسها.

وفي هذا الشهر تزوَّجَ السلطانُ صلاحُ الدين بالست خاتُونَ عصْمَة الدين بنْت مُعين الدين أُنُر، وكانتْ زوجةَ الملك نور الدين محمود، فأقامت بعدَه في القلعة محترمة مكرَّمة، وولِيَ تزويجَها منه أخوها الأميرُ سعدُ الدين مسعودُ بنُ أُنُر، وحضَر القاضي ابنُ أبي عَصْرونَ العَقْد، ومنَ معه من العدول، وباتَ الناصرُ عندها تلك الليلةَ والتي بعدَها، ثم سافَر إلى مصْرَ بعدَ يومين من الدخول بها، فركبَ يومَ الجُمُعة قبلَ الصلاة فنزل بمَرْج الصُّفَّر، ثم سار فعَشا قريباً من الصَّنَمين، ثم أجَدَّ السيرَ حتى كان دخولُه الديارَ المصرية يومَ السبت سادس عشَرَ ربيع الأول من هذه السنَة في أُبَّهة المُلك. وقد تلَقَّاه أخوه ونائبُه الملك العادلُ سيفُ الدين أبو بكر إلى عند بحْر القُلْزم، ومعه من الهَدَايَا والتحَفُ شيءٌ كثيرٌ ولاسيّما المآكلُ المتنوِّعَةُ، وكان في صُحْبَة السلْطان العمادُ الكاتبُ، ولم يكُنْ ورَد الديارَ المصريَّةَ قبلَ ذلك، فشرَع يذكُرُ محاسنَها، وما اخْتَصَّتْ به من بين البُلْدان، ووصَف الهرَمَين، وشبَّهَهما بأنواع من التشْبيهات، وبالَغ في ذلك حسَبَ ما ذكر في «الروْضَتَيْن».

وفي شعبانَ ركبَ السلطانُ الناصرُ بنُ أيوبَ إلى الإسْكَنْدَريَّة، فأسْمَع ولدَيْه الأفضلَ عليّاً، والعزيزَ عثمانَ على الحافظ السِّلَفيِّ، وتردَّدَ بهما إليه ثلاثَةَ أيام؛ الخميسَ والجُمعةَ والسبتَ رابعَ رمضانَ، وعزَم السلطانُ على الصيام بها، وقد كمَّلَ عمارةَ السور على البلد، وأمَرَ بتَجْديد الأسطول وإصلاح مراكبه وسُفُنه وشَحْنه بالرجال والمقاتلة، وأمَرهم بغَزْو جزائر البحر، وأقْطعَهم الإقْطاعات الجزيلةَ، وأرْصَد لصالح الأسطول من بيت المال ما يكْفيه لجميع شُئونه، ثم عاد إلى القاهرة في أثناء رمضانَ فأكمَل صومَه بها.

وفيها: أمَر الناصرُ صلاحُ الدين ببناء مدرسة للشافعيَّة على قبر الإمام الشافعيِّ وجعل الشيخ نجم الدين الخبوشانيَّ مدرِّسَها وناظرَها

وفيها: أمَر ببناء المَارَسْتَان بالقاهرة، ووقَف عليه أوقَافاً كثيرةً. وفيها بنَى الأميرُ مُجاهدُ الدين قايْمازُ نائبُ قلعة الموْصل جامعاً حسَناً ورباطاً ومدرسةً ومَارَسْتاناً مُتَجاورات بظاهر مدينة المَوْصل، وقد تأخَّرَتْ وفاتُه إلى سنَة خمس وتسْعين وخَمْسمائة، وله عدَّةُ مدارسَ وخَانْقاهات وجوامعَ غيرَ ما ذكَرْنا، وكان ديِّناً خيِّراً فاضلاً حنفيَّ المذْهب، يذاكرُ في الأدَب والأشْعارَ والفقه. كثيرَ الصيام وقيام الليل قدَّس اللَّهُ رُوحَه.

وفيها: أُخرج المَجْذُومونَ من أهل بغَدادَ إلى ناحيَة منها ليتَميَّزُوا عن أهل العافية نسْأَل اللَّهَ العافيةَ بفضله وكرمه وذكرَ ابنُ الجَوْزيِّ في «المنتظم» عن امرأة أنها قالتْ: كنتُ أمْشي في الطريق وكان رجلٌ

يُعارِضُني كلَّما مرَرْتُ به، فقلت له: إنه لا سبيلَ إلى هذا الذي تَرُومُه منِّي إلا بكتابٍ، فتزوَّجَني عندَ الحاكمِ، فمكثْتُ معه مدَّةً ثم اعتَراه انْتفاخٌ ببطْنه فكنَّا نظُنُّ أن به استسْقاءً فنُداويه لذلك، فلمَّا كان بعدَ مدَّةٍ ولدَ ولداً كما تلد النِّساءُ، وإذا هو خُنْثَى مُشْكِلٌ، وهذا مِن أغربِ الأشياء. واللَّهُ تعالى أعلمُ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

عليُّ بنُ عَسَاكر بن المُرَحَّب بنِ العَوَّام، أبو الحسَن البَطائحيُّ المُقْرِئُ اللغويُّ، سمع الحديثَ وأسْمَعه، وكان حسنَ المعرفةِ بالنحوِ واللغةِ، وقَف كتُبَه بمسجدِ ابنِ جرْدَةَ ببَغْدادَ، وكانت وفاتُه في شعبانَ وقد نَيَّفَ على الثمانين رحمهُ اللَّهُ.

محمدُ بنُ عبدِ اللَّه بن القاسم، أبو الفَضْل، قاضي القضاة بدمشْقَ، كمالُ الدين الشَّهْرَزُوريُّ المَوْصليُّ، وله بها مدرسةٌ على الشافعيَّة، وأخرَى بنَصيبين، وكان فاضلاً ديِّناً أميناً ثقةً ورعاً، ولِي القضاءَ بدمَشْقَ لنورِ الدين محمودِ بنِ زَنْكي، واستَوْزَرَه أيضاً فيما حكَاه ابنُ السَّاعي. قال: وكان يبْعثُه في الرسائلِ، كتَب مرَّةً على أعلى قصَّةٍ إلى الخليفة المُقْتفي: محمدُ بنُ عبدِ اللَّه الرسولُ، فكتَب الخليفةُ تحتَ ذلك: ﷺ. قلتُ: وقد فوَّض إليه نورُ الدينِ نظَرَ الجامعِ ودارِ الضَّرْب، وعمَّرَ له المَارَسْتَانَ والمدارسَ، وغيرَ ذلك مِنَ الامورِ المُهمّاتِ، وكانتْ وفاتُه، رحمه اللَّهُ تعالى، في المحرم مِن هذه السنَة بدمَشْقَ.

الخطيبُ شمسُ الدين ابنُ الوزير أبي المضَاء، خطيبُ الديارِ المصريَّة، وابنُ وزيرِها، كان أولَ مَن خطَب بديارِ مصْرَ للخليفة المُسْتَضيءِ بأمرِ اللَّه العباسيِّ، بأمْرِ الملكِ الناصرِ صلاحِ الدينِ يوسفَ بنِ أيوبَ، ثم حَظِيَ عندَه حتى جعَله سَفيراً بينَه وبينَ المُلوكِ والخلفاء، وكان رئيساً مُطاعاً كريماً مُمدَّحاً، يترامَى عليه الشعراءُ والأدباءُ. ثم جعَل مكانَه في السفارةِ وأداءِ الرسائلِ ضياءَ الدينِ ابنَ قاضي القضاةِ الشَّهْرَزُوريَّ المتقدِّمَ بمرْسُوم سُلْطانيٍّ، وكانت وظيفةً مُقَرَّرَةً.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

فيها: أمَر السلطانُ ببناءِ قلْعَةِ الجبَلِ وإحاطَةِ سورٍ على القاهرةِ ومصْرَ يشمَلُهُما جميعاً، فعُمِّرت قلعةٌ للملكِ لم يكُنْ في الديارِ المصرية مثْلُها ولا على شكْلِها، ووَلِيَ عِمارَةَ ذلك الأميرُ بهاءُ الدينِ قَراقُوشُ مملوكُ تَقِيِّ الدينِ عمرَ بنِ شَاهَنْشَاه بنِ أيُّوبَ.

وفيها: كانتْ وقعةُ الرَّمْلَة على المسلمينَ.

وفي جُمادَى الأولَى منها سارَ السلطانُ الملكُ الناصرُ صلاحُ الدينِ يوسُفُ بنُ أيوبَ من مصرَ قاصداً غَزْوَ الفرنجِ، فانْتَهَى إلى بلادِ الرَّمْلَة، فسبَى وسلَب وغنم وقسَر وكسَر وكسَب، ثم تشاغَل جيشُه بالغنائمِ، وتفرَّقُوا في القُرَى والمحالِّ تفرُّقَ الهائمِ، وبَقِي السلطانُ في طائفةٍ مِن الجيش

مُنْفَرِداً، فهجَمَتْ عليه الفرنجُ في جَحْفَلٍ مِنَ المقاتِلةِ، فما سَلِم السلطانُ إلاّ بعدَ جَهْدٍ جهيدٍ، ولله الحمدُ، ثم تراجَعَ الجيشُ بعدَ تفرُّقِهم، واجْتمَعُوا عليه بعدَ أيامٍ، ووقعَتِ الأراجِيفُ في الناسِ بسببِ ذلك، وما صدَّقَ أهلُ الديارِ المصريَّةِ برؤيتِه بعد ما بلَغهم مِنَ الإرْجافِ والإرهابِ، وصارَ الأمر كما قيل:

رَضِيتُ مِن الغنيمةِ بالإيابِ

ومع هذا دقَّتِ البشائرُ في البلدانِ فرحًا بسلامةِ السلْطانِ، ولم تَجْرِ مثلُ هذه الوقعةِ إلاّ بعدَ عَشْرِ سنِينَ، وذلك يومَ حِطِّينَ، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين، وقد ثبَتَ السلْطانُ في هذه الوقْعةِ ثَباتاً عظيماً، وأسِرَ للملكِ المظفَّرِ تَقِيِّ الدينِ عمرَ بنِ أخي السلْطانِ وَلَدُه شَاهنْشَاه، فبَقِيَ عندَهم سَبْعَ سنِينَ، وقُتِلَ ابنُه الآخرُ، وكان شاباً قد طَرَّ شارِبُه، فحزِنَ على المقتُولِ والمفْقُودِ، وصَبَر تأسِّياً بأيُّوبَ، وناحَ كما ناحَ داودُ، وأُسِر الفَقِيهانِ الأخَوانِ، ضَياءُ الدينِ عِيسى، وظهيرُ الدينِ، فافْتدَاهما السلطانُ بعدَ سنين بسبعين ألفَ دينارٍ.

وفيها: تخبَّطتِ الدولةُ بحَلبَ، وقبَضَ السلْطانُ الملكُ الصالحُ إسماعيلُ بنُ نُورِ الدينِ على الخادمِ كُمُشْتكينَ، وألزَمه بتَسْليمِ قلعةِ حارِمٍ، وكانت له، فأَبَى مِن ذلك، فعلَّقَه منْكُوساً، ودخَّنَ تحتَ أنْفِه حتى ماتَ منِ ساعَتِه. وقصَدتِ الفرنجُ حارِماً فامتَنَعت عليهم، ثم سُلِّمت إلى الملكِ الصالحِ.

وفيها: جاءَ ملكٌ كبيرٌ مِن ملُوكِ الفِرنجِ يَرُومُ أخْذَ الشَّامِ لغَيْبةِ السلْطانِ واشْتغالِ نُوَّابِه بلذَّاتِهم.

قالَ العِمادُ الكاتِبُ: ومِن شَرْطِ هُدْنَةِ الفرنجِ أنَّه متى جاء مَلِكٌ كبيرٌ مِن ملُوكِهم لا يمكِنُهم دفْعُه فإنّهم يقاتِلُونَ معه ويُؤازِرُونه وينْصُرُونه، فإذا انْصرَفَ عنهم عادَتِ الهُدْنَةُ كما كانتْ؛ فقصَدَ هذا الملكُ وجملةُ الفرنجِ معه مدينةَ حَمَاةَ، وصاحِبُها شِهابُ الدينِ محمودٌ خالُ السلْطانِ مريضٌ، ونائبُ دِمَشْقَ ومَن معه مِنَ الأمراءِ مشْغولُونَ بلذَّاتِهم، فكادُوا يأخُذُونَ البلَدَ، ولكن هزَمَهمُ اللَّهُ بعدَ أرْبَعةِ أيامٍ، فانصرَفوا إلى حارمٍ فلم يتمكَّنُوا من أخْذِها، وكشَفَهم عنها الملكُ الصالحُ صاحِبُ حلَبَ، وقد دفَع إليهم مِنَ الأمْوال والأُسارَى ما طلَبُوه. وتُوفِّي صاحِبُ حمَاةَ الأميرُ شِهابُ الدينِ محمودُ بنُ تِكِشَ، خالُ السلْطانِ الناصرِ وتُوفِّي قبلَه ولدُه بثلاثَةِ أيامٍ، رحِمهما اللَّهُ.

ولَمّا سمعَ الملكُ الناصِرُ بنزُولِ الفِرنجِ على حارمٍ خرَجَ مِن مصْرَ قاصِداً بلادَ الشامِ؛ لغزوِ الفرنجِ لعَنهم اللَّهُ تعالى فكان دخولُه إلى دِمَشْقَ في الرابعِ والعشرين مِن شوَّالٍ، وصُحْبَتُه العِمادُ الكاتبُ، وتأخَّرَ القاضِي الفاضِلُ بِمصْرَ ناوياً أداءَ الحَجِّ في هذا العامِ، تقبَّلَ اللَّهُ منه.

وفيها: جاءَ كتابُ القاضِي الفاضِلِ إلى الناصِرِ يهنِّئُه بوجودِ موْلُودٍ له، وهو أبو سُلَيمانَ داودُ، وبه كمَلَ له اثْنَا عشَرَ ذكَراً، وقد وُلِد له بعدَه عدَّةُ أوْلادٍ ذكُورٍ أيضاً، فإنَّه تُوفِّي عن سَبْعَةَ عشَرَ ذكَراً وابنةٍ صغيرةٍ اسْمُها مُؤنِسةُ، التي تزوَّجَها ابنُ عمِّها الملكُ الكامِلُ محمدُ بنُ العادِلِ، كما سيأْتي بيانُ ذلكَ

في موضعه، إنْ شاء اللَّهُ تعالىٰ.

وفي هذه السنة جرَتْ فتنةٌ عظيمةٌ بينَ اليهودِ والعامَّةِ ببَغْدادَ، وكانت بسبَبِ أنَّ مؤذِّناً عندَ كنيسَةِ اليهودِ نال منه بعضُ اليهودِ بكلامٍ، فشتَمه المسلمُ، فاقْتَتلاَ، فجاءَ المؤذِّنُ يشتكي منه إلىٰ الديوانِ، وتفاقَم الحالُ، وكثُرت العوامُّ، وأكثَرُوا الضَّجيجَ، ولَمَّا كان يومُ الجُمُعةِ منَعَت العامَّةُ إقامةَ الخُطبةِ في بعضِ الجوامعِ، وخرَجُوا من فورِهم، فنهَبُوا سُوقَ العَطَّارينَ الذي فيه اليهودُ، وذهَبُوا إلىٰ كنيسةِ اليهودِ فنهَبُوها، ولم يتمكَّنِ الشُّرَط من ردِّهم، فأمَر الخليفةُ بصَلْبِ بعضِ العامَّةِ، فأخْرجَ في الليلِ جماعةٌ من الشُّطَّارِ الذين كانوا في الحُبُوسِ وقد وجَبَ عليهمُ القتلُ فصُلِبُوا، فظَنَّ كثيرٌ من الناسِ أنَّ هذا كان بسبَبِ هذه الكائنة. فسكَنت الفتنةُ، وللَّه الحمدُ.

وفيها: خرَجَ وزيرُ الخليفةِ عضُدُ الدولةِ ابنُ رئيسِ الرُّؤساءِ ابنِ المُسلمةِ قاصداً الحَجَّ، وخرَجَ الناسُ في خدْمَتِه ليوَدِّعُوه، فتقدَّمَ إليه ثلاثةٌ من الباطنيَّةِ في صورةِ فقراءَ ومَعهم قِصَصٌ، فتقدَّم أحدُهم ليُناوِلَه القصةَ فضربَه بالسكينِ ضربَاتٍ، وهجَم الثاني، وكذا الثالثُ فهَبَرُوه وجرحُوا جماعةً حولَه، وقُتِل الثلاثةُ من فورِهم وحُرِّقُوا، ورجَعَ الوزيرُ إلىٰ منْزِله محمولاً فمات في يومِه، وهذا الوزيرُ هو الذي قتَل ولدَيِ الوزيرِ ابنِ هُبَيْرَةَ وأعدمَهما، فسلَّطَ اللَّهُ عليه مَن قتَله، وكما تَدينُ تُدَانُ، جزاءً وِفاقاً. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

صَدَقَةُ بنُ الحُسَيْنِ، أبو الفرَجِ بنُ الحدَّاد، قرَأ القرآنَ، وسمِعَ الحديثَ، وتفَقَّهَ وأفْتَىٰ، وقالَ الشعرَ ونظَر في الكلامِ وناظَرَ، وله تاريخٌ ذَيَّلَ فيه علىٰ شيْخِه ابنِ الزَّاغُونيِّ، وفيه غرائبُ وعجائبُ.

وقالَ ابنُ الساعي: كان شيْخًا عالماً فاضلاً وكان فقيراً يأكُلُ من أُجْرَةِ النَّسْخِ، وكان يأوي إلىٰ مسجدٍ ببَغْدادَ عندَ البَدْريَّةِ يؤُمُّ فيه، وكان يتعتَّبُ علىٰ الزمانِ وبَنيه.

ورأيْتُ ابنَ الجَوْزِيِّ في «المنتظَم» يذُمُّه ويرْميه بالعَظائمِ، وأوْرَدَ له من أشعارِه ما فيه مُشابهَةٌ لابنِ الرَّاوَنْديِّ في الزنْدقَةِ، فاللَّهُ أعلمُ. وكانت وفاتُه في ربيعٍ الآخرِ من هذه السنَةِ عن خمسٍ وسَبعينَ سنةً، ودُفِنَ ببابِ حربٍ، ورُؤِيَتْ له مناماتٌ غيرُ صالحةٍ، نسْألُ اللَّهَ العافيةَ في الدنْيا والآخرةِ.

محمدُ بنُ أحمدَ بن عبد الجبّار، أبوالمظفَّر الحنَفيُّ، المعروفُ بالمشَطَّبِ، كان من الفُضلاءِ المشاهيرِ، تفقَّه، ودرَّسَ، وأفتىٰ، وناظَرَ، تُوفِّيَ في هذه السنةِ وقد جاوَزَ الثمانينَ.

محمدُ بنُ أسْعَدَ بن محمد، أبو منصُورٍ العَطَّارُ، المعرْوفُ بحَفَدَةَ، سمِعَ الكثيرَ وتفَقَّهَ وناظَرَ وأفْتَىٰ ودرَّس، وقدِمَ بَغْدادَ فماتَ بها في هذه السَّنةِ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

محمودُ بنُ تكِشَ، شهابُ الدينِ الحارميُّ، خالُ السلطانِ صلاحِ الدينِ، من خيارِ الأمراءِ

وشُجْعانهم، وقد أقْطَعه ابنُ أخته حَمَاةَ حينَ فتَحها، وقد حاصَره الفرنجُ بها في هذه السنة وهو مريضٌ، ففتحوها وقتَلُوا بعضَ أهْلِها، فردُّهم خائبينَ، وللّه الحمدُ.

فاطمةُ بنتُ نَصْرِ بن العَطَّار، كانت من سادات النساء، وهي من سُلالة أخت صاحب المخْزَن، وكانت مِنَ العابدات المتورِّعات المُخَدَّرات، يقالُ: إنَّها لم تخرُجْ مِن منزلِها سوىٰ ثلاث مرَّاتٍ، وقد أثْنَىٰ عليها الخليفةُ وغيرُه، واللَّهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

فيها: ورَد كتابٌ مِنَ القاضي الفاضلِ مِن مصْرَ إلى السلطان وهو بالشام يُهَنِّئُه بسلامة أولاده المُلوك الاثْنَيْ عشَرَ، يقولُ في بعضه: وهم بحمد اللّهِ بهْجَةُ الدنيا وزينتُها، وريْحانةُ الحياة وزَهْرتُها، وإنَّ فُؤاداً وسعَ فراقَهم لواسعٌ، وإنَّ قلباً قنَعَ بأخْبارِهم لقانعٌ، وإنَّ طرْفاً نامَ عن البُعْدِ عنهم لهاجعٌ، وإنَّ مَلكاً مَلكَ تصبُّرَه عنهم لحازمٌ، وإنَّ نعمةَ اللّهِ بهم لنعمةٌ بها العيشُ ناعمٌ، أمَا يشتاقُ جِيدُ المولَىٰ أنْ يتطوَّقَ بدُرَرِهم؟ أمَا تَظمأُ عينُه أنْ تَتَروَّىٰ بنظَرِهم؛ أمَا يحِن قلبُه إلى قلبه؟ أمَا يلتقِطُ هذا الطائرُ بتقْبيلِهم مَن خرَج مِن حبِّه؟ وللمولَىٰ أبْقاهُ اللّهُ أنْ يقولَ:

وما مِثلُ هذا الشوقِ تَحْمِلُ مُضغةٌ ... ولكنَّ قلبي في الهوَى يتقلَّبُ

وفيها: أسقَطَ السلطانُ صلاحُ الدين المُكُوسَ والضرائبَ عنِ الحُجّاج بمكَّةَ، وقد كان يؤخَذُ مِن حُجَّاجِ الغرب شيء كثيرٌ، وَمَنْ عجزَ عن أدائه حُبِسَ فربَّما فاته الوقوفُ بعرَفَةَ، وعَوَّضَ أميرَها بمالٍ يُقْطَعُه بديارِ مصرَ، وأنْ يُحْمَلَ إليه في كلِّ سنَةٍ ثمانيةُ آلاف إرْدَبٍّ غلَّةً إلى مَكَّةَ؛ ليكونَ عوْناً له ولأتْباعه، ورِفْقاً بما تيسَّر على المجاورينَ من ابتياعه، وقرَّر للمُجاورينَ أيضاً غلاَّتٍ تحمَلُ إليهم وصلاتٍ، فرحمةُ اللّهِ عليه في سائرِ الأوقات.

وفيها: عصَى الأميرُ شمسُ الدينِ ابنُ مقدَّمٍ ببعْلَبَكَّ، ولم يجئْ إلى خدمة السلطان وهو نازلٌ على ظاهرِ حمْصَ؛ وذلك أنَّه بلَغَه أنَّ أخا السُّلْطان تورانشاه طلبَ بَعلبَكَّ من السلطان فأطْلَقَها له، فامتَنَع ابنُ المقدَّمِ من الخروج منها حتى جاءَ السلطانُ بنفسه، فحصرَه فيها من غير قتالٍ، حتى جاءت الأمطارُ والبَرَدُ، فَعاد إلى دمشقَ في رجَبٍ، ووكَّل بالبلدِ من يحصره من غيرِ قتالٍ، ثم عوَّضَ ابنَ المقدَّمِ عنها بتَعْويضٍ كثيرٍ خيْرٍ ممَّا كان بيَده، فخرَجَ منها وتسلَّمها تُورانْشاه.

قال ابنُ الأثير: وكان في هذه السنَة غلاءٌ شديدٌ بسبَب قلَّة المطَرِ، عمَّ العراقَ والشامَ وديارَ مصْرَ، واستَمرَّ إلى سنَة خَمْسٍ وسَبْعينَ، فجاءَ المطَرُ ورخُصت الأسعارُ، ولكن تعقَّبَ ذلك وباءٌ شديدٌ، وعمَّ البلادَ مرضٌ واحدٌ، وهو السِّرْسَامُ، فما ارتفَعَ إلاَّ في سَنَة ستٍّ وسبعينَ، فماتَ بسبَبِ ذلك

خلقٌ كثيرٌ، وأُمَمٌ لا يعلَمُ عددَهم إلاَّ الذي خلقَهم.

وفي رمضانَ منها وصَلَتْ خلع الخليفة إلى الملك صلاح الدين وهو بدمَشقَ، وكانت سنيَّة عظيمة جدًّا، وزيدَ في ألقابه، مُعِزُّ أمير المؤمنينَ، وخُلِعَ أيضاً على أخيه تُورانْشاه ولُقِّبَ بمصْطَفى أمير المؤمنينَ.

وفيها: جهَّز الملكُ صلاحُ الدينِ ابنَ أخيه فَرُّخْشاه بنَ شَاهنْشَاه بنِ أيوبَ بينَ يدَيْه لقتال الفرنج الذين قد عزَموا على قتال المسلمينَ، وعاثُوا في نواحي دمَشْقَ وقُراها، فنَهبُوا مما حولَها وأرجاءَها، وأمرَه أنْ يُداريَهم حتى يتوسَّطُوا البلادَ، ولا يقاتلَهم حتى يقْدَمَ عليه، فلمَّا التقَوْا عاجَلُوه بالقتال، فكسرَهم وقتَل من ملُوكهم صاحبَ الناصرة الهنفري، وكان من أكابر ملُوكهم وشُجْعانهم، لا يُنَهْنِهُهُ اللقاءُ، فكبَتَه اللَّهُ في هذه الغَزْوَة، ثم ركبَ السلطانُ صلاحُ الدينِ في إثْرِ ابن أخيه فما وصَلَ إلى الكسوةِ حتى تلَقَّته الرُّءُوسُ على الرِّماح، والغنائمُ والأُسارَى، والجيشُ في سُمْرِه وبيضِه من البنادقِ والصِّفاح.

وفيها بنَت الفرنجُ، لعنَهم اللَّهُ، قلعةً عندَ بيت الأحْزان للداويَّة، فجعَلُوها مرْصَداً لحرْبِ المسلمين، وقطْع طرقاتهم عليهم، ونقَضَتْ ملُوكُهم العهودَ التي كانت بيْنَهم وبينَ صلاح الدين، وأغارُوا على نواحي البلدان من كلِّ جانب؛ ليشْغَلُوا المسلمينَ عنهم، وتفرَّقَتْ جيوشُهم فلا تجتَمعُ في بقْعَةٍ واحدةٍ، فرتَّبَ السلطانُ ابنَ أخيه تقيَّ الدين عمرَ بثَغْرِ حماةَ ومعه شمسُ الدين ابنُ مقدَّم وسيفُ الدينِ عليُّ بنُ أحمدَ المشطوبُ، وبثَغْرِ حِمْصَ ابنَ عمِّه ناصرَ الدين بنَ أسَد الدين شيركُوه، وبعَث إلى أخيه سيف الدين أبي بكرٍ العادل نائبِه بمِصْرَ أنْ يبعَثَ إليه ألفاً وخَمْسَمائة فارسٍ يستعينُ بهم على قتال الفرنج، وكتَبَ إلى الفرنج يأمُرُهم بتَخْريب هذا الحصْنِ الذي بَنوه للداويَّة، فامْتَنعُوا إلاَّ أنْ يبذُلَ لهم ما غرِمُوه عليه، فبذَلَ لهم ستِّينَ ألفَ دينارٍ فلم يقبلُوا، فوصَلَهم إلى مائة ألف دينارٍ فأبَوْا، فقالَ له ابنُ أخيه تَقيُّ الدين عمرُ: ابذُلْ هذه في جنودِ المسلمينَ، وسِرْ إلى هذا الحصْنِ فخرِّبه. فأخَذَ بقوْله في ذلك وخرَّبَه في السنَة الآتية، كما سنذْكُرُه إن شاءَ اللَّهُ تعالى.

وفيها: أمَرَ الخليفةُ المُسْتَضيءُ بكتابة لَوْحٍ على قبْر الإمام أحمدَ بن حنبلٍ، فيه آيةُ الكُرْسيِّ، وبعدَها: هذا قبرُ تاج السُّنَّة، وحيدِ الأمَّة، العالي الهِمَّة، العالمِ العابدِ الفقيه الزاهد. وذِكْرُ تاريخ وفاته، رَحمه اللَّهُ تعالى.

وفيها: احْتيطَ ببغَدادَ على شاعرٍ يُنشدُ للرَّوافض، يقالُ له: ابنُ قرايا. يقفُ في الأسواق ويذكُرُ أشعاراً يُضَمِّنُها ذمَّ الصحابة، رضي اللَّهُ عنهم، وسَبَّهم، وتجويرَهم، وتهْجينَ مَن أحبَّهم، فعُقدَ له مجلسٌ بأمْرِ الخليفة، واسْتُنْطقَ فإذا هو رافضيٌّ جَلْدٌ داهيةٌ، فأفْتَى الفقهاءُ بقطْع لسانه ويدَيْه، ففُعِلَ به ذلك، ثم اخْتَطَفَتْه العامَّةُ فما زالُوا يرمُونَه بالآجُرِّ حتى ألْقَى نفْسَه في دجْلَةَ، فاسْتَخْرَجُوه منها وقتَلوه حتى ماتَ، فأخَذُوا شريطاً وربَطُوه في رجْليه وطوَّفوا به في البلد يُجَرْجِرونه في أكنافها، ثم ألْقَوه

في بعضِ الأتُونات مع الآجُرِّ والكِلْسِ، وعجَز الشُّرَطُ عن تخليصه منهم.

ومِمن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

أسعدُ بنُ بلدركَ، أبو أحمدَ الجِبْرِيليُّ، سمعَ الحديثَ، وكان شيْخاً ظريفاً، حسَنَ المُذاكرة، جيِّدَ النادرة، سريعَ المبادرة، توفِّي في هذه السنة عن مائة سنَة وأربَع سنينَ، رحمه اللهُ تعالى.

محمدُ بنُ نَسيم بن عبدِ الله، أبو عبد الله الخيَّاطُ، عتيقُ الرئيسِ أبي الفَضل بن عَيْشُونَ، سمعَ الحديثَ وقارَب الثمانين، سقَط من درجة فماتَ. قال: أنْشَدني مولَى والدي، يعْني ابنَ أعلى الحكيمَ أبا الفضلِ بنَ عَيْشُونَ:

القاريُّ التشريحَ أجْدَرُ بالتُّقَى ... من راهب في دَيْره مُتَقَوِّسِ
ومُراقبُ الأفلاك كانتْ نفسُه ... بعِبادَة الرحمن أحْرَى الأنفُسِ
والماسحُ الأرَضينَ وَهْي فسيحَةٌ ... أولَى بمَسْح في أكُفِّ اللُّمَّسِ
أولَى بخشية ربِّه من جاهل ... بمثلَّث ومُربَّع ومُخَمَّسِ

الحَيْصَ بَيْصَ، سعدُ بنُ محمد بن سعد، شهابُ الدين أبو الفَوارس الصيفيُّ، الشاعرُ، له ديوانُ شعرٍ مشهورٌ، وكانت وفاتُه يومَ الثلاثاء خامسِ شعبانَ من هذه السنَة، وله ثنْتان وثمانونَ سنة، وصُلِّي عليه بالنِّظَاميَّة، ودُفِنَ بباب التِّبْن، ولم يُعْقِبْ، ولم يكنْ له في المُراسَلات بديلٌ، كان يتقَعَّرُ فيها ويتفاصَحُ جداً، فلا تُواتيه إلاَّ وهي مُعَجْرَفَةٌ، وكان يزعُمُ أنَّه من بني تميم، فسُئِلَ أبوه عن ذلكَ فقال: ما سمعْتُه إلاَّ منه. فقالَ بعضُ الشعراء يهْجُوه فيما ادَّعاه من ذلك:

كم تُبادي وكم تُطولُ طُرْطُو ... رَكَ ما فيكَ شَعْرةٌ من تميم
فكُلِ الضَّبَّ وابْلَعِ الحَنْظَلَ اليا ... بسَ واشْرَبْ إنْ شئتَ بَوْلَ الظَّليم
ليس ذا وَجْهَ مَنْ يُضيفُ ولا يَقْـ ... ـري ولا يدْفَعُ الأذَى عن حَريم

ومن شعرِ الحَيْصَ بَيْصَ الجيِّد:

سلامةُ المرءِ ساعةً عجَبُ ... وكلُّ شيءٍ لحَتْفه سبَبُ
يفرُّ والحادثاتُ تطلُبُه ... يفرُّ منهَا ونحْوَها الهرَبُ
فكيف يبْقَى على تقلُّبه ... مُسلَّماً مَن حياتُه العَطَبُ

ومن شعره أيضاً:

لا تلْبَس الدهرَ على غرَّة ... فما لموت الحيِّ من بُدِّ
ولا يُخادعْكَ طويلُ البَقا ... فتحْسَبُ الطولَ منَ الخُلْد
يقرُبُ ما كانَ له آخرٌ ... ما أقربَ المهْدَ من اللَحد

ويقربُ مِن هذا ما ذكَره صاحبُ «العقدِ»، وهو أبو عمرَ، أحمدُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ ربِّه الأندلُسيُّ في «عقْدِه»:

ألاَ إنَّما الدنيَا غضارةُ أيْكَةٍ ... إذا اخضَرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ
وما الدهرُ والآمالُ إلاَّ فجائعٌ ... عليها وما اللَّذَّاتُ إلاَّ مصائبُ
فلا تكتَحِلْ عَيْناكَ منها بعَبْرةٍ ... على ذاهبٍ منها فإنَّكَ ذاهبُ

وقد ذكَرَ أبو سَعْدٍ السَّمْعانيُّ حَيصَ بَيْصَ هذا في «ذيْلِه»، وأثْنَىٰ عليه، وسمعَ عليه ديوانه ورسائلَه، وأثْنَىٰ علىٰ رسائله القاضي ابنُ خَلِّكانَ، وقال: كان فيه تيهٌ وتعاظُمٌ، ولا يتكلَّمُ إلاَّ مُعْرِباً، وكان فقيهاً شافعيَّ المذهبِ، واشْتغلَ بالخلافِ وعلْمِ النظَرِ، ثم تشاغلَ عن ذلك كلِّه بالشعرِ، وكان مِن أخْبَرِ الناسِ بأشعارِ العربِ، واخْتلافِ لغاتِهم. قال: وإنَّما قيلَ له: الحَيْصَ بَيْصَ. لأنَّه رأىٰ الناسَ في حركَةٍ واختلاطٍ، فقال: ما للناسِ في حَيْصَ بَيْصَ. أيْ في شدَّةٍ وهَرجٍ، فغلَبت عليه هذه الكلمةُ. وكان يزعُمُ أنَّه مِن ولدِ أكْثَمَ بنِ صَيْفيٍّ طبيبِ العرَبِ، ولم يترُكْ عَقِباً. كانتْ له حَوالةٌ بالحِلَّةِ، فذهَبَ يتقاضَاها، فتُوفِّي ببَغْدادَ في هذه السنَةِ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة
وفيها كانت وقعة مرج عيون

استَهلَّت هذه السنةُ والسلطانُ صلاحُ الدينِ نازلٌ بجيشِه علىٰ تلِّ القاضي ببَانْياسَ، ثم قصَدَه الفرنجُ بجَمْعِهم، فنهَضَ إليهم نهوضَ الأسدِ، فما هو إلاَّ أن تواجَه الفريقانِ واصْطَدَمَ الجُندانِ، حتىٰ أنزَلَ اللَّهُ نصْرَه وأعزَّ جندَه وهزَمَ الأعداءَ وحدَه، ففرَّت ألويَةُ الصُّلبانِ ذاهبةً، وخَيْلُ اللَّهِ لرِقابِهم راكِبَةٌ، فقُتِلَ منهم خَلقٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ، وأُسِرَ مِن ملُوكِهم جماعةٌ، وأنابُوا إلىٰ السمعِ والطاعَةِ، منهم مُقدَّمُ الداويَّةِ، ومُقدم الإسبتاريَّةِ وصاحبُ الرَّمْلةِ وصاحبُ طَبَريَّةَ وقسْطلانُ يافا وآخرونَ مِن ملُوكِهم، وخلقٌ مِن شُجْعانِهم وأبْطالِهم، ومِن فُرْسانِ القُدْسِ جماعةٌ كثيرون قريباً مِن ثلاثمائةِ أسيرٍ مِن أشرافِ النَّصارَىٰ، فصارُوا يتهادونَ في قيودِهم كأنَّهم سُكارَىٰ وما هم بسُكارَىٰ.

قال العمادُ الكاتبُ: فاسْتَعْرَضهمُ السلطانُ في الليلِ حتىٰ أضاءَ الفجرُ علىٰ الظلماءِ، وصلَّىٰ يومَئذٍ الصبحَ بوُضوءِ العشاءِ، وكان السلطانُ جالساً ليَلْتَذَّ في نحوِ العشْرِينَ وهم في هذه العُدَّةِ، فسلَّمه اللَّهُ تعالىٰ منهم، ثم أرْسَلَهم إلىٰ دِمَشْقَ؛ ليُعتقَلوا بقَلْعَتِها وليكونوا في كنَفِ دولتِها، فافتدَىٰ ابنُ البارزانيِّ صاحبُ الرَّمْلَةِ نفسَه بعدَ سنةٍ بمائةِ ألفٍ وخمسينَ ألفَ دينارٍ صُوريَّةٍ وإطْلاقِ ألفِ أسيرٍ مِن بلادِه، فأُجيبَ إلىٰ ذلك، وكذا افتدَىٰ جماعةٌ منهم أنفسَهم بأموالٍ جزيلةٍ وتُحَفٍ جليلةٍ، ومنهم مَن ماتَ في السِّجنِ، فانتَقَلَ منه إلىٰ سِجِّينٍ، وهكذا يفعَلُ اللَّهُ بالكافرين. واتفَقَ أنَّه في اليومِ الذي ظَفِرَ

فيه السلطانُ على الفرنج بمرج عُيونٍ، ظهَرَ أسطولُ المسلمينَ على بَطْسَةٍ للفرنج في البحرِ وأخرىٰ معها فغَنمُوا منها ألفَ رأسٍ مِنَ السَّبْيِ، وعادَ إلى السَّاحلِ مُؤيَّداً منصوراً، وقد امتدح الشُّعراءُ السُّلطانَ في هذه الغزوةِ بمدائحَ كثيرةٍ، وكتَب بذلكَ إلى بَغْدادَ فدقَّتِ البشائرُ بها فرَحاً وسُروراً بظهورِ المسلمينَ على أعداءِ اللَّه الملحدينَ.

وكان الملكُ المظفَّرُ تقيُّ الدينِ عمرُ غائباً عن هذه الوقعةِ مُشْتَغلاً بما هو أعجَبُ منها، وذلك أنَّ ملكَ الرومِ قلج أَرسَلان بعَثَ يطلُبُ حِصْنَ رَعْبانَ، وزعَمَ أنَّ نورَ الدينِ اغْتَصَبَه منه، وأنَّ ولَدَه قد أغضَىٰ له عنه، فلم يُجِبْه السلْطانُ تقيُّ الدينِ عمرُ إلى ذلك، فبعَثَ صاحبُ الرومِ عشرينَ ألفَ مُقاتلٍ يُحاصِرُونَه، فأرسَلَ السلْطانُ تَقيَّ الدينِ عمرَ في ثَمانمائةِ فارسٍ، منهم سيفُ الدينِ عليُّ بنُ أحمدَ المشْطوبُ، فالتقَوا بهم فهزَمُوهم بإذنِ اللَّه، واستقرَّتْ يَدُ الملكِ صلاحِ الدينِ على حِصْنِ رَعْبانَ، وقد كان مَّا عوَّضَ به ابنَ مقدَّم عن بَعْلَبَكَّ، وكان تَقيُّ الدينِ عمرُ يفتَخرُ بهذه الوقعةِ، ويرىٰ أنَّه قد هزَم عِشْرينَ ألفاً، وقيلَ: ثلاثينَ ألفاً بثَمانمائة فارسٍ. وكان السببَ في ذلك أنَّه بيَّتَهم وأغارَ عليهم وهم غارُّون، فما لَبِثوا أمامَه بل فرُّوا منهزِمينَ عن آخرِهم، فأكْثَر فيهمُ القتلَ، واستَحوذَ على جميع ما ترَكُوه في خيامِهم، ويقالُ: إنَّه كسَرهم يومَ كسَرَ السلْطانُ الفرنْجَ بمرجِ عُيونٍ. واللَّهُ أعلمُ.

تخريبُ حِصْنِ بيتِ الأحزانِ وهو قريبٌ من صَفَدَ

ثم ركبَ السلطانُ في جحافله إلى الحصْنِ الذي كانت الفرنجُ قد بَنَوه في العامِ الماضي وحفَرُوا فيه بئراً عَيْناً معيناً، وسلَّمُوه إلى الداويَّةِ، فقَصدَه السلطانُ فحاصرَه ونقَّبه من جميعِ جهاتِه، وألْقَىٰ فيه النِّيرانَ فجعلَه دكّاً وخربَّه إلى الأساسِ، وغنِمَ جميعَ ما فيه من الحواصلِ، فكانَ فيه مائةُ ألف قطعة من السِّلاحِ، ومنَ المآكلِ شيءٌ كثيرٌ، وأخَذ منه سَبْعَمائة أسيرٍ، فقتَل بعْضاً وأرسَلَ إلى دمَشْقَ الباقينَ، ثم عادَ إلى دمَشْقَ مؤيَّداً منْصُوراً، غيرَ أنَّه ماتَ من أُمرَائه عشَرَةٌ بسبَبِ ما نالَهم منَ الحرِ والوَباءِ في مدَّةِ الحصارِ، وكانتْ أربَعَةَ عشَرَ يوماً، وعاد الناسُ إلى زيارةِ مشْهَدِ يعقُوبَ على عادَتِهم، وقد امْتَدَحَه الشعراءُ فقالَ بعْضُهم:

بجَدِّكَ أعْطافُ القَنا تتَعَطَّفُ ... وطَرْفُ الأعادي دونَ مجْدِك يطرفُ
شهابُ هدًى في ظُلمةِ الشركِ ثاقبٌ ... وسيفٌ إذا ما هَزَّهُ اللَّهُ مُرْهَفُ
وقَفْتَ على حِصْنِ المخاضِ وإنَّه ... لموقفُ حقٌّ لا يُوازيه موقف
فلم يَبْدُ وجْهُ الأرضِ بل حالَ دونَه ... رجالٌ كآسَادِ الشَّرَى وَهْي ترْجُفُ
وجرداءُ سلهُوبٌ ودِرْعٌ مضاعفٌ ... وأبْيضُ هِنْديٌّ ولَدْنٌ مُثَقَّفُ

وما رجَعتْ أعلامُكَ الصُّفرُ ساعةً ... إلى أن غدَتْ أكبادُها السُّودُ ترْجُفُ
كَبَا مَن أعاليَه صليبٌ وبِيعَةٌ ... وشادَ به دينٌ حنيفٌ ومصحفُ
صليبةُ عُبّاد الصليب ومنزِلُ النـ ... ـزال لقد غادرْتَه وهو صَفْصَفُ
أتسكُنُ أوطانَ النَّبيّينَ عُصْبَةٌ ... تمينُ لدَى أيمانها وهْي تحْلفُ
نصحْتُكُم والنُّصحُ في الدِّينِ واجبٌ ... ذَرُوا بيتَ يعْقُوبَ فقد جاءَ يُوسُفُ

وقال آخرُ:

هلاكُ الفرِنجِ أتى عاجلاً ... وقد آنَ تكْسيرُ صُلْبانها
ولو لم يكُن قد دنا حتْفُها ... لَمَا عمَّرت بيتَ أحْزانِها

ومِن كتاب فاضلِيٍّ إلىٰ بَغْدادَ في وصفِ هذا الحِصْنِ الذي خربَّه صلاحُ الدينِ: وقد عرَّضوا حائطَه إلىٰ أن زاد علىٰ عشرَةِ أذرُعٍ وقُطِعتْ له عِظَامُ الحجارةِ؛ كلُّ فَصٍّ منها من سبْعةِ أذْرُعٍ، إلىٰ ما فوْقَها وما دُونَها، وعِدتُها تزيدُ علىٰ عشرينِ ألفَ حجَرٍ، لا يستقِرُّ الحجرُ في مكانِه ولا يستَقِلُّ في بُنْيانه إلاَّ بأرْبعَةِ دَنانيرَ فما فوقَها، وفيما بينِ الحائطَيْنِ حشْوٌ مِنَ الحجارةِ الضخمةِ الصُّمِّ، المرغَمِ بها أنوفُ الجبالِ الشُّمِّ، وقد جُعِلَتْ سُقْيَتُه بالكِلْسِ الذي إذا أحاطَتْ قبضَتُه بالحجرِ مازَجَه بمثلِ جسْمِه وصاحبَه بأوثقَ وأصلَبَ مِن جِرمه، وأوعزَ إلىٰ خَصمه مِن الحديدِ بأنْ لا يتعرَّضَ لهدْمه.

وفيها: أقطَع السلطانُ صلاحُ الدينِ لابنِ أخيه عزِّ الدينِ فرُّوخْشاه بنِ شاهنشاهِ ابنِ أيوبَ مدينةَ بَعْلَبَكَّ. وأغارَ فيها علىٰ صَفَدَ وأعْمالِها، فقتَلَ طائفةً كبيرةً منِ مُقاتِليها ورجالِها، وكان فرُّوخْشاه مِن الصناديدِ الأبطالِ المشهورينَ المشكورينَ في النِّزالِ.

وفيها: حَجَّ القاضي الفاضل مِن دِمَشْقَ وعادَ إلىٰ مِصْرَ، فقَاسَىٰ في الطريقِ أهْوالاً، ولَقِي بَرْحاً وتعَباً وكلالاً، وكان في العام الماضي قد حج مِن مِصْرَ وعادَ إلىٰ الشامِ، ولكن كان أمْرُه فيه أسهلَ مِن هذا العامِ.

وفيها: كانتْ زلْزلَةٌ عظيمةٌ انْهدَمَ بسببَها قِلاعٌ وقُرىً، ومات خلقٌ كثيرٌ فيها مِنَ الورَىٰ، وسقَطَ مِن رُءوس الجبالِ صخورٌ كبارٌ، وصادَمتْ بينَ الجبالِ في البَرارِي والقِفارِ، مع بُعْدِ ما بين الجبالِ مِن الأقْطارِ. وفيها أصابَ الناسَ غلاءٌ شديدٌ وفناءٌ شَريدٌ وجَهْدٌ جهيدٌ، فمات خلقٌ كثيرٌ مِن الخلائقِ بهذا وهذا، فإنَّا للّهِ وإنَّا إليه راجعون.

وفاةُ المستضيءِ بأمْرِ اللّهِ، وشيءٌ من ترجَمتِه

كان ابْتداءُ مرَضِه في أواخرِ شوَّالٍ مِن هذه السنة فأرادَتْ زوجتُه أن تكْتُمَ ذلك فلم يمكنها، ووقعَتْ فتنةٌ كبيرةٌ ببَغْدادَ ونهبَتِ العوامُّ دوراً كثيرةً، وأمْوالاً جزيلةً، فلمَّا كان يومُ الجمُعَةِ الثاني والعِشْرينَ مِن شوَّالٍ خُطِبَ لوليِّ العهدِ أبي العباسِ أحمدَ بنِ المُسْتَضيءِ، وهو الخليفةُ الناصِرُ لدينِ اللّهِ، وكان يوماً

مشهوداً نُثِرَ الذهبُ فيه على الخُطَباءِ والمؤذِّنينَ ومَنْ حضَرَ ذلك، عندَ ذكْرِه على المنْبَرِ والتنويهِ باسمه في العشْرِ.

فلمَّا كان يومُ السبتِ سلخُ شوَّالٍ مات الخليفةُ المستضيءُ بأمرِ اللَّهِ، وكان مرضُه بالحُمَّى ابتدأ بها في يومِ عيدِ الفطرِ، ولم يزَلِ الأمرُ يتزايدُ به حتى استَكمَلَ في مرَضِه شهراً، فمات، رَحِمه اللَّهُ سَلْخَ شوالٍ، وله مِن العُمرِ تسْعٌ وثلاثون سنةً، وكانت مدَّةُ خلافتِه تسْعَ سنينَ وثلاثَةَ أشْهُرٍ وسبْعَةَ عشَرَ يوماً، وغُسِّلَ وصُلِّي عليه مِنَ الغدِ. ودُفِنَ بدارِ النَّصرِ التي بَناها، وذلك عن وصيَّتِه التي أوْصَاها، وترَكَ مِن بعدِه ولَدَيْنِ؛ أحدُهما وليُّ عهدِه وهو عُدَّةُ الدِّينِ والدُّنيا أبو العباسِ أحمدُ الناصرُ لدينِ اللَّهِ، والآخرُ أبو منْصورٍ هاشمٌ، وقد وزَرَ له جماعةٌ مِن الرُّؤَساءِ، وكانَ مِن خيارِ الخلفاءِ، أمَّاراً بالمعروفِ نَهَّاءً عنِ المنكرِ، ووضَع عنِ الناسِ المُكوسَاتِ والضرائبَ، ودرأ عنهمُ البدَعَ والمصائبَ، وكان حليماً وقُوراً كريماً، فرَحِمه اللَّهُ تعالى وبلَّ ثراه وجعَل الجنةَ مأواه. وبُويعَ بالخلافةِ مِن بعدِه لولدِه الناصرِ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعْيانِ:

إبراهيمُ بنُ عليٍّ أبو إسْحاقَ السُّلَميُّ، الفقيهُ الشافعيُّ، المعْروفُ بابنِ الفَرَّاءِ، الأمَويُّ ثم البَغْداديُّ، كان فقيهاً بارعاً فاضلاً مُناظِراً فصيحاً بليغاً شاعراً مُطَبِّقاً، تُوفِّي عن أربعٍ وسبْعِينَ سنةً، وصلَّى عليه أبو الحسَنِ القَزْوينيُّ مدرِّسُ النِّظَاميَّةِ، رحمهُ اللَّهُ تعالى.

إسْماعيلُ بنُ مَوْهُوبِ بنِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ الخَضِرِ، أبو محمدٍ بنُ الجَوَاليقيِّ، المُلقَّبُ حُجَّةَ الإسْلامِ، أحدُ أئمةِ اللغةِ في زمانِه، والمُشارُ إليه مِن بينِ أقْرانِه بحُسْنِ الدِّينِ وقُوَّةِ اليقينِ، وعلمِ اللغةِ والنحوِ، وصِدْقِ اللهْجَةِ وخلُوصِ النِّيَّةِ، وحُسْنِ السيرةِ في مَرْبَاه ومَنْشَاه ومُنْتَهاه، وقد سمعَ الحديثَ ورواه، وفهِمَ الأثَرَ واتَّبعَ سبيلَه ومَغزاه، رحمهُ اللَّهُ وأكرَمَ مثواه.

المبارك بن على بن الحسين بن عبد الله بن محمد أبو محمد بن الطباخ البغدادي نزيل مكة ومجاورها، وحافظ الحديث بها والمشار إليه بالعلم فيها كان يوم جنازته يومًا مشهودًا رحمه الله تعالى.

خلافة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء

لمَّا تُوفِّي أبوه في سَلْخِ شوالٍ من سنَةِ خمسٍ وسبْعينَ وخَمْسمائةٍ، بايَعَه الأمراءُ والوزراءُ والكُبَراءُ والخاصَّةُ والعامَّةُ، وكان قد خُطِب له على المنابرِ في حياةِ أبيه قبلَ موْتِه بيسيرٍ، فقيلَ: إنَّه إنَّما عهدَ له قبلَ موتِه بيومٍ، وقيلَ: بأسبوعٍ. ولكنْ قدَّرَ اللَّهُ، عزَّ وجلَّ، أنَّه لم يختلفْ عليه اثْنان بعدَ وَفاةِ أبيه، ولُقِّبَ بالخليفةِ الناصرِ لدينِ اللَّهِ، ولم يَلِ الخلافةَ مِن بني العباسِ قبلَه أطولَ مدَّةً منه، فإنَّ خلافته

امْتَدَتْ إلى سنَة ثنتين وعشرينَ وستِّمائة؛ وكان ذكيًا شُجاعاً مَهيباً، وسيأتي ذِكرُ سيرتِه عندَ وَفاته إن شاءَ اللَّهُ تعالى.

وفي سابع ذي القَعْدَة من هذه السنَة عُزِلَ صاحبُ المخزَن ظهيرُ الدين أبو بكر بنُ العَطَّار، وأُهينَ غايةَ الإهانة، هو وأصْحابُه وقُتِلَ كثيرٌ منهم، وشُهِرُوا في البلد، وتمكَّنَ أمرُ الخليفة الناصر، وعظُمَتْ هيْبَتُه في البلاد وفي قلوب العباد وقامَ بأعباء الخلافة على ما ينبغي في جميع أموره وشئونهم. ولمَّا حضَر عيدُ الأضْحَى أُقيم على ما جرَتْ به العادَةُ. واللَّهُ أعلمُ.

ثمَّ دخلتْ سنَة ست وسبْعين وخمْسمائة

وفيها: هادَن السلْطانُ صلاحُ الدين الفرنْجَ، وسارَ إلى بلاد الروم فأصْلَحَ بينَ ملُوكها، من بَني أُرتُقَ، وكَرَّ على بلاد الأرْمَنْ فأهان مَلِكَها، وفتَح بعْضَ حُصونها، وأخَذ منه غنائمَ كثيرةً جدًا، من أواني الذَّهب والفضَّة؛ لأنَّه كان قد غدَر بقوم من التُّركمان أوَوْا إلى بلاده، ثم صالَحه على مال يحْمِلُه إليه وأُسارَى يُطْلِقُهم من أَسْره، وآخَرينَ يَسْتَنْقذُهم من أيْدي الفرنج، ثم عادَ السلطانُ مؤيَّدًا منْصُورًا فدخَل حَمَاةَ في أواخر جُمادَى الآخرة، وامْتَدحَه الشعراءُ على ذلك.

وماتَ صاحبُ المَوْصل سيْفُ الدِّين غازي بنُ مودود بن زَنْكي، وكان شابًا حسَنًا، مليحَ الشكل، تامَّ القامَة، مُدَوَّرَ اللِّحْيَة، مكَث في المُلك عشْرَ سنينَ، وماتَ عن ثلاثينَ سنةً، وكان عفيفًا في نفْسه، مَهيبًا وقُورًا، لا يلتفتُ إذا ركب ولا إذا جلَس، غَيُورًا لايدَعُ أحدًا منَ الخُدَّام يدْخُلُ على النساء، وكان لايُقْدمُ على سَفْك الدِّماء، ويُنْسَبُ إلى شيءٍ من البخل، سامَحه اللَّهُ، وكانت وفاتُه في ثالث صَفَر، وكان قد عزَمَ على أنْ يجعَلَ المُلْكَ من بعده لولَده عزِّ الدين سَنْجَرْشَاه، فلم يُوافقه الأمراءُ خوفًا من صلاح الدين لصغَر سنِّه، فاتفقُوا كلُّهم على أخيه، فأُجْلسَ مكانَه في المَمْلكَة أخوه عزُّ الدين مسعودٌ، وجعَل مجاهدَ الدين قايْمازَ نائبَه ومدَبِّرَ مملكته، وجاءَتْ رسُلُ الخليفة يلتمسُونَ من صلاح الدِّين أنْ يُبقيَ سَروجَ والرُّهَا والرَّقةَ، وحَرَّانَ والخابورَ ونَصيبينَ في يَده، كما كانتْ في يَد أخيه، فامتَنعَ السُّلْطانُ من ذلك، وقال: هذه البلادُ هي حفْظُ ثُغور المسلمينَ، وإنَّما كنتُ تركْتُها في يَده ليُساعدَنا على غَزْو الفرنج، فلم يكُنْ يَفْعَلُ ذلكَ، وكتَب إلى الخليفة يُعرِّفُه أن المَصْلحةَ في كونها بيده.

وفاة تورانشاه أخي السلطان

وفيها: تُوفِّي أخو السلْطان الأكبر الملكُ المعظَّمُ شمسُ الدولة تُورانْشَاه بنُ أيُّوبَ، الذي افْتَتَحَ بلادَ اليَمن عن أمر أخيه صلاح الدين، فمكَثَ فيها حينًا واقْتَنَى منها أموالاً جزيلةً، ثم اسْتَنابَ فيها، وأقبَلَ نحوَ أخيه إلى الشام شَوْقًا إليه، وقد كتَب إليه من أثناء الطريق شعْرًا عمله له شاعرُه ابنُ المُنَجِّم،

وكانوا قد وصلُوا إلى تيماءَ:

فهل لأخي بلْ مالكي علمُ أنّني إليه وإنْ طالَ التردُّدُ راجع
وأنّي بيوم واحد من لقائه لُملكي على عُظْم المزيَّة بائعُ
ولم يبقَ إلاَّ دونَ عشرينَ ليلةً وتجني المُنى أبصارُنا والمسامعُ
لَدَى مَلِك تَعْنُو الملوكُ إذا بدا وتخشعُ إعظامًا لهُ وهْوَ خاشعُ
كتَبْتُ وأشواقي إليكَ ببعضها تعلَّمت النَّوحَ الحمامُ السَّواجعُ
وما المُلكُ إلاَّ راحةٌ أنتَ زَنْدُها تضُمُّ على الدنيا ونحنُ الأصابعُ

وكان قُدومُه إليه في سنة إحدَى وسَبْعينَ، فشهدَ معه مواقفَ مشْهودةً وغزواتٍ محمودةً، واسْتَنابَه على دِمَشْقَ مدَّةً، ثم سارَ إلى مِصْرَ فاسْتَنابَه على الإسْكَنْدَرِيَّة فلم توافقْه، وكان يعْتَريه القُولَنْجُ فماتَ بها، رحمه اللَّهُ تعالى، في هذه السَّنة، ودُفنَ بقَصْر الإمارة فيها، ثم نقَلَتْه أختُه ستُّ الشام بنتُ أيُّوبَ فدفَنَتْه بتُرْبَتِها التي بالشاميَّة البَرَّانيَّة، فقَبْرُه القِبْلي، والوَسْطَاني قبرُ زَوْجها وابن عمِّها ناصر الدِّين محمد بن أسَد الدِّين شيركُوه، صاحب حِمصَ والرَّحبَة، والمُؤَخَّرُ قبْرُها، رحمها اللَّهُ وأجزَلَ ثوابَها. والتربةُ الحُساميَّةُ منْسُوبَةٌ إلى ولَدِها حُسام الدين عمرَ بنِ لاجينَ، وهي إلى جانب المدرسة من غرْبِها، وقد كان الملكُ تورانْشاه كريمًا جَوادًا ممدَّحًا شُجاعًا باسلاً عظيمَ الهيبةِ كبيرَ النَّفْس، واسعَ الصَّدرِ، قال فيه ابنُ سَعدانَ الحلَبيُّ:

هو المَلكُ إنْ تَسْمَعْ بكسْرَى وقَيْصَرٍ فإنّهما في الجُود والبَأْس عَبْدَاهُ
وما حاتمٌ ممَّن يقَاس بمثله فخُذْ ما رأيْناهُ ودَعْ ما روَيْنَاهُ
ولُذْ بذُرَاهُ مُسْتَجيرًا فإنَّهُ يُجيرُكَ من جَوْر الزمان وعَدْوَاهُ
ولا تتحمَّلْ للسَحائب منَّةً إذا هَطَلَتْ جُودًا سَحائبُ جَدواهُ
ويُرسِلُ كفَّيه بما اشتقَّ منهما فلليُمْنِ يُمنَاهُ ولليُسْرِ يسْراهُ

ولَّما بلغَ خبرُ موته إلى أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين وهو مُخَيِّمٌ بظاهر حِمْصَ، حزِنَ عليه حُزْنًا شديدًا، وجعلَ يُنشدُ بابَ المراثي من الحماسَة، وكانتْ محْفُوظَةً.

وفي رجَب قدمَتْ رسُلُ الخليفة الناصر وخلَعُه وهداياه إلى الملك الناصر صلاح الدين، ملَبسَ السلطانُ خلْعةَ الخليفة بدمَشْقَ، وزُيِّنَتْ له البلَدُ، وكان يومًا مشهودًا.

وفي رجَب أيضًا منها سارَ السلْطانُ منَ الشام إلى الدِّيار المصريَّة؛ لينْظُرَ في أحْوالها، ويصومَ بها رمضانَ، ومن عزْمه أنْ يحُجَّ عامَه ذلك إلى بيت اللَّه الحرام، واسْتَنابَ على الشَّام ابنَ أخيه عزَّ الدين فَرُّوخْشَاه بنَ شاهنْشاه بنِ أيوبَ.

قال العمادُ الكاتبُ: وكان عزيزَ المِثْلِ غزيرَ الفضلِ. فكتَب القاضي الفاضلُ عن الملك العادل أبي بكرٍ نائب مصرَ إلى أهلِ اليمنِ والبَقيعِ ومكَّةَ يُعْلِمُهم بعزْمِ السلْطان على الحَجِّ في هذا العام؛ ليتأهَّبوا للمَلك ويهتمُّوا به، واستصحَب السلطانُ معه صدرَ الدينِ أبا القاسم عبدَ الرحيم شيْخَ الشُّيوخ ببَغْدادَ، الذي قدمَ في الرُّسليَّة من جهة الخليفة؛ ليكونَ في خدْمَته إلى الديارِ المصْريَّة، وفي صُحْبَته إلى الحجازِ الشريف، فدخَل السلطانُ ديارَ مصرَ، وتلقَّاه الجيشُ وكان يومًا مشهودًا، وأمَّا صدرُ الدينِ فإنَّه لم يُقِمْ بها إلاَّ قليلاً حتى توجَّه إلى الحجازِ الشريف في البحرِ، فأدْرَكَ الصيامَ بالمسجد الحرام.

وفيها: سارَ قَراقُوشُ التَّقَوي إلى بلاد المَغْربِ فحاصرَ قابِسَ وقلاعًا كثيرةً حولها، واستَحوذَ على أكثَرِها، فاتفقَ له أنَّه أسَرَ من بعضِ الحصُونِ غُلامًا أمردَ فأرادَ قتْلَه، فقالَ له أهلُ الحصْنِ: لا تَقْتُلْه وخُذْ لكَ عشرَةَ آلاف دينار، فأبَى فوصلُوه إلى مائة ألف دينارٍ فأبَى إلا قتْلَه، فقتَله، فلمَّا قتَلَه نزَلَ صاحبُ الحصْنِ وهو شَيْخٌ كبير ومعه مَفَاتيحُ ذلك الحصْنِ، فقال: خُذْ هذه فإنِّي شيخٌ كبيرٌ، وإنَّما كنت أحْفَظُه من أجْلِ هذا الصَبيِّ الذي قَتلتَه، ولي أوْلادُ أخٍ أكْرَهُ أنْ يَمْلكُوه بعدي. فأقَرَّه فيه وأخَذَ منه أمْوالاً كثيرةً. واللَّهُ سبحانَه وتعالى أعْلَمُ بالصُّواب.

ومِمَّنْ تُوُفِّيَ في هذه السنة من الأعْيان:

الحافظُ أبو طاهر السِّلَفيُّ، أحمدُ بنُ محمد بن أحمدَ بن محمد بن إبْراهيمَ سلفَةَ، الحافظ الكبيرُ المُعَمَّرُ، أبو طاهرٍ السِّلَفيُّ الأصْبَهَانيُّ، وإنَّما قيلَ لجده إبْراهيمَ: سلَفَة؛ لأنَّه كان مَشْقُوقَ إحْدَى الشَّفَتَيْنِ، فكان له ثلاثُ شفَاه فَسَمَّتْه الأعَاجِمُ بذلك. قال القاضي ابنُ خَلِّكَانَ: وكان السِّلَفيُّ يُلقَّبُ بصدْرِ الدِّينِ، وكان شافعيَّ المَذْهَبِ، وردَ بَغْدَادَ واشْتَغَلَ بها على إلْكيا الهَرَّاسيِّ، وأخَذَ اللُّغَةَ عنِ الخَطِيبِ أبي زَكَرِيَّا يَحْيَى بنِ عليٍّ التِّبريزيِّ، وسَمعَ الحديثَ الكثيرَ، ورَحَلَ في طَلَبه إلى الآفاق، ثم نَزَلَ ثَغْرَ الإسْكَنْدَريَّة في سنَة إحْدَى عَشْرَةَ وخمسمائة، وبَنَى له العادلُ أبو الحَسَنِ عليُّ بنُ السَّلارِ وزيرُ الخليفة الظافرِ مَدْرَسَةً، وفوَّضَ أمْرَها إليه، فهي مَعْرُوفَةٌ إلى الآنَ. قال ابنُ خَلِّكَانَ: وأمَاليه وتَعَاليقُه كَثيرَةٌ جدًّا، وكان مَوْلِدُه فيما ذكَرَ المِصْرِيُّون في سنَة ثِنْتَيْنِ وسَبْعينَ وأرْبَعمائة، ونَقَلَ الحافظُ عبدُ الغَنيِّ المَقْدسيُّ عنه أنَّه قال: أذكُرُ مَقْتَلَ نظام المُلْك في سنَة خمسٍ وثمَانينَ وأرْبعمائة ببَغْدَادَ، وأنا ابنُ عَشْرٍ تَقْريبًا. ونَقَلَ عنه الحافظُ أبو القاسمِ الصَّفْرَاويُّ أنَّه قال: مَوْلِدي بالتَّخْمين لا باليَقِين سنَةَ ثمانٍ وسَبْعينَ، فَيَكُونُ مَبْلَغُ عُمْره ثمانيًا وتسْعينَ سنَةً؛ لأنَّه تُوُفِّي ليلة الجُمُعَة خامس ربيع الآخَر سنَةَ ستٍّ وسَبعينَ وخَمْسمائة بثَغْرِ الإسْكَنْدَريَّة، ودُفنَ بوَعْلَةَ، وفيها جَمَاعَةٌ من الصَّالحينَ، رَحمَه اللَّهُ تعالى، وقد رَجَّحَ ابنُ خَلِّكَان قولَ الصَّفْرَاويِّ، قال: ولم يَبْلُغْنَا من نحْوِ ثلاثمائة سنَة أنَّ أحدًا جَاوَزَ المائةَ إلا القاضي أبا الطَّيِّب الطَّبَريَّ، رَحمَه اللَّه، وقد تَرْجَمَه الحافظُ ابنُ عَساكرَ في «تاريخه» تَرْجَمَةً حَسَنَةً، وإنْ كان قد مات قَبْلَه بخَمْسِ سنينَ، فذكَرَ رِحْلَتَه في طلب الحديث، ودورانَه في الأقاليم،

وأنه كان يَتَصَوَّفُ أوَّلاً، ثم أقامَ بِثَغْرِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ، وتَزَوَّجَ امْرَأَةً ذاتَ يَسَارٍ، فَحَسُنَتْ حالُه، ووَقَفَتْ عليه مَدْرَسَةً هناك، وذَكَرَ طَرَفًا مِن أشْعَارِه فمِن ذلك قولُه، رَحِمَه اللَّهُ تعالى:

أَتَأْمَنُ إلْمَامَ المَنِيَّةِ بَغْتَةً — وأمْنُ الفَتى جَهْلٌ وقد خَبَرَ الدَّهْرَا
وليسَ يُحَابِي الدَّهْرُ في دَوَرَانه — أَرَاذلَ أهْليه ولا السَّادَةَ الزُّهْرَا
وكيفَ وقد مَاتَ النَّبِيُّ وصَحْبُهُ — وأزْوَاجُه طُرًا وفَاطِمَةُ الزَّهْرَا

ومِن شِعْرِ الحَافِظُ السَّلَفِيِّ الذي أوْرَدَه ابنُ عَسَاكِرَ قولُه:

يا قَاصِدًا علمَ الحَدِيث يذُمُّه — إذْ ضَلَّ عن طُرُقِ الهِدَايَة وهمُهُ
إنَّ العُلُومَ كما عَلِمْتَ كَثِيرَةٌ — وأجَلُّها فِقْهُ الحديث وعلْمُه
مَنْ كان طالِبَه وفيه تَيَقظٌ — فأتمُّ سَهْمٍ في المَعَالي سَهْمُهُ
لولا الحديثُ وأهْلُه لم يسْتَقِمْ — دينُ النَّبِيِّ وشَذَّ عنَّا حُكْمُهُ
وإذا اسْتَرابَ بقَوْلِنا مُتَحَذْلِقٌ — فأكَلُّ فَهْمٍ في البَسِيطَةِ فَهْمُهُ

* * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

استهلَّتْ والملكُ الناصرُ صلاحُ الدين مُقيمٌ بالقاهرة، مُواظِبٌ على سماعِ الأحاديث، وجاء كتابٌ من نائبه بالشام عز الدين فَرُّوخشاه بما مَنَّ اللَّهُ تعالى به على الناسِ من كثرة ولادة النساء من التَّوائم، جَبْرًا لما كان أصابَهم في العام الماضي من الوباءِ والفَناء، وأنَّ الشامَ مُخصبٌ بإذن الله؛ جَبْرًا لما كان أصابَهم من الجدب والغلاء. وفي شوَّالٍ توجَّه الملكُ صلاحُ الدين إلى الإسكندريَّة، فشاهَد ما أمَر به من تحصينِ سُورِها وعمارةِ أبراجها وقُصورِها، وسمعَ «مُوطأَ الإمام مالكٍ» على الشيخ أبي طاهر بن عَوْفٍ، عن الطُّرطوشيِّ، وسمعَ معه العمادُ الكاتبُ، وأرسَل القاضي الفاضلُ إلى السُّلْطانِ رسالةً يهنئه بهذا السماع، واللَّهُ تعالى أعلمُ.

ذكرُ وفاةِ الملكِ الصالحِ إسماعيلَ ابنِ الملكِ نُورِ الدينِ صاحبِ حلبَ وما جرى بعدَه من الأمور

كانت وفاتُه في الخامسِ والعشرين من رجبٍ من هذه السنة بقلعةِ حَلَبَ، ودُفِن بها، وكان سببَ وفاته - فيما قيل - أنَّ الأميرَ علمَ الدينِ سُليمانَ بنَ جَنْدَرٍ سقاه سُمًّا في عُنْقُودِ عنَبٍ في الصَّيْدِ، وقيل: بل سقاه ياقوتُ الأسَديُّ في شرابٍ. وقيل: في خُشْكَنانْجَة. فاعتراه قُولَنْجٌ فما زال كذلك حتى مات، رحمه اللَّهُ، وهو شابٌّ حسَنُ الصورة، بهيُّ المنظر، ولم يَبْلُغْ عشرين سنةً، وكان من أعَفِّ الملوك، ومَنْ أشْبَه أباه فما ظلَم، وصفَ له الأطبَّاءُ في مَرضه شُربَ الخمر، فاستفتى بعضَ الفقهاء في شُرْبِها تداويًا، فأفتاه بذلك، فقال له: أيزيدُ شُرْبُها في أجَلي، أو يَنْقُصُ منه شيئًا؟ قال: لا. قال: فواللَّه لا أشْرَبُها فألقَى اللَّهَ وقد شربْتُ ما حرَّمَه عليَّ. ولمَّا يئِس من نفسه استدعَى الأمراءَ، فحلَّفَهم لابنِ عمِّه عزِّ الدينِ مسْعودٍ صاحبِ المَوْصلِ؛ لقُوةِ سلْطانه وتمكُّنه؛ ليمنَعَها من صلاحِ الدينِ، وخَشِي أن يبايعَ لابنِ عمِّه الآخرِ عمادِ الدين زَنْكي، صاحبِ سِنْجارَ، وهو زوجُ أخته وتربيةُ والده، فلا يمكِنُه حفظُها من صلاح الدينِ، فلمَّا مات استَدعَى الحلبيُّونَ عزَّ الدينِ مسْعودَ بنَ قُطْبِ الدينِ، صاحبَ المَوْصلِ، فجاء إليهم فدخَل حَلَبَ في أُبَّهَةٍ عظيمةٍ، وكان يومًا مشهودًا، وذلك في العشرين من شعبانَ، فتسلَّمَ خزائنَها وحواصلَها، وما فيها من السلاح، وكان تَقي الدينِ عمرُ بمدينةِ مَنْبِجَ، فهرَب إلى حَماةَ، فوجَد أهلَها قد نادَوا بشعارِ عزِّ الدينِ صاحبِ المَوْصلِ، وأطمع الحلبيُّونَ عزَّ الدينِ مسْعودًا في أخذِ دمشقَ؛ لغَيْبَةِ صلاحِ الدين بالديارِ المصريَّةِ، وأعْلَمُوه محبَّةَ أهلِ الشامِ لهذا البيتِ الأتابكيِّ، فقالَ: بيْنَنا وبينَه أيمانٌ وعُهودٌ، وأنا أغدرُ به! فأقام بحلَبَ شُهورًا، وتزوَّجَ بأمِّ الملك الصالحِ في شوَّالٍ، ثم سار إلى الرَّقَّةِ فنزلَها، وجاءته رسُلُ أخيه عمادِ الدينِ زَنْكي يَطْلُبُ منه أنْ

يُقايضَه مِن حَلَبَ إلى سِنْجارَ، وألَحَّ في ذلك، وتمَنَّعَ أخوه ثم فعَل ذلك على كُرْه منه، فسلَّم إليه حَلَبَ، وسلَّمه عمادُ الدينِ سِنجارَ والخابورَ والرَّقَّةَ ونَصيبينَ وسَرُوجَ، وغيرَ ذلك من البلاد. ولما سمع الملكُ صلاحُ الدين بهذه الامورِ ركِب من الديارِ المصْريَّةِ في عساكرِه، فسار حتى أتَى الفُراتَ فعبَرَها، وخامرَ إليه بعضُ أمراءِ صاحبِ الموْصِلِ، فتقهقَر عن لقائه، فاستحوَذ صلاحُ الدين على بلادِ الجزيرةِ بكَمالِها، وهَمَّ بمحاصرةِ الموْصِلِ فلم يتَّفِقْ ذلك، ثم جاء إلى حَلَبَ فتسلَّمها من عمادِ الدينِ زَنْكي؛ لضَعْفِه عن مُمانَعتِها؛ لقلَّة ماترَك فيها عزُّ الدينِ من الأسلحة وآلاتِ القتالِ، وذلكَ في السنَةِ الآتيةِ، كما سنذكُرُه.

وفي هذه السنةِ عزَم البِرِنْسُ صاحبُ الكَرَك لعَنه اللَّه، على قَصْد تَيْماءَ مِن أرضِ الحجازِ؛ ليتوصَّلَ منها إلى المدينةِ النبويّةِ، فجُهِّزت له سَرِيَّةٌ مِن دمشقَ تكونُ حاجِزَةً بينَه وبينَ الحجاز، فصدَّه ذلك عن قَصْدِه، وللَّه الحمدُ والمِنَّةُ.

وفيها: ولَّى السلطانُ صلاحُ الدينِ أخاه سيفَ الإسلامِ ظهيرَ الدينِ طُغْتكين بنَ أيُّوبَ نيابةَ اليمنِ فملَّكه عليها، وأرسَلَه إليها، وذلك لاختلافِ نُوَّابِها واضْطرابِ أصحابِها، بعدَ وفاةِ المُعَظَّمِ تُورانشاه أخي السلطانِ الذي كان افتتَحها، فلما وقَعتْ الفِتَنُ بها، وكثُر التخليط والتخبيطُ، سمَت نفسُ أخيه طُغْتكين إليها، فأرسَلَه أخوه إليها وولاَّه عليها، فسارَ فوصَلَها في سنَةِ ثمانٍ وسبعين، فسار فيها أحسنَ سيرةٍ، وأكمَل بها المَعْدَلَةَ والسَّريرةَ، واحتاطَ على أموالِ حطَّانَ بنِ مُنْقذٍ نائبِ زبيدَ، وكانت تقاربُ ألفَ ألفِ دينارٍ أو أكثرَ، وأمَّا نائبُ عَدَنَ فخرُ الدينِ عثمانُ الزَّنْجيلي فإنَّه خرَج مِن اليمنِ قبلَ قُدومِ طُغْتكين فسكَن الشامَ، وله أوقافٌ مشْهورةٌ باليمنِ ومكَّة، وإليه تُنْسَبُ المدرسةُ الزَّنْجيليَّةُ، خارجَ بابِ تومَا، تجاهَ دارِ الطعم، وكان قدحصَّل منها أموالاً عظيمةً جداً.

وفيها: غدرَت الفرنْجُ ونقَضوا عُهُودَهم، وقطَعُوا السبُلَ على المسلمين برًّا وبحْرًا، وسرًّا وجَهْرًا، فأمْكَنَ اللَّه من بُطْسَةٍ عظيمةٍ لهم فيها نحوٌ من ألفينِ وخمْسمائةِ نفسٍ من رجالِهم المعْدُودينَ فيهم، ألقاها الموجُ إلى ثغرِ دمْياطَ قبلَ خروجِ السلطانِ من مصرَ، فأُحيطَ بها فغرِقَ بعْضُهم وحصَل في الأسْرِ نحوُ ألفٍ وسبعمائةٍ منهم، وللَّه الحمدُ والمِنَّةُ.

وفيها: سار قَراقُوشُ إلى بلادِ إفْريقيَّة، ففتَح بلاداً كثيرةً، وقاتَل عسكرَ ابنِ عبدِ المؤمنِ واستَفحَل أمرُه هناك، وهو مِن جملة مماليك تقيِّ الدينِ عمرَ ابنِ أخي السلطان صلاحِ الدينِ، ثم عاد إلى الديارِ المصريَّةِ، فأمَره السلطانُ بأنْ يُتمَّ السورَ المحيطَ بالقاهرةِ ومصرَ، وذلك قبلَ خروجِه منها في هذه السنة، وكان ذلك آخِرَ عهْدِه بها حتى توفَّاه اللَّهُ، عزَّ وجلَّ، بعد أن أراه اللَّهُ مُنَاه قبلَ حُلُولِ الوفاة، فأ قرَّ عيْنَه مِن أعداه، وفتَح على يده بيْتَ المَقْدسِ وما حولَه وما حواه، ولَمَّا خيَّمَ بارزًا من مصرَ، أحضَرَ

أولادَه حولَه فجعَل يشمُّهم ويقبِّلُهم ويضمُّهم، فأنشَد بعضُهم:

تَمَتَّعْ مِن شَمِيمِ عَرارِ نَجْدٍ فما بَعدَ العَشِيَّةِ من عَرارِ

فكان الأمرُ كما قال، لم يَعُدْ إلى مصرَ بعدَ هذا العام، بل كان مُقامُه بالشام.

وفي هذه السنة وُلِد للسلطان ولَدان؛ وهما المُعَظَّمُ تُورانشاه، والملكُ المُحسنُ أحمدُ، وكان بينَ ولادَتِهما سبعةُ أيام، فزُيِّنت البلادُ، واستمرَّ الفرَحُ أربعةَ عشَر يومًا.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الشيخُ كَمالُ الدين أبو البَرَكات عبدُ الرحمن بنُ محمد بن أبي السَّعادَات عُبَيْد اللَّه بن محمد بن عُبَيْد اللَّه[1] الأنْباريُّ النحويُّ الفقيهُ العابدُ الزاهدُ الناسكُ الخاشعُ الوَرِعُ، كان خَشِنَ العيش، ولا يقبَلُ من أحدٍ شيئًا ولا من الخليفة، وكان يحضُرُ نَوْبَةَ الصوفيَّة بدار الخلافة، ولا يقبَلُ من جَوائز الخليفة لهم ولا فَلْسًا. وكان صابرًا على الاشْتغال، وله تصانيفُ مفيدةٌ. وكانت وفاتُه في شعبانَ من هذه السنة، رحمه اللَّهُ تعالى. قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: له كتابُ «أسْرار العربية» مفيدٌ جدًّا، وكتابُ «طَبَقاتُ النُّحاة» مفيدٌ جدًّا أيضًا، وكتابُ «الميزانُ في النحو» أيضًا.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

في خامس المُحَرَّم كان بروزُ السلْطان من الديار المصريَّة قاصدًا بلادَ الشام؛ لمُناجزة الأعداء والإحْسان إلى الأولياء، وكان ذلك آخرَ عهْده بمصرَ لم يَعُدْ إليها بعدَ ذلك، وقد أغار في طريقه على أطراف بلاد الفرنْج بأرض الكَرَك، وجعَل أخاه تاجَ الملوك بُوري بنَ أيُّوبَ على المَيْمَنَة يسيرُ ناحيةً عنه؛ ليتمكنوا من بلاد العَدُوِّ فالْتَقوا على الأزْرَق بعدَ سبْعَة أيام، وقد أغار نائبُ دمشقَ عزُّ الدين فَرُّوخْشاه على بلاد طَبَرِيَّةَ وما حولَها، وافتتَح حصونًا جيدةً، وأسَر منهم ألفًا، وغنِم عشرينَ ألفَ رأسٍ من الأنعام، بيَّض اللَّهُ وجهَه.

وكان دخولُ السلطان إلى دمَشْقَ سابعَ عشَرَ صَفَر ثم خرَج في العَشْر الأول من ربيع الأوَّل، فاقتتل مع الفرنْج في نواحي طَبَرِيَّةَ وبَيْسَانَ تحتَ حصْن كوكَبَ، فقُتِل خلقٌ من الفريقَيْن، ولكن كانت الدائرةُ للمسلمين، ورجَع مؤيَّدًا منصُورًا.

ثم ركب السلطانُ في جَحافله وعساكره قاصدًا حلبَ وبلادَ الشرق ليأخُذَها؛ وذلك أنَّ المَواصلةَ والحلَبيِّين قد كاتَبوا الفرنْجَ حتى يغزوا على أطراف البلاد؛ ليَشْغَلُوا الناصرَ بنفسه عنهم، فكان مسيرُه على بلاد البقَاع ثم إلى حَماةَ ثم إلى حَلبَ، فحاصرَها ثلاثًا، ورأى العُدُولَ عنها إلى غيرها أولَى به،

---

(١) ترجمته في «السير» (٢١/ ١١٣ - ١١٥).

فسار حتى قطع الفُرَاتَ، واستحوذ على بلادِ الجزيرةِ والخابور وحرَّانَ والرُّهَا والرَّقَّةَ ونَصيبينَ، وغيرِ ذلك، وخضَعت له الملوكُ هنالك، ثم عاد إلى حَلَبَ فتسلَّمها من صاحبها عمادِ الدين زنْكي وقد كان قايض أخاه عزَّ الدين مسعوداً بها إلى سِنْجَارَ، كما ذكَرْنا ذلك في السنة الماضية، فاسْتَوْسَقَتْ له الممالكُ شرقًا وغربًا، وبُعْدًا وقُرْبًا، وتمكَّن حينئذٍ من قتالِ أعدائه من الفِرنْج، لعَنهم اللَّهُ، وأمكَنه اللَّهُ من نواصيهم، فله الحمدُ على ما أولاه.

فصلٌ

ولمَّا عجزَ إبْرِنْسُ الكَرَك، لعَنه اللَّهُ، عن إيصالِ الأذى للمسلمين في البَرِّ، عمِل مَراكبَ في بحرِ القُلْزُمِ؛ ليقْطَعُوا الطريقَ على التُّجارِ والحُجَّاجِ، فوصَلت أذيَّتُهم إلى عَيْذابَ، وخاف أهلُ المدينةِ النبويَّةِ من شرِّهم، فأمَر العادلُ أبو بكرٍ نائبُ مصرَ للأميرِ حُسامِ الدينِ لُؤلؤًا صاحبَ الأسطولِ أنْ يُعمِلَ مراكبَه في بحرِ القُلْزُمِ لمُحَاربةِ أصْحابِ إبرنسَ، ففعَل ذلك فظفِروا بهم في كلِّ موطنٍ، فقتَلُوا منهم وحرَّقُوا وغرَّقُوا وسَبَوْا وقهَرُوا وأسَرُوا في مواطنَ كثيرةٍ، ومواقفَ هائلةٍ كبيرةٍ، وأمِنَ البرُّ والبحرُ بإذنِ اللَّهِ الذي بيده النفعُ والضرُّ، وأرسل السلطانُ إلى أخيه يشكُرُ من مَساعيه، وأرسَل إلى ديوانِ الخلافةِ يعرِّفُهم بما أنعَم اللَّهُ عليه من الفُتُوحاتِ برًّا وبحرًا، وبما هو مُتقلِّبٌ فيه من أنْعُمِ اللَّهِ وإحسانِه سرًّا وجَهْرًا، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين.

فصلٌ
في وفاةِ الملكِ المنصورِ عزِّ الدين

فَرُّوخْشَاه بن شَاهنْشَاه بن أيُّوبَ صاحبِ بَعْلَبَكَّ ونائبِ دِمَشْقَ لعمِّه الملك صلاح الدين، وهو والدُ الملك الأمْجَدِ بَهْرَامْ شَاه صاحبِ بَعْلَبَكَّ أيضًا بعدَ أبيه، وإليه تُنْسَبُ المدرسةُ الفَرُّوخْشاهيةُ بالشرقِ الشماليِّ، وإلى جانبها التربةُ الأمْجَدِيَّةُ لولَده، وهما وقفٌ على الحنفية والشافعية.

وقد كان فَرُّوخْشَاه شَهْمًا شُجَاعًا بطلاً عاقلاً ذكيًّا فاضلاً كريمًا مُمدَّحًا، امْتدحَه الشعراءُ لجودِه وفضلِه وإحسانِه، وكان من أكبرِ أصْحابِ الشيخِ تاجِ الدينِ أبي اليمنِ الكنديِّ، عرَفَه من مجلسِ القاضي الفاضلِ له، وللعمادِ الكاتبِ فيه مدائحُ بدائعُ، وله هو، رحِمه اللَّهُ، شعرٌ رائقٌ لطيفٌ، من ذلك قولُه:

أنا في أسرِ السَّقامِ ... مِن هَوَى هذا الغُلامِ
رَشَأٌ ترَشُقُ عينا ... هُ فؤادي بسهامِ
كلَّما ارْشَفَني فَا ... هُ على حَرِّ الأوامِ
ذقتُ منه الشَّهْدَ في الثَّـ ... ـلجِ المُصَفَّى في المُدامِ

وكان ابنُه الملكُ الأمجدُ شاعراً جيِّداً أيضًا، وقد ولاّه عمُّ أبيه صلاحُ الدين بعْلَبَكَّ بعدَ أبيه، واستمرَّ فيها مدَّةً طويلةً، ومن محاسنِ المنصورِ عزِّ الدينِ فَرُّوخشاه صُحْبَتُه لتاجِ الدينِ الكِنْدِيِّ، وله في الكنديِّ مدائحُ، وقد أورَد الشيخُ شهابُ الدينِ ذلك كله مستقصًى في «الرَّوْضَتَيْن»؛ ومن ذلك أنَّه دخَل يومًا إلى الحمَّامِ فرأى رجلاً كان يعرفُه من أصْحابِ الأموالِ، وقد نزَل به الحالُ حتى إنَّه تستَّر ببَعْضِ يديه حتى لا يبدوَ جسمُه، فرقَّ له وأمرَ غلامَه أنْ ينقُلَ بقُجةً وبساطًا إلى موضعِ الرجلِ، وأحضَر له بغْلَةً وألفَ دينار وتوقيعًا له في كلِّ شهرٍ بعشرينَ ديناراً، فدخَل الرجلُ من أفْقَرِ الناسِ، وخرَج وهو من أغنى الناسِ، فرحْمةُ اللَّهِ على الأجْوادِ الأكياسِ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الشيخُ أبو العباسِ الرِّفاعيُّ، أحمدُ بنُ أبي الحسَنِ عليِّ بن أبي العباسِ أحمدَ، المعْروفُ بابنِ الرِّفاعيِّ، شيخُ الطائفةِ الأحْمَدِيَّةِ والرِّفاعيَّةِ والبَطائحيَّةِ لسُكْنَاه أمَّ عَبيدَةَ من قُرى البطائحِ، وهي بينَ البَصْرَةِ وواسطٍ، كان أصلُه من العرَبِ فسكَن هذه البلادَ، والْتَفَّ عليه خلقٌ كثيرٌ، ويقال: إنَّه حفظ «التَّنْبيهَ» في الفقه. وقد ذكَرْتُه في طبقاتِ الشافعيَّةِ.

قال ابنُ خَلِّكانَ: ولأتباعِه أحوالٌ عجيبةٌ من أكلِ الحيَّاتِ وهي حَيَّةٌ، والنزولِ في التَّنانيرِ وهي تضْطَرِمُ، فيُطْفِئُونها، ويقالُ: إنَّهم في بلادِهم يرْكَبُونَ الأُسودَ. قال: وليسَ للشيخِ أحمدَ عَقِبٌ، وإنَّما النسْلُ لأخيه، وذُرِّيَّتُه يتَوارثُونَ المَشْيخةَ بتلكَ البلادِ. وقال: ومِن شعرِ الشيخِ أحمدَ، على ما قيلَ:

إذا جَنَّ ليلى هامَ قلبي بذكْرِكُمْ ... أنُوحُ كما ناحَ الحَمامُ المُطَوَّقُ
وفوقي سَحابٌ يُمطرُ الهمَّ والأسَى ... وتحتي بحارٌ بالأسَى تتدفَّقُ
سَلُوا أمَّ عمرٍو كيفَ باتَ أسيرُها ... تُفَكُّ الأُسارَى دونَه وهْوَ مُوثَقُ
فلا هو مقْتولٌ ففي القَتْلِ راحَةٌ ... ولا هو مَمْنُونٌ عليه فيُطلَقُ

ومِن شعرِه قولُه:

أغارُ عليها من أبيها وأمِّها ... ومن كلِّ مَن يدْنُو إليها وينظُرُ
وأحذَرُ للمرآةِ أيضًا بكفِّها ... إذا نظَرَتْ مثلَ الذي أنا أنظُرُ

قال: ولم يزَلْ على تلك الحالِ إلى أن تُوفِّيَ يومَ الخميسِ الثاني والعشرينَ من جُمادى الأُولَى من هذه السنةِ، رحمه اللَّهُ.

خلفُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ مسعُودِ بنِ بَشْكُوالَ، أبو القاسمِ القُرْطُبيُّ الحافظُ المحدِّثُ المؤرِّخُ، صاحبُ التصانيفِ، له كتابُ «الصِّلَةِ» جعَله ذَيْلاً على تاريخِ أبي الوليدِ بنِ الفَرَضيِّ، وله كتابُ «المُسْتَغيثِينَ باللَّهِ»، وله مجلَّدٌ في تعْيينِ الأسماءِ المُبْهَمَةِ في الرِّواياتِ على طريقةِ الخطيبِ، وأسْماءِ مَن روَى

«المُوطَّأ»، على حروفِ المعجم، بلَغُوا ثلاثةً وسبْعينَ رجلاً، وكانت وفاتُه في رمضانَ عن أربعٍ وثمانين سنةً، رحمه اللَّهُ تعالى ورضي عنه.

العَلاَّمةُ قُطبُ الدينِ أبو المعالي، مسعودُ بنُ محمد بن مسعود النَّيسابُوريُّ، تفقَّهَ على محمدِ بنِ يَحيى صاحبِ الغزَّاليِّ، قدمَ دمَشْقَ ودرَّس بالغزَّاليَّةِ والمُجاهديَّةِ، وبحلَبَ بمدرسةِ نُورِالدينِ وأسَدِ الدينِ، ثم بهمَذَانَ، ثم رجَع إلى دمَشْقَ ودرَّسَ بالغزَّاليَّةِ، وانتهتْ إليه رياسةُ المذهبِ، وماتَ بها في سَلْخِ رمضانَ يومَ العيدِ سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وخمْسِمائةٍ، عن ثلاثٍ وتسْعينَ سنةً، وعنه أخذَ الفخْرُ بنُ عساكرٍ وغيرُه، وهو الذي صلَّى على الحافظِ ابنِ عساكرَ. واللَّهُ سُبْحانَه أعلمُ.

ثمَّ دخلتْ سنةُ تسعٍ وسبْعينَ وخمْسِمائةٍ

في الرابعَ عشَرَ من محرَّمِها تسلَّم السلطانُ صلاحُ الدينِ مدينةَ آمِدَ صُلْحًا بعدَ حصارٍ طويلٍ، من يَدِ صاحبِها ابنِ نَيْسانَ، بعدَما حمَل ما أمكنَه من حواصِله وأمواله وأثقاله مدةَ ثلاثة أيامٍ، ولمَّا تسلَّم السلطانُ البلدَ وجَد فيه شيئًا كثيرًا من الحواصلِ وآلاتِ الحربِ والسلاحِ، حتى إنَّه وجَد بُرْجًا مملوءًا بنُصولِ النُّشَّابِ، وبُرْجًا آخرَ فيه مائةُ ألفِ شمعةٍ، وأشياءَ يطولُ شرحُها، ووجَد فيها خزانةَ كتُبٍ فيها ألفُ ألفِ مجلَّدٍ، وأربعونَ ألفَ مجلَّدٍ، فوهَبها كلَّها للقاضي الفاضلِ، فانتخَب منها حِمْلَ سَبْعينَ حِمارةً. ثم وهَب السلْطانُ البلدَ بما فيه لنورِ الدينِ محمدِ بنِ قَرَا أرْسلانَ - وكان قد وعَدَه بها - فقيلَ له: فإنَّ الحواصلَ لم تَدْخُلْ في وعدك. فقال: لا أبْخَلُ بها عليه - وكان في خزائنِها ثلاثةُ آلافِ ألفِ دينارٍ - وقد صار من أصحابنا وأنصارنا. فامْتَدحَه الشعراءُ على هذا الصنيعِ الحسنِ الجميلِ، وهو حقيقٌ بالثناءِ والجزاءِ الجزيلِ، ومن أحسَنِ ما قاله بعضُهم في ذلك من جملةِ قصيدةٍ له في السلطان:

قُلْ للمُلوكِ تَنحَّوا عن ممالِكِكُم ... فقد أتى آخذُ الدنيا ومُعطيها

ثم سارَ السلطانُ في بقيةِ المحرمِ إلى مدينةِ حَلَبَ فنازَلها وحاصرَها، وقاتلَه أهلُها قتالاً جيِّدًا، وجُرِح أخو السلْطانِ تاجُ الملُوكِ بُوري بنُ أيُّوبَ جُرْحًا بليغًا، فماتَ منه بعدَ أيامٍ، وكان أصغرَ أولادِ أيوبَ، لم يبلُغْ عِشْرين سنةً، وقيلَ: بل جاوزَها بسنتين، وكان ذكيًّا فَهِمًا، له ديوانُ شعرٍ لطيفٌ، فحزِنَ عليه أخوه الملكُ صلاحُ الدينِ حُزْنًا شديدًا، ودفنَه بحلَبَ، ثم نقلَه إلى دمَشْقَ، ثم اتفقَ الحالُ بينَ السلطانِ وبينَ صاحبِ حلَبَ عمادِ الدينِ زَنْكي بنِ مودودِ بنِ زَنْكي بنِ آقْ سُنْقُرَ على عوَضٍ أطلقَه وهو أن يردَّ عليه سِنْجارَ ويسلِّمَه البلدَ، فخرَج عمادُ الدينِ زَنْكي، وجاء إلى خدْمَةِ السلطانِ، وعَزَّاه في أخيه، ونزَلَ عندَه في المُخيَّم، ونقَل أثقالَه إلى سِنْجارَ، وزادَه السلْطانُ الخابورَ والرَّقَّةَ ونَصِيبِينَ وسَرُوجَ، واشترطَ عليه إرْسالَ العَسْكرِ في الخدمَةِ للغَزاةِ، ثم سارَ ووَدَّعَه السلْطانُ،

ومكَثَ السلْطانُ في المخيمِ أيامًا غيرَ مُكْتَرِثٍ بحَلَبَ، ولا مستكثرٍ لها ولا بها، ثم صعِد إلى قلْعَتِها يومَ الإثنين سابعَ عشرَ صفرٍ مؤيَّدًا منصوراً محبوراً، وعمِل له الأميرُ طُمانُ وليمةً عظيمةً، وكان يومًا مشهودًا فسمعه بعضُهم وهو داخلٌ يتلو هذه الآيةَ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآيةَ. ولمَّا دخَل دارَ المَلِكِ تلا: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧] الآيةَ. ولمَّا دخَل مَقامَ إبْراهيمَ صلَّى فيه ركعتين وأطالَ السجودَ والدعاءَ والتضرُّعَ، رحمه اللَّهُ، ثم شرَعَ في عملِ وليمةٍ عظيمةٍ، وقد ضُرِبَتِ البشائرُ، وخلَعَ السلطانُ على الأمراءِ، وأحْسَنَ إلى الرُّؤساءِ والفقراءِ، وألقَتِ الحربُ أوْزارَها، وقضت القلوبُ أوطارَها.

وألقَتْ عَصَاها واستَقَرَّ بها النَّوَى كما قَرَّ عَيْنًا بالإيابِ المُسافرُ

وقد امْتدحَه الشعراءُ عند فتحِ حلبَ بمدائحَ حِسَانٍ وكانت قد وقعَتْ منه موقعًا عظيمًا، حتى إنه قال: ما سُرِرْتُ بفَتْحِ قلعةٍ أعظمَ سُروراً من فتحِ مدينةِ حَلَبَ. وأسْقَطَ عنها وعن سائرِ بلادِ الجزيرةِ المُكوسَ والضرائبَ، وكذلك عن بلادِ الشامِ ومصْرَ، فجزاه اللَّهُ خيرًا.

وقد كانتِ الفرنجُ في غيبةِ السلطانِ واشتغالِه ببلادِ الجزيرةِ وتلك الأمورِ، قد عاثَت في البلادِ بالإفسادِ يمينًا وشمالاً، واغتنَمتِ الثعالبُ غيبةَ الأسدِ فجالَت حولَ العرينِ وهي تظُنُّ ذلك خيالاً فأرسَل السلْطانُ إلى عساكرِه ليجْتَمعوا إليه ويكونوا بينَ يدَيه ليتصدَّى بعدَ هذا كلِّه لقتالِ الفرنجِ العُدُوِّ المخذولِ، وكان قد بُشِّرَ بفتحِ بَيْتِ المقدسِ حينَ فتحَ حَلَبَ؛ وذلك أنَّ الفقيهَ مجدَ الدينِ بنَ جَهْبَلٍ الشافعيَّ رأى في تفْسيرِ أبي الحكمِ بنِ بَرَّجانَ المغربيِّ عندَ قولِه تعالى: ﴿الم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ١] الآيةَ. البشارةَ بفتحِ بَيْتِ المَقْدسِ في سنَةِ ثلاثٍ وثَمانين وخَمْسَمائةٍ، واسْتدلَّ على ذلك بأشْياءَ، فكتَب ذلك في ورَقَةٍ وأعْطَاها للفقيهِ عيسى الهَكَّاريِّ؛ ليبَشِّرَ بها السلْطانَ، فلم يتَجاسَرْ على ذلك خَوْفًا من عدَمِ المُطابقَةِ، فأعْلَمَ بذلك القاضيَ مُحيِي الدينِ بنَ الزَّكيِّ، فنظَمَ معْنَاها في قصيدةٍ يقولُ فيها:

وفتْحُكُمْ حَلَبَ الشَّهْباءَ في صفرٍ قَضَى لكم بافتتاحِ القُدْسِ في رَجَبِ

وقدَّمها للسلْطانِ فقويت همةُ السلْطانِ إلى ذلك، فلمَّا افْتَتَحها - كما سيأْتي - أمَرَ القاضيَ فخطَب يومئذٍ وكان يومَ الجمعةِ، ولمَّا بلَغَه أنَّ ابنَ جَهْبَلٍ هو الذي اطَّلَع على ذلك أوَّلاً، أمرَه فدرَّسَ على نفْسِ الصخْرَةِ درسًا عظيمًا، وأجْزَلَ له العطاءَ، وأحْسَنَ عليه الثَّناءَ.

فصلٌ

ثم رحَل السلطانُ من حَلَبَ في أواخرِ ربيعٍ الآخرِ بجيوشه وعساكرِه وقد جعَل فيها وَلَدَه الظاهرَ غازي، وولّى قضاءَها لمحيي الدينِ بنِ الزكي، فاستَناب له فيها نائبًا، ورجَع هو مع السلطانِ في خدمته، فاجتازَ بحَماةَ ثم بحمْصَ ثم على بَعْلَبَكَّ، ثم دخَل دمَشْقَ في ثالثِ جُمادىٰ الأولىٰ مؤيَّدًا منصورًا في أُبَّهةٍ عظيمةٍ ونعمةٍ جسيمةٍ، وكان ذلك يومًا مشهودًا، ومن نيَّته الخروجُ سريعًا إلىٰ قتالِ الفرنْجِ، فبرَز منها في أوّلِ جُمادىٰ الآخرةِ في جَحافلِه قاصدًا نحوَ القُدْسِ الشريفِ، فانْتَهىٰ إلىٰ بَيْسانَ فنهَبها، ونزَل علىٰ عَيْنِ جَالُوتَ، وأرسَل بينَ يدَيْه سريةً هائلةً فيها جُرْدَيكُ وطائفةٌ منَ النُّوريَّةِ، وجاولي مملوكُ عمِّه أسَدِ الدينِ، فوجَدُوا جيشَ الكَرَكِ منَ الفرنْجِ قاصدين إلىٰ أصحابِهم؛ نجْدَةً لهم، فالْتَقَوا معهم فقتَلُوا منَ الفرنْجِ خلقًا كثيرًا وأسَرُوا مائةَ أسيرٍ، ولم يُفْقَدْ منَ المسلمينَ سوىٰ شخصٍ واحدٍ، ثم عادَ في آخرِ ذلك اليومِ، وبلَغ السلْطانَ أنَّ الفرنْجَ قد اجْتَمَعُوا لقتاله، فقصَدَهم وتصدَّىٰ لهم لعلَّهم يُصافُّونَه، فنكَلُوا عنه فقتَل منهم خلقًا كثيرًا من أطرافهم وجرَح مِثْلَهم، فرجَعُوا ناكصينَ علىٰ أعْقابِهم خائفينَ منه غايةَ المخافةِ؛ لكثرة جيشِه، وهو خلْفَهم يقتلُ ويأسرُ حتىٰ غوَّروا في بلادهم، فرجَع عنهم مؤيَّدًا منصورًا، وكتَب القاضي الفاضلُ إلىٰ الخليفة يُعْلِمُه بما مَنَّ اللَّهُ به علىٰ المسلمينَ من نصرِهم علىٰ الفرنجِ، وكان لايفعَلُ شيئًا ولايريدُ أنْ يفْعَلَه إلاَّ طالَعَ بذلك الخليفةَ؛ أدَبًا واحْترامًا وطاعةً واحتشامًا.

فصلٌ

وفي رجَبٍ سارَ السلطانُ إلىٰ الكَرَكِ، فحاصرَها وفي صُحْبَتِه تقي الدينِ عمرُ ابنُ أخيه، وقد كتَب إلىٰ أخيه العادلِ أبي بكرٍ ليَحْضُرَ إليه ليُولِّيَه حَلَبَ وأعْمالَها وَفْقَ ما كان طلَبه منه، واستمرَّ الحصارُ علىٰ الكَرَكِ مدَّةَ شهرِ رجَبٍ، فلم يَظْفَرْ منها بطلَبٍ، وبلَغَه أنَّ الفرنْجَ قد اجْتَمَعُوا كلُّهم ليمنَعُوا منه الكركَ فكَرَّ راجعًا إلىٰ دمَشْقَ؛ ليلقاهم ـ وذلك من أكبرِ هَمِّه وأعظمِ طلبِه ـ وأرسَلَ ابنَ أخيه تقي الدينِ عمرَ إلىٰ مصرَ نائبًا، وفي صُحْبَتِه القاضي الفاضلُ، وبعَث أخاه علىٰ مَملكَةِ حَلَبَ وأعْمالِها، واستَقدَم ولَدَه الظاهرَ إليه، وكذلك نُوَّابَه ومَن يعزُّ عليه، وإنَّما أعْطَىٰ السلطانُ أخاه العادلَ حَلَبَ ليكونَ قريبًا منه، فإنَّه كان لا يقْطَعُ أمرًا دونَ مشورته، واقْتَرضَ الناصرُ من أخيه أبي بكرٍ العادلِ مائةَ ألفِ دينارٍ، وتألَّم الظاهرُ بنُ الناصرِ علىٰ مُفارقَةِ حَلَبَ، وكانت إقامتُه الأولىٰ بها ستَّةَ أشهرٍ، ولكنَّه لايُظْهِرُ ما في نفْسِه لوالدِه، لكن يَظهرُ ذلك علىٰ صَفَحاتِ وجْهِه وفَلَتاتِ لسانِه.

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة

في هذه السنة أرسَل السلطانُ إلى العساكر الحلَبيَّة والجَزَريَّة والمصريَّة، فقدِمَ عليه تقيُّ الدين عمرُ من مصرَ ومعه القاضي الفاضِل، وجاء من حَلَبَ أبو بكر العادلُ، وقدِمَتْ ملُوكُ الجزيرة وسنجارَ وتلك النواحي والأقطار، وأخذَها كلَّها مع جيشِه، فسارَ بها إلى الكرك، فأحْدَقُوا بها في رابع عشَرَ جُمادَى الأُولَى، وركَّبَ عليها المجانيقَ، وكانت تسْعَةً، وأخذ في حصارها؛ وذلك لأنَّه رأى أنَّ فتْحَها الآن أنفعُ للمسلمينَ، فإنهم يقْطَعونَ الطريقَ على الحجيجِ والتجارِ في البراري والبحار، فبَيْنَما هو كذلك إذ بلَغه أنَّ الفرنج لعَنهم الله قد اجْتَمَعوا له كلُّهم فارِسُهم وراجِلُهم؛ ليمنَعُوا منه الكركَ، فانْشَمر عنها وقصَدَهم، فنزَل على حُسْبانَ تجاهَهم، ثم صارَ إلى ماء عين، فانهزَمَت الفرنجُ قاصدين الكركَ، فأرسَل وراءَهم مَنْ قتَل منهم مقْتلَةً عظيمةً، وأمَر السلطانُ الجيوشَ بالإغارة على السواحلِ؛ لخُلُوِّها من المُقاتِلَة، فنُهِبَتْ نابُلُسُ وما حوْلها من القَرايا والرَّساتيقِ، ثم عادَ السلطانُ إلى دمَشقَ، فأذن للعساكرِ في الانْصراف إلى بُلدانهم الشتَّى، وأمَر ابنَ أخيه تقيَّ الدين عمرَ الملكَ المُظفَّرَ أنْ يعودَ إلى مصرَ بعسكره، وكذلك أخاه العادلَ أن يعودَ إلى الشهباء، وأقامَ السلطانُ بدمشقَ؛ ليؤدِّيَ فرضَ الصيام، ولتَجُمَّ الخيلُ ويُحَدَّ الحُسامُ، وقدمت على السلْطانِ خِلَعُ الخليفةِ فلَبِسَها، وألْبَسَ أخاه العادلَ، وابنَ عمِّه ناصرَ الدينِ محمدَ بنَ شيرَكُوه، ثم خلَعَ السلطانُ خِلْعتَه على ناصرِ الدين بنِ قرا أرْسلانَ، صاحبِ حِصْنِ كَيْفَا وخَرْتَبِرْتَ وآمِدَ التي أطْلَقَها له السلْطانُ.

وفي هذه السنة مات ابنُ عمِّه صاحبُ ماردين وميَّافارقينَ وتلك الأعمال، وهو قطبُ الدينِ إيلغازي بنُ ألْبي بن تَمُرْتاش بنِ إيلغازي بن أرْتُقَ، فقامَ في المُلكِ بعدَه ولدُه وله منَ العمرِ عشْرُ سنين.

وفيها: ماتَ صاحبُ المغرب أيضًا يوسُفُ بنُ عبدِ المؤمنِ بنِ علِيٍّ، وقامَ في المُلك بعدَه ولَدُه يَعْقوبُ.

وفي أواخرِ السنة بلَغ السلطانَ صلاحَ الدينِ أنَّ صاحِبَ المَوْصِلِ تنازلٌ إرْبِلَ، فبعَث صاحِبُها يسْتَصْرِخُ بالسلطانِ، فركِبَ من فوره إليه في جنوده وعساكره، فسارَ إلى بعْلَبَكَّ، ثم إلى حمصَ ثم إلى حمَاةَ، فأقامَ بها أيامًا ينْتَظِرُ وصولَ العماد الكاتب إليه؛ وذلك لأنَّه حصَل له ضعفٌ فأقامَ ببَعْلَبَكَّ ريثَما اسْتَبلَّ مِن مرضه، وقد أرسَل إليه القاضي الفاضلُ مِن دمشْقَ حكيمًا يقالُ له: أسْعَدُ بنُ إلياسَ المَطْرانُ. فعالجه معالجةَ مَن طَبَّ لمن حَبَّ.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

استهلت هذه السنةُ والسلطانُ مُخَيِّمٌ بظاهرِ حَمَاةَ، فسارَ إلى حَلَبَ، وتلقَّاه أخوه العادلُ، واجتمَعت إليه العساكرُ، فخرَج منها في صفرٍ؛ لقصدِ المَوْصِلِ فقطَع الفُراتَ، وجاء إلى حَرَّانَ فقبَض على صاحبِها مُظَفَّرِ الدين بنِ زَيْنِ الدينِ، وهو أخو زَيْنِ الدينِ صاحبِ إرْبِلَ، ثم رَضِي عنه، وأعادَه إلى مملكتِه حتى يتبيَّنَ حُسنَ طويَّتِه، ثم سارَ منها إلى المَوْصِلِ فتلقَّاه الملوكُ من كلِّ ناحيةٍ، وجاءَ إلى خدمتِه عمادُ الدينِ أبو بكرِ بنُ قَرا أرْسَلانَ صاحبِ بلادِ بكرٍ وآمِدَ، ثم بلَغه موتُ أخيه نورِ الدينِ أرسَلانَ، فطلَب دستوراً؛ ليأخذَ مملكتَه فأعطاه وسارَ السلطانُ فنزَلَ على الإسماعيلياتِ قريبًا من المَوْصِلِ، وجاءَه صاحبُ إربِلَ زَيْنُ الدينِ وهو ممن خضع له ملوك تلك الناحية كما تقدم وأرسل السلطان ضياء الدين بنَ كمالِ الدينِ الشَّهْرَزُوريَّ إلى الخليفةِ يُعلمُه بما عزَم عليه من حصارِ المَوْصِلِ، وإنما مقصودُه ردُّهم إلى طاعةِ الإمامِ، ونُصْرَةِ الإسلامِ، فحاصَرها مدةً، ثم ترحَّل عنها في آخرِ ربيعٍ الأولِ ولم يفتَحها، وسارَ إلى خِلاطَ واستحوذَ على بُلْدانٍ كثيرةٍ، وأقاليمَ جَمَّةٍ ببلادِ الجزيرةِ وديارِ بَكْرٍ، وجرَتْ أمورٌ طويلةٌ قد استَقْصاها ابنُ الأثيرِ في «الكاملِ»، وصاحبُ «الروضَتَيْنِ»، ثم وقع الصلحُ بيْنَه وبينَ المَواصِلَةِ، على أنْ يكونوا من جُندِه إذا ندبهم لقتالِ الفرنجِ، وعلى أنْ يخطُبَ له، وتُضْرَبَ السكَّةُ باسمِه، ففعَل ذلك في تلك البلادِ كلِّها، وانقطَعتْ خطبةُ السَّلاجقةِ والأزيقيَّةِ بتلك البلادِ كلِّها، واتفَق الحالُ وزالَ الإشكالُ.

واتفَق أنه مرِض بعدَ هذا مرَضًا شديدًا، وهو يتجلَّدُ ولا يُظْهِرُ شيئًا منَ التألُّمِ حتى قويَ عليه الأمرُ وتزايَد الحالُ، حتى وصَل إلى حَرَّانَ، فخيَّمَ هُنالكَ من شدَّةِ ألمِه، وشاعَ ذلك في البلادِ، فخافَ الناسُ عليه وأرْجَف الكفرةُ والملْحدُون، وخافَ أهلُ البرِّ والمؤمنون، وقصَده أخوه أبو بكرٍ العادلُ من حلَبَ بالأطبَّاءِ والأدويةِ، فوجَده في غايةِ الضعفِ، وأشارَ عليه بأنْ يُوصيَ ويعهَدَ، فقال: ما أُبالي وأنا أتركُ من بعْدِي أبابكرٍ وعمرَ وعُثمانَ وعليًّا - يعْني أخاه العادلَ صاحبَ حلبَ، وتقيَّ الدينِ عمرَ صاحبَ حَمَاةَ وهو إذْ ذاكَ نائبُ مصرَ، وهو بها مقيمٌ، وابْنَيْه العزيزَ عُثْمانَ والأفضَلَ عليًّا - ثُمَّ نذَرَ للَّه تعالى لئنْ شفَاه اللَّهُ من مرضِه هذا ليصْرِفَنَّ همتَه كلَّها إلى قتالِ الكفارِ، ولا يقاتِلُ بعدَ ذلك مُسْلمًا، وليَجْعَلَنَّ أكبرَ هَمِّه فَتْحَ بيتِ المَقْدسِ، ولو صَرَفَ في سبيلِ ذلك جَميعَ ما يَمْلكُه من الأمْوالِ والذخائرِ ولَيَقْتُلَنَّ البِرِنْسَ صاحبَ الكَرَكِ بيَدِه، وذلك لأنَّه نقَض العهدَ الذي عاهَد السلطانَ عليه فغدَر بقافلةٍ من تجارِ مصرَ، فأخذ أموالَهم، وضرَب رقابَهم صَبْرًا بينَ يديه، وهو يقولُ: أينَ مُحمَّدُكُم ينْصُرُكم؟ وكان هذا النَّذْرُ كلُّه بإشارةِ القاضي الفاضلِ، رحمه اللَّهُ، وهو الذي أرْشَده إلى ذلك وحثه عليه، حتى عقَدَه مع اللَّهِ، عزَّ وجلَّ، فشفَاه اللَّهُ، عزَّ وجلَّ، وعافَاه ممَّا كان ابتَلاه به من

ذلك المرض الذي كان فيه ؛ كفارةٌ لذُنوبِهِ ورفعٌ لدرجته ونصرةٌ للإسلام وأهله، وجاءتِ البشائرُ بذلك من كلِّ ناحيةٍ، وزُيِّنت البلادُ، ولله الحمدُ والمنةُ.

وكتَب القاضي الفاضلُ من دِمَشْقَ وهو مقيمٌ بها إلى المُظَفَّرِ تقيِّ الدين عمرَ نائبِ مصرَ لعمِّه الناصرِ ؛ أنَّ العافيةَ الناصريَّةَ قد استفاضَتْ أخبارُها، وأنوارُها وآثارُها، وولَّت العلَّةُ، ولله الحمدُ، وأطفئَتْ نارُها، وانجلَى غُبارُها، وخمَد شرارُها، وما كانتْ إلاَّ فلتَةً وَقَى اللَّهُ شرَّها، وعظيمةً كفَى اللَّهُ الإسْلامَ أمرَها، ونَوْبَةً امْتَحَن اللَّهُ فيها نفُوسَنا، فرأَىْ أقل ما عندَها صبرَها، وما كانَ اللَّهُ لُيضيعَ الدعاءَ وقد أخْلَصتْه القُلُوبُ، ولا لُيوقفَ الإجابةَ وإنْ سدَّتْ طريقَها الذُّنوبُ، ولا لُيخْلِفَ وعدَ فرَجٍ وقد أيِس الصاحِبُ والمصْحُوبُ:

نعيٌّ زادَ فيه الدهرُ ميما ... فأصْبَحَ بعدَ بُؤْساهُ نعيما
وما صدَّقَ النذيرُ به لأنِّي ... رأيتُ الشمسَ تطلعُ والنُّجوما

وقد استقبَلَ مولانا السلطانُ الملكُ الناصرُ العافيةَ غضَّةً جديدةً، والعَزْمَةَ ماضيةً حديدةً، والنَّشاطَ إلى الجهادِ، والجَنَّةَ مبْسُوطَةَ البساطِ، وقد انْقضَى الحسابُ وجُزْنا الصِّراطَ، وعُرِضْنا نحنُ على الأهْوالِ التي من خوْفها كادَ الجمَلُ يَلِجُ في سَمِّ الخياط.

ثم ركبَ السلْطانُ من حرانَ بعدَ العافيةِ فدخَلَ حلَبَ، ثم اجتازَ بحماةَ وحمصَ، ودخَل إلى دِمَشْقَ، وقد تكامَلَتْ عافيتُه، وقد كان يومُ دخوله إليها يومًا مشهودًا وصباحًا محمودًا، ولله المنةُ.

وممَّن تُوفِّيَ في هذه السنة من الأعْيان:

الفقيهُ مُهذِّبُ الدين، عبدُ اللَّه بنُ أسعدَ الموْصِليُّ مدرِّسُ حِمْصَ، وكان بارعًا في فُنونٍ، ولاسيَّما في الشعرِ والأدبِ، وقد أثنَى عليه العمادُ، والشيخُ شِهابُ الدين أبو شامةَ.

الأميرُ ناصرُ الدين محمدُ بنُ أسد الدين شيركُوه صاحبُ حِمْصَ والرَّحْبَةِ، وهو ابنُ عمِّ السلطان صلاح الدين، وزوْج أخته ستِّ الشام بنت أيوب، كانت وفاته بحمص فنقلته زوجته ست الشام إلى تُرْبتها بالمدرسة الشاميَّة البَرَّانيَّة، فقبْرُه هو الأوسطُ بينَها وبينَ أخيها المعظَّم تورانشاه صاحبِ اليمنِ، وقد خلَّفَ ناصر الدين محمدٌ منَ الأموال والذخائر شيئًا كثيرًا، يُنيِّفُ على ألف ألف دينار. وكانت وفاتُه يومَ عرفَةَ فجأةً، فوَلِي من بعده مملكةَ حِمْصَ ولَدُه أسدُ الدين شيركُوه بأمرِ السلطانِ، أيده اللَّه تعالى.

محمودُ بنُ أحمدَ بن عليِّ بنِ إسماعيلَ بن عبد الرحيم، الشيخُ جمالُ الدين أبو الثَّناء المحموديُّ بن الصَّابونيِّ؛ لأنَّ جدَّ أمِّه الشيخُ أبو عثمان الصابوني ؛ كان أحد الأئمة المشاهير، وإنَّما يقالُ له: المحمُودِي. لصُحْبَةِ جَدِّه السلطانَ محمودَ بنَ محمد بن ملكشاه، فقدم الشيخُ جمالُ الدينِ هذا الشامَ

في أيام السلطان نور الدين محمود بن زَنْكي فأكرَمه واحترَمه، ثم سارَ إلى مصرَ فنزلَها، وكان صلاحُ الدين يكرمُه أيضًا، ووقَف عليه وعلى ذُرّيّته أرْضًا، فهي لهم إلى الآن.

الأميرُ الكبيرُ سعْد الدين مسعودُ بنُ مُعين الدين، كان من الأمراء الكبار أيامَ نور الدين وصلاح الدين، وهو أخو السِّتِّ خاتون، وحين تزوَّجها صلاحُ الدين زوجه أختَه السِّتَّ ربيعةَ خاتون بنتَ أيُّوبَ، التي تُنْسَبُ إليها المدرسةُ الصلاحيةُ بالسَّفح على الحنابلة، وقد تأخَّرَتْ مدتُها فتوفِّيَتْ في سنة ثلاثٍ وأربعينَ وستِّمائةٍ وكانت آخرَ مَن بَقِي من أولاد أيُّوبَ لصُلْبه، وكانت وفاته بدمَشْقَ في جُمادَى الآخرةِ من جُرحٍ أصابه وهو في حصار ميَّافارِقينَ.

السِّتُّ خاتون عصمةُ الدين بنت معين الدين، نائب دمَشْقَ، وأتابك عسكرها قبلَ نور الدين، كما تقدَّم، وقد كانت زوجةَ نورالدين، رحمه اللَّهُ، ثم خلَف عليها من بعده صلاحُ الدين في سنَة ثِنْتَيْن وسَبْعينَ وخَمْسمائة، وكانت من أحسنِ النساءِ وأعفِّهنَّ وأكثرهنَّ صدقةً، وهي واقفةُ الخاتونيَّة الجوانيَّة بمَحلَّة حَجَر الذهَب، خانقاه خاتُون ظاهرِ باب النَّصْر في أوَّل الشرف القبلي على بانياسَ، ودُفِنَتْ بتُربتها في سفح قاسيون قريبًا من قِباب الشَّرْكسيَّة، وإلى جنْبها دار الحديث الأشْرَفيَّةُ والأتابكيَّةُ، ولها أوقافٌ كثيرةٌ غيرُ ذلك، وأمَّا الخاتونيَّةُ البرَّانيةُ التي على القنوات بمحلَّة صَنعاء الشام، ويُعرَفُ ذلك المكان التي هي فيه بتَل الثعالب، فهي من إنشاء الست زُمرُّد خاتون بنت جاولي، وهي أختُ الملك دُقاقَ لأمِّه، وكانت زوجةَ زنْكي والدِ نور الدين محمود، صاحب حلَب، وقد ماتتْ قبلَ هذا الحين كما تقدَّم، رحمها اللَّه تعالى.

الحافظُ الكبيرُ أبو موسى المَديني، محمدُ بنُ عُمَرَ بن أحمد، الأصْبَهَانيُّ، الحافظ أبو موسى المَديني، أحد حفَّاظ الدنيا الرَّحالين الجَوَّالين له مصنفاتٌ عديدةٌ، وشرح أحاديثَ كثيرة، رحمه اللَّهُ.

أبو القاسم وأبو زيْد، عبد الرحمن بنُ الخطيب أبي محمد عبد اللَّه بن الخطيب أبي عمرَ أحمدَ بن أبي الحسَن أصبغَ بن حسين بن سَعدُونَ بن رضوانَ بن فَتوح - هو الداخلُ إلى الأندلس - الخثعمي السُّهَيليُّ حكى القاضي ابنُ خَلكانَ، عن ابن دِحْيَةَ أنَّه أملى عليه نسبَه، كذلك قال ابنُ خَلكانَ: والسُّهَيليُّ نسبَة إلى قرية بالقرب من مالَقَةَ، اسمُها سُهيل؛ لأنه لا يُرَى سُهيل النَّجم في شيءٍ من تلك البلاد إلاَّ من رأس جبل شاهقٍ عندها. ولد السُّهيليُّ سنةَ ثمانٍ وخمسمائة، وقرأ القراءات واشتغل، وحصَّل حتى برَع وسادَ أهلَ زمانه بقوة القريحة وجَوْدَة الذهن، وحسن التصانيف، وكان ضريرًا مع ذلك. له كتابُ «الرَّوْض الأنف» يذكرُ فيه نكتًا حسنةً على السِّيرة لم يُسْبَقْ إلى أشياءَ كثيرة منها، وله كتاب «الإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام»، وكتابُ «نتائج الفكر»، ومسألةٌ في الفرائض

بديعةٌ، ومسألةٌ في السرِّ في كون الدَّجَّال أعورَ، وأشياءُ كثيرةٌ فريدةٌ بديعةٌ مفيدةٌ، وله أشعار حسنةٌ، وكان عفيفًا فقيرًا، وقد حصل له مال كثيرٌ في آخر عُمرِه من صاحب مَرَّاكشَ، كانت وفاته في هذه السنة يومَ الخميسِ السادسَ والعشرين من شعبان، وله قصيدةٌ كان يدعُو الله بها ويرتجِي الإجابةَ فيها وهي قولُه:

يامَن يرى ما في الضَّمير ويسمَعُ ... أنت المُعَدُّ لكلِّ ما يُتوقَّعُ
يا من يرجَّى للشدائد كلها ... يا مَن إليه المُشْتكَى والمَفزَعُ
يامن خزائنُ رزْقِه في قَول كُنْ ... امنُنْ فإنَّ الخيرَ عندك أجمعُ
ما لِي سوى فقرِي إليك وسيلةٌ ... فبالافتقارِ إليك فقرى أدفعُ
ما لِي سوى قرعى لبابك حيلةٌ ... فلئنْ رَدَدْتَ فأيَّ بابٍ أقرعُ
ومَن الذى أدعو وأهتفُ باسمه ... إن كان فضلُكَ عن فقيرك يُمْنَعُ
حاشَا لمجْدِكَ أنْ يُقَنطَ عاصِيا ... الفضلُ أجْزَلُ والمواهبُ أوسَعُ

ثمَّ دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

في ثاني ربيع الأوّلِ منها كان دخول السلطان صلاح الدينِ إلى دِمشقَ بعدَ عافيتِه، وكان يومًا مشهودًا كما جرت بمثل ذلك عادةُ الملوكِ، واجتمَع بالقاضي الفاضل وزارَه واستزارَه، وفاوضه واستشاوَه، وكان لا يقطَعُ أمرًا دونَه، ولا يُخْفِي عنه مَكْنُونَه، ولا ضميره ومضمونه، ثم قرَّر السلطانُ في ملك دمشْقَ ولَدَه الأفضلَ عليًّا، ونزَل العادلُ أبو بكرٍ عن حَلَبَ لصهْرِه، زوج ابنَته الملك الظاهرِ غازي ابن السُّلطانِ، وأرسَل السلطانُ أخاه العادلَ صُحْبَةَ ولده عمادِ الدينِ عُثمانَ الملك العزيز على مُلك مصْرَ، ويكونُ العادل آتابكه، وله إقطاعٌ عظيمةٌ جدًّا، وعزَل عنها نائبها تقيَّ الدين عمرَ، فعزَمَ على الدخول إلى إفريقيَّةَ، فلم يزَل السلطانُ يكاتبُه ويتلَطَّف به ويترَفَّقُ له حتى أقبل بجُنوده نحوَه، فأكرَمه واحترَمه وعظَّمه وأقطعه حَمَاةَ وبلادًا كثيرةً معها وقد كانت له قبل ذلكٌ وزاده على ذلك مدينةَ مَيَّافَارقِينَ، وامْتدَحه العمادُ الكاتب بقصيدةٍ سينيَّةٍ سَنِيَّةٍ ذكَرها في «الروضتَيْنِ».

وفي هذه السنة هادَن قُومَصُ طَرَابُلُسَ السلطان وصالحه وصافاه، حتى كان يقاتل ملوكَ الفرنج أشدَّ القتال ويسبي منهمُ النساءَ والأطفالَ، وكادَ أن يُسلِمَ ولكنْ صدَّه شيطانُه ورمَاه بالخَبالِ، وكانت مصالحته من أقوَى أسباب نصْرَة السلطان على الفرنج، ومن أشدِّ ما دخَل عليهم في دينهم ودنياهم.

قال العمادُ الكاتب: وكان المُنَجِّمون في جميع البلاد يحكُمون بخرابِ العالم في شعبانَ عندَ اجتماع الكواكبِ الستَّة في الميزانِ بطوفان الريح في سائر البلدانِ، وذكَر أنَّ ناسًا من الجهلَة تأهَّبوا لذلك بحَفْرِ مَغارات ومُدَّخلاتٍ وأسْراب في الأرْضِ خوفًا من ذلك. قال: فلمَّا كانتْ تلك الليلةُ

التي أشاروا إليها وأجمعوا عليها لم يُرَ ليلةٌ مثلها في ركُودها وركُونها وهدوِّها وهُدُونها، وكذا ذكَر غيرُ واحدٍ من الناس، وقد نظَمَ الشعراء في تكْذيبِ المنجِّمين في هذه الواقعةِ وغيرِها أشعْارًا حسنةً، فمن ذلك قولُ عيسىٰ بنِ مودودٍ:

مزِّقِ التقويمَ والزِّيـ … ـجَ فقدْ بانَ الخفاءُ
إنَّما التقويمُ والزِّيـ … ـجُ هباءٌ وهواءُ
قُلتَ للسَّبْعَةِ إنْرا … مٌ ومَنعٌ وعطاءُ
ومتى ينْزِلنَ في الميـ … ـزان يستَوْلِى الهواءُ
ويُثيرُ الرَّملَ حتى … يمتَلى منه الفضاءُ
ويعمُّ الأرضَ خَسفٌ … وخرابٌ وبلاءُ
ويصيرُ القاع كالقُـ … ـفِّ وكالطَاوْد العراءُ
وحكمَتمْ فأبَى الحا … كمُ ألاَّ ما يشَاءُ
ما أتَى الشرْعُ ولا جا … ءَتْ بهذا الأنبياءُ
فبَقِيتُم ضُحْكَةً يضْـ … ـحَكُ منها العلماء
حَسبُكُم خِزْيا وعاراً … ما يقولُ الشُّعَراءُ
ثم ما أطمعكم في الـ … ـحُكْمِ إلاَّ الأُمَراءُ
ليتَ إذ لم يحْسنوا في الدِّ … ينِ ظناً ما أساءُوا
فعلى اصْطِرْلَابِ بَطلَيـ … ـمُوسَ والزِّيجِ العَفاءُ
وعليه الخِزْيُ ما جا … دَتْ على الأرضِ السَّماءُ

ومِمَّنْ تُوُفِّيَ في هذه السنة من المشاهيرِ:

أبو محمد عبدُ اللَّهِ بنُ أبي الوَحْش بَرِّيِّ بن عبد الجبَّار بن برِّيٍّ، المَقْدِسيُّ ثم المصْريُ، أحدُ أئمة اللغة والنحو في زمانه، وعليه تعرضُ الرسائلُ بعدَ ابن بابَشاذ، وكان كثير الاطلاع، عالماً بهذا الشأن، مُطَّرِحًا للتَّكلُّفِ في كلامه، لا يُعَرِّجُ على الإعرابِ فيه إذا خاطب الناسَ، وله التصانيفُ المفيدة، وقد جاوزَ الثمانين بثلاث سنين، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

فيها: كانت وقْعةُ حِطِّين التي كانت أمارةً وبشارةً لفتح بيت المقْدس علىٰ المؤمنين، واستنقاذه من أيدي الكافرين.

قال ابنُ الأثير في الكامل: كان أوَّلُ يوم منها يوم السبت، وكان يومَ النيرُوز، ذلك أوَّلُ سنَة الفُرْسِ، واتَّفق أنه أول سنة الروم أيضاً، وهو اليوم الذي نزَلتْ فيه الشمسُ بُرْجَ الحمل، وكذلك كانَ القمرُ في بُرْجِ الحمَلِ أيضًا. قال: وهذا شيءٌ يَبْعُدُ وقوعُ مثله.

وبرَز السلطانُ من دمشقَ يومَ السبت مُستهَلَّ المحرم وقيل: في أثنائه في الجيش العَرَمْرَم ليجاهدَ بأهل الجَنَّة أهلَ جهنمَ، فسار إلى رأس الماء، فنزل ولدُه الأفضلُ هناك في طائفة من الجيش وتقدَّم السلطانُ ببقيَّة الجيش إلى بُصْرى، فخيَّم على قَصْر أبي سلامةَ ينتظرُ قدومَ الحُجَّاج، وفيهم أختُه ستُّ الشام وابنُها حُسَامُ الدين محمدُ بنُ عمرَ بن لاجينَ، ليَسْلَموا من مَعَرَّة إبْرنْس الكرك الذي غدَر ونقَض العهدَ وفجَر. فلمَّا اجتازَ الحجيجُ في أواخر صفر، سارَ السلْطانُ فنزَل الكركَ وقطَع ما حوله من الأشْجار ورعَى الزروعَ وأكلُوا الثمارَ، وجاءَته العساكرُ المصريةُ وتوافَت الجيوشُ الشرقيةُ بالرماح الخَطِّيَّة والسيوف المشْرقيَّة، فنزلُوا عندَ ابن السلطان على رأس الماء، وبعث الأفضلُ سريَّةً نحوَ بلاد الفرنْج، فقتَلَتْ وغنمَت وسلِمَت وكسَرت وأسَرت، ورجَعت فبشَّرت بمُقَدِّمات الفتح والنصر، وجاءَ السلْطانُ في جحَافله والتفَتْ عليه جميعُ العساكر البادي منهم والحاضرُ، فرتَّبَ الجيوشَ والأطلابَ، وسارَ قاصداً بلادَ الساحل، وكان جملةُ مَن مَعه من المُقاتلة اثْنَي عشرَ ألفاً غيرَ المُطَوِّعَة، فتسامَعت الفرنجُ بمَقْدمه، فاجْتمَعُوا كلُّهم وتصالَحوا فيما بيْنَهم، ودخَل معهم قُومَصُ أطْرَابُلُسَ الغادرُ وإبْرَنْسُ الكرك الفاجرُ، وجاءُوا بقَضِّهم وقضيضِهم وأهل أوْجهم وحضيضهم، واسْتَصْحَبُوا معهم صليبَ الصَّلَبوت يحملُه منهم عُبَّادُ الطاغُوت، وضُلاَّلُ الناسُوت واللاَّهوت، في خَلْقٍ لا يعلَمُ عدَدَهم إلاَّ اللَّهُ تعالى، يقال: كانوا خمسينَ ألفاً. وقيلَ: ثلاثاً وستِّين ألفاً. وقد خوَّفَهم صاحبُ طَرابُلُسَ بأسَ المسلمين، فاعْترَض عليه الإبْرَنسُ أرناطُ صاحبُ الكرك فقالَ له: لا أشكُّ أنكَ تُحبُّ المسلمين وتخوِّفُنا كثْرتهم، والنارُ لا تخافُ من كثرة الحطب. فقال القُومَصُ لهم: ما أنا إلاَّ منكم، وستَرَون غبَّ ما أقولُ لكم. فتقدَّمُوا وأقبَل السلطانُ ففتَح طَبَريَّةَ، وتقوَّى بما فيها من الأطعمة والأمتعة وغير ذلك، وتحصَّنَت عنه القلعةُ فلم يشتغلْ بها، وحازَ البُحَيْرَةَ في حوْزَته، ومنعَ الكفرَةَ أنْ يصِلُوا منها إلى غُرفة، أو يروَا للماء ريًّا، وأقبَلوا في عطش لا يعلَمُه إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ، فبرَزَ لهمُ السلطانُ إلى سطح الجبَل الغربيِّ من طَبَريَّةَ عندَ قرية يقالُ لها: حِطِّينُ. التي يقالُ: إنَّ فيها قَبْرَ شُعَيب عليه السلامُ. فتواجَه هنالك الجيشان وتقابَل الفريقان، وأسْفَرَ وجْهُ الإيمان، واغْبَرَّ وأقْتَمَ وجْهُ الكفران والخسران وذلك عَشية يوم الجمعة، وباتَ الناسُ على مَصافِّهم وأسفَر الصباحُ عن يوم السبت الذي كان يوماً عسيراً على أهل يوم الأحَد، وذلك لخمس بَقين من ربيع الآخر في شدة الحَرِّ، وطلَعت الشمسُ على وُجوه النصارَى وهم من شدة الحرِّ سُكَارَى وما هم بسكارَى، وكان تحتَ أقْدام خُيولهم هشيمُ حشيش، فأمَر السلْطانُ النَّفَّاطَةَ، فرمَوه فتأجَّج تحتَ سَنابك خُيولهم ناراً، فاجْتَمعَ عليهم حَرُّ الشمس وحَرُّ العَطَش، وحرُّ النار من تحت أرْجُلهم، وحرُّ رشق السهام عن القسيِّ القاسية، فتبارَز الشُّجْعَانُ في حومة الوَغَى، ثم أمَر السلْطانُ بالتَّكْبير والحملة الصادقة، فكان النصرُ

من اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فمنَحهمُ اللَّهُ أكتافَ الكفرةِ الفجرةِ، فقُتِل منهم ثلاثُون ألفاً في ذلك اليوم، وأُسِرَ ثلاثُون ألفاً من شُجْعانِهم وفُرْسانِهم، وكان في جملة الأُسارَىٰ جميعُ ملُوكِهم سوَىٰ قُومَص طَرَابُلُسَ، فإنَّه انهزَم في أوَّل المعركة، وأُخِذ صَليبُهم الأعْظَمُ عندَهم، وهو الذي يزْعُمونَ أنَّه الذي صُلِبَ عليه المصْلُوبُ، وقد غلَّفُوه بالذهب واللآلئِ والجواهرِ النفيسة، وكان يوماً على الكافرين عسيراً، ولم يُسمَعْ بمثلِ هذا اليوم في عزِّ الإسْلام وأهله، ودَمْغِ الباطلِ وذُلِّه، حتىٰ إنه ذُكِرَ أنَّ بعضَ الفلاَّحينَ رآه بعضُهم وهو يقُودُ نَيِّفاً وثلاثين أسيراً من الفرنْجِ، قد ربَطهم بطُنُبِ خَيْمَةٍ، وباعَ بعْضُهم أسيراً بنَعْلٍ لَبِسَها في رجْلِه، وجرَتْ أمورٌ لم يُسمَعْ بمثلِها ولا وقعَتِ العيونُ علىٰ شكلِها، فلله الحمدُ دائماً أبداً حمداً كثيراً طيباً.

ولمَّا تمَّت هذه الوقْعةُ العظيمةُ والنِّعمةُ العميمةُ الجسيمةُ، أمرَ السلطانُ بضرب مُخَيَّمٍ عظيم، وجَلس فيه علي سرير المَمْلكَة وعن يمينه أسِرَّةٌ وعن يَساره مثلُها، وجيءَ بالأُسارَىٰ تتَهادَىٰ في قُيودها، فضُرِبت أعْناقُ جماعةٍ من مُقَدَّمِي الداويَّةِ والإسبتاريَّةِ بينَ يديْه صَبْراً، ولم يترُكْ منهم مَن كان يَذكُرُ الناسُ عنه ذكراً، ثم جيءَ بالملوك فأُجْلِسُوا عن يمينه ويَساره علىٰ مراتبِهم، فأُجْلِسَ مَلِكُهمُ الكبيرُ عن يمينه، وتحته أرناطُ إبْرِنْسُ الكرك قبَّحه اللَّهُ تعالىٰ وبينَ يديَه بقيةُ الملوك وعن يساره، فجيءَ السلْطانُ بشَرابٍ مَثْلُوجٍ من الجُلاَّب، فشرب ثم ناوَل الملكَ فشَرِبَ، ثم ناوَل مَلِكُهم أرناطَ فشرب، فغَضِبَ السلْطانُ، وقال: إنما سقَيْتُك ولم آمُرْك أنْ تسقيَه، هذا لا عَهْدَ له عندي. ثم تحوَّلَ السلْطانُ، إلىٰ خَيْمَةٍ داخلَ الخيمة واستَدْعَىٰ أرناطَ، فلمَّا أُوقِفَ بينَ يديه قامَ إليه بالسيف وقال: نعَمْ أنا أنوبُ عن رسول اللَّه ﷺ في الانْتصار لأمَّته. ثم دعاه إلىٰ الإسلام فامتنَع، فقتَله وأرسَل برأسه إلىٰ المُلوك، وقال: إنَّ هذا تعرَّضَ لسَبِّ رسول اللَّه ﷺ فقتَلْتُه، ثم قتَل السلطانُ جميعَ مَن كان في الأُسارَىٰ من الداويَّة والإسْبتاريَّة صَبْراً، وأراحَ اللَّهُ المسلمين من هذَيْنِ الجنْسَيْنِ الخبيثَيْنِ، ولِلَّه الحمدُ. ولم يُسلِمْ ممَّنْ عُرِض عليه الإسْلامُ منهم إلاَّ القليلُ، فيقالُ: إنَّه بلغَت القتْلَىٰ ثلاثينَ ألفاً، وكذلك الأُسارَىٰ كانوا ثلاثينَ ألفاً، وكان جملةُ جيْشِ الفرنْجِ ثلاثةً وستِّينَ ألفاً، ومَن سَلِم منهم مع قلَّتِهم أكثَرُهم جَرحَىٰ، فماتُوا ببلادهم بعدَ رجوعهم، وممَّن ماتَ كذلك قُومَصُ طَرَابُلُسَ، فإنَّه انهزَم جريحاً فمات ببلده بعدَ مرْجعه، لعنَه اللَّهُ، ثم أرسَل برؤساء الأُسارَىٰ ورءُوس أعْيان القتْلَىٰ، وبصليب الصلَبُوت صُحْبَةَ القاضي ابن أبي عَصْرُونَ إلىٰ دمشْقَ ليُودَعُوا في قلْعَتها، فدخَل بالصليب منْكُوساً، فكان يوماً مشْهُوداً، ولِلَّه الحمدُ والمنَّةُ.

ثم سارَ السلطانُ إلىٰ قلْعَة طَبَرِيَّةَ ففتَحها، وقد كانتْ طَبَرِيَّةُ تقاسِمُ بلادَ حَوْرَانَ والبَلْقاءَ وما حولَها من الجُولانِ وتلك الأراضيَ كلَّها بالنِّصْف، فأراحَ اللَّهُ المسلمين من تلك المُقاسَمة وتوفَّرت عليهم، ثم سارَ إلىٰ عكَّا فنزَل عليها يومَ الأرْبعاءِ سَلْخِ ربيعٍ الآخر، فافْتتَحها صُلحاً يومَ الجُمُعةِ، وأخَذ ما كان

بها من حواصلَ وأموالٍ وذخائرَ ومتاجرَ، واستَنقَذَ مَن كان بها من أسْرَىٰ المسلمين، فوجَدُوا بها أربعَةَ آلافِ أسيرٍ منهم، ففَرَّجَ اللَّهُ عنهم وللَّهِ الحمدُ، وأمَرَ بإقامةِ الجُمُعةِ بها، فكانتْ أوَّلَ جُمُعةٍ أقيمَتْ بالساحلِ بعدَ أن أخَذَه الفرنْجُ، من سبعين سنةً فلله الحمدُ دائماً. وسارَ منها إلىٰ صيدا وبَيروتَ وتلك النواحي من السواحلِ فأخَذَها، لخُلُوِّها منَ المقاتلَةِ ومن الملُوك، ثم سارَ نحوَ غَزَّةَ وعسْقَلانَ ونابُلُسَ وبَيْسَانَ وأراضِي الغَوْرِ، فملَكَ ذلك كلَّه بحولِ اللَّهِ وقوتِه، واستنابَ السلطانُ علىٰ نابُلُسَ ابنَ أُختِه حُسَامَ الدينِ عمرَ بنَ محمدِ بنِ لاجين، وهو الذي افْتتَحها؛ وكان جملةُ ما افتتَحَه في هذه المدةِ القريبةِ قريباً من خمسين بلداً كلٌّ بلدةٍ لها مُقاتِلةٌ وقلْعَةٌ ومَنَعَةٌ، فلله الحمدُ.

وغنِمَ الجيشُ والمسلمون من هذه الأماكنِ شيئاً كثيراً، وسَبَوْا شيئاً كثيراً لا يُحَدُّ ولا يُوصفُ، واستبشَرَ الإسلامُ وأهلُه شرقاً وغرباً بهذا النصرِ العظيمِ والفتوحاتِ الهائلة. وترَكَ السلْطانُ جيُوشَه تَرْتَعُ في هذه الفتوحاتِ والغنائمِ الكثيرةِ مدةَ شُهورٍ؛ ليستَريحُوا ويُجِمُّوا أنفُسَهم وخُيولَهم ليتأهَّبوا لفَتْحِ بيتِ المقْدسِ الشريفِ، وطار في النَّاسِ أن السلطانَ عزَم علىٰ فتحِ بيتِ المقدسِ، فقصَده العلماءُ والصالحون والمُتَطوِّعةُ من كلِّ فجٍّ عميقٍ، وجاء أخوه العادلُ بعدَ وقْعَةِ حطِّينَ وفتحِ عَكَّا، ففتح بنفْسه حُصوناً كثيرةً أيضًا، فاجْتمَع من عبادِ اللَّهِ ومن الجيوشِ المتطوعةِ خَلْقٌ كثيرٌ وجَمٌّ غفيرٌ، فعندَ ذلك قصَدَ السلْطانُ بيتَ المقدس بمَنْ معه، كما سيأتي بيانُه.

وقد امْتدَح الشعراءُ الملكَ صلاحَ الدينِ بسببِ وَقْعَةِ حطِّينَ فقالُوا وأكثَرُوا، وأطابوا وأطنَبوا، وكتَب إليه القاضي الفاضلُ من دمَشْق وكان مقيمًا بها لمرَضٍ نالَه: لِيَهْنَ المولَىٰ أنَّ اللَّهَ قد أقامَ به الدينَ القيِّمَ، وأنه كما قيل: أصبحتَ مَولايَ ومَولَىٰ كلِّ مسلمٍ. وأنه قد أسبَغ عليه النِّعمتين؛ الباطنةَ والظاهرةَ، وأورثَه الملُكين؛ مُلكَ الدنيا ومُلكَ الآخرة، كتَب المملُوكُ الخدْمةَ والرُّءوسُ إلى الآنَ لم تُرفَعْ من سجُودها، والدموعُ لم تُمْسَحْ من خدُودها، وكلَّما فكر المملُوكُ أنَّ البِيَعَ تعودُ وهي مَساجِدُ، والمكانَ الذي كان يقالُ فيه: إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ، يقالُ اليومَ فيه: إنَّه الواحدُ. جدَّد للَّه شُكْراً تارَةً يَفيضُ من لسانه، وتارَةً يفيضُ من أجفانه، وجزَىٰ اللَّهُ يوسُفَ خَيْراً عن إخْراجه من سجْنه، والمَماليكُ ينْتَظِرُونَ أمْرَ المولَىٰ، فكُلُّ مَن أرادَ أنْ يدخُلَ الحمَّامَ بدمَشْقَ قد عوَّل علىٰ دخولِ حمَّامِ طَبَرِيَّةَ.

تلكَ المكارمُ لا قَعْبانِ من لبنٍ وذلك الفَتْحُ لا عمَّانَ واليَمَنِ

وذلك السيفُ لا سَيْفُ ابنِ ذي يَزَنِ

ثم قالَ: وللأَلسنَةِ بعْدُ في هذا الفتحِ سَبْحٌ طويلٌ وقولٌ جليلٌ.

ذكر فتح بيت المقدس في هذه السنة واستنقاذه من أيدي النصارى بعد ثنتين وتسعين سنة

لمّا افتتح السلطانُ ما حولَ بيتِ المقدسِ مِن الاماكنِ المباركة وما يقرُبُ مِن تلك السواحلِ المتقدِّم ذكرُها والإشارةُ إليها، أمَرَ العساكرَ فاجتمعَت والجيوشَ المُتفرِّقةَ في البُلدانِ فاتلفَتْ، وسارَ نحوَ بيتِ المَقدسِ الشريفِ يومَ الأحدِ، في الخامسَ عشَرَ مَن رجَبٍ مِن هذه السَّنَةِ أعني سنةَ ثلاثٍ وثمانين وخَمْسِمائةٍ فنزَل غربيَّ بيتِ المقدسِ وقد حَصَّنَت الفرنجُ، لعَنهم اللَّهُ، الاسوارَ بالمقاتلة، وكانوا ستِّين ألفَ مُقاتِلٍ، دونَ بيْتِ المَقدِسِ أو يزيدُون ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ﴾ [الانفال: ٣٤]، وكان صاحِبُ البلدِ يومئذٍ رجلاً يُقالُ له: باليانُ بنُ بارزانَ. ومعه مَن سَلِمَ من وَقْعةِ حِطِّينَ يومَ الْتقَى الجَمْعانِ، مِن الدَّاويَّةِ والإسبتاريَّةِ أتْباعِ الشَّيطانِ، عليهم لعائنُ اللَّهِ اجمعين، فأقامَ السلطانُ بمنْزِله المذكورِ خمسةَ أيامٍ، وسلَّم إلى كلِّ طائفةٍ من جيشه المنصورِ ناحيةً مِن أبرجةِ السورِ، ثم تحوَّل إلى ناحيةِ الشَّمالِ؛ لأنَّه رآها أوْسعَ وأنسبَ للمَجالِ، والجلادِ والنِّزالِ، وقاتَلَ الفرنجُ دونَ البلَدِ قتالاً هائلاً، وبذَلُوا في نُصرةِ قُمَامةَ والقيامة بذلاً طائلاً، واستُشْهِد بعضُ أمراءِ المسلمينَ إلى رحمةِ ربِّ العالمينَ، فحَنِقَ عندَ ذلك كثيرٌ من أمراءِ الإسلامِ، واجتَهدُوا في القتالِ بكلِّ خَطِّيٍّ وحُسامٍ، وقد نُصبتِ المجانيقُ والعَرَّاداتُ، وغنَّتِ السيوفُ وعُملتِ السَّمهرياتُ، والعيونُ تنظُرُ إلى الصُّلْبانِ وهي مَنصوبةٌ فوقَ الجُدْرانِ، حتى فوقَ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ قبلةِ أهلِ الأديانِ مِن قديمِ الأزمانِ، فزادَ ذلك أهلَ الإيمانِ الحَنَقَ الكثيرَ وشدَّةَ التَّشْميرِ، فوُجِد يومٌ عسيرٌ على الكافرينَ غيرُ يَسيرٍ، فبادَر السلطانُ أيدَه اللَّهُ بأصْحابِه إلى الزاويةِ الشرقيَّةِ الشماليَّةِ مِنَ السورِ فنقَبها وعلَّقَها وحشَاها بالنيرانِ وأحْرَقَها، فسقَط ذلك الجانبُ، وخرَّ البُرْجُ برُمَّتِه، فإذا هو واجبٌ، فلمَّا شاهَد الفرنجُ ذلك الحادثَ المُفْظِعَ، والخَطْبَ المُؤلمَ لهم المُوجِع، قصدَ أكابرُهم السلْطانَ وتشَفَّعُوا إليه بكلِّ إنسانٍ أنْ يُعْطِيَهمُ الامانَ، فامتنَعَ وقال: لا أفْتَحُها إلاَّ كما افْتتَحْتُموها عَنْوَةً، ولا أترُكُ بها أحداً مِن النصارى إلا قتَلْتُه كما قتلْتُم أنتم مَنْ كان بها مِن المسلمينَ، فطلَب صاحِبُها باليانُ بنُ بارزانَ من السلطانِ الامانَ ليحْضُرَ عندَه فأمَّنَه، فلمَّا حضَر ترقَّقَ له، وتشفَّعَ إليه بكُلِّ ما أمْكنَه، فلم يُجِبْه إلى الأمانِ لهم، فقالوا: لئن لم تُعطِنا الامانَ رجَعْنا فقتَلْنا كلَّ أسيرٍ من المسلمين بأيْدِينا وهم قريبٌ مِن أرْبعَةِ آلافٍ وقتَلْنا ذَرارِيَّنا، وخرَّبنا الدُّورَ والأماكنَ الحسَنَةَ، وأتلَفْنا ما بأيْدينا مِن الأموالِ، وألقينا قُبَّةَ الصَّخْرَةِ، ولا نُبْقِي مُمْكناً في إتلافِ ما نقدرُ عليه، وبعدَ ذلك نقاتِلُ قتالَ الموتِ، فلا يُقْتَلُ واحدٌ منَّا حتى يَقْتُلَ أعداداً منكم، فماذا ترْتَجِي بعدَ هذا مِنَ الخيرِ؟

فلمَّا سمعَ السلطانُ ذلك أجابَ إلى الصُّلحِ، على أنْ يَبْذُلَ كلُّ رجُلٍ منهم عن نفسِه عشَرةَ دنانيرَ،

وعن المرأةِ خمسةَ دنانيرَ، وعن كلِّ صغيرٍ وصغيرةٍ دينارَيْنِ، ومَنْ عَجَز عن ذلك كان أسيراً للمسلمين، وأنْ تكونَ الغَلاَّتُ والأسلحةُ والدُّورُ للمسلمينَ، ويتحوَّلوا منها إلى مأمَنِهم وهي مدينةُ صُورَ.

فكُتِبَ الصُّلحُ على ذلك، ومن لا يبذُلُ ما شُرِطَ عليه إلى أربعينَ يوماً فهو أسيرٌ، فكانَ جملةُ مَنْ أُسِرَ بهذا الشرطِ ستَّةَ عشَرَ ألفَ إنسانٍ؛ من رجالٍ ونساءٍ وولْدانٍ، ودخل السلطانُ والمسلمونَ البلدَ يومَ الجمُعة قُبيلَ وقتِ الصلاةِ بقليلٍ، وذلك يومَ السابعِ والعشْرينَ من رجَبٍ، قال العمادُ: وهي ليلةُ الإسْراءِ برسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقْصَى إلى السمواتِ العُلاَ. قال الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامةَ: وهو أحدُ الأقوالِ في الإسْراء، واللَّهُ تعالى أعلمُ. ولم يتَّفقْ للمسلمينَ صلاةُ الجُمُعة يومئذٍ، وأنَّ السلْطانَ خطَب بنفْسه بالسَّوادِ يومئذٍ، والصحيحُ أنَّ الجُمُعةَ لم يُمكنْ إقامَتُها يومئذٍ لضيقِ الوقتِ، وإنَّما أقيمَتْ في الجمُعةِ المُقْبِلَةِ، وكان الخطيبُ القاضيَ محْيِي الدينِ محمدَ بنَ عليٍّ، القُرشيَّ ابنَ الزكيِّ، كما سيأتي قريباً.

ولكنْ نُظِّفَ المسجدُ الأقصَى يومئذٍ ممّا كان فيه مِنَ الصُّلْبانِ والرُّهْبانِ والخنَازيرِ، وخُرِّبَتْ دورٌ للداويَّة كانوا قد بَنَوْها غربيَّ المحرابِ الكبيرِ، واتخَذُوا المحْرابَ حَشَّاً، لعنَهم اللَّه تعالى، فنُظِّف المسجدُ من ذلك كُلِّه، وأُعيدَ إلى ما كان عليه في الأيامِ الإسلاميَّة والدولة المحمَّدية، وغُسلت الصَّخْرةُ بالماء الطاهرِ، وأُعيد غسلُها بماءِ الورْدِ الفاخرِ، وأُبرزَتْ للناظرينَ، وقد كانتْ مَغْمُورةً مَسْتُورةً مَحْجُوبةً عن الزائرين، ووُضعَ الصليبُ المنصوبُ عن قُبَّتِها، وعادَتْ إلى حُرْمَتِها، وقد كان الفرنْجُ قطَعُوا منها قطَعاً فباعُوها إلى ملوكِ البُحورِ بزنَتِها مِن الذهبِ، فتعذَّر استعادةُ ما نقَص منها وما ذهبَ.

وقُبِضَ مِنَ الفرنجِ ما كانُوا بذَلُوه عن أنفُسِهم مِن الأمْوالِ، وأطْلَق السلطانُ خلقاً منهم مِن بَناتِ الملوكِ بمَنْ معَهُنَّ مِن النساءِ والرجالِ، ووقعَتِ المُسامَحةُ في كثيرٍ منهم، وشُفع في أُناسٍ فعُفيَ عنهم، وفرَّقَ السلطانُ جميعَ ما قُبِض منهم مِن الذهبِ في العَسْكَرِ، ولم يدَعْ منه شَيئاً ممَّا يُقْتَنَى ويُدَّخَرُ. وكان، رحِمهُ اللَّهُ، حليماً كريماً مِقْداماً شجاعاً رحيماً، أسألُ اللَّهَ تعالى أن يُجدِّدَ رحمتَه عليه، وأن يُقْبِلَ بوجهِه الكريمِ إليه.

ذكرُ أوَّلِ جمُعةٍ أقيمَتْ ببيتِ المقدسِ بعدَ فتحِه في الدولةِ الصَّلاحيةِ

لمَّا نُزِّه البيتُ المُقَدَّسُ ممَّا كان فيه مِن الصُّلْبانِ والنَّواقيسِ، والرُّهْبانِ والخنازيرِ والقساقيسِ، ودخَله أهلُ الإيمانِ، ونُودِي بالأذانِ وهرَب الشيطانُ وقُرِئَ القرآنُ، وطَهُر المكانُ، فكان إقامةُ أوَّلِ جمعةٍ فيه في اليومِ الرابعِ من شعبانَ بعد يومِ الفتحِ بثمانٍ فنصب المنبرُ إلى جانبِ المحْرابِ المطهَّرِ، وبُسطَتِ البُسُطُ الرفيعةُ في تلك العِراصِ الوسيعةِ، وعُلِّقتِ القَناديلُ وتُلِيَ التنْزيلُ عوضاً عمّا كان يُقرأُ مِن

التحريف في الإنجيل، وجاء الحقُّ وبطَلَت تلك الأباطيلُ، وصُفَّت السَّجَّاداتُ وكثُرت السجَداتُ، وتنوَّعت العباداتُ، وأُديَت الدعَواتُ، ونزلت البَركاتُ، وانجلَت الكُرُباتُ، وأُقيمَت الصَّلَواتُ، ونطَق الأذانُ، وخرِسَ الناقوسُ، وحضَر المؤذِّنون وغاب القسوسُ، وطابت الأنفاسُ، واطمأنت النفوسُ، وأقبلَت السُّعودُ وأدْبَرت النُّحُوسُ، وحضَر العُبّادُ والزهّادُ والأبدالُ والأقطابُ والأوتادُ، وعُبِدَ الواحدُ، وكثُر الراكعُ والساجدُ، والقائمُ والقاعدُ، وامتلأ الجامعُ، وسالَتْ لرقة القلُوب المَدامع، وقال الناسُ: هذا يومٌ كريمٌ وفضلٌ عظيمٌ وموسمٌ وسيمٌ، وهذا يومٌ تُجابُ فيه الدعواتُ وتُصَبُّ البَركاتُ وتسيل العَبراتُ وتُقالُ العَثَراتُ، فأذَّنَ المؤذِّنونَ للصلاة وقتَ الزَّوال، وكادَت القلُوبُ تطيرُ مِنَ الفرح بتلك الحال، ولم يكُن السلطانُ إلىٰ تلك الساعة عَيَّن خطيباً، وقد تهيَّأ لها خلقٌ من العلماء خوفاً أن يُدعَىٰ إليها أحدُهم فلا يكونَ نجيباً، فبرَز للخطباء المرسُومُ السلطانيُّ الصَّلاحيُّ، وهو في قُبَّة الصَّخْرَة الغَرَّاء، أن يكون القاضي مُحْيي الدين بنُ الزَّكيِّ اليومَ خطيباً، فلبِسَ الخِلْعَةَ السوْداءَ وصعد المنبرَ، وقد كسَاه اللَّهُ البَهاءَ، وأكرَمه بكلمة التقوىٰ وأعطاه السكينة والوَقار والسناءَ، فخطَب بالناس خُطبةً عظيمةً سَنِيَّةً فصيحةً بليغةً، ذكَر فيها شرَفَ البيت المُقَدَّس، وما ورَد فيه من الفضائل والتَّرْغيبات، وما فيه مِنَ الدلائل والأمارات، وما مَنَّ اللَّهُ به علىٰ الحاضرين من هذه النِّعمة التي تعدلُ الكثيرَ من القُربات، وقد أورَدها الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ في «الروْضتَيْن» بطُولها، فكان أوَّلَ ما قال حينَ تكلَّم:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ثم أورَد تحميدات القرآن كلَّها، ثم قال: الحمدُ للَّه مُعزِّ الإسلام بنَصْره، ومُذلِّ الشِّرك بقَهْره، ومصَرِّف الأمور بأمْره، ومُديم النِّعَم بشُكْره، ومُستَدْرِج الكافرين بمكره، الذي قدَّر الأيامَ دُوَلاً بعَدْله، وجعَل العاقبةَ للمتَّقينَ بفَضْله، وأفاءَ علىٰ عباده من ظلِّه، وأظهَر دينه علىٰ الدِّين كلِّه، القاهر فوقَ عباده فلا يُمانَعُ، والظاهر علىٰ خليقَته فلا يُنازَعُ، والآمر بما يشاءُ فلا يُراجَعُ، والحاكم بما يريدُ فلا يُدافَعُ، أحْمَدُه علىٰ إظْفاره، وإعْزازه لأوْليائه ونَصْره لأنصاره، وتطهيره بيتَه المقدسَ من أدْناس الشِّرْك وأوْضاره، حمْدَ مَن استشعَر الحمدَ باطنَ سرِّه وظاهرَ جهاره، وأشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلِدْ ولم يولَدْ، ولم يكُن له كفُواً أحدٌ، شهادةَ مَن طَهَّرَ بالتوحيد قلبَه، وأرْضَىٰ به ربَّه، وأشهَدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، رافعُ الشَّكِّ وداحضُ الشِّرْك، وراحضُ الإفك، الذي أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلىٰ هذا المسجد الأقْصَىٰ، وعُرج به منه إلىٰ السموات العُلاَ، إلىٰ سدْرَة المُنتهىٰ، عندَها جنَّةُ المأوَىٰ، إذ يَغْشَىٰ السدرةَ ما يَغْشَىٰ، ما زاغَ البَصَر وما طغَىٰ، صلَّىٰ اللَّه عليه وعلىٰ خليفته الصِّديق السابق إلىٰ الإيمان، وعلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطَّاب أوَّلَ

مَن رفَع عن هذا البيت شعارَ الصُّلبانِ، وعلى أميرِ المؤمنينَ عثمانَ بنِ عفَّانَ ذي النُّورَيْنِ جامعَ القرآنِ، وعلى أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالبٍ مُزلزِلِ الشرْكِ، ومكسِّرِ الأوثانِ، وعلى آلِه وأصْحابِه والتابعين لهم بإحْسانٍ.

ثم ذكَر المَوْعظةَ، وهي مشتملةٌ على تغْبيطِ الحاضرينَ على ما يسَّرَه اللَّهُ على أيْديهم مِن فتحِ بيتِ المَقْدِسِ، الذي مِن شأنِه كذا وكذا، فذكَر فضائلَه ومآثِرَه، وأنَّه أولُ القِبْلتَيْنِ، وثاني المسجدَيْنِ، وثالث الحرمَيْنِ، لا تُشَدُّ الرحالُ بعدَ المسجدَيْنِ إلا إليهُ، ولا تُعْقَدُ الخناصِرُ بعدَ الموْطنَيْنِ إلا عليه، وإليه أُسْرِيَ برسولِ اللَّهِ ﷺ مِن المسجدِ الحرامِ، وصلَّى فيه بالملائكةِ المُقرَّبين والأنبياءِ والرسُلِ الكرامِ، ومنه كان المِعراجُ إلى السمواتِ، ثم عادَ إليه، ثم سارَ منه إلى المسجدِ الحرامِ على البراقِ، وهو أرضُ المَحْشَرِ والمَنْشَرِ يومَ التَّلاقِ، وهو مقرُّ الأنبياءِ ومقْصِدُ الأولياءِ، وقد أُسِّسَ على التقْوَى مِن أوَّلِ يومٍ.

قلتُ: ويقالُ: إنَّ الذي أسسَه أولاً يعقوبُ عليه السَّلامُ بعدَ أن بنَى الخليلُ عليه السلامُ المسجدَ الحرَامَ بأربعين سنةً، كما جاء في «الصحيحين»، ثم جدَّد بناءَه سليمانُ بنُ داودَ عليهما السَّلامُ، كما ثبَت به الحديثُ في «المُسْنَد» و«السُّنَنِ»، و«صحيحِ ابنِ خُزَيْمَةَ»، وابنِ حبَّانَ والحاكمِ وغيرِهم، وسأل سليمانُ عليه السلامُ اللَّهَ عندَ الفراغِ منه خلالاً ثلاثًا؛ حُكْمًا يصادفُ حُكْمَه، ومُلْكًا لا ينْبَغي لأحدٍ مِن بعدِه، وأنَّه لا يأتي أحدٌ هذا المسجدَ لا يَنْهَزُه إلا الصلاةُ فيه إلا خرَج مِن ذُنوبِه كيومِ ولَدَتْه أمُّه.

وذكَر الخطيبُ تمامَ الخُطبتَيْنِ، ودعَا للخليفةِ العباسيِّ، ثم للسلْطانِ الملكِ الناصرِ صلاحِ الدينِ، رحمهما اللَّهُ تعالى، وبعدَ الصلاةِ جلَس الشيخُ زَيْنُ الدينِ أبو الحسَنِ عليُّ بنُ نجا المِصْريِ على كُرْسيِّ الوعظِ بإذْنِ السلْطانِ، فوعَظ الناسَ وكان وقتًا مشهودًا وحالاً محمودًا، فللهِ الحمدُ والمِنَّةُ. واستمرَّ القاضي محيي الدينِ بنُ الزكيِّ يخطُبُ بالناسِ في أيامِ الجُمَعِ أرْبعَ جُمُعاتٍ، ثم قرَّر السلطانُ للقُدْسِ خطيبًا مستقرًّا، وأرسَل إلى حلبَ فاستحضَر المِنْبرَ الذي كان الملكُ العادلُ نُورُ الدينِ محمودٌ قد استعمَله لبيتِ المَقْدسِ، وقد كان يُؤمِّلُ أن يكونَ فتحُه على يدَيْه، فما كان إلا على يدَيْ بعضِ أتْباعِه بعدَ وَفاتِه، رحمه اللَّهُ تعالى.

نكتة غريبة

قال الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامة في «الروضتَيْن»: وقد تكلَّم شيْخُنا أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدٍ السَّخَاويُّ في تفسيرِه الأوَّلِ، فقال: وقع في تفسيرِ أبي الحكمِ الأندلسي يعني ابنَ بَرَّجانَ في أولِ سُورةِ الرومِ إخْبارٌ عن فتحِ بَيْتِ المَقْدسِ، وأنَّه يُنْزَعُ مِن أيدي النصارى سنةَ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائةٍ. قال السخاويُّ: ولم أرَهُ أخَذ ذلك مِن علمِ الحُروفِ، وإنَّما أخذه فيما يزعُم مِن قوْلِه:

﴿الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمِ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١، ٤] فبنَى الأمرَ على التاريخ كما يفعَلُ المنجِّمُون، ثم ذكَر أنَّهم يغلِبُونَ في سنَة كذا، ويُغلَبُونَ في سنَة كذا، على ما تقتضيه دوائرُ التقدير. ثم قال: وهذه نَجَامَةٌ وافَقت إصابةً، إنْ صحَّ أنَّه قال ذلك قبلَ وقُوعه، وكان في كتابه قبلَ حُدوثه، قال: وليس هذا من قَبِيلِ علم الحروف، ولا من باب الكرامات؛ لأنَّها لا تُنَالُ بحسَاب. قال: وقد ذكَر في تفسير سُورَة القَدْر أنَّه لو عُلِمَ الوقتُ الذي نزَل فيه القرآنُ لُعلمَ الوقتُ الذي يُرفَعُ فيه.

قلتُ: ابنُ بَرَّجانُ ذكَر هذا في تفسيره في حدود سنَة ثِنْتَيْنِ وعشرين وخمسمائة، ويقالُ: إنَّ الملك نور الدين أُوقف على ذلك فطمع أنْ يعيشَ إلى سنَة ثلاث وثمانين، لأنَّ مولِدَه في سنَة إحْدَى عشْرَةَ وخَمْسمائَة، فتهَيَّأ لأسْباب ذلك حتى إنَّه أعدَّ مِنْبَرًا عظيمًا لبيت المقْدس إذا فتَحه اللَّهُ على يديه. واللَّهُ أعلمُ.

وأمَّا الصَّخْرَةُ العظيمةُ فإنَّ السلطانَ أزالَ ما حولَها وعندَها من المُنْكَرات والصُّوَرِ والصُّلْبان، وأظهرَها بعد ما كانت خَفيَّةً مسْتَورةً غيرَ مرئية، وأمَر الفقيهَ ضياءَ الدِّين عيسى الهَكَّاريَّ أنْ يعمَلَ حولَها شَبَابِيكَ من حديد، ورتَّبَ لها إمامًا راتبًا، ووقَفَ عليه رزْقًا جيِّدًا، وكذلك على إمام محْرَاب الأقصَى، وعمل للشافعيَّة المدْرَسةَ الصَّلاحيَّةَ ويُقالُ لها: الناصريَّةُ. أيضًا، وكان موضعَها كنيسَةً على صند حَنَّةَ أي: قبرِ حَنَّةَ أمِّ مَرْيم، عليها السلامُ، وَوقَف على الصوفية رباطًا كان دارًا للبَتْرَك إلى جنْب القُمامَة، وأجرى على الفقهاء والفقراء الجَامَكيّات والجرايات، وأرصَد الختَمات والرَّبَعات في أرجَاء المسجد الأقصَى، لمن يقرأُ أو ينظُرُ فيها من المقيمين والزائرين.

وتنَافسَ بنُو أيُّوبَ فيما يفعَلُونَه من الخَيْرات بالقُدْس الشَّريف للقادمين والظاعنين والقاطنين، فجزاهم اللَّهُ خيرًا أجمعين، وعزَم السلْطانُ على هدم قُمَامَةَ وجَعلها دكًّا لتنحَسمَ مادةُ النصارَى من بَيت المقْدس، فقيل له: إنَّ هؤلاء لا يتْرُكون الحج إلى هذه البقعة. ولو تركتها قاعًا صَفْصَفًا، وقد فتح هذه البلدَ أمير المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب وترك هذه الكنيسةَ بأيْديهم، فلك في ذلك أُسْوَةٌ. فأعْرَض عنها وتركَها على حالها تأسِّيًا بعمرَ بنِ الخطَّاب أحد الخُلَفاء الراشدين والأئمة المَهديِّين، ولم يتْرُكْ بها من النصارى سوَى أرْبَعة يخْدُمونها، وحال بينَ النَّصارى وبينها، وهدَم المقابرَ التي كانت لهم عندَ باب الرَّحْمَة، وعفَّ آثارَها، وهدَم ما كان هناك منَ القِبَاب، وعجَّل دَمارَها.

وأمَّا الأُسارَى المسلمون الذين كانوا بالقُدْس؛ فإنَّ السلطانَ أطلَقهم، وأطلَق لهم إعْطاءات هنيَّةً، وكَساهُم حُلَلاً سنيةً، وانطلق كلٌّ منهم إلى وطنه، وعاد إلى إهْله وسكَنه، فلله الحمدُ على نعَمه ومِنَنه.

فصل

لما قرّر السلطانُ صلاحُ الدين بالقُدْسِ الشريفِ ما ذكرناه انْفَصل عنها في الخامسِ والعشرين من شعبانَ، وأمَر ولَده العزيزَ بالرُّجُوع إلى مصرَ، وسار السلطانُ بجيشه فقصَد مدينةَ صُورَ، وكانت قد تأخّرت من بين تلك النواحي، وقد اسْتحوذ عليها بعد وقْعة حطِّينَ رجلٌ من التُّجار يقالُ له: المرْكيسُ، فحصَّنها وضبَط أمْرَها وحفَر حولَها خنْدقًا مَن البحرِ إلى البحرِ، وجُمْهورُها في البحْرِ، وجاء السلْطانُ بجيشه فحاصَرها مدةً، واستدْعَى بالأسْطُول من الديار المصريَّة في البحرِ، فاحتاط بها بـرًّا وبحرًا، فعدَت الفِرنْجُ في بعْض الليالي على خَمْس شوانٍ من الأسْطُول، فملَكَتْها ونكَبتها، فأصبَح المسلمون واجمينَ، وقد دخَل عليهم البَرْدُ وقلَّت الأزْوادُ، وكثُرَت الجراحاتُ وكَلَّ الأمراءُ من المُحاصَرات، فسألوا السلطانَ أنْ ينصرفَ بهم إلى دِمشْقَ في هذا الوقت حتى يستريحُوا ثم يعودُوا إليها بعد هذا الحين، فأجابَهم بعدَ تَمنُّعٍ منه وذلك أنَّ السُّورَ من صورَ كان قد هُدِم أكثرُه ولم يبْقَ إلا الفَتحُ والنُّجْحُ، فتوجّه إلى دِمشقَ واجْتاز في طريقه على عَكَّا، وتفرَّقَت العساكرُ كلٌّ إلى بلده ورُسْتاقه، مستصحبًا كثرةَ حنينه إلى أهله ووطنه واشتياقه.

وأمَّا السلطانُ فإنهَ لَّما وصَل إلى عكَّا نزَل بقَلْعَتها وأسكَن ولدَه الأفضلَ بُرْجَ الداويَّة، وولَّى نيابتَها عزَّ الدين جُرْدَيكَ، وقد أشار بعْضُهم على السلطان بتَخْريب مدينة عكَّا خوفًا من عوْد الفرنجِ إليها، فكاد، ولم يفعَلْ، ولَيْتَه فعَل، بل وكَّلَ بعمارتها وتجْديد محاسنها بهاءَ الدين قراقُوشَ التَّقَويَّ، ووقَفَ دارَ الإسبتارِ نصْفَيْن على الفقهاءِ والفقراءِ، وجعَل دارَ الأسقُف مَارَسْتانًا ووقف على ذلك كلّه أوْقافًا دارَّةً، وولَّى نظَرَ ذلك لقاضيها جمالِ الدين ابنِ الشيخ أبي النَّجيب، وهو في جميع ذلك بآرائه مُصيبٌ. ولَّما فرَغ السلطانُ من هذه الحروب، وأزال عن المسلمين تلك الكُرُوبَ، وعاد إلى دمَشْقَ مؤيَّدًا منْصورًا، أبهج العيونَ وسرَّ القلوبَ وجاءته رسُلُ المُلُوك بالتَّهاني من سائر الأقْطار والأمْصار بالتُّحَف والهدايا التي تَبْهَرُ الأبصارَ، وكتَب الخليفةُ إليه يعتِبُ عليه في أشْياءَ منها؛ أنَّه بعَث في بشارةِ الفتح بحطِّينَ مع شابٍّ بغْداديٍّ كان وَضيعًا عندَهم، لا قدرَ له ولا قيمةَ، وأرسَل بفَتْح القُدْسِ الشريفِ معَ نجابٍ، ولَقَّبَ نفْسَه بالملكِ الناصرِ مُضَاهاةً للخليفة الناصرِ، فتلَقَّى الرسولَ بالبِشْرِ واللُّطْفِ، ولم يَظْهِرْ له إلاَّ السمعَ والطاعةَ، وأرسَل يعتذِرُ ممَّا وقَع بأنَّ الحربَ كانتْ قد شغَلَتْه عن التَّرَوِّي في كثيرٍ من الأمورِ، وأمَّا لقَبُه بالناصر فهو من أيام الخليفة المُسْتَضِيء، ومع هذا فمَهْمَا لَقَّبَني به أميرُ المؤمنين فهو الذي لا يعْدَلُ عنه وتأدَّبَ مع الخليفة غايةَ الأدَب، رحمه اللَّهُ تعالى.

وفي هذه السنة كانت وقعةٌ عظيمةٌ ببلاد الهِنْد بينَ الملك شهاب الدِّين الغُوريِّ صاحبِ غَزْنَةَ، وبينَ ملكِ الهندِ الكبيرِ، فأقبَلَ الهنُودُ في كثيرٍ من الجنودِ، ومعهم أرْبعةَ عشَرَ فيلاً، فانهزَمَتْ ميْمَنَةُ

المسلمين وميسرتهم، فقيل للمَلك: انجُ بنفسك. فما زاده إلا إقدامًا، فحمل على الفيلة فجرح بعضها - وجُرْحُ الفيل لا يندمل - فرماه بعضُ الفيالة بحَرْبَة في ساعده فخرجت من الجانب الآخر فخرَّ صريعًا، فحملت الهندُ عليه ليأخذُوه، فجاحف عنه أصحابه ليحمُوه، فجرت عنده حربٌ لم يسمع بشدتها في موقف، فغلب المسلمون فخلَّصوا ملكهم واحتملوه على كواهلهم في مَحَفَّة عشرين فرسخًا، وقد نزفه الدمُ، فلمّا تراجع إليه جيشه أخذ في تأنيب الأمراء، وحلف ليأكُلَنَّ كلُّ أمير عليقةَ فرسه، وما أدخلهم غَزْنةَ إلا مُشاةً حفاةً.

وفي هذه السنة ولدت امرأةٌ من سَواد بغدادَ بنتًا لها أسنانٌ.

وفيها قتل الخليفةُ الناصرُ أستاذَ داره أبا الفضل بنَ الصاحب، وكان قد استحوذ على الأمور ولم يَبْقَ للخليفة معه كلمةٌ، ومع هذا كان عفيفًا عن الأموال، جيِّدَ السِّيرة، فأخذ منه الخليفةُ شيئًا كثيرًا من الحواصل والأموال.

وفيها استوزر الخليفةُ أبا المظفَّر عبيدَ اللَّه بنَ يونسَ ولقَّبه جلالَ الدين، ومشى أهلُ الدولة في ركابه حتى قاضي القضاة أبو الحسن بنُ الدامغانيِّ، وقد كان ابن يونسَ هذا شاهدًا عنده، فكان القاضي يقول، وهو يمشي: لعَنَ اللَّهُ طولَ العمر. فمات القاضي في آخر هذه السنة، رحمه اللهُ تعالى، وقد حكم في أيام عدة من الخلفاء وهو من بيته.

وممَّن توفِّي في هذه السنة - أعني سنةَ ثلاث وثمانين - من الأعيان:

الشيخُ عبدُ المُغيث بنُ زُهَيْر الحربيُّ كان من صُلَحاء الحنابلة، وكان يُزار، وله مصنفٌ في فضل يزيدَ بن مُعاوية، أتى فيه بغرائبَ وعجائبَ، وقد ردَّ عليه أبو الفرَج ابنُ الجَوْزيِّ في هذا الكتاب، فأجادَ وأصابَ، ومن أحسن ما اتفق لعبد المُغيث هذا أنَّ بعضَ الخلفاء - وأظنُّه الناصرَ - جاءه للزيارة مختفيًا، فعرفَه الشيخُ ولم يعلمْه أنَّه قد عرفه، فسأله الخليفةُ عن يزيدَ أيُلْعَنُ أم لا؟ فقال: لا أُسوِّغُ لعْنَه؛ لأنِّي لو فتحتُ هذا البابَ للَعَن الناسُ خليفتَنا. قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّه يفعلُ أشياءَ مُنْكَرةً كثيرةً، منها كذا وكذا. ثم شرَع يعدِّدُ على الخليفة، ما يقعُ منه من المنكرات لينْزَجِر عنها، فتركه الخليفةُ، وخرج من عنده وقد أثَّرَ كلامُه له فيه، ثم كانت وفاتُه في المحرم من هذه السنَة، ورحمه اللهُ.

وفيها: تُوفِّي الشيخُ عليُّ بنُ خطَّاب بن ظَفَر العابدُ الناسكُ، أحدُ الزهَّاد وذَوي الكرامات، وكان مُقامُه بجزيرة ابن عمرَ. قال ابنُ الأثير في «الكامل»: ولم أرَ مثلَه في حُسْن خلُقه وسَمْته وكرَمه وعبادته، رحمه اللَّهُ.

الأميرُ شمسُ الدين محمدُ بنُ عبد الملك بن مقدَّم أحدُ نُوَّاب الملك الناصر صلاح الدين، لمَّا فُتح بيتُ المَقْدس أحْرَم جماعةٌ في زمن الحجِّ منه إلى المسجد الحرام، فكان أميرَ الحاجِّ تلك السنَة، فلمَّا

كان بعَرَفَةَ ضرَبَ الدبادِبَ ونشَرَ الألْوِيَةَ، وأظهَرَ عزَّ السلْطان صلاحِ الدينِ، فغضِبَ طاشْتِكِينُ أميرُ الحاجِّ مِن جهةِ الخليفةِ، فزَجَرَه عن ذلك فلم يسمَعْ، فاقْتَتَلا فجُرِحَ ابنُ مقدَّمٍ، وماتَ في اليومِ الثاني بمِنًى، رحِمه اللَّهُ، ودفِن هنالك، وجرَتْ خطوبٌ كثيرةٌ، ولِيمَ طاشتِكِينُ على ما فعل، وعُزِل عن منصبِه.

محمدُ بنُ عُبَيْد اللَّه بنِ عبد اللَّه، سبْطُ ابنِ التَّعاويذيِّ الشاعرُ، أَضَر في آخرِ عمرِه وقد جاوَزَ الستينَ سنةً، وكانت وفاتُه - رحِمه اللَّهُ - في شوَّالٍ مِن هذه السنةِ.

وفي خامسِ رمضانَ تُوفِّي الفقيهُ أبو الفتحِ نَصْرُ بنُ فتيانَ بن مَطرٍ الحنْبليُّ المعروفُ بابنِ المَنِّيِّ، وكان زاهدًا عابدًا، مولدُه سنةَ إحْدَى وخمسمائةٍ، وممَّنْ تفَقَّهَ عليه مِنَ المشاهيرِ الشيخُ مُوَفَّقُ الدينِ بنُ قُدامةَ، والحافظُ عبدُ الغنيِّ، ومحمدُ بنُ خلَفِ بنِ راجحٍ، والناصحُ عبدُ الرحمنِ بنُ النجمِ بنِ عبدِ الوهَّابِ الحنبليُّ، وعبدُ الرَّزَّاقِ ابنُ الشيخِ عبدِ القادرِ وغيرُهم.

وفيها: توفِّي قاضي القضاةِ ببغدادَ أبوالحسَنِ بنُ الدامْغانيِّ وقد حكَم في أيامِ المُقْتفِي ثم المُسْتَنْجِدِ، ثم عُزِلَ وأُعيدَ في أيامِ المُسْتَضِيءِ، وحكَم للناصرِ حتى توُفِّي في هذه السنَةِ، رحِمه اللَّهُ.

ثمَّ دخلتْ سنةُ أربعٍ وثمانينَ وخمسمائةٍ

في محرمِها حاصَرَ السلْطانُ صلاحُ الدينِ حِصْنَ كَوْكَبَ فرآه مَنِيعًا صعْبًا، ووقتُه مشغولٌ بغيرِه، فوكَّلَ به الأميرَ قايمازَ النجميَّ في خَمْسمائةِ فارسٍ يضَيِّقُون عليه المسالِكَ، وكذلك وكَّلَ بصَفَدَ - وكانت للداويةِ - خَمْسَمائةِ فارسٍ مع طُغْرُلَ الجاندارِ يمنَعُون وصولَ الميرَةِ والتقاوِي، وبعَثَ إلى الكرَكِ والشَّوْبَكِ جيشًا آخرَ يحاصِرونه ويضيِّقُونَ على أهلِه، ليتفرَّغَ مِن أمورِه لقتالِ هذه الأماكنِ وحصارِها.

وكان دخولُ السلطانِ إلى دِمَشْقَ مِن هذه الغزاةِ في ربيعٍ الأولِ، ففرِح به المسلمون ودقَّت البشائرُ وزُيِّن البلدُ، ووجدَ الصفيَّ بنَ القابضِ وكِيلَ الخزانةِ قد بنَى للملكِ دارًا بالقلعةِ هائلةً مطلةً على الشرفِ القبليِّ، فغضِب عليه وعزَلَه من وظيفتِه، وقال: إنَّا لم نُخلَقْ للمُقامِ بدِمَشْقَ، وإنَّما خُلِقْنا للعبادةِ والجهادِ. وجلَس السلطانُ بدارِ العَدْلِ فحضَرَ عندَه القضاةُ وأهلُ الفضلِ، وزاد القاضيَ الفاضلَ في بُسْتانه على الشرفِ في جَوْسَقِ بنِ الفَرّاشِ، وحكَى له ما كان مِن الأمورِ، واسْتَشارَه فيما يفعَلُه في المستقبلِ مِنَ المهِمَّاتِ والغزَواتِ، ثم خرَجَ مِن دمشْقَ في جيوشِه، فسلَكَ على جبلِ نبوسَ، ودخَلَ البقاعَ وخيَّمَ على بعْلَبَكَّ، وسارَ إلى حِمْصَ وجاءته عساكرُ الجزيرةِ وهو على العاصِي، فسارَ إلى السواحلِ الشاميةِ، ففتَحَ أنطَرْطُوسَ وغيرَها مِن الحصُونِ، وفتَح جَبلَةَ واللاذقيَّةَ وكانت مِن أحسنِ المدُنِ عمارةً ورُخامًا ومَحالَّ، وفتحَ صِهْيُونَ وبكَاسَ والشُّغْرَ؛ وهما قلْعتَانِ على العاصِي

حصينَتان، فتحهما عَنْوَةً، وفتح حصْنَ بَرْزَيَه؛ وهي قلعةٌ عظيمةٌ على شاهقٍ جبَلٍ عالٍ منيعٍ، تحتَها أوديةٌ عميقَةٌ يضرَبُ المثَلُ بحصانتِها في سائرِ بلادِ الفرنجِ والمسلمينَ، فحاصرَها أشدَّ حصارٍ وركَّبَ عليها المجانيقَ الكبارَ، وفرَّقَ الجيشَ ثلاثَ فرقٍ، كلُّ فريقٍ يلُون القتالَ، فإذا كلُّوا وتعبوا خلَفَهم الآخرون، حتى لا يزالُ القتالُ مستمرًا ليلاً ونهارًا صباحًا ومساءً، فكان فتحُها في نَوْبَةِ السلْطانِ، فأخذَها عَنْوَةً في أيامٍ معْدوداتٍ، ونهَب جميعَ مافيها واستولى على حواصلِها وأموالِها، وقتَلَ حُماتَها ورجالَها، وسبى ذراريَّها وأطفالَها، ثم عدلَ عنها ففتَحَ حِصْنَ دربساكَ وحصْنَ بَغْرَاسَ، كلُّ ذلك يفتَحُه عَنْوَةً فيغنَمُ ويسلَمُ، ولله الحمدُ.

ثم سمَتْ همَّتُه العاليةُ إلى فَتْحِ أنْطَاكِيَةَ؛ وذلك لأنَّه أهلَكَ ما حولَها من القُرَى، واستَظهرَ عليها بكثْرةِ الجنودِ، فراسَله صاحبُ أنْطَاكِيَةَ يطلُبُ منه الهُدْنَةَ على أنْ يطلقَ مَن عندَه من أُسارى المسلمينَ، فأجابَه السلطانُ إلى ذلك لعلْمه بضجَرِ مَن معه المقاتلة والأعوانِ، فوقَعت الهدنةُ على سبْعَةِ أشهرٍ؛ ومقصودُ السلطانِ أنْ تستريحَ الجيوشُ من تعَبِها، وتجُمَّ النفوسُ من نصَبِها، وأرسلَ السلطانُ إليه مَنْ تسلَّمَ منه الأسارَى وقد ذلَّتْ دولةُ النصارَى.

ثم سارَ السلطانُ فسألَه ولَدُه الظاهرُ أنْ يجتازَ بحلَبَ فأجابَه إلى ما طلَب، فنزَل بقلْعَتِها ثلاثَ ليالٍ ثم جدَّد العزْمَ والترحالَ، فاستقْدمَه ابنُ أخيه تَقيُّ الدينِ إلى حَمَاةَ فنزَل بقلعتِها ليلةً، كانت من أكبرِ مقاصده ومناه، وأقطَعه تلك الليلةَ جَبَلَةَ واللاذِقِيَّةَ، ثم سارَ فنزَل بقَلْعةِ بَعْلَبَكَّ، ودخَلَ إلى حمَّامِها، ثم عادَ إلى دِمَشْقَ مؤيدًا منصورًا مسرورًا محبورًا، وذلك في أوائلِ رمضانَ، وكان يومًا مشْهُودًا ومقدَمًا محمودًا، وجاءَته البشائرُ بفَتْحِ الكركِ على المسلمين، الذين كانوا له محاصرين، وأراحَ اللَّهُ تلك الناحيةَ، وسَهَّلَ حَزْنَها على السالكينَ من التجارِ والحُجَّاجِ والغُزاةِ والمعتمرين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]

فصلٌ

في صفة فتح صَفَدَ وحِصْنِ كَوْكَبَ

لم يُقِمِ السلْطانُ بدمَشْقَ إلاَّ أيامًا معدودةً حتى خرَجَ بجيشِه قاصدًا بلادَ صَفَدَ، فنازَلَها في العشرِ الأوْسَطِ من رمضانَ، وحاصرَها بالمنجنيقات والشجعانِ، وكان البرْدُ شديدًا يصْبحُ الماءُ فيه جَليدًا، فما زالَ حتى فتحَها صُلحًا في ثامنِ شوالٍ، ولله الحمدُ على كلِّ حالٍ.

ثم سار إلى صُورَ فألقَتْ إليه بقيادِها، وتبرأَتْ من ناصريها وقُوَّادِها، وتحقَّقَتْ - لمَّا فتحَتْ صَفَدُ - أنَّها مقْرُونَةٌ بأصْفادِها.

ثم سارَ منها إلى حِصْنَ كوكبَ - وهي معقِلُ الإسبتاريَّةِ كما أنَّ صَفَدَ كانتْ معقِلَ الداويَّةِ - وكانوا أبْغَضَ أجْناسِ الفرنجِ إلى الملكِ الناصرِ صلاحِ الدينِ، الذي لا يكاد يتركُ منهم أحداً إلاَّ قتلَه؛ إذا وقَع في المأسُورين. فحاصَر قلعةَ كوكبَ حتى قهَرها، وقتَل مقاتلتَها وأسَرها وأراحَ المارَّةَ مَن شرِّ ساكنيها، وتمهَّدَتْ تلك السواحِلُ واسْتَقرَّ بها منازِلُ قاطنيها. هذا والسَماءُ تَصبُّ، والرياحُ تَهُبُّ، والسُّيولُ تعُبُّ، والأرْجُلُ في الأوْحالِ تخبُّ، والسلطانُ في كلِّ ذلك صابرٌ مُصابِرٌ ومحتسِبٌ، وكان القاضي الفاضلُ معه في هذه المواقفِ شاهداً ومرتقباً، وكتَب القاضي الفاضلُ عن السلطانِ إلى أخيه سيفِ الإسلامِ صاحبِ اليمنِ يَسْتَدْعيه إلى الشامِ لنُصْرَةِ أهلِ الإسْلامِ وقتلِ الكَفَرةِ اللِّئامِ، فإنَّه قد عزَمَ على حصارِ أنْطاكيَةَ، ويكونُ تَقيُّ الدينِ عمرُ مُحاصِراً لطرابُلُسَ إذا انْسَلَخ هذا العامُ. ثم عزمَ القاضي الفاضلُ على الدخولِ إلى الديارِ المصريةِ، فسار السلطانُ معه لتوديعه ثم عدَل إلى القُدسِ الشريفِ، فصلَّى فيه الجمْعةَ، وعيَّد فيه عيدَ الأضحَى بالصخرةِ من الأقصى، ثم سارَ ومعه أخوه العادلُ إلى عَسْقَلانَ، ثم أقطَع أخاه الكركَ عوَضاً عن عَسْقَلانَ، وأمَره بالانصرافِ ليكونَ عوناً لابنه العزيزِ على حوادثِ الزمانِ، وعادَ السلطانُ فأقامَ بمدينةِ عكَّا حتى انسلَختْ هذه السنةُ.

وفي هذه السنة خرَجتْ طائفةٌ من الرافضةِ بمِصْرَ يُريدون أن يُعيدوا دولةَ الفاطميِّينَ، واغْتنَمُوا غيبةَ العادلِ عن مِصْرَ، واسْتَخَفُّوا أمْرَ العزيزِ عُثمانَ بنِ صلاحِ الدينِ، فبعثُوا اثْنَيْ عشَرَ رجُلا ينادونَ في الليلِ: يا لَعليٍّ، يا لَعَليٍّ. بناءً على أنَّ العامَّةَ تجيبُهم إلى ما عزَموا عليه، فلم يلتَفِتْ إليهم أحدٌ، ولا منعَهم من الناسِ أحدٌ، فلمّا رأوْا ذلك انهزَمُوا فأُدْرِكُوا وأُخِذُوا وقيِّدُوا وحُبِسُوا، ولمَّا بلَغ أمْرُهم إلى السلطانِ صلاحِ الدينِ ساءَه ذلك واهتَمَّ له، وكان الفاضِلُ عندَه بعدُ لم يفارقه، فقال له: أيُّها الملكُ ينْبَغي أنْ تفْرَحَ ولا تحْزَنَ، فإنَّه لم يُصْغِ إلى دعوةِ هؤلاءِ الجهَلَةِ أحدٌ من رعيَّتِكَ ولا التفتوا إليهم، فلو أنَّكَ بعثْتَ من قِبلِكَ جواسيسَ يختبِرُونَ رعيتَك لَسَرَّكَ ما يبلُغُكَ عنهم. فسَرَّىٰ ذلك عنه، ورجَع إلى قولِه، ولهذا أرسَلَه إلى مِصْرَ؛ ليكونَ له عَيْناً وعَوْناً ومعيناً.

وممن تُوفِّي في هذه السنة من الأعْيان:

الأميرُ الكبيرُ سُلالَةُ الملُوكِ والسَّلاطينِ الشَّيْزَرِيُّ، مؤيِّدُ الدولة أبو الحارث وأبو المُظَفَّرِ، **أسامَةُ بنُ مُرشِدِ بنِ عليِّ بنِ مُقَلَّدِ بنِ نصرِ بنِ مُنْقذ**، أحدُ الشعراءِ المشْهُورِينَ، والأمراءِ المشْكُورينَ، بلَغ من العمرِ ستّاً وتسْعينَ سنةً، وكان عمْرُه تاريخاً مستقلاً وحدَه، وكانتْ دارُه بدِمَشْقَ معقلاً للفُضلاءِ ومنْزِلاً للعلماءِ، وله من الأشعارِ الرائقةِ والمعاني الفائقةِ شيءٌ كثيرٌ، ولديه علمٌ غزيرٌ، وعندَه جُودٌ وفضلٌ كبيرٌ، وقد كان من أبناءِ ملوكِ شَيْزَرَ، ثم أقامَ بديارِ مصرَ مدةً في أيامِ الفاطميِّينَ، ثم عادَ إلى الشامِ، وقدِمَ على الملكِ صلاحِ الدينِ في سنَةِ سبْعين دمشقَ، وأنشدَه:

حَمِدْتُ على طُولِ عمْري المَشيبَا ... وإنْ كنتُ أكْثَرْتُ فيه الذنُوبا
لأنّيَ حَيِيتُ إلى أن لقيتُ بعدَ العدوِّ صديقاً حَبيبا

وله في سِنٍ قلَعَها ففقَد نفْعَها:

وصاحب لا أمَلُّ الدهرَ صُحْبَتَهُ ... يَشْقَى لنَفعِي ويَسْعى سَعْيَ مُجْتَهِدِ
لم ألقَهُ مُذْ تَصاحَبْنا فحينَ بدا ... لناظِرَيَّ افتَرقْنا فُرْقَةَ الأبَدِ

وله ديوانُ شعرٍ كبيرٌ، وكان صلاحُ الدينِ يفضِّلُه على سائرِ الدَّواوينِ.

وقد كان مولدُه في سنَةِ ثَمان وثمانينَ وأربَعمائة، وكان في شَبِيبَتِه شَهْمًا شُجاعًا فاتكًا، قتَل الأسَدَ مُواجهَةً وحدَه، ثم عُمِّرَ إلى أنْ تُوفِّيَ في هذه السنَة، قال ابنُ خَلِّكانَ: ليلةَ الثلاثاءِ الثالثِ والعشْرينَ من رمضانَ، ودُفِنَ شرْقِيَّ جبَلِ قاسيونَ. قال: وزُرْتُ قَبْرَه وقرأتُ عندَه وأهديتُ له، رحمه اللَّهُ تعالى.

ومما أنشدَه له قولُه:

لا تَسْتَعِرْ جَلَدًا على هجْرانِهِمْ ... فَقُواكَ تضْعُفُ عن صُدودٍ دائمِ
واعلَمْ بأنَّكَ إنْ رجَعْتَ إليهِمُ ... طَوْعًا وإلا عُدْتَ عَوْدَةَ راغِمِ

وقولُه في قتلِ الأسدِ وكِبَرِه:

فاعْجَبْ لضَعْفِ يَدِي عن حَمْلِها قلمًا ... من بعدِ حَطْمِ القَنا في لَبَّةِ الأسَدِ
وقُلْ لِمَنْ يتَمَنَّى طُولَ مُدَّتِه ... هَذي عَواقِبُ طُولِ العُمْرِ والمُدَدِ

قال ابنُ الأثير: وفي هذه السنةِ توفِّي شيْخُنا **أبو محمد عبدُ اللَّه بنُ عليِّ بنِ عبدِ اللَّه بنِ سُوَيْدَةَ التَّكْرِيتيُّ**، كان عالمًا بالحديث، وله تَصانيفُ حسنة. رحمَه اللَّه تعالى.

قال الشيخُ شهابُ الدين: وفيها تُوُفِّيَ **الحافظُ أبو بكر محمدُ بنُ موسى بنِ عثمانَ بنِ حازمٍ الحازميُّ الهَمَذانيُّ**[1] ببَغْدادَ، صاحبُ التصانيف، على صغَرِ سنِّه، منها «العُجالَةُ» في النسَبِ، و«الناسخُ والمنْسُوخُ» في الحديثِ وغيرُهما. ومولدُه سنَةَ ثَمانٍ أو تسْعٍ وأربَعينَ وخَمْسِمائةٍ، وتُوفِّي في الثامنِ والعِشْرينَ مِن جُمادَى الأُولَى من هذه السنَة.

* * *

(١) ترجمته في «السير» (٢١/ ١٦٧ - ١٧٢).

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

فيها: قدِمَ مِن جهةِ الخليفةِ رسُلٌ إلىٰ السلْطانِ يعْلمونَه بولايةِ العهدِ لأبي نَصرٍ محمدٍ المُلَقَّبِ بالظَّاهرِ بنِ الخليفةِ الناصرِ، فأمَرَ السلْطانُ خطيبَ دمَشْقَ أبا القاسمِ عبدَ الملكِ بنَ زَيْدٍ الدَّوْلَعِيَّ بالدعاء له، ثم جهَّزَ السلطانُ مع الرُّسُلِ تُحَفًا عظيمةً، وهدايا سَنِيَّةً، وأرسَل بأُسارَىٰ مِن الفرنجِ علىٰ هَيْئَتِهم في حالِ حَرْبِهم، وأرسَل بصَليبِ الصَّلبوتِ فدُفِنَ تحتَ عَتَبَةِ بابِ النوىٰ، مِن دارِ الخلافةِ، فكان بالأقدامِ يُداسُ، بعدَما كان يُعظَّمُ ويُبَاسُ، وصار يُبصَقُ عليه بعدَما كان يُسجَدُ إليه، والصحيحُ أنَّ هذا الصليبَ إنما هو الذىٰ كان منصُوباً علىٰ قُبَّةِ الصخرةِ، وكان مِن نُحاسٍ مطليًّا بالذَّهبِ، وقد انحطَّ إلىٰ أسْفَلِ الرُّتَبِ.

قصة عكا وما كان من أمرها

لَمَّا كان شهرُ رجَبٍ اجتمَع مَن كان بصُورَ مِنَ الفرنجِ وسارُوا إلىٰ مدينةِ عَكَّا فأحاطُوا بها يحاصِرونَها، فتحَصَّنَ مَن فيها مِن المسلمينَ، وأعدُّوا للحصار ما يحْتاجونَ إليه، وبلَغ السلْطانَ خبَرُهم فسارَ إليهم مِن دِمَشْقَ مُسْرِعًا، فوجَدَهم قد أحاطُوا بها، كإحاطةِ الخاتَمِ بالخِنْصَرِ، فلم يزَلْ يُدافِعُهم عنها ويمانِعُهم منها، حتىٰ جعَل طريقًا إلىٰ بابِ القَلْعَةِ يصِلُ إليه كلُّ مَن أرادَه، مِن جُنْديٍّ وسُوقيٍّ، وامرأةٍ وصبيٍّ، ثم أولَج فيها ما أرادَ مِن آلاتٍ وأمتعَةٍ، ومقاتلةٍ، ودخَل بنفْسه الكريمةِ، فَعَلا سُورَها ونظَر إلىٰ الفرنْجِ وجيْشِهم وكثرةِ عدَدِهم وعُدَدِهم، والمِيرَةُ تَفِدُ إليهم مِن البحرِ في كلِّ وقتٍ، وكلُّ ما لَهم في ازديادٍ، وفي كلِّ حينٍ تصِلُ إليهم الأمْدادُ، وعادَ السُّلطانُ إلىٰ مُخَيَّمِه والجنودُ تصِلُ إليه، وتقدَمُ عليه مِن كلِّ جهةٍ ومكانٍ، منهم رَجَّالةٌ وفرْسانٌ.

وقعة مَرج عكا

ثم برزَتِ الفرنجُ في نحوٍ مِن ألْفَيْ فارسٍ وثلاثينَ ألفَ راجلٍ في العَشْرِ الأُخَرِ من شعبانَ، فبرَزَ إليهم السلطانُ فيمَن معه مِن السادةِ الشجْعانِ، فاقْتَتلوا بمَرْجِ عكَّا قتالاً عظيماً، وهُزِم جماعةٌ مِن المسلمينَ في أوَّلِ النَّهارِ، ثم كانتِ الكَرَّةُ علىٰ الفرنجِ في آخرِه، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. فقُتِل مِن المسلمين قريبُ المائتين، وأمّا الفرنجُ فكانتِ القَتْلَىٰ منهم أزْيَدَ مِن سبْعَةِ آلافِ قتيلٍ، ولَمَّا تمَّت هذه الوقعةُ تحوَّل السلطانُ مِن مكانه الأوَّلِ إلىٰ موضعٍ بعيدٍ مِن رائحةِ القَتْلَىٰ، خوفاً مِن الوَخَمِ والأذَىٰ؛ ليسْتريحَ الخيَّالَةُ والخيل، ولم يعلَمْ أنَّ ذلك كان مِن أكبرِ المصالحِ للعدُوِّ المخْذُولِ، فإنَّهم اغْتَنَمُوا هذه الفَتْرَةَ، فحفَرُوا حولَ مُخيَّمِهم خَنْدَقاً لجميع جيشِهم مِن البحرِ إلىٰ البحرِ محدِقًا، واتخذُوا مِن تُرابِه سُوراً شاهقًا، وجعَلُوا له أبْوابًا يخرجُونَ منها إذا أرادُوا، وتمكَّنُوا في منْزلِهم ذلك الذي له اختارُوا

وارْتَادُوا، وتفارَطَ الأمرُ، وقويَ الخَطْبُ، وصارَ الدَّاءُ عُضَالاً، وازدادَ الحالُ وبَالاً، وكان رأيُ السلْطان أنْ يُناجَزُوا بعدَ الكرةِ سريعًا، ولا يُتْرَكُوا حتىٰ يطيبَ ريحُ البحرُ فتأتيَهم الأمدادُ من كلِّ صوب هريعًا، فاعتذَر الأمراءُ إليه بالملال والضَّجَرِ، وكلٌّ لأمْرِ الفرنجِ قد احْتَقَرَ، ولم يَدْرِ ما قد حُتِمَ في القدَرِ، فأرسَل السلطانُ إلىٰ جميعِ الملوك يستنفِرُ ويستنصِرُ، وكتَب إلىٰ الخليفة بالبَثِّ، وبَثَّ الكتُبَ بالتحْضِيضِ والحثِّ، فجاءَتْه الأمدادُ جماعات وآحادًا، وأرسَل إلىٰ مصْرَ يطلُبُ أخاه العادلَ، فقدمَ عليه، ويستعجِلُ الأسطولَ، فوصَل إليه في خمسين قطْعَةً في البحرِ مع الأميرِ حُسَام الدِّين لؤلؤ، فحينَ وصَل الأسطولُ حادَتْ مراكبُ الفرنجِ يَمْنَةً ويَسْرَةً، وخافت كلُّها منه، واتصلَتْ بالبلدِ المِيرَةُ والعَدَدُ والعُدَدُ، وانشرَحَت الصُّدورُ بعدَ الضيقِ والكمَد، وانْسلخَتْ هذه السنةُ والحالُ علىٰ ما هو عليه، ولا ملْجَأَ منَ اللَّه تعالىٰ إلاَّ إليه. واللَّهُ أعلمُ بالصواب.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

القاضي شرَفُ الدِّين أبو سَعْد عبدُ اللَّه بنُ محمد بن هبَة اللَّه بن أبي عَصْرُونَ، أحدُ أئمة الشافعيَّة، له كتابُ «الانتصارِ»، وقد وَلِيَ قضاءَ القضاة بدمَشْقَ، ثم أضَرَّ قبلَ موْته بعَشْرِ سنينَ، فجُعِلَ ولَدُه محيي الدين مكانَه تطييبًا لقلبه، وبلَغ القاضي شرفُ الدين ثلاثًا وتسعينَ سنةً ونصْفًا، ودُفِنَ بالمدْرسة العَصْرُونيَّة، التي أنشأَها غربيَّ سُوَيْقَة باب البريد، قُبَالَةَ داره، بيْنَهما عَرْضُ الطريقِ، وكان منَ الصالحِينَ والعلماء العاملينَ، رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد ذكَرَه القاضي ابنُ خَلِّكانَ فقال: أصلُه من حَديثَةِ الموْصِلِ، ورحَل في طلب العلمِ إلىٰ بُلدانٍ شتَّىٰ، وأخَذ عن أسعَدَ الميهَنِيِّ وأبي عليٍّ الفارقيِّ وجماعةٍ، وولِيَ قضاءَ سنجارَ وحَرَّانَ، وباشَر في أيام نُورِ الدِّينِ تدْريسَ الغَزَّاليَّة، ثم انْتقَل إلىٰ حَلَبَ، فبنَىٰ له نُورُ الدِّين مدرسةً بحلَبَ وبحمْصَ أيضًا، ثم قدِم دِمَشْقَ في أيامِ صلاحِ الدِّينِ، فوَلِيَ قضاءَها في سَنَة ثلاثٍ وسبْعِينَ وخَمْسمائَة إلىٰ أنْ تُوُفِّيَ في هذه السنَة، وقد جَمَعَ جُزءاً في قضاء الأعمَىٰ، وأنَّه جائزٌ؛ وهو خلافُ المذهبِ، لكن حكَاه صاحبُ «البَيَان» وجْهًا لبعضِ الأصحاب. قال: ولم أرَهُ في غيره. وقد صنَّف كُتُبًا كثيرةً، منها: «صفْوَةُ المذهبِ في نهاية المطْلَبِ» في سبع مجلدَّات، و«الانْتصارُ» في أربع، و«الخلاف» في أربع، و«الذريعةُ في معرفةِ الشريعة»، و«المرشدُ»، وغيرُ ذلك، وكتابًا سمَّاه «مآخذَ النظرِ»، ومُختصراً في الفرائضِ وغيرَها، وقد ذكَره ابنُ عساكرَ في «تاريخه»، والعمادُ فأثْنَىٰ عليه، وكذلك القاضي الفاضلُ.

و أورد له العمادُ أشعارًا كثيرةً، ومما أَوْرَدَه ابنُ خَلِّكانَ عنه قولُه:

أُؤَمِّلُ أنْ أحْيَا وفي كلِّ ساعةٍ ... تَمُرُّ بيَ الموتَىٰ تُهَزُّ نُعُوشُها
وهلْ أنا إلاَّ مثْلُهم غيرَ أنَّ ليَ ... بقايَا ليالٍ في الزمانِ أعيشُها

أحمدُ بنُ عبد الرحمن بن وهبانَ، أبوالعباس، المعروفُ بابنِ أفضَلِ الزَّمانِ، قال ابنُ الأثيرِ: كان عالماً مُتبحِّراً في علومٍ كثيرةٍ من الفقه، والأصولِ والحسابِ والفرائضِ والنجومِ و الهَيْئَةِ والمنطقِ وغيرِ ذلك، وقد جاوَرَ بمكَّةَ وأقامَ بها إلى أنْ ماتَ بها، وكان من أحْسَنِ الناسِ صُحْبَةً وخُلُقًا.

الفَقيهُ الأميرُ ضياءُ الدِّين عيسَى الهَكَّاريُّ كان من أصْحابِ أسَدِ الدينِ شيركُوه، دخَلَ معه إلى مِصْرَ، وحَظِيَ عندَه، ثم كان مُلازمًا للسُّلْطانِ صلاحِ الدينِ حتى تُوفِّي في رِكابِه بمَنْزِلةِ الخَرُّوبَةِ قريبًا من عكَّا، فنُقِلَ إلى القُدْسِ الشريفِ فدُفِنَ به، وكان ممَّنْ تَفقَّه على الشيخِ أبي القاسمِ بن البَزْريِّ الجزريِّ. وكان الفقيهُ عيسى من الفُضلاءِ والنبلاءِ والأمراءِ الكبارِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

المُبارَكُ بنُ المُبارَكِ الكَرْخيُّ، مدرِّسُ النِّظاميَّةِ، تفَقَّهَ بابنِ الخَلِّ، وكانت له مكانةٌ عندَ الخليفةِ والعامَّةِ، وكان يُضرَبُ بحسْنِ خطِّه المَثَلُ. وقد ذكَرْتُه في «الطبَقاتِ»، رحمه اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

استَهلَّتْ والسُّلْطانُ مُحاصِرٌ لِمُحاصِري عكَّا، وأمْدادُ الفرنْجِ تَقْدَمُ عليهم من البحرِ في كلِّ وقتٍ وكلِّ حينٍ، حتى إنَّ النساءَ لَيخرُجْنَ بنيَّةِ القتالِ، ومنهنَّ مَنْ تأتي بنيَّةِ راحَةِ الغُرَباءِ في الغربةِ؛ قدِمَ إليهم مركَبٌ فيه ثلاثُمائَةِ امرأةٍ حسناءَ بهذه النِّيَّةِ، حتى إنَّ كثيراً من فَسَقَةِ المسلمينَ تحيَّزُوا إليهم لأجلِ هذه النسْوَةِ. واشْتَهرَ الخبرُ بأنَّ مَلِكَ الألمانِ قد أقبلَ في نحوِ ثلاثمائة ألفِ مُقاتلٍ، من ناحيةِ القُسطنطينيَّةِ، يريدُ أخْذَ الشامِ وقَتْلَ أهْله وملوكِه؛ انتصاراً لبيتِ المَقْدسِ، فحمَلَ المسلمونَ همًّا عظيمًا، وخافُوا غائلةَ ذلك، مع ما هم فيه منَ الشُّغْلِ العظيمِ، والحصارِ الهائلِ، ولكنَّ اللَّهَ لطَفَ بهم وأهلَك غالبَ أمَّةِ الألمانِ في الطُّرقاتِ بالبردِ والجُوعِ والضلالِ في المهالكِ، على ما سيَأتي بيانُه و تفصيلُه، إن شاء اللَّهُ تعالى.

وكان سبَبَ نَفْرِ النَّصارى في هذا العام ما ذكره ابنُ الأثيرِ في «كامله» أنَّ جماعةً من الرُّهبانِ والقسوسِ، ركِبُوا من مدينةِ صُورَ في أرْبعَةِ مراكِبَ يطُوفُونَ البُلدانَ البحريَّةَ، يحثُّونهم على الانتصارِ لبيتِ المقْدسِ، وما جَرَىٰ على أهْلِ السواحلِ من القتلِ والسبيِ وخرابِ الديارِ، وقد صوَّرُوا صورةَ المسيحِ وصورةَ عربيٍّ يضربُه، فإذا سأَلُوهم مَنْ هذا الذي يضربُ المسيحَ؟ قالوا: هذا نبيُّ العربِ يضربُه وقد جرَحه وماتَ، فينْزَعِجُونَ عندَ ذلك ويحْمَونَ ويبْكونَ ويحْزنُونَ، ويخرُجون من بلادهم لنُصْرَةِ دينهم ونبيِّهم، وموضعِ حجِّهم، على الصَّعْبِ والذَّلُولِ، حتى النساءُ المُخَدَّراتُ والأبناءُ الذينَ هم عند أهْليهم من أعزِّ الثَّمراتِ وأخصِّ الخَدراتِ.

وفي نصف ربيع الأول تسلَّمَ السلطان شقيفُ أرنونَ بالأمانِ، وكان صاحبُه مأسُوراً في الذلِّ والهَوانِ، وكان من أدْهَىٰ الفرنجِ وأخبَرِهم بأيامِ الناسِ، وربَّما قرأَ في كُتُبِ الحديثِ وتفسيرِ القرآنِ،

وكان مع هذا غليظَ الجِلْد، كافرَ القلب، قبَّحه اللَّهُ تعالى.

ولمَّا انفصَلَ فصلُ الشِّتاء وأقْبَلَ الرَّبيعُ جاءتْ المُلُوكُ من بُلْدَانِها بجيوشِها وشُجْعَانِها، ورجالِها وفُرْسَانِها، وأرْسَلَ الخليفَةُ إلى الملك صلاح الدِّين أحْمَالاً من النِّفْط والرِّماح الخَطِّيَّة، ونَفَّاطَةً ونَقَّابِينَ، كلٌّ منهم مُتقنٌ في صَنْعَته غايَةَ الإِتْقَان، ومَرْسُومًا بعشْرينَ ألف دينار، وانْفَتَحَ البحرُ وتواتَرَتْ مَرَاكِبُ الفرنْج من كلِّ جَزيرَةٍ؛ يَنْصُرُونَ أصْحَابَهم، ويَمُدُّونَهم بالقُوَّة والميرَة، وعَمِلَتْ الفرنْجُ ثلاثَةَ أبْرِجَةٍ من خَشَبٍ وحديدٍ، عليها جُلُودٌ مسقَاةٌ بالخَلِّ؛ لئلاَّ يَعمَلَ فيها النِّفْطُ، يَسَعُ البُرْجُ منها خَمْسَمائَةِ مُقَاتِلٍ، وهو أعْلَى من أبْرِجَةِ البَلَد، وهي مُرَكَّبَةٌ على عَجَلٍ بحيثُ يُديرُونَها كيفَ شَاءُوا، وعلى ظَهْرِ كلِّ بُرْجٍ منها مَنْجَنيقٌ كَبيرٌ، فأهَمَّ أمْرُها المسلمينَ، وكانُوا عليها حَنِقينَ، فَأَعْمَلَ السلطانُ فِكْرَه في إحْرَاقِها وإهْلاكِها، فَاسْتَحْضَرَ النَّفَاطِينَ ووَعَدَهم الأموالَ الجَزِيلَةَ، فَانْتَدَبَ شابٌّ نَحَّاسٌ من دمَشْقَ يُعْرَفُ بعليِّ بنِ عريف النَّحَّاسينَ، والْتَزَمَ بإحْرَاقِها وإهْلاكِها، فَأَخَذَ النِّفْطَ الأبْيَضَ وخَلَطَه بأدْوِيَةٍ عرَفَها، وغَلَى ذلك في ثلاثَةِ قُدُورٍ من نُحاسٍ حتى صارَ نارًا تَأَجَّجُ، ورَمَى كلَّ بُرْجٍ منها بقدْرٍ من تلك القُدُور بالمَنْجَنيق من داخلٍ عكَّا، فاحتَرَقَت الأبْرِجَةُ الثلاثَةُ بإذْن اللَّه عَزَّ وجلَّ، حتى صارت نارًا، لها في الجَوِّ ألْسِنَةٌ مُتَصَاعِدَةٌ، فَصرَخَ المُسلمُونَ صرخَةً واحدةً بالتَّهْليلِ والتَّكْبيرِ، واحْتَرَقَ في كلِّ بُرْجٍ سَبْعُونَ كَفُورًا، ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]. وذلك يومَ الإثْنينِ الثامن والعشْرينَ من ربيع الأوَّل من هذه السَّنَة، وكانت الفرنْجُ تَعِبُوا فيها سَبْعَةَ أشْهُرٍ، واحْتَرَقَتْ في يومٍ واحدٍ ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. ثم عَرَضَ السُّلْطانُ على هذا الشَّابِّ النحَّاس العَطِيَّةَ السَّنِيَّةَ، فامتَنَع من قَبُولها، وقال: إنَّمَا عَمِلْتُ هذا ابْتغَاءَ وَجْه اللَّه، ورَجَاءَ مَاعنْدَه سُبْحَانَه. فلا أُريد منكُم جَزَاءً ولا شُكُورًا.

وأقْبَلَ الأسْطُولُ المصْريُّ وفيه الميرَةُ الكثيرَةُ لأهْلِ البَلَد، فَعَبَّى الفرنْجُ أسْطُولَهم ليُحَارِبُوا أسْطُولَ المسْلمينَ، فَنَهَضَ السلْطانُ بجَيْشه ليَشْغَلَهم عن قتال الأسْطُول، وقَاتَلَهم أهْلُ البَلَد أيضًا، واقْتَتَلَ الأسْطُولان في البَحْر، وكان يَوْمًا مَشْهُودًا عَظِيمًا، وحَرْبًا في البَرِّ والبَحْر، فَظَفَرَتْ الفرنْجُ بشينيٍّ واحدٍ من الأسْطُول الذي للمسلمينَ، وسلَّمَ اللَّهُ الباقي، فَوَصَلَ إلى البلد بما فيه من الميرَة، التي قد اشْتَدَّتْ حاجتُهم إلى عُشْرها، وحمدَت اللَّهَ تعالى على يُسْرها بَعْدَ عُسْرها.

وأمَّا مَلكُ الألْمَان المُتقدمُ ذكرُه فإنَّه أقْبَلَ في عدَدٍ كثيرٍ وجَمٍّ غَفيرٍ، قريبٍ من ثلاثمائة ألف مُقاتلٍ؛ من نيَّته الانْتصَارُ لبيت المَقْدس حينَ أُخذَ من أيديهم، فما زَالَ يَمُرُّ بإقْليمٍ بعدَ إقْليمٍ، ويُتَخَطَّفُونَ في كلِّ مَكَانٍ، ويُقْتَلُونَ كما يُقْتَلُ الحيَوانُ حتى اجْتَازَ مَلكهم بنَهْرٍ شَديد الجَرْيَة، فدَعَتْه نَفْسُه أنْ يَسْبَحَ فيه، فلمَّا صارَ فيه حَمَلَه الماءُ إلى جذْعِ شَجَرَةٍ فشَجَّتْ رَأْسَه، وأخْمَدَتْ أنْفَاسَه، وأراحَ اللَّهُ منه المسلمينَ، وحُشِرَتْ رُوحُه إلى سجينٍ، فأُقيمَ ولَدُه الأصْغَرُ في المُلْك بَعْدَه، وقد تَمَزَّقَ شَمْلُهم وقَلَّتْ منهم العُدَّةُ، ثم أقْبَلُوا لا يَجْتَازُونَ ببلَدٍ إلا قُتلوا فيه، وقلَّ عددَهُم حتى جاءوا أصْحَابَهم المُحَاصرِينَ لعَكَّا

وهم في ألفِ فارسٍ، وليسَ لهم قَدْرٌ ولا قيمةٌ عندَ أحدٍ مَن أهلِ مِلّتِهم ولا غَيْرِهم. وهكذا سُنّةُ اللَّهِ فيمَنْ أرادَ مُخَالَفَةَ الإِسْلامِ وأهْلِه في إهلاكه وتَمْزيقِ شَمْلِه، وللَّه الحمدُ والمنّةُ على إحْسَانِه وفَضله.

وزَعَمَ العمادُ في سياقه أنَّ الألمانَ وَصَلُوا في خَمْسَةِ آلافِ مُقاتلٍ وأنَّ مُلُوكَ الفرنْجِ كلَّهم كَرِهُوا قُدُومَه عليهم، لمَا يَخَافُونَ من سَطْوَته، وزَوالِ دَوْلَتِهم بدَولَته، ولم يَفْرَحْ به إلا المَرْكيسُ صاحبُ صُورَ، الذي أنْشَأَ هذه الفتْنَةَ وأثَارَ هذه المحنَةَ ـ لَعَنَه اللَّهُ ـ فإنَّه تَقَوَّىٰ به وبجَيْشه وكَيده، فإنَّه كان خَبيرًا بالحُرُوبِ والقتالِ، وأحْدَثَ أشياءَ كَثيرةً من آلاتِ الحَرْبِ لم تَخطُرْ لأحدٍ ببالٍ؛ نَصَبَ دبابات أمْثَالَ الجبالِ، تَسيرُ بعَجلٍ ولها زَلومٌ من حَديدٍ، تَنْطَحُ السُّورَ فتكَسِّرُه، وتثْلمُ جَوَانبَه، فمَنَّ اللَّهُ العظيمُ بإحْرَاقها وإهْلاكها، وأرَاحَ اللَّهُ المسلمينَ من شرِّها، وللَّه الحمدُ، ونَهَضَ بالعسْكَرِ الفرنْجيِّ فَصادَمَ به جَيشَ المسلمينَ، ونَاصَبَ بالحَرْبِ صلاحَ الدِّينِ، فَمَنَّ اللَّهُ سبحانَه وله الحمدُ بالنُّصْرةِ عليه، وتَقَدَّمَتْ الجُيوشُ برُمَّتِها إليه، فَقتلُوا من الكَفَرَةِ خَلْقًا كثيرًا وجَمًّا غَفيرًا، وهَجَمُوا مَرَّةً على المُخَيَّمِ فنَهَبُوا شيئًا كَثيرًا من الأمْتعَة، فَنَهَضَ إليهم الملكُ العادلُ أبو بكرٍ ـ وكان رأسَ المَيْمَنة ـ فَرَكِبَ بأصْحَابه، وأمهَلَ الفرنْجَ حتى تَوَغَلُوا بينَ الخيامِ، ثم حَمَلَ عليهم بالرِّمَاحِ والحُسامِ، فَتَهَارَبُوا بينَ يدَيه، فما زَالَ يَقْتُلُ منهم جَماعَةً بعدَ جَماعَةٍ وفرْقَةً بعدَ فِرْقَةٍ، حتى كَسَىٰ وجهَ الأرضِ منهم حُللاً أزْهَىٰ من الرِّياضِ الباسِمَةِ، وحُزِرَ ما قُتِل منهم، فأقل ما قيلَ خمسةُ آلافٍ، وزعمَ العمادُ وغيرهُ أنه قتل منهم فيما بينَ الظُّهْرِ إلى العَصْرِ عشَرَةَ آلافٍ، وللَّه الحمدُ، هذا وطَرَفُ المَيْسَرَةِ لم يشعرْ بما جَرَىٰ، بل هم نَائمُونَ وقتَ القَيْلُولَةِ في خيامِهم وكثيرٌ منهم ما دَرَىٰ.

وكان الذينَ سَاقُوا وراءَهم وأسَرُوهم أقَلَّ من الألفِ، وأنَّما قُتِلَ من المُسْلمينَ عشْرَةٌ أو دُونَهم، وهذه نعْمَةٌ عَظيمَةٌ، ونُصْرَةٌ عَميمَةٌ، وقد أوْهَنَ هذا جيشَ الفرنْجِ وأضْعَفَه، وكادوا يَطْلُبُونَ الصُّلْحَ وينْصَرِفُونَ عن البلد، فاتَفَقَ قُدُومُ مددٍ مع مَلكٍ يُقالُ له: كندهرىٰ ـ لَعَنَه اللَّهُ ـ ومَعَه أموالٌ كَثيرةٌ، فأنْفَقَ عليهم وغَرِمَ عَلَيْهم، وأمَرَهم أنْ يَبْرُزُوا مَعه للقَاءِ السُّلْطانِ صلاحِ الدِّينِ، ونَصَبَ على عكَّا منْجنيقَيْنِ، غَرِمَ على كلِّ واحدٍ منهما ألفًا وخَمْسمائة دينارٍ، فأحْرَقَهما أهلُ البَلَد، وجَاءتْ كُتُبُ صاحبِ الرُّومِ من القُسْطَنْطينيَّةِ يعتَذرُ إلى صلاحِ الدِّينِ من جهةِ ملكِ الألمَانِ، وأنَّه لم يُجَاوِزْ مُلْكَه ولا بلَدَه باخْتيارِه، وأنَّه تَجَاوَزَه لكثْرَةِ جُنُوده، ولذلك بَشَّرَّ السُّلْطانَ أنَّ اللَّهَ سَيُهْلكُهم في كلِّ مَكانٍ، وكذلكَ وَقَعَ وللَّه الحمدُ القَديمِ الإحسانِ، وأرْسَلَ إلى السُّلْطانِ يقولُ له: إنِّي سأُقيمُ عنْدي للمُسْلمينَ جُمُعَةً وخَطيبًا، فَأرْسَلَ السُّلْطانُ مع رَسُوله خَطيبًا ومنْبَرًا، فكانَ يومُ دُخُولِهم إليهم يومًا مَشْهُودًا، ومَشْهَدًا محْمُودًا، فأُقيمَت الخُطْبَةُ ودعَا للخَليفَةِ العَبَّاسيِّ، واجْتَمَعَ فيها من هُنَاكَ من المُسْلمينَ والتُّجَّارِ والمُسافِرينَ، وللَّه الحمدُ ربِّ العالَمينَ.

فصل

وكَتَبَ مُتَوَلِّي عَكًّا مِن جهةِ السُّلْطانِ صلاحِ الدِّينِ؛ وهو الأميرُ بهاءُ الدِّينِ قَرَاقُوشُ - في العشرِ الأُوَلِ مِن شعبانَ - إلى السُّلْطانِ: إنَّه لم يَبْقَ عندَهم في المدينَةِ من الأقْواتِ إلاَّ ما يُبَلِّغُهم إلى ليلةِ النِّصْفِ مِن شَعْبَانَ. فلمَّا وَصَلَ الكتَابُ إلى السُّلْطانِ أَسَرَّها يوسُفُ في نَفْسِه ولم يُبْدِها لأحدٍ؛ خَوْفًا مِن شُيُوعِ ذلك فيَبْلُغُ العَدُوَّ فيَقْوُوا على المسلمينَ، وتَضْعُفُ القُلُوبُ، وكان قد كَتَبَ إلى أميرِ الأسطولِ بالدِّيارِ المِصْرِيَّةِ أنْ يَقْدَمَ بالمِيرَةِ إلى عَكًّا، فَتَأَخَّرَ سَيْرُه، ثم وَصَلَتْ ثلاثُ بُطُسٍ ليلةَ النِّصْفِ، فيها مِن المِيرَةِ مَا يَكْفِي أهلَ البلَدِ طولَ الشتَاءِ، وهيَ في صُحْبَةِ الأميرِ الحاجبِ لُؤْلُؤٍ، فلمَّا أشْرَفتْ على البلدِ نَهَضَ إليها أُسْطُولُ الفِرِنْجِ ليَحُولَ بينَها وبينَ البلدِ، ويُتْلِفَ مَا فيها، فاقْتَتَلُوا في البحرِ قتالاً عَظِيمًا، والمُسْلِمُونَ في البرِّ يَبْتَهِلُونَ إلى اللَّهِ عَزَّ وجلَّ في سَلامَتِها، والفِرِنْجُ تَصْرُخُ أيضًا بَرًّا وبَحْرًا، وقد ارْتَفَعَ الضَّجِيجُ، فَنَصَرَ اللَّهُ المسلمينَ وسلَّمَ مراكِبَهم، وطابَتْ الرِّيحُ للبُطُسِ، فَسَارَتْ فاخْتَرَقَتْ المَرَاكِبَ الفِرِنْجِيَّةَ المُحيطَةَ بالمِينَاءِ، ودَخَلَتِ البَلَدَ سالِمَةً، ففَرِحَ بها أهلُ البلَدِ والجَيشُ فرَحًا شَدِيدًا، وللَّهِ الحمدُ.

وكان السُّلْطانُ قد جَهَّزَ قبلَ هذه الثلاثِ بُطُسِ المِصْرِياتِ بُطْسَةً عَظِيمَةً مِن بَيروتَ، فيها أَرْبَعُمائَةِ غِرَارَةٍ، وشيءٌ كثيرٌ مِن الجُبْنِ والبَصَلِ والشحْمِ والقَدِيدِ والنُّشَّابِ والنِّفْطِ، وكانت هذه البُطْسَةَ مِن بُطُسِ الفِرِنْجِ المَغْنُومَةِ، وأمَرَ مَن فيها مِن البَحَّارَةِ أنْ يَتَزَيُّوا بزِيِّ الفِرِنْجِ حتى إنَّهم حَلَقُوا لِحَاهم، وشَدُّوا الزَّنانِيرَ، واسْتَصْحَبُوا معهم في البُطْسَةِ شيئًا مِن الخَنَازِيرِ، وقَدِمُوا بها على مَراكِبِ الفِرِنْجِ، فاعْتَقَدُوا أنَّهم منهم، وهي سائِرَةٌ كأنَّها السَّهْمُ إذا خَرَجَ مِن الرَّمِيَّةِ، فَحذَّرَهم الفِرِنْجُ غَائلةَ المِيناءِ مِن نَاحيَةِ المسلمِينَ، فاعْتَذَرُوا بأنَّهم مَغْلُوبُونَ مَعَها، والرِّيحُ قَوِيَّةٌ لا يُمْكِنُهم أنْ يَقِفُوا ولا ينْصَرِفُوا، ومَازَالُوا كذلك حتى وَلَجُوا المِيناءَ، وأفرَغُوا مَا كان مَعهمَ مِن المِيرَةِ، والحربُ خُدْعَةٌ، فعَبَرْتِ المِيناءَ وعَينُ الكُفْرِ عَبْرى؛ فامْتَلأَ الثَّغْرُ بها خيرًا وسرُورًا وأثْرَى، وكانت مؤُنَتَهم إلى أنْ قَدِمَتْ عليهم تلك البُطُسُ الثلاثُ المِصْرِيَّةُ. وكان مِيناءُ البلد يَكْتَنِفُها بُرْجَانِ، يُقالُ لأَحَدِهما: بُرْجُ الذبّانِ. فاتَخَذَ الفِرِنْجُ بُطْسَةً عظيمَةً لها خُرْطُومٌ وفيه حَرَكَاتٌ إذا أرادُوا أنْ يَضَعُوه على شيءٍ مِن الأسْوَارِ والأبْرجَةِ قَلَبُوه فَوَصَلَ إلى مَا أرادُوا، فَعظم أمرُ هذه البُطْسَةِ على المسلمِينَ، ولمْ يَزَالُوا في أمْرِها مُحْتَالِينَ، حتى أرْسَلَ اللَّهُ عليها شُواظًا مِن نارٍ فأحْرَقَها وأغْرَقَها، وذلك أنَّ الفِرِنْجَ أعَدُّوا فيها نِفْطًا كثيرًا وحَطَبًا جَزْلاً، وأُخْرَىٰ خَلْفَها فيها حَطَبٌ مَحْضٌ، حتى إذا أرادَ المسلمونَ المُحاجَنَةَ على المِيناءِ بمراكِبِهم أرْسَلُوا النِّفْطَ على بُطْسَةِ الحَطَبِ فاحْتَرَقَتْ وهي سائِرَةٌ بينَ بُطُسِ المسلمِينَ فتُحْرِقُها، وكان في بُطْسَةٍ أُخْرَىٰ لهم مُقاتِلَةٌ تحتَ قَبْوٍ قد أحْكَمُوه فيها فلمَّا أرْسَلُوا النِّفْطَ على بُرْجِ الذبّانِ انْعكَسَ الأمرُ عليهم

بقُدْرَة اللَّه تعالىٰ ، وذلك لشدَّة الهواء تلك الليلةَ ، فما تَعَدَتْ النارُ بُطْسَتَهم فاحْتَرَقَتْ ، وتَعَدىٰ الحريقُ إلىٰ الأُخْرَىٰ فغَرِقَتْ ، ووَصَلَ إلىٰ بُطْسَةِ المُقَاتلَة فتَلِفَتْ ، وهَلَكَتْ بمَن فيها ، فأشْبَهُوا مَن سَلَفَ من الكَافِرينَ ، كما قال تعالىٰ في كِتَابِه المُبِين : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحشر : ٢].

فصل

وفي ثالث رَمَضَانَ اشْتَدَّ حصارُ الفرنْج للبَلَدِ حتىٰ نَزَلُوا إلىٰ الخَنْدَق ، فَبَرَزَ إليهم أهْلُ البلد فَقَتَلُوا منهم خَلْقًا كَثيرًا ، وتَمكَنُوا من حَرِيقِ الكَبْش الذي اتَّخَذُوه لحصار الأسْوار ، وسَرَىٰ حريقُه إلىٰ السُفُور وارْتَفَعَتْ له لَهْبَةٌ عظيمَةٌ في عَنَان السمَاء ، ثم اجْتَذَبَه المسلمونَ إليهم بكَلاليبَ من حديد في سلاسِلَ ، فَحَصَّلُوه عندَهم وألْقَوْا عليه المَاءَ البارِدَ فَبَرِدَ بعدَ أيام ، فكانَ فيه من الحَديدِ مائةُ قِنْطار بالدِّمَشْقِيِّ ، ولِلَّه الحمدُ والمِنَّةُ .

وكان مع السُّلْطان في الثامن والعشْرينَ من رَمَضَانَ المَلِكُ زَيْنُ الدِّين صاحبُ إرْبلَ فتوُفِّي في عَكَّا ، فتأسَّفَ الناسُ عليه لشبابه وغُرْبَته وَجَودَته ، وعُزِّيَ أخُوه مُظَفَّرُ الدِّين فيه ، وهو الذي قامَ بالمُلْك من بَعده ، وسَأَلَ من السُّلْطان صلاح الدِّين أنْ يُضيفَ إليه شَهْرُزُورَ ويتركَ حَرَّانَ والرُّها وسُمَيْساطَ وغيْرَها ، وتَحَمَّلَ مع ذلك خَمْسينَ ألفَ دينار نقْدًا ، فأُجيبَ إلىٰ ذلك ، وكَتَبَ له تَقْليدًا ، وعَقَدَ له لواءً ، وأُضيفَ ما تَرَكَه إلىٰ المَلِك المُظَفَّر تَقيِّ الدين عمرَ ابن أخِي السُّلْطان صلاح الدِّين .

فصل

وكان القاضي الفاضلُ بالدِّيار المصْرِيَّة يُدَبِّرُ المَمَالكَ بها ، ويُجَهِّزُ إلىٰ السُلْطان مَا يَحْتَاجُ إليه منها من الأمْوال والنَفَقَات ، وعَمَلِ الأُسْطُول ، ومَا يَحْتَاجُ إليه فيه من محصُول ، والكُتُبُ السُلْطانيَّةُ واردَةٌ إليه في كلِّ حين ، ويَسْتَشيرُهُ فيما يُصْلِحُ به أمورَ المُسلمينَ ، وكذلك الكُتُبُ الفاضلَةُ قَادمَةٌ علىٰ السُّلْطان في كلِّ أوان ؛ فمن ذلك كتَابٌ يَذْكُرُ فيه أنَّ سببَ هذا التَّطْويل في الحصَار إنَّما هو بسَبَب كثْرة الذُّنُوب ، وارْتكَاب المَحارم من الناس ، ويَقُولُ في بعْضها : إنَّ اللَّهَ لا يُنالُ ما عندَه إلا بطَاعتَه ولا يُفَرِّجُ الشَدَائدَ إلا بالرُّجُوع إليه والامْتثال لشريعته ، والمَعَاصي في كلِّ مَكَان بادية ، والمَظَالمُ في كلِّ مَوْضع فاشيَةٌ ، وقد طلَعَ إلىٰ اللَّه تَعَالىٰ منها ما لا يُتَوقَّعُ بعدَها إلا ما يُسْتَعاذُ منه ، وفيه أنَّه قد بَلَغَه أنَّ بيتَ المَقْدس قد ظَهرَ فيه من المُنْكَرات والفَوَاحش والظلم في بلاده ما لا يُمْكنُ تلافيه إلا بكُلْفَة كثيرَة .

ومن ذلك كتابٌ يقُولُ فيه : إنَّما أُتينَا من قِبَلِ أنْفُسنَا ، ولو صَدَقْنَاه لَعَجَّلَ لنَا عَوَاقبَ صدْقنَا ، ولو أطَعْنَاه لَمَا عَاقَبَنَا بعَدُوِّنَا ، ولو فَعَلْنَا مَا نَقْدرُ عليه من أَمْره لفَعَلَ لَنَا مَا لا نَقْدرُ عليه إلا به ، فلا يَسْتَخصمْ أحدٌ إلا عَمَلَه ولا يَلُمْ إلا نَفْسَه ، ولا يَرْجُ إلا ربَّه ، ولا تُنْتَظَرَ العَسَاكرُ أنْ تَكْثُرَ ولا الأمْوالُ أنْ تُحْضَرَ ، ولا فُلانٌ الذي يُعْتَمدُ عليه أنْ يُقَاتلَ ، ولا فُلانٌ الذي يُنْتَظَرَ أنْ يَسيرَ ، فكلُّ هذه مَشَاغلُ عن اللَّه ليسَ

النَّصْرُ بها، ولا نَأْمَنُ أنْ يَكلَنَا اللَّهُ إليها، والنصرُ به واللُّطفُ منه، والعَادَةُ الجَميلَةُ له، ونَسْتَغفِرُ اللَّهَ تعالى من ذُنُوبِنا، فلوْلا أنَّها تَسُدُّ طَرِيقَ دُعَائِنَا لكَان جَوابُ دُعَائِنَا قد نَزَلَ، وفَيضُ دُمُوعِ الخاشعِينَ قد غَسَلَ، ولكن في الطَّرِيقِ عَائِقٌ، خارَ اللَّهُ لمَوْلانا في القضَاءِ السابِقِ واللاَّحق.

وفي كتابٍ آخَرَ يَتَأَلَّمُ فيه لَمَا عندَ السُّلْطَانِ من الضَعف في جِسْمه بسببِ ما حَمَلَ على قَلْبِه مما هو فيه من الشَّدَائدِ - أثَابه اللَّهُ تعالى - يقُولُ فيه: وما في نَفْسِ المَمْلُوكِ شَائِبَةٌ إلا بَقِيَّةُ هذا الضَعْفِ الذي بجِسْمِ مَوْلانا فإنَّه بقُلُوبِنا، ونَفْديه بأسْمَاعِنا وأبْصَارِنا.

بنا معشرَ الخُدَّامِ مَا بِكَ من أذى ... وإنْ أشفَقُوا مِمَّا أقُولُ فبي وَحْدي

وقد أوْرَدَ الشيخُ شِهابُ الدينِ صاحبُ «الرَوْضَتَيْنِ» ههُنا كُتُبًا عدَّةً من الفاضلِ إلى السُّلْطَانِ، فيها فَصَاحةٌ وبلاغَةٌ ومَواعظُ وتَحْضِيضٌ على الجهادِ، يَعْجَزُ عن مِثْلِها شُجْعَانٌ، وهي جَدِيرَةٌ أنْ تُكْتَبَ بماءِ الذهَبِ على قلائدِ العِقْيَانِ، فَرَحِمَه اللَّهُ مِن إنْسَانٍ مَا كان أفْصَحَه، ومِن وَزِيرٍ مَا كان أنْصَحَه، ومِن عَقْلٍ مَا كان أرْجَحَه.

فصل

وكتَبَ القاضي الفاضلُ كتابًا بليغًا عن السُّلْطَانِ إلى ملكِ الغَرْبِ أميرِ المسلمينَ، وسُلْطانِ جَيشِ المُوَحِّدينَ؛ يعقُوبَ بنُ يوسُفَ بنِ عبدِ المُؤْمِنِ، يَسْتَنْجِدُ به في إرْسَالِ مَرَاكِبَ في البَحْرِ تَكُونُ عَوْنًا للمسلمينَ على المَرَاكِبِ الإفْرَنْجيَّةِ؛ فَمِنه عبارَةٌ عَظِيمَةٌ طويلَةٌ فَصِيحةٌ بَلِيغَةٌ مَلِيحةٌ، حكاها الشيخُ شِهابُ الدينِ بطُولِها وحُسْنِها. وبعثَ السلْطانُ صلاحُ الدينِ مع ذلك بهَديَّةٍ سَنِيَّةٍ من التُّحفِ والألْطاف، وذلك كلُّه صُحْبَةَ الأميرِ الكبيرِ شمسِ الدينِ أبي الحَزْمِ عبدِ الرحمنِ بنِ مُنْقذٍ، وكان ابتداءُ سيرِه في البحرِ في ثامنِ ذي القَعْدَةِ من هذه السنة، فدخَلَ على سلطانِ المغربِ في العِشْرِينَ من ذي الحجَّة، فأقامَ عندَه إلى عاشُوراءَ في المحرمِ من سنَةِ ثمانٍ وثمانينَ، ولم يُفِدْ هذا الإرسالُ شيئًا؛ لأنَّ السلطانَ تغَضَّبَ إذ لم يُلَقَّبْ بأميرِ المؤمنينَ، وكانت إشارةُ القاضي الفاضلِ إلى عدَمِ الإرْسالِ إليه والتَّعويلِ عليه، ولكن وقَعَ ما وقَعَ بمشيئةِ اللَّه تعالى.

فصلٌ

وفي هذه السنة حصَلَ للسلطانِ سوءُ مِزاجٍ من كثرةِ ما يكابدُه من الأمورِ؛ التي هي أمرُّ من الأُجاجِ، فطمعَ العَدُوُّ المخْذُولُ - لعَنهم اللَّهُ - في الإسْلامِ، فتجَرَّدَ جماعةٌ منهم للقتالِ، وثبَتَ آخرونَ على الحصارِ، وأقْبَلوا في عددٍ كثيرٍ وعُدَدٍ، فرَتَّبَ السلطانُ الجيوشَ ميمنَةً وميْسَرَةً، وقلْبًا وجناحيْنِ، فلمَّا رأوا ما عاينُوه من الجيشِ الكثيفِ فرُّوا من موقفِ الحربِ، وعادوا عن حومةِ الوغَى؛ فقُتِلَ منهم خلقٌ كثيرٌ وجَمٌّ غفيرٌ، وللَّه الحمدُ.

فصلٌ

ولمَّا دخَل فصلُ الشتاءِ وانشَمَرَتْ مراكِبُ الإفرنجِ عنِ البلدِ خوفًا مِن الهلاكِ بسبَبِ اغتلامِ البحرِ؛ سألَ مَن في البلدةِ مِن المسلمينَ مِن السلطانِ أن يُريحَهم مِمّا هم فيه مِن الحَصرِ العظيمِ، والمقاتلة ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً، سرًّا وجهرًا، وأنْ يُرسلَ إلى البلدِ بدَلَهم؛ فَرَقَّ لهم السلطانُ، وعزَمَ على ذلك، وكانوا قريبًا مِن عشرينَ ألفَ مسلمٍ ما بينَ أميرٍ ومأمورٍ، فجهَّز جيشًا آخرَ غيرَهم، ولم يكُنْ ذلك برأيٍ جيدٍ، ولكنْ ما قصَد السلطانُ إلاَّ خيرًا، وأنَّ هؤلاءِ يدْخُلونَ البلدَ وهم جدد الهِمَمِ، ولهم عزْمٌ قويٌّ، وهم في راحَةٍ بالنسْبَةِ إلى أولئك، ولكنْ أولئك كانتْ لهم خِبْرَةٌ بالبلَدِ وبالقتالِ، وكان لهم صَبْرٌ عظيمٌ، وقد تمرَّنوا على ما هم فيه مِن المصابَرةِ للأعداءِ برًّا وبحرًا، وجُهِّزت لهؤلاءِ الداخلينَ سبعُ بُطُسٍ فيها مِيرَةٌ تكفيهم سنةً كاملةً، فقَدَّرَ اللَّهُ تعالى -وله الأمرُ مِن قبلُ ومِن بعدُ- أنَّها لمَّا توسَّطَت البحرَ واقْتَربتْ مِن الميناءِ هاجَتْ ريحٌ عظيمةٌ في البحرِ، فتلَعَّبَت بتلك البُطُسِ على عِظَمِها فاختَبَطَتْ واضْطَرَبَتْ وتصادَمَتْ فتكسَّرَتْ وغرِقَتْ، وغرِقَ ما كان فيها مِن المِيرَةِ، وهلَك مَن كان فيها مِن البحّارَةِ؛ فدخَلَ بسبَبِ ذلك وَهَنٌ عظيمٌ على المسلمينَ، واشتدَّ الأمرُ جدًّا، ومرِضَ السلطانُ وازْدادَ مرَضًا إلى مرَضِه -عافاه اللَّهُ- وكان ذلك عَوْنًا للعدُوِّ المخذُولِ على أخْذِ البلَدِ، ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله، وذلك في ذي الحِجَّةِ مِن هذه السنَةِ، وكان المقدَّم على الدّاخلينَ إلى عَكّا الأميرُ سَيْفُ الدينِ عليُّ بنُ أحمدَ بنِ المشطوبِ، أيَّده اللَّهُ.

وفي اليومِ السابعِ مِن ذي الحِجّةِ سقَطَتْ ثُلْمَةٌ عظيمةٌ مِن سُورِ عكّا، فبادَر الفرنْجُ إليها فسبَقَهم المسلمونَ إلى سدِّها بصدورِهم، وقاتلُوا عنها بنُحورِهم، وما زالُوا يمانِعُونَ عنها حتى بَنَوْها أشدَّ مِمّا كانت، وأقْوَى وأحسنَ وأبهى.

ووقَعَ في هذه السنَةِ وَباءٌ عظيمٌ في الجيشينِ المسلمِ والكافرِ، فكانَ السلطانُ يقولُ في ذلك:

اقْتُلُوني ومالِكًا واقْتُلُوا مالِكًا معي

واتفقَ موتُ ابنِ ملكِ الألمانِ في ثاني ذي الحِجَّةِ مِن هذه السنةِ، وجماعةٍ مِن كبَراءِ الكُندهريَّةِ، وساداتِ الفرنجِ -لعَنَهم اللَّهُ- فحزِنَ الفرنجُ على ابنِ مَلِكِ الألمانِ حُزْنًا عظيمًا وأوْقَدُوا نارًا عظيمةً في كلِّ خَيْمَةٍ، وصارَ في كلِّ يومٍ يهْلِكُ مِن الفرنجِ المائةُ والمائتانِ، واستأمنَ إلى السلطانِ جماعةٌ منهم مِن شدَّةِ ما هم فيه مِنَ الجوعِ والضيقِ والحصْرِ، وأسْلَمَ خلقٌ كثيرٌ منهم، ولِلَّه الحمدُ والمِنّةُ.

وفي هذا الشهرِ قدِمَ القاضي الفاضلُ مِن الديارِ المصريةِ على السلطانِ، وكان قد طالَ شوقُ كلِّ واحدٍ منهما إلى صاحبه، فأفْضَى كلٌّ واحدٍ منهما إلى الآخرِ ما كان يُسِرُّه ويكتُمُه مِنَ الآراءِ التي فيها مصالحُ المسلمينَ، وقدِمَ وزيرُ الصدقِ على السلطانِ الموفَّقِ والأميرِ المؤيَّدِ، رحِمَهما اللَّهُ تعالى.

ومِمَّنْ تُوُفِّيَ في هذه السنة من الأعْيان:

مَلكُ الألْمـان الذي أقبل في مائتي ألف مُقَاتِلٍ، ويُقَالُ: في ثلاثمائة ألف مقاتلٍ. من أقصى بلاده، فاجتاز بالقسطنطينية وما بعدَها من البُلْدان؛ يريدُ انتزاعَ بلاد الشام بكمالها من أيدي المسلمينَ، انتصاراً - في زعمه - لبيت المقدس الذي استَنْقَذه الملكُ صلاحُ الدين من أيدي المشركينَ، فلم يزَلْ اللَّعينُ يتناقَصُ جيشُه ويتَفانَوا في كلِّ موطنٍ وموضعٍ، وقدَّر اللَّهُ هلاكَه بالغَرقِ كما أُهلك فرعونُ، لعنهما اللَّهُ تعالى، وذلك أنَّه نزَل يسْبَحُ في بعضِ الأنهارِ فاحتمله الماءُ قسْرًا فألجأه إلى جذْعِ شجَرةٍ هناك فشُدخت رأسُه ومات من ساعته - لعنه اللَّهُ - فملَّك الألمانُ عليهم ابنَه الأصغرَ، وأقبل بمن بقي منهم وأمرُه قد تقهقَر، والمقصودُ أنهم وصَلوا إلى إخوانهم بعكَّا في خمسة آلاف مُقَاتلٍ، وقيل: في ألف مُقاتلٍ. وكان المسلمون قد حمَلُوا من قُدُومهم همًّا عظيمًا، وخافوا خوفًا شديدًا فكَفَى اللَّهُ المؤمنين القتالَ، وكان اللَّهُ قويًّا عزيزًا. ثم توفي ابنُه في أواخرِ هذه السنة. ولِلَّه الحمدُ والمنَّةُ.

محمدُ بنُ محمد بن عبد اللَّه، أبو حامدٍ قاضي القُضاةِ بالمَوْصِلِ، مُحْيي الدين ابنُ قاضي القضاة كمالِ الدين الشَّهْرَزُورِيُّ الشافعيُّ، أثْنَى عليه العمادُ الكاتبُ، وأنشدَ له من شعرِه قولَه:

قامَتْ بإثبات الصِّفات أدلَّة	قَصَمَتْ ظهورَ أئمَّة التعْطيل
وطلائعُ التَّنْزيه لَمَّا أقْبلَتْ	هزمَتْ ذوي التَّشْبيه والتمثيل
فالحقُّ ما صِرْنا إليه جميعُنا	بأدلَّة الأخْبار والتنزيل
مَنْ لم يكنْ بالشرعِ مقتديًا فقد	ألقاهُ فرطُ الجهلِ في التضليل

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

فيها قدمَ مَلِكُ الإفرَنسيس ومَلِكُ إنكلترا، وغيرُهما من ملُوك البحرِ على الفرنْجِ إلى عكَّا، وتمالئوا على عكَّا في هذه السنَة، كما سيأتي تفصيلُه، وقد استَهَلَّتْ والحصارُ على عكَّا على حاله من الجانبَيْنِ، وقد استُكملَ دخولُ البدَلِ إلى البلَدِ، والملكُ العادلُ مُخَيِّمٌ إلى جانب البحرِ؛ ليتكامَل دخُولهم ودخولُ ميرتِهم، لطَف اللَّهُ بهم، وفي ليلة مُستَهَلِّ ربيعٍ الأوَّل خرج المسلمون من عكَّا فهجَمُوا على مُخَيَّم الفرنْجِ فقتَلُوا منهم خلقًا كثيرًا، ونهبُوا شيئًا كثيرًا، وسبَوا اثْنَتي عشرةَ امرأةً، وانكَسَر مركبٌ عظيمٌ للفرنْجِ فغرِقَ فيه خلْقٌ منهم وأُسرَ باقيهم، وأغار صاحبُ حمْصَ أسدُ الدين شيركوه بنُ ناصرِ الدِّين محمدِ بنِ شيركوه على سَرْحِ الفرنْجِ بأراضِي طَرَابُلُسَ، فاستاق منهم شيئًا كثيرًا من الخُيولِ والأبقارِ والأغنامِ، وظفِر اليَزَكُ بخلقٍ كثيرٍ من الفرنجِ فقتَلُوهم، ولم يُقْتَلْ من المسلمين سوى طَوَاشيٍّ صغيرٍ عثَر به فرسُه. وفي ثاني عشَرَ ربيعٍ الأوَّلِ وصَل إلى الفرنْجِ مَلِكُ

إفرنسيسَ فليبُ في ستِّ بُطسٍ ملعونةٍ مشحونةٍ بعَبَدةِ الصَّليب، وحينَ وصلَ إليهم وقدمَ عليهم لم يَبقَ لأحدٍ من ملوكهم معه كلامٌ ولا حُكمٌ، لعَظَمته عندهم، وقدمَ معه بازٌ عظيمٌ أبيضُ، وهو البازُ الأشهَبُ الهائلُ، فطارَ من يدِه فسقطَ على سُورِ عكَّا فأمسكَه أهلُها وبعثُوا به إلى السلطان، فبَذَلَ الفرنْجُ فيه ألفَ دينارٍ فلم يُجابُوا، وقدمَ بعدَه كُنْدفريرُ وهو من أكابرِ ملوكهم أيضًا، ووصلَتْ سُفُنُ ملكِ الإنكلتير، ولم يَجِئْ هو لاشتغاله بجزيرةِ قُبْرُسَ وأخذِها من يدِ صاحبِها، وتواصلَتْ ملوكُ الإسلام من بُلدانها في أوَّلِ فصلِ الربيعِ، إلى خدمةِ السلطانِ الناصرِ صلاحِ الدِّين.

قال العمادُ: وقد كانَ للمسلمينَ لُصوصٌ يدخُلُونَ إلى خيامِ الفرنْج، فيَسرقُونَ، حتى إنَّهم ليَسرقونَ الرِّجالَ، فاتَّفقَ أنَّ بعضَهم أخذَ صبيًّا رضيعًا من مَهْده؛ ابنَ ثلاثةِ أشهرٍ، فوَجَدَتْ عليه أمُّه وَجْدًا عظيمًا، واشتكَتْ إلى ملوكهم، فقالُوا لها: إنَّ سُلطانَ المسلمينَ رَحيمُ القَلْب، وقد أذنَّا لكِ أنْ تذهبي إليه، فتَشتكي أمرك إليه. قال العمادُ: فجاءتْ إلى السلطانِ وأنا واقفٌ معه، فبَكَتْ بكاءً شديدًا، وجعلَتْ تُمرِّغُ وجهَها على الأرضِ، فسألَها عن أمرِها فأنهَتْ إليه حالَها، فرقَّ لها رِقَّةً شديدةً حتى دمَعتْ عينُه، فأمرَ بإحضارِ ولدِها، فإذا هو بِيعَ في السُّوق، فرسَمَ بدفعِ ثمنِه إلى المشتري، ولم يزَلْ واقفًا حتى جِيءَ بالغُلام، فأخذَتْه أمُّه وأرضعَتْه ساعةً وهي تبكي من شدةِ فرحِها وشوْقِها إليه، ثم أمرَ بحَمْلِها إلى قومِها على فرسٍ مُكرَّمةً، رحمَه اللهُ وبلَّ بالرأفةِ ثَراه.

فصلٌ

في كيفيةِ أخذِ العدوِّ المخذولِ مدينةَ عكَّا من يدِ السلطانِ قسرًا

لَمَّا كانَ شهرُ جُمادى الأولى اشتدَّ حصارُ الفرنْج ـ لعَنَهم اللهُ ـ لعكَّا، وتمالَئُوا عليها من كلِّ فجٍّ عميقٍ، وقدمَ عليهم ملكُ الإنكلتير في جمٍّ غفيرٍ، وجمْعٍ كثيرٍ، في خمسٍ وعشرين قطعةً مشحونةً بالمقاتلة، وابتُلي أهلُ الثَّغرِ منه ببلاءٍ لا يُشبِه ما قبلَه، فعندَ ذلك حُرِّكَتِ الكُوساتُ في البَلَد، وكانت علامةً ما بينَهم وبينَ السُّلطان، فحَرَّكَ السلطانُ كُوساتِه، واقتربَ من البلَد، وتحوَّلَ إلى قريبٍ منهم، يَشغَلُهم عن البلد، وقد أحاطُوا به من كلِّ مكانٍ، ونصَبُوا عليه سبعةَ مجانيقَ، وهي تضرِبُ في البَلَد ليلاً ونهارًا، ولاسيَّما على بُرْجِ عَينِ البقرِ، حتى أثَّرتْ به أثرًا بيِّنًا، وشرعُوا في ردْمِ الخندقِ بما أمكَنَهم من دوابَّ ميتةٍ، ومَن قُتِلَ منهم، ومَن ماتَ أيضًا، وقابلَهم أهلُ البلدِ ينقلُونَ ما ألقَوه فيه إلى البحرِ.

وظفَرَ ملكُ الإنكلتير ببُطسةٍ عظيمةٍ للمسلمينَ قد أقبلَتْ من بيروتَ مشحونةً بالأمتعةِ والأسلحةِ فأخذَها، وكان واقفًا في البحرِ في أربعينَ مركبًا لا يترُكُ شيئًا يصلُ إلى البلَدِ بالكُلِّيَّة، لعَنَه اللهُ، وكان فيها ستُّمائةٍ من المقاتلةِ الصَّناديدِ الأبطال، فهلكُوا عن آخرِهم، رحمَهم اللهُ أجمعينَ، فإنَّه لمَّا أُحيطَ بهم من الجوانبِ كلِّها، وتحقَّقُوا إمَّا الغرقَ أو القتْلَ، خرَقُوا من جوانبِها كلِّها فغَرِقَتْ، ولم

يَقْدرُ الفرنْجُ على أخذ شيءٍ منها لا منَ الميرَة ولا منَ الأسْلحَة، وحَزنَ المسلمونَ على هذا المُصاب حُزْنًا عَظيمًا، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعُونَ، ولكنْ جَبَرَ اللَّهُ سبحانه هذا البلاءَ بأنْ أحْرَقَ المسلمونَ في هذا اليوم للفرنْج دَبَّابَةً كانت أرْبعَ طَبَقَات؛ الأولَى من خَشَبٍ، والثانيَةُ من رَصَاصٍ، والثالثةُ من حَديدٍ، والرابعَةُ من نُحَاسٍ، وهي مُشْرِفَةٌ على السُّور والمُقَاتلَةُ فيها، وقد قَلقَ أهلُ البلد منها بحيثُ حَدَّثَتْهم أنفُسُهم من خَوفهم من شرِّها بأنْ يَطلُبُوا الأمَانَ منَ الفرنْج، و يُسَلِّمُوا البلَدَ، ففَرَّجَ اللَّهُ وأمْكَنَهم من حريقها، واتَّفَقَ ذلك في هذا اليوم الذي غَرقَتْ فيه هذه البطْسَةُ المَذْكُورَةُ، فأرْسَلَ أهلُ البَلَد إلى السلطان يَشْكُونَ كثرةَ الحصَار وقُوَّتَه عليهم، مُنذُ قَدمَ مَلكُ الإنْكلتير، لَعَنَه اللَّهُ، ومَعَ هذا قد مَرضَ وجُرحَ مَلكُ الإفرنْسيس أيضًا، ولا يَزيدُهم ذلك إلا شدَّةً وغلْظَةً وعُتُوًّا، وفَارَقَهم المَرْكيسُ، وسارَ إلى بلده صُورَ، خَوفًا منهم أنْ يُخرجُوا مُلْكَها من يَده، وبَعَثَ مَلكُ الإنكلْتير إلى السُّلْطان صلاح الدِّين يذْكُرُ أنَّ عندَه جَوارحَ قد جاءَ بها من البَحْر، وهو على نيَّة إرْسَالها إليه، ولكنَّها قد ضَعُفَتْ وهو يَطلبُ لها دَجَاجًا وطَيْرًا؛ لتَتَقوَّى به، فعَرَفَ أنَّه إنَّما يَطْلُبُ ذلك لنَفْسه بتَلَطُّف، فأرْسَلَ إليه بشَيْءٍ من ذلك كَرَمًا وسَجيَّةً وحشمةً، ثم أرْسَلَ يَطلبُ فاكهَةً وثَلْجًا، فأرْسَلَ إليه أيضًا، فلم يُفدْ معه الإحْسانُ، بل لَمَّا عُوفيَ عادَ إلى شرٍّ ممَّا كان عليه، واشْتَدَّ الحصَارُ ليلاً ونَهارًا، وأرسَلَ مَنْ بالبلد يقولُونَ: إنْ لم تَعْمَلُوا معنا شيئًا غدًا طَلَبْنا منَ الفرنْج الأمَانَ. فشَقَّ ذلك على السلطان؛ وذلك لأنَّه كان قد سَيَّرَ إليها أسلحَةَ الشام والدِّيار المصْريَّة وسائرَ السَّواحل، وما كان غَنمَه من وَقْعَة حطِّينَ ومن بَيت المَقْدس، فهي مَشْحُونَةٌ بذلك، فعزمَ السلطانُ على مُهاجَمَة العَدُوِّ، فلمَّا أصْبَحَ رَكبَ في جَيشه، فَرأَى الفرنْجَ قد رَكبُوا من وراء خَنْدَقهم، والرَّجَّالَةُ منهم قد ضَرَبُوا سُورًا حولَ الفرْسان، وهم قطْعَةٌ من حَديد صَمَّاءَ لا يَنْفُذُها شيءٌ، فأحْجَمَ عنهم؛ لمَا يَعْلَمُ من نُكُول جيشه عمَّا يُريدُه، وتَخْذُوه عليه شجَاعَتُه، رَحمَه اللَّهُ تعالى.

هذا وقد اشْتَدَّ الحصَارُ بالبلد جدًّا، ودخلَت الرَّجَّالَةُ منهم إلى الخَنْدَق، وعَلَّقُوا بَدَنَةً من السُّور وحشوْها وأحْرَقُوها، فَسَقَطَت، ودخلَت الفرنْجُ إلى البلد، فَمَانَعَهم المسلمونَ وقَاتَلُوهم أشدَّ القتال، وقَتَلُوا من رءُوسهم ستَّةَ أنفسٍ، فاشْتَدَّ حَنَقُ الفرنْج عليهم جدًّا بسبب ذلك، وجَاء الليلُ فحال بينَ الفَريقَيْن، فلمَّا أصْبَحَ الصباحُ خَرَجَ أميرُ المسلمينَ بالبلد سيفُ الدين المَشْطُوبُ، فاجْتَمَعَ بمَلك الإفرنْسيس وطَلَبَ منه الأمَانَ على أنفسهم، ويَتَسَلَّمُونَ منه البلدَ، فلم يُجبْه إلى ذلكَ، وقال: بعدَمَا سَقَطَ السُّورُ جئتَ تَطْلُبُ الأمَانَ! فأغْلَظَ له الأميرُ المَشْطُوبُ في الكلام، ورَجعَ إلى البلد في حال اللَّهُ بها عليمٌ، ولَمَّا أخْبَرَ أهلَ البلد خَافُوا خَوفًا شَديدًا؛ لمَا وَقَعَ، وأرسَلُوا إلى السُّلْطان يُعْلمُونَه بمَا وَقَعَ، فأرْسَلَ إليهم أنْ يُسْرعُوا الخُرُوج من البلد في البَحْر، ولا يَتَأخَّرُوا عن هذه الليلة،

فلا يَبْقَى بها مُسْلِمٌ، فَتَشَاغَلَ كثيرٌ ممَّن كانَ بها في جَمْعِ الأمْتعَةِ والأسْلحَةِ، وتأخَّرُوا عن المَسيرِ تلك الليلةَ، فما أصْبحَ الخَبَرُ إلا عندَ الفرنْجِ من مَمْلُوكَيْنِ صَغيرَيْنِ سمعًا بمَا رَسَمَ به السُّلْطانُ، فَهرَبَا إلى قَوْمِهما فأخْبَرَاهم بذلك فاحْتَفظُوا على البحرِ احْتفَاظًا عَظيمًا، فلم يَتَمكَّنَ أحدٌ من أهلِ البلدِ أنْ يَتَحرَّكَ بحَركةٍ، ولا خَرَجَ منها شيءٌ بالكُلِّيَّةِ، وعَزَمَ السُّلْطانُ على كَبْسِ العَدُوِّ في هذه الليلةِ، فلم يُوافقْه الجَيشُ على ذلكَ، وقالوا: لا نُخَاطِرُ بالإسلامِ كلِّه.

فلمَّا أصْبَحَ بَعثَ إلى مُلوكِ الفرنْجِ يطْلُبُ منهم الأمَانَ لأهْلِ البلدِ على أنْ يُطْلِقَ عِدَّتَهم من الأسْرَىٰ الذين تَحْتَ يَدِه من النصارَىٰ، ويَزيدَهم على هذا صَليبَ الصَّلَبُوتِ، فأبَوا إلا أنْ يُطْلِقَ كلَّ أسيرٍ تحتَ يَدِه، ويُعيدَ إليهم جَميعَ البلادِ السَّاحليَّةِ التي أُخِذَتْ منهم، وبيتَ المَقْدسِ، فأبَىٰ من ذلكَ، وتَرَدَّدَتِ المُرَاسَلاتُ في ذلك، والحصارُ يَتزَايدُ على أسْوارِ البلدِ وقد تَهَدَّمَتْ ثُلَمٌ كثيرةٌ منها، وأعَادَ المسلمونَ كثيرًا منها، وسَدُّوا ثُغَرَ تلْكَ الأمَاكنِ بنُحُورِهم رَحِمَهم اللَّهُ، وصَبَرُوا صَبْرًا عَظيمًا، وصابَرُوا، ثم كان آخرُ أمْرِهم الشَّهادةُ صبْرًا. وقد كَتَبُوا إلى السلطانِ في آخرِ أمْورِهم يقُولُونَ: يا مَوْلانَا، لا تَخْضعْ لهؤلاءِ المَلاعينَ، الذينَ قد أبَوْا عليكَ الإجَابَةَ فينا، فقد بايَعْنا اللَّهَ تعالى على الجهادِ حتى نُقْتَلَ عن آخرِنا، وباللَّهِ المُسْتَعانُ.

فلمَّا كان وقتُ الظُّهْرِ في اليومِ السابعَ عشرَ من جُمَادَىٰ الآخرَةِ من هذه السنَةِ، ما شَعَرَ النَّاسُ إلا وقد ارْتَفَعَتْ أعْلامُ الكُفرِ وصُلْبَانُه، وشعارُهُ ونارُه على أسْوارِ البَلَدِ، وصاحَ الفرنْجُ صَيْحَةً واحدةً، فَعَظمَتِ المُصيبَةُ على المسلمينَ، واشْتَدَّ حُزْنُ المُوَحِّدينَ، وانْحَصرَ كلامُ العُقَلاءِ من الناسِ في: إنَّا للَّهِ وإنَّا إليه رَاجِعُونَ. وغَشيَ الناسَ بَهْتَةٌ عَظيمةٌ، وحَيرةٌ شديدَةٌ، ووقَعَ في العَسْكَرِ الصِّياحُ والعَويلُ، والبُكَاءُ والنَّحيبُ، ودَخَلَ المَركيسُ، لَعَنَه اللَّهُ، وقد عَادَ إليهم سَريعًا بهَدَايَا إلى المُلوكِ، فَدَخَلَ في هذا اليومِ بأرْبَعَةِ أعْلامٍ للمُلوكِ، فَنَصَبَها في البلدِ، واحدًا على المئْذَنَةِ يومَ الجُمُعَةِ، وآخرَ على القَلْعَةِ، وآخرَ على بُرْجِ الداويّةِ، وآخرَ على بُرْجِ القتالِ، عوَضًا عن أعلامِ السُّلْطانِ وتَحَيَّزَ المسلمونَ الذينَ بها إلى ناحيَةٍ من البلدِ مُعْتَقَلينَ، مُحْتَاطٌ بهم، مُضَيَّقٌ عليهم، قد أُسرَتْ النِّساءُ والأبْنَاءُ، وغُنمَتْ منهم الأمْوالُ، وقُيِّدَتِ الأبْطالُ، وأُهينَ الرِجالُ، ولكنَّ الحربَ سجالٌ، والحمدُ للَّهِ على كلِّ حالٍ.

وأمَرَ السُّلْطانُ، أيَّدَه اللَّهُ، الجيشَ بالتأخُّرِ عن هذه المَنزلَةِ المُضايقةِ إلى التي بَعْدَها، وتَأَخَّرَ هو جَريدَةً؛ ليَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُونَ، وما عليه يُعَوِّلُونَ، وهم - لَعَنَهم اللَّهُ - بالاسْتيلاءِ على البلدِ مَشْغُولُونَ، وبتحْصيلِ الأموالِ جملةً وتَفصيلاً مدهُوشونَ، ثم سارَ السُّلْطانُ إلى العَسكرِ وعندَه من الحُزْنِ والهَمِّ ما لا يَعْلَمُه إلا اللَّهُ، عزَّ وجلَّ، وجاءتْ المُلوكُ الإسلاميَّةُ، والأمَرَاءُ وكُبَرَاءُ الدولَةِ إليه يُعَزُّونَه فيما وَقَعَ، ويُسَلُّونَه عمَّا عنه الحالُ انْقَشَعَ، ثم رَاسَلَ مُلُوكَ الفرنْجِ في خلاصِ مَنْ بأيْديهم من أُسارَىٰ

الإسلام، فَطَلَبُوا منه عدتَهم من أُساراهم ومائةَ ألف دينَارٍ، وصَليبَ الصَّلْبوت إنْ كانَ باقيًا، فأرسلَ فأحضرَ المالَ والصَليبَ، ولم يَتهيَّأْ له من الأُسارىٰ إلا ستمائة أسير، فَطَلَبَ الفرنْجُ منهم أنْ يُريَهم الصَليبَ من بَعيدٍ، فلمَّا رُفعَ لهم سَجَدُوا له، وألْقَوا أنفُسَهم إلى الأرض، وبَعثُوا يَطْلُبونَ منه ما أحْضَرَه من المال والأُسارىٰ والصَليب، فامْتَنعَ إلا أنْ يُرْسلُوا إليه مَن بأيديهم من الأُسارىٰ، أو يَبْعَثُوا إليه برَهَائنَ عندَه على ذلك، فقَالُوا: لا، ولكنْ يُرْسلُ ذلك ويَرْضىٰ بأمَانَتنا. ففَهِمَ منهم أنَّهم يُريدُونَ الغَدْرَ والمَكْرَ، فلم يُرْسلْ ذلك إليهم، وأمَرَ بَرَدِّ الأُسارىٰ إلىٰ أماكنهم بدمَشْقَ، وبَعَثَ الصَليبَ إلى دمَشْقَ مُهانًا، وأبْرَزَت الفرنْجُ خيامَهم ظاهرَ البلد، وأحْضَرُوا ثلاثةَ آلافٍ من المسلمينَ في صعيدٍ واحدٍ، رَحمَهم اللَّهُ، فأوْقَفُوهم بعدَ العَصْرِ وحَمَلُوا عليهم حَمْلَةَ رَجُلٍ واحدٍ فقَتَلُوهم، رَحمَهم اللَّهُ وأكْرَمَ مَثْواهم، وجَعَلَ الجَنَّات مُنْقَلَبَهُم، ولم يَسْتَبْقُوا بأيديهم من المسلمينَ إلا أميرًا أو سَريًّا، أو مَن يَرَوْنَه في عَمَلِهم قَويًّا أو امْرَأةً أو صَبيًّا، وكان ما كان، وقُضيَ الأمرُ الذي فيه تَسْتَفتيان. وكَان مُدَّةُ مُقام السلطان، رَحمَه اللَّهُ، علىٰ عكَّا صابرًا مُصابرًا مُرابطًا سبْعَةً وثلاثينَ شهرًا، وجُمْلَةُ مَن قُتلَ من الفرنْج خمسينَ ألفًا.

فصل

فيما جرىٰ من الحوادث بعد أخذ الفرنج عكا

ساروا برُمَّتهم قاصدينَ عَسْقَلانَ، والسلطانُ بجَيْشه يُسايرُهم ويُعَارضُهم مَنزلَةً مَنزلَةً، ومَرْحَلَةً مَرْحَلَةً، والمسلمونَ يَتَخَطَّفُونَهم ويَسْلُبُونهم في كلِّ مَكانٍ، وكلُّ أسيرٍ أُتيَ به إلىٰ السلطان يأمُرُ بقتْله في ذلك المَكَان والأوَان، وجرَتْ بينَ الجَيشَين وَقَعاتٌ مُتَعَددَاتٌ، ثم طلب مَلكُ الإنْكلْتير أنْ يَجْتَمعَ بالملك العادل أخي السلطان يطلبُ منه الصُّلْحَ والأمَانَ، علىٰ أنْ تُعادَ لأهلها بلادُ الساحل، فقالَ له العادلُ: إنَّ دُونَ ذلك قَتْلَ كلِّ فارسٍ منكُم وراجلٍ. فغَضبَ اللَّعينُ ونَهَضَ من عنده وهو مُتَغَضِّبٌ، ثم اجْتَمَعَتْ الفرنْجُ علىٰ حَرْب السُّلْطان عندَ غَابَة أرْسُوفَ، فكانت النُّصرَةُ للمسلمينَ، فقُتلَ من الفرنْج عندَ غَابَة أرْسُوفَ أُلوفٌ بعدَ أُلوفٍ، وقُتلَ من المسلمينَ خَلْقٌ كثيرٌ أيضًا، وقد كان الجيشُ فَرَّ عن السلطان في أوَّل الوَقْعَة، ولم يَبْقَ مَعه سوىٰ سَبْعَةَ عشرَ مُقاتلاً، وهو ثابتٌ صابرٌ، والكُوسُ تُدَقُّ لا تَفْتُرُ، والأعلامُ مَنْشُورةٌ، ثم تَراجَعَ الناسُ فكانت النصرةُ للمسلمينَ والكرَّةُ علىٰ الكافرينَ، والحمدُ للَّه ربِّ العالَمينَ.

ثم تَقَدَّمَ السلطانُ بعساكره فَنَزَلَ ظاهرَ عَسْقَلانَ، فأشارَ ذوو الرَّأي علىٰ السلطان بتخريب عَسْقَلانَ خَشْيَةَ أنْ يَتَمَلَّكَها الكُفَّارُ، ويَجْعَلُوها وَسيلةً إلى أخذ بيت المَقْدس، صانَه اللَّهُ تعالىٰ، أو يَجري عندَها من الحرب والقتال نَظيرُ مَا كان عندَ عكَّا أو أشدُّ، فَبات السلطانُ ليلتَه مُفَكِّرًا في ذلك،

ولمَّا أصْبَحَ وقد أوْقَعَ اللَّهُ في قَلْبِه أنَّ خَرَابَها هو المَصْلَحَةُ، فذكر ذلك لمَن حَضره، وقال لهم: واللَّه لَمَوْتُ جَمِيعِ أوْلادي أهْوَنُ علي مِن تَخرِيبِ حَجَرٍ واحدٍ منها، ولكن إذا كان هذا فيه مَصْلَحَةٌ للمسلمينَ فلا بَأسَ به.

ثم طَلَبَ الولاةَ وأمَرَهم بتَخْرِيبِ البلد سريعًا، قبلَ وصُول العَدُوِّ المَخْذُول، فشَرَعَ الناسُ في خَرابِه، وأهلُه ومَن حَضَرَه يتَبَاكَوْنَ على حُسْنِه وطِيبِ مَقِيلِه، وكَثْرَةِ زُرُوعِه وثِمَارِه، وغَزَارةِ أنهارِه ونَضارَةِ أزْهَارِه. وأُلْقِيَت النيرانُ في أرجَائِه وجَوانِبِه، وخُرِّبَتْ قُصُورُه ودُورُه وأسْواقُه ورِحابُه، وأُتْلِفَ مَا فيه مِن الغَلات لا يُمْكِنُ تَحْوِيلُها، ولا نَقْلُها، ولم يَزَل الخرابُ والحريقُ فيه إلى سَلْخِ شعبانَ مِن هذه السنَة.

ثم رحَلَ عنها السلطانُ في ثاني رَمضَانَ وقد تَرَكَها قاعًا صَفْصَفًا ليس فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ، ثم اجتازَ بالرَّمْلَةِ فخرَّبَ حِصْنَها وخرَّبَ كَنِيسَةَ لُدَّ، وزارَ بَيْتَ المَقْدِس وعاد إلى المُخَيَّمِ سَرِيعًا، تَقَبَّلَ اللَّهُ منه، ثم بَعَثَ مَلِكُ الإنكلتير إلى السلطان يقُولُ له: إنَّ الأمْرَ قد طالَ وهَلَكَ الفِرنْجُ والمسلمونَ، وإنَّما مَقْصُودُنا ثلاثَةُ أشياءَ لا سواها؛ رَدُّ الصَّلِيبِ، وبلادُ الساحلِ، وبَيْتُ المَقْدسِ، لا نَرْجعُ عن هذه الثلاثَةِ وبنَا عينٌ تَطْرِفُ، فأرْسَلَ إليه السلطانُ جوابَ ذلك أشدَّ جَوابٍ، وأسوأَ خطابٍ ثم عَزَمَتِ الفِرنْجُ على قَصْدِ بَيْتِ المَقْدِسِ، فَتَقَدَّمَ السلطانُ بجيشِه إلى بَيْتِ المَقْدسِ، فَتَركَه وسَكَنَ في دارِ القساقسِ قَرِيبًا مِن قُمَامَةَ في ذي القَعْدَةِ، وشرَعَ في تَحْصِينِ البلدِ وتَعْمِيقِ خَنادقِه، وعَمِلَ فيه بنَفْسه وأوْلادِه، وعَمِلَ فيه الأُمَراءُ والقضاةُ والعلماءُ والصُّوفيَةُ بأنْفسِهم، وكَانَ وقْتًا مَشْهُودًا، واليَزَكُ حَوْلَ البلدِ مِن ناحيَةِ الفِرنْجِ، وفي كلِّ وَقْتٍ يَسْتَظْهِرونَ على الفِرنْجِ فيقْتُلُونَ ويأسِرُونَ ويَغْنَمُونَ منهم، ولله الحمدُ والمِنَّةُ. وانْقَضَتْ هذه السنَةُ والأمْرُ على ذلك.

وفي هذه السنَةِ فيما ذكَره العمادُ الكاتبُ تَوَلَّى القاضِي مُحْيِي الدينِ محمدُ بنُ الزكيِّ قضاءَ دمَشْقَ.

وفيها عَدَا أميرُ مَكَّةَ داودُ بنُ عيسى بنِ فُلَيْتَةَ بنِ قاسم بن محمد بنِ أبي هاشمٍ الحَسَنيُّ، فأخَذَ أمْوالَ الكَعْبَةِ حتى انتزَعَ طَوْقًا مِن فضَّةٍ كان على دائرةِ الحَجَرِ الأسوَدِ، كان قد لُمَّ شَعْثُه حينَ ضَرَبَه ذلك القرْمَطِيُّ بالدبُّوسِ، فلمَّا بَلَغَ السلطانَ خَبَرُه مِن الحَجِيجِ حينَ رَجَعُوا، عَزَلَه وولَّى أخاه مُكْثِرًا، ونَقَضَ القلْعَةَ التي كان بناها أخُوه على جَبَلِ أبي قُبيسٍ، وأقامَ داودُ بنَخْلَةَ حتى تُوُفِّي بها سنَةَ تِسْعٍ وثمَانِينَ.

وممَّن تُوُفِّيَ في هذه السنَة من الأعْيان:

المَلِكُ المُظَفَّرُ تَقِيُّ الدينِ عمرُ بنُ شاهَنْشاه بنِ أيُّوبَ، كان عَزِيزًا عندَ عَمِّه السلطان المَلِك الناصرِ

صلاح الدين، استنابه بمصر وغيرها من البلاد، ثم أقطعه حماة ومُدُنًا كثيرة معها حولها ومن بلاد الجزيرة، وكان مع عمه السلطان على عكا، ثم استأذنه في الإشراف على بلاده المجاورة للفرات، فلما صار إليها اشتغل بها، وامتدت عينه إلى أخذ غيرها من أيدي الملوك المجاورين له، فقاتلهم فاتفق موته وهو في ذلك، والسلطان صلاح الدين متغضب عليه بسبب اشتغاله بذلك عنه، وحملت جنازته حتى دفن بحماة، وله مدرسة هناك هائلة، وكذلك له بدمشق مدرسة مشهورة، وعليها أوقاف كثيرة مبرورة. وقام بالملك بعده ولده المنصور ناصر الدين محمد، فأقره الملك صلاح الدين على ذلك بعد جهد جهيد، ووعد ووعيد، ولولا السلطان الملك العادل أبو بكر تشفع فيه لما استقر في مكان أبيه، ولكن الله سلم، وكانت وفاة تقي الدين يوم الجمعة تاسع عشر رمضان من هذه السنة، وكان شجاعًا باسلاً وهمامًا فاتكًا، كريمًا كاملاً، رحمه الله تعالى.

الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، وأمه ست الشام بنت أيوب، واقفة الشاميتين بدمشق، وفي ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان أيضًا تفجع السلطان بابن أخيه وابن أخته في ليلة واحدة، وقد كانا له من أكبر الأعوان، وأعز الإخوان، ودفن حسام الدين في التربة الحسامية، وهي التي أنشأتها أمه بمحلة العوينة، وهي الشامية البرانية.

وفيها توفي: الأمير علم الدين سليمان بن جندر الحلبي، وكان من أكابر الأمراء في الدولة الصلاحية، وفي خدمة السلطان حيث كان، وهو الذي أشار على السلطان بتخريب عسقلان، واتفق مرضه بالقدس، فاستأذن في أن يمرض بدمشق، فأذن له، فسار حتى وصل إلى غباغب، فمات بها في أواخر ذي الحجة.

وفي رجب توفي الأمير الكبير نائب دمشق - حرسها الله تعالى - **الصفي ابن القابض**، وقد كان من أكبر أصحاب السلطان قبل الملك، ثم استنابه على دمشق حتى توفي بها في هذه السنة، رحمه الله.

وفي ربيع الأول توفي **الطبيب الماهر الحاذق أسعد بن المطران** وقد شرف بالإسلام، وشكره على طبه الخاص والعام، رحمه الله.

الشيخ نجم الدين الخبوشاني الذي بنى تربة الشافعي بمصر بأمر السلطان صلاح الدين، ووقف عليها الأوقاف السنية، وولاه تدريسها ونظرها، وقد كان السلطان يحترمه ويكرمه، وقد ذكرته في «طبقات الشافعية»، وما صنفه في المذهب من «شرح الوسيط» وغيره، ولما توفي الخبوشاني طلب التدريس جماعة، فشفع الملك العادل عند أخيه لشيخ الشيوخ أبي الحسن محمد بن حمويه، فولاه إياها، ثم عزل عنها بعد موت السلطان، واستمرت عليها أيدي بني السلطان واحدًا بعد واحد، ثم خلصت بعد ذلك، وعادت إليها الفقهاء والمدرسون، والله تعالى أعلم بالصواب.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

استهلَّتْ والسلطانُ صلاحُ الدينِ مُخَيِّمٌ بالقدسِ الشريفِ، وقد قسّم السورَ بينَ أولادِه وأمرائِه، وهو يعمَلُ فيه بنفسِه، ويحملُ الحجرَ بينَ القَرَبُوسِ وبيْنَه، والناسُ يقتَدُون به وبالعلماءِ، والفقراء يعملُون بأنفسِهم، والفرنجُ، لعَنَهم اللَّهُ، حولَ البلدِ من ناحيةِ عَسْقَلانَ وما والاها، لا يتجاسَرُون أنْ يتقرَّبُوا من الحرَسِ واليزَكِ الذينَ للسلطانِ حولَ القدسِ الشريفِ، إلا أنَّهم على نيَّةِ مُحاصَرَةِ القُدْسِ مُصَمِّمون، ولكيْدِ الإسْلامِ مُجْمِعونَ، وهم والحرسُ تارةً يَغْلِبون وتارةً يُغْلَبُونَ، وتارةً يَنْهَبُون وتارةً يُنْهَبونَ.

وفي ربيعٍ الآخرِ وصَلَ الأميرُ سيفُ الدينِ المشطوبُ إلى السلطانِ وهو بالقدسِ، من الأسْرِ، وكان نائبًا على عكَّا حين أُخذتْ، فافتدَىٰ نفسَه منهم بخَمْسين ألفَ دينارٍ، فأعْطَاه السلْطانُ شيئًا كثيرًا منها، واسْتَنابَه على مدينةِ نابُلُسَ، فتُوفِّي بها في شوَّالٍ منها.

وفي ربيعٍ الآخرِ قُتِلَ المركيسُ صاحبُ صُورَ، لعَنه اللَّهُ؛ أرسَلَ إليه ملكُ الإنْكِلْتيرِ اثْنَيْن من الفداويَّةِ فقتَلُوه، فأظْهَرا التَّنَصُّرَ، ولزِمَا الكنيسةَ حتى ظَفِرَا بالمركيسِ فقتَلاه وقُتِلا، فاسْتَنابَ ملكُ الإنكلتيرِ عليها ابنَ أخته لأمِّه الكَندهري، وهو ابنُ أختِ مَلِكِ إفْرَنسيسَ لأبيه، فهما خالاه، لعَنه اللَّهُ، ولما صارَ إلى صُورَ ابتنَىٰ بزَوْجَةِ المركيسِ بعدَ موْته بليلةٍ واحدةٍ، وهي حُبْلَىٰ أيضًا، وذلكَ لشدَّةِ العَداوَةِ التي كانتْ بينَ الإنْكلتيرِ وبيْنَه، وقد كان السلْطانُ صلاحُ الدينِ يُبغِضُهما، ولكنَّه قد كان صانَعه المركيسُ ببعضِ الشيءِ، فلم يَهُنْ قتْلُه عليه.

وفي تاسعِ جُمادَىٰ الأُولَىٰ اسْتَوْلَىٰ الفرنْجُ، لعنَهم اللَّهُ، على قلعةِ الدّاروم فخرَّبُوها، وقتَلُوا خلْقًا كثيرًا من أهْلِها، وأسَرُوا طائفةً من الذُّرِّيَّةِ، فإنا للَّهِ وإنَّا إليه راجعون، ثم أقبَلُوا بخَيْلِهم ورَجِلِهم جملةً نحوَ القدسِ الشريفِ، فبرَزَ إليهم السلْطانُ في حزبِ الإيمانِ وهو مشتملٌ على الرَّجَّالةِ والفرسانِ والأبطالِ والشجعانِ، فلمَّا تراءَىٰ الجمعانِ نكَص حزبُ الشيطانِ على عَقِبَيْه، وانقَلَبوا راجعين قبلَ القتالِ والنِّزالِ، وعادَ السلْطانُ إلى القدسِ الشريفِ وقد ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ثم إنَّ ملكَ الإنكلتيرِ، لعَنه اللَّهُ - وهو أكبرُ ملوكِ الفرنْجِ ذلك الوقتَ - ظفر ببعْضِ قُفُولِ المسلمين، فكبَسَهم ليلاً فقتَل منهم خلقاً كثيراً، وأسَر منهم خمسَمائةِ أسيرٍ، وغنم منهم شيئًا كثيرًا من الأمْوالِ والجمالِ، والخيلِ والبِغالِ، فكان جملةُ الجمالِ ثلاثةَ آلافِ بعيرٍ، فتقوَّىٰ الفرنْجُ بذلك شيئًا كثيرًا، وساءَ ذلك السلْطانَ مَساءةً عظيمةً جدًّا، وخافَ من غائلةِ ذلك، واسْتخدَم الإنْكلْتيرُ الجمَّالةَ على الجمالِ، والخَرْبَنْديَّةَ على البغالِ، والساسةَ على الخيلِ، وأقبلَ وقد قويَتْ نفسُه جدًّا، وصمَّم على

مُحاصرةِ القُدْسِ، وأرسَل إلى ملُوكِ الفرنجِ الذينَ بالساحلِ، فاستَحْضَرهم ومَن معهم من المُقاتلة، فتَعبَّأَ السلْطانُ لهم وتهيَّأ، وأكمَل السورَ وعمَّر الخنادقَ، ونصَب الآلاتِ والمجانيقَ، وأمَر بتَغْويرِ ما حولَ القُدْسِ من المياه، وأحْضَر السلْطانُ أُمَراءَه ليلةَ الجُمُعة تاسعَ عشرَ جُمادَىٰ الآخرة، وفيهم أبو الهَيْجاءِ السَّمينُ والمشطوبُ، والأسَديَّةُ بكمالِهم، واستَشارَهم فيما قد دهَمه من هذا الأمرِ الفظيعِ المُوجعِ المؤلِم، فأفاضُوا في ذلك، وأشاروا كلٌّ برأيِه، وأشارَ العمادُ الكاتبُ بأنْ يتحالَفُوا على الموت عندَ الصخرَة، كما كان الصَّحابةُ يفعَلُون، فأجابُوا إلى ذلك، هذا كلُّه والسلْطانُ ساكتٌ واجمٌ مفكِّرٌ، فسكَت القومُ كأنما على رُءوسِهمُ الطيرُ، ثم قالَ: الحمدُ للَّه والصلاةُ على رسُولِ اللَّه، اعْلَمُوا أنَّكم جندُ الإسْلامِ اليومَ ومنعتُه، وأنتم تعلَمُون أنَّ دماءَ المسلمين وأموالَهم وذَراريَّهم مُعلَّقةٌ في ذِمَمِكم، فإنَّ هذا العدوَّ ليس له من المسلمين مَن تلَقَّاه إلاَّ أنتم، فإنْ لَوَيْتُم أعِنَّتَكم - والعياذُ باللَّه - طوَىٰ البلادَ كطيِّ السِّجِلِّ للكتابِ، وكان ذلكَ في ذمَّتِكُم؛ فإنكم أنتم الذين تصَدَّيْتُم لهذا، وأكَلْتُم مالَ بيتِ المالِ، فالمسلمونَ في سائرِ البلادِ مُتعلِّقون بكم، والسلامُ.

فانْتَدَب لجوابِه سيفُ الدينِ المشطوبُ، وقال: يا موْلانا، نحنُ مَماليكُكَ وعَبيدُكَ، وانتَ الذي أعْطَيْتَنا وكبَّرْتَنا وعظَّمْتَنا، وليس لنا إلاَّ رِقابُنا ونحنُ بينَ يدَيْكَ، واللَّهِ ما يرجعُ أحدٌ منا عن نُصْرتِكَ إلى أن يموتَ. فقال الجماعةُ مثلَ ما قال، ففرِح السلْطانُ بذلك وطابَ قلبُه، ومدَّ لهم سِماطًا حافلاً، وانصرَفُوا من بينِ يديْه على ذلك.

ثم بلَغه بعدَ ذلك عن بعْضِ الأمراءِ أنَّه قال: إنَّا نخافُ أنْ يجْري علَيْنا في هذا البلد، كما جرَىٰ على أهلِ عكَّا، ثم يأخُذُون بلادَ الإسْلامِ بلدًا بلدًا، والمصْلحةُ أنْ نلْتَقيَهم بظاهرِ البلد؛ فإنْ هزَمْناهم أخَذْنا بقيةَ بلادِهم، وإنْ تكُنِ الأخرَىٰ سَلِمَ العسْكرُ، ومضَىٰ القُدْسُ وقد انحفَظَتْ بلادُ الإسْلامِ بدُونِ القُدْسِ مدةً طويلةً.

وبعثُوا إلى السلْطانِ يقولُونَ له: إنْ كنتَ تُريدُنا نقيمُ بالقُدْسِ تحتَ حصارِ الفرنجِ، فكُنْ أنتَ معَنا أو بعْضُ أهْلِكَ، حتى يكونَ الجيشُ تحتَ أمْرِكَ؛ فإنَّ الأكْرادَ لا تطيعُ التركَ، والتركُ لا تطيعُ الأكْرادَ. فلمَّا بلَغه ذلك شَقَّ عليه مشقَّةً عظيمةً، وباتَ ليْلتَه أجمعَ مهْمُومًا كئيبًا يفكِّرُ فيما قالُوا، ثم انجَلَى الأمرُ واتَّفقَ الحالُ على أنْ يكونَ الملكُ الأمجدُ، صاحبُ بَعْلَبَكَّ، مُقيمًا عندَهم نائبًا عنه بالقُدْسِ، وكان ذلك نهارَ الجُمُعة، فلمَّا حضَر إلى صلاةِ الجُمُعةِ وأذَّن المؤذِّنُ للظهرِ، قامَ فصلَّى ركعتَيْن بينَ الأذانَيْن، وسجَد وابْتَهَل إلى اللَّه تعالى ابْتِهالاً عظيمًا، وتضرَّعَ لربِّه، وتمَسْكَن وسأله فيما بيْنَه وبيْنَه كشْفَ هذه الضائقةِ العظيمة.

فلمَّا كان يومُ السبتِ من الغَدِ جاءَت الكتبُ من الحرَسِ حولَ البلدِ بأنَّ الفرنجَ قد اختَلفوا فيما بيْنَهم في محاصرةِ القدسِ، فقالَ ملكُ الإفْرَنسيسِ: إنَّا إنَّما جئْنا من البلادِ البعيدةِ وأنْفَقْنا الأموالَ العديدةَ

في تخليص بيتِ المَقْدسِ وردِّه إلينا، وقد بَقِيَ بيننا وبينَهم مرحلةٌ، فقال الإنكلْتيرُ: إن هذا البلدَ يشُقُّ علينا حصارُه؛ لأن المياهَ حوله قد عُدِمَتْ، ومتى بعَثْنا مَن يأْتينا بالماء مِن المشقة البعيدة تعطَّل الحصارُ، وتَلِف الجيشُ، ثم اتَّفق الحالُ بينهم على أن حكَّمُوا عليهم ثلاثمائة منهم، فردُّوا أمْرَهم إلى اثني عشَرَ منهم، فردُّوا أمرَهم إلى ثلاثة منهم، فباتوا ليلَتَهم ينظُرونَ، ثم أصبَحُوا وقد حكَمُوا عليهم بالرحيل، فلم يمكِنْهُم مخالَفتُهم، فسحَبُوا راجعين، لعَنَهم اللَّه أجمعينَ، فسارُوا حتى نزَلُوا على الرَّمْلَة، وقد طالت عليهم الغربةُ والرَّملة، وذلك في بُكْرَةِ الحادي والعشرينَ مِن جُمادَى الآخرة، وبرزَ السلْطانُ بجيشه إلى خارجِ القُدْسِ، وسارَ نحوَهم خوفًا أنْ يسيروا إلى مِصْرَ؛ لكثرةِ ما معهم من الظَّهرِ والأموال، وكان الإنكلتيرُ يلهَجُ بذلك كثيرا، فخذَلَهم اللَّهُ عن ذلك، وتردَّدَت الرسل من الإنكلتيرِ إلى السلطانِ في طلَبِ الصلح، ووَضْعِ الحربِ بينَه وبينَهم ثلاثَ سنينَ، وعلى أن يُعيدَ لهم عسْقلانَ، ويهب لهم كنيسةَ بيتِ المَقْدسِ وهي القُمامةُ، وأنْ يُمكِّنَ النصارَى مِن زيارتِها وحجِّها بلا شيءٍ، فامتنَع السلطانُ مِن إعادة عَسْقَلانَ وأطلَق لهم القُمامةَ، وفرَض على الزُّوَّار مالاً يؤخذُ من كلٍّ منهم، فامتنع الإنكلتيرُ إلاَّ أنْ تُعادَ لهم عَسْقلانُ، ويُعَمَّرَ سورُها كما كانتْ، فصَمَّم السلطان على عدَمِ الإجابة.

ثم ركِب السلْطانُ حتى وافَى يافا فحاصَرها حِصارًا شديدًا، فافتتَحَها، وغنم جيشُه منها شيئًا كثيرًا، وامتنَعت القلعةُ، فبالَغ في أمرِها حتى هانت ولانت ودانت، وكادوا أن يبعَثوا إليه بأقاليدها، ويأخُذوا الأمانَ لكبيرِها وصغيرِها، فبَيْنَما هم كذلك إذ أشْرَفَتْ عليهم مراكبُ الإنكلتيرِ على وَجْهِ البحرِ، فقَوِيَتْ رءوسُهم واسْتَغْصَتْ نفُوسُهم، وهجمَ اللعينُ فأعادَ البلدَ، وقتَل مَن تأخَّرَ بها مِن المسلمين صَبْرًا بينَ يَدَيْه، وتَقَهْقَرَ السلْطانُ عن منزلة الحصارِ إلى ما وراءَها؛ خوفًا على الجيش من مَعَرَّة الفرنجِ، فجعلَ ملكُ الإنكلتيرِ يتعَجَّبُ من شدَّةِ سطْوَةِ السلطان؛ كيف فتح هذا البلدَ العظيمَ في يومَيْنِ، وغيرُه لا يمكِنُه فتْحُه في عامين، ولكن ما ظننتُ أنَّه مع شهامَتِه وصرامته يتأخَّرُ مِن منزلَتِه بمجرَّدِ قُدومي، وأنا ومَن معي لم نخرُجْ مِن البحر إلاَّ جرائدَ بلا سلاحٍ، ثم ألَحَّ في طلب الصُّلْحِ على أنْ تكونَ عسقلانُ داخلَةً في صُلْحِهم، فامتنع السلْطانُ أشدَّ الامتناع، ثم إنَّ السلطانَ كبَس في تلك الليالي الإنكلتيرَ وهو في سَبْعَةَ عشَرَ فارسًا، وحوله قليلٌ مِن الرَّجَّالة، فأوكب السلطان بجيشه حولَه وحصرَه حَصرًا لم يبْق له معه نجاةٌ، لو صَمَّمَ معه الجيشُ، ولكنَّهم نكَلُوا كلُّهم عن الحملة، فلا قوَّةَ إلاَّ باللَّه، وجعَل السلطانُ يحرِّضهم غايَةَ التحريض، فكلُّهم يمتنعُ كما يمتنع المريضُ مِن شربِ الدواء.

هذا والإنكلْتيرُ، لعَنَه اللَّهُ، قد ركِب في أصحابه، وأخَذ عُدَّةَ قتاله وحِرابه، واستَعرَض المَيْمَنَةَ من أولِها إلى آخر الميسرة. يعني ميمنَةَ المسلمين ومَيْسَرتهم - فلم يتقدم إليه أحدٌ مِن الفرسان، ولابَهَش في

وجهه بطلٌ من الشجعان، فعندَ ذلك كرَّ السلطانُ راجعًا، وقد أحزَنه أنَّه لم يَرَ من الجيش مُطيعًا ولا سامعًا، فإنا للَّه وإنا إليه راجعونَ.

ثم حصَل للإنكلتير بعدَ ذلك مرَضٌ شديدٌ، وبعَث إلى السلطان يطلُبُ منه فاكهةً وثلجًا، فأمَدَّهُ السلطانُ بذلك من بابِ الفُتُوةِ والإحسان وإظهار القوةِ والامتنان، ثم عُوفِي، لعَنه اللَّهُ، وتكرَّرَت الرسُلُ منه يطلُبُ من السلطان المصالحةَ؛ وذلك لكثرةِ شوقه إلى بلاده، وتوقه إلى ملاذه وطاوع السلطان على ما يقول، ونزَل عن طلَبِ عَسْقَلانَ، ورضِي بما رسَم به السلطانُ، وكُتب كتابُ الصلح على ما رسَم به السلطانُ في ثامنَ عشَرَ شعبانَ، وأُكِّدت العهودُ والمواثيقُ من كلِّ ملكٍ من ملُوكهم وأسْقفٍ وجاثَليق، وحلَف الأمراءُ من المسلمين، وكتَبُوا خُطوطهم، واكتُفي من السلطان بالقول المجرَّد كما جرتْ به عادةُ السلاطين، وفرِح كلٌّ من الفريقَيْن فرَحًا كثيرًا، وأظهَروا سُرورًا، ووَقَعَت الهدْنَةُ على وضعِ الحرب ثلاثَ سنينَ وثمانيةَ أشهُرٍ، وعلى أن يُقَرَّ ما بأيْديهم من البلادِ الساحليَّة، وللمسلمين ما يُقابِلُها من البلادِ الجبَلِيَّة، وما بينَهما من المُعامَلات فقَسْمُها على المناصفَة، وأرسَل السلطانُ مائةَ نقَّابٍ صُحْبَةَ أميرٍ؛ لتخريبِ سُورِ عَسقَلانَ، وإخراجِ مَن بها من الفرنجِ والألمان.

وعاد السلطانُ إلى القُدس الشريف، فرتَّب أحوالَه ووطَّدَها، وسدَّد أمُورَه وأكَّدَها، وزادَ وقفَ المدرسة سُوقًا بدكاكينها وأرْضًا ببَساتينها، وزادَ وقفَ الصوفيَّة أيضًا، وعزَم على أن يحُجَّ عامَه ذلك، فكتَب إلى الحجَاز واليمنِ والديارِ المصريَّة والشاميَّة؛ ليعْلَموا بذلك، ويتأهَّبُوا له، فكتَب إليه القاضي الفاضلُ ينْهاه عن ذلك خَوْفًا على البلادِ، ويذكُرُ له أنَّ النظر في أحوالِ المسلمين وإصلاح أمرِهم الذي قد تداعَىٰ إلى الفساد، وسدَّ ثغورِهم، ومُصابَرَةَ أعدائهم في هذا الوقت، أفضلُ لكَ ممَّا عزَمْتَ عليه عامَكَ هذا، والعدُوُّ المخذولُ مخيِّمٌ بعدُ بالشام لم يُقْلِعْ منه مركَبٌ إلى بلادهم، وأنت تعلَمُ أنَّهم إنَّما يُهادِنُونَ؛ ليتَقوَّوا ويكثُروا، ثم يمْكُرُوا ويغْدُروا.

فسمِع السلطانُ منه، وشكَر نُصْحَه وقَبِله، وعزَم على ترْكِ الحَجِّ عامَه ذلك، وكتَب به إلى سائرِ المَمالك، واستمرَّ السلطانُ مُقيمًا بالقُدْسِ جميعَ شهرِ رمضانَ في صيامٍ وصلاةٍ وقرآنٍ، وكلَّما وفَدَ أحدٌ من رؤساءِ النصارىٰ للزيارة أوْلاه غايةَ الإكرام والإحسان؛ تأليفًا لقلُوبهم وتأكيدًا لما حَلَفوهُ من الأيْمان، ورغبةً أن يدخُلَ في قلوبِهم شيءٌ من الإيمانِ، ولم يَبْقَ أحدٌ من ملُوكِهم إلا جاءَ لزيارةِ القُمامة مُتنَكِّرًا، ويحضُرُ سماطَ السلْطانِ فيمَنْ يحضُرُ من جمهورِهم، بحيثُ لا يُرَىٰ، والسلْطانُ يعلَمُ ذلك جملةً لا تفصيلاً، ولهذا يعامِلُهم بالإكرام، ويُريهم صَفْحًا جميلاً، وبِرًّا جَزيلاً، وظلاًّ ظليلاً.

فلمَّا كان خامسُ شوَّالٍ ركِب في عساكرِه وجحافِله، فبرَز من القُدْسِ الشريفِ قاصدًا دمشقَ المحروسةَ، واستَنابَ على القُدْسِ عزَّ الدينِ جُرْدَيْكَ، وعلى قَضائها بهاءَ الدينِ يُوسُفَ بنَ رافع بنِ

تميم الشافعيِّ، واجْتازَ علىٰ وادِي الجِيبِ، وباتَ علىٰ بركةِ الدَّاوِيَّةِ، ثم أصبحَ في نَابُلُسَ، فنَظَرَ في أحْوالِها وأمورِها، ثم ترحَّلَ عنها، فجعَلَ يمرُّ بالمعاقِلِ والحصُونِ والبُلْدانِ للنظرِ في الأحْوالِ والأموالِ وكشْفِ المظالمِ والمحارمِ والمآثِمِ وترتيبِ المكارِمِ، وفي أثناءِ الطريقِ جاء إلىٰ خدْمَتِه بَيْمُنْدُ صاحبُ أنْطَاكِيَةَ فأكْرَمَه وأحسَنَ إليه، وأطْلَقَ له أموالاً جزيلةً وخِلَعًا جميلةً، وكان العمادُ الكاتبُ في صُحْبَتِه، فأخبَر عن مَنازِلِه منزلةً منزلةً ومرحلةً مرحلةً، إلىٰ أنْ قال: وعبَر يومَ الاثنينِ عَيْنَ الجَرِّ إلىٰ مَرْجِ يبُوس، وقد زالَ البُوس، وهناكَ توافَدَ أعْيانُ دِمشق وأماثِلُها وأفاضِلُها وفواضِلُها، ونزَلنا يومَ الثلاثاءِ علىٰ العرّادةِ، جرَىٰ المُتَلقُّون بالطُّرَفِ والتُّحَفِ علىٰ العادةِ، وأصْبَحْنا يومَ الأرْبعاءِ - يعَني سادسَ عشَرَ شوَّالٍ بُكْرَةً - إلىٰ جنَّةِ دِمشقَ داخِلين بسلامٍ آمنين، لولا أنَّنا غيرُ خالدين، وكانتْ غَيْبَةُ السلطانِ عنها طالَتْ أرْبَعَ سنِينَ، فأخرجَتْ دِمشق أثْقالَها، وأبْرزَتْ نِساءَها ورِجالَها، وكان يومَ الزِّينَةِ، وخرَجَ كلُّ مَن في المدينةِ، وحُشِرَ الناسُ ضُحًىٰ، وأشاعوا استبشارًا وفرَحًا، واجتَمَعَ بأولادِه الكِبارِ والصغارِ، وقدِمَ عليه رُسُلُ المُلوكِ مِن سائرِ الأمْصارِ، وأقامَ بقيةَ عامِه في اقْتِناصِ الصيدِ وحضُورِ دارِ العدلِ للفصلِ، والعملِ بالإحْسانِ والفَضْلِ.

ولَمَّا كان عيدُ الأضْحَىٰ امْتدَحَه بعضُ الشعراءِ بقصيدةٍ يقولُ فيها:

وأبيـهـا لوْلاَ تغـزُّلُ عَـيْنَيْـ ... ـهـا لَمَا قلتُ في التَّغَزُّلِ شِعْرًا

ولَكانَتْ مدائحُ الملكِ النا ... صرِ أولَى ما فيه أعمَلُ فكْرًا

ملكٌ طبَّقَ المَمالكَ عَدلاً ... مِثْلَ ما أوْسَعَ البَرِيَّةَ بِرًّا

فتَحَلَّ الأعيادَ صَوْمًا وفطرًا ... وتَلَقَّ الهنَاءَ بَرًّا وبحرَا

يا مُسِرَّ الطاعاتِ للَّه إنْ أضْـ ... ـحَى مليكٌ على الهَنَاتِ مُصِرًّا

نلتَ ما تبْتَغي من الدينِ والدنْـ ... ـيَا فَتيهًا على الملوكِ وفَخرًا

قَد جمعْتَ المجْدَيْنِ أَصْلاً وفَرْعًا ... وملَكْتَ الدارَيْنِ دنيَا وأُخرَى

ومِمَّا وقَعَ في هذه السنةِ مِن الحوادِثِ غَزْوَةٌ عظيمةٌ بينَ صاحبِ غَزْنَةَ شهابِ الدينِ السُّبُكْتكينيِّ وبينَ مَلِكِ الهندِ وأصْحابِه الذين كانوا قد كسَروه في سنَةِ ثلاثٍ وثمانين، فأظْفَرَه اللَّهُ بهم في هذه السنة، فكسَرَهم وقتَلَ خَلْقًا منهم، وأسَرَ خلقًا، وكان مِن جُملةِ مَنْ أسرَه مَلِكُهم الأعظمُ، وثمانيةَ عشَرَ فِيلاً، مِن جملَتِها الذي كان جرَحَه، فأُحضِرَ الملكُ بينَ يدَيْه فأهانَه ولم يُكرِمْه، واسْتَحوذَ علىٰ حِصْنِه، وأَخْبَرَ بما كان فيه مِن كلِّ جليلٍ وحقيرٍ، ثم قتلَه بعدَ ذلك، وعادَ إلىٰ غَزْنَةَ مؤيَّدًا منصُورًا مسْرورًا محْبُورًا.

وفي هذه السنةِ اتُّهِمَ أميرُ الحجِّ ببَغدادَ وهو طاشْتِكين - وقد كان علىٰ إمْرَةِ الحجيجِ مِن مدَّةِ عشرينَ سنةً، وكان في غايةِ حُسْنِ السِّيرَةِ - بأنَّه يُكاتِبُ صلاحَ الدينِ بنَ أيُّوبَ بالقدومِ إلىٰ العراقِ ليأخُذَها، فإنَّه ليس يَرُدُّه أحدٌ، وقد كان مكْذُوبًا عليه في ذلك، ومع هذا حُبِس وأُهينَ وصودِرَ.

فصل

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

القاضي شمسُ الدين، محمدُ بنُ محمد بن مُوسَى، المعْروفُ بابنِ الفراشِ، كان قاضيَ العساكرِ بدمشقَ، ويرْسلُه السلْطانُ في الرِّسالات إلىٰ مُلُوك الآفاق، وتُوفِّي بمَلَطْيَةَ عائدًا من بَني قلج.

سيْفُ الدين عليُّ بنُ أحمدَ المَشطوبُ، كان من أصْحابِ أسَدِ الدينِ شيرِكُوه، حضرَ معه الوقَعاتِ الثَّلاثَ بديارِ مصرَ، ثم صارَ من أكابرِ أمراءِ صلاحِ الدينِ، وهو الذي كان نائبًا علىٰ عكَّا حينَ أخَذَها الفرنجُ، فأسَرُوه في جملةِ مَن أسَرُوا، فافْتدَىٰ نفسَه بخمسين ألفَ دينارٍ، وتخلَّص إلىٰ أن خلَص إلىٰ السلْطانِ وهو بالقُدْسِ فأعْطاه أكثرَها، وولَّاه نيابةَ نابُلُسَ. وكانت وفاتُه يومَ الأحَدِ الثالثِ والعشرين من شوَّالٍ بالقُدْسِ الشريف، ودُفِنَ في داره.

صاحبُ بلاد الروم عزُّ الدين قلجُ أرْسَلانَ بنُ مَسْعُود بن قلَجَ أرْسلانَ[1]، وكان قد قسَمَ جميعَ بلاده بينَ أولادِه، طمعًا في طاعتِهم له، فخالَفُوه وتجبَّرُوا وعَتَوْا عليه، وخفَضوا قَدْرَه حتىٰ ارْتَفَعُوا، ولم يزَلْ كذلك حتىٰ تُوفِّي في عامِه هذا.

وفي ربيعٍ الآخرِ تُوفِّي **الأديبُ الشاعرُ أبو المُرهَف، نَصرُ بنُ منصُور النُّميريُّ،** سمعَ الحديثَ واشْتغلَ بالأدبِ، وكان قد أصابَه جُدَرِيٌّ وهوَ ابنُ أربعَ عشْرَةَ سنةً فنقَص بَصرُه، فكان لا يُبصِرُ الأشياءَ البعيدةَ، ويرَىٰ القريبَ منه، ولكنَّه لا يحتاجُ إلىٰ قائدٍ، فارْتَحلَ إلىٰ العراقِ؛ لمُداواةِ عيْنَيْه فأيَسَتْه الأطباءُ من ذلك، فاشْتَغَل بحفْظ القرآنِ ومُصاحبَةِ الصالحينَ والزُّهَّادِ فأفْلَحَ، وله ديوانُ شعرٍ كبيرٌ حسَنٌ، وقد سُئِل مرَّةً عن مذْهبِه واعْتقادِه، فأنشأَ يقولُ:

أُحِبُّ عليًّا والبَتُولَ وولْدَها ... ولا أجْحَدُ الشيْخَيْنِ فضْلَ التقدُّمِ

وأبْرأُ ممَّنْ نالَ عُثْمانَ بالأذَىٰ ... كما أتبَرَّأُ من وَلاءِ ابنِ مُلْجِمِ

ويُعْجِبُني أهلُ الحديثِ لصِدْقِهم ... فلستُ إلىٰ قومٍ سِواهُمْ بمُنْتَمِي

وكانتْ وفاتُه ببغدادَ، ودُفِنَ بمقابرِ الشهداءِ ببابِ حربٍ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

فيها كانت وفاةُ الملك النَّاصرِ صلاحِ الدين، رحمه اللَّهُ تعالىٰ[2].

اسْتَهلَّت هذه السنةُ وهو في غايةِ الصِّحةِ والسَّلامةِ، وخرجَ هو وأخوه العادلُ أبو بكرٍ إلىٰ الصيدِ شرْقيَّ دِمشقَ، وقد اتَّفَق الحالُ بينَه وبينَ أخيه أنَّه بعدَما قد تفرَّغ من أمرِ الفرنجِ هذه المدةَ يسيرُ هو إلىٰ بلادِ الرومِ، ويبعَثُ أخاه إلىٰ خلاطَ، فإذا فرَغا من شأنِهما سارَا جميعًا إلىٰ بلادِ أذْرَبيجانَ، وبلادِ

(١) ترجمته في «السير» (٢١/ ٢١١-٢١٢).

(٢) ترجمته في «السير» (٢١/ ٢٧٨-٢٩٠).

يكنْ بالعبارةِ المصطلحِ عليها، وكان قد جمَع له القُطْبُ النَّيسابوريُّ عقيدَةً فكان يحفَظُها، ويُحَفِّظُها مَن عقَل من أولادِه، وكان يحبُّ سَماعَ القرآنِ العظيمِ، ويُواظِبُ على سَماعِ الحديثِ، حتى إنَّه سمع في بعضِ المصافَّاتِ جزءًا وهو بينَ الصَّفَّيْنِ، فكانَ يَتَبجَّحُ بذلك ويقولُ: هذا موقفٌ لم يسمَعْ أحدٌ في مثْلِه حديثًا. وكان ذلك بإشارَةِ العِمادِ الكاتبِ.

وكان رقيقَ القلبِ سريعَ الدمعةِ عندَ سماعِ الحديثِ، كثيرَ التعظيمِ لشعائرِ الدينِ؛ كان قد لجَأ إلى ولَدِه الظاهرِ، وهو بحلَبَ، شابٌّ يقالُ له: الشِّهابُ السُّهْرَوَرْديُّ. وكان يعْرِفُ الكِيمْيَا وشيئًا من الشَّعْبَذَةِ والأبوابِ النِّيرَنْجيّاتِ، فافْتُتِنَ به ولدُ السلطانِ الظاهرُ، وقرَّبَه وأحبَّه، وخالفَ فيه حَمَلَةَ الشَّرْعِ، فكتَب إليه أن يقتلَه لا محالةَ، فصلَبه عن أمرِ والدِه وشهَّرَه، ويقالُ: بل حبَسه بينَ حائطينِ حتى ماتَ كمَدًا، وذلك في سنةِ ستٍّ وثمانين وخمسمائةٍ.

وكان السلطانُ صلاحُ الدينِ، رحمه اللَّهُ، مِن أشجعِ الناسِ وأقواهم بدَنًا وقلبًا، مع ما كان يعْتَري جِسْمَه مِن الأمراضِ والأسقامِ، ولاسيَّما وهو مرابطٌ مصابرٌ مثابرٌ عند عكَّا؛ فإنَّه كان مع كثرةِ جُموعِهم وأمدادِهم لا يزيدُه ذلك إلا قوةً وشجاعةً، وقد بلَغت جموعُهم خمسَمائةِ ألفِ مقاتلٍ، ويقالُ: ستُّمائةِ ألفٍ. وكان جملةُ مَن قُتل منهم مائةَ ألفِ مقاتلٍ.

ولما انفصَل الحالُ، وتسلَّموا عكَّا، و قتَلوا أكثرَ مَن كان بها، وسارُوا برُمَّتِهم نحوَ بيتِ المقدسِ؛ جعَل يُسايرُهم منْزِلةً منْزِلةً، ومرحلةً مرحلةً، وجيوشُهم أضعافُ أضعافِ مَن معَه، ومع هذا نصَره اللَّهُ وخذَلَهم، وأيَّدَه وقتَلهم، وسبَقهم إلى البيتِ المقدّسِ، فَصانَه وحَماه، وشيَّد بنيانَه، وأطَّد أركانَه، وصانَ حِماه، ولم يزَلْ بجيشِه مُقيمًا به يُرهِبُهم ويُرعِبُهم، ويَغْلِبُهم ويسْلُبُهم، ويَكْسِرُهم ويأسِرُهم حتى تضرَّعُوا إليه، وخضَعوا لديه، ودخَلوا عليه أن يصالحَهم ويتاركَهم، وتضَعَ الحربُ أوزارَها بينَهم وبينَه، فأجابَهم إلى ما سألوا على الوجهِ الذي أرادَه، لا ما يريدونه، وكان ذلك من جملةِ الرحمةِ التي خُصَّ بها المؤمنون؛ فإنَّه ما انْقَضَتْ تلك السِّنونَ حتى ملَك البلادَ أخوه أبو بكرٍ العادلُ، فعزَّ به المسلمون، وذَلَّ به الكافرون.

وكان رحمه اللَّهُ سَخيًّا كريمًا حَيِيًّا، ضحُوكَ الوجهِ كثيرَ البِشْرِ، لا يَتَضجَّرُ من خيرٍ يفعَلُه، شديدَ المُصابرَةِ والمثابرةِ على الخَيْراتِ والطاعاتِ، فرحِمه اللَّهُ، وأسْكَنه الجنَّاتِ، وقد ذكَر الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامةَ طرَفًا صالحًا من سيرَتِه وأيامِه، وعدلِه في سَريرَتِه وعلانِيَّتِه، وأحكامِه.

والذينَ تأخَّروا بعدَه ستةَ عشرَ ذكرًا، أكبرُهم الملكُ الأفضلُ نورُ الدينِ عليٌّ، وُلِدَ بمصرَ سنةَ خمسٍ وستين ليلةَ عيدِ الفطرِ، ثم العزيزُ عمادُ الدينِ أبو الفتحِ عثمانُ وُلِدَ بمصرَ أيضًا في جُمادَىٰ الأولَىٰ سنةَ سبعٍ وستين، ثم الظافرُ مظفَّرُ الدينِ أبو العباسِ الخَضِرُ، وُلِد بمصرَ في شعبانَ سنةَ ثمانٍ وستين، وهو شقيقُ الأفضلِ، ثم الظاهرُ غياثُ الدينِ أبو منصورٍ غازي، وُلِد بمصرَ في نصفِ رمضانَ سنةَ ثمانٍ وستين، ثم المُعزُّ فتحُ الدينِ أبو يعقوبَ إسحاقُ، ولِد بدمشقَ في ربيعٍ الأوَّلِ سنةَ سبعين، ثم نجمُ الدينِ أبو الفَتْحِ مسعودٌ، ولِد بدمشقَ سنةَ إحدىٰ وسبعين، وهو شَقيقُ العزيزِ، ثم الأغَرُّ شرفُ الدينِ أبو يُوسفَ يعقوبُ، وُلِدَ بمصرَ سنةَ ثِنْتَين وسبعين، وهو شقيقُ العزيزِ أيضًا، ثم الزَّاهرُ مُجيرُ الدينِ أبو سليمانَ داودُ، وُلِدَ بمصرَ سنةَ ثلاثٍ وسبعين، وهو شقيقُ الظاهرِ، ثم أبو الفضلِ قطبُ الدينِ موسىٰ، وهو شقيقُ الأفضلِ، ولِدَ بمصرَ سنةَ ثلاثٍ وسبعين أيضًا، ثم لُقِّبَ بالمُظَفَّرِ، ثم الأشرفُ مُعزُّ الدينِ أبو عبدِ اللَّه محمدُ، وُلِدَ بالشامِ سنةَ خمسٍ وسبعين، ثم المحسنُ ظهيرُ الدينِ أبو العباسِ أحمدُ؛ ولِدَ بمصرَ سنةَ سبعٍ وسبعين، وهو شقيقُ الذي قبلَه، ثم المعَظَّمُ فَخرُ الدينِ أبو منصورٍ تُورَانْشاه، وُلِدَ بمصرَ في ربيعٍ الأولِ سنةَ سبعٍ وسبعينَ، وتأخَّرت وفاتُه إلىٰ سنة ثمانٍ وخمسين وستِّمائة، ثم الجَوَّالُ ركنُ الدينِ أبو سعيدٍ أيوبُ ولِدَ سنةَ ثمانٍ وسبعين، وهو شقيقٌ للمُعزِّ، ثم الغالبُ نصيرُ الدينِ أبو الفتحِ مَلِكْشاه، وُلِد في رجبٍ سنةَ ثمانٍ وسبعين وهو شقيقُ المُعَظَّمِ، ثم المنصورُ أبو بكرٍ أخو المُعَظَّمِ لأبَوَيْه، وُلِد بحَرَّانَ بعدَ وفاةِ السلطانِ، ثم عِمادُ الدينِ شاذي لأمِّ ولدٍ، ونُصرةُ الدينِ مَرْوانُ لأمِّ ولدٍ أيضًا. وأمَّا البنتُ فهي مُؤْنِسةُ خاتون تزوَّجها ابنُ عمِّها الملكُ الكاملُ محمد بنُ العادلِ أبي بكر بنِ أيوبَ، رحمهم اللَّهُ تعالىٰ.

وإنَّما لم يُخلِفْ أموالاً ولا أملاكًا؛ لكثرةِ عَطاياه وهِباتِه وصدقاتِه وإحسانِه إلىٰ أمرائِه ووزرائِه وأوليائِه، حتىٰ إلىٰ أعدائِه، وقد أسلفنا ما يدُلُّ علىٰ كثيرٍ من ذلك، رحمه اللَّهُ، وقد كان متقلِّلاً في ملبسِه، ومأكلِه، ومشربِه، ومركبِه، فلا يلبَسُ إلا القطنَ والكتَّانَ والصُّوفَ، ولا يُعْرَفُ أنَّه تخطَّىٰ مكروهًا بعدَ أن أنعمَ اللَّهُ عليه بالمُلْكِ، بل كان همُّه الأكبرُ ومقصودُه الأعظمُ نصرَ الإسلامِ، وكسْرَ الأعداءِ اللِّئامِ، ويُعْمِلُ فكرَه في ذلك ورأيَه وحدَه مع مَن يثِقُ برأيِه ليلاً ونهارًا، سرًا وجهارًا.

وهذا مع ما لديه من الفضائلِ والفَواضلِ، والفوائدِ الفَرائدِ، في اللغةِ والأدبِ وأيامِ الناسِ، حتىٰ قيل: إنَّه كان يحفَظُ الحماسةَ بتَمامِها وختامِها. وكان مُواظبًا علىٰ الصلواتِ في أوقاتِها في جماعةٍ، يقالُ: إنَّه لم تَفُتْه الجماعةُ في صلاةٍ قبلَ وفاتِه بدهرٍ طويلٍ، حتىٰ ولا في مرضِ موتِه، كان يُدخِلُ الإمامَ فيُصلِّي به، فكان يتجشَّمُ القيامَ مع ضَعْفِه، رحمه اللَّهُ.

وكان يفهَمُ ما يقالُ بينَ يدَيْه من البحثِ والمُناظَرةِ، ويُشارِكُ في ذلك مُشاركةً قريبةً حسنةً، وإن لم

وتسعين، وصلَّى عليه تحتَ النَّسْرِ قاضي القُضاةِ محمدُ بنُ عليٍّ القُرشيُّ ابنُ الزَّكيِّ، عن إذنِ الأفضلِ له، ودخَل في لَحدِه ولَدُه الأفضَلُ، فدَفَنه بنفسِه، وهو يومَئذٍ سلطانُ الشامِ، وذلك لما له عليه من الحقِّ والخدمةِ والإكرامِ، ويقالُ: إنَّه دُفِن معه سيفُه الذي كان يحضُرُ به الجهادَ والجِلادَ، وذلك عن أمرِ القاضي الفاضلِ أحدِ الأجوادِ الأمجادِ، وتفاءَلوا بأنَّه يكونُ معه يومَ القيامةِ يتوكَّأُ عليه، حتى يدخُلَ الجنَّةَ؛ لما أُنْعِمَ به عليه من كسرِ الأعداءِ، ونصرِ الأولياءِ، وأُعظِم عليه بذلك المِنَّةُ. ثم عُمِل عَزاؤُه بالجامعِ الأُمَويِّ ثلاثةَ أيامٍ، يحضُرُه الخَواصُّ والعَوامُّ، والرَّعيَّةُ والحُكَّامُ، وقد عمِل الشُّعراءُ فيه مَراثيَ كثيرةً، من أحْسَنِها ما عمِل العمادُ الكاتبُ في آخرِ كتابِه «البَرْقِ الشاميِّ»، وهي مائتانِ واثنانِ وثلاثون بيتًا، وقد سرَدها الشيخُ شِهابُ الدينِ أبو شامةَ في «الرَّوْضتَيْن»، فمنها قولُه في أولِها:

شَمْلُ الهُدَى والمُلْكِ عمَّ شَتاتُهُ ... والدهرُ ساءَ وأقلَعتْ حَسَناتُهُ
أين الذي مُذْ لم يَزَلْ مَخْشِيَّةً ... مَرْجُوَّةً رَهَباتُه وهِباتُهُ
أين الذي كانت له طاعاتُنا ... مَبْذُولةً ولربِّه طاعاتُهُ
باللَّهِ أين الناصرُ الملكُ الذي ... للَّهِ خالصةً صَفَتْ نِيَّاتُهُ
أين الذي ما زال سلطانًا لنا ... يُرْجَى نَداهُ وتُتَّقَى سَطَواتُهُ
أينَ الذي شَرُفَ الزمانُ بفضلِه ... وسمَتْ على الفُضَلاءِ تشريفاتُهُ
أينَ الذي عنَت الفرنجُ لبأسِه ... ذُلًّا، ومنها أُدْرِكتْ ثاراتُهُ
أغْلالُ أعْناقِ العِدا أسْيافُه ... أطْواقُ أجيادِ الورَى مِنَّاتُهُ

وللعمادِ الكاتبِ في الملكِ الناصرِ يَرْثيه:

مَن للعُلا مَن للذُّرَى مَن للهُدَى ... يَحْميه مَن للبأسِ مَنْ للنَّائلِ
طلبَ البقاءَ لمُلكِه في آجلٍ ... إذ لم يثِقْ ببقاءِ مُلكٍ عاجلِ
بَحْرٌ أعادَ البَرَّ بَحْرًا بِرُّه ... وبسيفِه فُتِحتْ بلادُ السَّاحلِ
مَن كان أهلُ الحقِّ في أيامِه ... وبعِزِّه يُرْدُون أهلَ الباطلِ
وفُتوحُه والقُدْسُ مِن أبْكارِها ... أبقَتْ له فضلًا بغيرِ مُساجِلِ
ما كنتُ أسْتَسْقي لقَبْرِكَ وابِلًا ... ورأيتُ جُودَكَ مُخْجِلًا للوابلِ
فسَقاكَ رِضْوانُ الإلهِ لأنَّني ... لا أرْتَضي سُقْيَا الغَمامِ الهاطلِ

ذِكرُ تركتِه وشيءٍ مِن ترجمتِه

قال العمادُ وغيرُه: لم يترُكْ في خزانتِه من الذهبِ سوى جرمٍ واحدٍ صُوريٍّ وستةٍ وثلاثين درهمًا. وقال غيرُه: سبعةٍ وأربعينَ درهمًا، ولم يترُكْ دارًا ولا عَقارًا ولا مزْرعةً ولا بُسْتانًا، ولا شيئًا من أنواعِ الأملاكِ. هذا وله مِن الأولادِ سبعةَ عشَرَ ذكرًا وابنةٌ واحدةٌ، وتُوفِّي له في بعضِ حياتِه غيرُهم،

العَجَم، فإنَّه ليس دونَها أحدٌ يُمانعُ عنها ولا يَصُدُّهم عنها، فلمَّا قدم الحجيجُ من الحجازِ الشريفِ في يوم الاثنين حادي عشرَ صَفَر خرَجَ؛ لتَلَقِّيهم، وقدِم معهم ولَدُ أخيه سيفِ الإسلام، صاحبِ اليمَن، فأكرَمه واحتَرمه، وعاد إلى القلعة المنصورة، فدخَلها من بابِ الحديد، فكان ذلك آخرَ ما ركِب في هذه الدنيا، ثم إنَّه اعتَراه حُمَّى صفراوِيَّةٌ ليلةَ السبتِ سادسَ عشَرَ صَفَر، فلما أصبَح دخَل عليه القاضي الفاضلُ، وابنُ شدَّادٍ، وابنُه الأفضلُ، فأخَذ يشكو إليهم كثرةَ قلقِه البارحةَ، وطابَ له الحديثُ، وطال مجلسُهم عندَه، ثم تزايدَ به المرضُ واستَمرَّ، وقصَده الأطباءُ في اليوم الرابع، فاعتَراه يُبسٌ، وحصَل له عرَقٌ شديدٌ بحيثُ نفَذ إلى الأرضِ، فقَوِيَ اليُبْسُ، فأُحضِر الأمراءُ من الأكابرِ، والرؤساءِ، فبُويعَ لولَده الأفضلِ نورِ الدينِ عليٍّ نائبًا على دمشقَ، وذلك عندَما ظهَرت مَخايلُ الضَّعْفِ الشديدِ، وغيبوبَةُ الذِّهْنِ في بعضِ الأوقاتِ، وكان الذين يدخُلون عليه في هذه الحالِ القاضيَ الفاضلَ، وابنَ شدَّادٍ، وقاضيَ البلدِ ابنَ الزَّكيِّ، وتفاقَم الحالُ ليلةَ الأربعاء السابعِ والعشرين مِن صفرٍ، واستدعَى الشيخَ أبا جعفرٍ إمامَ الكَلَّاسةِ؛ ليبيتَ عندَه يقرأُ القرآنَ، ويُلقِّنُه الشهادةَ إذا جَدَّ به الأمرُ، فذكَر أنَّه كان يقرأُ عندَه وهو في غَمَراتِ الموتِ، فقرأ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]. فقال: وهو كذلك صحيحٌ. فلمَّا أذَّنَ الصبحُ جاء القاضي الفاضلُ فدخَل عليه وهو في آخرِ رمَقٍ، فلمَّا قرأ القارئُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [الرعد: ٣٠]. تبسَّمَ وتهَلَّلَ وجهُه، وأسلَمَ رُوحَه إلى ربِّه سبحانَه، وماتَ رحِمه اللَّهُ، وأكرَم مَثْواه، وجعَل جنَّةَ الفِرْدَوْسِ مأْواه، وكان له مِن العُمرِ سبعٌ وخمسون سنةً؛ لأنه وُلِد بتَكْرِيتَ في شُهورِ سنةِ ثِنْتَيْن وثلاثين وخمسمائة، رحمه اللَّهُ، فقد كانَ رِدْءًا للإسلام، وحِرْزًا وكَهفًا من كَيدِ الكفَرَةِ اللِّئام، وكان أهلُ دمشقَ لم يُصابُوا بمِثْلِ مُصابِه، ووَدَّ كلٌّ منهم لو فَداه بأولادِه وأحبابِه وأصحابِه، وقد غُلِّقَت الأسواقُ، واحتُفِظَ على الحَواصلِ، ثم أخَذُوا في تجهيزِه وغسلِه، وحضَر جميعُ أولادِه وأهلِه، ويَعِزُّ عليهم أن يأتوا بمِثْلِه، وكان الذي تولَّى غَسْلَه خطيبَ البلَدِ الفقيهَ الدَّوْلَعيَّ، وكان الذي أحضَرَ الكفَنَ ومُؤْنَةَ التَّجْهيزِ القاضيَ الفاضلَ مِن صُلْبِ ماله الحَلالِ، هذا وأوْلادُه الكِبارُ والصِّغارُ يَبْرُزونَ ويُنادُون ويبكُون، والناسُ في التعويلِ والانْتِحابِ والابْتِهالِ، ثم أُبرِزَ في تابُوتٍ بعدَ صلاةِ الظهرِ، وأمَّ الناسَ عليه القاضي ابنُ الزَّكيِّ، ثم دُفِنَ في داره بالقَلْعَةِ المنصورةِ، وشرَع ابنُه في بناءِ تُرْبَةٍ له، ومدرسةٍ للشافعية بالقُرْبِ مِن مسجدِ القَدَمِ؛ لوصيَّته بذلكَ قديمًا، فلم يكمُلْ بِناؤُها ولم يتمَّ، وذلك حينَ قَدِم ولَدُه العزيزُ، وكان مُحاصِرًا لأخيه الأفْضلِ، كما سيأتي بَيانُه، في سَنةِ تسعين وخمسمائةٍ، ثم اشتَرى له الأفْضَلُ دارًا شَماليَّ الكَلَّاسة في وِزَانِ ما زادَه القاضي الفاضلُ في الكَلَّاسةِ، فجعَلها له تُرْبةً، هطَلَتْ سَحائبُ الرَّحْمةِ عليها، ووَصَلَتْ أَلْطافُ الرَّأْفَةِ إليها. وكان نقْلُه إليها في يوم عاشُوراءَ سنةَ اثنتين

فصل

كان السلطانُ الملكُ الناصرُ صلاحُ الدينِ قد قسَم البلادَ بينَ أولادِه، فالديارُ المصريةُ لولَدِه العزيزِ عمادِ الدينِ عثمانَ أبي الفتحِ، وبلادُ دمشقَ وما حولَها لولدِه الأفضلِ نورِ الدينِ عليٍّ، وهو أكبرُ أولادِه كلِّهم، والمملكةُ الحَلَبيَّةُ لولدِه الظاهرِ غازي غياثِ الدينِ، ولأخيه العادلِ الكَرَكُ والشَّوْبَكُ وبلادُ جعبرٍ وبلادٌ كثيرةٌ قاطعَ الفُراتِ، وحَماةُ ومُعامَلَةٌ أخرىٰ معها للملكِ المنصورِ محمدِ بنِ تَقيِّ الدينِ عمرَ ابنِ أخي السلطانِ، وحِمْصُ والرَّحْبَةُ وغيرُها لأسدِ الدينِ شِيرِكُوه بنِ ناصرِ الدينِ محمدِ ابنِ أسدِ الدينِ شِيرِكُوه الكبيرِ، عمِّ صلاحِ الدينِ أخي أبيه نجمِ الدينِ أيوبَ، واليَمنُ بمَعاقلِه ومخاليفِه جميعِه في قبضةِ السلطانِ ظَهيرِ الدينِ سيفِ الإسلامِ طُغْتِكينَ بنِ أيوبَ، أخي السلطانِ صلاحِ الدينِ، وبَعْلَبَكُّ وأعمالُها للأمجدِ بهْرام شاه بنِ فرُّوخشاه، وبُصْرَىٰ وأعمالُها للظَّافرِ بنِ الناصرِ، ثم شرَعت الأمورُ بعدَ موتِ صلاحِ الدينِ تضطَرِبُ وتختلِفُ وتتفاقمُ في جميعِ هذه الأحوالِ، حتىٰ آلَ الأمرُ إلىٰ ما إليه آلَ، واسْتَقَرَّت الممالكُ، واجتمَعت المحافلُ علىٰ أخي السلطانِ، الملكِ العادلِ، وصارَت المملكةُ في أولادِه الأماجدِ الأفاضلِ، كما سنوضِّحُه قريبًا، إن شاء اللَّهُ تعالىٰ.

وفي هذه السنة جدَّدَ الخليفةُ الناصرُ لدينِ اللَّه خزانةَ كتبِ المدرسةِ النِّظاميةِ ببغدادَ، ونقَل إليها ألوفًا من الكتبِ الحسنةِ المُثمَّنَةِ.

وجرَت ببغدادَ في المحرَّمِ من هذه السنةِ كائنةٌ غريبةٌ؛ وهي أنَّ ابنةً لرجلٍ من التُّجَّارِ في الطَّحينِ تعَشَّقَت لغلامِ أبيها، فلما علِم أبوها بأمرِها طرَد الغلامَ من دارِه، فواعَدَته البنتُ ذاتَ ليلةٍ، فجاء مُخْتفِيًا، فتركَتْه في بعضِ الدارِ، ونزَل في أثناءِ الليلِ، فقتَل أباها مولاه، وأمرَتْه الجاريةُ بقَتْلِ أمِّها، فقتَلها وهي حُبْلَىٰ، وأعْطَتْه الجاريةُ حَلْيًا بقيمةِ ألفي دينارٍ، فأصبح أمرُه عندَ الشرطةِ فمُسِك وقُتِل، قبَّحه اللَّهُ وإيَّاها، وقد كان سيِّدُه من خيارِ الناسِ، وأكثرِهم صدقةً وبِرًّا، وكان شابًّا، وَضِيءَ الوجهِ، رحمه اللَّهُ.

وفيها درَّس بالمدرسةِ الجديدةِ عندَ قبرِ معروفٍ الكَرْخيِّ الشيخُ أبو عليٍّ النَّوْقانيُّ، وحضَر عندَه القُضاةُ والأعيانُ، وعُمِل بها دعوةٌ حافلةٌ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

السلطانُ صلاحُ الدينِ يوسفُ بنُ أيوبَ بنِ شاذي، وقد تقدَّم ذلك مبْسوطًا.

الأميرُ بُكْتَمُرُ صاحبُ خلاطَ، قُتِل في هذه السنةِ، وكان من خيارِ الملوكِ، وأشجعِهم، وأكرمِهم، وأحسنِهم سيرةً، رحمه اللَّهُ.

الأتابكُ عزُّ الدينِ مسعودُ بنُ مَوْدودِ بنِ زنْكي، صاحبُ المَوْصِلِ نحوًا من ثلاثَ عشْرَةَ سنةً، وكان

مِن خيارِ المُلوكِ وأحسنهم سيرةً، كان يَتشبَّهُ بالملكِ العادلِ نورِ الدينِ عمِّه، ودُفِن بتُربتِه عندَ مدرسةٍ أنشأَها بالموصلِ، أثابَه اللَّهُ.

جعفرُ بنُ محمدِ بنِ قطيرا، أبو الحسنِ، أحدُ الكتّابِ بالعراقِ، كان يُنسَبُ إلى التَّشيُّعِ، وهذا كثيرٌ في أهلِ تلك البلادِ، لا أكثرَ اللَّهُ في المسلمين أمثالَهم ولا أشكالَهم. جاءَه رجلٌ ذاتَ يومٍ فقال له: رأيتُ البارحةَ أميرَ المؤمنين عليًّا في المنامِ وهو يقولُ لي: اذهَبْ إلى ابنِ قطيرا، فقُلْ له يعْطيك عشَرَةَ دنانيرَ. فقال له ابنُ قطيرا: متى رأيْتَه؟ قال: أوَّلَ الليلِ. قال: فأنا رأيْتُه في آخرِه، فقال: إذا جاءَكَ رجلٌ من صفتِه كذا وكذا، فطلَب منك شيئًا، فلا تُعْطِه. فأدبرَ الرجلُ موليًا، فاستدعاه ووهَبه شيئًا.

ومن شعرِه فيما أورَدَه ابنُ الساعي، وقد تقدَّم لغيرِه:

ولما سبَرْتُ الناسَ أطلبُ منهمُ	أخا ثقةٍ عندَ اعتراضِ الشدائدِ
وفكَّرْتُ في يومَيْ سروري وشِدَّتي	وناديْتُ في الأحياءِ هل من مُساعدِ
فلم أرَ فيما ساءَني غيرَ شامتٍ	ولم أرَ فيما سرَّني غيرَ حاسدِ

يحيى بنُ سعيدِ بنِ غازي، أبو العباسِ البصريُّ، صاحبُ «المقامات»، كان شاعرًا أديبًا فاضلاً بليغًا، له اليدُ الطُّولَى في اللغةِ والنَّظْمِ، ومن شعرِه قولُه:

غناءُ خُودٍ ينسابُ لُطفًا	بلا عَناءٍ في كلِّ أُذُنْ
ما ردَّه قطُّ بابُ سمعٍ	ولا أتى زائرًا بإذْنْ

السيدةُ زُبَيْدَةُ بنتُ الإمامِ المُقتفِي لأمرِ اللَّهِ، أختُ المُسْتَنْجِدِ، وعَمَّةُ المُسْتَضِيءِ، كانت قد عُمِّرَتْ دهْرًا طَويلاً، ولها صدَقَاتٌ كثيرةٌ دارَّةٌ، وقد تزَوَّجَها في وقتِ السلطانُ مَسْعُودٌ على صَدَاقِ مائةِ ألفِ دينارٍ، فتُوُفِّي قبلَ أنْ يَدْخلَ بها، وقد كانتْ كارِهةً لذلك، فحَصَلَ مَقصُودُها.

الشيخةُ الصالحةُ فاطمةُ خاتُون بنتُ محمدِ بنِ الحَسَنِ العميدِ، كانت صالحةً عابِدةً زَاهِدةً، عُمِّرَتْ مائةَ سنةٍ وستَّ سنِينَ، كانَ قد تزَوَّجَها في وقتٍ أميرُ الجُيُوشِ نَظَرٌ وهي بِكْرٌ، فبَقِيَتْ عندَه إلى أنْ تُوُفِّي ولم تتزوَّجْ بعدَه، بل اشتغَلَتْ بذكرِ اللَّهِ، عزَّ وجلَّ، والعبَادَةِ، رَحِمَها اللَّهُ.

وفي هذه السَّنَةِ أنْفَذَ الخليفةُ النَّاصِرُ لدينِ اللَّهِ العَبَّاسي إلى الشَّيخِ أبي الفَرَجِ ابنِ الجَوْزِيِّ يَطْلُبُ منه أنْ يَزِيدَ على أبْيَاتِ عَدِيِّ بنِ زَيْدٍ المَشْهُورَةِ ما يُنَاسِبُها مِن الأشْعَارِ، ولو بَلَغَ ذلك عشرَ مُجَلَّدَاتٍ،

وهي هذه الأبْيَاتُ:

أيها الشَّامتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْـ ـرِ أأنتَ المُبَرَّأُ الموفُورُ
أمْ لَديْكَ العَهْدُ الوَثِيق منَ الـ ـأيامِ، بل أنتَ جَاهلٌ مغرُورُ
مَنْ رَأَيتَ المَنُونَ خَلَّدْنَ أمْ مَنْ ذَا عليه من أنْ يُضَامَ خَفِيرُ
أينَ كِسْرَى كِسْرَى المُلُوك أبو سَا سانَ أمْ أينَ قبلَه سَابُورُ
وبَنُو الأصْفَرِ المُلُوكُ مُلُوكُ الرُّ وم لم يَبْقَ منهم مَذْكُورُ
وأخُو الحَضْرِ إذْ بَنَاه وإذْ دجْـ ـلَةُ تُجْبَى إليه والخَابُورُ
شَادَه مَرْمَراً وجَلَّلَه كِلْـ ـسًا فللطَّيْرِ في ذُرَاه وُكُورُ
لم تَهَبْه ريبُ المَنُون فَزَالَ الـ ـملكُ عنه فَبَابُه مَهْجُورُ
وتَذَكَّرْ رَبَّ الخَوَرْنَق إذا أشْـ ـرَفَ يومًا وللهُدَى تفكيرُ
سَرَّه حالُه وكَثْرَةُ ما يَمْـ ـلكُ والبحرُ مُعْرِضًا والسَّدِيرُ
فارْعَوَى قَلْبُهُ وقالَ وما غِبْـ ـطَةُ حيٍّ إلى المَمَاتِ يَصِيرُ
ثمَّ بعدَ الفَلاَحِ والمُلك والإمَّـ ـةِ وارَتْهُمُ هناكَ القُبُورُ
ثمَّ أضْحَوْا كَأنّهم ورَقٌ جَـ ـفَّ فَأَلْوَتْ به الصَّبَا والدَّبُورُ
غيرَ أنَّ الأيامَ تَخْتَصُّ بالمرْ ءِ وفيها لَعَمْرِي العِظَاتُ والتَّفكِيرُ

ثم دخلت سنة تِسْعين وخمسمائة

لَمَّا استَقرَّ المَلِكُ الأفْضَلُ بنُ صلاحِ الدِّينِ مَكَانَ أبيه بدِمَشْقَ، بعَثَ بهَدَايَا سَنِيَّةٍ فيها تُحَفٌ شَرِيفَةٌ إلىٰ بابِ الخِلافَةِ مِن ذلك سِلاحُ أبيه، وحِصَانُه الذي كانَ يَحْضُرُ عليه الغَزَوَاتِ، وأشْيَاءُ كَثِيرَةٌ؛ منها صَلِيبُ الصَّلَبُوتِ الذي اسْتَلَبَه أبُوه مِن الفِرنْجِ يومَ حِطِّينَ، وفيه مِن الذَّهَبِ مَا يَنِيفُ علىٰ عِشْرِينَ رِطْلاً، وهو مُرَصَّعٌ بالجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ، وأرْبَعُ جوارٍ مِن بَنَاتِ مُلُوكِ الفِرنْجِ، وأنْشَأَ له العِمَادُ الكَاتِبُ كتابًا حَافِلاً يذْكُرُ فيه التَّعْزِيَةَ بأَبِيه، والسُّؤالَ مِن الخَلِيفَةِ أنْ يكُونَ في مُلْكِه مِن بَعْدِه؛ فأُجِيبَ إلىٰ ذلك.

ولَمَّا كان شَهْرُ جُمَادَىٰ الأُولَىٰ قَدِمَ العزيزُ صاحبُ مِصْرَ إلىٰ دِمَشْقَ؛ ليَأْخُذَها مِن أخِيه الأفْضَلِ، فَخَيَّمَ علي الكُسْوَةِ يومَ السَّبْتِ سادِسَ جُمَادَىٰ، وحَاصَرَ البلدَ، فَمَانَعَه أخُوه ودَافَعَهُ عنها، فقُطِعَتْ الأنْهَارُ ونُهِبَتِ الثِّمَارُ، واشْتَدَّ الحالُ، ولم يَزَلْ الأمر كذلك حتىٰ قَدِمَ العَادِلُ - عَمُّهما - فأصْلَحَ بيْنَهما، وردَّ الأمْرَ للأُلْفَةِ بعدَ اليمينِ علىٰ أنْ يكُونَ للعَزِيزِ القُدْسُ وما جاوَرَ فِلْسطِينَ من نَاحِيَته أيضًا، وعلىٰ أنْ يكُونَ جَبَلَةُ واللاذِقِيَةُ للظَّاهِرِ صاحبِ حَلَبَ، وأنْ يكُونَ لِعَمِّهما العَادِلِ إقْطاعُه الأوَّلُ ببلادِ

مِصْرَ مُضَافًا إلى مَا بِيَدِه مِن الشَّام والجَزِيرَةِ؛ كحرَّانَ والرُّهَا وجَعْبَرَ وما جاوَرَ ذلك، فاتَّفَقُوا على ذلك، وتَزَوَّجَ العزيزُ بابنة عَمِّه العَادِلِ، ومَرِضَ ثم عُوفِيَ وهو مُخَيِّمٌ، بَمَرْجِ الصُّفَّرِ، فَخَرَجَتْ المُلُوكُ لتَهْنِئَتِه بالعافيَةِ والتَّزْوِيجِ والصُّلْحِ، ثمَّ كرَّ راجعًا إلى مصرَ لطُولِ شَوْقِه إلى أهله وأوْلاده.

وكان الأفْضَلُ بعدَ مَوْتِ أبيه قد أساء التَّدْبِيرَ فأبْعَدَ أُمَرَاءَ أبيه وخَوَاصَّه، وقَرَّبَ الأجَانِبَ، وأقْبَلَ على شُرْبِ المُسْكِرِ واللَّهْوِ واللَّعِبِ، واسْتَحْوَذَ عليه وَزِيرُه ضِيَاءُ الدِّينِ بنُ الأثِيرِ الجَزَرِيُّ، وهو الذي كان يَحْدُوه إلى ذلك، فَتَلِفَ وأتْلَفَه، وضَلَّ وأضَلَّه، وزَالَتِ النِّعْمَةُ عنهما، كما سيَأْتِي.

وفيها كانت وَقْعَةٌ عَظِيمَةٌ بينَ شِهَابِ الدِّينِ مَلِكِ غَزْنَةَ وبينَ كُفَّارِ الهِنْدِ؛ أقْبَلُوا إليه في ألْفِ ألْفِ مُقَاتِلٍ، ومعهم سَبْعُمائَةِ فِيلٍ، منها فيلٌ أبيضُ لم يُرَ مِثْلُه، فالْتَقَوْا فاقْتَتَلُوا قتالاً شَدِيدًا لم يُرَ مِثْلُه، فَهَزَمَهم شِهَابُ الدِّينِ عندَ نَهْرٍ عَظِيمٍ يُقالُ له: مَاجُونُ. وقَتَلَ مَلِكَهم، واسْتَحْوَذَ على حَوَاصِلِه وحَوَاصِلِ بلادِه، وغَنِمَ فِيَلَتَهم، ودَخَلَ بلدَ الملكِ الكُبْرَى، فَحَمَلَ مِن خَزَائِنِه ذَهَبًا وغَيْرَه على ألْفِ وأرْبَعمائَةِ جَمَلٍ، ثم عادَ إلى بلادِه سالمًا مَنْصُورًا.

وفيها مَلَكَ السُّلْطانُ خَوَارِزْمُ شَاه تِكِشُ - ويُقالُ له: ابنُ الأصْبَاعيِّ - بلادَ الرَّيِّ وغَيْرَها، واصْطَلَحَ مع السُّلْطانِ طُغْرُلَ السلجُوقي، وكان قد تَسَلَّمَ بلادَ الرَّيِّ وسائرَ مَمْلَكَةِ أخيه سُلْطان شَاه وخَزَائِنَه، وعَظُمَ شَأْنُه، ثم الْتَقَى هو والسُّلْطانُ طُغْرُلُ في رَبِيعٍ الأوَّلِ مِن هذه السَّنَةِ، فقَتَلَ السُّلْطانَ طُغْرُلَ، وأرْسَلَ رأسَه إلى الخَليفَةِ، فَعُلِّقَ على بابِ النَّوْبَةِ عِدَّةَ أيامٍ، وأرْسَلَ الخَلِيفَةُ الخِلَعَ والتَّقَالِيدَ إلى السُّلْطانِ خُوَارِزْم شَاه، ومَلَكَ هَمَذَانَ وغَيْرَها مِن البلادِ المُتَّسِعَةِ.

وفيها نَقَمَ الخليفَةُ على الشيخِ أبي الفَرَجِ ابنِ الجَوْزِيِّ وتَغَضَّبَ عليه، ونَفَاه إلى واسطٍ، فَمَكَثَ خَمْسَةَ أيامٍ لم يَسْتَطِعْ بطعامٍ، وأقامَ بها خَمْسَةَ أعْوَامٍ يَخْدُمُ نَفْسَه ويَسْتَقِي مِن بِئْرٍ عَمِيقَةٍ لنَفْسِه المَاءَ، وكان شَيخًا كَبِيرًا قد بلَغَ ثَمَانِينَ سَنَةً، وكان يَتْلُو في كلِّ يومٍ وليلةٍ خَتْمَةً، قال: ولم أقْرَأْ سورةَ يُوسُفَ لوَجْدِي على ولَدِي يوسُفَ، إلى أنْ فَرَّجَ اللَّهُ. كما سيَأْتِي إنْ شَاءَ اللَّهُ.

وفيها تُوُفِّيَ من الأعْيان:

أحمدُ بنُ إسْمَاعِيلَ بن يوسُفَ، أبو الخَيْرِ القَزْوِينيُّ، الشَّافِعِيُّ المُفَسِّرُ، قَدِمَ بَغْدَادَ ووعَظَ بالنِّظَامِيَّةِ، وكان يَذْهَبُ إلى قَوْلِ الأشْعَرِيِّ في الأصُولِ، وجَلَسَ في يوم عَاشُورَاءَ، فقِيلَ له: الْعَنْ يزيدَ بنَ مُعَاوِيَةَ. فقال: ذاكَ إمَامٌ مُجْتَهِدٌ، فَرَمَاه النَّاسُ بالآجُرِّ فاخْتَفَى، ثم هَرَبَ إلى قَزْوِينَ.

ابنُ الشَّاطبيِّ؛ ناظمُ الشَّاطبيَّة، أبو محمد القاسمُ بنُ فِيرُّه بن أبي القاسم خَلَف بن أحمد، الرُّعَيْنيُّ الشَّاطبيُّ الضَّرِيرُ، مُصَنِّفُ الشَّاطبيَّةِ في القِرَاءَاتِ السَّبْعِ، فلم يُسْبَقْ إليها ولا يُلْحَقُ فيها، وفيها من الرُّمُوزِ كُنُوزٌ لا يَهْتَدي إليها إلا كلُّ ناقدٍ بَصِيرٍ، هذا مَعَ أنَّه ضَرِيرٌ، وُلِدَ سنةَ ثَمانٍ وثلاثينَ وخَمْسمائة، وشاطِبَةُ بلَدُه قريَةٌ شَرْقِيَّ الأندَلُسِ، كان فَقيرًا، وقد أُريدَ أنْ يَلِيَ خِطابَةَ بلَدِه فامْتَنَعَ من ذلك؛ لأجْلِ مُبالَغَة الخُطَبَاءِ على المَنَابِرِ في وصْفِ المُلُوك.

خرَجَ الشَّاطبِيُّ إلى الحَجِّ، فَقَدِمَ الإسْكَنْدَرِيَّةَ سنَةَ ثِنْتَيْنِ وسَبْعين وخَمْسمائة، وسَمِعَ على السِّلَفِيِّ الحافظ، وولَّاه القاضي الفاضلُ مشْيَخَةَ الإقْراءِ بمَدْرَسَته، وزَارَ القُدْسَ الشَّرِيفَ وصامَ به شَهْرَ رَمَضَانَ، ثم رَجَعَ إلى القاهرَة، فكَانَتْ وفَاتُه بها في جُمَادَى الآخِرَة من هذه السنَة، ودُفِنَ بالقَرَافَة بالقُرْبِ من التربَة الفاضليَّة، وكَان دَيِّنًا خَاشعًا نَاسكًا كثيرَ الوَقَارِ، لا يَتَكَلَّمُ فيما لا يُعْنيه، وكان يَتَمَثَّلُ بهذه الأبياتِ التي هي لُغْزٌ في النعْشِ، وهي لغَيْرِه:

أَتَعْرِفُ شَيْئًا في السَّمَاءِ يَطِيرُ ... إذا سارَ صاحَ الناسُ حيثُ يَسِيرُ
فَتَلْقَاه مَرْكُوبًا وتَلْقَاه راكبًا ... وكلُّ أميرٍ يَعْتَلِيه أسِيرُ
يحُثُّ على التَّقْوَى ويُكْرَهُ قُرْبُه ... وتَنْفِرُ منه النفسُ وهْو نَذِيرُ
ولم يُسْتَزَرْ عن رَغْبَةٍ في زيارَةٍ ... ولكنْ على رَغْمِ المَزُورِ يَزُورُ

* * *

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

فيها كانت وَقْعَةُ الزَّلاقَة ببلاد الأنْدَلس شَمَالِيَّ قرطبة، بِمَرْجِ الحديد، كانت وَقْعَةً عَظِيمَةً، نَصَرَ اللَّهُ فيها الإسلامَ وخَذَلَ عَبَدَةَ الصُّلْبَان، وذلك أنَّ الفُنْشَ ملكَ الفرنْج ببلاد الأندلُس - ومَقَرُّ مُلْكه طُلَيْطُلَة - كتبَ إلى الأمير يَعْقُوب بن يُوسُفَ بن عبد المُؤمِن ملك المَغْرب يَسْتَنْخيه ويَسْتَدْعيه ويَسْتَحثُّه إليه في كلام طَويل فيه تَأْنيبٌ وتَهْديدٌ ووَعيدٌ شديدٌ، فَكَتَبَ السُّلْطانُ يَعْقُوبُ بنُ يُوسُفَ في رَأْس كتَابه فوقَ خَطّه: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٢٧]. ثم نَهَضَ من فَوْره بجُنُوده وعَسَاكره، حتى قَطَعَ الزُّقَاقَ إلى الأنْدَلُس، فالْتَقَوا في المَكَان المُتَقَدِّم ذكرُه، فكانت الدَّائرةُ أولاً على المسلمينَ، فَقُتِلَ منهم عشْرُونَ ألفًا، ثمَّ كانت أخيراً على الكَافِرينَ، فَهَزَمهم اللَّهُ وكَسَرَهم وخَذَلَهم أقْبَحَ كسْرَة، وشرَّ هَزيمَة وأشْنَعَها، فقُتِلَ منهم مائَةُ ألف وثلاثةٌ وأرْبَعُونَ ألفًا، وأُسرَ منهم ثلاثةُ عشرَ ألفًا، وغَنمَ المسلمُونَ منهم شيئًا كثيراً؛ من ذلك مائَةُ ألف خَيْمَة وثلاثةٌ وأرْبَعُونَ خَيْمَةً، ومن الخَيل ستَّةٌ وأرْبَعُونَ ألفَ فَرَس، ومن البِغَال مائَةُ ألف بَغْل، ومن الحُمُر مثْلُها، ومن السلاح التَّامّ سَبْعُونَ ألفًا، ومن العُدَد شيءٌ كثيرٌ، ومَلَكَ عليهم من حُصُونهم شيئًا كثيراً، وحَاصَرَ مدينَتَهم طُلَيْطُلَةَ مدَّةً، ثم لم يَفْتَحْها، فانْفَصَلَ عنها رَاجعًا إلى بلاده.

ولَمَّا حَصَلَ للفُنْش ما حَصَلَ حلَقَ رَأْسَه ولحْيَتَه، ونَكَّسَ صَليبَه وركبَ حمَاراً، وحَلَفَ لا يَرْكَبُ فَرَسًا ولا يَتَلَذَّذُ بطعام، ولا يَنَامُ مع امْرَأة حتى تَنْصُرَه النَّصْرَانيَّةُ، فَجَمَعَ من الجُنُود ما لا يعلمه إلا اللَّهُ عزَّ وَجلَّ، فاستعد له السُّلْطانُ يَعْقُوبُ، فالْتَقَيَا فاقْتَتَلا قتَالاً عَظيمًا، فانْهَزَمَ الفرنْجُ أقْبَحَ من هَزيمَتهم الأُولَى، وغَنمُوا منهم نَظيرَمَا تَقَدَّمَ ذكْرُه أو أكثرَ، واسْتَحْوَذَ السُّلْطانُ على كثير من مَعَاقلهم وقلاعهم - ولله الحمدُ والمنَّةُ - حتَّى قيلَ: إنَّه بيعَ الأسيرُ بدرْهَم، والحصَانُ بخَمْسَة دراهمَ، والخَيْمَةُ بدرْهَم والسيف بنصف درْهَم، ثم قَسَمَ السُّلْطانُ هذه الغَنَائمَ على الوَجْه الشَّرْعيِّ، فاسْتَغْنَى المُجاهدُونَ إلى الأبَد، ثم طَلَبَ الفرنْجُ من السُّلْطان الأمَانَ، فَهادَنَهم على وَضْع الحَرْب خمسَ سنينَ، وإنَّما حَمَلَه على ذلك أنَّ رَجُلاً يُقالُ له: عليُّ بنُ إسحاقَ المَيُورقيُّ الذي يُقالُ له: المُلَثَّمُ. ظَهَرَ ببلاد أفْريقيَّةَ فأحْدَثَ أُمُوراً فَظيعَةً في غَيْبَة السُّلْطان واشْتغَاله بقتَال الفرنْج مُدَّةَ ثلاث سنينَ، وظَهَرَ هذا المَارقُ المَيُورقيُّ بالبادية، وعَاثَ في الأرْض فَسَاداً، وقَتَلَ خَلْقًا كثيراً، وتَمَلَّكَ بلاداً.

وفي هذه السَّنَة والتي قبلَها اسْتَحْوَذَ جيشُ الخليفة على بلاد الرَّيِّ وأصْبهانَ وهَمَذَانَ وخُوزسْتَانَ وغيرها من البلاد، وقَوِيَ جانبُ الخلافَة على المُلُوك والمَمَالك. وفيها خَرَجَ العَزيز من مصْرَ قَاصداً دمَشْقَ ليَأْخُذَها من يد أخيه الأفْضَل، وكان الأفْضَلُ قد تابَ وأنَابَ وأقْلَعَ عمَّا كانَ فيه من الشَّراب واللَّهْو واللَّعب، وأقْبَلَ على الصِّيام والصَّلاة، وشَرَعَ بكتابة مُصْحَف بيَده، وحَسُنَتْ طَريقَتُه، غيرَ أنَّ

وَزِيرَه الضِّيَاءَ الجَزَرِيَّ يُفسِدُ عليه دَوْلَتَه، ويُكَدِّرُ عليه صَفْوَتَه، فلمَّا بَلَغَ الأفضَلَ إقبَالُ أخيه نحوه سارَ سَرِيعًا إلى عَمه العادلِ وهو بجَعْبَرَ فاستَنْجَدَه، فَسَارَ معه وسَبَقَه إلى دِمَشْقَ، وراحَ الأفضَلُ أيضًا إلى أخيه الظَّاهِرِ بحَلَبَ، فسارَا جَميعًا نحوَ دِمَشْقَ، فلمَّا سمعَ العزيزُ بذلك، وقد اقْتَرَبَ من دِمَشْقَ، كَرَّ رَاجِعًا سَرِيعًا إلى مِصْرَ، ورَكِبَ وَرَاءَه العادلُ والأفضَلُ ليأخُذَا منه ديارَ مِصْرَ، وقد اتَّفَقَا على أنْ يَكُونَ ثُلُثُ مِصْرَ للعَادلِ وثُلُثَاها للأفضَلِ، ثمَّ بدَا للعَادلِ في ذلك، فأرْسَلَ للعَزيزِ يُثَبِّتُه وأقْبَلَ عَلَى الأفْضَلِ يُثَبِّطُه، وأقَامَا على بُلْبَيسَ أيامًا حتَّى خَرَجَ إلَيْهِمَا القَاضِي الفَاضِلُ من جِهةِ العزيزِ، فوَقَعَ الصُّلْحُ بينَهما على أنْ يَرْجعَ القُدْسُ ومُعَامَلَتَها للأفضَلِ، ويَسْتَقِرَّ العادلُ مُقيمًا بمِصْرَ على إقْطاعه القَديمِ، فأقَامَ العادلُ بها طَمَعًا فيها ورَجَعَ الأفْضَلُ إلى دِمَشْقَ بعدَمَا خرجَ العَزيزُ لِتَوْديعه، وهي هُدْنَةٌ على قَذَىً، وصُلْحٌ على دخَن.

ومِمَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

عليُّ بنُ حَسَّانَ بنِ مُسافِرٍ أبو الحَسَنِ، الكَاتبُ البَغْدَادِيُّ، كان أديبًا شاعرًا، من شِعْرِه قولُه:

نَفَى رُقَادي ومَضَى	بَرقٌ بسَلعٍ وَمَضَا
لاحَ كما سَلَّتْ يَدُ الـ	أسْودِ عَضْبًا أبْيَضَا
كأنَّه الأشْهَبُ في	النَّقْعِ إذا ما ركَضَا
يبدُو كما تَختَلفُ الرِّ	يحُ على جَمْرِ الغَضَا
فَتَحْسَبُ الزِّنْجِيَّ أبـ	ـدي نظرًا وغَمَّضَا
أو شُعْلَةُ النارِ علا	لَهيبُها وانخفَضَا
آه له من بارقٍ	ضَاءَ على ذات الأضَا
أذكَرَني عهدًا مَضَى	على الغُوَيرِ وانقَضَى
فقالَ لي قَلبي أتُو	صِي حاجَةً وأعرَضَا
يطلبُ من أمْرَضَه	فَديتُ ذاك المُمْرِضَا
يا غَرَضَ القلبِ لقد	غادرتَ قلبي غَرَضَا
لأسهُمٍ كأنَّما	يُرْسِلُها صَرْفُ القَضَا
فَبِتُّ لا أرتابُ في	أنَّ رُقَادي قد قَضَى
حتى قَفَا الليلُ وكادَ	الليلُ أن ينقَرِضَا
وأقبَلَ الصُّبحُ لأطـ	ـرافِ الدُّجى مُبَيِّضَا
وسلَّ في الشَّرقِ على الـ	ـغَرْبِ ضِيَاءً وانقَضَى

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

في رجبٍ منها أقبَل العزيزُ صُحْبَةَ عمِّه الملك العادلِ في عساكرَ، فدخَلا دمشْقَ قهْرًا، وأخرَجا منها الأفضلَ ووزيرَه الذي أساء تدْبيرَه، وصلَّى العزيزُ عند تُرْبَةِ والده الملك النَّاصرِ صلاح الدينِ، وخُطِبَ له بدمشقَ، ودخَل إلى القَلْعَةِ المنصُورةِ وجلَس في دارِ العَدْلِ للحُكْمِ والفَصْلِ، كلُّ هذا وأخُوه الأفضلُ حَاضرٌ عندَه في الخِدْمَةِ، وأمرَ القاضيَ مُحيِيَ الدينِ ابنِ الزكيِّ بتأسيسِ المدْرسةِ العَزيزيَّةِ إلى جانبِ تُرْبَةِ أبيه، وكانت دارًا للأميرِ عزِّ الدينِ شامةَ، ثم استَناب على دمشقَ عمَّه الملكَ العادلَ، ورجَع إلى مصرَ يومَ الاثنينِ تاسعَ شعبانَ، والسكَّةُ والخُطْبَةُ له، وصُولحَ الأفضلُ عن دمشقَ على صَرْخَدَ، وهرَب وزيرُه ابنُ الأثيرِ الجزْريُّ إلى جزيرته، وقد أتلَف نفسَه ومُلْكَه بجَزيرَته، وانتقَل الأفْضَلُ إلى صَرْخَدَ بأهْله وأوْلاده وأخيه قُطْبِ الدينِ.

وفي هذه السَّنَة هبَّتْ ريحٌ شديدةٌ سوداءُ مُدْلَهِمَّةٌ بأرضِ العراقِ، ومعها رَملٌ أحمرُ، حتى احتاج الناسُ إلى السُّرُجِ بالنَّهارِ، وفيها وَلِي قِوامُ الدينِ أبو طالبٍ يحيى بنُ سعيدِ بنِ زيادةَ كتابَ الإنْشاءِ ببغدادَ، وكان بليغًا، وليس هو كالفاضلِ، وفيها درَّسَ مُجِيرُ الدينِ أبو القاسمِ محمودُ بنُ المُباركِ بالنِّظاميَّةِ، وكان فاضلاً مُناظرًا.

وفيها قُتِلَ رئيسُ الشَّافعيَّةِ بأَصْبَهانَ صدرُ الدين محمدُ بنُ عبد اللَّطيف بن محمد بن عبد اللطيف بن ثابت الخُجَنْديُّ، قتَلَه فَلَكُ الدِّينِ سُنْقُرُ الطَّويلُ، وكان ذلك سببَ زَوالِ مُلْكِ أصْبهانَ عن الدِّيوانِ.

وفيها مات الوَزيرُ؛ وزيرُ الخلافة:

مُؤيَّدُ الدين أبو الفَضْل محمدُ بنُ عليِّ بن القَصَّاب، وكان أبوه يبيعُ اللَّحْمَ في بعْضِ أسْواقِ بغْدادَ، فتقدَّم وسادَ أهلَ زمانه، وكانت وفاتُه بهَمَذَانَ وقد أعاد رساتيقَ كثيرةً من بلاد العراقِ وخُراسانَ وغيرِها إلى ديوانِ الخلافة، وكان ناهضًا ذا همَّةٍ عَاليةٍ، وله صَرَامةٌ وشَهَامةٌ وشعْرٌ جيِّدٌ.

وفيها تُوفِّي: الفَخْرُ محمودُ بنُ عليٍّ النَّوْقَانيُّ الشَّافعيُّ، عائدًا من الحجِّ.

والشَّاعرُ: أبو الغنائم محمدُ بنُ عليِّ بن المُعلِّم الهُرْثيُّ من قُرَى واسطٍ، عن إحْدَى وتسْعينَ سنةً، وكانَ شاعرًا فصيحًا، وكانَ ابنُ الجَوْزيِّ يَستَشْهِدُ في مجالسه بشيءٍ من لطائف أشْعاره، وقد أوْرَدَ ابنُ الساعي قطْعةً جيِّدةً من شعره الحسنِ المليحِ.

وفيها تُوفِّي **الفَقيهُ أبو الحسن عليُّ بنُ سعيد بن الحسَن البَغْداديُّ المعْروفُ بابن العَرِّيف**، ويُلَقَّبُ بالبَيْعِ الفاسدِ، كانَ حَنْبَليًّا ثم اشْتَغَل شافعيًّا على أبي القاسم ابن فضلانَ، وهو الذي لقَّبه بذلك لكثْرَةِ تكْرارِه على هذه المَسْألَةِ بينَ الشَّافعيَّةِ والحَنَفيَّةِ، ويقالُ: إنَّه صارَ بعدَ هذا كلِّه إلى مَذْهَبِ الإماميَّةِ. فاللَّهُ أعلمُ.

وفيها تُوفِّي الشيخُ أبو شُجاعٍ محمدُ بنُ عليِّ بنِ شُعَيْبِ بنِ الدَّهَّانِ الفَرَضيُّ الحاسِبُ المُؤرِّخُ البَغْداديُّ، قدمَ دِمشقَ، وامْتدحَ الشيخَ أبا اليُمنِ الكِنْديَّ زَيْدَ بنَ الحسَنِ، فقال:

يا زَيْدُ زادَكَ ربِّي من مَواهِبِه ... نَعْماءَ يَقْصُرُ عن إدْراكِها الأمَلُ
لا بدَّلَ اللَّهُ حالاً قد حَباكَ بها ... ما دارَ بينَ النُّحاةِ الحالُ والبَدَلُ
النَّحْوُ أنتَ أحقُّ العالَمينَ به ... أليسَ باسْمِكَ فيه يُضْرَبُ المثَلُ

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

فيها ورَدَ كتابٌ من القاضي الفاضلِ إلى ابنِ الزَّكِيِّ يخبِرُه فيه أنَّ في ليلةِ الجُمُعَةِ التَّاسعِ من جُمادَىٰ الآخرةِ أتَىٰ عارضٌ فيه ظُلُماتٌ متكاثفةٌ، وبروقٌ خاطفةٌ، ورياحٌ عاصفةٌ، فقَوِيَ لهُوبُها، واشْتَدَّ هبُوبُها، فتدافَعتْ لها أَعِنَّةٌ مُطْلَقاتٌ، وارتفَعت لها صَعَقاتٌ، فرَجفتْ لها الجُدرانُ واصْطَفَقَتْ، وتَلاقَت على بُعْدها واعْتَنَقتْ، وثارَ بينَ السَّماءِ والأرضِ عَجاجٌ، فقيل: لعلَّ هذه على هذه قد انْطبَقتْ. ولا تَحْسَبُ إلا أنَّ جَهنَّمَ قد سالَ منها وادٍ، وعدا منها عادٍ، وزاد عَصْفُ الرِّيحِ إلى أنْ أطْفَأَ سُرُجَ النُّجومِ؛ ومزَّقَتْ أديمَ السَّماءِ، ومَحَت ما فوقَه من الرُّقومِ، فكُنَّا كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ [البقرة: ١٩] وكما قلنا: يرُدُّون أيْديَهم على أعْيُنِهم من البَوارقِ. لا عاصِمَ من الخطفِ للأبْصارِ، ولا مَلْجَأَ من الخَطْبِ إلا مَعاقلُ الاسْتغْفارِ، وفرَّ الناسُ نساءً ورجالاً وأطْفالاً، ونفَرُوا من دُورِهم خِفافًا وثِقالاً؛ لا يسْتَطيعُونَ حِيلَةً ولا يَهْتَدُون سبيلاً، فاعْتَصمُوا بالمساجدِ الجامعَةِ، وأذْعَنُوا للنَّازلةِ بأعْناقٍ خاضِعَةٍ، بُوجُوهٍ عانِيَةٍ، ونفُوسٍ عن الأهْلِ والمالِ سالِيَةٍ، ينْظُرونَ من طرفٍ خَفِيٍّ، ويتوقَّعُونَ أيَّ خَطْبٍ جَلِيٍّ، قد انقطَعتْ من الحياةِ عُلَقُهم، وعَمِيَتْ عن النَّجاةِ طُرُقُهم، ووقَعت الفِكْرَةُ فيما هم عليه قادمُونَ، وقامُوا إلى صلاتِهم ووَدُّوا لو كانوا من الذين هم عليها دائمُون، إلى أن أذِنَ اللَّهُ في الركودِ، وأسْعَفَ الهاجدين بالهُجودِ، وأصْبَح كلٌّ يُسَلِّمُ على رفيقِه، ويُهَنِّيه بسَلامةِ طريقِه، ويرَىٰ أنَّه قد بُعِثَ بعدَ النَّفْخَةِ، وأفاقَ بعدَ الصَّيْحَةِ والصَّرْخَةِ، وأنَّ اللَّهَ قد رَدَّ له الكرَّةَ، وأحْياه بعدَ أن كادَ يأخُذُه على غِرَّةٍ، ووردَت الأخْبارُ بأنَّها قد كسَرت المراكبَ في البحارِ، والأشْجارَ في القِفَارِ، وأتْلَفَتْ خَلْقًا كثيرًا من السُّفَّارِ، ومنهم مَن فَرَّ فلم ينْفَعْه الفِرارُ . . . إلى أنْ قال: ولا يحْسَبُ المجْلِسُ أنِّي أرْسَلْتُ القلمَ مُحرِّفًا والقولَ مُجزَفًا، فالأمْرُ أعْظَمُ، ولكنَّ اللَّهَ سلَّمَ، ونرْجُو أنَّ اللَّهَ قد أيْقَظَنا بما وعظَنا، ونبَّهَنا بما ولَّهنا، فما من عِبادِه مَن رأَىٰ القيامَةَ عِيانًا، ولم يلْتَمِسْ عليها من بعدِ ذلك بُرْهانًا إلا أهلُ بَلَدِنا؛ فما قَصَّ الأوَّلُونَ مثْلَها في المُثُلاتِ، ولا سبَقتْ لها سابقةٌ في المُعْضِلاتِ، والحمدُ للَّهِ الذي من فضْلِه أن جعَلَنا نُخْبِرُ عنها، ولا تُخْبِرُ عَنَّا، ونسْألُ اللَّهَ أنْ يصْرِفَ عنَّا عارِضَ الحِرْصِ والغُرُورِ إذا عَنَّا.

وفيها كتَب القاضي الفاضلُ من الديارِ المصريةِ إلى الملك العادل بدمشقَ يحثُّه على قتالِ الفرنجِ، ويشكُرُه على ما هو بصدَدِه من مُحاربَتِهم، وحفظِ حوْزَةِ الإسْلامِ، فمن ذلك قولُه في بعضِ تلك الكُتُبِ: هذه الأوْقاتُ التي أنتُم فيها عَرائسُ الأعْمارِ، وهذه النَّفَقاتُ التي تجْري على أيْدِيكمُ مهورُ الحُورِ في دارِ القَرارِ، وما أسْعَدَ مَن أوْدَعَ يدَ اللَّهِ ما في يدَيْه، فتلكَ نعَمُ اللَّهِ عليه، وتوْفِيقُه الذي ما كلُّ مَن طَلَبَه وصَل إليه، وسوادُ العَجاجِ في هذه المواقفِ بيَاضُ ما سوَّدَتْه الذُّنوبُ من الصَّحائفِ، فما أسْعدَ تلك الوقَعات، وما أعْوَدَ بالطُّمأْنينَةِ تلك الرَّجَفاتِ. وكتَب إليه أيضًا: أدامَ اللَّهُ ذلك الاسْمَ تاجًا على مَفارِقِ المنابرِ والطُّروسِ، وحياةً للدُّنْيا وما فيها من الأجْسادِ والنُّفوسِ، وعرَّفَ المَمْلُوكَ ما عرَفه من الأمرِ الذي اقْتَضتْه المُشاهَدَةُ، وجرَتْ به العاقبةُ في سُرورٍ، ولا مَزِيدَ على تَشْبيهِ الحالِ بقوْلِه:

ألم ترَ أنَّ المرءَ تَدْوَىٰ يَمِينُهُ ... فيقطَعُها عَمْدًا ليَسْلَمَ سائرُهْ

ولو كانَ فيها تدْبيرٌ لكانَ موْلانا سبَقَ إليه، ومَن قلَم من الأُصْبَعِ ظُفْرًا فقد جلَبَ إلى الجسدِ بفعْلِه نَفْعًا، ودفعَ عنه ضَرًّا.

وتجشُّمُ المكْروهِ ليْسَ بضائرٍ ... ما خلْتَهُ سَبَبًا إلى المحْمودِ

وآخرُ كُلِّ شقْوَةٍ أوَّلُ كلِّ غزْوةٍ، فلا يسْأمْ موْلانا نيَّةَ الرِّباطِ وفعْلَها، وتجَشُّمَ الكُلَفِ وحَمْلَها، فهو إذا صرفَ وجْهَهُ إلى وجْهٍ واحدٍ، وهو وجْهُ اللَّهِ، صرَفَ اللَّهُ إليه الوُجوهَ كلَّها ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وفي هذه السَّنَةِ انْقَضت مدَّةُ الهُدْنَةِ التي كان عقَدها الملكُ صلاحُ الدينِ للفرنجِ، فأقْبَلوا بقضِّهم وقضيضِهم، فتلَقَّاهم الملكُ العادلُ بمَرْجِ عكَّا فكسَرَهم وغَنِمَهم، وفتَح يافا عَنْوَةً، وللَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وقد كانُوا كتَبُوا إلى مَلِكِ الألْمانِ يسْتَنْهِضُونَه لفتْحِ بيتِ المَقْدسِ فقدَّرَ اللَّهُ هلاكَه سريعًا، وأخذَتِ الفرنجُ في هذه السَّنَةِ بَيْرُوتَ من نائبِها عزِّ الدينِ شامةَ من غيرِ قتالٍ ولا نزالٍ، ولهذا قالَ بعضُ الشُّعراءِ في الأميرِ شامةَ:

سلِّمِ الحصْنَ ما عليكَ ملامَهْ ... ما يُلامُ الذي يَرُومُ السَّلامَهْ

فعَطاءُ الحصُونِ من غيرِ حربٍ ... سُنَّةٌ سنَّها ببَيْروتَ شامَهْ

وماتَ في هذه السنة مَلكُ الفرنجِ كُنْدهري؛ سقَط من شاهقٍ فماتَ، فبقيَت الفرنجُ كالغَنَمِ بلا راعٍ، حتى مَلَّكُوا عليهم صاحبَ قُبْرسَ، وزوَّجُوه بالملكةِ امرأةِ كُندهري، وجرَتْ خطُوبٌ كثيرةٌ بيْنَهم وبينَ العادلِ أبي بكرِ بنِ أيوبَ، ففي كلِّها يَسْتظهِرُ عليهم ويكْسِرُهم، ويقْتُلُ خلْقًا من المقاتلةِ، وللَّهِ الحمدُ. ولم يَزالُوا كذلك معه حتى طلَبُوا الصُّلْحَ والمُهادنَةَ، فعاقَدهم على ذلكَ في السَّنَةِ الآتيةِ.

وفي هذه السنة تُوفِّي: مَلكُ اليَمنِ سيفُ الإسلامِ طُغْتكين، أخُو السُّلْطانِ صلاحِ الدينِ، وكان قد جمَع أمْوالاً جزيلةً جدًا، وكان يسْبِكُ الذَّهبَ مثْلَ الطَّواحينِ ويدَّخرُه كذلك، وقام في المُلْك بعدَه ولَدُه إسْماعيلُ، وكانَ أهْوَجَ قليلَ التَّدْبير، فحملَه جهْلُه على أن ادَّعَى أنَّه قُرَشيٌّ أُمَويٌّ، وتلقَّب بالهادي، فكتَبَ إليه عمُّه العادلُ يَنْهاه عن ذلك ويتَهدَّدُه بسبَب ذلك، فلم يَقْبَلْ منه ولا التفَتَ إليه، بل تَمادَىٰ في ذلك وأساءَ إلى الأُمَراءِ والرَّعيَّة، فقُتِلَ وتولَّى بعدَه مَمْلوكٌ من مَماليكِ أبيه.

وفيها تُوفِّي: الأميرُ الكبيرُ أبو الهَيْجاء السَّمينُ الكُرْديُّ، كان من أكابرِ أُمراءِ الملكِ الناصرِ صلاحِ الدينِ، وهو الذي كان نائبًا على عكَّا، وخرَج منها قبلَ أخْذِ الفرنجِ ثم دخلَها بعدَ المشطوب، فأُخذتْ منه، واسْتَنابَه صلاحُ الدينِ على القُدْس، ثم لمَّا أخذَها العزيزُ عُزِل عنها، فطُلِبَ إلى بغْدادَ، فأُكْرِمَ إكرامًا زائدًا، وأرْسلَه الخليفةُ مقدَّمًا على العَساكرِ إلى هَمَذانَ، فماتَ هناكَ.

وفيها تُوفِّي: قاضي قضاة بَغْدادَ أبو طَالب عليُّ بنُ عليِّ بن هبَة اللَّه بن محمد، ابنُ البُخاريِّ، سمعَ الحديثَ على أبي الوقت وغيره، وتفقَّه على أبي القاسم بن فضْلانَ، وتولَّى نِيابَةَ الحُكْم ببغْدادَ، ثم اشتَغَل بالمنصب، وأُضيفَ إليه في وقت نيابةُ الوزارة، ثم عُزِلَ عن القَضاء، ثم أُعيدَ وماتَ وهو حاكمٌ، نسْألُ اللَّهَ العافيةَ، وكانَ فاضلاً بارعًا، من بيت فقْهٍ وعدالَةٍ، وله شعرٌ:

تَنَحَّ عن القَبيحِ ولا تُرِدْهُ	ومَن أوليْتَهُ حَسَنًا فزِدْهُ
سَتُكْفَى من عدُوِّك كُلَّ كَيدٍ	إذا كادَ العدُوُّ ولم تَكِدْهُ

وفيها تُوفِّي: السَّيدُ الشَّريفُ نَقيبُ الطَّالبِيِّينَ ببَغْدادَ أبو محمد الحسَنُ بنُ عليِّ بن حَمْزَةَ بن محمد بن الحسَن بن محمد بن الحسَن بن محمد بن عليِّ بن يَحْيَى بن الحُسَيْن بن زيد بن عليِّ بن الحُسَيْن بن عليِّ بن أبي طالب العَلَويُّ الحُسَيْنيُّ، المعْروفُ بابْن الأقْساسيِّ، الكُوفيُّ مَوْلدًا ومَنْشأً، كان شاعرًا مُطَبِّقًا، امتدَحَ الخلفاءَ والوزَراءَ، وهو من بيتٍ مشْهورٍ بالأدَب والرِّياسَة والمُروءَة، قَدمَ بغْدادَ فامْتدَحَ المُقْتَفيَ والمُسْتنجدَ وابنَه المُسْتَضيءَ وابنَه النَّاصرَ، فولاَّه النِّقابةَ، كان شيْخًا مَهيبًا، جاوزَ الثَّمانينَ، وقد أوْرَدَ له ابنُ السَّاعي قَصائدَ كثيرةً منها:

اصْبِرْ على كَيْد الزَّما	نِ فمَا يَدُومُ على طريقَهْ
سَبَقَ القَضاءُ فكُنْ به	راضٍ ولا تطْلُبْ حَقِيقَهْ
كم قَدْ تغلَّب مَرَّةً	وأراكَ من سَعَةٍ وضِيقَهْ
مازالَ في أولاده	يَجْرِي على هَذِي الطَّرِيقَهْ

وفيها تُوفِّيَتْ: السِّتُّ عَذْراءُ بنتُ شَاهنْشاه بن أيُّوبَ، ودُفنتْ بمَدْرسَتها داخلَ باب النَّصر.

والسِّتُّ خاتُونُ والدةُ الملك العادل، ودُفنتْ بدَارها بدمشقَ المُجاورَة لدار أسَد الدين شيركُوه.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

فيها جَمعت الفرنجُ جمُوعَها وأقبَلُوا فحاصَرُوا تِبْنِينَ، فاستَدعى العادلُ بَني أخيه لقتالهم، فجاءَه العزيزُ من مِصْرَ، والأفضلُ مِن صَرْخَدَ، فأقْلعَت الفرنْجُ عن الحِصنِ وبلَغَهم موتُ مَلك الألْمان فطَلَبُوا منَ العادلِ الهُدْنَةَ والأمانَ، فهادَنَهم ورجَعت المُلوكُ إلى أماكنها، وقد عظُم المُعَظَّمُ عيسى بنُ العادلِ في هذه المدةِ، واستَنابَه أبُوه على دمَشقَ، وسار إلى مُلْكِه بالجَزيرة، فأحْسنَ فيهم السِّيرة.

وكان قد تُوفِّيَ في هذه السَّنة السُّلْطانُ صاحبُ سِنْجارَ وغيرِها من المدائنِ الكِبارِ، وهو **عمادُ الدِّين زنكي بنُ مَوْدود بن زنْكي الأتابكيُّ**، كانَ مِن خيارِ الملُوكِ وأحْسَنِهم شكلاً وسيرةً، وأجْودهم طَوِيَّةً وسريرةً، غيرَ أنَّه كانَ يُبَخَّلُ، وكان شديدَ المحبَّة للعُلَماء، ولاسيَّما الحنفيَّةَ، وقد ابْتَنَى لهم مدْرسةً بسِنْجارَ، وشرَط لهم طَعامًا يُطْبَخُ لكلِّ واحدٍ منهم في كل يوم، وهذا نظرٌ حسَنٌ، والفَقيهُ أوْلَى بهذه الحسنَة من الفقيرِ؛ لاشْتغالِ الفَقيه بتَكْرارِه ومُطالعَته عن الفكرِ فيما يُقيتُه، فعَدَا على أوْلاده ابنُ عمِّه صاحبُ المَوْصِلِ، فأخَذَ المُلْكَ منهم، فاستَغاثَ بَنُوه بالملك العادل، فردَّ فيهم المُلْكَ، ودرأَ عنهم الضَّيْمَ، واستَقرَّت المَمْلَكةُ لوَلَدِه قُطْبِ الدين محمدٍ، ثم سارَ العادلُ إلى مَارِدِينَ فحاصَرها في شَهْرِ رَمضانَ، فاستَولَى على رَبَضِها ومُعامَلتِها، وأعْجزَتْه قلْعتُها، فصافَ عليها وشَتا، وما ظنَّ أحدٌ أنه تَمَلَّكها؛ حتى هنَّته الشعراءُ بذلك؛ لأنَّ ذلك لم يكُنْ مثبوتًا ولامقدَّرًا.

وفيها ملَكت الغورُ مدينةَ بَلْخ وكسرُوا الخطا وقهرُوهم، وهزَموهم وتوقَّعوا بإرسال الخليفة إليهم أنْ يمنَعوا خُوارِزْم شَاه مِن دخُولِ العِراق، فإنَّه كان يرُومُ أنْ يُخْطَبَ له ببَغْدادَ.

وفيها حاصرَ خُوارِزم شَاه مدينةَ بُخارَا فَفتحَها بعدَ مدَّة، وقد كانت امْتنَعت عليه دهرًا ونصرَهُم الخطَا، فقَهرَهم جميعًا وأخذَها عَنْوةً، وعفَا عن أهْلها وصفَحَ عنهم، وقد كانُوا ألبَسُوا كلبًا أعْورَ قَباءً وسَمَّوه خُوارِزْم شَاه ورَمَوه في المنجنيقِ إلى الخُوارِزميَّة، وقالوا: هذا ملكُكُم. وكان خُوارِزم شَاه أعْورَ، فلمَّا قدرَ عليهم عفَا عنهم، جزَاهُ اللَّهُ خيْرًا.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

القوامُ بنُ زَبَادة، كاتبُ الإنشاء ببابِ الخلافة، وهو أبو طالبٍ يحيى بنُ سعيدِ بنِ هبةِ اللَّه بنِ عليِّ بنِ زبَادةَ، قِوامُ الدين، انتَهت إليه رياسةُ التَّرسُّلِ والإنشاءِ والبلاغة والفصاحة في زمانه بالعراق وله علومٌ كثيرةٌ غيرُ ذلك مِن الفقْه على مذهَب الشَّافعيِّ، أخَذه عن ابن فَضْلانَ، وله معرفةٌ جيدةٌ بالأصْلَين والحسَابِ واللُّغَة، وله شعْرٌ جيِّدٌ، وقد ولِي عدَّةَ مَناصبَ، وكان مشكورًا في جميعها، ومن

مُسْتَجادِ شعرِه قولُه:

لاتَحْقِرنَّ عدُوًا تزدريه فكمْ ... قد أتعسَ الدهرُ جَدَّ الجِدِّ باللعبِ
فهذه الشمسُ يَعْروها الكسوفُ لها ... على جلالَتِها بالرأسِ والذَّنبِ

وقولُه:

باضْطِرابِ الزمانِ ترتفعُ الأنـ ... ـذالُ فيه حتى يعمَّ البلاءُ
وكذا الماءُ راكدٌ فإذا ... حُرِّكَ ثارت مِن قَعْرِهِ الأقذاءُ

وله أيضًا:

قد سلوتُ الدنيا ولم يسلُها ... مَن علقت في آمالِه والأراجي
فإذا ما صرفتُ وجهيَ عنها ... قذفوني في بحْرِها العَجاجِ
يستضيئونَ بي وأهلِكُ وَحْدِي ... فكأنِي ذُبالَةٌ في سِراجِ

توفيِّ في هذه السنةِ مِن ذي الحِجَّةِ وله ثنتان وسبعون سنةً، وحضَر جِنازَتَه خلقٌ كثيرٌ، ودُفنَ عندَ مُوسَىٰ بنِ جَعْفَرٍ.

القاضي أبوالحسن عليُّ بنُ جابر بنِ زُهَيْرِ بن عليٍّ البَطائحِيُّ، قدِمَ بغدادَ فتفقَّه بها وسمعَ الحديثَ، وأقامَ برَحْبَةِ مالكِ بنِ طوقٍ مدَّةً يشْتغِلُ علىٰ أبي عبدِ اللَّه بنِ النَّبيهِ الفرَضِيِّ، ثم وَلِيَ قضاءَ العِراقِ مدَّةً، وكان أديبًا، وقد سمعَ مِن شيْخِه أبي عبدِ اللَّه بنِ النَّبِيهِ يَنْشدُ لنفْسِه مُعارِضًا للحَريرِيِّ في بيْتَيْه اللَّذَيْن زعَمَ أنَّهما لا يُعزَّزان بثالث لهما، وهما قوْلُه:

سِمْ سِمَةً يُحْمَدُ آثارُها ... واشكُرْ لمنْ أعطىٰ ولو سِمْسِمَهْ
والمَكْرُ مهْما اسْطَعْتَ لا تأتِه ... لتَقْتَنِي السُّؤْدُدَ والمكْرُمَهْ

فقالَ ابنُ النَّبيهِ:

ما الأمَةُ الوكْعاءُ بينَ الورَىٰ ... أحْسَنُ من حُرٍّ أتَىٰ مَلأَمَهْ
فَمَهْ إذا اسْتُجْديتَ عن قَولِ لا ... فالحُرُّ لا يَمْلأُ منها فَمَهْ

الأميرُ عزُّ الدِّينِ جُرْدَيْك كانَ مِن أكابرِ الأمراءِ في زمانِ نُورِ الدينِ، وكانَ ممَّنْ شَرِكَ في قتْلِ شاوِرٍ، وحظِيَ عندَ صلاحِ الدِّينِ، وقد اسْتَنابَه علىٰ القُدسِ حينَ افْتتَحها، وكانَ يَسْتنْدِبُه للمهمَّاتِ الكِبارِ فيسدُّها بنَهْضَتِه وشجاعَتِه، ولمَّا وَلِيَ الأفضلُ عزلَه عن بيتِ المقدسِ، فترَك بلادَ الشامِ وانتقل إلىٰ المَوْصِلِ، فماتَ بها في هذه السَّنَةِ.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة
وفيها كانت وفاة الملك العزيز صاحب مصر

وذلكَ أنَّه خرَجَ إلى الصيدِ، فلما كان لَيْلةَ الأحَدِ العِشْرينَ مِنَ المُحَرَّم، ساقَ خلفَ ذِئْبٍ، فَكَبا به الفرسُ، فسقَط عنه، وكانت وفاتُه بعدَ أيامٍ بعدَ رجوعِه إلى البلدِ، فنُقِل ودُفِنَ بدارِه، ثم حوِّلَ إلى عند تُرْبَةِ الشَّافعيِّ، وله سبْعٌ أو ثَمانٍ وعشْرونَ سنَةً، رحَمه اللَّهُ. ويقالُ: إنَّه كانَ قد عزَم في هذه السَّنَةِ على إخْراجِ الحنَابِلةِ من بلَدِه، ويكْتُبُ إلى بقيَّةِ إخْوتِه أن يخرجوهم مِن بلادهم، وشاعَ ذلكَ عنه وسُمع منه وذاع وصرِّحَ به، وكلُّ ذلكَ مِن معَلِّميه وخُلَطائه وعُشَرائه مِن الجَهْميَّةِ، وقلَّةِ علْمه بالقرآنِ والحديثِ، فلَّما وقَع ما وقَع عَظُمَ قدْرُ الحنابلةِ بديارِ مصرَ والشامِ عند الخاصِّ والعامِّ. وقيلَ: إنَّ بعضَ صالحِيهم دعَا عليه، فما هو إلاَّ أنْ خرَجَ إلى الصيدِ، فكانَ هَلاكُه سريعًا، فاللَّهُ أعلمُ.

وكتبَ القاضي الفاضلُ كتابَ التَّعْزِيَةِ بالعزيزِ إلى عمِّه الملكِ العادلِ وهو مقيمٌ على محاصرةِ مَارِدينَ ومعه العَساكرُ، وولَدُه محمدٌ الكاملُ، وهو نائبُه على بلادِ الجَزِيرةِ المُقاربةِ لبلادِ الحيرةِ، وصُورَةُ الكتابِ أدامَ اللَّهُ سُلْطانَ مولانا الملكِ العادلِ، وباركَ في عُمْرِه وأعْلاَ أمْرَه بأمرِه، وأعزَّ نصرَ الإسْلامِ بنصرِه، وفدَتِ الأنفسُ نفسَه الكريمةَ، وأصْغَرَ اللَّهُ العظائمَ بنِعَمِه فيه العظيمَةِ، وأحْياه حياةً طيِّبةً يقفُ فيها هو والإسْلامُ في مواقفِ الفُتوحِ الجسيمَةِ، وينْقلبُ عنها بالأُمورِ المسلمةِ والعَواقبِ السَّليمةِ، ولانقَص له رجالاً ولاعدداً، ولا أعدَمه نفْسًا ولاولدًا، ولاقصَّرَ له ذَيْلاً ولايدًا، ولا أسْخَنَ له قلبًا ولا كبدًا، ولا كدَّرَ له خاطرًا ولامورْدًا، ولَمَّا قدَّرَ اللَّهُ ما قدَّرَ في الملكِ العزيزِ، رحمه اللَّهُ، وتحياتُه مُكررةٌ إليه مِن انقضاءِ مُهلِه وحضورِ أجلِه، كانت بديهةُ المُصابِ عظيمةً، وطالعَةُ المكْرُوهِ أليمَةً، فرحِم اللَّهُ ذلك الوجهَ ونضَّره، ثم إلى سبيلِ الجنةِ يسَّره:

وإذَا مَحاسِنُ أوجُهٍ بلِيَتْ ... فعفا الثرى عن وجْهِه الحسنِ

فأعززْ على المملوكِ وعلى الأولياءِ بل على قلبِ مولانا، لاسلبَه ثيابَ العزاءِ، لسرعةِ مصرعِه وانقلابه إلى مضجعِه، ولباسه ثوبَ البلى قبلَ أن يبلَى ثوبُ الشبابِ، وزفِّه إلى الترابِ وسريرُه محفوفٌ باللذَّاتِ والأترابِ، وكانتْ مدَّةُ المرضِ بعدَ العودِ مِن الفيُّومِ أسْبُوعَيْنِ، وكانتْ في السَّاعةِ السابعةِ من لَيْلةِ الأحَدِ العِشْرينَ من المُحَرَّمِ، والمَمْلُوكُ في حالِ تسْطيرِها مجْموعٌ بينَ مرَضِ قلْبٍ وجسَدٍ، ووجعِ أطْرافٍ وغليلِ كبدٍ، وقد فُجع بهذا المولَى، والعهدُ بوالدِه، رحمه اللَّه، غيرُ بعيدٍ، والأسَى عليه في كلِّ يومٍ جديدٌ.

ولَمَّا تُوفِّيَ العزيزُ، رحمه اللَّهُ، خلَفَ من الولَدِ عشَرَةَ ذكُورٍ، فعمَدَ أُمَراؤُه فملَّكُوا عليهم ولدَه

محمداً، ولقَّبوه بالمنصور، وجُمهورُ الأُمَراء في الباطنِ مائلونَ إلى تَمْليك العادل، ولكنَّهم استبعَدوا مكانَه، فأرسلُوا إلى الأفضَلِ وهو بصَرْخَدَ فأحضروه على البَريد سريعًا، فلمَّا حصَل عندَهم مُنعَ رِفْدُهم، ووَجدُوا الكلمةَ مُخْتلفَةً عليه، ولم يَتِمَّ له ما صارَ إليه، وخامَرَ عليه أكابرُ الأمَراء النَّاصِرية، وخرَجُوا مِن ديارِ مِصرَ فأقامُوا في بيت المَقْدِسِ وأرسَلُوا يَسْتحِثُّونَ الجيوشَ العادليَّةَ، فأُقرَّ ابنُ أخيه على السَّلْطنة، ونُوِّهَ باسْمه على السِّكَّة والخُطبة في سائرِ ما هنالك مِن المملكة، لكنِ اسْتفاد بهذه السَّفْرة أنْ أخذَ جَيْشًا كثيفًا مِن المصريين، وأقبَل بهم ليسْتردَّ دمَشْقَ في غَيبة عمِّه بمحاصرة ماردينَ، وذلك بإشارة أخيه صاحب حلبَ، وابنِ عمِّه مَلِك حِمْصَ أسَد الدِّين. فلما انتهى إليها ونزلَ حوالَيْها، قطَعَ أنهارَها وعقَر أشجارَها، وقلَّل ثمارَها، ونزَل بمُخَيَّمه على مسجد القدمِ، وقد لحقه الأسفُ والندمُ، وجاءَ إليه أخُوه الظاهرُ وابنُ عمِّه الأسدُ الكاسرُ والليثُ الكاشرُ وجيشُ حَماةَ، فكثُرَ جيشُه وقويَ الأفضلُ بنُ الناصرِ، وقد دخَل جيشُه إلى البَلَدِ، ونادَوا بشِعاره، فلم يُتابِعْهم مِن العامَّة أحدٌ، وأقبَل العادلُ مِن ماردِينَ بعَساكرِه وقد الْتَفَّ عليه طائفةٌ بني أخيه، وأمدَّه كلُّ مصرٍ بأكابره، وسبَق الأفضلَ إلى دِمشقَ بيومين فحصَّنَها وحفِظها مِن كلِّ حاسد وذي عينين، وقد استنَابَ على ماردِينَ ولدَه محمداً الكاملَ رئيسَ السلاطينِ.

ولما دخَل دِمشقَ خامَرَ إليه أكثرُ الأمراءِ مِن المصريين وغيرِهم، وضَعُف أمرُ الأفضلِ ويئِسَ مِن برِّهم وخيرِهم، فأقامَ مُحاصِراً البلَدَ بمَن معه حتى انْسلَخَ الحولُ وهو كذلك، ثم انفصَل الحالُ في أول السنة الآتية، على ما سيأتي بيانُه إن شاء اللَّهُ تعالى.

وفيها شرَع في بناءِ سُورِ بغدادَ من الآجرِّ والكِلْسِ، وفرَّق على الأمراء، وكَمَلت عِمارتُه بعدَ هذه السنة، فأمِنَتْ بَغْدادُ مِن الغرقِ والحصارِ، ولم يكنْ لها سورٌ قبلَ ذلك.

وفي هذه السنة تُوفِّي:

السلطانُ الكبيرُ أبو محمد يعقوبُ بنُ يوسفَ بن عبد المؤمن، صاحبُ المغربِ والأندلسِ بمدينة سَلاَ، وكان قد ابتنَى عندَها مدينةً مليحةً سمّاها المَهْدِيَّةَ، وقد كان دَيِّنًا حسنَ السيرة، صحيحَ السَّريرة، وكان مالكيَّ المذهب، ثم صار ظاهريًّا حَزْميًّا، ثم مال إلى مذهبِ الشافعيِّ، واستقضَى في بعضِ بلاده منهم قضاةً، وكانت مدةُ مُلْكه خمسَ عشْرَةَ سنةً، وكان كثيرَ الجهادِ، رحمه اللَّهُ، وكان يؤُمُّ الناسَ في الصلوات الخمسِ، وكان قريبًا إلى المرأة والضَّعيف. وهو الذي كتَب إليه صلاحُ الدين يستنجدُه على الفرنْج، فلمَّا لم يُخاطِبْه بأمير المؤمنين غضِب من ذلك ولم يُجبْه إلى ما طلَب منه، وقام بالمُلْك بعدَه ولدُه محمدٌ، فسارَ كسيرَةِ والده، ورجَع إليه كثيرٌ من البلدان اللاتي كانت قد عصتْ على أبيه، ثم مِن بعدِ ذلك تفَرَّقتْ بهم الأهواءُ، وبادَ هذا البيتُ بعدَ الملك يعقوبَ.

وفي هذه السنةِ ادَّعَىٰ رجلٌ أعجمِيٌّ بدمشقَ أنَّه عيسىٰ ابنُ مريمَ، فأمَرَ الأميرُ صارِمُ الدينِ بُزْغُش نائب القلعةِ، بصلبِه فصُلِب عندَحمّامِ العمادِ الكاتبِ، خارجَ بابِ الفرَجِ مُقابِلَ الطّاحونِ التي بينَ البابين، وقد بادَ هذا الحمّامُ قديمًا، وبعدَ صلبهِ بيومين ثارَتِ العامَّةُ علىٰ الروافضِ، وعمَدُوا إلىٰ قبرِ رجلٍ منهم ببابِ الصَّغيرِ يقالُ له: وثّابٌ. فنبَشُوه وصلَبُوه مع كلبين، وذلك في ربيعِ الآخرِ منها.

وفي هذه السنةِ وقَعت فتنةٌ كبيرةٌ ببلادِ خُراسانَ، وكان سببَها أنَّ فخرَ الدينِ محمدَ بنَ عمرَ الرازيَّ أستاذ المتكلِّمين في زمانه وفَد إلىٰ الملك غياثِ الدينِ الغُورِيِّ صاحب غَزْنَةَ، فأكرَمه وبنَىٰ له مدرسةً بهَراةَ، وكان أكثرُ الغُورِيَّةِ كَرامِيَّةً؛ فأبْغضُوا الرازِيَّ وأحبُّوا إبعادَه عن المُلْك، فجمَعوا له جماعةً مِن الفقهاءِ الحنفيةِ والكَرّامِيَّةِ، وخلقًا مِن الشافعيةِ، وحضَر ابنُ القدْوَةِ وكان شيخًا معظَّمًا في الناسِ، وهو علىٰ مذهبِ ابنِ كرّامٍ، وابنِ الهيصمِ، فتَناظَرَ هو والرازيُّ، وخرَجا مِن المُناظرةِ إلىٰ السَّبِّ والشَّتْمِ، فلما كان مِن الغَدِ اجتمَع الناسُ في المسجدِ الجامعِ، وقام واعِظٌ فتكلَّم، فقال في خُطبتِه: أيُّها الناسُ، إنَّا لا نقولُ إلا ما صحَّ عندَنا عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، وأمَّا علمُ أرِسْطَاطَاليسَ وكُفْرِيَّاتُ ابنِ سينا، وفلسفةُ الفارابِيِّ، فلا نعلَمُها، ولأيِّ حالٍ يُشْتَمُ بالأمسِ شيخٌ مِن شيوخِ الإسلامِ يَذُبُّ عن دينِ اللَّهِ وسنةِ رسولِه. قال: فبكَىٰ الناسُ وضجُّوا، وبكَتِ الكرّامِيَّةُ واستغاثُوا، وأعانَهم علىٰ ذلك قومٌ مِن خَواصِّ الناسِ، وأنْهَوا إلىٰ الملكِ صورةَ ما وقَع، فأمَر بإخراجِ الرازيِّ مِن بلادِه، وعاد إلىٰ هَراةَ؛ فلهذا أُشْرِبَ قلبُ الرازيِّ بُغْضَ الكرّامِيَّةِ، وصارَ يلهَجُ بهم في كلامِه في كلِّ موطنٍ، وكلَّما هبَّت الصَّبا.

وفي هذه السنةِ وقَع الرِّضا عن الشيخِ جمالِ الدينِ أبي الفَرَجِ ابنِ الجوزيِّ شيخِ الوعّاظِ في زمانِه وبعدِه، وقد كان أُخْرِجَ مِن بغدادَ إلىٰ واسِطٍ، فأقامَ بها خمسَ سنينَ، فانْتَفَع به أهلُها واشْتَغَلُوا عليه واسْتَفادُوا منه، فلما عاد إلىٰ بغدادَ خلَع عليه الخليفةُ وأذِنَ له في الجلوسِ علىٰ عادَتِه عندَ التُّرْبَةِ الشريفةِ المُجاوِرَةِ لقبرِ معروفٍ الكَرْخِيِّ، فكثُر الجمعُ جدًّا، وحضَر الخليفةُ، وأخَذ في العِتابِ، وأنشَد يومَئذٍ فيما يُخاطِبُ به الخليفةَ:

لاتُعْطِشِ الروضَ الذي نَبْتُه ... بصَوْبِ إنعامك قد رُوِّضا
لا تبْرِ عُودًا أنت قد رِشْتَهُ ... حاشا لباني المجدِ أن ينقُضا
إن كان لي ذنبٌ ولم آتِه ... فاسْتَأنف العفوَ وهَبْ لي الرِّضا
قد كنتُ أرجوكَ لنَيْلِ المُنَىٰ ... فاليومَ لا أطلُبُ إلا الرِّضا

ومما أنشَده يومئذٍ:

شَقِينا بالنَّوَىٰ زمنًا فلما ... تَلاَقَيْنا كأنَّا ما شَقِينا
سَخِطْنا عندَ ما جنَت الليالي ... ومازالَتْ بنا حتىٰ رَضِينا
ومَن لَم يَحْيَ بعدَ الموتِ يومًا ... فإنَّا بعدَ ما مِتْنا حَيِينَا

وفي هذه السنة استدعى الخليفةُ الناصرُ قاضيَ المَوْصِلِ ضياءَ الدين ابنَ الشَّهْرَزُورِيِّ، فولَّاه قضاءَ قُضاة بغدادَ. وفي هذه السنة وقعت فتنةٌ بدمشقَ بسبب الحافظ عبدِ الغنيِّ المقدسيِّ؛ وذلك أنَّه كان يتكلَّمُ في مقصورةِ الحنابلة بالجامع الأمويِّ، فذكَر يومًا شيئًا من العقائد، فاجتمع القاضي محيي الدين ابنُ الزكيِّ وضياءُ الدين الخطيبُ الدَّوْلَعيُّ بالسلطان المُعَظَّم، والأميرِ صارمِ الدين بُزْغُش، فعُقِدَ له مجلسٌ فيما يتعلَّقُ بمسألة الاستواء على العرش والنُّزول والحرف والصَّوت، فوافَقَ النجمُ الحنبليُّ بقيَّةَ الفقهاء، واستمرَّ الحافظُ على ما يقولُه لم يرجعْ عنه، واجتمع بقيَّةُ الفقهاء عليه، وألزموه بإلزاماتٍ شنيعةٍ لم يلتزمْها، حتى قال له الأميرُ بُزْغُش: كلُّ هؤلاء على الضلالة وأنت وحدك على الحقِّ؟! قال: نعم. فغضب الأميرُ عند ذلك، وأمر بنفيه من البلد، فاستنظره ثلاثة أيام، فأنظره، وأرسل بُزْغُشُ الأسارى من القلعة، فكسروا منبرَ الحافظ، وتعطَّلت صلاةُ الظهر يومئذ في محراب الحنابلة، وأُخرِجت الخزائنُ والصناديقُ التي كانت هناك، وجرت خَبْطةٌ شديدةٌ، نعوذُ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وكان عقدُ المجلس يومَ الإثنين الرابع والعشرين من ذي الحجَّة، فارتحل الحافظُ عبدُ الغنيِّ إلى بَعْلَبَكَّ، ثم سار إلى الديار المصرية، فآواه المحدِّثون، فحنَوا عليه وأكرموه.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

الأميرُ مجاهدُ الدين قايمازُ الرُّوميُّ، نائبُ الموصل، والمستولي على مملكتها أيامَ ابن أستاذه نور الدين أرسلانَ، وكان عاقلًا ذكيًّا فقيهًا حنفيًّا، وقيل: شافعيًّا. يحفَظُ شيئًا كثيرًا من التواريخ والحكايات، وقد ابتنى عدَّةَ جوامعَ ومدارسَ ورُبُطٍ وخاناتٍ، وله صدقاتٌ كثيرةٌ دارَّةٌ. قال ابنُ الأثير: وقد كان من محاسن الدنيا.

أبو الحسن محمدُ بنُ جعفر بن أحمدَ بن محمد بن عبد العزيز العباسيُّ الهاشميُّ، قاضي القضاة ببغدادَ، بعد ابن النجَّاريِّ، كان شافعيًّا، تفقَّه على أبي الحسن بن الخَلِّ وغيره، وقد ولي القضاءَ والخطابةَ بمكةَ، وأصلُه منها، ولكن ارتحل إلى بغدادَ، فنال منها ما نال من الدنيا، وآل به الأمرُ إلى ما آل، ثم إنَّه عُزِل عن القضاء بسبب محضرٍ رُقِم خطُّه عليه، وكان، فيما قيلَ، مُزَوَّرًا عليه. فاللَّهُ أعلمُ، فجلَس في منزله حتى مات.

الشيخُ جمالُ الدين أبو القاسم يحيى بنُ عليِّ بن الفضل بن بركةَ بن فَضْلانَ، شيخُ الشافعية ببغدادَ، تفقَّه أولًا على سعيد بن محمد الرزَّاز مدرس النظاميَّة، ثم ارتحل إلى خُراسانَ فأخذ عن الشيخ محمد الزَّبيديِّ تلميذ الغَزَّاليِّ، وعاد إلى بغدادَ وقد اقتبس علمَ المُناظرة والأصلَيْن، وسادَ أهلَ بغدادَ، وانتفع به الطلبةُ والفقهاءُ، وبُنِيت له مدرسةٌ فدرَّس بها وبَعُد صيتُه، وكثُرت تلاميذُه، وكان كثيرَ التلاوة وإسماع الحديث، وكان شيخًا حسنًا لطيفًا ظريفًا، ومن شعره:

وإذا أردتَ منازلَ الأشرافِ ... فعليك بالإسعافِ والإنصافِ
وإذا بغَى باغٍ عليك فخلِّه ... والدهرَ فهْوَ له مُكافٍ كافِ

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة

استهلّت هذه السنةُ والملكُ الأفضلُ، بالجيشِ المصريِّ، مُحاصرٌ لعمِّه العادل بدمشقَ، وقد قطَع عنها الأنهارَ والميرَةَ، فلا خبزَ ولا ماءَ إلا قليلاً، وقد تَطاوَل الحالُ، وقد خنْدَقُوا من أرضِ اللَّوان إلا يَلْدَا خندقًا؛ لئلا يصِلَ إليهم جيشُ دمشقَ، وجاء فصلُ الشتاءِ وكثُرَت الأمطارُ والأوحالُ، فلما دخَل شهرُ صفرٍ، قدِم الملكُ الكاملُ محمدُ بنُ العادلِ على أبيه بخلْقٍ من التُّركمانِ، وعساكرَ من بلادِ الجزيرةِ والرُّهَا وحَرَّانَ، فعندَ ذلك انصرَفَت العساكرُ المصريةُ، وتفرَّقُوا أيادي سَبَا، فرجَع الظاهرُ إلى المملكةِ الحلبيةِ، والأسدُ إلى حمصَ، والأفضلُ إلى الديارِ المصريةِ، وسلِم العادلُ من كيدِ الأعادي، بعدَما كان قد عزَم على تسليمِ البلدِ واستسلَم، ولكنَّ اللَّهَ سلَّمَ. وسارَت الأمراءُ الناصريةُ خلفَ الأفضلِ ليمنَعوه من الدخولِ إلى القاهرةِ، وكاتَبُوا العادلَ أن يُسرِعَ السَّيرَ إليهم والقدومَ عليهم، فنهَض إليهم سريعًا سامعًا لمشورتِهم مطيعًا، فتحصَّن الأفضلُ بالقلعةِ من الجبلِ، وقد اعتراه الضَّعفُ والفشلُ، ونزَل العادلُ على البِرْكَةِ واستبَدَّ بمُلْكِ مصرَ آمنًا من الشَّرِكةِ، ونزَل إليه ابنُ أخيه الأفضلُ خاضعًا ذليلاً بعدَما كان مَهيبًا جليلاً، فأقطَعه بلادًا من الجزيرةِ، ونفَاه عن الشامِ لسُوءِ السِّيرَةِ، ودخَل العادلُ إلى دارِ السلطانِ بالقاهرةِ، وأعاد القضاءَ إلى صدرِ الدينِ عبدِ الملكِ بنِ دِرْباسٍ المارانيِّ الكُرْديِّ، وأبقَى الخُطبةَ والسِّكَّةَ باسمِ ابنِ أخيه المنصورِ، ولكن هو المستقلُّ بالأمورِ، واستوزَرَ الصاحبَ صَفِيَّ الدينِ بنَ شكرٍ لصَرامتِه وشَهامتِه، وسيادَتِه ودِيانتِه، وكتَب العادلُ إلى ولدِه الكاملِ يَستَدعيه من بلادِ الجزيرةِ؛ ليُملِّكَه على الديارِ المصريةِ ويسترعيه، فقَدِم عليه فأكرَمه واحترَمه وعانَقَه والتزَمَه، وأحضَرَ الملكُ الفقهاءَ واستَفتاهم في صحةِ مملكةِ ابنِ أخيه المنصورِ بنِ العزيزِ، وأنَّه صغيرٌ ابنُ عشْرِ سنين، فأفتَوا بأنَّ ولايتَه لا تصحُّ؛ لأنه مُتَوَلًّى عليه، فعندَ ذلك طلَب الأمراءَ ودَعاهم إلى مُبايعتِه فامتنَعوا، فأرغَبَهم وأرهَبَهم، وقال فيما قال: قد سَمِعتُم ما أفْتَى به العلماءُ والأئمةُ والفقهاءُ، وقد علِمْتُم أن ثُغورَ المسلمين لا يحفَظُها الأطفالُ الصِّغارُ، وإنَّما يحرُسُها الملوكُ الكِبارُ. فأذعَنوا عندَ ذلك وبايَعوه، ثم من بعدِه لولدِه الكاملِ، فخطَب الخطباءُ بذلك بعدَ الخليفةِ لهما، فضُرِبَت السِّكَّةُ باسمِهما، واستَقَرَّتْ دمشقُ باسمِ المُعَظَّمِ عيسى بنِ العادلِ، ومصرُ باسمِ الكاملِ.

وفي شوَّالٍ رجَع إلى دمشقَ الأميرُ فَلَكُ الدينِ أبو منصورٍ سليمانُ بنُ شَرْوَةَ بنِ خلدكَ، وهو أخو الملكِ العادلِ لأمِّه، وهو واقفُ الفلكيَّةِ داخلَ بابِ الفَرَاديسِ، وبها قبرُه، فأقام بها محترَمًا مُعظَّمًا إلى أن تُوفِّي في هذه السنةِ.

وفيها وفي التي بعدَها كان بديارِ مصرَ غلاءٌ شديدٌ، فهلَك بسببِه الغَنيُّ والفقيرُ، وهرَب الناسُ منها نحوَ الشامِ فلم يصِلْ إليها إلا القليلُ، وتخطَّفَهم الفرنجُ من الطُّرقاتِ وغَرُّوهم من أنفسِهم

واغتالُوهم بالقليلِ من الأقوات، وأمّا بلادُ العراقِ فإنَّه كان مُرْخصًا. قال ابنُ الساعي: وفي هذه السنة باضَ ديكٌ ببغدادَ، فسألْتُ جماعةً عن ذلك فأخبروني به.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

السلطانُ علاءُ الدين خُوارَزْمشاه تكشُ بنُ ألْب أرْسَلان بن أتسز، من ولد طاهر بن الحسين، وهو صاحبُ خُوارَزم وبعضِ خُراسانَ والرَّيِّ وغير ذلك من الأقاليم المُتَّسعة، وهو الذي قطع دولةَ السلاجقة، كان عادلاً حسنَ السيرة، وله معرفةٌ جيدةٌ بالمُوسيقى، حسنَ المعاشرة، فقيهًا على مذهب أبي حنيفةَ، ويعرفُ الأُصولَ، وبنى للحنَفيَّة مدْرسةً عظيمةً، ودُفِنَ بتُرْبَةٍ بناها بخُوارَزْمَ، وقام في الملك من بعده ولَدُه علاءُ الدين محمدٌ، وكانَ يلَقَّبُ بقُطْبِ الدِّين، وفيها قُتِلَ وَزيرُ السُّلْطان خُوارَزْم شاه.

نظام الدِّين مسعُودُ بنُ عليٍّ، وكان حسنَ السِّيرة، شافعيَّ المذْهب، له مدرسةٌ عظيمةٌ بخُوارَزْمَ، وجامعٌ هائلٌ، وبنَى بمَرْوَ جامعًا عظيمًا للشَّافعيَّة، فحسَدهم الحنابلةُ، وشيْخُهم بها يقالُ له: شيخُ الإسْلام. فيقالُ: إنَّهم أحْرقُوه. وهذا إنَّما يصدُرُ من قلَّة الدِّين والعقْلِ واحترام معابدِ الإسلام، فأغْرَمهم السلطانُ خُوارَزْمشاه ما غَرِم الوزيرُ على بنائه.

وفيها تُوفِّي الشيخُ المُسْنِدُ المُعَمَّرُ رُحْلَةُ الوقت؛ أبو الفرَج عبدُ المُنْعِم بنُ عبد الوهَّاب بن صدَقَةَ بن الخضر بن كُليب الحرَّانيُّ الأصْلِ، البَغْداديُّ المَوْلدِ والدَّارِ والوَفاة، عن ستٍّ وتسْعينَ سنةً، وسمعَ الكثيرَ وأسْمع، وتفرَّدَ بالرِّواية عن جماعةٍ من المشايخ، وكان من أعْيانِ التُّجَّار وذوي الثَّرْوة، رحمه اللَّهُ تعالى.

الفقيهُ مجدُ الدين أبو محمد طاهرُ بنُ نصر اللَّه بن جَهْبَل، مُدرِّسُ القُدْسِ الشريف، أوَّلُ مَنْ درَّس بالصَّلاحيَّة، وهو والدُ الفُقَهاءِ؛ بني جَهْبلٍ الذين كانوا بالمدرسة الجاروخيَّة، ثم صارُوا إلى العماديَّة والدِّماغيَّة في أيامنا هذه، ثم ماتُوا ولم يَبْقَ إلا شرْحُهم.

الأميرُ صارمُ الدِّين قَيْماز بنُ عبد اللَّه النَّجْميُّ، من أكابر الدولة الصَّلاحيَّة، كان عندَ الملك صلاح الدين بمَنْزِلَةِ أُستادَارٍ وهو الذي تسلَّم القَصْرَ حينَ ماتَ العاضدُ، فحصَل له أمْوالٌ جزيلَةٌ جدًا، وكان كثيرَ الصَّدقات والأوْقاف، تصدَّق في يوم بسبْعَةِ آلاف دينارٍ عَيْنًا، وهو واقفُ المدْرسة القيمازيَّة، شرْقيَّ القَلْعَة المنصورة، وقد كانتْ دارُ الحديث الأشرفيَّة دارًا لهذا الأمير، وله بها حمَّامٌ، فاشترَى ذلك الملكُ الأشْرَفُ، فيما بعدُ، موسى بنُ العادل وبنَاها دارَ حديث، وأخْرَب الحمَّامَ وبنَاه مَسْكَنًا للشيخ المُدرِّس بها. ولما تُوفِّي ودُفِنَ في قبْره، نُبِشَتْ دورُه وحَواصلُه، وكان متَّهَمًا بمالٍ جزيلٍ، فكان مُتحَصَّلُ ما جُمِعَ من ذلك مائَةَ ألف دينار، وكانَ يُظَنُّ أنَّ عندَه أكثرَ من ذلكَ، ولكن كان يَدفِنُ أموالَه في الخَراب من أراضي ضِياعه وقرَاياه. فسامَحه اللَّهُ وبلَّ بالرحمة ثراه.

الأميرُ الكبيرُ لُؤْلُؤٌ أحدُ الحُجَّاب بالدِّيار المصْرِيَّة، كان من أكابرِ الأُمراءِ في الدولة الصلاحيّة، وهو الذي كانَ يَتَسلَّمُ الأُسْطولَ بالبحرِ فيكونُ كالشَّجا في حُلُوقِ الفرنجِ والنَّحرِ في النَّحرِ، فكَمْ مِن شُجاعٍ قد أسَرَ، وكم من مَرْكبٍ قد كَسَرَ، وكم من أسطولٍ لهم قد فرَّق شملَه، ومن بَطْسةٍ وقاربٍ قد غرَّق أهلَه، وقد كان مع كثْرَة جهاده دارًا للصدقات، كثيرَ النَّفقات في كلِّ يومٍ، وكان بديارِ مصرَ غلاءٌ شديدٌ فتَصدَّقَ باثْنَيْ عشرَ ألفَ رَغيفٍ، لاثْنَيْ عشرَ ألفَ فقيرٍ، فجزاه اللَّهُ خيرًا ورحمةً في قبرِه، وبيَّض وجهَه يومَ محشرِه ومنشرِه، آمين.

الشيخُ الإمامُ الفقيه العلامةُ شهابُ الدِّين الطُّوسيُّ أحدُ مشايخِ الشافعيَّة بديارِ مصرَ، وشيخُ المدْرسةِ المنْسُوبةِ إلى تَقيِّ الدِّينِ عُمرَ بنِ شاهَنْشاه بنِ أيُّوبَ، التي يقالُ لها: منازلُ العِزِّ. وهو من أصحابِ محمدِ بنِ يحيى تلميذِ الغَزَّاليِّ، كان له قدْرٌ ومنزلةٌ عندَ ملُوكِ مصْرَ، يأمُرُهم بالمعْروفِ وينْهاهُم عن المنكرِ، إلى أن تُوفِّي، رحمه اللَّهُ، في هذه السنةِ، فازْدَحم الناسُ في جنازتِه، وتأسَّفُوا عليه.

الشيْخُ ظَهيرُ الدِّين عبدُ السَّلام الفارسيُّ شيْخُ الشَّافعيَّة بحلَبَ، أخذ الفقهَ عن محمدِ بنِ يحيى تلميذِ الغَزَّاليِّ، وتَلْمَذ للفخْرِ الرَّازيِّ، ورحَل إلى مصرَ فعُرِضَ عليه أنْ يدرِّسَ بتربَةِ الشَّافعيِّ فلم يقْبَلْ، فسارَ إلى حَلَبَ، فأقام بها إلى أن تُوفِّي في هذه السنة.

الشيْخُ العلاَّمةُ بدْرُ الدِّين بنُ عسكر رئيسُ الحَنَفيَّة بدمشقَ، قالَ أبو شامَةَ: ويعْرفُ بابنِ العَقَّادة.

الشَّاعرُ الماهرُ الهُمامُ العبديُّ، وهو أبو الحَسَن عليُّ بنُ نصرِ بنِ عقيلِ بنِ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ عبدِ القيس ابن ربيعةَ وهو بغداديٌّ، قدم دمشقَ في سنَة خمْسٍ وتسْعينَ وخمسمائةٍ، ومعه ديوانُ شعرٍ له، فيه دُرَرٌ حِسانٌ وفرائدُ وعقائدُ وعقْيانٌ، وقد تصدَّىٰ لمدْحِ الملكِ الأمجَدِ صاحبِ بَعْلَبَكَّ ومَن قبلَه وله:

ومـا النَّاسُ إلا كـاملُ الحظِّ ناقـصٌ	وآخـرُ منهـمْ ناقـصُ الحظِّ كـامـلُ
وإنِّي لَمُـثْـرٍ من حَياءٍ وَعِـفَّـةٍ	وإنْ لـم يـكـن عـندي مـن المال طـائلُ

وفيها تُوفِّي:

القاضي الفاضلُ، الإمامُ العلاَّمةُ شيخُ الفُصَحاء والبُلَغاء. أبو عليٍّ عبدُ الرَّحيم بنُ القاضي الأشْرَف أبي المَجْد عليِّ بن الحسَن بن البيسانيِّ المولَى الأجَلُّ، القاضي الفاضلُ، كان أبوه قاضيًا بعَسْقَلانَ، فأرْسَلَ ولَدَه في الدولة الفاطميَّة إلى الدِّيارِ المصرية، فاشْتغلَ بها بكتابة الإنْشاء على أبي الفَتْح قادوس وغيرِه، فسادَ أهلَ البلادِ حتى بغدادَ، ولم يكُنْ له في زَمانه نظيرٌ، ولا عَديدٌ ولا فيما بعدَه إلى وقْتنا هذا مماثلٌ ولا مناظرٌ ولا نَديدٌ، ولمَّا اسْتَقَرَّ الملكُ صلاحُ الدينِ في الديارِ المصرية جعلَه كاتبَه وصاحبَه ووزيرَه وجليسَه وأنيسَه، وكان أعزَّ عليه من أهْلِه وأوْلاده، وأكرمَ عليه من طَريفه وتِلاده، وتَساعدا

حتى فتَح الأقاليمَ والبلدانَ والحصونَ والمعاقلَ، هذا بُحسامه وسِنَانه، وهذا بقلَمِه ولِسانه وبَيانه، وقد كان القاضي الفاضلُ مع كثْرةِ أمْوالِه ووجاهتِه ورياستِه كثيرَ الصَّدقاتِ والصِّلاتِ والصِّيامِ والصَّلاةِ، وكان يُواظِبُ كلَّ يومٍ وليلةٍ على خَتْمةٍ كاملةٍ، مع ما يزيدُ عليها مِن نافلةٍ، رحيمَ القلْبِ، حسَنَ السِّيرةِ، طاهرَ القلْبِ والسَّريرَةِ له مدرسةٌ بديارِ مصرَ على الشافعيَّةِ والمالكيَّةِ، وأوْقافٌ على تخليصِ الأسَارَى مِن أيدِي النَّصارى، وقدِ اقْتنَى مِن الكُتُبِ نحْواً مِن مِائَةِ ألْفِ كتابٍ، وهذا شيءٌ لم يَفْرَحْ به أحدٌ مِن الوُزَراءِ ولا العُلَماءِ ولا المُلوكِ ولا الكُتَّابِ، كان مولدُه في سنَةِ ثِنْتَيْنِ وثلاثين وخَمْسمائةٍ، وقد كانت وفاتُه في يومِ دخَل العادلُ إلى قصْرِ مصرَ بمدْرستِه فجأةً، يومَ الثُّلاثاءِ سادسَ ربيعِ الآخرِ، واحْتفَل الناسُ بجنازَتِه، وزار قبْرَه في اليومِ الثَّانِي الملكُ العادلُ، وتأسَّفَ عليه، ويقالُ: إنَّه اسْتَوْزَرَ الملكُ العادلُ صَفِيَّ الدِّينِ بنَ شُكْرٍ، فلمَّا سمع الفاضِلُ بذلك دعا اللَّهَ أنْ لا يُحْيِيَه إلى هذه الدَّوْلَةِ، لَما بيْنَها مِن المنافسَةِ، فماتَ، رحِمه اللَّهُ، ولم ينَلْه أحدٌ بضَيْمٍ ولا أذًى، ولا رأى في الدولةِ مَن هو أكبرُ منه، وقد رثَاه الشُّعراءُ بأشعارٍ حَسَنةٍ، منها قولُ القاضي هبَةِ اللَّهِ بنِ سَنَاءِ المُلْكِ:

عبدُ الرَّحيمِ على البريَّةِ رحمةٌ ... أمِنَتْ بصُحبَتِها حلُولَ عقَابِها
يا سائلاً عنهُ وعن أسْبابِه ... نالَ السَّماءَ فَسَلْه عن أسْبابِها
والدَّهرُ يعلمُ أنَّ فيصلَ خطْبِه ... بخُطا يراعتِه وفصلِ خطابِها
ولقد علَتْ رتبُ الأجلِّ على الورَى ... بسموٍّ منصَبِها وطيبِ نصابِها
وأتَتْهُ خاطبةً إليه وزارةٌ ... ولطالما أعْيَتْ على خُطَّابِها
ما لقَّبُوه بها لأن يعلُو بها ... أسماؤه أغنَتْه عن ألقابِها
قال الزمانُ لغيرِه إذ رامَها ... ترِبَتْ يمينُك لسْتَ من أترابِها
اذهَبْ طريقَك لست من أربابِها ... وارجع وراءَك لسْتَ من أصحابِها
وبعزِّ سيدِنا وسيِّدِ غيرِنا ... ذلَّتْ من الأيامِ شمسُ صعابِها
وأتَتْ سعادتُه إلى أبوابِه ... لا كالذي يسْعَى إلى أبوابِها
تعْنُو المُلُوكُ لوجْهِه بوُجُوهِها ... لا بلْ تُساقُ لبابِه برقابِها
شُغلَ الملوكُ بما يزولُ ونفسُه ... مشْغُولةٌ بالذِّكْرِ في محْرابِها
في الصَّومِ والصَّلوات أتْعبَ نفسَه ... وضمانُ راحتِه على إتْعابِها
وتعجَّلَ الإقلاعَ عن لذَّاتِه ... ثقَةً بحسْنِ مآلِها ومآبِها
فلْتَفْخَرِ الدُّنيا بسائسِ مُلْكِها ... منهُ ودارسِ علمِها وكتابِها
صَوَّامِها قَوَّامِها عَلَّامِها ... عَمَّالِها بَذَّالِها وَهَّابِها

والعجَبُ أن القاضيَ الفاضلَ مع براعَتِه وفصاحتِه التي لا تُدانَى ولا تُجارَى لا يُعرفُ له قصيدةٌ طويلةٌ طنَّانةٌ، بل له ما بينَ بيتٍ وبيْتَينِ في أثناءِ الرسائلِ وغيرِها شيءٌ كثيرٌ جدًّا، فمِنْ ذلك قولُه:

سبقتُمْ بإسداء الجميلِ تكرُّمًا ... وما مثلُكم فيمَنْ تحدَّثَ أو حَكَى
وقد كان ظنِّي أن أسابِقَكُم به ... ولكن بكَتْ قبلي فهيجَ لي البكا

ومن ذلك قولُه:

ولي صاحبٌ ما خفتُ من جَوْرِ حادثٍ ... من الدَّهرِ إلا كانَ لي من وَرائِهْ
إذا عضَّني صَرْفُ الزمانِ فإنَّني ... براياتِه أسطُو عليه ورائِهْ

وله في بدْوِ أمْرِه:

أرَى الكُتَّابَ كلَّهُم جميعًا ... بأرزاقٍ تعُمُّهم سنينَا
ومَالِيَ بينَهمْ رزقٌ كأنِّي ... خُلِقْتُ من الكرام الكاتبينَا

وله في النَّحْلةِ والزلقطة:

ومُغَرِّدَيْن تجاوبَا في مجْلِسٍ ... فنفاهما لأذاهُما الأقوامُ
هذا يجُودُ بعكْسِ ما يأتي به ... هذا فيُحْمَدُ ذا وذاكَ يُذامُ

وله في ممسحةِ القلم:

ممسحةٌ نهارُها يجنُّ ليلَ الظُّلَمِ ... كأنها من طرفِها منديلُ كفِّ القلمِ

وقولُه:

بتْنا على حالٍ تسُرُّ الهوَى ... لكنَّهُ لا يُمكِنُ الشَّرْحُ
بوَّابُنا الليلُ وقُلْنا لهُ ... إنْ غِبْتَ عنَّا هجَم الصُّبْحُ

وسأله الملكُ العزيزُ عثمانُ بنُ الناصرِ عن جاريةٍ مِن حظاياه أرسلَتْ إليه زرًّا مِن ذهبٍ مُغلَّفٍ بعَنْبَرٍ أسْوَدَ، فأنشأ الفاضلُ يقولُ:

أهدَتْ لك العنبرَ في وَسْطِه ... زرٌّ من التِّبْرِ رقيقُ اللِّحامِ
فالزِّرُّ في العَنْبَرِ معناهما ... زُرْ هكذا مُختفيًا في الظَّلامِ

قال القاضي ابنُ خَلِّكَانَ: وقد اختُلِفَ في لقَبِه؛ فقيلَ: مُحْيِي الدِّينِ وقيلَ: مُجيرُ الدِّينِ. وحُكِيَ عن عُمارةَ اليَمَنيِّ أنَّه ذكَره بذكرٍ جميلٍ، وأنَّ العادلَ بنَ الصَّالحِ بنِ رُزِّيكَ هو الذي اسْتَقدَمَه من الإسْكَنْدريَّةِ، وقد كان معدودًا في حسَناتِه. وقد بسَط ابنُ خَلِّكَانَ ترْجمتَه بنَحْوِ ما ذكَرْنا، وفي هذه زِيادةٌ كثيرةٌ. واللَّهُ أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

فيها اشْتَدَّ الغَلاءُ بأرضِ مِصرَ جداً، فهلَكَ خلقٌ كثيرٌ جداً من الفُقراءِ والأغنياءِ، ثم أعْقَبَه فناءٌ عظيمٌ حتى حكَى الشيخُ أبوشامَةَ في «الذَّيْلِ» أنَّ العادلَ كفَّنَ من مالِه في مدَّةِ شهرٍ من هذه السَّنَة نحْواً من مائتَيْ ألفٍ وعشْرينَ ألفَ مَيِّتٍ، وأُكِلَت الكلابُ والمَيْتاتُ في هذه السنةِ بمصْرَ، وأُكِلَ من الصِّغارِ والأطفالِ خلْقٌ كثيرٌ، يَشْويه والدَاه ويأكُلانه، وكثُر هذا في الناسِ حتى صارَ لايُنْكَرُ بيْنَهم، ثم صاروا يحتالون على بعضِهم بعضًا فيأكلون من يقدرون عليه، ومَن غلَب من قويٍّ ضعيفًا ذبَحه وأكَله.

وكان الرجلُ يُضيفُ صاحبَه فإذا خلا به ذبَحه وأكَله، ووُجِدَ عندَ بعْضِهم أرْبَعُمائَةِ رأسٍ.

وهلَكَ كثيرٌ من الأطبَّاءِ الذين يُسْتَدْعون إلى المرضى فيُذْبحون ويُؤْكَلون؛ وقد استَدعَى رجلٌ طبيبًا فخافَ الطبيبُ وذهَب معه على وجَلٍ، فجعَل الرجلُ يتَصدَّقُ على مَنْ وجَده في الطَّريقِ ويذكُرُ ويُسبِّحُ، ويكثِرُ من ذلك، فارتاب به الطبيبُ وتخيَّلَ، ومع هذا حمَله الطَّمع على الاسْتمرارِ معه، فلمَّا وصَل إلى الدارِ إذا هي خَرِبَةٌ فارتابَ أيضاً، فخرَج رجلٌ من الدارِ، فقال لصاحبه: ومع هذا البُطْءِ جئتَ لنا بصَيْد. فلمَّا سمِعَها الطبيبُ هرَب، فخرَجا خلْفَه سراعًا فما خلَص إلاَّ بعدَ جَهدٍ جَهيدٍ.

وفيها وقَع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن وكانوا يسكنون في عشرين قرية، فبادت منها ثماني عشْرَةَ قريةً، ولم يبْقَ فيها ديَّارٌ ولا نافخُ نارٍ، وبقيَت أنعامُهم وأموالُهم لا قانيَ لها، ولا يستَطيعُ أحدٌ أنْ يسْكُنَ تلكَ القُرَىٰ ولا يدْخُلَها، بل كان مَنِ اقْتَرب إلى شيءٍ من هذه القُرَىٰ هلَك من ساعَته، فسبحانَ من بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ وإليه ترجعون، أما القَرْيتان الباقيَتان فإنَّهما لم يَمُتْ منهما أحدٌ، ولا عندَهم شعورٌ بما جرَىٰ على مَنْ حولَهم، بل هم على ما كانوا عليه لم يُفْقَدْ منهم أحدٌ.

واتَّفَقَ باليمنِ في هذه السَّنَة كائنةٌ غريبةٌ جداً؛ وهي أنَّ رجلاً يقالُ له: عبدُ اللَّه بنُ حَمْزَةَ العَلَوِيُّ كان قد تغَلَّبَ على كثيرٍ مِن بلادِ اليمنِ، وجمَع نحواً مِنَ اثْنَيْ عشَرَ ألفَ فارسٍ، ومن الرَّجَّالَةِ جمعًا كثيراً، وخافَه مَلكُ اليَمنِ المُعزُّ بنُ إسْماعيلَ بنِ سيفِ الإسلامِ بنِ طُغتكينَ بنِ أيُّوبَ، وغلَب على ظنِّه زَوالُ مُلْكه على يدَيْ هذا المتغلِّب، وأيْقَن بالهَلَكَة لضَعْفه عن مقاومَته، واخْتلاف أمَرائه معه في المَشُورة، فأرْسَل اللَّهُ صاعقَةً، فنزلَتْ عليهم، فلم يَبْقَ منهم أحدٌ فاضطرَب الجيشُ فيما بيْنَهم وأقبَل المُعزُّ بعسكره فغَشيَهم فقتَل منهم ستَّةَ آلافِ قتيلٍ، واستَقرَّ في مُلْكه آمِنًا.

وفيها تكاتَبَ الأخَوان؛ الأفْضَلُ من صَرْخَدَ، والظَّاهرُ من حَلَبَ، على أنْ يجْتمعَا على حصارِ دمَشْقَ وينْزِعَاها من المُعَظَّمِ بنِ العادلِ، وتكونَ للأفْضَلِ، ثم يسيرَا إلى الديارِ المصريةِ فيأْخُذَاها من العادلِ وابنِه الكاملِ اللَّذينِ نقَضَا العهدَ وأبطَلا خُطْبَةَ المَنْصُورِ بنِ العزيزِ، ونكَثَا المواثيقَ، فإذَا استقرَّ

لهما مُلكُ مصرَ كانتْ للأفضَلِ، وتصييرُ دمَشْقَ مُضافةً إلى الظَّاهرِ مع حلَبَ، فلمَّا بلَغ العادلَ ما تمالآ عليه، أرْسلَ جيْشًا مدَدًا لابْنه المُعظَّم بدمَشْقَ، فوَصَلُوا قبلَ وصُولِ الظَّاهرِ وأخيه الأفضلِ، وكان وصُولُهما إليها في ذي القَعْدَةِ من ناحيَةِ بَعْلَبَكَّ، فنَزلاَ بجيشِهما في مسْجدِ القَدَمِ، واشْتدَّ الحصارُ للبَلدِ، وتسلَّقَ كثيرٌ من الجيْشِ من ناحيَةِ خانِ ابنِ المقدمِ، ولم يَبْقَ إلاَّ فتحُ البَلدِ، لولاَ هُجومُ الليلِ. ثم إنَّ الظَّاهرَ بَدَا له فيما كان عاهد أخاه عليه من كونِ دمشْقَ تكونُ للأفضَلِ، فرأَىٰ أنْ تكونَ له أوَّلاً، ثم إذا فُتحتْ مصر يُسلِّمُها للأفضَلِ، فأرسَل إليه في ذلك فلم يقْبَلِ الأفضَلُ ذلك، واختلَفا وتفرَّقَتْ كَلِمتُهما، وتنازَعا المُلْكَ بدمَشْقَ، فتفرَّقَتِ الأُمَراءُ عنهما، وكُوتِبَ العادلُ في الصُّلْحِ، فأرْسَل يجيبُ إلي ما سألاَ من إقْطاعهما شيئًا من بلادِ الجزيرةِ، وبعْضِ معاملةِ المَعَرَّةِ. وتفرَّقتِ العَساكرُ عن البلدِ في مُحَرَّم سنَةَ ثمانٍ وتسْعينَ، وسار كل من الملكين إلي تسلُّم البلادِ التي أُقْطعَها، وجرَتْ خُطوبٌ يطُولُ شرْحُها، وقد كان الظَّاهرُ وأخُوه كتَبا إلى صاحب المَوْصِلِ نُور الدِّين أرْسلاَنَ الأتابكيِّ أنْ يُحاصرَ مُدنَ الجزيرَةِ التي مع عمِّهما العادلِ، فركِب في جيْشه، وأرْسَل إلى ابنِ عمِّه قُطْبِ الدِّين صاحبِ سِنْجارَ، واجْتمَع معهما صاحبُ ماردينَ الذي كان العادلُ قد حاصرَه وضيَّقَ عليه مُدَّةً طويلةً، فقَصدَتِ العَساكرُ حَرَّانَ، وبها الفائزُ بنُ العادلِ، فحاصَروه مدَّةً، ثم لمَّا بلَغَهم وقُوعُ الصُّلْحِ بينَ العادلِ وابْنَيْ أخيه الظاهرِ والأفضلِ عدلُوا إلي المُصالحَةِ أيضاً، وذلك بعدَ طلَبِ الفائزِ ذلك منهم، وتمَهَّدَتِ الأُمورُ واستَقرَّتْ علىٰ ما كانت عليه، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وفي هذه السنة مَلَكَ غياثُ الدِّينِ وأخُوه شهابُ الدِّين الغُوريَّانِ جميعَ ما كانَ يملكُه خُوارِزْم شاه من البُلْدانِ والحواصلِ والأموالِ، وجرَتْ لهم خُطوبٌ طويلةٌ جدًّا. وفيها كانتْ زَلْزَلَةٌ عظيمةٌ، ابْتدأتْ من بلادِ الشامِ إلىٰ الجزيرةِ وبلادِ الرُّومِ والعراقِ، وكان جُمْهُورُها وعُظْمُها بالشَّامِ؛ تهَدَّمَت منها دُورٌ كثيرةٌ، وخُسِفَ بقَريةٍ من أرْضِ بُصْرَىٰ، وأمَّا السواحلُ فهَلَكَ فيها شيء كثيرٌ، وخربَتْ محالُّ كثيرةٌ من طَرابُلُسَ وصُورَ وعكَّا ونابُلُسَ، ولم يبْقَ بِنَابُلُسَ سِوَىٰ حارةِ السَّامرةِ ومات بها وبقُرَاها ثلاثُونَ ألْفًا تحتَ الرَّدمِ، وسقَطَ طائفةٌ كثيرةٌ من المنارَةِ الشَّرْقيَّةِ بجامعِ دمشقَ وأربَعَ عشْرَةَ شُرْفةً منه، وغالبُ الكلاَّسَةِ والمارَسْتانِ النُّوريِّ، وخرجَ الناسُ إلي المَيادينِ يسْتَغيثونَ، وسقَطَ غالبُ قَلْعَةِ بَعْلَبَكَّ مع وثاقَةِ بنائها، وانْفرَقَ البحْرُ إلي قُبْرُسَ، وحذَفَ بالمراكبِ إلي ساحله، وتعدَّىٰ إلىٰ ناحيةِ الشرقِ، فسقَطَ بسبَبِها دورٌ كثيرةٌ، وماتَ أُمَمٌ لا يُحْصونَ حتىٰ قال صاحبُ «مرآة الزَّمان»: إنَّه مات في هذه السَّنَة بسبَبِ الزَّلْزلَةِ نحْوٌ من ألْفِ ألْفٍ ومائَةِ ألْفِ إنْسانٍ. نقَله في «ذيلِ الروضتين» عنه.

وممَّن توفِّي فيها من المشاهير والأعْيان:

الشيخُ أبو الفرجِ ابنُ الجَوْزيِّ عبدُ الرَّحْمنِ بنُ عليِّ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عبيدِ اللَّهِ بنِ حُمَّادَىٰ بنِ

أحمدَ بن محمدِ بن جَعْفَر الجَوْزِيُّ - نِسْبة إلى فُرْضَة نَهْر بالبَصْرَة - ابن عبدالله بن القاسم بن النَّضْر بن القاسم بن محمدِ بن عبد اللهِ بن عبدالرحمن بن القاسم بن محمدِ بن أبي بكْر الصِّدِّيق، الشيخُ الحافظُ الواعظُ جمالُ الدِّين أبو الفَرَج، المشهورُ بابْنِ الجوْزيِّ، القُرَشيُّ التَّيميُّ البَغْدَاديُّ الحَنْبَليُّ، أحدُ أفرادِ العلماء، برَّز في كثيرٍ من العُلوم، وجمَع المُصنَّفات الكبارَ والصِّغارَ نحْواً من ثلاثمائة مُصنَّفٍ، وكتَب بيَده نحْواً من ألفَيْ مُجلَّدةٍ، وتفرَّدَ بفَنِّ الوَعْظ الذي لم يُسْبَقْ إلى مثْلِه ولا يُلحَقُ شأْوُه في طريقتِه وشكْلِه وفي فصاحتِه وبلاغتِه وعذُوبة كلامِه، وحلاوةِ ترْصيعِه، ونُفوذِ وعْظِه، وغوْصِه على المعاني البديعَة، وتقْريبِه الأشياءَ الغريبةَ فيما يُشاهَدُ من الأمُورِ الحِسِّيَّة، بعبارةٍ وَجيزةٍ سريعةٍ، هذا وله في العُلوم اليدُ الطُّولَى، والمُشاركَاتُ في سائرِ أنواعِ العلومِ من التَّفْسيرِ والحديثِ والتَّاريخِ والحسابِ، والنَّظَرِ في النُّجوم، وله من المُصنَّفاتِ في ذلك ما يضيقُ هذا المقامُ عن تعْدادِها، وحصْرِ أفرادِها؛ منها كتابُه في التَّفْسيرِ الشهيرُ بـ «زادِ المسيرِ»، وله أبْسَطُ منه ولكنَّه ليْسَ بمشْهورٍ ولامنكورٍ، وله «جامعُ المَسانيد» استَوعَب فيه غالبَ «مُسْنَد الإمام أحمدَ» و«صَحيحَي البُخاريِّ ومسلم» و«جامع الترْمذيِّ»، وله كتابُ «المُنْتظم في تَواريخ الأُمَم من العرَب والعَجَم» في عشْرينَ مُجَلَّداً، قد أوْرَدْنا في كتابِنا هذا كثيراً من حوادثِه وتَراجمِه، فلم يزَلْ يُؤرِّخُ أخْبارَ العالمِ حتَّى صارَ هو تاريخًا، وما أحقه بقولِ الشاعرِ :

مـازلتَ تدْأبُ في التَّـاريخِ مُـجْـتـهِـداً ... حـتـى رأيْتُكَ في التَّـاريخ مكْتُـوبا

وله مَقامات وخطَبٌ، وله «الأحاديثُ الموْضوعَةُ»، و«العِلَلُ المُتَناهيَةُ في الأحاديثِ الواهيَةِ»، وغيرُ ذلك.

وُلِد سنةَ عشْرٍ وخمسمائة، ومات أبوه وعُمرُه ثَلاثُ سنين، وكان أهلُه تُجَّاراً في النُّحاسِ، فلمَّا تَرَعْرَع جاءَتْ به عمَّتُه إلى مسجدِ محمد بن ناصرٍ الحافظ، فلَزِم الشيخَ، وسمِع عليه الحديثَ، وتَفقَّه بابْنِ الزَّاغُونيِّ، وحفظ الوَعْظَ، ووَعَظ وهو دونَ العشرين، وأخَذ اللغةَ عن أبي منْصُورٍ الجَواليقيِّ، وكانَ صيِّنًا دَيِّنًا، مجموعًا على نفسِه لا يُخالِطُ أحدًا، ولا يأكُلُ ممَّا فيه شُبْهَةٌ، ولا يَخْرُجُ من بيْتِه إلا للجُمُعَة، وقد حضَر مجْلسَ وعْظِه الخُلَفاءُ والوزَراءُ والملوكُ والأمَراءُ والعُلَماءُ والفُقَراءُ، ومن سائرِ صُنُوفِ بني آدَمَ، وأقلُّ ما كان يجْتَمعُ في مجلسِه عشَرةُ آلافٍ، وربَّما اجْتَمَع فيه مائةُ ألفٍ أو يزيدُون، وربَّما تكلَّم من خاطرِه على البَديهَة نَظْمًا ونثْرًا، رحمه اللَّهُ.

وبالجملة كان أسْتاذًا فرْدًا في الوَعْظ، له مشاركاتٌ حسنةٌ في بقيةِ العلوم، وقد كانَ فيه بَهاءٌ، وترَفُّعٌ في نفسِه، ويسمُو بنَفْسِه أكثرَ من مَقامه، وذلك ظاهرٌ في نثْرِه ونظْمِه، فمن ذلك قولُه :

مـازلتُ أدركُ مـا غَـلا بلْ مـا عَـلا ... وأُكـابدُ النَّهجَ العسيرَ الأطولا
تجري بيَ الآمـالُ في حلَبـاتـه ... طلقَ السَّعيد جَرَى مَدَى ما أمَّلا
يُفْضي بيَ التَّوفيقُ فيه إلى الذي ... أعيَى سوايَ توصُّلاً، وتغلْغُلا
لوكان هذا العلمُ شخصًا ناطقًا ... وسألتَه هل زُرْتَ مِثْلي قال لا

ومن شعْره أيضًا ويُرْوى لغيره:

إذا قنعتَ بميسور من القُوت ... أصبحتَ في الناس حُرًّا غيرَ ممْقُوت
يا قُوتَ نفسي إذا ما دَرَّ خلفُكَ لي ... فلَسْتُ آسَى على دُرٍّ وياقُوت

وله من النَّظْم والنَّثر شيءٌ كثيرٌ لا ينضبِطُ، وله كتابٌ مُفردٌ سمَّاه: «نظم الجُمَان في كان وكان».

ومن لَطائف كلامه قولُه في الحديث: «أَعْمَارُ أُمَّتِي ما بينَ السِّتِّينَ إلى السَّبْعينَ»: إنَّما طالَتْ أعْمارُ مَن قبْلَنا لطُول البادية، فلمَّا شارَف الركْبُ بلدَ الإقامَة قيل لهم: حُثُّوا المطيَّ. وقال له رجلٌ: أيُّما أفضَلُ؟ أجلسُ أُسبِّحُ أو أستَغفرُ؟ فقال: الثَّوْبُ الوَسِخُ أحْوَجُ إلى الصابون من البَخُور.

وسُئِل عمَّن أوصَى وهو في السِّياق، فقال: هذا طينٌ سُطوحُه في كانُون.

والتَفت يومًا إلى ناحية الخليفة المُسْتَضيء وهو في الوَعْظ فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنْ تكلَّمتُ خفتُ منكَ، وإنْ سكَتُّ خفتُ عليكَ، وإنَّ قولَ القائل: اتَّقِ اللَّهَ، خيرٌ لكم من قوله: إنَّكم أهلُ بَيْتٍ مغْفُورٌ لكم. وكان عمرُ بنُ الخطَّاب يقولُ: إذا بلَغَني عن عاملٍ أنَّه ظالمٌ فلم أُغَيِّرْه، فأنا الظَّالمُ. يا أميرَ المُؤْمنينَ؛ وكان يُوسُفُ لا يشْبَعُ في زمن القحط حتى لا ينْسَى الجِيعانَ، وكانَ عمرُ يضْرِبُ بطْنَه عامَ الرَّمادَة ويقولُ: قَرْقِرْ أولا تُقَرْقِرْ، واللَّه لا سَمْنًا ولا سَمينًا حتى يُخْصِبَ الناسُ. قالَ: فتصدَّق المُسْتَضيء بمالٍ جزيلٍ، وأطْلَق المحَابيسَ، وكسى خلقًا من الفُقَراء.

وُلد ابنُ الجَوْزيِّ في حدود سنة عَشْرٍ وخمْسمائة، كما تقدَّم، وكانتْ وَفاتُه في ليْلة الجُمُعَة بينَ العشَاءيْن الثَّاني عشرَ من شهرِ رمضانَ من هذه السنة، وله سبْعٌ وثمانُون سنةً، وحُملتْ جنازتُه على رُءوس الناس، فدُفن بباب حربٍ عندَ أبيه بالقُرْب من الإمام أحمدَ، وكانَ يومًا مشْهُودًا، حتى قيلَ: إنَّه أفْطَر جماعةٌ من الناس بسبب شدة الحَرِّ وكثْرة الزِّحام، رحمه اللَّهُ، وقد أوصَى أن تُكْتَبَ على قَبْره هذه الأبياتُ:

يا كثيرَ العَفْو عمَّن ... كَثُر الذَّنْبُ لديه
جاءَكَ المُذْنبُ يَرْجُو الصـ ... ـصفح عن جُرْمِ يديه
أنا ضَيْفٌ وجزاءُ الضـ ... ـضيف إحسانٌ إليه

وقد كان للشيخ جمال الدين ابن الجَوْزيِّ من الأوْلاد الذُّكور ثلاثةٌ: عبدُ العزيز، وهو أكْبرُ أولاده،

ماتَ شابًا في حَياة والده في سنة أربع وخمسين، ثمَّ أبو القاسم عليٌّ، وقد كانَ عاقًّا لوالده إلبًا عليه في زمن المحنَة وغيرها، وقد تسلَّطَ على كتبه في غَيْبَته بواسط، فباعَها بأبخس الأثمان، ثم مُحيي الدين يوسُفُ، وكان أنجبَ الأولاد وأصغرَهم؛ وُلد سنةَ ثمانين، ووعَظ بعد أبيه، واشتَغَل وحرَّر وأتقَن وسادَ أقرانَه، ثم باشَر حِسْبَةَ بَغْدَادَ، ثم كان رسُولَ الخُلَفاء إلى المُلوك بأطراف البلاد، ولاسيَّما إلى بَني أيوبَ بالشَّام، وقد حصَّل منهم من الأموال والكرامَات ما ابْتَنَى به المدْرسَةَ الجَوْزيَّةَ التي بالنَّشابينَ بدمَشْقَ، ثم صار أستاذَ دار الخليفة المُستَعْصم في سنة أرْبَعينَ وستِّمائة، واستمرَّ مُباشرَها إلى أنْ قُتل مع الخليفة عامَ هولاكو بن تُولي بن جنكزخانَ، وكان لأبي الفرَج عدَّةُ بنَات؛ منْهُنَّ رابعَةُ أمُّ سبْطه أبي المُظَفَّر بن قزاوغليّ صاحب «مرآة الزَّمان»، وهي كتابٌ من أجْمَع التَّواريخ وأكثرها فائدةً، وقد ذكَره ابنُ خَلِّكَانَ في «الوفَيات»، فأثْنَى عليه ومدَحه وشكَر تَصانيفَه وعلُومَه.

العمَادُ الكاتبُ الأصْبهانيُّ محمدُ بنُ محمد بن حامد بن محمد بن عبد اللَّه بن عليِّ بن محمود بن هبَة اللَّه بن أَلُهْ - بتَشْديد اللام وضمِّها - المعْروفُ بالعمَاد الكاتب الأصْبهانيِّ، صاحبُ المُصنَّفات والرَّسائل والشعر، وُلد بأصْبَهانَ في سنة تسْعَ عشْرَةَ وخَمْسمائة، وقَدم بَغْدَادَ، فاشْتَغَل بها على الشيخ أبي منْصُور سعيد بن الرَّزاز مُدرِّس النِّظاميَّة، وسمع الحديثَ، ثم رحَل إلى الشَّام، فحظيَ عندَ الملك نور الدين محمود بن زَنْكي، وكتَب بينَ يدَيْه وولاه المدْرسةَ التي أنْشأها داخلَ باب الفَرج التي يقالُ لها العمَاديَّةُ؛ نسْبَةً إلى العماد هذا لكثرة إقامَته بها، وتدْريسه فيها، ولم يكُنْ أولَ مَن درَّس بها، بل قد سبقَه إلى تدْريسها غيرُ واحد، كما تقدَّمَ في ترْجَمَة نُور الدين.

ثم صار العمَادُ كاتبًا في الدَّوْلَة الصَّلاحيَّة، وكان القاضي الفاضلُ يُثْني عليه ويشكُرُه، قالوا: وكان منْطوقُه يعْتَريه جمودٌ وفَتْرةٌ، وقريحَتُه في غاية الجوْدَة والحدَّة. وقد قال القاضي الفاضلُ لأصْحابه يومًا: قولُوا. فتكلَّمُوا وشبَّهُوه في هذه الصِّفَة بصفات، فلم يقْبَلْها القاضي، وقال: هو كالزِّناد، ظاهرُه باردٌ وداخلُه نارٌ. وله من المُصنَّفات: «خريدةُ القصر في شُعراء العَصْر»، و«الفَتْحُ القُدْسيُّ»، و«البَرْقُ الشَّاميُّ»، وغيرُ ذلك من المُصنَّفات المُسْجعَة، والعبارات المُصرَّعة، والقَصائد المُطَوَّلَة، والمعاني والألفاظ المُؤثَّلَة.

ومن لطيف تغزُّله قوله هذه الأبيات:ـ

كيف قُلتُم في مُقلتَيه فُتورُ	وأراها بلا فتور تجورُ
لو بصُرتم بطَرْفه كيف يَسْبي	قُلتُمُ ذاكَ كاسرٌ لاكَسيرُ
مُوترٌ قوسَ حاجبَيه لإصْما	ءِ فؤادي كأنَّه موتورُ
لا تَسَلْني عن العَقار فعَقْلي	لُ طافحٌ من عقارهنَّ عقيرُ

كيف يَصْحُو من سُكْرِه مستهامٌ	مزجتْ كأسَه الحسانُ الحورُ
أورثته سقامَها الحدقُ النجلُ	وأهدتْ له النحولَ الخصورُ
ما تصيدُ الأسْدُ الخوادرُ إلاَّ	ظبياتٌ كناسُهنَّ الخدورُ
كلُّ غُصنيَّة الموشَّحِ هيفاءُ	على البدرِ جيبُها مزرورُ
وجناتٌ تجني الشقائقَ منها	وثنايا كأنَّها المنثورُ

وقد كانت وفاته في مُسْتَهَلِّ رَمضانَ من هذه السَّنَةِ عن ثَمانٍ وسَبْعِينَ سنةً، رحمه اللَّهُ، ودُفِن بمَقَابر الصُّوفيَّة.

الأميرُ بهاءُ الدِّين قَرَاقُوشُ الفَحْلُ الخَصِيُّ، أحدُ كبراءِ أمراءِ الدولة الصَّلاحيَّة، كانَ شَهْمًا شُجاعًا فاتكًا، تسلَّمَ القَصْرَ لمَّا ماتَ العاضدُ، وعمَّرَ سُورَ القاهرة مُحيطًا على مِصْرَ أيضًا، وانْتَهى به إلى المقْسَم؛ وهو المكانُ الذي اقْتَسَمتْ فيه الصَّحابَةُ ماغنِمُوا من الدِّيار المصْرِيَّة، وبنى قَلْعَةَ الجبَلِ، وقد كان الملكُ صلاحُ الدِّين سلمَه عكَّا ليعَمِّرَ فيها أماكنَ كثيرةً، فوقَع الحصَارُ وهو بها، فلمَّا خرَج البدَلُ منها كان هو من جملَةِ مَنْ خرَجَ، ثم دخَلَها ابنُ المَشْطوبِ. وقد ذُكِر أنَّه أُسِرَ فافْتدَى نفْسَه بعَشَرَة آلاف دينارٍ، وعاد في حياة الملك صلاحِ الدِّين، ففَرِح به فرَحًا شديدًا، ولمَّا تُوفِّي في هذه السَّنَة احْتَاطَ الملكُ العادلُ على تَركَته، وصارَت اقْطاعُه وأمْلاكُه للمَلِك الكاملِ محمدِ بن العادلِ. قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: وقد نُسبَ إليه أحْكامٌ عجيبةٌ، حتى صنَّفَ بعضُهم جُزْءًا لطيفًا سمَّاه: كتاب «الفَاشُوش في أحْكامِ قَرَاقُوشَ»، فذكَرَ أشْياءَ كثيرةً جدًّا، وأظُنُّها موضوعةً عليه؛ فإنَّ الملكَ صلاحَ الدِّين كان يعْتَمِدُ عليه، وما كان ليفعلَ ذلك وهو بهذه المثابَة! واللَّهُ أعلمُ.

مكْلَبَةُ بنُ عبدِ اللَّه المُسْتَنجديُّ، كانَ تُرْكيًّا عابدًا زاهدًا، سمع المُؤذِّنَ وقتَ السَّحَرِ وهو ينْشدُ على المَنارَة:

يا رجَالَ الليلِ جِدُّوا	رُبَّ صوْتٍ لا يُرَدُّ
ما يقُومُ الليلَ إلاَّ	مَن له عَزْمٌ وجِدُّ

فبكَى مكْلَبَةُ، وقال للمُؤذِّن: يا مُؤذِّنُ زِدْني. فقالَ المؤذِّنُ:

قد مَضَى الليلُ وولَّى	وحَبِيبي قد تجلَّى

فصرَخ مكْلَبَةُ صرْخةً كان فيها حتفُه؛ فأصْبحَ أهلُ البَلدِ قد اجْتَمَعوا على بابِه، فالسَّعيدُ مَنْ وصَل إلى نعْشِه، رحمهُ اللَّهُ تعالَى.

أبو منْصُورِ بنُ أبي بكْرِ بن شُجاعٍ، المُزَكْلِشُ بَبغْدَادَ، ويُعْرَفُ بابنِ نُقْطَةَ، كان يدورُ في أسْواقِ بَغْدادَ بالنَّهارِ ينْشدُ كانَ وكانَ والمَوالِيَا، ويُسحِّرُ النَّاسَ في ليالِي رمَضانَ، وكان مطْبوعًا ظريفًا خَليعًا، وكان

أخوه الشيخُ عبدُ الغنيِّ الزاهدُ من أكابرِ الصَّالحين، له زاويةٌ ببغدادَ يُزارُ فيها، وكانَ له أتباعٌ ومُريدُون، ولا يدَّخرُ شيئًا يحصُلُ له منَ الفُتوح. تصدَّقَ في ليلةٍ بألفِ دينارٍ وأصحابُه صُيَّامٌ لم يدَّخرْ منها شيئًا لعَشائهم. وزوَّجَته أمُّ الخليفةِ بجاريةٍ من خَواصِّها وجهَّزتها بعشرةِ آلافِ دينارٍ إليه، فما حالَ الحَوْلُ وعندَهم من ذلكَ شيءٌ، بل جميعُ ذلكَ يُؤثِرُ به ويتصدَّقُ به حتى لم يبقَ عندَهم سوى هَاوُنٍ، فوقفَ سائلٌ ببابِه فألَحَّ في الطَّلبِ، فأخرَجَ إليه الهاوُنَ، فقال: خُذْ هذا وكُلْ به ثلاثين يومًا، ولا تُشنِّعْ على اللَّهِ عزَّ وجلَّ. وكان من خيارِ الصَّالحين.

والمقصودُ أنَّه قيل لأخيه أبي منصورٍ هذا: ويحَكَ، أنتَ تدُورُ في الأسواقِ وتُنشدُ الأشعارَ، وأخُوكَ مَنْ قد عرَفْتَ! فأنشَأ يقولُ في جوابِ ذلك بيتَيْنِ مَواليًا من شعْرِه على البديهَةِ:

قد خابَ مَنْ شبَّه الجَزْعَةْ إلى الدُّرَّةْ ... وشابه قَحْبَةْ إلى مُسْتَحِنةْ حُرَّةْ
أنا مُغَنِّي وأخي زاهدْ إلى مَرَّةْ ... في الدار بِسرين ذي حُلوةْ وذي مُرَّةْ

وقد جرَىٰ عندَه مرَّةً ذِكرُ قَتْلِ عُثمانَ، وعليٌّ حاضِرٌ، فأنشَأ يقولُ: كانَ وكانَ، ومَنْ قُتِلَ في جوارِه مثْلُ ابنِ عفَّانَ فاعتذر، يجبُ عليه أنْ يقبَلَ في الشَّامِ عُذْرَ يزيدَ. فأرادَتِ الرَّوافضُ قتْلَه، فاتَّفقَ أنَّه في بَعْضِ اللَّيالي يُسحِّرُ الناسَ في رمَضانَ إذ مرَّ بدارِ الخليفةِ فعَطَسَ الخليفةُ في الطَّارقةِ فشمَّتَه أبو منصورٍ هذا منَ الطَّريقِ في نظْمِ ارتجَلَه على البديهةِ مواليًا يقولُ في آخرِه: أي مَن عطَسَ في المنظرةْ يحرَمُكْ اللَّهْ. فأرْسَلَ إليه مائةَ دينارٍ، ورسَمَ بحمايتِه منَ الرَّوافضِ، إلى أنْ ماتَ في هذه السَّنَةِ، رحمه اللَّهُ.

وفيها تُوفِّي: مُسْنِدُ الشَّامِ، أبو طاهرٍ بركاتُ بنُ إبراهيمَ بن طاهرٍ الخُشُوعيُّ، شاركَ ابنَ عساكرَ في كثيرٍ من مَشْيَختِه، وطالَتْ حياتُه بعدَ وفاتِه بسَبْعٍ وعشْرين سنَةً، فألحقَ فيها الأحْفادَ بالأجْدادِ.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

فيها: شرَعَ الشيخُ أبو عمرَ محمدُ بنُ أحمدَ بن قُدامَةَ المقدسيُّ في بناءِ المسْجدِ الجامعِ بالجبلِ، فأنْفَقَ عليه رجلٌ يقالُ له: الشيخُ أبو داودَ محاسنُ الفاميُّ. حتى بلَغَ البناءُ مقْدارَ قامَةٍ، فنَفِد ما عندَه، وما كانَ معه منَ المالِ، فأرْسَلَ الملكُ المُظَفَّرُ كُوكُبُوري بنُ زينِ الدِّينِ صاحبُ إربِلَ مالاً جزيلاً ليُتمِّمَه به فكَمَل، وأرْسَلَ ألفَ دينارٍ ليُساقَ بها إليه الماءُ من بَرْزَةَ، فلم يُمكَّنْ من ذلك الملكُ المعظَّمُ صاحبُ دمَشْقَ، واعْتَذَرَ بأنَّ هذا يُشوِّشُ قبوراً كثيرةً للمُسْلمين، فصنَعَ له بئرٌ وبغْلٌ يدُورُ، وأُوقفَ عليه وقفٌ لذلكَ.

وفيها: كانت حروبٌ كثيرةٌ وخطُوبٌ طويلةٌ بين الخُوارزميَّةِ والغُوريَّةِ ببلادِ المشْرِقِ، بسَطَها ابنُ الأثيرِ، واخْتَصَرَها ابنُ كثيرٍ.

وفيها: درَّسَ بالنِّظاميَّةِ مجْدُ الدِّينِ يَحْيَىٰ بنُ الرَّبيعِ، وخُلعَ عليه خلْعةٌ سَنيَّةٌ سوْداءُ وطَرْحةٌ كُحْليَّةٌ، وحضرَ عنده العُلَماءُ والأعْيانُ. وفيها ولِي قضاءَ القُضاةِ ببَغْدَادَ أبو الحسَنِ عليُّ بنُ سُلَيمانَ الجيليُّ، وخُلعَ عليه أيضًا.

ومِمن تُوفِّي فيها منَ الأعْيان:

القاضي ابنُ الزَّكيِّ، محمدُ بنُ عليِّ بن محمد بن يَحْيَى بن عليِّ بن عبد العزيز، أبو المَعالي القُرَشيُّ، مُحْيي الدِّين قاضي القُضاة بدمشقَ، وكلٌّ منهم كانَ قاضيًا؛ أبوه وجَدُّه وأبو جَدِّه يَحْيَى بنُ عليٍّ المذكورُ، وهو أوَّلُ مَن وَلِي الحُكمَ بدمَشْقَ منهم، وكانَ جَدَّ الحافظ أبي القاسم بن عسَاكرَ لأُمِّه، وقد ترْجَمه ابنُ عساكرَ في التَّأْريخ، ولم يَزِدْ على القُرَشيِّ قال الشيخُ أبو شامَةَ: ولو كانَ أُمَويًّا عُثْمانيًّا كما يزعُمونَ لذَكَرَ ذلك ابنُ عسَاكرَ؛ إذْ كانَ فيه شرَفٌ لجَدِّه وخالَيْه؛ محمدٍ وسُلْطانَ، فلو كانَ ذلك صحيحًا لَمَا خَفِيَ على ابنِ عسَاكرَ.

اشْتَغَلَ ابنُ الزكيِّ على القاضي شرَفِ الدِّين أبي سعْدٍ عبدِ اللَّه بنِ محمد بن أبي عَصْرُونَ، وناب عنه في الحُكْم، وهو أوَّلُ مَنْ تركَ النِّيابةَ، وهو أوَّلُ مَنْ خطَبَ بالقدسِ لَمَّا فتَحه الملكُ صلاحُ الدينِ، كما تقدَّم بيانُ ذلك في سنة ثلاثٍ وثمانين، ثم ولاه قَضاءَ دمَشْقَ وأضافَ إليه قَضاءَ حَلَبَ أيضًا، وكانَ ناظِرَ أوْقافِ الجامعِ، ثم عُزِلَ قبلَ وَفاته بشُهورٍ، ووَلِيَها شمسُ الدِّين ابنُ البَيْنيِّ ضمانًا، وقد كانَ القاضي محيي الدين ابنُ الزكيِّ ينْهَى الطَّلَبةَ عن الاشتغال بالمَنطِق وعلْم الكَلام، ويُمَزِّقُ كُتُبَ مَنْ كان عندَه شيء من ذلك بالمدْرسَة التَّقَويَّة، وكانَ يحْفَظُ العَقيدةَ المُسَمَّاةَ بالمِصْباح للغَزَّاليِّ، ويُحَفِّظُها أوْلادَه أيضًا، وكانَ له درْسٌ في التَّفْسيرِ يذْكُرُه بالكَلاسَةِ، تُجاه تُرْبَةِ الملك الناصرِ صلاحِ الدِّين، وكان قد وَقَع بيْنَه وبينَ الإسْماعيليَّة، فأرادُوا قتلَه، فاتَّخَذ له بابًا من دارِه إلى الجامعِ؛ ليَخْرُجَ منه إلى الصَّلاة، ثم خُولِطَ في عقْلِه، فكانَ يعْتريه شِبْهُ الصَّرْعِ إلى أنْ تُوفِّيَ في سابعِ شَعْبانَ من هذه السَّنَة، ودُفِنَ في تربَة بسَفْحِ قاسِيُون.

الخطيبُ الدَّوْلَعيُّ، ضِياءُ الدِّين أبو القاسمِ عبدُ الملك بنُ زيد بن ياسينَ التَّغْلبيُّ الدَّوْلَعيُّ، نسْبَةً إلى قرْيَة بالمَوْصلِ، يقالُ لها: الدَّوْلَعيَّةُ. وُلِدَ بها في سنَة ثماني عشْرَةَ وخَمْسِمائة، وتفَقَّه ببَغْدَادَ على مذْهب الشَّافعيِّ، وسمعَ الحديثَ، فسَمعَ «التِّرْمذيَّ» على أبي الفَتْح الكَرُوخيِّ، و«النَّسائيَّ» على أبي الحسَن عليِّ بن أحمدَ اليزْديِّ، ثم قَدِم دمَشْقَ فوَلِيَ بها الخطابَةَ وتدْريسَ الغَزَاليَّةِ، وكان زاهدًا مُتورِّعًا حسَنَ الطَّريقَةِ مَهِيبًا في الحقِّ.

وكانت وفاتُه يومَ الثُّلاثاء ثاني عشَرَ رَبيعٍ الأوَّل، ودُفِنَ بمَقْبَرَة باب الصَّغيرِ عندَ قُبورِ الشُّهداء، وكانَ يومُ جنازته يومًا مشْهودًا، وتولَّى بعدَه الخطابةَ ولَدُ أخيه محمدُ ابنُ أبي الفَضْل بنِ زيدٍ سبْعًا وثلاثينَ سنَةً. وقد كانَ ابنُ الزكيِّ وَلَّى ولَدَه الزكيَّ الطَّاهرَ، فصلَّى صلاةً واحدَةً، فتَشفَّعَ جمالُ الدِّين بالأمير فَلَك الدِّين أخي العادل، فوَلاه إيَّاها فبَقِي فيها إلى أنْ تُوفِّيَ سنةَ خَمْسٍ وثلاثين وستِّمائة.

الشيخُ عليُّ بنُ محمدِ بن عُلَيْس، اليَمَنيُّ العابدُ الزاهدُ، كان مُقيمًا شرْقيَّ الكَلاسة، وكانتْ له

أحْوالٌ وكَراماتٌ، نقَلَها الشيخُ علمُ الدِّينِ السَّخاوِيُّ عنه، وساقَها أبوشامَةَ عنه في «الذيلِ».

الصَّدْرُ أبو الثَّناء حَمَّادُ بنُ هِبَةِ اللَّه بنِ حمَّاد الحرَّانِيُّ التاجِرُ، وُلِدَ سنَةَ إحْدَىٰ عشْرَةَ، عامَ وُلِد نُورُ الدِّينِ بنُ زَنكي، وسمعَ الحديثَ ببَغْدادَ ومِصْرَ وغيرِهما مِن البلادِ وحدَّث، وتُوفِّي في ذِي الحجَّةِ.

ومِن شعْرِه قولُه:

تنَقُّلُ المرْءِ في الآفاق يُكْسِبُهُ ... مَحاسنًا لم تكُنْ فيه ببَلْدَتَه
أمَا ترَىٰ بَيْذَقَ الشِّطْرَنْجِ أكْسَبَهُ ... حُسْنُ التَّنقُّلِ فيها فوقَ رُتْبَتِه

السِّتُّ الجليلَةُ المصُونَةُ بنفشا بنتُ عبد اللَّه عَتِيقَةُ الإمامِ المُسْتَضِيء، وكانتْ مِن أكْبرِ حظَايَاه، ثم صارَتْ مِن بعدِه من أكْثَرِ النساءِ صدَقةً وبِرًّا، وإحْسانًا إلي العُلَماءِ والفُقَراءِ، لها بطريقِ الحجازِ معروفٌ كثيرٌ معروفٌ، ووقَفتْ مدرسةً علىٰ الحنابلةِ وأوقافًا دارَّةً، ودُفِنَت ببَغْدادَ عندَ تُرْبَةِ معْروفٍ الكَرْخِيِّ.

ابنُ المُحْتَسب الشَّاعِرُ، أبو الشكرِ محمودُ بنُ سُلَيْمانَ بنِ سعيد المَوْصِلِيُّ، يعرَفُ بابْنِ المُحْتَسِب، تفَقَّه ببَغْدادَ، ثم سافَرَ إلي البلادِ، وصَحِبَ ابنَ الشَّهْرَزُورِيِّ وقدِمَ معه، فلمَّا وُلِّيَ قضاءَ بَغْدادَ ولاه نظَرَ أوقافِ النِّظامِيَّةِ، وكانَ فاضلاً يقولُ الشعرَ الرائقَ فمن ذلك:

أسْلفْ لنا في سُلافةِ العنَبِ ... جميعَ ما يُقْتَنَىٰ من الذهبِ
وانْشَبْ مع النفسِ في معامَلَة ... فيها بما عندَنا من النَّشَبِ
جميعُ ما في الهِمْيانِ يَحْقُرُه الْ ... عاقلُ في لَثْمِ رِيقِها الشَّنِبِ
لا سيَّما إن أتتْك كالذَّهَبِ ... قد قلَّدوها عِقْدًا من الحَبَبِ
تُحْرِقُ كَفُّ المديرِ إنْ وقَفَ الدَّوْرُ ... بها ساعةً من اللَّهَبِ
إذا بدا هَمُّنا لِيَسْتَرِقَ السَّمْعَ ... برِفْقٍ للَّهْوِ واللَّعِبِ
تُتْبِعُهُ من سماءِ راوُوقِها الرَّائقِ ... رجْمًا بالأنْجُمِ الشُّهُبِ
ما قطُّ تبَّتْ يَدٌ لشارِبِها ... وحقٍّ تبَّتْ يدا أبي لَهَبِ
أَمُرُّ بالكَرْمِ خلفَ حائطِه ... تَأْخُذُني نَشْوَةٌ من الطَّرَبِ
أَسْكَرُ بالأمسِ إنْ عزَمْتُ علىٰ الشُّرْبِ ... غدًا إنَّ ذا من العَجَبِ
جنَّبَها سُكْرَها وصُحْبَتَها ... تحريمُ شرْعٍ لسَيِّدِ العربِ
تركتُها جانبًا ولُذْتُ إلى ... ظلٍّ إمامٍ مُنْجٍ من النُّوَبِ
الطاهرِ الطُّهْرِ وابنِ خَيْرِ فتًىٰ ... وطاهِرِ الخُلْقِ طاهرِ النَّسَبِ
ماذا يقولُ المدَّاحُ في رجلٍ ... خليفةُ اللَّهِ وابنُ عمِّ نَبِي

ومِن شعرِه الرائقِ له أيضًا:

أهابُ وصفَ الخمرِ في إهابِها ... ياحبَّذا ما كان من مُهابِها
حبَا بها الساقي وقد أقعَدَهُ ... سُكْرٌ فزاد السُّكْرُ إذ حبَا بها
خَطَا بَها وثيقةً شرعيَّةً ... علىٰ الذي يُفْلسُ من خُطَا بها
دعا بها في صدرِ كَلِّ باخلٍ ... وخَلِّيَا من كلِّ مَنْ دعا بها
فتَا بها قلبَ الحَسُودِ واشْكُراً ... كلَّ فَتًى في الناسِ قد فتا بها
اعْنَ بها يا أيُّها المُغْرَي بها ... وأَسْلف النُّضَارَ في أعنابِها
ثَوَىٰ بها كلُّ السرورِ عندَنا ... وإثمُهَا أكبرُ مِن ثوابِها

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة

قال سبْطُ ابنِ الجَوْزِيِّ في« المِرْآةِ »: في ليْلةِ السَّبْتِ سَلْخِ المُحَرَّمِ هاجَتِ النُّجومُ في السَّماءِ وماجَتْ شَرْقًا وغرْبًا، وتَطايرَتْ كالجَرادِ المُنْتَشرِ يمِينًا وشمالاً، قال: ولم يُرَ مثْلُ هذا إلا في عامِ المَبْعَثِ وفي سنَةِ إحدىٰ وأربعين ومائتين.

وفي هذه السنةِ شُرِعَ في عِمارةِ سُورِ قَلْعةِ دِمشقَ، وابْتُدئَ ببُرجِ الزاويةِ الغرْبِيَّةِ القِبْليَّةِ المُجاوِرِ لبابِ النَّصْرِ.

وفيها أرسَلَ الخليفةُ النَّاصرُ الخِلَعَ وسَراويلاتِ الفُتُوَّةِ للمَلِكِ العادلِ وبَنِيه.

وفيها بعَثَ السلْطانُ ولده الأَشْرَفَ مُوسىٰ لمُحاصَرةِ مارِدِينَ، وساعَدَه جيْشُ سِنْجارَ والمَوْصلِ، ثم وقَعَ الصُّلْح علىٰ يَدَيِ الظَّاهرِ، علىٰ أنْ يحْمِلَ صاحبُ مارِدِينَ للعَادلِ في كلِّ سنةٍ مائةَ ألْفٍ وخمسين ألفَ دينارٍ، وأنْ تكونَ السِّكَّةُ والخُطْبَةُ للعادلِ، وأنَّه متىٰ طَلَبه بجَيْشه يحْضُرُ إليه.

وفيها كَمَلَ بِناءُ رِباطِ المَرْزُبَانيَّةِ، ووليَه الشيخُ شِهابُ الدِّينِ عمرُ بنُ محمدٍ السُّهْرَوَرْديُّ، ومعه جَماعةٌ مِن الصُّوفيَّةِ، ورُتِّبَ لهم من المَعْلومِ والجِرايَةِ ما ينْبغي لمِثْلِهم من إقامتِهم بالدِّيارِ المصرية.

وفيها احْتَجَرَ المَلِكُ العادلُ علىٰ محمدِ بنِ الملكِ العزيزِ وإخْوتِه، وسيَّرَهم إلى الرُّهَا خوْفًا من إقامتِهم بمِصرَ. وفيها استحوَذتِ الكُرْجُ علىٰ مدينةِ دَوِينَ، فقتَلُوا أهلَها ونهَبُوها، وهي مِن بلادِ أذْرَبِيجَانَ، وذلك لاشْتغالِ مَلِكها بالفِسْقِ وشُرْبِ الخمرِ، قبَّحَه اللهُ، فتمكَّنتِ الكفَرَةُ من رِقابِ المُسلمين بسببِه، وذلك كلُّه غُلٌّ في عُنُقِه يومَ القِيامَةِ.

وفيها تُوفِّي المَلِكُ **غياثُ الدِّين الغُوريُّ، أخو شهابِ الدِّينِ**، فقام في المُلْكِ بعدَه ولدُه محمودٌ، وتلقَّب بلقَبِ أبيه، وكان غياثُ الدِّينِ عاقلاً حازمًا شُجاعًا، لم تُكْسَرْ له رايةٌ قَطُّ مع كثْرةِ حُروبِه، وكان شافعيَّ المذْهَبِ، قد ابتنَىٰ مدْرسةً هائلةً للشَّافعيَّةِ، وكانت سيرتُه في غايةِ الجوْدَةِ، وكذا سَريرتُه، رحِمه اللهُ.

وممّن تُوفِّي فيها مِنَ الأعيان: الأميرُ الكبيرُ فَلَكُ الدين، أبو منصور سُلَيمانُ بنُ شَرْوةَ بنِ خلدكَ أخُو الملكِ العادلِ لأُمِّه، وكانت وفاتُه في التاسعِ والعشرين مِن المُحَرَّمِ، ودُفِن بدارِه التي جعَلها مدرَسةً داخلَ بابِ الفَراديسِ في مَحلَّة الأفتريسِ، وأوقَف عليها الجُمانَ بكَمالِها، تقبَّلَ اللَّهُ منه.

القاضي ضياءُ الدِّينِ الشَّهْرَزُورِيُّ، أبو الفَضَائلِ، القاسمُ بنُ يحيَى بنِ عبدِ اللَّه بنِ القاسمِ الشَّهْرَزُورِيُّ المَوْصِليُّ، قاضِي القُضاةِ ببغدادَ، وهوابنُ أخِي قاضِي القُضَاةِ بدمشقَ كَمالِ الدِّينِ الشَّهْرَزُورِيِّ أيامَ نُورِ الدِّينِ، ولمَّا تُوفِّي سنةَ ستٍّ وسبعين في أيامِ الدولةِ الصلاحيّةِ أوْصىٰ لولَدِ أخيه هذا بالقَضاءِ فولِيَه، ثم عُزِل عنه بابْنِ أبي عَصْرُونَ، وعُوِّض بالسِّفارَةِ إلي المُلوكِ، ثم تولَّىٰ قضاءَ بلْدَةِ المَوْصِلِ، ثم استُدعِي إلي بغدادَ فولِيَها سنتيْن وأربعَةَ أشْهُرٍ، ثم استقالَه فلم يُقلْه الخليفةُ لحُظْوتِه عندَه، فاستَشفَع بزوْجَتِه ستِّ المُلوكِ علَي أمِّ الخليفةِ، وكانت لها مَكانَةٌ عندَها، فأُجيبَ إلي ذلك، فصارَ إلي قَضاءِ حَمَاةَ لمَحَبَّتِه إيَّاها، وكان يُعابُ عليه ذلك، وكانت لدَيْه فَضائِلُ، وله أشْعَارٌ رائِقَةٌ، وكانت وفاتُه بحَمَاةَ في المنَتصفِ من رجَبٍ، رحِمه اللَّهُ.

عُبَيدُ اللَّهِ بنُ عليِّ بنِ نَصْرِ بنِ حَمْزَةَ، أبو بَكْرٍ البَغْدَادِيُّ المَعْروفُ بابنِ المَرِسْتانيَّةِ، أحدُ الفُضَلاءِ المَشْهُورِين، سمع الحديثَ وجمَعَه، وكانَ طبيبًا مُنَجِّمًا يعْرِفُ علُومَ الأوائلِ وأيامَ الناسِ، وصَنَّفَ دِيوانَ الإسْلامِ في تاريخِ دارِ السَّلامِ، ورتَّبه علي ثَلاثمائةٍ وستِّين كِتابًا إلا أنَّه لم يُشْتَهَرْ، وجمَع سِيرَةَ ابنِ هُبَيْرَةَ. وقد كان يزْعُمُ أنَّه مِن سُلالَةِ الصِّدِّيقِ، فتكلَّمُوا فيه بسبَبِ ذلك. وأنْشَد بعْضُهم:

دَعِ الأنسَابَ لا تعْرِضْ لتَيْمٍ ... فإنَّ الهُجْنَ من ولَدِ الصَّمِيمِ
لقد أصْبَحْتَ من تَيْمٍ دَعِيًّا ... كدَعْوَىٰ حَيْصَ بيصَ إلي تَمِيمِ

ابنُ النَّجا الواعِظُ، عليُّ بنُ إبْراهيمَ بنِ نَجا، زَيْنُ الدِّينِ أبو الحسَنِ الدِّمَشْقِيُّ، الواعِظُ الحنْبَليُّ، وسِبْطُ الشيخِ أبي الفَرَجِ الشيرازيِّ الحَنْبليِّ.

قَدِمَ بَغْدَادَ فتَفَقَّه بها، وسمِعَ الحديثَ، ثم رجَع إلي بلَدِه، ثم عاد إليها رسُولا مِن جِهَةِ نُورِ الدِّينِ في سنَةِ أرْبَعٍ وستِّين، وحدَّث بها، ثم كانتْ له حُظْوَةٌ عند الملكِ النَّاصرِ صلاحِ الدِّينِ، وهو الذي نَمَّ علىٰ عُمَارَةَ اليَمنِيِّ وذَوِيه فصُلِبوا، وكانتْ له مَكانَةٌ بمِصْرَ، وقد تكلَّمَ يومَ الجُمُعَةِ التي خُطِب فيها بالقُدْسِ الشريفِ بعدَ الفَراغِ مِن الجُمُعةِ، وكان وقْتًا مشْهودًا وكان يعيش عيشًا أطيب من عيش الملوك في الأطعمة والملابسِ، وكان عنده عشرون سُرِّيَّةً، كلُّ واحدَةٍ بألْف دينارٍ، وبعدَ هذا كلِّه مات فقيرًا لم يُخلِّفْ كفَنًا، وقد أنْشَد وهو علَىٰ مِنْبَرِه للوَزيرِ طَلائع بنِ رُزِّيكَ شِعْرًا فقال:

مَشيبُكَ قد قضَي صِبْغَ الشبابِ ... وحلَّ البَازُ في وكْرِ الغُرابِ
تَنامُ ومُقْلَةُ الحدَثان يَقْظَىٰ ... وما نابُ النَّوائبِ عنكَ نابِ
وكيف بَقاءُ عُمْرِكَ وَهْوَ كَنْزٌ ... وقد أنْفَقْتَ منه بلا حِسَابِ

الشيخُ أبو البَركات، محمدُ بنُ أحمدَ بن سعيدٍ التَّكْريتيُّ يُعرَفُ بالمؤيَّد، كان أديبًا شاعرًا. وممَّا نظَمَه في الوَجيهِ النَّحْويِّ - حين كانَ حَنْبَليًّا، فانْتقَلَ حنفيًّا، ثم صارَ شافعيًّا - في حَلْقَةِ النَّحْوِ بالنِّظاميَّةِ:

ألا مُبلغٌ عنِّي الوَجيهَ رسالةً ... وإنْ كانَ لا تُجْدي لدَيْه الرَّسائلُ
تَمَذْهَبْتَ للنُّعْمانِ بعدَ ابنِ حَنْبَلٍ ... وذلك لمَّا أعْوزَتْكَ المآكلُ
وما اخْتَرْتَ رأيَ الشافعيِّ تَدَيُّنًا ... ولكنَّما تَهْوَى الذي هو حاصلُ
وعمَّا قليلٍ أنتَ لا شكَّ صائرٌ ... إلى مالكٍ فافْطَنْ لما أنتَ قائلُ؟

السِّتُّ الجليلةُ المَصُونةُ زُمُرُّدُ خاتُونَ أمُّ الخليفَةِ النَّاصرِ لدينِ اللَّه ابنِ المُسْتَضيءِ، كانتْ صالحةً عابدَةً كثيرةَ البِرِّ والصِّلات والأوْقاف والصدقات، عمَّرتِ المصانعَ بطريقِ الحجَاز الشريف، وأصلَحت الطُّرُقات، وبنَتْ لها تُرْبةً إلى جانبِ قَبْرِ مَعْروفٍ الكَرْخيِّ، وكانتْ جنازتُها مشْهودةً جدًّا، واستَمرَّ العَزاءُ بسبَبِها شهْرًا، عاشَت في خلافَة ولَدِها أربَعًا وعشْرينَ سنَةً نافذةَ الكَلِمَة مُطاعَةَ الأوامرِ.

وفي هذه السنة كان موْلدُ الشيخِ شهَابِ الدِّينِ أبي شامةَ، وقد ترْجَمَ نفْسَه عندَ ذكْرِ موْلده في هذه السَّنَة في «الذَّيْلِ» ترْجمةً مُطوَّلَةً، فيُنقَلُ إلى سنَةِ وَفاته، رحمه اللَّهُ، وذكَر بدْءَ أمْره واشْتغاله، ومُصَنَّفاته وشيئًا كثيرًا من أشعاره، وما رُئِي له منَ المَنامات المُبَشِّرَة. وفي هذه السنة كان ابْتداءُ مُلْك جِنْكِز خَان مَلِك التَّتَار لعنه الله، وجنكيز خان هو صاحب الياسق، وضعها ليتحاكم إليها التتارُ ومَن اتَّبَعهُم من أُمراءِ التُّرْكِ - ممَّنْ يَبْتَغي حُكْمَ الجاهليَّةِ - وهو والدُ تُولي، وجدُّ هُولاكُو بنِ تولي - الذي قتَل الخليفَةَ المُسْتَعْصِمَ وأهْلَ بَغْدادَ في سنَةِ ستٍّ وخَمْسين وستِّمائة، كما سيأْتي بَيانُه.

سنة ستمائة من الهجرة النبوية

في هذه السنة كانت الفرنْجُ قد جمَعُوا خلْقًا كثيرًا منهم ليَسْتَعيدُوا بيتَ المقدس من المسلمين - فيما كانوا زاعمين - فأشْغَلَهم اللَّهُ بقتال الرُّومِ؛ وذلك لأنَّهم اجْتازُوا في طريقهم بالقُسْطنطينيَّة، فوجَدوا ملُوكَها قد اختلَفُوا فيما بيْنَهم، فحاصَرُوها حتى فتَحُوها قَسْرًا، وأباحُوها ثلاثةَ أيامٍ قَتْلاً وأسْرًا، واحتَرَق أكثرُ من رُبعها، وما أصْبَح أحَدٌ من الرُّوم بعدَ الثلاثة إلا قتيلاً أوفقيرًا أومكْبُولاً أو اسيرًا، ولجَأ عامَّةُ مَن بَقِيَ منها إلى كنيستها العُظْمَى المُسمَّاة بصُوفيا، فقَصدَها الفرنْجُ، فخرجَ إليهم القسِّيسُون بالأناجيلِ؛ ليتَوسَّلُوا إليهم ويتْلُوا عليهم، فما الْتَفَتُوا إلى شيءٍ ممَّا واجَهُوهم به، بل قتَلُوهم أجْمَعين أكْتَعينَ أبْصَعينَ، وأخَذُوا ما كان في الكنيسة من الحُليِّ والأذْهاب والأموال التي لا تُحصَى ولا تُعَدُّ، وأخَذوا ما كان على الصُّلْبان والحِيطانِ، والحمدُ للَّه الرَّحيمِ الرَّحمنِ، الذي ما شاءَ كان، وما لم يشَأْ لم يكُنْ.

ثم اقترعَ ملوكُ الفرنْج وكانوا ثلاثةً؛ وهم دوقسُ البَنادقة وكان شيْخًا أعمَى تُقادُ فرسُه، ومَرْكيسُ الإفرَنْسيسُ، وكندُ أفلندُ، وكان أكثرَهم عددًا وعُدَدًا، فخرَجَت القُرْعَةُ له ثلاثَ مرَّات، فولَّوه مُلْكَ القُسْطَنطينيَّة وأخَذ الملكان الآخران بْعضَ البلاد، وتحوَّلَ المُلْكُ من الرُّوم إلي الفرنـج بالقُسْطَنطينيَّة في هذه السنة ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ولـم يبْقَ بأيْدي الرُّوم هنالكَ إلاَّ ما وراءَ الخليج، اسْتَحوَذ عليه رجلٌ منهم يقالُ له: لشكري. لم يَزَلْ مالكًا لتلك الناحية حتى تُوفِّي، لعَنه اللَّهُ.

ثم إنَّ الفرنْجَ قصدُوا بلادَ الشَّام وقد تقوَّوا بمُلكِهمُ القُسْطَنطينيَّةَ، فنزلُوا عكَّا، وأغارُوا على كثيرٍ من بلادِ الإسلام من ناحيةِ الغَوْرِ وتلك الأراضي، فقتَلُوا وسَبَوا، فنَهَض إليهم الملكُ العادلُ وكان بدمَشْقَ ـ وللَّه الحمدُ ـ واسْتَدْعَى بالجيوشِ المصريَّة والمشرقيَّة، ونازَلَهم بالقُرْب من عكَّا، فكان بيْنَهم قتالٌ شديدٌ ومصابرةٌ عظيمةٌ، ثم وقَع الصُّلْحُ بينَهم والهُدْنَةُ، وأَطْلَق لهم السلطانُ شيئًا من بعضِ البلدان، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعون.

وفي هذه السنة جرَتْ حروبٌ كثيرةٌ بينَ الخوارزمية والغُوريَّة بالمَشْرِق يطُولُ ذكْرُها.

وفيها تَحارَب نورُ الدين ـ صاحبُ الموصل ـ وقطبُ الدينِ محمدُ بنُ عمادِ الدينِ زَنْكي ـ صاحبُ سنجارَ ـ وساعَد الأشْرَفُ بنُ العادلِ القُطْبَ، ثم اصْطَلَحُوا فيما بينَهم، وتزَوَّج الأشرفُ أخْتَ نُورِ الدينِ، وهي الاتابكيَّةُ بنْتُ عزِّ الدِّينِ مَسْعُودِ بنِ مَوْدُودِ بنِ زَنْكي، واقفَةُ المدرسةِ التي بالسَّفْح، وبها تُرْبَتُها.

وفيها كانتْ زلزلةٌ عظيمةٌ بمصرَ والشَّام والجزيرةِ وقُبْرُسَ وغيرِها من البلادِ؛ قاله ابنُ الأثيرِ في «كامله».

وفيها تغلَّبَ رجلٌ من التجارِ يُقالُ له: محمودُ بنُ محمدٍ الحِميَريُّ على بعضِ بلادِ حَضْرَمَوْتَ؛ ظَفَارَ وغيرِها، واستَمرَّتْ أيَّامُه إلى سنة تسْعَ عشْرَةَ وستِّمائة وما بعدَها.

وفي جُمادَىٰ الأُولَى منها عُقِد مجْلسٌ لقاضي القُضاة ببَغدادَ، وهو أبو الحسنِ عليُّ بنُ عبدِ اللَّه بنِ سليمانَ الحلَبيُّ بدَارِ الوزيرِ، وثبَت عليه مَحْضَرٌ بأنَّه يتنَاوَلُ الرُّشَا، فعُزِل في ذلك المجْلسِ، وفُسِّقَ، ونُزِعَت الطَّرْحَةُ عن رأسه، وكانتْ مُدَّةُ ولايته سنتين وثلاثةَ أشْهرٍ.

وفيها كانت وَفاةُ الملك رُكْنِ الدِّينِ بنِ قِلج أرْسَلان، صاحبُ بلادِ الروم ما بينَ مَلَطْيَةَ وقُونيةَ، وكانتْ فيه شهامةٌ وصَرامةٌ، غيرَ أنَّه كان يُنْسَبُ إلى اعْتقادِ الفلاسفة، وكان كهْفًا لمَنْ يُنْسَبُ إلى ذلك، ومَلْجأً لهم، وظهرَ منه قبلَ موْته تَجَهُّمٌ عظيمٌ؛ وذلكَ أنَّه حاصَر أخَاه شقيقَه وكان صاحبَ أنكُوريَةَ، وتُسمَّى أيضًا: أنْقرَةَ ـ مُدَّةَ سنتين حتى ضيَّقَ عليه الأقْواتَ بها، فسلَّمها إليه قَسْرًا، على أنْ يعْطيَه

بعضَ البلادِ، فلمَّا تمكَّنَ منه ومن أوْلادِه أرْسَلَ إليهم مَن قتَلَهم غَدْرًا وخديعةً ومكْرًا، فلم يُنْظَرْ إلا خَمْسَةَ أيام حتى ضرَبه اللَّهُ تعالى بالقُولَنْج سبْعَةَ أيام وماتَ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩] وأُقيم بعدَه في المُلْكِ ولَدُه قلج أرْسَلان، وكان صغيرًا فبَقِي سنَةً واحدَةً، ثم نُزِع منه المُلْكُ أيضًا، وصارَ إلى عمِّه كَيْخَسْرُو.

وفيها قُتِل خلقٌ كثيرٌ من الباطنيَّةِ بِواسِطٍ، ولِلَّهِ الحمدُ.

قال ابنُ الأثيرِ: وفي رجبٍ اجْتَمَع جماعةٌ من الصُّوفيَّةِ برِباطٍ ببغدادَ في سَماعٍ، فأنشَدَهم الحادي، وهو الجمَّالُ الحِلِّيُّ:

عُويذلتي أقصري	كفى بشيبي عَذَلْ
شبابٌ كأنْ لم يكُنْ	وشيبٌ كأنْ لم يزَلْ
وحقِّ ليالي الوصالِ	أوَاخِرُها والأُوَلْ
وصُفْرةُ لونِ المحبِّ	عندَ استماعِ العَذَلْ
لَئِنْ عادَ عيشي بكم	حَلا العيشُ لي واتَّصَلْ

قال: فتحرَّكَ الصُّوفيَّةُ على العادةِ، فتَواجدَ، من بينِهم رجلٌ يقالُ له: أحمدُ بنُ إبراهيمَ الرَّازيُّ، فخرَّ مغْشيًّا عليه، فحرَّكُوه فإذا هو مَيِّتٌ. قال: وكانَ رجلاً صالحًا، وقال ابنُ الساعي: كان شيْخًا صالحًا صحِبَ الصَّدْرَ عبدَ الرحيمِ شيخَ الشُّيوخِ. فشَهِد الناسُ جنازَتَه، ودُفِن بِبابِ أَبْرَزَ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

أبو محمد، القاسمُ، بهاءُ الدِّينِ، الحافظُ، ابنُ الحافظ أبي القاسم عليِّ بن هبة اللَّه بن عساكرَ، كان مولدُه في سنةِ سبعٍ وعشرين وخَمْسِمائةٍ، أسْمَعه أبُوه الكثيرَ، وشارَك أباه في أكثرِ مشايخِه، وكتَب تاريخَ أبيه مرَّتَين بخَطِّه، وكتَب الكثيرَ، وأسْمَع، وصنَّف كُتُبًا عِدَّةً، وخَلَف أباه في إسْماعِ الحديثِ بالجامعِ، ودارِ الحديثِ النُّوريَّةِ.

وكانت وفاتُه يومَ الخميسِ ثامنَ صفرٍ، ودُفِن بعدَ العصرِ على أبيه بمقابرِ بابِ الصَّغيرِ شَرْقِيَّ قُبورِ الصَّحَابَةِ خارجَ الحظيرَةِ، رحمهما اللَّهُ.

الحافظُ عبدُ الغَنيِّ المَقْدسيُّ، عبدُ الغنيِّ بنُ عبدِ الواحدِ بنِ عليِّ بنِ سُرورٍ، الحافظُ أبو محمد المَقْدسيُّ، صاحبُ التَّصانيفِ المشْهورةِ، من ذلك: «الكَمالُ في أسْماءِ الرِّجالِ»، و«الأحْكامُ الكُبْرَى»، و«الصُّغْرَى»، وغيرُ ذلك، وُلِد بجَمَّاعيلَ في ربيعٍ الآخرِ سنةَ إحْدَى وأربعين وخمسمائةٍ، وهو أسَنُّ من ابنِ خالتِه الإمامِ مُوَفَّقِ الدينِ عبدِ اللَّهِ بنِ أحمدَ بنِ قُدامةَ المَقْدِسيِّ، بأربعةِ أشْهُرٍ، وكان قدُومُهما مع أهْلِهما من بيتِ المقدسِ إلى مسجدِ أبي صالحٍ أوَّلاً، ثم انْتقَلُوا إلى السَّفْحِ فعُرِفَتِ المحلَّةُ بهم،

فقيلَ لها: الصَّالحيَّةُ. فسكَنُوا الدَّيرَ، وقرأ الحافظُ عبدُ الغَنيِّ القرآنَ، وسمع الحديثَ، وارْتَحَل هو والمُوَفَّقُ إلى بغدادَ سنةَ ستِّين وخمسمائة، فأنزَلَهما الشيخُ عبدُ القادرِ عندَه في المدرسة، وكان لا يترُكُ أحدًا ينزِلُ عندَه، ولكنَّه توسَّم فيهما النَّجابةَ والخيرَ والصَّلاحَ، فأكرَمَهُما وأسْمَعَهما، ثم تُوفِّي بعدَ مَقْدمِهما بخمسين ليلةً.

وكان مَيْلُ عبد الغنيِّ إلى الحديثِ وأسْماءِ الرِّجال، ومَيْلُ المُوَفَّقِ إلى الفقه، واشْتَغَلا على الشيخِ أبي الفَتْحِ ابنِ المَنِّيِّ، ثم قَدِما دمشقَ بعدَ أربعِ سنين، فدَخَل عبد الغنيِّ إلى مصرَ وإسكَنْدريَّةَ، ثم عادَ إلى دمشقَ، ثم ارْتَحَلَ إلى الجزيرةِ وبغدادَ، ثم رحَل إلى أصْبهانَ، فسَمع بها الكثيرَ، ووَقَف على مُصنَّفٍ للحافظِ أبي نُعَيْم في أسْماءِ الصَّحابة - قلتُ: وهو عندي بخَطِّ أبي نُعَيم - فأخَذ في مُناقشَتِه في أماكنَ من الكتابِ في مائةٍ وتسعين موْضعًا، فغَضِبَ بنُو الخُجَنْديِّ من ذلك، وتعَصَّبوا عليه وأخرَجُوه منها مُخْتَفيًا في إزارٍ.

ولمَّا دخَل في طريقِه إلى المَوْصِلِ، سمع كتابَ العُقَيْليِّ في «الجَرْحِ والتَّعْديل»، فثارَ عليه الحَنَفيَّةُ بسببِ أبي حنيفةَ، فخرَج منها أيضًا خائفًا يترَقَّبُ، فلما وردَ دمشقَ كان يقرأُ الحديثَ بعدَ صلاةِ الجُمُعَةِ برِوَاقِ الحنابلة من جامعِ دمشقَ، فيجْتَمعُ الناسُ إليه، وكان رقيقَ القلبِ، سريعَ الدَّمْعَةِ، فحصَل له قَبولٌ، فحسَدَه الدَّماشقةُ، وجهَّزُوا الناصحَ ابنَ الحَنْبَليِّ، فتكلَّم تحتَ النَّسرِ، حتَّى يشوِّشَ عليه، فحوَّلَ عبدُ الغنيِّ ميعادَه إلى بعد العَصْرِ، فذكَر يومًا عقيدتَه على الكُرْسيِّ، فثارَ عليه القاضي مُحيِي الدينِ ابنُ الزكيِّ، والخطيبُ ضياءُ الدينِ الدَّوْلَعيُّ، وعُقِدَ له مَجْلسٌ في القلعةِ يومَ الاثنين الرَّابعِ والعشْرينَ من ذي القَعْدَة سنةَ خمسٍ وتسعين.

وتكَلَّمُوا معه في مسألةِ العُلُوِّ ومسْألَةِ النُّزول، ومَسْألةِ الحَرْفِ والصَّوْتِ، وطالَ الكلامُ، حتى قال له الصارمُ بُزْغُشُ والي القلعة: كلُّ هؤلاء على الضَّلالة، وأنتَ على الحقِّ؟ قال: نعم. فغَضِبَ بزُغُشُ من ذلك وأمَره بالخُروجِ من البلدِ.

فارْتَحَلَ بعدَ ثلاثٍ إلى بَعْلَبَكَّ، ثم إلى الديارِ المصرية، فآوَاه الطَّحَّانونَ، فكانَ يقرأُ الحديثَ بها، فثارَ عليه الفُقَهاء بمصرَ أيضًا، وكتَبُوا إلى الوزيرِ صَفيِّ الدينِ بنِ شُكْرٍ، فأقَرَّ بنَفْيه إلى المغرب، فماتَ قبلَ وصُولِ الكتابِ يومَ الاثنينِ الثالثِ والعشْرينَ من ربيعٍ الأوَّلِ من هذه السنةِ، وله تسعٌ وخَمْسونَ سنةً، ودُفِن بالقَرافةِ عندَ الشيخِ أبي عَمْرِو بنِ مَرْزُوقٍ، رحمهما اللَّهُ.

قال السِّبْطُ: وكان ورعًا زاهدًا عابدًا، يُصلِّي كلَّ يومٍ ثلاثمائة ركْعَةٍ، كوِرْدِ الإمامِ أحمدَ، ويقومُ الليلَ، ويصُومُ عامَّةَ السَّنَة، وكان كريمًا جوادًا لا يدَّخرُ شيئًا، ويتَصدَّقُ على الأراملِ والأيْتام حيثُ لا يَراهُ أحدٌ، وكان يُرقِّعُ ثوبَه، ويؤْثِرُ بثَمَنِ الجديد، وكان قد ضعُفَ بصرُه من كثْرَةِ المُطالعةِ والبُكاء، وكان أوْحَدَ زَمانِه في علمِ الحديثِ والحفْظ.

قلتُ: وقد هذَّبَ شيخُنا الحافظُ أبو الحجَّاج المِزِّي - تغمَّدَه اللَّهُ برحمته - كتابَه «الكَمالَ في أسْماءِ الرِّجال» - رجال الكُتُب السِّتَّة - بتَهْذيبِه الذي اسْتدركَ عليه فيه أماكنَ كثيرةً، نحوًا من ألْف موْضعٍ؛ وذلك أنَّه الإمامُ المِزِّيُّ الذي لا يُبارَىٰ ولا يُجارَىٰ ولا يُمارَىٰ، وكتابُه «التَّهْذيبُ» لم يُسْبَقْ إلى مثْله، ولا يُلْحَقُ في مثل شكْله، فرَحِم اللَّهُ صاحبَي «التهذيب» و«الكمال»، فلقد كانَا نادرَيْن في زمانَيْهما في الرِّجال حفْظًا وإتْقانًا وسَماعًا وإسماعًا، وسَرْدًا للمُتون وأسْماء الرِّجال.

قال ابنُ الأثير: وفيها تُوُفِّي أبو الفتوح أسْعَدُ بنُ محمود العِجْليُّ صاحبُ «تَتمَّة التَّتمَّة»، أسعدُ بنُ أبي الفَضْل بن محمودِ بن خلفٍ العِجْليُّ، الفَقيهُ الشافعيُّ الأصْبَهانيُّ، الواعظُ مُنْتَجَبُ الدِّين، سمع الحديثَ، وتفقَّهَ وبرَع، وصنَّف «تَتمَّةَ التَّتمَّة» لأبي سعْد الهَرَوِيِّ، وكان زاهدًا عابدًا، وله «شرْحُ مُشْكلات الوَسيط والوَجيز»، قال ابنُ خلكانَ: تُوفِّي في صفَر سنةَ ستِّمائة.

البُنانيُّ الشَّاعرُ؛ أبو عبد اللَّه محمدُ بنُ المُهَنَّا، الشَّاعرُ المعْروفُ بالبُنانيِّ، مدَح الخلفاءَ والوزراءَ والأمراءَ، وغيرَهم، وكَبِر وعلَتْ سنُّه، وكان رقيقَ الشِّعْر لطيفَه، فمن قوله:

ظلْمًا ترَىٰ مُغْرَمًا في الحبِّ تزْجُرُه ... وغُرَّةٌ بالهوَىٰ أمْسَيتَ تُنْكرُه

يا عاذلَ الصَّبِّ لو عاتَبْتَ قاتلَهُ ... بوَجْنة وعِذار كنتَ تعْذُرُهُ

أبْدي الذي سحْرُ عَيْنَيْه يعلِّمُني ... إذا تصَدَّىٰ لقَتْلي كيف أسْحَرُهُ

يَسْتَمتعُ الليلَ في نَوم وأسْهَرُهُ ... إلى الصَّباحِ وينْسَاني وأذْكُرُهُ

وله أيضًا:

بكَرَتْ تديرُ على العواذلْ ... وتجُرُّ ذيلاً في الخمائلْ

وتهُزُّ في ثَنْي الغلا ... ئل ردْفَها هزَّ الذَّوابلْ

وتقولُ للغصن الرطيـ ... ـب إذا تَمائل أو تَمايَلْ

يضاءُ صبغةُ خدِّها ... تنْمَى وصبْغُ الورد حائلْ

شَهْدُ الحياة وصالُها ... وصدودُها سُمُّ القَواتلْ

أبو سعيد الحسَنُ بنُ خالد بنِ المُبَارَك بنِ محضر النَّصْرانيُّ المارديني، المُلَقَّبُ بالوحيد، اشْتغَل في حداثته بعلم الأوائل فأتْقَنَه وبرَز فيه، وكانتْ له يدٌ طُولَى في الشعرِ الرَّائق، فمن ذلك قولُه، قاتَله اللَّهُ:

أتاني كتابٌ أنْشَأتْه أناملٌ ... حَوَتْ أبْحُرًا من فَيْضها يغْرَقُ البحرُ

فوَا عَجَبًا أنَّى الْتَوَتْ فوقَ طِرْسه ... وما عُوِّدَتْ بالقَبْض أنْمُلُهُ العَشْرُ

وله أيضًا لعنه اللَّهُ:

لقد أثَّرَتْ صُدْغاه في لونِ خدِّه ... ولاح كَفَيْءٍ من وراءِ زُجاجِ
ترىٰ عسكرًا للرُّومِ في الزِّنجِ قد بدَتْ ... طلائعُه تسعىٰ ليومِ هياجِ
أم الصُّبحُ بالليلِ البَهيمِ مُوشَّحٌ ... حكَىٰ آبِنُوسًا في صفيحةِ عاجِ
لقد غارَ صُدْغاه علىٰ وردِ خدِّه ... فسيَّجَهُ من شعرِه بسِياجِ

الطَّاوُسيُّ صاحبُ الطَّريقَة، العراقيُّ بنُ محمد بن العراقيِّ، رُكْنُ الدين أبو الفَضْلِ القَزْوينيُّ، ثم الهمذانيُّ، المعْروفُ بالطَّاوُسيِّ، كان بارعًا في علم الخلاف والجدل والمُناظرة، أخذ هذا الشأنَ عن الشيخ رَضيِّ الدِّينِ النَّيسابُوريِّ الحَنَفيِّ، وصنَّفَ في ذلك ثلاثَ تَعاليقَ، قال ابنُ خَلِّكانَ: أحسَنُهُنَّ الوُسْطَىٰ. وكانتْ إليه الرِّحْلَةُ بهَمَذَانَ، وقد بنَىٰ له بعضُ الأمراءِ الحَجَبَةِ بها مدرسةً تُعْرَفُ بالحاجبيَّةِ، وكانتْ وفاتُه في هذه السنةِ ويقالُ: إنَّه منسوبٌ إلىٰ طَاوُسِ بنِ كَيْسانَ التَّابعيِّ. فاللَّهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة

فيها عزَلَ الخليفةُ الناصرُ ولدَه محمدًا الملقَّبَ بالظَّاهرِ عن ولايَةِ العَهْدِ بعدَ ما خطَبَ له بذلك سبعَ عشْرَةَ سنَةً، وولَّى العهدَ ولدَه الآخرَ عليًّا، فماتَ عليٌّ عن قريبٍ، فعادَ الأمْرُ إلى الظَّاهرِ، فبُويعَ له بالخلافَةِ بعدَ أبيه النَّاصرِ، كما سيأْتي في سنَةِ ثلاثٍ وعشْرينَ.

وفيها وقَع حريقٌ عظيمٌ بدارِ الخلافةِ في خَزائنِ السِّلاحِ، فاحْتَرَق شيءٌ كثيرٌ من السِّلاحِ والأمْتعَةِ والمَساكنِ ما يُقاربُ قيمتُه أرْبَعَةَ آلافِ ألْفِ دينارٍ، وشاعَ خبَرُ هذا الحريقِ في الناسِ، فأرْسلَتِ المُلُوك من سائرِ الأقْطارِ هدَايَا؛ أسلحةً إلى الخليفة عوَضًا ممَّا فات شيئًا كثيرًا، ولِلَّه الحمدُ.

وفيها عاثتِ الكُرْجُ ببلادِ المُسْلمينَ فقتَلُوا خلقًا، وأسَرُوا أممًا، وفيها وقعَتِ الحرْبُ بينَ أميرِ مكَّةَ قَتادَةَ الحَسَنيِّ، وبينَ أميرِ المدينةِ سالمِ بنِ قاسمٍ الحُسَيْنيِّ، وكان قتادةُ قد قصَد المدينةَ فحصرَ سالمًا فيها، فركبَ إليه سالمٌ بعدَما صلَّى عندَ الحُجْرَةِ النبويَّةِ واسْتَنصَرَ اللَّهَ علىٰ قتادةَ، ثم برزَ إليه فكسَرَه، وساقَ وراءَه إلى مكَّةَ فحصَرَه بها، ثم أرْسَلَ قتادةُ إلى أمَراءِ سالمٍ فأفْسَدهم عليه، وكَرَّ سالمٌ راجعًا إلى المدينةِ وهو سالمٌ.

وفيها ملَك غياثُ الدِّينِ كَيْخَسْرُوا بنُ قلجَ أرْسَلان بنِ مسْعودِ بنِ قلجَ أرسَلان بنِ سليمانَ بنِ قُتُلْمِشَ بلادَ الرُّومِ واسْتلبَها من ابنِ أخيه، واسْتَقرَّ هو بها، وعَظُمَ شأْنُه وقَوِيَتْ شوكَتُه، وكثُرَتْ عساكرُه، وأطاعَه الأمراءُ وأصْحابُ الأطرافِ، وخطَبَ له الأفْضَلُ بنُ صلاحِ الدِّينِ بسُمَيْساطَ، وسارَ إلى خدْمَتِه.

واتَّفَق في هذه السَّنَةِ أنَّ رجُلاً ببَغدادَ نزَلَ إلىٰ دِجْلَةَ يسْبَحُ فيها، وأعْطَىٰ ثيابَه لغُلامِه فغرِقَ في

الماء، فوُجِدَ في ورقةٍ بعمامته هذه الأبياتُ:

يا أيُّها الناسُ كانَ لي أمَلُ قصَّر بي عن بلوغه الأجَلُ
فليَتَّق اللهَ ربَّهُ رجلٌ أمْكَنَهُ في زمانه العَمَلُ
ما أنا وحدي نُقِلتُ حيثُ ترَىٰ كلٌّ إلىٰ مثله سَيَنْتقِلُ

ومِمَّنْ تُوُفِّيَ فيها من المشاهير والأعْيان:

أبو الحسَن عليُّ بنُ الحسن بن عنْتر بن ثابت الحلِّيُّ، المعْروفُ بشُمَيْم، كان شيْخًا أديبًا فاضلاً لُغويًّا شاعرًا، جمعَ من شعْره حماسةً كان يفَضّلُها علىٰ حماسة أبي تمَّام، وله خمْريَّاتٌ يزعُمُ أنّها أفحلُ من التي لأبي نُوَاس. قالَ أبو شامَةَ في «الذَّيْل»: كان قليلَ الدِّين ذا حماقةٍ ورقاعةٍ وخَلاعَة، وله حماسةٌ ورسائلُ. قال ابنُ السَّاعي: قَدِمَ بَغدادَ فأخذَ النَّحْوَ عن ابن الخشَّاب، وحصَّلَ طرَفًا صالحًا من النحو واللُّغَة وأشْعار العرَب، ثم أقامَ بالمَوْصل حتىٰ تُوُفِّيَ بها. ومن شعْره في حماسته:

لا تَسْرَحَنَّ الطَّرْفَ في بقر المَها فمَصارعُ الآجال في الآجال
كم نظرة أرْدَتْ وما أخَذَتْ يَدُ المُصْمي لمن قتَلتْ أداةَ قتال
سَنَحَتْ وما سمَحتْ بتَسْليم و إقلالُ التَّحيّة فعْلَةُ المغتال

ومن خمريَّاته قولُه:

امزُجْ بمَسْبُوك اللُّجَيْن دَمًا حَكَتْه دموعُ عَيْني
لمَّا نعَىٰ ناعي الفرا ق ببَيْن مَنْ أهوىٰ وبَيْني
خفَقَتْ لنا شمسان من لألائها في الخافقَين
وبدَتْ لنا في كأسها من لونها في حُلَّتَيْن

وله في التَّجْنيس:

ليتَ مَنْ طوَّل بالشـ ـشام نَواهُ ونَوىٰ به
جعَلَ العَوْدَ إلىٰ الزَّوْ راء من بعض ثَوابه
أتُرَىٰ يُوطِئُني الد دَهرُ ثرَىٰ مسك تُرابه
وأرىٰ أيَّ نورَ عَيْني مَوطئًا لي وثرَىٰ به

أبو نَصْر محمدُ بنُ سَعد الله بن نَصْر بن سَعيد بن الدَّجاجيِّ، كان بهيًّا واعظًا حنْبَليًّا فاضلاً شاعرًا مجيدًا، وله:

نفسُ الفتىٰ إن أصْلَحَتْ أحْوالَها كانَ إلىٰ نَيْل المُنىٰ أحْوىٰ لها
وإنْ ترَاها سدَّدَتْ أقوالَها كانَ علىٰ حمْل العُلا أقوىٰ لها
فإنْ تبدَّتْ حالُ مَن لهَا لَها في قبْره عندَ البِلَىٰ لهَا لها

أبو العبَّاس أحمدُ بنُ مسعود بن محمد القُرطُبيُّ الخزرَجيُّ، كان إمامًا في التَّفسيرِ والفقهِ والحسابِ والفَرائضِ والنَّحوِ واللُّغةِ والعَروضِ والطبِّ، وله تصانيفُ حِسانٌ، وشعرٌ رائقٌ، منه قولُه:

وفي الوَجنَاتِ ما في الرَّوْضِ لكنْ ... لِرَونَقِ زهْرِها معْنًى عجيبُ
وأعْجَبُ ما التَّعجُّبُ عنه أنِّي ... أرَى البُستانَ يحمِلُه قَضيبُ

أبو الفداء إسْماعيلُ بنُ يَرَنْقُشَ السَّنجاريُّ، مولَى صاحبِها عمادِ الدِّينِ زَنْكِي بنِ مَوْدُودِ بنِ زَنْكِي، وكان جنديًّا حسنَ الصُّورةِ، مليحَ النَّظْمِ، كثيرَ الأدبِ، ومن شعرِه ما كتَب به إلى الملكِ الأشرَفِ مُوسَى بنِ العادلِ يعزِّيه في أخٍ له اسْمُه يُوسُفُ:

دمُوعُ المعالي والمكارمِ ذُرَّفُ ... وربعُ العُلا قاعٌ لفَقْدِكَ صَفْصَفُ
غدَا الجُودُ والمعروفُ في اللَّحْدِ ثاويًا ... غداةَ ثَوَى في ذلكَ اللَّحْدِ يُوسُفُ
فتًى خطَفَتْ كفُّ المَنيَّةِ رُوحَهُ ... وقد كان للأرْواحِ بالبِيضِ يخْطفُ
سقَتْه ليالي الدَّهْرِ كأسَ حِمامِها ... وكانَ بسَقْيِ الموْتِ في الحرْبِ يُعْرَفُ
فوا حَسْرتا لو ينْفَعُ الموتَ حسْرَةٌ ... ووا أسَفا لو كانَ يجْدي التَّأسُّفُ
وكانت على الأرْزاءِ نفْسي قويَّةً ... ولكنَّها عن حَمْلِ ذا الرُّزْءِ تضْعفُ

أبو الفَضْلِ إلياسُ بنُ جامعِ بن عليٍّ الإربِليُّ، تفَقَّه بالنِّظاميَّةِ، وسمعَ الحديثَ، وصنَّفَ «التاريخَ» وغيرَه، وتفَرَّدَ بحسْنِ كتابَةِ الشُّروطِ، وله فضلٌ ونظمٌ حسنٌ، منه قولُه:

أمُمْرِضَ قلبي، ما لهجْرِك آخرُ ... ومُسْهِرَ طَرْفي، هل خَيالُكَ زائرُ
ومستَعْذِبَ التَّعْذيبِ جَوْرًا بصَدِّه ... أما لكَ في شَرْعِ المحبَّةِ زاجرُ
هَنيئًا لكَ القلْبُ الذي قد وقَفْتَهُ ... على ذكرِ أيامي وأنتَ مُسافرُ
فلا فارَقَ الحزْنُ المُبرِّحُ خاطري ... لبُعْدِكَ حتى يجْمَعَ الشَّمْلَ قادرُ
فإنْ متُّ فالتَّسْليمُ منِّي عليْكُمُ ... يُعاوِدُكمْ ما كبَّرَ اللَّهَ ذاكرُ

أبو السَّعاداتِ الحلّيُّ، التاجرُ البَغْداديُّ الرَّافضيُّ، كانَ في كلِّ جُمُعةٍ يلْبَسُ لأْمَةَ الحرْبِ، ويقفُ خلفَ بابِ دارِه، وهو مُجافٌ عليه، والناسُ في صلاةِ الجُمُعةِ، وهو ينْتَظِرُ أنْ يخرُجَ صاحبُ الزَّمانِ من سِرْدابِ سامرًا- يعْني محمدَ بنَ الحسَنِ العسْكَريَّ- ليميلَ بسَيفِه في الناسِ نُصْرَةً للمَهْديِّ.

أبو غالبِ بن كمونَةَ اليَهُوديُّ الكاتبُ، كان يُزوِّرُ على خطِّ ابنِ مُقْلَةَ من قوَّةِ خطِّه، تُوفِّي لعنَه اللَّهُ، بمطْمُورةِ واسِطٍ؛ ذكَره ابنُ الساعي في «تاريخه».

وفيها تُوفِّي يهوديٌّ آخَرُ يقالُ له: **أبو غالبِ بنُ أبي طاهرِ بن شَبْرِ**. كان عاملاً على دارِ الضربِ ببغدادَ، ذكَره ابنُ الساعي الخازنِ في «تاريخه».

ثم دخلت سنة ثنتين وستمائة

فيها: وقعت حربٌ عظيمةٌ بينَ الملكِ شهابِ الدينِ محمدِ بنِ سامِ الغُوريِّ، صاحبِ غَزْنَةَ، وبينَ بَني كَوكَرَ أصحابِ الجبلِ الجُوديِّ، وكانوا قد ارتدُّوا عن الإسلامِ، فقاتَلَهم وكسَرهم، وغَنِم منهم شيئًا كثيرًا لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، فاتَّبَعَه بعضُهم حتى قَتَلَه غيلَةً في ليلةِ مُستَهَلِّ شعبانَ منها بعدَ العشاءِ، رَحِمَه اللَّهُ، وكانَ من أجْوَدِ الملوكِ سيرةً، وأعْقَلِهم وأثْبَتِهم في الحربِ، تَغَمَّدَه اللَّهُ برحْمَتِه، ولمَّا قُتِلَ كانَ في صُحْبَتِه فَخْرُ الدِّينِ الرَّازيُّ، وكانَ يَجْلِسُ للوَعْظِ فَيَحضُرُ الملكُ وَعْظَه، ويَبْكي حينَ يَقولُ له في آخرِ مَجْلِسه: يا سُلْطَانُ سُلْطانُكَ لا يَبْقَى، ولا تلبيسُ الرَّازيِّ أيضًا، وإنَّ مَرَدَّنا جَميعًا إلى اللَّهِ. وحينَ قُتِلَ السُّلْطانُ اتَّهَمَه بعضُ الخاصكيَّةِ بقَتْلِه، فخَافَ من ذلك، والتَجَأَ إلى الوزيرِ مُؤَيِّدِ المُلْكِ بنِ خواجا، فَسَيَّرَه إلى حيثُ يَأْمَنُ، وتَمَلَّكَ غَزْنَةَ بعدَه أحدُ مَماليكِه؛ تاجُ الدِّينِ الدِّزُّ، وجَرَتْ بعدَ ذلك خُطوبٌ يَطُولُ بَسْطُها، قد استَقْصَاها ابنُ الأثيرِ وابنُ السَّاعي.

وفيها: أغَارَتِ الكُرْجُ على بلادِ المُسلمينَ، فَوَصَلُوا إلى خلاطَ، فَقَتَلُوا وسَبَوْا، وقَاتَلَهم المُقَاتِلَةُ والعَامَّةُ. وفيها سارَ صاحبُ إربِلَ مُظَفَّرُ الدينِ كُوكُبُوري وصحبتُه صاحبُ مَراغَةَ لقتالِ مَلكِ أذْرَبيجانَ، وهو أبوبكرِ بنِ البَهْلَوانِ؛ وذلكَ لنُكُولِه عن قِتالِ الكُرْجِ، وإقْبَالِه على السُّكْرِ ليلاً ونهارًا، فلم يَقْدِرُوا عليه، ثم إنَّه تَزَوَّجَ في هذه السنَةِ بنتَ ملكِ الكُرْجِ، فانْكَفَّ شَرُّهم عنه. قال ابنُ الأثيرِ: وكانَ كَما يقالُ: أغْمَدَ سَيْفَه وسلَّ أيْرَه.

وفيها: استَوْزَرَ الخليفةُ نصيرَ الدينِ ناصرَ بنَ مَهْديٍّ العَلَويَّ الحَسَنيَّ، وخَلَع عليه بالوزارةِ وضُرِبَتِ الطُّبُولُ بينَ يَدَيْه وعلى بابِه في أوقاتِ الصلواتِ. وفيها أغَارَ صاحبُ بلادِ الأرْمَنِ، وهو ابنُ لاوُنَ على بلادِ حَلَبَ، فَقَتَلَ وسَبَى ونَهَبَ، فَخَرَجَ إليه المَلِكُ الظاهرُ غازي بنُ الناصرِ، فهَرَبَ ابنُ لاوُنَ بينَ يَدَيْه، فَهَدَمَ الظاهرُ قَلعةً كانَ قد بناها، ودكَّها إلى الأرْضِ.

وفي شَعبانَ منها هُدِمَتِ القَنْطَرَةُ الرومانيَّةُ التي كانت عندَ البابِ الشرقيِّ، ونُشِرَتْ حجَارَتُها ليُبَلَّطَ بها الجَامعُ الأُمَويُّ بسِفَارَةِ الوَزيرِ صَفيِّ الدينِ بنِ شُكْرٍ، وزيرِ العادلِ، وكَمَلَ تَبْليطُه في سَنةِ أربعٍ وستِّمائةٍ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

شرَفُ الدينِ أبو الحَسَنِ عليُّ بنُ محمدِ بنِ عليٍّ، جمال الإسلام الشَّهْرَزُوريُّ، بمَدينَةِ حِمْصَ، وقد كان أُخْرِجَ إليها من دِمَشْقَ، وكان قبلَ ذلك مُدَرِّسًا بالأمينيَّةِ والحَلْقةِ بالجامعِ تُجاه البرَّادَةِ، وكان لديه علمٌ جيدٌ بالمَذْهَبِ والخلافِ.

التَّقيُّ عيسى بنُ يُوسُفَ بنِ أحمدَ العراقيُّ الغَرَّافيُّ الضَّريرُ، مُدرسُ الأمينيَّةِ أيضًا، كان يسْكُنُ المَنَارَةَ

الغَرْبِيَّةَ، وكان عندَه شابٌ يَخْدُمُه ويَقُودُ به، فَعُدِمَ للشيخ دراهمُ فاتَّهَم هذا الشَّابَّ بها، فلم يَثْبُتْ له عندَه شيءٌ، واتُّهِمَ به الشَّيْخُ، ولم يكُنْ يظُنُّ الناسُ أنَّ عنده من المال شَيْئًا، فضَاعَ المالُ، واتُّهِمَ عِرْضُه، فأصبحَ يومَ الجُمُعَةِ السابعِ من ذي القَعدَة مَشْنُوقًا ببيْتِه بالمِئْذَنَةِ الغَرْبِيَّة، فامْتَنَعَ الناسُ من الصَّلاة عليه؛ لكَوْنه قَتَلَ نَفْسَه، فَتَقَدَّمَ الشيخُ فَخْرُ الدين عبد الرحمن بن عساكر فَصَلَّى عليه، فائتَمَّ به بعضُ الناس. قال أبو شامَةَ: وإنَّما حَمَلَه على مَا فعَلَه ذَهابُ مَاله والوقُوعُ في عِرْضِه. قال: وقد جرَىٰ لي أختُ هذه القَضِيَة فَعَصَمَني اللَّهُ سبحانَه بفَضْلِه. قال: وقد درَّسَ بَعْدَه في الأمينيَّة الجَمَالُ المَصْرِيُّ وكيلُ بيت المال.

أبو الغَنَائم الركيسلارُ البغداديُّ، كان يَخْدُمُ مَع عزِّ الدين نجاح الشَّرابيِّ، وحَصَّلَ أمْوالاً جَزِيلَةً، كان كلَّمَا تَهَيَّأَ له مَالٌ اشْتَرَىٰ به مِلْكًا، وكَتَبَه باسمِ صاحبٍ له يَعْتَمِدُ عليه، فلَمَّا حَضرَتْه الوفَاةُ أوْصَىٰ ذلك الرجلَ أنْ يَتولَّىٰ أوْلادَه، ويُنْفِقُ عليهم من ميراثه مما تَرَكه لهم، فَمَرِضَ المُوصَىٰ إليه بعدَ قَليلٍ، فاسْتَدْعَىٰ الشُّهُودَ؛ لِيُشْهِدَهم على نفسه أنَّ ما في يَدِه لوَرَثَة أبي الغَنَائم، فَتَمَادَىٰ ورثَتُه في إحْضارِ الشُّهُود، وطَوَّلُوا عليه، وأخَذَتْه سَكْتَةٌ، فماتَ فاسْتَوْلَىٰ ورثَتُه على نفسه تلك الأمْوال والأمْلاك، ولم يُعْطُوا أولئك شيئًا مما تَرَكه أبوهم لهم.

أبو الحَسَنِ عليُّ بنُ عليِّ بن سَعَادَةَ الفارِقيُّ، تَفَقَهَ ببغدادَ، وأعادَ بالنِّظاميَّة ونابَ في تَدْريسها، واسْتَقَلَّ بتدْريس المَدرَسَة التي أنْشَأَتْها أمُّ الخليفة وأُريدَ على نِيابَة القَضاء عن أبي طالبٍ عليِّ بن عليٍّ البُخاريُّ، فامتَنَعَ، فأُلْزِمَ به فبَاشَرَه قليلاً، ثم دَخَلَ يومًا إلى مَسْجِدٍ فَلَبِسَ على رأْسِه مِئْزَرَ صُوفٍ، وأمَرَ الوُكَلاءَ والجَلاوِذَةَ أن يَنْصَرِفُوا عنه، وأشْهَدَ على نفسه بِعزْلِها عن نِيابَة القَضاء، واسْتَمرَّ على الإعادَة والتَّدْريس، رَحِمَه اللَّهُ.

وفي يوم الجُمُعَة العشرينَ من ربيع الأوَّل تُوُفِّيَتْ:

الخاتُونُ أمُّ السلطان الملك المُعَظَّم عيسَىٰ بن العادل، فَدُفِنَتْ بالقُبَّة بالمَدْرَسَة المُعَظَّميَّة بسَفْح قاسيونَ.

الأميرُ مُجيرُ الدين طاشْتكينَ المُسْتَنْجديُّ أميرُ الحَاجِّ وزَعيمُ بلاد خُوزِسْتَانَ، كان شَيْخًا خَيِّرًا حَسَنَ السِّيرَة، كثيرَ العِبَادَة، غاليًا في التَّشيُّع، تُوُفِّي بتُسْتَرَ ثاني جُمَادَىٰ الآخرَة من سَنَة ثِنْتَين وستِّمائة، وحُمِلَ تابُوتُه إلى الكُوفَة فَدُفِنَ بمَشْهَد عليٍّ، بوَصيَّة منه، هكذا تَرْجَمَه ابنُ الساعي في «تاريخه»، وذَكَرَ أبو شامَةَ في «الذيل» أنَّه طاشْتكينُ بنُ عبد اللَّه المُقْتَفَويُّ أميرُ الحاجِّ، حَجَّ بالناس ستًّا وعشرينَ سَنَةً، وكان يكُونُ في الحجَاز كأنَّه مَلِكٌ، وقد رَمَاه الوزيرُ ابنُ يُونُسَ بأنَّه يُكَاتِبُ صلاحَ الدين فحَبَسَه الخليفَةُ، ثم تَبَيَّن له بُطلانُ ما ذُكِرَ عنه فأطْلَقَه، وأعْطاه خُوزِسْتَانَ، ثم أعَادَه إلى إمْرَة الحَجِّ، وكانت الحلَّةُ السيفيةُ إقْطاعَه، وكان شُجَاعًا جَوَادًا سَمْحًا، قليلُ الكلام، يَمْضي عليه الأُسْبُوعُ لا يَتَكَلَّمُ فيه

بكلمةٍ، وكان فيه حلمٌ واحتمالٌ، استغاثَ به رجُلٌ على بعضِ نوَّابه فلم يَرُدَّ عليه، فقال له المُستغيثُ: أحمارٌ أنت؟ فقال: لا. وفيه يقُولُ ابنُ التَّعاويذيِّ:

وأميـــرٌ علـى البـــلاد مُـــولَّىٰ	لا يُجيبُ الشَّاكي بغيـر السُّكُوت
كلَّمـا زَادَ رفعـةً حَطَّنا اللَّـ	ـهُ بتـغـفـيله إلى البـهَمُـوت

وقد سرَقَ فرَّاشه حياصةً له، فأرادُوا أنْ يَستقرِوا الفرَّاشَ عليها، وكان قد رآه الأميرُ طاشْتكين وهو يأخُذُها، فقال: لا تُعاقبُوا أحدًا، فإنَّه أخذَها مَن لا يَرُدُّها، ورآه مَن لا يَنُمُّ عليه. وقد كان بلَغَ من العمرِ تسعينَ سنَةً، واتَّفَقَ أنَّه استأجرَ أرضًا مُدَّةَ ثلاثمائة سنَةٍ للوقْف، فقال فيه بعضُ المُضحكين: هذا لا يُوقِنُ بالمَوْت؛ عمرُه تسعُونَ سنَةً واستأجَرَ أرضًا ثلاثمائة سنَةٍ. فاستضحَكَ القوْم.

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة

فيها جرَتْ أمُورٌ طويلَةٌ ببلادِ المَشْرقِ بينَ الغُوريَّةِ والخُوارزميَّةِ، وملَكَ خُوارزمْ شاه محمدُ بنُ تكش بلادَ الطالقَانَ. وفيها ولَّى الخليفَةُ قَضَاءَ القُضاة ببغدَادَ لعمَادِ الدين أبي القاسمِ عبدِ اللَّه بنِ الدَّامَغانيِّ.

وفيها قَبَضَ الخليفَةُ على عبدِ السلامِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ ابنِ الشيخ عبدِ القادرِ الجيلانيِّ، بسببِ فسْقه وفُجُوره، وقد أُحْرِقَتْ كُتُبُه وأمْوالُه قبلَ ذلك؛ لمَا فيها من كتبِ الفلاسفَة، وعُلُوم الأوائل، وأصبَحَ يَستعْطي من الناس، وهذا بخَطيئَة قيامه على الشيخ أبي الفَرَجِ ابن الجَوْزيِّ؛ فإنَّه هو الذي كان وَشَىٰ به إلى الوزيرِ ابنِ القَصَّاب حتى أُحْرِقَتْ بَعْضُ كُتُبِ ابنِ الجَوْزيِّ، وخُتمَ على بَقيَّتها، ونُفيَ إلى واسط خَمسَ سنينَ، كما تَقدَّمَ بيَانُ ذلك، والناسُ يَقُولونَ: في اللَّه كفَايَةٌ. وفي القُرآن: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. والصُّوفيَّةُ يَقُولونَ: الطريقُ تأخُذُ حقَّها. والأطبَاءُ يَقُولُونَ: الطَّبيعةُ مُكَافِئَةٌ.

وفيها نَازَلَتْ الفرنْجُ حِمْصَ فقاتَلَهم مَلِكُها أسَدُ الدينِ شيرَكُوه بنُ ناصرِ الدينِ محمدِ بنِ أسَدِ الدينِ شيرَكُوه الكبيرِ، وأعَانَه بالمَدَد المَلكُ الظاهرُ صاحبُ حَلَبَ، فكفَّ اللَّهُ شرَّهم. وللَّه الحمدُ والمنَّةُ.

وفيها اجْتَمَع شابَّانِ ببغدادَ على الشراب، فضَرَبَ أحَدُهما الآخرَ بسكينٍ فقَتَلَه وهَرَبَ، فأُخذَ فقُتلَ، فوُجدَ معه رُقْعَةٌ فيها بيتَانِ من نَظْمه أمَرَ أن تُجْعَلَ بينَ أكفانه، وهما قولُه:

قَـدمتُ علـى الكَريم بغيـر زَاد	مـن الأعمـال بالقَلْبِ السَّليم
وسـوءُ الظَّنِّ أنْ تعتـدَّ زَادًا	إذا كـان القُـدُومُ على كَـريم

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

الفَقيهُ أبو منَصُورٍ عبدُ الرحمن بنُ الحسين بنِ عبدِ اللَّه بنِ النُّعمَان النِّيليُّ، والمُلقبُ بالقاضي شُرَيْح، لذَكَائه وفَضْله وبرَاعَته وعقْله وكَمال أخلاقه، ولِيَ قَضَاءَ بلده، ثم قدمَ بَغدَادَ، فنُدبَ إلى المناصب الكبارِ فأباها، فحلَفَ عليه الأميرُ طاشْتكين أنْ يَعْمَلَ عنده في الكتَابَة، فخَدَمَه عشرينَ عَامًا، ثم وَشَىٰ

به الوزيرُ ابنُ مَهْدِيٍّ إلى الخليفة، فَحَبَسَه في دار طاشْتِكين إلى أنْ تُوُفِّي في هذه السنَة، ثم إنَّ الوزيرَ عمَّا قَرِيبٍ حُبِسَ بها أيضًا، وهذا من العَجَب الغَرِيب.

عبدُ الرزَّاق ابنُ الشيخ عبد القادر، كانَ ثِقَةً عابدًا زاهدًا ورِعًا، لم يَكُنْ في إخوَتِه خيرٌ منه، لم يدخُلْ فيما دَخَلُوا فيه من المناصب والولايات، بل كان مُتَقَلِّلاً من الدُّنْيا، مُقْبِلاً على الآخرَة، وقد سمع الكثيرَ، وسُمع عليه أيضًا.

أبو الحَرَم مكِّيُّ بنُ رَيَّانَ بن شبَّةَ بن صالح الماكسينيُّ، من أعْمال سِنْجار، ثم المَوْصليُّ النحويُّ، قَدِمَ بَغْدَادَ، وأخَذَ عن ابن الخَشَّاب، وابنِ القَصَّار، والكَمَال الأنْبَاريِّ، وقَدمَ الشامَ، فانْتَفَعَ به خَلْقٌ عَظيمٌ منهم الشيخُ علمُ الدين السَّخَاويُّ وغيرُه، وكان ضريرًا يَتَعَصَّبُ لأبي العلاء المَعَريِّ؛ لما بينَهما مَن القَدْر المشترك في الأدَب والعَمَى، ومن شِعْرِه:

إذا احْتَاجَ النَّوَالُ إلى شَفِيعٍ ... فلا تَقْبَلْهُ تُضْحِ قَرِيرَ عَيْنِ
إذا عِيفَ النَّوَالُ لفَرْدِ مَنٍّ ... فأوْلَى أن يُعافَ لِمِنَّتَيْنِ

ومن شِعْرِه أيضًا:

نَفْسِي فِداءٌ لأغْيَدَ غَنِجٍ ... قالَ لنا الحَقَّ يومَ وَدَّعَنَا
مَنْ وَدَّ شيئًا من حُبِّه طمعًا ... في قُبْلَةٍ للوَدَاعِ وَدَّعَنَا

إقْبالٌ الخادمُ، جَمالُ الدين، أحدُ خُدَّام المَلِك صلاح الدين، واقفُ الإقْباليَّتَيْن؛ الشافعيَّة والحَنَفيَّة، وكانتا دارَيْن له فجَعَلَهما مَدْرَسَتَيْن، ووقَفَ عليهما وقْفًا؛ الكبيرةَ للشافعيَّة، وعليها ثُلُثا الوَقْف، والصَغيرةَ للحَنَفيَّة، وعليها ثُلُثُ الوَقْف. وكانت وفاتُه بالقُدْس، رَحِمَه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة أربَعٍ وستمائة

فيها: رَجَع الحاجُّ إلى العراق وهم يَدْعُونَ اللَّهَ، ويَشْتَكُونَ إلى الناس ما لَقُوا مِن صَدْر جهان البُخاريِّ الحَنَفيِّ، الذي كان قَدمَ بَغْدادَ في رسالة، فاحْتَفَلَ به الخليفةُ، وخَرَجَ إلى الحجِّ في هذه السَّنَة، فَضَيَّقَ على الناس في المياه والميرة، فمات نحو من ستَّة آلاف من الحَجيج العراقيِّ بسببه في هذه السَّنَة. وكان - فيما ذُكرَ - يَسْبِقُ غلْمانه إلى المَنَاهل فيتحَجَّرُونَ على الماء، ويأخُذُونه فيرشُّونَه حولَ خيمَة مَخْدُومهم في قَيْظ الحجاز، ويَسقُونَ البُقُولات التي تُحْمَلُ معه في تُرابها، ويَمنَعُونَ منه ابنَ السبيل، الآمِّينَ البيتَ الحرامَ، فلمَّا رَجَعَ مع الناس لَعَنَتْه العامَّةُ، ولم تَحْتَفِلْ به الخاصةُ، ولا أكْرَمَه الخليفةُ، ولا أرْسَلَ إليه أحدًا، وخرَجَ من بغْدادَ والعامَّةُ من ورائه يَرْجُمُونَه ويَلْعَنُونَه، وسَمَّاه الناسُ: صَدْرَ جَهَنَّمَ. نعوذُ باللَّه من الخِذْلان.

وفيها قَبَضَ الخليفةُ على وزيره ابنِ مَهْدِيٍّ العَلَوِيِّ؛ وذلك لأنَّه نُسِبَ إليه أنَّه يَرُومُ الخلافَةَ، وقيلَ غيرُ ذلك من الأسباب، والمَقْصُودُ أنَّه حُبِسَ بدارِ طاشْتِكين حتى مَاتَ بها، وكَانَ جَبَّارًا عَنِيدًا، يَذُمُّه الشُّعراءُ حتى قال بَعْضُهم فيه:

خَلِيلَيَّ قُولا للخليفة أحمد ... تَوَقَّ وُقِيتَ السُّوءَ ما أنتَ صانعُ
وزيرُكَ هذا بينَ أمرينِ فيهما ... صَنِيعُكَ يا خيرَ البريَّةِ ضائعُ
فإنْ كان حقًّا من سُلالةِ حَيْدَرٍ ... فهذا وزيرٌ في الخلافَةِ طامعُ
وإنْ كان فيما يَدَّعي غيرَ صادقٍ ... فأضْيَعُ ما كانتْ لَدَيْه الصَّنائعُ

وقيلَ إنَّه كان عَفيفًا عن الأموال، حَسَنَ السِّيرَةِ، جيِّدَ المُباشَرَةِ. فاللَّهُ سبحانَه وتَعَالَى أعلمُ بحاله.

وفي رَمَضَانَ رَتَّبَ الخليفةُ ببَغْدَادَ عِشْرِينَ دارًا للضِّيافَةِ يُفْطِرُ فيها الصَّائمُونَ من الفُقَراء، يُطْبَخُ في كلِّ يومٍ فيها طَعَامٌ كثيرٌ، ويُحْمَلُ إليها من الخُبْزِ النَّقيِّ والحَلْوَى شيءٌ كثيرٌ أيضًا. فجَزاه اللَّهُ خيرًا. وهذا الصَّنيعُ يُشْبه ما كانت تَفْعَلُه قُرَيشٌ من الرِّفادَةِ في زَمَنِ الحَجِّ وكان يَتَوَلَّى ذلك عمُّه أبو طالبٍ، كما كان جَدُّه العبَّاسُ يَتَوَلَّى السِّقَايَةَ، وقد كانت فيهم السِّفَارَةُ واللواءُ والنَّدْوَةُ، كما تَقَدَّمَ بيانُ ذلك في مَوَاضعه، وقد صارَتْ هذه المَنَاصبُ كلُّها على أتَمِّ الأحْوال في الخُلَفَاء العبَّاسيِّينَ، رَحمَهم اللَّهُ.

وفيها أرْسَلَ الخليفةُ الشيخَ شِهابَ الدِّينِ السُّهْرَوَرْدِيَّ وفي صُحْبَته سُنْقُرُ السِّلَحْدَارُ إلى المَلك العادل بالخِلْعَة السَّنِيَّة، وفيها الطَّوْقُ والسِّوَارَان، وإلى جَميعِ أولاده بالخِلَع أيضًا.

وفيها مَلَكَ الأوْحَدُ بنُ العادلِ صاحبُ مَيَّافَارِقِينَ مدينَةَ خِلاطَ بعدَ قَتْلِ صاحبِها ابنِ بَكْتَمُرَ، وكان شَابًّا جَميلَ الصُّورَةِ جدًّا، قَتَلَه بعضُ مماليكهم، ثم قُتِلَ القاتلُ أيضًا، فخَلا البلدُ عن مَلِكٍ، فأخَذَها الأوْحَدُ بنُ العادل، كما ذَكَرْنا.

وفيها مَلَكَ خُوَارزم شَاه محمدُ بنُ تكشَ بلادَ مَا وراءَ النَّهْرِ من الخطَا بعدَ حُروبٍ طويلَةٍ.

اتَّفَقَ في بعضِ الأيام أمرٌ عَجيبٌ؛ وهو أنَّ المسلمينَ انْهَزَمُوا عن السُّلْطان خُوَارزم شَاه في بعضِ المَوَاقف، وبَقِيَ هو ومعه عِصابَةٌ قليلةٌ من أصْحابه، فقَتَلَ منهم الكُفَّارُ من الخطا من قَتَلُوا، وأسَرُوا خَلْقًا منهم، وكان السُّلْطانُ خُوَارزْم شَاه في جملَة مَنْ أُسِرَ؛ أسَرَه رَجلٌ وهو لا يَشْعُرُ به ولا يَدْرِي أنَّه المَلكُ، وأسَرَ معه أميرًا يُقالُ له: ابنُ مسْعُود. فلمَّا وَقَعَ ذلك وتَرَاجَعَت العساكرُ الإسلاميَّةُ إلى مَقَرِّها فَقَدُوا من بينهم السُّلْطانَ، فاخْتَبَطوا فيما بينَهم، واخْتَلَفُوا اخْتلافًا كثيرًا، وانزعجت خُراسان بكمالها ومن الناسِ مَن ظَنَّ أنَّ السُّلْطانَ قد قُتلَ.

وأمَّا ما كانَ من السُّلْطانِ وذاكَ الأميرِ؛ فإنَّ الأميرَ قال للسُّلْطان: إنِّي أرَى من المَصْلَحَة أنْ تَتْرُكَ المُلْكَ عنك في هذه الحَالَةِ، وتُظْهِرَ أنَّك غلامٌ لي، فقَبِلَ منه ما أشارَ به، وجَعَلَ يَخْدُمُه، ويُلْبِسُه ثيابَه،

ويَسْقيه ويَضَعُ الطعامَ بينَ يَدَيْه، ولا يَألُو جهدًا في خِدْمَتِه، فقال الذي أسَرَهُما: إنّي أرَىٰ هذا يَخْدُمُكَ، فَمَن أنت؟ فقال: أنا ابنُ مسْعُودٍ الأمير، وهذا غُلامي، فقال: واللّه لولا علْمُ الأمراءِ بأنّي قد أسَرتُ أميرًا لأطْلَقْتُكَ. فقال: إني إنّما أخْشَىٰ على أهلي، فإنَّهم يَظُنُّونَ أنّي قد قُتِلْتُ ويُقيمونَ المَأْتَمَ، فإنْ رَأيْتَ أنْ تُفادِيَني على مالٍ، وتُرْسِلَ مَن يقْبِضُه منهم فعلْتَ خَيْرًا، فقال: نَعَمْ. فَعَيَّنَ رَجُلاً من أصْحابِه، فقال ابنُ مسْعُودٍ: إنَّ أهلي لا يَعْرِفونَ هذا، ولكن إنْ رَأيْتَ أنْ أُرْسِلَ معه غُلامي؛ لِيُبَشِّرَهم بحيَاتي، ويأْمُرَهم بتَحْصيلِ المال. فقال: نَعَمْ. فَجَهَّزَ معهما مَنْ يَحْفَظُهما إلى مَدينَةِ خُوارِزْمَ.

فلمَّا اقْتَرَبُوا من مَدينَةِ خُوارِزْمَ سَبَقَه المَلِكُ إليها، فلمَّا رآه الناسُ فَرِحُوا فَرَحًا شَديدًا، ودَقَّتِ البَشائِرُ في سائِرِ بلاده، وعَادَ المَلِكُ إلى نِصابِه، واسْتَقَرَّ السُّرُورُ بإيابِه، وأصْلَحَ ما كان وَهَىٰ من مَمْلَكَتِه بسبَبِ ما كان اشْتَهَرَ مِن عَدَمِه، وحَاصَرَ هراةَ وأخَذَها عَنْوَةً.

وأمَّا الذي كان قد أسَرَه، فإنَّه قال يومًا لابنِ مسْعُودٍ: إنّ الناسَ ينوحُون أنَّ خُوارزْم شَاه قد عُدِم. فقال: لا، هو الذي كان في أسْرِكَ. فقال له: فهلاَّ أعْلَمْتَني به حتى كنتُ أرُدُّه مُوَقَّرًا مُعَظَّمًا! فقال: خفْتُكَ عليه. فقال: سِرْ بنا إليه. فسارا إليه فأكْرَمَهما إكْرامًا زائدًا، وأحْسَنَ إليهما.

وفيها: غَدَرَ صاحبُ سَمَرْقَنْدَ، فقتَل كلَّ مَن كان ببلده من الخُوارزْمِيَّة، حتى كان الرجلُ يُقْطَعُ قطْعَتَيْنِ، ويُعلَّقُ في السُّوقِ كما تُعلَّقُ الأغنامُ، وعزَمَ على قَتْلِ زوْجَتِه بنْتِ خُوارزْم شَاه، ثم رجَع عن قتلها، وحصَرَها وحبَسها في قلعةٍ وضَيَّق عليها، فلمّا بلَغ الخبرُ إلى الملك خُوارزْم شاه سارَ إليه في الجُنودِ فنَازَلَه وحاصَرَ سَمَرْقَنْدَ، فأخَذَها قَهْرًا، وقتَل من أهْلِها نحْوًا من مائتَيْ ألْفٍ، وأنْزَلَ المَلِكَ من القَلْعَةِ، وقُتِل صَبْرًا بينَ يدَيْه، ولم يتْرُكْ له نَسْلاً ولا عَقِبًا، واسْتَحوَذَ خوارزْم شاه على تلك المَمَالكِ التي هنالك.

وفيها: تحارَبَ الخطا وملكُ التَّتارِ كشلي خان المُتاخمُ لمَمْلَكَةِ الصِّينِ، فكتَبَ ملكُ الخطا إلى خوارزْم شاه يستنجده على التَّتارِ، ويقولُ: متى غلَبُونا خلَصُوا إلى بلادكَ. وكذا وقَع. وكتَبَ التَّتارُ إليه أيضًا يَسْتَنصرونَه على الخطا ويقولُونَ: هؤلاء أعْداؤُنا وأعْداؤُك، فكُنْ معَنا عليهم. فكتَب إلى كلٍّ من الفَريقَيْنِ يُطَيِّبُ قلْبَه، وحضَرَ الوَقْعَةَ بيْنَهم وهو مُتَحَيِّزٌ عن الفريقَيْنِ، فكانت الدَّائرةُ على الخطا، فهَلَكُوا إلا القليل منهم. وغدَرَ التَّتارُ ما كانُوا عاهَدُوا عليه خُوارزْم شَاه، فوقَعتْ بينهما الوَحْشَةُ الأكيدَةُ، وتَواعَدُوا للقتال، وخاف منهم خُوارزم شَاه، وخرَّبَ بلادًا كثيرةً مُتاخمَةً لبلادِ كشلي خان؛ خوفًا عليها أنْ يَمْلكَها، ثم إنَّ جنكزخان خرَج على كشلي خان، فاشْتَغَل بمحارَبَته عن مُحارَبَةِ خُوارزْم شَاه، ثم وقَعَ من الأمُورِ الغريبَةِ ما سنَذْكُرُه، إنْ شاءَ اللّهُ تعالى.

وفيه كثُرَت غاراتُ الفرنجِ من طَرابُلُسِ على نَواحي حِمْصَ، فضَعُفَ صاحِبُها أسَدُ الدِّينِ شِيرِكُوه

عن مُقاوَمَتِهم؛ فبَعَثَ إليه الظاهرُ صاحبُ حَلَبَ عسكرًا قوَّاه بهم على الفرنج.

وخرجَ الملكُ العادلُ من الديارِ المصريَّةِ في العساكرِ الإسلاميَّةِ، وأرْسَلَ إلى جُيوشِ الجزيرةِ العُمريَّةِ فوافوه على عَكَّا فحاصَرها؛ لأنَّ القَبارِسَةَ كانوا قد أخَذُوا من أُسطولِ المُسْلمين قطعًا فيها جماعةٌ من المسلمين، فطلَبَ صاحبُ عكَّا الأمانَ والصُّلْحَ على أنْ يَرُدَّ الأسارىٰ، فأجابَه إلى ذلك، وسارَ العادلُ فنزَلَ على بُحَيْرَةِ قَدَسَ قريبًا من حِمْصَ، ثم سارَ إلى بلادِ طَرابُلُسَ، فأقامَ بها اثْنَيْ عشَرَ يومًا يقْتُلُ ويأسِرُ ويغْنَمُ، وخرَّب تلك البلدانَ الأطْرابُلُسيَّةَ، حتى جنَحَ الفرنْجُ إلى المُهادَنَةِ، ثم عادَ إلى دمشقَ مؤيَّدًا منصورًا مسرورًا محبورًا.

وفيها: مَلَكَ صاحبُ أذْرَبيجَان وهو الأميرُ نُصْرةُ الدينِ أبو بكرِ بنُ البَهْلوان مدينةَ مَراغَةَ؛ وذلك لخُلُوِّها عن مَلِكٍ قاهرٍ، فإنَّ مَلِكَها ماتَ، وقامَ بالمُلْكِ بعدَه ولَدٌ له صغيرٌ، فدَبَّرَ أمْرَه خادمٌ له.

وفي غُرَّةِ ذي القَعْدَةِ شَهِدَ مُحْيي الدينِ أبو محمدٍ يُوسُفُ بنُ عبدِ الرحمنِ ابنِ الجوزيِّ عندَ قاضي القُضاةِ أبي القاسمِ بنِ الدَّامَغانيِّ، فقَبِلَه وولَّاه حِسْبَةَ جانبَيْ بَغدادَ، وخلَعَ عليه خِلْعَةً سَنِيَّةً سَوْداءَ بطَرْحَةٍ كُحْلِيَّةٍ، وبعدَ عشَرَةِ أيامٍ جلَسَ للوَعْظِ مَكانَ أبيه أبي الفرجِ ببَابِ بدرِ الشَّريفِ، وحضرَ عندَه خَلْقٌ كثيرٌ، وبعدَ أرْبَعَةِ أيامٍ من يَوْمئذٍ درَّسَ بمَشْهَدِ أبي حَنيفةَ ضِياءُ الدينِ أحمدُ بنُ مسْعودٍ التُّرْكُسْتانيُّ الحَنَفيُّ، وحضرَ عندَه الأعْيانُ والأكابرُ.

وفي رَمضانَ منها وصلَتِ الرُّسُلُ من الخليفةِ إلى العادلِ بالخِلَعِ، فلَبِسَ هو وولَدَاه المُعَظَّمُ والأشْرَفُ ووزيرُه صَفِيُّ الدينِ بنُ شُكْرٍ، وغيرُ واحدٍ من الأمراءِ الخِلَعَ السَّنِيَّةَ الخليفيَّةَ، ودخَلوا إلى القَلْعَةِ وقتَ صلاةِ الظهرِ من بابِ الحديدِ، وقرَأ التَّقْليدَ الوزيرُ وهو قائمٌ، وكان يومًا مشْهُودًا.

وفيها رُكِّبَتِ الساعاتُ بمئذنةِ العروسِ بالجامعِ الأُمويِّ، وشرَعوا في بناءِ الدُّرَجِ التي تُجاهَ المدرسةِ القَيْمازيَّةِ.

وفيها: درَّس الشيخُ شرفُ الدينِ عبدُ اللَّهِ بنُ زَيْنِ القُضاةِ عبدِ الرَّحْمنِ بنِ سلطانَ بالمدْرسَةِ الرَّواحيَّةِ بدمشقَ.

وفيها: انْتَقَل الشيخُ ابنُ الحُبَيْرِ البَغداديُّ من الحَنْبَلِيَّةِ إلى مذهبِ الشافعيِّ، ودرَّسَ بمدرسةِ أمِّ الخليفةِ، وحضرَ عندَه الأكابرُ والعلماءُ من سائرِ المذاهبِ.

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

الأميرُ إيتامشُ بنُ عبدِ اللَّهِ، أحدُ أُمَراءِ الخليفةِ النَّاصرِ، كان من ساداتِ الأُمَراءِ دينًا وعقلًا ونَزاهَةً وعِفَّةً، سقَاه بعْضُ الكُتَّابِ من النَّصارىٰ سُمًّا، فماتَ رحمه اللَّهُ، وكان اسْمُ الذي سقَاه ابنَ ساوىٰ، فلما اطَّلَع الخليفةُ على الحالِ سلَّم ابنَ ساوىٰ إلى غِلْمانِ إيتامشَ فشَفَعَ فيه ابنُ مَهْديٍّ الوزيرُ، وقالَ: إنَّ النَّصارىٰ قد بذَلوا فيه خَمْسين ألفَ دينارٍ، فكَتَبَ الخليفةُ على رأسِ الورَقَةِ:

إنَّ الأُسُودَ أسُودَ الغابِ همَّتُها يومَ الكَرِيهةِ في المَسْلُوبِ لا السَّلَبِ

فتَسلَّمه غِلْمانُ إيتامشَ فقتَلُوه وحرَّقُوه، وقبَض الخليفةُ بعدَ ذلكَ على ابنِ مَهْدِيٍّ الوزيرِ، كما تقدَّمَ.

حَنْبَلُ بنُ عبد اللّه بن الفَرَجِ بن سَعادةَ الرُّصَافيُّ الحَنْبَليُّ، المُكَبِّرُ بجامعِ المَهْدِيِّ، راوِي «مُسْنَدِ الإمامِ أحمدَ» عن ابنِ الحُصَيْنِ، عن ابنِ المُذْهِبِ، عن ابنِ مالكٍ، عن عبدِ اللّه، عن أبيه، عُمِّرَ تِسْعينَ سنَةً، وخرَج من بغدادَ، فأَسْمَعه بإرْبِلَ، واستَقْدمه مُلوكُ دمشقَ إليها، فسَمِعَ الناسُ بها عليه المُسْنَدَ، وكانَ المُعَظَّمُ يكْرِمُه، ويأْكُلُ عندَه على السِّماطِ من الطَّيِّباتِ، فتُصيبُه التُّخَمَةُ كثيرًا؛ لأنَّه كان ضيِّقَ الحالِ، خَشِنَ العيْشِ ببغدادَ، وكان الكِنْديُّ إذا دخَل على المُعَظَّمِ يسْأَلُ عن حَنْبَلٍ فيقولُ المُعَظَّمُ: هو متُخومٌ، فيقولُ: أَطْعِمْه العدَسَ. فيَضْحَكُ المُعَظَّمُ، ثم أعْطاه المُعَظَّمُ مالاً جزيلاً، وردَّه إلى بغدادَ، فتُوفِّي بها في هذه السنةِ، وكانَ مولدُه سنة عَشْرٍ وخَمْسِمائةٍ، وكانَ معه ابنُ طَبَرْزَدَ، فتأخَّرَتْ وفاتُه عنه إلى سنَةِ سَبْعٍ وستِّمائةٍ.

عبدُ الرَّحْمنِ بنُ عيسَى بن أبي الحسَنِ البُزُوريُّ الواعظُ البَغْداديُّ، سمعَ من ابنِ أبي الوَقْتِ وغيرِه، واشْتَغَل على ابنِ الجَوزيِّ بالوَعْظِ، ثم حدَّثَتْه نفسُه بمُضاهاتِه وشَمَخَتْ نفْسُه، واجْتَمع عليه طائفةٌ من أهلِ بابِ البصرةِ، ثم تزَوَّج في آخرِ عُمرِه - وقد قارَبَ السَّبْعينَ - بصَبِيَّةٍ، فاغْتَسَل في يومٍ باردٍ، فانْتَفَخَ ذكَرُه، فماتَ في هذه السَّنَةِ.

الأميرُ زَيْنُ الدين قَراجَا الصَّلاحيُّ صاحِبُ صَرْخَدَ، كانتْ له دارٌ عندَ بابِ الصَّغيرِ عندَ قَناةِ الزَّلاَّقةِ، وتُرْبَتُه بالسَّفْحِ في قُبَّةٍ على جادَّةِ الطَّريقِ عندَ تُرْبَةِ ابنِ تميركَ، وأقرَّ العادلُ ولَدَه يعْقُوبَ على صَرْخَدَ.

عَبْدُ العزيزِ الطَّبِيبُ تُوفِّي فجأَةً، وهو والدُ سعْدِ الدينِ، الطَّبيبُ الأشْرَفيُّ، وفيه يقولُ ابنُ عُنَيْنٍ:

فُرادَى ولا خلفَ الخطيبِ جماعةٌ ومَوْتٌ ولا عبدَ العزيزِ طَبيبُ

وفيها تُوفِّي:

العَفيفُ ابنُ الدُّرْجيِّ إمامُ مقصُورَةِ الحنفيَّةِ الغَرْبيَّةِ بجامعِ بني أُمَيَّةَ.

أبو محمد جَعْفَرُ بنُ محمد بن محمودِ بن هِبَةِ اللّه بن أحمدَ بن يُوسُفَ الإرْبِليُّ، كانَ فاضِلاً في عُلومٍ كثيرةٍ؛ في الفقهِ على مذهبِ الشافعيِّ، والحِسابِ والفَرائضِ والهندسةِ والأدَبِ والنَّحْوِ، وما يتَعلَّقُ بعُلومِ القُرْآنِ العزيزِ وغيرِ ذلك. ومن شعرِه الحسنِ الجيدِ قولُه:

لا يدفَعُ المرءُ ما يأتي به القَدَرُ	وفي الخُطوب إذا فكَّرتَ مُعتَبَرُ
فليس يُنجي من الأقدار إن نزلَتْ	رأيٌ وحَزمٌ ولا خَوفٌ ولا حَذَرُ
فاستَعمِلِ الصَّبرَ في كلِّ الأمورِ ولا	تَجزَعْ لشيءٍ فعُقبَى صَبرِكَ الظَّفَرُ
كمْ مسَّنا مرة عُسرٌ فصَرَّفَهُ	صَرفُ الزمانِ ووالَى بعدَه يُسُرُ
لا يَيأسِ المرء من رَوحِ الإله فما	يَيأسُ منه إلا عُصْبَةٌ كفَرُوا
إنّي لأعلَمُ أنَّ الدَّهرَ ذو دُوَلٍ	وأنَّ يَومَيهِ ذا أمنٌ وذا خَطَرُ

ثم دخلت سنة خمس وستمائة

في مُحَرَّمِها تكامَل بناءُ دارِ الضيافة ببَغدادَ التي أنشَأَها الناصرُ لدينِ اللَّه بالجانب الغربيِّ من بغدادَ للحاجِّ والمارَّة؛ لهم الضِّيافةُ ماداموا نازلين بها، فإذا عزَم أحدُهم على السفرِ منها زُوِّدَ وكُسِي وأُعطِي بعدَ ذلك كلِّه دينارًا للسَّفَرِ، جزاه اللَّهُ خيرًا.

وفيها: عادَ أبو الخطَّاب ابنُ دِحْيَةَ الكَلبيُّ من رحلَته العراقيَّة، فاجْتازَ بالشَّام، فاجْتَمَعَ في مجلسِ الوزيرِ صفيِّ الدينِ بنِ شُكرٍ هو والشيخُ تاجُ الدينِ أبو اليُمنِ زيدُ بنُ الحسنِ الكِنْديُّ شيخُ اللغةِ والحديث، فأوْرَدَ ابنُ دِحْيَةَ في كلامه حديثَ الشفاعةِ حتى انتهَى إلى قولِ إبراهيمَ عليه السلامُ: «إنَّمَا كُنتُ خَليلاً من ورَاءَ وَرَاءَ». بفَتْحِ اللَّفْظَتين، فقال الكِنْديُّ: من وَراءُ وَراءُ. بضَمِّهما، فقالَ ابنُ دِحْيَةَ للوزيرِ ابنِ شُكْرٍ: مَن ذا؟ فقالَ: هذا الشيخُ أبو اليُمنِ الكِنْديُّ، فنالَ منه ابنُ دِحْيَةَ، وكان جريئًا، فقال الكِنْديُّ: هو من كلبٍ فنبَح. قال الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ: وكلتا الروايتين محكيَّتان، وحُكِي فيهما الجرُّ أيضًا.

وفيها عادَ فخرُ الدينِ ابنُ تَيميَةَ خطيبُ حَرَّانَ من الحجِّ إلى بغدادَ، وجلَس بباب بدرٍ للوَعْظِ، مكانَ مُحْيِي الدينِ يوسُفَ ابنِ الشيخِ أبي الفرجِ، فقالَ في كلامه ذلك:

وابنُ اللَّبُونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يستَطِعْ صَولَةَ البُزْلِ القَنَاعِيسِ

كأنَّه يعرِّضُ بالمُحْيِي ابنِ الجوزيِّ، لكونِه شابًّا ابنَ خَمْسٍ وعِشْرينَ سنةً. واللَّهُ أعلمُ.

وفي يوم الجُمُعة تاسعِ المُحَرَّمِ دخَل مَمْلوكٌ إفرَنْجيٌّ من باب مقصورةِ جامعِ دمشقَ وهو سَكْرانُ وفي يَده سيفٌ مسلولٌ، والناسُ جلُوسٌ ينتظرونَ صلاةَ الفجرِ، فمالَ على الناسِ يضرِبُهم بسَيفِه، فقَتَل اثنَيْن أو ثلاثةً، وضرَب المِنبَرَ بسَيفِه فانكسَر فأُخِذ وأُودِعَ المارَسْتانَ، وشُنِق في يومِه ذلك على جسْرِ اللَّبادِينَ.

وفيها: عادَ الشيخُ شهابُ الدِّينِ السُّهْرَوَرْدِيُّ من دِمَشْقَ بهدايا الملكِ العادلِ، فتلقَّاه الجيشُ ومعه أمْوالٌ كثيرةٌ لنفسه أيضًا، وكانَ قبلَ ذلك فقيرًا زاهدًا، فلمَّا عادَ مُنِعَ من الوعْظِ وأُخِذَتْ منه الرُّبُطُ

التي يُباشرُها، ووُكِّلَ إلى ما بيَدِه من الأموالِ، فشرَع في تفريقها على الفُقراءِ والمساكين، فاستَغنَى منه خلْقٌ كثيرٌ من الفقهاءِ وغيرِهم، فقالَ المُحْيِي ابنُ الجوزيِّ في مجلسِه ما معناه: لا حاجَةَ بالرجلِ أن يأخُذَ أموالاً من غيرِ حقِّها، ويصْرِفُها إلى مَن يستَحِقُّها، وكانَ ترْكُها أولَى به من تناوُلِها، وإنَّما أرادَ أنْ ترْتَفِعَ منْزِلَتُه ببذْلِها، أو يعودَ إلى حالِه كما كانَ، ولو تُرِك على ما كان يباشِرُه لما بذَلَها، فلْيَحْذَرِ العبدُ الدُّنيا فإنَّها خدَّاعةٌ غرَّارَةٌ تستَرِقُّ فُحولَ العُلمَاءِ والعبادِ فضلاً عن العوامِّ والقوادِ. وقد وقَع ابنُ الجوزي فيما بعدُ، فيما وقَعَ فيه السُّهْرَوَرْدِيُّ وأعْظَمَ.

وفيها: قصَدَت الفرنجُ مدينةَ حِمْص، وعبَرُوا على العاصِي بجسرٍ أعَدُّوه في بلادِهم، فلمَّا أحسَّتْ بهم العَساكرُ المنصورةُ ركِبُوا في آثارِهم، فهربُوا منهم، فقتَلُوا خلْقًا كثيراً منهم، وغَنِمَ المُسْلِمونَ منهم غَنيمةً جيِّدَةً.

وفيها: قُتِلَ صاحبُ الجزيرَةِ، وكان من أسْوإِ الناسِ سيرةً، وأرْدَاهم سريرَةً، وهو المَلِكُ سَنْجَرْ شَاه ابنُ غازِي بن مودود بن زَنْكي بن آق سُنْقر الأتابكيُّ، وكان ابنَ عمِّ نُورِ الدينِ صاحبِ المَوْصِلِ، وكان الذي تولَّى قتْلَه ولَدُه غازِي، توَصَّلَ إليه حتى دخَل عليه وهو في الخَلاءِ سَكْرانُ، فضربَه بسكِّينٍ أرْبَعَ عشْرَةَ ضربَةً، ثم ذبَحه، وذلكَ كلُّه ليأْخُذَ المُلْكَ من بعدِه، فحرَمَه اللَّهُ ذلك، فبُويِعَ بالمُلْكِ لأخيهِ محمودٍ، وأُخِذَ غازِي هذا العاقُّ لوالدِه فقُتِل من يومِه، فسَلَبَه اللَّهُ المُلْكَ والحياةَ، ولكنْ أراحَ اللَّهُ المسلمينَ من ظُلْمِ أبيه وغشْمِه وفسقِه، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها أيضًا:

أبو الفتْح محمدُ بنُ أحمدَ بن بَخْتِيارَ بنِ عليِّ بنِ محمد بن إبراهيمَ بن جعفر الواسطيُّ المعْروفُ بابنِ المَنْدائيِّ، آخرُ مَن روَى مسندَ الإمامِ أحمدَ عن ابنِ الحُصَيْنِ، وكانَ من بيتِ فِقْهٍ وقضاءٍ وديانةٍ، وكان ثِقَةً عدْلاً مُتورِّعًا في النَّقْلِ، ومما أنْشَده من حفْظِه:

ولو أنَّ ليْلَى مَطْلِعُ الشمسِ دونَها ... وكنتُ وراءَ الشمسِ حينَ تغيبُ
لحدَّثتُ نفْسي بانتظارِ نَوالِها ... وقالَ المُنَى لي إنها لقريبُ

قاضِي القُضاةِ بالديارِ المصرية صَدْرُ الدِّينِ عبدُ الملك بنُ درباسٍ المارانيُّ الكُرْديُّ.

* * *

ثم دخلت سنة ست وستمائة

في المحرَّم وصَل نَجْمُ الدين خَليلٌ شيخُ الحَنَفية من دمشقَ إلى بغدادَ في الرَّسْليّة عن العادل، ومعه هَدايا كثيرةٌ، وتَناظَر هو وشيخُ النِّظامية مَجْدُ الدينِ يَحْيَىٰ بنُ الربيعِ في مسألة وجوب الزكاةِ في مالِ اليَتيمِ والمجنونِ، وأخَذ الحَنَفيُّ يَسْتَدِلُّ على عدمِ وجوبِها، فاعْتَرَض عليه الشافعيُّ، فأجاد كلٌّ منهما في الذي أوْرَدَه، ثم خُلِع على الحنفيِّ وأصحابِه بسببِ الرسالة، وكانت المُناظَرةُ بحَضْرةِ نائبِ الوزيرِ ابنِ أمسينا.

وفي يوم السبتِ خامسِ جُمادَىٰ الآخرةِ وصَل الجَمَالُ يونُسُ بنُ بَدْرانَ المِصْريُّ رئيسُ الشافعية بدمشقَ إلى بغدادَ في الرَّسْلِيّةِ عن الملكِ العادلِ، فتلقَّاه الجيشُ مع حاجبِ الحُجَّاب، ودخَل معه ابنُ أخي صاحب إرْبِلَ مُظَفَّرِ الدينِ كُوكُبُري، والرسالةُ تَتَضَمَّنُ الاعْتذارَ عن صاحبِ إرْبِلَ، والسؤالَ في الرِّضَا عنه، فأُجيب إلى ذلك.

وفيها: مَلَكَ العادلُ الخابورَ ونَصِيبِينَ، وحاصَر مدينةَ سِنْجارَ مدةً، فلم يَتَمَكَّنْ منها، ثم صالحَ صاحبَها، ورجَع عنها.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من المشاهير والأعْيان:

القاضي الأسعدُ بنُ مَمَّاتي: أبو المكارمِ أسعدُ بنُ الخَطيرِ أبي سعيد مُهَذَّب ابنِ مينَا بن زكريا بن أبي قُدامةَ بن أبي مَليحٍ مَمَّاتي المصريُّ[1] الكاتبُ الشاعرُ، أسْلَم في الدولةِ الصَّلاحيَّة، وتولَّى نظَرَ الدَّواوينِ بمصرَ مدةً.

قال ابنُ خَلِّكان: له فَضائلُ عَديدة، ومُصَنَّفاتٌ كثيرةٌ، ونظَم سيرة صلاح الدينِ وكتابَ «كَليلة ودِمْنة»، وله ديوانُ شعرٍ، ولما تولَّى الوزيرُ ابنُ شُكْرٍ هرَب منه إلى حلبَ، فمات بها في هذه السنة وله ثنتان وستون سنةً، فمِن شعرِه في ثَقيلٍ رآه بدمشقَ:

حكى نهرَيْن ما في الأرضِ مَن يَحْكيهما أبدًا
حكى في خَلْقِه ثَوْرَى وفي أخلاقِه بَرَدَى

أبو يعقوبَ يوسفُ بنُ إسماعيلَ بن عبدِ الرحمن بن عبد السلام اللَّمْغانيُّ، أحدُ الأعيانِ من الحَنَفية ببغدادَ، سمع الحديثَ، ودرَّس بجامعِ السلطانِ، وكان مُعْتَزليًّا في الأصولِ بارعًا في الفروع، اشْتَغل على أبيه وعمِّه، وأتْقَن الخلافَ وعلمَ المُناظَرة، وقارَب التسعين، رحمه اللَّهُ.

أبو عبدِ اللَّه محمدُ بنُ محمد بن الحسينِ، المعروفُ بابنِ الخُراسانيِّ، المُحَدِّثُ الناسخُ، كتَب كثيرًا

---

(١) ترجمته في «السير» (٢١/ ٤٨٥-٤٨٦).

من الحديث، وجمع خُطَبًا له ولغيره، وخطُّه جيدٌ مشهورٌ، رحمه اللهُ تعالى.

أبو المَواهب مَعْتوقُ بنُ مَنيع بن مَواهبَ، الخطيبُ البَغْداديُّ، قرأ النحوَ واللغةَ على ابنِ الخَشّابِ، وجمَع خُطَبًا كان يَخْطُبُ منها، وكان شيخًا فاضلاً أديبًا، له ديوانُ شعر، فمنه قولُه:

ولا تَرْجُو الصَّداقةَ من عدوٍّ ... يُعادي نفسَه سرًّا وجَهْرا
فلو أجْدَتْ مَوَدّتُه انتفاعًا ... لَكان النَّفْعُ منه إليه أحْرى

ابنُ خَرُوف شارحُ «كتاب سيبَوَيْه»: عليُّ بنُ محمد بن يوسُفَ، أبو الحسن ابنُ خَرُوف الأنْدَلُسيُّ النَّحْويُّ، شرَحَ «سيبَوَيْه»، وقدَّمه إلى صاحبِ المغرب فأعْطاه ألفَ دينار، وشرَح «جُمَلَ الزَّجَّاجي»، وكان ينتقلُ في البلادِ، ولا يَسْكُنُ إلا في الخاناتِ، ولم يتزوَّجْ قطُّ ولا تَسَرَّى، وقد تغيَّر عقلُه في آخرِ عمرِه، فكان يمشي في الأسْواقِ مَكْشوفَ الرأسِ. وكانت وفاتُه في هذه السنة عن خمسٍ وثمانين سنةً.

أبو عليٍّ يَحْيَى بنُ الربيع بن سليمانَ بن حرَّاز الواسطيُّ ثم البغداديُّ، اشْتَغَل بالنِّظاميةِ على ابنِ فَضْلانَ، وأعاد عنده، وسافَر إلى محمدِ بن يحيى، فأخَذ عنه طريقتَه في الخلافِ، ثم عاد إلى بغدادَ، ثم صار مُدَرِّسًا بالنِّظامية، وناظرًا في أوقافِها، وقد سمع الحديثَ، وكانت لديه علومٌ كثيرةٌ، ومعرفةٌ حسنةٌ بالمذهبِ، وله تفسيرٌ في أربعِ مُجَلَّداتٍ كان يُدَرِّسُ منه، واختصر «تاريخَ الخطيب» و«الذَّيْل» عليه لابنِ السَّمْعانيِّ، وقارَب الثمانين. رحمه اللهُ تعالى.

ابنُ الأثير صاحبُ «جامع الأُصول» و«النِّهاية»: المُبارَكُ بنُ محمد بن محمد بن عبد الكَريم بن عبد الواحد، مَجْدُ الدين أبو السَّعادات الشَّيْبانيُّ الجَزَريُّ الشافعيُّ المعروفُ بابن الأثير[1]، وهو أخو الوزيرِ الأفضلِ ضياءِ الدينِ نصرِ اللهِ، وأخو الحافظ عزِّ الدين أبي الحسنِ عليٍّ صاحبِ «الكامل في التاريخ». وُلد أبو السَّعادات المبارَكُ في أحدِ الرَّبيعَيْن سنةَ أربعٍ وأربعين وخمسمائة، وسمع الحديثَ الكثيرَ، وقرأ القرآنَ الكريم، وأتْقَن علومَه وحَرَزَ علومًا جَمَّةً، وكان مُقامُه بالمَوْصِل، وقد جمَع في سائرِ العلوم كُتُبًا مُفيدةً، منها: «جامعُ الأُصول» السِّتة؛ «المُوطَّأ» و«الصَّحيحان» و«سنن أبي داود» و«النَّسائيّ» و«التِّرْمذي»، ولم يَذْكُر «ابنَ ماجه» فيها، وله كتابُ «النِّهاية في غريب الحديث»، وله «شرحُ مسندِ الشافعيِّ» و«التَّفسيرُ» في أربعِ مُجلَّدات، وغيرُ ذلك في فُنونٍ شتَّى.

وكان، رحمه اللهُ، مُعَظَّمًا عندَ مُلوك المَوْصِلِ، فلما آل الملكُ إلى نورِ الدين أرْسَلان شاه بنِ مَسْعودِ بنِ مودودِ بنِ زَنْكي، أرْسَل إليه مَمْلوكَه لُؤْلُؤًا يَعرِضُ عليه أن يَسْتَوْزِرَه فأبَى، فركب السلطانُ إليه بنفسه فامْتَنع أيضًا، وقال له: قد كَبِرَت سِنِّي، واشْتَهَرْتُ بنَشْرِ العلم، ولا يَصلُحُ هذا الأمرُ إلا بشيءٍ من العَسْفِ والظلم، ولا يَليقُ بي ذلك. فأعْفاه.

(١) ترجمته في «السير» (٢١/ ٤٨٨ - ٤٩١).

قال أبو السَّعادات : كنتُ أقرأُ علمَ العربيةِ على سعيدِ بن الدَّهَّان، وكان يأمُرُني بصَنعة الشعرِ، فكنتُ لا أَقْدِرُ عليه، فلما تُوُفِّي الشيخُ رأيتُه في بعضِ الليالي، فأمَرني بذلك، فقلتُ : ضَعْ لي مثالاً أَعْمَلُ عليه . فقال :

جُبِ الفلا مُدْمِنًا إنْ فاتَك الظَّفَرُ

فقلتُ أنا :

وخُدَّ خَدَّ الثَّرَى والليلُ مُعْتَكِرُ

فالعِزُّ في صَهَواتِ الخيل مَرْكَبُهُ والمجدُ يُنْتِجُه الإسْراء والسَّهَرُ

فقال : أحْسَنْتَ . ثم استَيْقَظْتُ، فأتمَمْتُ عليها نحواً من عشرين بيتًا . كانت وفاتُه في سَلْخ ذي الحجَّة من هذه السنة عن ثنتين وستين سنةً، رحمه اللهُ . وقد ترْجَمه أخوه في«الكامل» فقال : كان عالمًا في عِدَّةِ علوم؛ منها الفقهُ وعلمُ الأُصولِ والنحوُ والحديثُ واللغةُ، وله تصانيفُ مَشْهورةٌ في التَّفْسيرِ والحديثِ والفقهِ والحسابِ وغريبِ الحديث، وله رَسائلُ مُدَوَّنَةٌ، وكان كاتبًا مُفْلِقًا يُضْرَبُ به المثَلُ، ذا دينٍ متينٍ ولُزومِ طريقٍ مُستقيمٍ، رحمه اللهُ ورضي عنه، فلقد كان من مَحاسنِ الزمانِ .

قال ابنُ الأثير: وفيها توفي:

المجدُ المُطَرِّزيُّ النحويُّ الخُوارَزْميُّ، كان إمامًا في النحوِ، له فيه تَصانيفُ حَسَنَةٌ .

قال أبوشامة:**وفيها : تُوُفِّي الملكُ المُغيثُ فَتحُ الدين عمرُ بنُ الملك العادل،** ودُفِن بتُرْبة أخيه المُعَظَّم بسَفْح قاسيُونَ .

والملكُ المُؤيَّدُ مسعودُ بن صلاح الدين بمدينة رأسِ العينِ، فحُمِل إلى حلبَ، فدُفِن بها .

وفيها تُوفي الفخرُ الرازيُّ المتكلِّمُ، صاحبُ التفسير والتصانيف :محمد بن عمرَبن الحسين بن عليٍّ القرشيُّ التَّيميُّ البَكْريُّ الإمامُ، أبو عبد الله وأبو المعالي والمعروفُ بالفخر الرازيِّ[1] ، ويقالُ له : ابنُ خَطيبِ الرَّيِّ . الفقيهُ الشافعيُّ أحدُ المشاهيرِ بالتَّصانيفِ الكبارِ والصِّغارِ نحوٍ من مائتيْ مُصَنَّف ؛فمن ذلك«التفسير» الحافلُ و«المطالب العاليةُ» و«المباحث المشْرقيَّة» و«الأربعين» و«شرح الإشارات» وغيرُها في علم الكلام ومذاهب الأوائل وأقوال الناسِ، وله في أصول الفقه«المَحْصولُ» وغيرُه، وصنَّف ترجمة الشافعي في مُجَلَّدٍ مفيدٍ ، وفيه غرائبُ ، ويُنْسَبُ إليه أشياءُ عَجيبة وقد استقصيت ترجمته في «طبقات الشافعية» وقد كان معظمًا عند ملوك الخوارزمية . وغيرهم، وبنيَت له مَدارسُ كثيرةٌ في بُلدانٍ شَتَّى، وملَك من الذهب العَيْنِ ثمانين ألفَ دينارٍ، وغيرَ ذلك من الأمْتعة والمراكب والأثاثِ والملابسِ، وكان له خمسون مَمْلوكًا من التُّرك، وقد كان يعقدُ مجلسَ الوعظ فيَحْضرُ عندَه

---

(١) ترجمته في «السير» (٢١/ ٥٠٠).

المُلوكُ والوُزراءُ والعلماءُ والأُمراء والفُقهاءُ والعامَّةُ والغَوْغاءُ.

وكانت له عبادات وأوراد، وقد وقع بينه وبين الكرَّامية في أوقات شتى فكان يُبغضُهم ويُبغضُونه ويبالغُ في ذمِّهم ويُبالغون في الحَطِّ عليه، وقد ذكَرْنا طرَفًا من ذلك فيما تقدَّم، وكان مع غَزارة علمه وتَبَحُّره في فنِّ الكلام يقولُ: مَن لزِم مذهَبَ العَجائز كان هو الفائزَ. وقد ذكرْتُ وصيَّته عندَ موته، وأنه رجَع فيها إلى طريقة السَّلَف وتسليم ما ورَد على الوجه المراد اللائق بجَلال اللَّه تعالى.

وقال الشيخُ شهابُ الدين أبو شامَة في «الذيل» في ترجمته: كان يَعظُ ويَنالُ من الكرَّامية، ويَنالون منه سبًّا وتكفيرًا، وقيل: إنهم وضَعوا عليه مَن سَقاه السمَّ فمات ففرِحوا بموته، وكانوا يَرمُونه بالكبائر. قال: وكانت وفاتُه في ذي الحجَّة ولا كلامَ في فضله، وإنما الشَّناعاتُ عليه قائمةٌ بأشياءَ منها؛ أنه كان يقولُ: قال محمدٌ التازيُّ يعني العربي، يُريدُ النبي ﷺ.

وقال محمد الرازيُّ يعني نفسَه، ومنها أنه كان يُقَرِّرُ الشُّبهةَ من جهة الخُصوم بعبارات كثيرة، و يُجيب عن ذلك بأدنى إشارة. قال: وبلَغني أنه خلَّف من الذهب العين ثمانين ألفَ دينار غيرَما كان يَملكه من الدَّوابِّ والثياب والعقار والآلات وخلَّف ولدَين، أخَذ كلُّ واحد منهما أربعين ألفَ دينار. وكان ابنُه الأكبر قد تجنَّد في حياته وخدم السلطانَ محمدَ بنَ تكش.

وقال ابن الأثير في «الكامل»: وفيها: تُوفِّي فخرُ الدين أبو الفضل محمدُ بنُ عمرَ بن خَطيب الرَّيِّ، الفقيه الشافعيُّ صاحبُ التَّصانيف المَشْهورة في الفقه والأصولين وغيره، وكان إمامَ الدنيا في عصره. وبلَغَني أن مولدَه سنةَ ثلاث وأربعين وخمسمائة. ومن شعره قولُه:

إليك إلهَ الخلْق وَجْهي ووجْهتي ... وأنت الذي أدعُوكَ في السرِّ والجَهْر
وأنت غِياثي عندَ كلِّ مُلمَّة ... وأنت مَعاذي في حَياتي وفي قَبْري

وروَى ذلك ابنُ الساعي عن ياقوت الحَمَويِّ، عن ابن لفخر الدين عنه، وبه قال: أنشدنا:

تَمَّتْ أبواب السَّعادة للخَلْق ... بذكْر جَلال الواحد الأحد الحقِّ
مُدبِّر كلِّ المُمْكنات بأسْرها ... ومُبْدعها بالعَدل والقَصْد والصِّدْق
أُجِلُّ جَلالَ اللَّه عن شَبْه خلْقه ... وأنصرُ هذا الدين في الغرب والشرق
إلهٌ عظيمُ الفضْل والعَدلَ والعُلاَ ... هو المرشدُ المُغْوي هو المُسْعِدُ المُشْقي

ومما كان يُنشدُه في بعض مصنَّفاته:

نهايةُ إقْدام العُقول عِقالُ ... وأكثرُ سَعْي العالَمين ضلالُ
وأرْواحُنا في وَحْشة من جُسومنا ... وحاصلُ دُنْيانا أذًى ووَبالُ
ولم نَسْتَفدْ من بحثنا طولَ عمرِنا ... سوى أنْ جمَعْنا فيه قيلَ وقالوا

ثم يقولُ: لقد اختَبَرْتُ الطُّرُقَ الكلاميةَ والمَناهجَ الفلسفيةَ فلم أجِدْها تَرْوي غليلاً ولا تَشْفي عَليلاً، ورأيتُ أقربَ الطرقِ طريقةَ القرآن، أقْرأُ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وفي النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

ذكَر الشيخُ شهابُ الدينِ في «الذيلِ» أن في هذه السنة تمَالأت مُلوكُ الجزيرة؛ صاحبُ الموصلِ وصاحبُ سنجارَ وصاحبُ إرْبِلَ ومعهم ابنُ أخيه الظاهرُ صاحبُ حلَبَ وملكُ الرومِ أيضًا، على مُخالفةِ العادلِ ومُنابَذتِه ومُقاتَلته واصْطِلامِ الملكِ مِن يده، وأن تكونَ الخطْبة في بلادهم بذلك للملك كيخُسرو بن قليج أرسَلان صاحب الروم، وأرسَلوا إلى الكُرْجِ ليَقْدَموا لحصار خلاطَ وأخذها من يدِ الملك الأوْحدِ نجمِ الدينِ أيوبَ بنِ العادلِ، ووعَدهم النصرَ والمُعاونةَ عليه ـ قلتُ: وهذا بَغيٌ وعُدْوانٌ يَنْهَى اللّهُ عنه ـ فأقْبَلت الكُرْجُ بملكهم إيواني، فحاصَروا خلاطَ، فضاق بهم الأوحَدُ ذَرْعاً، وقال: هذا يومٌ عَصيبٌ. فقدَّر اللّهُ تعالى أن في يوم الإثنين تاسعَ عشَرَ ربيعِ الآخِرِ اشْتَدَّ حصارهم للبلدِ، وأقبَل ملكُهم إيواني وهو راكبٌ على جَواده وهو سكْرانُ، فسقَط به جَواده في بعضِ الحُفَرِ التي قد أعدَّت مَكيدة حولَ البلدِ، فبادَر إليه رجالُ البلدِ، فأخَذوه أسيراً حَقيراً، فأُسْقِط في أيدي الكُرْجِ، فلما أوقف بينَ يدي الأوحد أطْلَقه ومنَّ عليه، وأكرمه وأحْسَن إليه، وفاداه على مائتيْ ألف دينارٍ وألفَي أسير من المسلمين، وتَسْليمِ إحدى وعشرين قَلْعةً مُتاخمة لبلادِ الأوْحد، وأن يُزَوِّجَ ابنتَه من أخيه الملكِ الأشرفِ موسى، وأن يكونَ عَوْناً له على مَن يُحاربه. فأجابه إلى ذلك كلِّه، فأُخِذَت الأيمانُ منه بذلك، وبعَث الأوحدُ إلى أبيه يَسْتأذنُه في ذلك كلِّه، والعادل نازلٌ بظاهرِ حرّانَ في أشدِّ حيرةٍ مما قد دهَمه مِن الأمرِ الفَظيع، فبينَما هو كذلك إذ أتاه هذا الأمرُ الهائلُ والتدبيرُ من عزيزٍ حكيمٍ، لم يكنْ في باله ولا في حسابه، فكاد يَذْهَلُ فرحاً وسروراً، وأجاز جميعَ ما فعَله ولدُه، وطارَت الأخبارُ بما وقع بينَ الملوك، فخضَعوا وذلُّوا عندَ ذلك، وأرْسَل كلٌّ منهم يَعْتَذِرُ مما نُسب إليه، ويُحيلُ على غيره، فقبل منهم اعْتذاراتِهم، وصالَحهم صلحاً أكيداً، واسْتَقْبَل الملكُ عقداً جديداً. ووفَّى ملكُ الكُرْجِ للأوحدِ بجميع ما شرَطه عليه، وتزوَّج الأشرفُ ابنتَه. ومن غريب ما ذكَره الشيخُ أبو شامَةَ في هذه الكائنة أن قِسِّيسَ الملكِ كان حَزّاءً يَنْظُرُ في النجوم، فقال للملكِ قبلَ ذلك بيوم: اعْلَمْ أنك تَدْخُلُ غداً إلى قَلْعةِ خلاطَ ولكن بزيٍّ غيرِ زيِّك أذانَ العصرِ. فوافَق دخوله إليها أسيراً وقتَ أذانِ العصرِ.

ذكرُ وفاة صاحب الموصل نور الدين[1]

أرسَل الملكُ نُورُ الدين شاه بنُ عزِّ الدينِ مسعودِ بنِ قُطْبِ الدِّينِ مَودودِ بنِ زَنْكي صاحبُ المَوْصِلِ يَخطُبُ ابنةَ السلطانِ الملكِ العادلِ. وأرْسل وكيلَه لقَبولِ العَقدِ على ثلاثين ألفَ دينارٍ. فاتَّفَق موتُ نورِ الدينِ ووكيله في أثناءِ الطريقِ، فعُقِد العَقدُ بعدَ وفاته، رحمه اللَّهُ، وقد أثْنَى عليه ابنُ الأثيرِ في «كامله» كثيراً وشكَر منه ومن عدله وشَهامته، وهو أعلمُ به، وذكر أن مدةَ مُلْكه سبعَ عشْرةَ سنةً وأحدَ عشَرَ شهراً. وأمَّا أبو المُظفَّرِ السِّبْطُ فإنه قال: كان جباراً ظالماً بَخيلاً سَفَّاكاً للدماء. فاللَّهُ أعلمُ. وقام في الملك من بعده ولدُه القاهرُ عزُّ الدينِ مسعودٌ، وجعَل لابنه عمادِ الدينِ زَنْكي وكان الأصغرَ بعض البلادِ، وجعَل تَدْبيرَ مَملكته إلى غُلامه بدرِ الدينِ لُؤلؤٍ الذي صار الملكُ إليه فيما بعدُ كما سيأتي.

قال أبو شامة: وفي سابعِ شوالٍ شُرِع في عمارة المُصلى؛ بُني له أربعُ جُدُرٍ مُشْرِفةٍ، وجُعِل له أبوابٌ صَوْناً لمكانه من الميتاتِ ونزولِ القَوافلِ، وجُعِل في قِبْلته محرابٌ من حجارةٍ ومنبرٌ من حجارةٍ، وعُقِدَت فوق ذلك قُبَّةٌ، ثم في سنة ثلاثَ عشْرةَ عُمِل في قبلته رواقان، وعُمِل له منبرٌ من خشبٍ، ورُتِّب له خَطيبٌ راتبٌ وإمامٌ راتبٌ، ومات العادلُ ولم يَتِمَّ الرِّواقُ الثاني منه، وذلك كله على يدِ الوزيرِ صفيِّ الدينِ بنِ شُكْرٍ. قال: وفي حادي عشرَ شوال من هذه السنة جُدِّدَت أبوابُ الجامعِ الأمويِّ من ناحيةِ بابِ البَريدِ بالنُّحاسِ الأصفرِ، ورُكِّبَت في أماكنها.

وفي شوال أيضاً شُرع في إصلاحِ الفَوَّارةِ والشاذَرْوانِ والبِرْكةِ وعُمِل عندَها مسجدٌ، وجُعِل له إمامٌ راتبٌ، وأولُ من تولَّاه رجلٌ يقالُ له: النفيسُ المِصْريُّ. وكان يقال له: بُوقُ الجامعِ. لطيبِ صوته إذا قرأ على الشيخِ أبي منصور الضَّريرِ المُصَدَّرِ، فيَجْتمعُ عليه الناسُ الكثيرُ.

وفي ذي الحِجَّة من هذه السنة توَجَّهَت مَراكبُ من عكَّا في البحرِ إلى ثَغرِ دِمْياطَ وفيها ملكُ قُبْرُصَ المُسَمَّىَ البالَ، لعنه اللَّهُ، فدخَل الثَّغرَ ليلاً، وأغار على بعضِ البلادِ، فقتَل وسبَى وغنم، وكرَّ راجعًا، فركِب مَراكبَه، فلم يُدْرِكْه الطَّلَبُ. وقد تقَدَّمَت له سابقةٌ بمثلها قبلَ هذه، وهذا شيءٌ لم يَتَّفِقْ لغيره.

وفي هذه السنة عاثَت الفرنْجُ بنَواحي القدسِ الشريفِ، فبرزَ إليهم الملكُ المُعَظَّمُ في عساكره، وجلَس الشيخُ شمسُ الدينِ أبو المُظَفَّرِ بنُ قِزُغْلي الحَنَفيُّ، وهو سِبْطُ الشيخِ أبي الفرجِ ابنِ الجوزيِّ ابنُ ابنته رابعةَ، وهو صاحبُ «مرآة الزمان» وكان فاضلاً في فنونٍ كثيرةٍ، حسَنَ الشَّكْلِ، طيبَ الصوتِ، وكان يَتَكلَّمُ في الوَعْظِ جيدًا، وتُحبُّه العامَّةُ على صيتِ جَدِّه، وقد رحَل من بغدادَ، فنزَل دمشقَ

---

(١) راجع ترجمته في «السير» (٢١/ ٤٩٦ - ٤٩٧).

وأكرمه ملوكها، وولي التداريس الكبار بها، وكان يجلس كل يوم سبت عند باب مشهد علي زين العابدين إلى السارية التي يجلس عندها الوعاظ في زماننا هذا، فكان يكثر الجمع عنده حتى يكونوا من باب الناطفانيين إلى باب المشهد وإلى باب الساعات غير الوقوف، فحزر جمعه في بعض الأيام بثلاثين ألفًا من الرجال والنساء، وكان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع في الصيف - ويتركون البساتين والفرح - في ختمات وأذكار لتحصيل الأماكن بميعاده، فإذا فرغ من وعظه خرجوا إلى بساتينهم، وليس لهم كلام إلا فيما قال يومهم ذلك. ويحضر عنده الأكابر، حتى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندي كان يجلس في القبة التي عند باب المشهد هو ووالي البلد المعتمد ووالي البر ابن تميرك وغيرهم. فلما جلس يوم السبت خامس ربيع الأول بالجامع - كما ذكرنا - حث الناس على الجهاد، وأمر بإحضار ما كان قد تحصل عنده من شعور التائبين، وقد عمل منه شكالات يحملها الرجال، فلما رآها الناس ضجوا ضجة واحدة، وتباكوا بكاء كثيرًا، وقطعوا من شعورهم نحوها، فلما انقضى المجلس، نزل عن المنبر، فتلقاه الوالي مبارز الدين المعتمد إبراهيم، وكان من خيار الناس، فمشى بين يديه إلى باب الناطفانيين يعضده حتى ركب فرسه، والناس بين يديه ومن خلفه، فخرج من باب الفرج وباب المصلى، ثم ركب من الغد في الناس إلى الكسوة، ومعه خلائق كثيرون بنية الجهاد ببلاد القدس، وكان من جملة من معه ثلاثمائة من أهل زملكا بالعدد التامة. قال: فجئنا عقبة أفيق، والطير لا يتجاسر أن يطير من خوف الفرنج، فلما وصلنا نابلس تلقانا المعظم. قال: ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك، فلما رأى الشكالات من شعور التائبين جعل يقبلها، ويمرغها على وجهه ويبكي. وعمل أبو المظفر ميعادًا بنابلس، وحث على الجهاد، وكان يومًا مشهودًا، ثم ساروا صحبة المعظم إلى ناحية بلاد الفرنج، فقتلوا خلقًا، وخربوا أماكن كثيرة، وغنموا وعادوا سالمين، وشرع المعظم في تحصين جبل الطور وبناء قلعة فيه؛ ليكون ألبًا على الفرنج، فغرم أموالًا كثيرة في ذلك، فبعث الفرنج إلى العادل يطلبون منه الأمان والمصالحة، فهادنهم وبطلت تلك العمارة، وضاع ما كان المعظم غرم عليها.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ أبو عمر باني المدرسة بسفح قاسيون للقراء، رحمه الله.

محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، الشيخ الصالح أبو عمر المقدسي، باني المدرسة التي يقرأ فيها القرآن بسفح قاسيون، وهو أخو موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، وكان الشيخ أبو عمر أسن منه؛ لأنه ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بقرية الساويا، وقيل: بجماعيل. وهو ربى الشيخ موفق الدين، وأحسن إليه وزوجه، وكان يقوم بمصالحه، وهو الذي قدم بهم من تلك البلاد فنزلوا بمسجد أبي صالح ثم انتقلوا منه إلى السفح، وليس به من العمارة سوى دير الحوراني، قال: فقيل لنا: الصالحيون. نسبة إلى مسجد أبي صالح، لا أنا صالحون، وسميت هذه البقعة من ذلك

الحين بالصالحيَّة نسبةً إلينا. فقرأ الشيخُ أبو عمر القرآنَ على رواية أبي عمرو، وحفظ «مُختصر الخِرَقي» في الفقه، وهو الذي شرَحه أخوه، فكتَب شرحَه بيده، وكتَب «تفسيرَ البغوي»، و«الحلْيَةَ» لأبي نُعيم، و«الإبانَة» لابن بَطَّةَ، وكتَب مَصاحفَ كثيرةً للناسِ ولأهلِه لا بأُجرةٍ، وكان كثيرَ العبادةِ والتَّهجُّدِ، يَصومُ الدهرَ، حسنَ الشكلِ، نحيلَ الجسمِ، عليه أنوارُ العبادةِ، لا يَزالُ مُتبسِّمًا، وكان يَقرأُ كلَّ يومٍ سُبْعًا بينَ الظهرِ والعصرِ، ويُصلِّي الضُّحىٰ ثماني ركَعاتٍ يَقرأُ فيهن ألفَ مرةٍ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وكان يَزورُ مَغارةَ الدمِ في كلِّ يومِ اثنينِ وخميسٍ، ويَجمَعُ في طريقه الشِّيحَ، فيُعطِيه الأراملَ والمَساكينَ، ومهما تهيَّأ له من فُتوحٍ وغيرِه يُؤْثِرُ به أهلَه والمَساكينَ، وكان مُتقلِّلاً في المَلْبَسِ، وربما مضَت عليه مدةٌ لا يَلْبَسُ فيها سَراويلَ ولا قميصًا، ويَقْطَعُ من عمامته قطَعًا يَتَصدَّقُ بها، أو في تكْميلِ كفَنِ مَن يعوزُ كفنُه، وكان هو وأخوه وابنُ خالِهم الحافظُ عبدُ الغنيِّ وأخوه الشيخُ العمادُ لا يَنقَطِعون عن غَزاةٍ يَخرُجُ فيها الملكُ صلاحُ الدينِ إلى بلادِ الفِرنجِ، وقد حضَروا معه فتحَ القدس الشريفِ وغيرِها، وجاءَ الملكُ العادلُ أبو بكرٍ يومًا إلى خَيمتِهم لزيارةِ الشيخِ أبي عمرَ، وهو قائمٌ يُصلِّي، فما قطَع صلاتَه ولا أوْجَزها، بل استَمَر فيها، وهو الذي شرَع في بناء الجامعِ أولاً بمالِ رجلٍ من الناسِ فنفد ما كان بيدِه، وقد ارْتَفع البناءُ قامَةً، فبعَث صاحبُ إرْبِلَ الملكُ المُظفَّرُ كُوكُبُري مالاً فكمَل، ووَلِي خَطابتَه الشيخُ أبو عمرَ، فكان يَخطُبُ به وعليه لِباسُه الضَّعيفُ، وعليه أنْوارُ الخَشْيةِ والتَّقوىٰ، وإنما كان المنبرُ الذي فيه ثلاثَ مَراقٍ، والرابعةُ للجُلوسِ كما كان المِنْبرُ النبويُّ.

وقد حكىٰ أبو المُظفَّرِ أنه حضَر يومًا عندَه الجمُعةَ، وكان الشيخُ عبدُ اللَّهِ اليُونينيُّ حاضرًا هناك، فلما انْتَهىٰ الشيخُ أبو عمرَ إلى الدعاء للسلطان قال: اللهم أَصْلِحْ عبدَك الملكَ العادلَ سيفَ الدينِ أبا بكرِ بنَ أيوبَ. فنهَض الشيخُ عبدُ اللَّهِ وترَك الجمُعةَ، فلما فرَغْنا ذَهَبْتُ إليه فقلتُ له: ماذا نقَمْتَ؟ فقال: يقولُ لهذا الظالمِ: العادلَ؟! فبينَما نحن في الحديثِ إذ أقْبَل الشيخُ أبو عمرَ ومعه رَغيفٌ وخِيارتان، فكسَر ذلك وقال: الصلاةُ. ثم قال: قال النبيُّ ﷺ: «بُعثتُ في زمنِ الملك العادلِ كسرَى»[1]. فتبَسَّم الشيخُ عبدُ اللَّهِ، ومدَّ يدَه فأكَل، فلمَّا قام الشيخُ أبو عمرَ قال لي: يا سيدَنا، ما ذا إلا رجلٌ صالحٌ. قال الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامةَ: كان الشيخُ عبدُ اللَّهِ من الصالحين الكبارِ، وقد رأيْتُه، وكانت وفاتُه بعدَ أبي عمرَ بعشرِ سنين، فلم يُسامحِ الشيخَ أبا عمرَ في تَساهُلِه مع وَرَعِه، ولعله كان مُسافِرًا لا جمعةَ عليه، وعُذْرُ الشيخِ أبي عمرَ أن هذا قد جرَىٰ مَجْرَىٰ الأعلامِ؛ العادلِ، الكاملِ، الأشرفِ، ونحوِه، كما يقالُ: سالمٌ، وغانمٌ، ومسعودٌ، ومحمودٌ. وقد يَكونُ المسمَّىٰ بذلك على

---

(١) حديث باطل منكر لا أصل له فقد ذكره البيهقي في «الشعب» (٥١٩٥) وقال: «تكلم في بطلان ما يرويه بعض الجهال عن نبينا محمد ﷺ ولدت في زمن الملك العادل يعني أبا شروان وكان شيخنا أبو عبد الله الحافظ وقد تكلم أيضًا في بطلان هذا الحديث ثم رأىٰ بعض الصالحين رسول الله في المنام فحكىٰ له ما قال أبو عبد الله فصدقه في تكذيب هذا الحديث وإبطاله وقال: ما قلته قط» وقد أشار الألباني رحمه الله - في «الضعيف» (٢/ ٤٢٥) إلى أنه باطل لا أصل له.

الضدُّ من هذه الأسماء، وكذلك إطلاقُ العادل ونحوِه قد دخَل إطلاقُه على المشرك، فهذا أولَى.

قلتُ: هذا الحديثُ الذي احتَجَّ به الشيخُ أبو عمرَ لا أصلَ له، وليس هو في شيءٍ من الكتبِ المَشْهورةِ، وعجبًا له ولأبي المُظَفَّرِ، ثم لأبي شامةَ في قَبولِ هذا وأخذِه عنه مُسَلَّمًا! واللَّهُ أعلمُ.

ثم شرَع أبو المُظَفَّرِ في ذكرِ مناقبِ أبي عمرَ وكَراماتِه، وما رآه هو وغيرُه من أحوالِه الصالحةِ، قال: وكان على مذهبِ السَّلَفِ الصالحِ، حسَنَ العقيدةِ، مُتَمَسِّكًا بالكتابِ والسنةِ والآثارِ المَرْويةِ، يُمِرُّها كما جاءَت من غيرِ طَعْنٍ على أئمةِ الدينِ وعلماءِ المسلمين، ويَنْهَى عن صُحْبةِ المُبْتَدِعين، ويَأْمُرُ بصُحْبةِ الصالحين. قال: ربما أنْشَدَني لنفسِه في ذلك:

أُوصيكمُ بالقولِ في القرآنِ ... بقولِ أهلِ الحقِّ والإتقانِ
ليس بمَخْلوقٍ ولا بفانِ ... لكنْ كلامُ المَلِكِ الدَّيّانِ
آياتُه مُشْرِقةُ المعاني ... مَتْلُوَّةٌ للَّهِ باللسانِ
مَحْفوظةٌ في الصدرِ والجَنانِ ... مَكْتوبةٌ في الصُّحْفِ بالبَنانِ
والقولُ في الصِّفاتِ يا إخْواني ... كالذاتِ والعلمُ مع البَيانِ
إمْرارُها من غيرِ ما كُفْرانِ ... من غيرِ تَشْبيهٍ ولا عُطْلانِ

قال: وأنْشَدَني لنفسِه:

ألم يَكُ مَلْهاةً عن اللَّهْوِ أنني ... بدا ليَ شَيْبُ الرأسِ والضَّعْفُ والألمْ
ألمَّ بيَ الخَطبُ الذي لو بَكَيْتُه ... حَياتيَ حتى يَذْهَبَ الدمعُ لم ألُمْ

قال: ومرِضَ أيامًا، فلم يَتْرُكْ شيئًا مما كان يَعْمَلُه من الأوْرادِ، حتى كانت وفاتُه وقتَ السَّحَرِ في ليلةِ الثلاثاءِ التاسعِ والعشرين من ربيعٍ الأولِ، فغُسِّلَ بالدَّيْرِ، وحُمِلَ إلى مَقْبَرتِه في خَلْقٍ كثيرٍ لا يَعْلَمُهم إلا اللَّهُ عز وجل، ولم يَبْقَ أحدٌ من الدولةِ والأمراءِ والعلماءِ والقُضاةِ وغيرِهم إلا حضَر جنازتَه، وكان يومًا مشهودًا، وكان الحرُّ شَديدًا، فأظَلَّت الناسَ سَحابةٌ من الحرِّ كان يُسْمَعُ منها كدَوِيِّ النحلِ، وكاد الناسُ يَنْتَهِبون أكْفانَه، وقد رثاه الشعراءُ بمَراثٍ حَسَنةٍ، ورُئِيَتْ له مَناماتٌ صالحةٌ، رحِمه اللَّهُ، وترَك من الأولادِ ثلاثةَ ذكورٍ؛ عمرُ، وبه كان يُكَنَّى، والشَّرَفُ عبدُ اللَّهِ، وقد وَلِيَ الخَطابةَ بعدَ أبيه، وهو والدُ العِزِّ، وأحمدُ، ولما تُوُفِّيَ الشَّرَفُ عبدُ اللَّهِ صارَت الخَطابةُ لأخيه شمسِ الدينِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي عمرَ، وكان من أولادِ أبيه الذُّكورِ، وكان له من الإناثِ بناتٌ كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] قال: وقبرُه في طريقِ مَغارةِ الجوعِ في الزُّقاقِ المُقابِلِ لدَيْرِ الحَوْرانيِّ، رحِمه اللَّهُ وإيانا.

ابنُ طَبَرْزَدَ شيخُ الحديثِ: عمرُ بنُ محمدِ بنِ مُعَمَّرِ بنِ يحيى المعروفُ بأبي حفصِ بنِ طَبَرْزَدَ البغداديُّ الدارَقَزِّيُّ، وُلِد سنةَ عشرٍ وخمسِمائةٍ، وسمِع الكثيرَ وأسْمَعَ، وكان خَليعًا ظَريفًا ماجِنًا، وكان يُؤَدِّبُ

الصِّبيان بدارِ القزِّ، قدِم مع حنبلِ بنِ عبدِ اللَّهِ المُكبِّرِ إلى دمشقَ، فسمع أهلُها عليهما، وحصَل لهما أموالٌ، وعادا إلى بغدادَ، فمات حنبلٌ سنةَ ثلاثٍ، وتأخَّر هو إلى هذه السنة، فمات فيها وله سبعٌ وتسعون سنةً، وترَك مالاً جيدًا، ولم يكُنْ له وارثٌ إلا بيتُ المالِ، ودُفِن بباب حربٍ.

السلطانُ الملكُ العادلُ أرْسَلان شاه نورُ الدين أبو الحارث أرسلان شاه ابنُ عزِّ الدين مسعود بن قطب الدين مَودود بن زَنْكي صاحبُ الموصلِ، وهو ابنُ أخي نورِ الدينِ الشَّهيدِ، وقد ذكَرْنا مِن سيرتِه في الحوادث ما فيه كفايةٌ، وكان شافعيَّ المذهبِ، ولم يكُنْ بينَهم شافعيٌّ سواه، وبنَى للشافعيةِ مدرسةً عظيمةً بالموصلِ، وبها تُرْبتُه، قال ابنُ خَلِّكانَ: وكانت وفاتُه ليلةَ الأحدِ التاسعَ والعشرين من رجبٍ مِن هذه السنة.

ابنُ سُكَيْنَةَ: عبدُ الوهّابِ بنُ عليٍّ ضياءُ الدِّين أبو محمد المعروفُ بابنِ سُكَيْنَةَ الصُّوفيِّ، كان يُعَدُّ مِن الأبْدال، سمع الكثيرَ، وأسْمعَ ببلادٍ شَتَّى، وكان مولِدُه في سنةِ تسعَ عشْرةَ وخمسمائةٍ، وكان صاحبًا للشيخِ أبي الفرجِ ابنِ الجَوْزيِّ مُلازِمًا لمَجْلِسِه، وكان يومُ جِنازتِه مشهودًا؛ لكثرةِ ما كان فيه مِن الخاصَّةِ والعامَّةِ، رحِمه اللَّهُ تعالى.

مُظَفَّرُ بنُ شاشيرَ الواعظُ الصُّوفيُّ البغداديُّ، وُلِد سنةَ ثلاثٍ وعشرين وخمسمائةٍ، وسمع الحديثَ، وكان يَعِظُ في الأَعْزِيةِ والمساجدِ والقُرَىٰ، وكان ظَرِيفًا مَطْبوعًا، قام إليه إنسانٌ وهو يَعِظُ فقال له فيما بينَه وبينَه: أنا مَريضٌ جائعٌ. فقال: احْمَدْ ربَّكَ فقد عُوفيتَ. واجْتازَ على قَصَّابٍ يَبيعُ لحمًا ضعيفًا، وهو يقولُ: أين مَن حلَف لا يُغْبَنُ؟ فقال له: حتى تُحْنِثَه؟! قال: وعَمِلْتُ مرةً مَجْلِسًا ببَعْقوبَا، فجعَل هذا يَقولُ: عندي للشيخِ نصْفيَّةٌ. وهذا يَقولُ مثلَه، حتى عدُّوا نحوًا مِن خمسين نصْفيةً. فقلتُ في نفسي: اسْتَغْنَيْتُ الليلةَ، فأَرْجِعُ إلى البلدِ تاجرًا. فلما أصْبَحْتُ إذا صُبْرةٌ مِن شَعيرٍ في المسجدِ، فقيل: هذه النُّصافي. وإذا هي مكَيْلَةٌ يُسَمُّونها النِّصافيَ. وعمِلْتُ مرةً مجلسًا بباجِسْرا، فجمَعوا لي شيئًا لا أدْري ما هو، فلما أصْبَحْنا إذا شيءٌ مِن صُوفِ الجَواميسِ وقُرونِها، فقام رجلٌ يُنادي عليها: كم في صوفِ الشيخِ وقرونِه؟ فقلتُ: لا حاجةَ لي بهذا، وأنتم في حِلٍّ منه. ذكَره أبو شامةَ.

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة

اسْتهلَّت والعادلُ مُقيمٌ على الطُّورِ لعِمارةِ حصنِه، وجاءت الأخْبارُ مِن بلادِ المغربِ بأن ابنَ عبدِ المُؤْمنِ قد كسرَ الفرنجَ بطُلَيْطُلَةَ كَسْرةً عظيمةً، وربما فتَح البلدَ عَنْوَةً، وقتَل منهم خلقًا عظيمًا.

وفيها كانت زَلْزلةٌ عظيمةٌ شديدةٌ هدَمَت بمصرَ والقاهرةِ دُورًا كثيرةً، وكذلك بمدينةِ الكَرَكِ والشَّوْبَكِ هدَمَت مِن قَلْعتَيها أبراجًا، ومات خلقٌ كثيرٌ مِن الصِّبْيانِ والنِّسْوانِ تحتَ الهَدْمِ. ورُئِي دُخَانٌ نازلٌ مِن السماءِ إلى الأرضِ فيما بينَ المغربِ والعشاءِ عندَ قبرِ عاتكةَ غربيَّ دمشقَ.

وفيها: أظهَرَت الباطنيةُ الإسلامَ، وأقامَت الحدودَ على مَن يتعاطَى الحَرامَ، وبَنَوا الجوامعَ والمساجدَ، وكتَبوا إلى إخوانِهم بالشام بمصيابَ وأمثالِها بذلك، وكتَب زعيمُهم جَلالُ الدينِ إلى الخليفة يُعلمُه بذلك، وقَدِمت أُمَّةٌ منهم إلى بغدادَ لأجلِ الحجِّ فأُكرِموا وعُظِّموا بسببِ ذلك، ولكن لما كانوا بعرَفاتٍ ظفر واحدٌ منهم على قريبٍ لأميرِ مكةَ قَتادةَ الحسينيِّ، فقتَله ظانًّا أنه قَتادةُ، فثارَت فتنةٌ بينَ سُودانِ مكةَ وركْبِ العراقِ، ونُهِبَ الركْبُ، وقُتِل منهم خَلْقٌ كثيرٌ.

وفيها اشتَرى الملكُ الأشرَفُ جَوْسَقَ الريسِ من النَّيرَبِ من ابنِ عمِّه الظافرِ خَضِرِ بنِ صلاحِ الدينِ، وبناه بناءً حسَنًا، وهو المُسمَّى في زمانِنا بالدهشة.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

الشيخُ عمادُ الدينِ محمدُ بنُ يُونُسَ الفقيه الشافعيُّ المَوْصِليُّ، صاحبُ التَّصانيفِ والفنونِ الكثيرة، كان رئيسَ الشافعيةِ بالموصلِ، وبُعِث رسولاً إلى بغدادَ بعدَ موتِ نُورِ الدينِ أرسَلان، وكان عندَه وَسْوَسةٌ كثيرةٌ في الطَّهارة، وكان يُعاملُ في الأموالِ بمسألةِ العِينة - ولو عكَس الأمرَ لكان خيرًا له - فلقِيه يومًا قَضيبُ البان المُوَلَّهُ، فقال له: يا شيخُ، بلَغَني عنك أنك تَغْسلُ العُضْوَ من أعضائك بأباريقَ من الماء، فلم لا تَسْتَنْظِفُ اللُّقْمةَ التي تأكُلُها ليَسْتَنْظِفَ قَلْبُك وباطنُك؟! ففهِم الشيخُ ما أشار إليه وترَك المعاملةَ، وكانت وفاتُه بالموصلِ في رجبٍ عن ثلاثٍ وسبعين سنةً.

ابنُ حَمْدونَ تاجُ الدينِ أبو سعد الحسنُ بنُ محمد بن حَمْدونَ، ولدُ صاحبِ «التَّذْكرةِ الحَمْدونية»، كان فاضلاً بارعًا، اعتَنَى بجمعِ الكُتبِ المَنسوبةِ وغيرِها، وولَّاه الخليفةُ المارَسْتانَ العَضُديَّ، وكانت وفاتُه بالمَدائنِ، وحُمِل إلى مَقابرِ قريشٍ.

وفيها تُوُفِّي صاحبُ الرومِ خُسْرُوشاه بنُ قِليج أرسلان، وقام بالملكِ بعدَه ولدُه كَيْكاوسُ، فلما تُوُفِّي في سنة خمسَ عشْرةَ ملَك أخوه كَيْقُباذُ.

صارمُ الدينِ بُزْغُشُ العادليُّ، نائبُ القلعةِ بدمشقَ، مات في صفَر، ودُفِن بتُربتِه غربيَّ الجامعِ المُظَفَّريِّ، وهو الذي نفَى الحافظَ عبدَ الغنيِّ المَقْدسيَّ إلى مصرَ، وبينَ يديه كان عَقْدُ المجلسِ، وكان في جملةِ مَن قام عليه ابنُ الزَّكيِّ والخَطيبُ الدَّوْلعيُّ، وقد تُوُفُّوا أربعتُهم وغيرُهم ممَّن قام عليه، واجْتَمَعوا عندَ ربِّهم الحكَمِ العدلِ سبحانَه.

الأميرُ فَخْرُ الدينِ سركسُ، ويقالُ له: جهارْكَسُ. أحدُ أمراءِ الدولةِ الصَّلاحية، وإليه تُنسَبُ قِبابُ سركسَ بالسَّفحِ تُجاه تُرْبةِ خاتون، وبها قبرُه. قال ابنُ خلِّكانَ: وهو الذي بنَى القَيْساريَّةَ الكبرى بالقاهرةِ المَنسوبةَ إليه، وبنَى في أعلاها مسجدًا مُعلَّقًا وربْعًا، وقد ذكَر جماعةٌ من التُّجَّارِ أنهم لم يَرَوْا لها نَظيرًا في البُلْدانِ في حسنِها وعِظَمِها وإحكامِ بنائها. قال: وجهارْكَسُ بمعنى أربعة أنفس.

قلت: وقد كان نائبًا للعادل على بانياسَ وتبنينَ وهونينَ، فلما تُوُفِّي ترك ولدًا صغيرًا، فأقرَّه العادلُ على ما كان يَليه أبوه، وجعَل له مُدبِّرًا وهو الأميرُ صارمُ الدينِ خطلبا التِّبنِينيُّ، ثم استقَلَّ بها بعدَ موت الصبيِّ إلى سنة خمسَ عشرةَ.

الشيخُ الكبيرُ المُعَمَّرُ الرُّحْلَةُ أبو القاسمِ أبو بكرٍ أبو الفتحِ منصورُ بنُ عبدِ المُنْعِمِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ محمدِ ابنِ الفَضلِ الفُرَاوِيُّ النَّيْسابوريُّ، سمع أباه وجدَّ أبيه وغيرَهما، وعنه ابنُ الصَّلاحِ وغيرُه، وكانت وفاتُه بنَيْسابورَ في شَعْبانَ هذه السنةَ عن خمسٍ وثمانين سنةً.

قاسمُ الدينِ التُّرْكُمانيُّ العُقَيْبيُّ، والدُ والي البلدِ، كانت وفاتُه في شوالٍ من هذه السنةِ. واللَّهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة تسع وستمائة

فيها: اجتَمع العادلُ وأولادُه؛ الكاملُ والمُعَظَّمُ والفائزُ بدِمْياطَ من بلاد مصرَ في مُقاتَلة الفرنجِ، فاغتَنَم غَيْبَتَهم سامةُ الجَبَليُّ أحدُ أكابرِ الأمراءِ، وكانت بيده قَلْعةُ عجلونَ وكَوْكَبٍ، فساق مُسْرِعًا إلى الشام ليَسْتَلِمَ البلدين، فأرْسَل العادلُ في إثْرِه ولدَه المُعَظَّمَ صاحبَ الشام فسبَقه إلى القدسِ الشريفِ، وحمَل إليه، فرسَم عليه في كنيسة صِهْيونَ، وكان شيخًا كبيرًا قد أصابه النِّقْرِسُ، فشرَع يَرُدُّه إلى الطاعة بالمُلاطَفة، فلم يَنْفَعْ فيه، فاستَوْلَى على حَواصله وأمْلاكه وأمواله، وأرْسَله فاعتقَله بقلعة الكَرَكِ، وكان قيمةُ ما أخَذ منه قريبًا من ألف ألفِ دينارٍ، من ذلك دارُه وحَمَّامُه داخلَ بابِ السَّلامةِ، ودارُه هي التي جعَلها البادَرائيُّ مَدْرسةً للشافعية، وخرَّب حصنَ كَوْكَبٍ، ونُقِلَت حَواصلُه إلى حصنِ الطُّورِ الذي استَجَدَّه العادلُ وولدُه المُعَظَّمُ.

وفيها: عُزِل الوزيرُ صفيُّ الدينِ بنُ شُكْرٍ، واحْتيط على أمواله ونُفِي إلى الشرقِ، وهو الذي كان قد كتَب إلى الديارِ المِصْرية بنَفْي الحافظِ عبدِ الغنيِّ إلى المغربِ، فتُوُفِّي الحافظُ قبلَ أن يَصِلَ كتابُه، وكتَب اللَّهُ عز وجل بنفيه إلى الشرق.

وفيها: استَوْلَى صاحبُ قُبْرُسَ، لعَنه اللَّهُ، على مدينة أنْطاكيَةَ، فحصَل بسببه شرٌّ عظيمٌ، وتَمَكَّن من الغاراتِ على بلادِ المسلمين، لاسيما على التَّراكمين الذين حولَ بلدة أنْطاكيَةَ؛ قتَل منهم خلقًا كثيرًا، وغنِم من أغنامِهم شيئًا كثيرًا، فقدَّر اللَّهُ عز وجل، أن أمْكَنهم منه في بعضِ الأوْديةِ، فقتَلوه وطافوا برأسه في تلك البلادِ كلِّها، ثم أرْسَلوه إلى الملكِ العادلِ بالديارِ المصرية، فطِيفَ به هنالك، وهو الذي كان قد أغار على بلادِ مصرَ من ثَغْرِ دِمْياطَ مرتين، فقتَل وسبَى.

وفي ربيعٍ الأولِ منها **تُوُفِّي الملكُ الأوْحدُ نَجْمُ الدينِ أيوبُ بنُ العادلِ**[1] صاحبُ خِلاطَ، يقالُ:

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ١٣١-١٣٢).

إنه قد سفَكَ الدماءَ، وأساء السِّيرةَ إلىٰ أهلِها، فقصَفَ اللَّهُ عمرَه، ووليَها بعدَه أخوه الملكُ الأشرَفُ موسىٰ بنُ العادلِ، وكان محمودَ السِّيرةِ، جيِّدَ السَّريرةِ، فأحْسَنَ إليهم، فأحَبُّوه كثيرًا.

وفيها تُوُفِّي فَقِيهُ الحرمِ الشريفِ بمكةَ، محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ أبي الصَّيْفِ اليَمَنيُّ، رحمه اللَّهُ.

وأبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ أبي بكرٍ القَفْصيُّ المُقرئُ المُحدِّثُ، كتَبَ كثيرًا، وسمع كثيرًا، ودُفِن بمقابرِ الصُّوفيةِ، رحمه اللَّهُ.

أبو الفتحِ محمدُ بنُ سعدِ بنِ محمدٍ الدِّيباجيُّ، من أهلِ مَرْوَ، له كتابُ «المُحَصَّلِ» في شَرْحِ «المُفَصَّلِ» للزَّمَخْشَريِّ في النحوِ، وكان ثقةً عالمًا، سمع الحديثَ، تُوُفِّي في هذه السنةِ عن ثِنْتين وتسعين سنةً.

الشيخُ الصالحُ الزاهدُ العابدُ أبو الثناءِ محمودُ بنُ عثمانَ بنِ مكارمَ النَّعّالُ الحَنْبَليُّ، له عِباداتٌ ومُجاهَداتٌ وسياحاتٌ، وبنَىٰ رِباطًا ببابِ الأَزَجِ يأوِي إليه أهلُ العلمِ من المَقادسةِ وغيرِهم، وكان يُؤْثِرُهم ويُحْسِنُ إليهم، وقد سمع الحديثَ، وقرأ القرآنَ، وكان يأمُرُ بالمعروفِ ويَنْهَىٰ عن المُنْكَرِ. وكانت وفاتُه في هذه السنةِ وقد جاوَز الثمانين.

ثم دخلت سنة عشر وستمائة

فيها: أمَرَ العادلُ أيامَ الجُمَعِ بوَضْعِ سلاسِلَ علىٰ أفواهِ الطُّرُقِ إلىٰ الجامعِ لئلا تَصِلَ الخُيولُ إلىٰ قريبِ الجامعِ صيانةً للمسلمين عن التَّأذِّي بهم، والتضييقِ عليهم.

وفيها وُلِد الملكُ العزيزُ بنُ الظاهرِ غازي صاحبِ حلَبَ، وهو والدُ الملكِ الناصرِ صاحبِ دمشقَ واقفِ الناصريَّتَيْن الذي أسَرَه هلاوونُ ملكُ التَّتارِ.

وفيها: قُدِم بالفيلِ من الديارِ المصريةِ، فحُمِل هديةً إلىٰ صاحبِ الكُرْجِ، فتعَجَّب أهلُ دمشقَ منه، ومن بديعِ خِلْقتِه.

وفيها: قدم الملكُ الظافرُ خَضِرُ بنُ السلطانِ صلاحِ الدينِ من حلَبَ لقصدِ الحجِّ، فتلَقَّاه الناسُ، وأكْرَمَه ابنُ عمِّه المُعَظَّمُ صاحبُ دمشقَ، فلما لم يَبْقَ بينَه وبينَ مكةَ إلا مَراحِلُ يَسيرةٌ تلَقَّته حاشيةُ الكاملِ صاحبِ مصرَ، وصدُّوه عن الدُّخولِ إلىٰ مكةَ، وقالوا: إنما جئتَ لأخذِ اليمنِ. فقال لهم: قَيِّدوني وذَرُوني أَقْضِي المَناسكَ. فقالوا: ليس معنا مَرْسومٌ وإنما أُمِرْنا بردِّك وصَدِّك. فهمَّ طائفةٌ من الناسِ بقتالِهم، فخافَ من وُقوعِ فتنةٍ، فتحَلَّل من حجِّه، ورجَع إلىٰ الشامِ، وتأسَّف الناسُ علىٰ ما فُعِل به، وتَباكَوْا من أجلِه لمّا ودَّعهم، تقَبَّل اللَّهُ منه.

وفيها: وصَل كتابٌ من بعضِ فُقهاءِ الحَنَفيةِ بخُراسانَ إلىٰ الشيخِ تاجِ الدينِ الكِنْديِّ يُخْبِرُ فيه أن السلطانَ خُوارَزْم شاه محمدَ بنَ تكِش تنَكَّر في ثلاثةِ نفرٍ، ودخَل بلادَ التَّتَرِ ليَكْشِفَ أخبارَهم بنفسِه،

فأنكَروهم فقبَضوا عليهم، فضرَبوا منهم اثنين حتى ماتا، ولم يُقرَّا بما جاءُوا إليه، واستَوْثَقوا من الملكِ وصاحبِه أسْرًا، فلما كان في بعضِ الليالي هرَبا، ورجَع السلطانُ إلى مُعَسْكَرِه، فعاد إلى مَمْلكته.

قلتُ: وهذه المكاتبةُ غيرُ ما تقدَّم مِن أسْرِه في المعركةِ مع ابنِ مسعودٍ الأميرِ، واللَّهُ أعلمُ.

ظهَرت بلاطةٌ وهم يَحْفِرون في خندقِ حلبَ، فوُجِد تحتَها مِن الذهبِ خمسةٌ وسبعون رَطْلاً، ومِن الفضة خمسةٌ وعشرون بالرَّطْلِ الحَلَبيِّ.

وفيها تُوُفِّي:

مدرسُ مَشْهَدِ أبي حَنيفةَ وشيخُ الحنفيةِ ببغدادَ، **الشيخُ أبو الفَضْلِ أحمدُ بنُ مسعودِ بنِ عليٍّ التُّركُستانيُّ**، وكان إليه المَظالمُ، ودُفِن بالمَشْهَدِ المذكورِ.

والشيخُ أبو محمدٍ إسماعيلُ بنُ عليِّ بنِ الحسنِ فخرُ الدينِ الحَنْبَليُّ، ويُعْرَفُ بابنِ الماشطة، ويقالُ له: الفخرُ. غلامُ ابنِ المَنِّيِّ. له تَعْليقةٌ في الخلافِ، وكانت له حَلْقةٌ بجامعِ الخليفةِ، وكان يَلِي النظرَ في قَرايا الخليفةِ، ثم عزلَه، فلزِم بيتَه فقيرًا لا شيءَ له إلى أن ماتَ، رحِمه اللَّهُ، وكان ولدُه محمدٌ مُدَبِّرًا شيطانًا مَريدًا، كثيرَ الهِجاءِ والسِّعايةِ بالناسِ إلى أولياءِ الأمرِ بالباطلِ، فقُطع لسانُه، وحُبِس إلى أن مات.

والوزيرُ مُعِزُّ الدينِ أبو المَعالي سعيدُ بنُ عليِّ بنِ أحمدَ بنِ حَديدةَ، من سُلالةِ الصَّحابيِّ قُطْبةَ بنِ عامرِ ابنِ حَديدةَ الأنصاريِّ، ولِي الوزارةَ للناصرِ في سنةِ أربعٍ وثمانين، ثم عزلَه عن سِفارةِ ابنِ مَهْديٍّ، فهرَب إلى مَراغةَ، ثم عاد بعدَ ابنِ مَهْديٍّ، فأقام ببغدادَ مُعَظَّمًا مُحْتَرَمًا، وكان كثيرَ الصَّدَقاتِ والإحسانِ إلى الناسِ، رحِمه اللَّهُ.

وسَنْجَرُ بنُ عبدِ اللَّهِ الناصريُّ الخَليفيُّ، كانت له أموالٌ كثيرةٌ وأملاكٌ وإقْطاعاتٌ مُتَّسِعةٌ، وكان مع ذلك بخيلاً ذَليلاً ساقطَ النفسِ، اتَّفَق أنه خرَج أميرَ الحاجِّ في سنةِ تسعٍ وثمانين وخمسِمائةٍ، فاعتَرَضه بعضُ الأعْرابِ في نفرٍ يَسيرٍ، وكان مع سَنْجَرَ خمسُمائةِ فارسٍ، فدخَله الذُّلُّ مِن الأعْرابيِّ، فطلَب منه الأعْرابيُّ خمسين ألفَ دينارٍ، فجباها سَنْجَرُ من الحَجيجِ، ودفَعها إليه، فلما عاد إلى بغدادَ أخَذ الخليفةُ منه خمسين ألفَ دينارٍ، ودفَعها إلى أصحابِها وعزَله، وولَّى طاشْتِكينَ مكانَه.

وقاضي السَّلاَّميَّةِ ظَهيرُ الدينِ أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ نصرِ بنِ عَسْكَرٍ، الفقيهُ الشافعيُّ الأديبُ، ذكَره العِمادُ في «الخريدةِ» وابنُ خَلِّكانَ في «الوَفَياتِ»، وأثْنَى عليه، وأنْشَد مِن شِعرِه في شيخِ زاويةٍ

وأصحابه، فقال:

ألا قُلْ لمكِّيٍّ قولَ النَّصوحِ ... فحقُّ النَّصيحةِ أن تُسْتَمَعْ

متى سمعَ الناسُ في دينِهِم ... بأن الغنا سُنَّةٌ تُتَّبَعْ

وأن يأكُلَ المرءُ أكلَ البَعيرِ ... ويَرْقُصَ في الجَمْعِ حتى يَقَعْ

ولو كانَ طاوِيَ الحَشا جائعًا ... لَما دارَ من طَرَبٍ واسْتَمَعْ

وقالوا سكِرْنا بحُبِّ الإلهِ ... وما أسْكَرَ القَومَ إلا القِصَعْ

كذاكَ الحَميرُ إذا أخْصَبَتْ ... يُنَقِّزُها رِيُّها والشِّبَعْ

وتاجُ الأُمَناءِ أبو الفضلِ أحمدُ بنِ محمد بنِ الحسنِ بنِ هِبَةِ اللَّهِ بنِ عَساكرَ،[1] مِن بيتِ الحديثِ والرِّوايةِ، وهو أكبرُ مِن أخَوَيه زَيْنِ الأُمَناءِ والفخرِ عبدِ الرحمنِ، سمع عمَّيه الحافظَ أبا القاسمِ والصائنَ، وكان صديقًا للشيخِ تاجِ الدينِ الكِنْديِّ، وكانت وفاتُه يومَ الأحدِ ثاني رجبٍ، ودُفِن قَبْليَّ مِحْرابِ مسجدِ القدمِ.

وتاج العلا النَّسَّابةُ الحَلَبيُّ الحَسَنيُّ، اجْتمع بآمد بالشيخ أبي الخطاب ابن دِحْيةَ، وكان يُنْسَبُ إلى دِحْيةَ الكلبيِّ، فقال له تاجُ العلا: إن دحْيةَ لم يُعقبْ.

فرماه ابن دحْيةَ بالكذب في مسائله الموصلية.

قال ابنُ الأثير في «الكامل»: وفي المُحَرَّم منها تُوُفِّي المُهَذَّبُ الطَّبيبُ المَشْهورُ وهو عليُّ بنُ أحمدَ بن هُبَلٍ المَوصليُّ، سمع الحديثَ، وكان أعلمَ أهلِ زمانِه بالطبِّ، وله فيه تَصْنيفٌ حسنٌ، وكان كثيرَ الصَّدَقةِ، حسَنَ الأخلاقِ.

ابنُ خَروفٍ شارحُ «سيبَوَيْه»، و«جُمَلِ الزَّجاجيِّ»، هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدِ بنِ عليٍّ الحَضْرَميُّ الأندلسيُّ الإشبيليُّ، أحدُ المشاهيرِ في هذه الصناعةِ، وكتبُه تدلُّ على تَقدُّمِه وعلمِه وفضلِه، وكان شيخَه فيها ابنُ طاهرٍ، المعروفُ بالخِدَبِّ الأندلسيِّ.

الجُزُوليُّ صاحبُ المُقَدِّمة المُسَمَّاة بـ«القانون»: هو أبو موسى عيسى بنُ عبد العزيز الجُزُوليُّ - بطنٌ مِن البَرْبَرِ - ثم اليَزْدَكْتَنيُّ النحويُّ المغربيُّ، مُصَنِّفُ المُقَدِّمةِ المشهورةِ البَديعةِ، وقد شرَحها هو وتلامذتُه، وكلُّهم يَعْتَرِفون بتَقْصيرِهم عن فهمِ مُرادِه في أماكنَ كثيرةٍ منها، قدِم ديارَ مصرَ، وأخَذ عن ابنِ بَرِّيٍّ، ثم عاد إلى بلادِه، ووَلِي خَطابةَ مَرَّاكُشَ، وكانت وفاتُه في هذه السنةِ، وقيل: قبلَها. فاللَّهُ أعلم.

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٢٦-٢٧).

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة

فيها: أرْسَل الملكُ خُوارَزْم شاه أميرًا من أخصَّاء أمرائه عندَه، وكان قبلَ ذلك سيروانًا، فصار أميرًا خاصًّا، فبعثَه في جيش، ففتح له كَرْمانَ ومَكْرانَ، وإلى حدود بلاد السِّند، وخُطب لخُوارَزْم شاه بتلك النواحي، وكان خُوارَزْم شاه لا يُصَيِّفُ إلا بنَواحي سَمَرْقَنْدَ خوفًا من التَّتار أصحاب كَشْلى خان أن يَتَوثَّبوا على أطراف بلاده التي تُتاخمُهم.

قال أبو شامة: وفيها شُرع في تَبْليط داخلِ الجامع، وبدءوا بناحية السَّبْع الكبير، وكانت أرضُ الجامع قبلَ ذلك حُفَرًا وجُورًا. فاستراح الناسُ بتَبْليطه.

وفيها وُسِّع الخندقُ مما يلي القَيْمازيَّة، فأُخْرِبَت دورٌ كثيرةٌ هناك، وحَمَّامُ قايماز وفُرْنٌ كان وقفًا على دار الحديث النُّورية وغيرُ ذلك.

وفيها: بَنَى المُعَظَّمُ الفُنْدُقَ المَنسوبَ إليه بناحية قبرِ عاتكة ظاهرَ باب الجابية. وفيها أخَذ المُعَظَّمُ قَلْعةَ صَرْخَدَ من ابن قَرَاجا، وعوَّضه عنها، وسلَّمها إلى مَمْلوكه عزِّ الدين أيبك المُعَظَّميِّ، فثبَتَت في يده إلى أن انْتَزَعها منه نَجْمُ الدين أيوبُ سنةَ أربع وأربعين.

وفيها: حجَّ الملكُ المُعَظَّمُ بنُ العادل، ركِب من الكَرَك على الهُجُن في حادي عشَرَ ذي القَعْدة، ومعه ابنُ مُوسَك ومملوكُه أيبك عزُّ الدين أُستاذُ داره وخَلْقٌ، فساروا على طريق تَبوكَ والعَلاء، وبنى المعظَّمُ البِرْكةَ المَنسوبةَ إليه، ومَصانعَ أُخَرَ. فلما قدِم المدينةَ النبويةَ تلَقَّاه صاحبُها سالمٌ، وسلَّم إليه مَفاتيحَها، وخدَمه خدمةً تامةً، وأما صاحبُ مكةَ قَتادةُ، فلم يَرْفَعْ به رأسًا، ولهذا لما قضَى نُسُكَه، وكان قارنًا، وأنْفَق في المجاورين ما حمَله إليهم من الصَّدَقات، وكرَّ راجعًا اسْتَصْحَب معه سالمًا صاحبَ المدينة، وشكا إلى أبيه عندَ رأسِ الماء ما لقيه من صاحب مكةَ، فأرْسَل العادلُ مع سالم جيشًا يَطْرُدون صاحبَ مكةَ عنها، فلما انْتَهَوا إليها هرَب منهم في الأوْدية والجبال والبَراريِّ، وقد أثَّر المُعَظَّمُ في هذه السنة بطريق الحجاز آثارًا حسَنةً، أثابه اللَّهُ تعالى وتقبَّل منه آمين.

وفيها: تَعامَل أهلُ دمشقَ بالقَراطيس السُّود العادليَّة، ثم بطَلَت بعدَ ذلك وفَنِيت.

وفيها: مات صاحبُ اليمنِ ابنُ سيفِ الإسلام، فتولَّاها سليمانُ بنُ شاهنْشاه ابن تَقيِّ الدين عمرَ ابن شاهنْشاه بن أيوبَ باتفاق الأمراء عليه، فأرْسَل العادلُ إلى ابنه الكامل أن يُرْسِلَ ولدَه أقْسيسَ بنَ الكامل إليها، فأرْسَله فتملَّكها وظلَم بها وفتَك، وقتَل من الأشراف نحوًا من ثمانمائة، وأما ممَّن عداهم فكثيرٌ، وكان من أفْجَر الملوك وأكثرهم فسقًا وأقلِّهم حَياءً، وقد ذُكِر عنه ما تَقْشَعِرُّ منه الأبدانُ، وتُنْكِرُه القلوبُ، نَسْأَلُ اللَّهَ العافية.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان وغيرهم:

إبراهيمُ بنُ عليِّ بن محمدِ بن بكْروس، الفقيهُ الحَنبليُّ، أفتَى وناظَر وعَدَّلَ عندَ الحُكَّام، ثم انسلَخ من هذا كلِّه، وصار شُرْطيًّا ببابِ النوبيِّ، يَضرِبُ الناسَ ويُؤذيهم غايةَ الأذَى، ثم بعدَ ذلك كلِّه ضُرِبَ إلى أن مات، وأُلقي في دِجْلَةَ، وفرح الناسُ بموته، وقد كان أبوه رجلاً صالحًا.

الرُّكْنُ عبدُ السلام بنُ عبد الوَهَّاب ابنِ الشيخ عبد القادر، كان أبوه صالحًا، وكان هو مُتَّهَمًا بالفَلسفةِ ومُخاطَبةِ النُّجوم، ووُجِد عندَه كتبٌ في ذلك، وقد ولِي عدةَ ولايات، ويقالُ لمثله:

نِعْمَ الجُدودُ ولكنْ بئسَ ما نَسَلوا

رأَى أبوه عليه يومًا ثوبًا بُخاريًّا فقال: سمِعْنا بالبُخاريِّ ومسلمٍ، فأمّا بُخاريٌّ وكافرٌ فهذا شيءٌ عجَبٌ. وكان مُصاحِبًا لأبي القاسمِ ابنِ الشيخِ أبي الفرجِ ابنِ الجوزيِّ، وكان الآخَرُ مُدبرًا فاسقًا، وكانا يَجتَمِعان على الشَّرابِ والمُرْدان، قبَّحهما اللَّهُ.

أبو محمد عبدُ العزيز بنُ محمود بن المُبارَك البَزّازُ، المعروفُ بابنِ الأخضَر، البغداديُّ المُحَدِّثُ المُكثِرُ الحافظُ المُصَنِّفُ المُحَرِّرُ، له كتبٌ مُفيدةٌ مُتْقَنةٌ، وكان من الصالحين، وكان يومُ جنازتِه يومًا مشهودًا.

الحافظُ أبو الحسنِ عليُّ بنُ الأنجَبِ أبي المكارمِ المُفَضَّلِ اللَّخْميُّ المَقدِسيُّ، ثم الإسْكَنْدَرانيُّ المالكيُّ، سمع السِّلَفيَّ وعبدَ الرَّحيمِ المُنْذِريَّ، وكان مُدَرِّسًا للمالكيةِ بالإسْكَندرية، ونائبَ الحُكْمِ بها، ومن شعرِه قولُه:

أيا نفسُ بالمأثورِ عن خيرِ مُرسَلٍ وأصحابِه والتابعين تَمَسَّكي
عساكِ إذا بالَغْتِ في نشرِ دينهِ بما طاب من نَشْرٍ له أن تَمَسَّكي
وخافي غدًا يومَ الحسابِ جَهَنَّمًا إذا لفَحَتْ نيرانُها أن تَمَسَّكي

تُوُفِّي بالقاهرةِ في هذه السنة. قاله ابنُ خَلِّكانَ.

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وستمائة

فيها: شُرِع في بناءِ المدرسةِ العادليةِ الكبيرةِ بدمشقَ، وفيها عُزِل القاضي الزكيُّ ابنُ محيي الدينِ ابنِ الزَّكيِّ، وفُوِّض الحكمُ إلى القاضي جَمالِ الدينِ ابنِ الحَرَسْتانيِّ، وهو ابنُ ثنتين وتسعين سنةً، فحكَم بالعدلِ، وقضَى بالحقِّ، ويقالُ: إنه كان يَحْكُمُ بالمدرسةِ المُجاهديةِ التي عندَ القَوَّاسين.

وفيها: أبْطَلَ العادلُ ضَمانَ الخمرِ والقِيانِ، جزاه اللَّهُ خيرًا، فزالَ عن الناسِ شرٌّ كثيرٌ.

وفيها: حاصَرَ الأميرُ قَتادةُ صاحبُ مكةَ المدينةَ النبويَّةَ ومَن بها، وقطَع نخيلاً كثيرًا، فقاتَله أهلُها، فكرَّ خاسئًا حسيرًا، وكان صاحبُ المدينةِ بالشامِ في خدمةِ العادلِ، فطلَب منه النجدةَ على أميرِ مكةَ

قتادة، فأرسل معه جيشًا، فأسرع في الأوبة، فمات في أثناء الطريق، فاجتمع شملُ الجيش على ابن أخيه جمَّاز، فقصد مكة، فالتقاه أميرُها بالصفراء، فاقتتلوا قتالاً عظيمًا، فهُزِمَ المكيُّون، وغنم منهم الأميرُ جمَّازٌ شيئًا كثيرًا، وهرب قتادةُ إلى الينبع، فساروا إليه، فحصروه بها، وضيَّقوا عليه فيها.

وفيها: أغارت الفرنجُ على بلادِ الإسماعيلية، فقتلوا ونهبوا وسبَوا.

وفيها: أخذ ملكُ الروم كَيْكَاوس مدينةَ أنطاكيةَ من أيدي الفرنجِ، ثم أخذها منه ابنُ لاوُن ملكُ الأرْمَنِ، ثم أخذها منه إبْرِنْسُ طَرابُلُسَ.

وفيها: ملَك السلطانُ خُوارَزْم شاه محمدُ بنُ تكش مدينةَ غَزْنةَ بغيرِ قتالٍ.

وفيها: كانت وَفاةُ الملكِ المعظمِ أبي الحسنِ عليٍّ ابنِ الخليفةِ الناصرِ لدينِ اللَّه، الذي كان قد جعلَه وليَّ عهدِه من بعدِه، وعزَل عن ذلك أخاه الأكبرَ، ولما تُوُفِّي حزن الخليفةُ عليه حُزنًا عظيمًا، وكذلك الخاصَّةُ والعامَّةُ لكثرةِ صدَقاتِه وإحسانِه إليهم، ولم يَبْقَ بيتٌ ببغدادَ إلا حزنوا عليه، وكان يومُ جنازته يومًا مشهودًا، وناح أهلُ البلدِ عليه ليلاً ونهارًا، ودُفِن عندَ جَدَّتِه بالقربِ من قبرِ مَعْروفٍ الكَرْخيِّ، وكانت وفاتُه يومَ الجمعةِ العشرين من ذي القَعْدة، وصُلِّي عليه بعدَ الصلاةِ. وفي هذا اليوم قُدِمَ برأسِ مَنْكَلِي - الذي كان قد عصَى على الخليفةِ وعلى أُستاذِه - إلى بغدادَ فطِيفَ به فيها، ولم تتمَّ فرحتُه ذلك اليومَ لتنغيصِها بموتِ ولدِه وليِّ العهدِ، والدنيا لا تَسُرُّ بقَدْرِ ما تَضُرُّ، وترك ولدَيْن وهما؛ المُؤيَّدُ أبو عبدِ اللَّه الحسنُ، والمُوفَّقُ أبو الفضلِ يحيى.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

الحافظُ عبدُ القادرِ الرُّهاويُّ: عبدُ القادرِ بنُ عبدِ اللَّه بنِ عبدِ الرحمنِ، أبو محمدٍ[1]، الحافظُ الكبيرُ المُحدِّثُ المُخرِّجُ المُفيدُ المُحرِّرُ المُتقنُ البارعُ المُصنِّفُ المُفيدُ، كان مَوْلًى لبعضِ المَواصلة، وقيل: لبعضِ الحَرَّانيِّين. اشتَغل بدارِ الحديثِ بالمَوْصِلِ، ثم انتَقَل إلى حَرَّانَ، وقد رحَل إلى بُلدانٍ شتَّى، وسمع الكثيرَ من المشايخِ شرقًا وغربًا، وأقام بحَرَّان إلى أن تُوُفِّي بها في هذه السنة، وكان مولدُه في سنة ستٍّ وثلاثين وخمسمائة، وكان دَيِّنًا صالحًا خيِّرًا، رحمه اللَّهُ تعالى بمنِّه وكرمِه.

الوَجيهُ الأعمى، أبو بكرٍ المُباركُ بنُ سعيدِ بنِ الدَّهَّانِ النَّحْويُّ الواسطيُّ المُلقَّبُ بالوَجيه، وُلِد بواسطٍ، وقدِم بغدادَ، فاشتَغل بعلمِ العَرَبيةِ والنحوِ، فأتقَن ذلك، وحفظ شيئًا كثيرًا من أشعارِ العربِ، وسمع الحديثَ، وكان حَنْبَليًّا فانتَقَل إلى مذهبِ أبي حَنيفةَ، ثم صار شافعيًّا، ووليِ تدريسَ النحوِ بالنِّظاميةِ، وفيه يقولُ الشاعرُ:

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٧١ - ٧٥).

ألاَ مُبْلِغًا عني الوَجِيهَ رسالةً وإن كان لا تُجْدي لديه الرَّسائلُ
تَمَذْهَبْتَ للنُّعمانِ بعدَ ابنِ حَنْبلٍ وذلك لَمَّا أعْوَزَتْك المآكلُ
وما اخترتَ رأيَ الشافعيِّ تديُّناً ولكنما تَهْوَى الذي هو حاصلُ
وعما قليلٍ أنت لا شكَّ صائرٌ إلى مالكٍ فافْطِنْ لِمَا أنا قائلُ

وقد ذكرناه في سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

وكان يَحْفَظُ شيئًا كثيرًا من الحكاياتِ والأمْثالِ والمُلَحِ، ويَعْرِفُ العربيةَ والتُّرْكيةَ والعَجَميةَ والرُّوميةَ والحَبَشيةَ والزِّنْجيةَ، وكان له يدٌ طُولَى في نَظْمِ الشعرِ، فمن ذلك قولُه:

ولو وقَعَت في لُجَّةِ البحرِ قَطرةٌ من المُزْنِ يومًا ثم شاء لمازَها
ولو ملَك الدنيا فأضْحَى مُلُوكُها عَبيدًا له في الشرقِ والغربِ ما زها

وقولُه في التَّجْنيسِ أيضًا:

أطَلْتَ مَلامي في اجْتنابي لِمَعْشرٍ طَغامٍ لِئامٍ جُودُهمْ غيرُ مُرتَجَى
ترَى بابَهمْ لا باركَ اللَّهُ فيهمُ على طالبِ المعروفِ إنْ جاء مُرتَجَا
حمَوْا مالَهم والدِّينُ والعِرْضُ منهمُ مُباحٌ فما يَخْشَوْنَ مِنْ هجوِ مَنْ هَجَا
إذا شرَعَ الأجْوادُ في الجُودِ مَنْهَجًا لهم شرَعوا في البُخْلِ سبعينَ مَنْهَجَا

وله مَدائحُ حسَنةٌ وأشعارٌ رائقةٌ، ويبتكرُ معانيَ فائقةً، وربما عارَض شعرَ البُحْتُريِّ بما يُقارِبُه ويُدانيه.

قالوا: وكان لا يَغْضَبُ قطُّ. تراهَنَ جماعةٌ مع واحدٍ أنه كان له كذا وكذا إن أغضبه، فجاء إليه فسأله عن مسألةٍ في العربيةِ فأجابه فيها، فقال له السائلُ: أخْطَأْتَ أيُّها الشيخُ. فأعاد عليه الجوابَ بعبارةٍ أخرى، فقالَ له: أخطأتَ أيضًا. وأعاد ثالثةً بعبارةٍ أخرى، فقال له: كذَبْتَ، ولعلَّك قد نسيتَ النحوَ. فقال له الوَجيهُ: أيُّها الرجلُ، فلعلك لم تَفْهَم ما أَقُولُ لك. فقال: بلى، ولكنك تُخْطِئُ. فقال له: فقلْ ما عندَك لنَسْتَفيدَه منك. فأغْلَظ له السائلُ في القولِ، فتبَسَّم ضاحكًا، وقال له الوجيهُ: إن كنتَ راهَنْتَ فقد غُلِبْتَ، إنما مَثَلُك في هذا كمثلِ البَقَّةِ -يعني الناموسةَ- سقَطَت على ظهرِ الفيلِ، فلما أرادت أن تَطيرَ قالت له: استَمْسِكْ، فإني أريدُ أن أَطيرَ. فقال لها الفيلُ: ما أحْسَسْتُ بك حينَ وقَعْتِ عليَّ، فما أَحْتاجُ أن أَسْتَمْسِكَ إذا طِرْتِ. كانت وفاتُه رحمه اللَّهُ تعالى في شعبانَ، ودُفِن بالوَرْدية.

أبو الفتوح محمدُ بنُ عليِّ بنِ المبارك، التاجرُ المعروفُ بابنِ الجَلاجليِّ، كانَ يسكنُ بدارِ الخلافةِ ببغدادَ، قرأ القرآنَ على الرواياتِ، وسمع الحديثَ الكثيرَ، ورحَل إلى البلْدانِ المتباينةِ، بلَغ ثلاثًا

وستين سنةً، وكانت وفاتُه بالقدْسِ الشَّريف في رمضانَ. رحمه اللَّهُ.

أبو محمد عبدُ العزيز بنُ المَعالي بن غَنيمةَ بن الحسن، المعروفُ بابن مَنِينا، وُلِد سنةَ خمسَ عشْرَةَ وخمسمائة، وسمع الكثيرَ وأسْمَعَه، وكانت وفاتُه في ذي الحِجَّة عن سبعٍ وتسعينَ سنةً.

الشيخُ الفقيهُ كمالُ الدين مَوْدودُ بنُ الشاغوريِّ الشافعيُّ، كان يُقْرئُ بالجامع الأُمَويِّ الفِقْهَ، ويشرَحُ «التَّنْبيه» للطلبة، ويتأنَّى في تفهيمهم حتى يَفْهَموا احْتسابًا، تُجاهَ المَقْصورة. ودُفِن بمقابر باب الصغيرِ شَماليَّ قبورِ الشُّهداء، وعلى قبره شعرٌ ذكَره أبو شامةَ. واللَّهُ تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

قال أبو شامةَ: فيها أُحْضِرَت الأوْتادُ الخَشَبُ الأربعةُ لأجلِ قُبَّة نَسْرِ الجامع، طولُ كلٍّ واحدٍ اثنان وثلاثون ذراعًا بالنَّجّار.

وفيها: شُرِع في تَحرير خَنْدَق باب السِّرِّ المُقابلِ لدار الطُّعْم العَتيقة إلى جانب باناسَ. قلتُ: وهي إصْطَبْلُ السلطانِ اليومَ. وقد نقَل السلطانُ المُعَظَّمُ بنفسه الترابَ، ومَماليكُه تَحْمِلُ بينَ يديه على القَرَبوسِ القِفافَ من التراب، فيُفْرِغونها في المَيْدان الأخضر، وكذلك أخوه الصالحُ إسماعيلُ ومَماليكُه، يَعْمَلُ هذا يومًا وهذا يومًا.

وفيها: وقَعت فتنةٌ بينَ أهلِ الشاغورِ وأهلِ العُقَيْبة، اقْتَتَلوا بالرَّحْبة والصَّيارِف، فركب الجيشُ مُلْبَسًا، وجاء السلطانُ المُعَظَّمُ بنفسه، فحبَس رءوسَهم.

وفيها رُتِّب بالمُصَلَّى خَطيبٌ مُسْتقلٌّ، وأولُ مَن باشَرها الصَّدْرُ مُعيدُ الفَلَكيَّة، ثم خطَب بعدَه بَهاءُ الدين ابنُ أبي اليُسْر، ثم بنو حَسّانَ، وإلى الآنَ.

وفيها تُوُفِّي صاحبُ حلَبَ الملكُ الظاهرُ غازي ابنُ السلطان صلاح الدين يوسفَ بن أيوبَ، وكان من خيار الملوك وأسَدِّهم سيرةً، ولكن كان فيه عَسْفٌ، ويُعاقِبُ على الذنب سريعًا شديدًا، وكان يُكْرِمُ العلماءَ والشعراءَ والفقراءَ، أقام في الملك ثلاثين سنةً، وحضَر كثيرًا من الغَزَوات مع أبيه، وكان ذَكيًّا، له رأيٌ جيدٌ، وعبارةٌ سادَّةٌ، وفطْنةٌ حسنةٌ، وعُمِّر أربعًا وأربعين سنةً، ولمّا حضَرَتْه الوفاةُ جعَل المُلْكَ من بعده لولده المَلك العزيز غياث الدين محمدٍ وهو ابنُ ثلاث سنينَ، وقد كان له أولادٌ كبارٌ، ولكنه عَهِد إلى هذا من بينهم لأنه كان من بنت عمِّه العادل، وأخوالُه الأشرفُ والمُعَظَّمُ والكاملُ وجدُّه العادلُ لا يُنازِعونه، وهكذا وقَع سواءً؛ بايَع له جدُّه العادلُ وخالُه الأشرفُ صاحبُ حَرّانَ والرُّها وخِلاطَ، وهمَّ المُعَظَّمُ بنَقْضِ ذلك فلم يَتَّفِقْ له ذلك، وقام بتَدْبير مملكته الطَّواشي شِهابُ الدين طُغْريل الروميُّ الأبيضُ، وكان دَيِّنًا عاقلاً عادلاً.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان والمشاهير:

الشيخُ تاجُ الدين أبو اليُمْنِ زيدُ بنُ الحسنِ بن زيدِ بن الحسنِ بن سعيد بن عصمة، الشيخُ الإمامُ العَلامةُ، وَحيدُ عصرِه ونسيجُ وَحْدِه، تاجُ الدينِ أبو اليُمْنِ الكِنْديُّ، وُلد ببغدادَ ونشأ بها، واشْتَغل وحصَّل، ثم قدِم دمشقَ فأقام بها، وفاق أهلَ زمانه شرقًا وغربًا في النَّحْوِ والعربيةِ وغيرِ ذلك من فنونِ العلم، وعلوِّ الإسنادِ وحُسْنِ الطريقةِ والسيرة وصحةِ العَقيدةِ والسَّريرة، وانْتَفَع به علماءُ عصرِه، وأثْنَوْا عليه، وخضَعوا له. وكان حَنْبَلِيًّا، ثم صار حَنَفِيًّا. وكان مولدُه في اليومِ الخامسِ والعشرين مِن شعبانَ سنةَ عشرين وخمسمائةٍ، فقرأ القرآنَ بالرِّوايات وله عشْرُ سنينَ، وسمع الكثيرَ مِن الحديثِ العالي على الشيوخِ الثِّقات، وعُني بذلك، وتعلَّم العربيةَ واللغةَ، واشْتَهَر بذلك، ثم صار إلى الشام في سنة ثلاثٍ وستين وخمسمائةٍ، وسكَن مصرَ، واجْتَمَع بالقاضي الفاضلِ، ثم انْتَقَل إلى دمشقَ، فسكَن بدرْبِ العجَمِ منها، وحظِي عندَ المُلوكِ والوُزراءِ والأُمراءِ، وترَدَّد إليه العلماءُ والكبراءُ والملوكُ وأبناؤُهم، كان الأفضلُ بنُ صلاحِ الدينِ -وهو صاحبُ دمشقَ- يتَرَدَّدُ إلى منزلِه وأخوه المُحْسِنُ، وكذلك المُعَظَّمُ في أيامه على مُلْكِ دمشقَ، يَنْزِلُ إليه إلى دَرْبِ العجمِ يَقْرأُ عليه في «المُفَصَّلِ» للزَّمَخْشَرِيِّ، وكان المُعَظَّمُ يُعْطِي لمَن حفَظ «المُفَصَّلَ» ثلاثين دينارًا جائزةً، وكان يَحْضُرُ مجلسَه بدربِ العجَمِ جميعُ المُصَدَّرِين بالجامع، كالشيخِ علَمِ الدينِ السَّخاويِّ، ويحيى بنِ مُعْطي، والوَجيهِ البَوْنيِّ، والفَخْرِ التُّرْكيِّ وغيرِهم، وكان القاضي الفاضلُ في أيامه يُثْني عليه كثيرًا.

قال السَّخاويُّ: كان عندَه مِن العلوم ما لا يُوجَدُ عندَ غيرِه، ومِن العَجَب أن سِيبَوَيْه، وقد شَرَحتُ عليه «كتابَه»، كان اسمَه عمرٌو، واسمُ الشيخِ أبي اليُمْنِ زيدٌ، فقلتُ في ذلك:

لم يَكُنْ في عهدِ عمرٍو مثلُهُ	وكذا الكِنْديُّ في آخرِ عصرِ
فهما زيدٌ وعمرٌو إنما	بُني النحوُ على زيدٍ وعمرِو

قال أبو شامةَ: وهذا كما قال فيه ابنُ الدَّهَّانِ المَذكورُ في سنةِ ثنتين وتسعين وخمسمائة:

يا زيدُ زادك ربي من مواهبه	نعَمًا يُقَصِّرُ عن إدراكِها الأمَلُ
النحوُ أنت أحَقُّ العالَمين به	أليس باسمِك فيه يُضْرَبُ المَثَلُ

وللسخاويِّ فيه قصيدةٌ حَسَنةٌ، وكذلك أثْنَى عليه غيرُ واحدٍ، منهم أبو المُظَفَّرِ سِبْطُ ابنُ الجوزيِّ فقال: قرأْتُ عليه، وكان حسَنَ العقيدة، ظَريفَ الخُلُقِ طَريفًا، لا يَسْأَمُ الإنسانُ من مُجالَسته، وله النَّوادرُ العَجيبةُ، والخَطُّ المَليحُ، والشعرُ الرائقُ، وله ديوانٌ كبيرٌ، وكانت وفاتُه يومَ الاثنين سادسَ شوالٍ من هذه السنة، وله ثلاثٌ وتسعون سنةً وشهرٌ وستةَ عشرَ يومًا، وصُلِّي عليه بجامعِ دمشقَ، ثم حُمِل إلى الصالحيةِ، فدُفِن بها.

وكان قد وقَّف كتبًا نَفيسةً ـ وهي سبعُمائةٍ وأحدٌ وستون مُجلَّدًا ـ على مُعْتَقِه نَجيبِ الدينِ ياقوتٍ، ثم على ولدِه مِن بعدِه، ثم على العلماءِ في الحديثِ والفقهِ واللغةِ وغيرِ ذلك، وجُعِلَتْ في خِزانةٍ كبيرةٍ بمَقْصورةِ ابنِ سِنانٍ الحَنَفيةِ المُجاوِرةِ لَمشْهدِ عليٍّ زَيْنِ العابدِين، ثم إن هذه الكتبَ تفرَّقَت، وأُبِيعَ كثيرٌ منها، ولم يَبْقَ بالخِزانةِ المُشارِ إليها إلا القليلُ وهي بمقصورةِ الحَنَفيةِ، وكانت قديمًا يقالُ لها: مَقصورةُ ابنِ سِنانٍ. وقد ترَك الشيخُ تاجُ الدينِ رحِمه اللَّهُ نِعمةً وافرةً، وأموالاً جَزيلةً، ومَمالِيكَ مُتَعَدِّدةً مِن الترك، وقد كان رَقيقَ الحاشيةِ، حسَنَ الأخلاقِ، يُعامِلُ الطلَبةَ مُعاملةً حسَنةً، فلما كبِر ترَك القيامَ لهم، وأنشَأ اعتذارًا:

تركْتُ قيامي للصَّديقِ يَزُورُني ... ولا ذنبَ لي إلا الإطالةُ في عمري
فإن بلَغوا مِن عشرِ تسعين نصفَها ... تَبَيَّنَ في تركِ القيامِ لهم عُذْري

وقد أسلَفْنا شيئًا مِن قِيلِه في قتلِ عُمارةَ اليَمَنيِّ في الدولةِ الصَّلاحِيةِ، في سنةِ تسعٍ وستين وخمسِمائةٍ، وهو في غايةِ القوةِ والفصاحةِ والجِناسِ، وقد أَوْرَدَ ابنُ الساعي في ترجمتِه مِن «تاريخِه» أشعارًا حسنةً، فمن ذلك قولُه يَمْدَحُ الملكَ المُظَفَّرَ شاهِنْشاه:

وِصالُ الغَواني كان أرْوَى وأرْوَجا ... وعصرُ التَّداني كان أبْهَى وأبْهَجا
ليالِيَ كان العمرُ أحْسنَ شافعٍ ... تولَّى وكان اللهو أوْضَحَ مَنْهَجَا
بدا الشَّيْبُ فانجابَت طَماعيَةُ الصِّبا ... وقُبِّح لي ما كان يَسْتَحْسنُ الحِجَا
بُلَهْنِيَةٌ ولَّت كأن لم أَكُنْ بها ... أَجْتَلِي وجهَ النَّعيمِ مُسَرَّجَا
ولا اخْتَلْتُ في بُرْدِ الشبابِ مُجَرِّرًا ... ذُيولِيَ إعجابًا به وتَبَرُّجَا
أُغازِلُ غَيْداءَ المَعاطِف طَفْلةً ... وأَغْيَدَ معسولَ المراشف أَدْعَجا
تَقَضَّتْ لياليها بطيب كأنه ... لتقصيره منهن يَخْتَطَفُ الدُّجَى
فإنْ أُمْسِ مكروبَ الفؤادِ حزينَهُ ... أُعاقرُ مِن دَنِّ الصَّبابةِ منهجَا
وحيدًا على أني بفضْلِي مُتَيَّمٌ ... مَرُوعًا بأعداءِ الفضائلِ مُزعَجا
فيا رُبَّ ذي وُدٍّ سَرَرْتُ وسَرَّني ... وأبهجْتُه بالصالحات وأَبْهَجا
ويا رُبَّ نادٍ قد شَهِدتُ وماجدٍ ... شَدَهْتُ وخَصْمٍ رُعْتُهُ فتَلَجْلَجا
صَدَعْتُ بفَضْلي نَقْصَهُ فتَرَكْتُهُ ... وفي قلبِه شَجْوٌ وفي حَلْقِه شَجَى
كأنَّ بَياني في مسامِعِ حُسَّدي ... وقد ضَمَّ أبكارَ المعاني وأَدْرَجَا
حسامُ تقيِّ الدينِ في كلِّ مارقٍ ... يَقُدُّ إلى الأرضِ الكَمِيَّ المُدَجَّجَا

وقال يَمْدَحُ أخاه عزَّ الدينِ فَرُّخْشاه بنَ شاهِنْشاه بنِ أيوبَ:

هل أنتَ راحمُ عَبْرة وتَدلُّه ... ومُجيرُ صَبٍّ عندَ ما منه دُهي
هيهاتَ يَرْحَمُ قاتلٌ مقتولَه ... وسنانُه في القلب غيرُ مُنَهْنَه
مَن بَلَّ من داء الغرامِ فإنني ... مُذْ حلَّ بي مرضُ الهوى لم أَنقَه
إني بُليتُ بحبِّ أغيدَ ساحرٍ ... بلحاظه رَخْصِ البَنان بَرَهْرَه
أَبغِي شفاءَ تَدلُّهي من دَلِّه ... ومتى يَرِقُّ مُدلَّلٌ لُمدلَّه
كم آهةٍ لي في هواه وأَنَّةٍ ... لو كان يَنفَعُني عليه تأَوُّهي
ومآرِبٍ في وَصْله لو أنها ... تُقْضَى لكانت عندَ مَبْسِمه الشَّهي
يا مُفْرَدًا بالحسنِ إنك مُنْتَه ... فيه كما أنا في الصَّبابة منتهي
قد لام فيك معاشرٌ أفأنتهي ... باللوم عن حبِّ الحياة وأنت هي
أَبكي لديه فإن أحَسَّ بلَوْعة ... وتَشهَّق أومَا بطَرْف مُقَهْقِه
أنا من محاسنه وحالي عندهُ ... حَيرانُ بينَ تَفكُّرٍ وتَفَكُّه
ضِدّان قد جُمِعا بلفظ واحد ... لي في هواهُ بمعنَيَين مُوجَّه
أَوَلستُ ربَّ فضائلٍ لو حازَ أدْ ... ناها وما أزْهَى بها غيري زُهي

والذي أنْشَده الشيخُ تاجُ الدينِ في قتلِ عُمارةَ اليَمَنيِّ، حينَ كان مالأ الكَفَرةَ والمُلْحِدين على قتلِ الملكِ صلاحِ الدينِ وعَوْدِ دولةِ الفاطميِّين، فظهَر على أمرِه، فصُلِب مع مَن صُلِب في سنةِ تسع وستين وخمسِمائةٍ:

عُمارةُ في الإسلامِ أبْدَى خيانةً ... وحالَف فيها بيعةً وصَليبَا
وأمسَى شَريكَ الشِّرك في بُغْضِ أحمد ... وأصْبَح في حُبِّ الصَّليب صَليبَا
وكان خبيثَ المُلتقَى إن عَجَمْتَه ... تجدْ منه عُودًا في النِّفاق صَليبَا
سيَلْقَى غدًا ما كان يَسْعَى لأجلِه ... ويُسْقَى صديدًا في لَظًى وصَلِيبَا

وله أيضًا:

صحِبْنا الدهرَ أيامًا حِسانًا ... نَعومُ بهن في اللَّذات عَوْمَا
وكانت بعدَ ما ولَّت كأنِّي ... لدى نُقْصانها حُلْمًا ونَوْمَا
أناخ بيَ المَشيبُ فلا براحٌ ... وإن أوسَعْتُه عَتْبًا ولَوْمَا
نَزيلٌ لا يَزالُ على التَّنائي ... يَسُوقُ إلى الرَّدَى يومًا فيومَا
وكنتُ أَعُدُّ لي عامًا فعامًا ... فصِرْتُ أَعُدُّ لي يومًا فيومَا

العزُّ محمدُ بنُ الحافظ عبدِ الغنيِّ المَقْدسيِّ[1]، وُلِد سنةَ ستٍّ وستين وخمسِمائةٍ، وأسْمَعه والدُه

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٤٢ ـ ٤٤).

الكثيرَ، ورحَل بنفسه إلى بغدادَ، وقرأ بها «مسندَ أحمدَ»، وكانت له حَلْقةٌ بجامعِ دمشقَ، وكان مِن أصحابِ المَلِك المُعَظَّم، وكان صالحًا دَيِّنًا وَرِعًا حافظًا، رحمه اللَّهُ ورحِم أباه.

أبو الفتوح محمدُ بنُ عليِّ بنِ المُبارَك الجَلاجِليُّ البغداديُّ، سمع الكثيرَ، وكان يَتَرَدَّدُ في الرَّسْلِيةِ بينَ الخليفةِ والملكِ الأشرَفِ بنِ العادلِ، وكان عاقلاً دَيِّنًا ثقةً صدوقًا.

الشريفُ أبو جعفرٍ يَحْيَى بنُ محمدِ بنِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ أبي زيدٍ العَلَوِيُّ الحَسَنيُّ، نَقيبُ الطالبِيِّين بالبصرةِ بعدَ أبيه، كان شيخًا أديبًا فاضلاً عالمًا بفُنونٍ كثيرةٍ، لاسيما بالأنسابِ وأيامِ العربِ وأشعارِها، يَحْفَظُ كثيرًا منها، وكان مِن جلساءِ الخليفةِ الناصرِ، ومِن لَطيفِ شعرِه قولُه:

لِيَهْنِكَ سَمْعٌ لا يُلائمُه العَذْلُ ... وقلبٌ قَرِيحٌ لا يَمَلُّ ولا يَسْلُو

كأنَّ عليَّ الحُبَّ أمْسَى فَريضةً ... فليس لقلبي غيرُه أبدًا شُغْلُ

وإني لأهْوَى الهَجْرَ ما كان أصلُه ... دَلالاً ولولا الهَجْرُ ما عَذُب الوَصْلُ

وأمّا إذا كان الصُّدودُ مَلالةً ... فأيْسَرُ ما همَّ الحبيبُ به القَتْلُ

أبو عليٍّ مَزْيَدُ بنُ عليِّ بنِ مَزْيَد المَعْروفُ بابنِ الخَشْكَرِيِّ، الشاعرُ المشهورُ، مِن أهلِ النُّعْمانيةِ، جمَع لنفسه ديوانًا، أوْرَد له ابنُ الساعي قطعةً مِن شعرِه، فمِن ذلك قولُه:

سألتُك يومَ النَّوَى نَظْرةً ... فلم تَسْمَحي خَفَرًا لا سَلَمْ

وأعجَبُ كيفَ تَقُولين لا ... ووجْهُكِ قد خُطَّ فيه نَعَمْ

أمَا النونُ يا هذه حاجبٌ ... أمَا العينُ عينٌ أمَا الميمُ فَمْ

أبو الفضلِ رشوانُ بنُ منصورِ بنِ رشوانَ الكرديُّ، المعروفُ بالنقف، وُلِد بإرْبِلَ، وخدَم جُنْديًّا، وكان أديبًا شاعرًا، وخدَم مع الملكِ العادلِ، ومِن شعرِه قولُه:

سَلي عني الصَّوارمَ والرِّماحَا ... وخيلاً تَسْبِقُ الهُوجَ الرِّياحَا

وأُسْدًا جيشُها سُمْرُ العَوالي ... إذا ما الأُسْدُ حاوَلَت الكفاحَا

فإني ثابتٌ عقلاً ولُبًّا ... إذا ما صائحٌ في الحربِ صاحَا

وأُورِدُ مُهْجَتي لُجَجَ المَنايا ... إذا ماجَت ولم أخشَ الجِراحَا

وكم ليلٍ سَهِرْتُ وبِتُّ فيه ... أُراعي النَّجْمَ أرْتَقِبُ الصَّباحَا

وكم في فَدْفَدٍ فَرَسي ونِضْوي ... بقائلةِ الهَجيرِ غَدا وراحَا

لعَينِك في العَجاجةِ ما أُلاقي ... وأَثْبُتُ في الكَريهةِ لا بَراحَا

محمدُ بنُ يحيى بنِ هبَةِ اللَّه، أبو نصرٍ النحَاسُ الواسطيُّ، كتَبَ إلى السِّبْطِ مِن شعرِه:

وقـائلة لما عَـمَـرْتُ وصـار لي ... ثمـانون عـامًـا عِشْ كـذا وابْقَ واسلَمِ
ودُمْ وانْتَـشِقْ رُوحَ الحـيـاة فـإنه ... لأطيَبُ مـن بيت بصَـغْـدةَ مُظلِم
فـقلتُ لهَـا عُـذري لـديكِ مُمهَّـدٌ ... بـيـتَ زهيـرٍ فـاعْلَمي وتـعلَّمي
سَـئِـمْـتُ تكاليفَ الحـيـاةِ ومَن يَعِشْ ... ثمـانينَ حـولاً لا مَـحـالةَ يَسْـأمِ

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة

في ثالثِ المحرمِ كمَلَ تَبْليطُ داخلِ الجامعِ الأُمَويِّ، وجاء المُعْتَمِدُ مُبارِزُ الدينِ إبراهيمُ المُتَوَلِّي بدمشقَ، فوضَع آخِرَ بَلاطةٍ منه بيدِه وكانت عندَ بابِ الزيادةِ، فرَحًا بذلك.

وفيها: زادت دِجْلَةُ بغدادَ زيادةً عظيمةً، وارْتَفع الماءُ حتى ساوَى السورَ إلا مِقدارَ أُصْبُعين، ثم طفَح الماءُ مِن فوقِه، وأيْقَن الناسُ بالهَلَكةِ، واسْتَمَرَّ ذلك سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسُومًا، ثم مَنَّ اللَّهُ تعالى فتَناقَص الماءُ، وذهَبَتِ الزيادةُ، وقد بقِيَت بغدادُ تُلولاً، وتهَدَّمَت أكثرُ البِنايات، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وفيها: درَّس بالنِّظاميةِ محمدُ بنُ يحيى بنِ فَضْلانَ، وحضَر عندَه القُضاةُ والأعيانُ.

وفيها: سارَ الصَّدْرُ بنُ حَمُّوَيْهِ في الرَّسْلِيَّةِ إلى بغدادَ مِن العادلِ إلى الخليفةِ. وفيها قدِم ولدُه الفَخْرُ مِن الكاملِ إلى أخيه المُعظَّمِ يَخْطُبُ منه ابنتَه على ابنِه أَقْسِيسَ صاحبِ اليمنِ، فعُقِد العَقْدُ بدمشقَ على صَداقٍ هائلٍ.

وفيها: قدِم السلطانُ علاءُ الدينِ خُوارَزْم شاه محمدُ بنُ تِكِش إلى هَمَذَانَ قاصدًا إلى بغدادَ في أربعِمائةِ ألفٍ، وقيل: في ستِّمائةِ ألفٍ. فاسْتَعَدَّ له الخَليفةُ، واسْتَخْدَم الجُيوشَ الكثيرةَ، وأرْسَل إلى الخليفةِ يَطْلُبُ منه أن يَكونَ بينَ يدَيْه على قاعدةِ مَن تَقَدَّمَه مِن المُلوكِ السَّلاجِقة، وأن يُخْطَبَ له ببغدادَ على منابرِها، فلم يُجِبْه الخليفةُ إلى ذلك، وأرْسَلَ إليه الشيخُ شِهابَ الدينِ السُّهْرَوَرْدِيَّ، فلما وصَل إليه شاهَد عندَه مِن العَظَمةِ وكَثْرَةِ المُلوكِ بينَ يديه، وهو جالسٌ في خَركاه مِن ذهبٍ على سَريرٍ ساذَجٍ وعليه قَباءٌ بُخاريٌّ ما يُساوِي خمسةَ دراهمَ، وعلى رأسِه جِلْدةٌ ما تُساوِي درهمًا، فسلَّم فلم يَرُدَّ عليه مِن الكِبْرِ، ولم يأْذَنْ له في الجلوسِ، فقام إلى جانبِ السَّريرِ، وأخَذ في خُطْبةٍ هائلةٍ، فذكَر فيها فضلَ بني العباسِ وشرَفَهم، وأوْرَد حديثًا في النَّهْيِ عن أذاهم، والتُّرْجُمانُ يُعيدُ على الملك، فقال الملكُ: أمَّا ما ذكَرْتَ مِن فضلِ الخليفةِ فإنه ليس كذلك، ولكني إذا قدِمْتُ بغدادَ أقَمْتُ مَن يَكونُ بهذه الصفاتِ، وما ذكَرْتَ مِن النَّهْيِ عن أذاهم، فإني لم أُوذِ منهم أحدًا، ولكنَّ الخليفةَ في سُجونِه منهم طائفةٌ كثيرةٌ يَتَناسَلون في السُّجونِ، فهو الذي آذَى بني العباسِ. ثم ترَكه، ولم يَرُدَّ عليه جوابًا بعدَ

ذلك، وانصرَفَ السُّهْرَوَرْديُّ راجعًا، وأرْسَلَ اللّهُ تعالىٰ علىٰ الملكِ وجُنْدِه ثَلْجًا عظيمًا ثلاثةَ أيامٍ حتىٰ طمَّ الخَرَاكي والخيام، ووصَلَ إلىٰ رءوسِ الأعلام، وتقَطَّعَت أيدي رجالٍ وأرجلُهم، وعمَّهم من البلاءِ العظيمِ ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، فردَّهم اللّهُ خائبين، والحمدُ للّه ربِّ العالمين.

وفيها: انقضَت الهُدْنةُ التي كانت بينَ العادلِ والفرنجِ، واتَّفَق قدومُ العادلِ من الديارِ المصرية، فاجْتَمع هو وولدُه المُعَظَّمُ ببَيْسانَ، فركِبَت الفرنجُ من عَكَّا ومقَدَّمُهم وصُحْبتُهم مُلوكُ السَّواحلِ كلُّهم، وساقوا كلُّهم قاصدين مُغافَصةَ العادل، فلما أحَسَّ بهم فر منهم لكثرةِ جُيوشِهم وقلة مَن كان معه، فقال له ابنُه المُعَظَّمُ: إلىٰ أين يا أبت؟ فشتَمه أبوه بالعَجَمية، وقال له: أقْطَعْتَ الشامَ مَماليكَك، وتركْتَ مَن يَنْفَعُني من أبناءِ الناسِ. فتوَجَّه العادلُ إلىٰ دمشقَ، وكتَب إلىٰ واليها المُعْتَمدِ ليُحَصِّنَها من الفرنجِ، ويَنْقُلَ إليها من الغَلاَّتِ من داريَّا إلىٰ القلعة، ويُرْسِلَ الماءَ علىٰ أراضي داريَّا، وقصرِ حَجَّاجٍ والشَّاغورِ، ففزِع الناسُ من ذلك، وابتَهَلوا إلىٰ اللّهِ بالدُّعاء، وكثُر ضجيجُهم بالجامعِ، وأقْبَل السُّلطانُ، فنزَل بمَرْجِ الصُّفَّرِ، وأرْسَل إلىٰ مُلوكِ الشرقِ ليَقْدَموا لقتالِ الفرنجِ، فكان أولَ مَن قدِم صاحبُ حِمْصَ أسَدُ الدينِ شيرَكُوه، فتلَقَّاه الناسُ، فدخَل من بابِ الفَرَجِ، وجاء فسلَّم علىٰ ستِّ الشامِ بدارِها عندَ المارَسْتَانِ، ثم عاد إلىٰ داره، ولما قدِم أسَدُ الدينِ سُرِّيَ عن الناسِ وأمِنوا فلما أصْبَح توَجَّه إلىٰ السلطان بمَرْجِ الصُّفَّرِ، وأما الفرنجُ فإنهم وردوا إلىٰ بَيْسانَ، فنهَبوا ما كان بها من الغَلاَّتِ والدَّوابِّ، وقتَلوا وأسروا شيئًا كثيرًا، وكذلك عاثوا في الأرضِ فَسادًا يَقْتُلون ويَنْهَبون ويَسْبُونَ ما بينَ بَيْسانَ إلىٰ بانياسَ، وخرَجوا إلىٰ أراضي الجَوْلانِ إلىٰ نوَىٰ وخِسْفِينَ وغيرِ ذلك من الأراضي، وسار الملكُ المُعَظَّمُ، فنزَل علىٰ عقبةِ اللبنِ بينَ القدسِ ونابُلُسَ خوفًا علىٰ القدسِ الشريفِ، ثم حاصَرَ الفرنجُ حصنَ الطُّورِ حِصارًا هائلاً، ومانَع عنه الذين به من الأبطالِ مُمانَعةً هائلةً، ثم كرَّ الفرنجُ راجعين إلىٰ عَكَّا، وجاء الملكُ المُعَظَّمُ إلىٰ الطُّورِ، فخلَع علىٰ الأمراءِ الذين به، وطيَّب نُفوسَهم، ثم اتَّفَق هو وأبوه علىٰ هدمه كما سيأْتي.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الشيخُ العمادُ أخو الحافظ عبد الغنيِّ، أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ عبدِ الواحدِ بن عليِّ بن سُرورٍ، الشيخُ عمادُ الدينِ المَقْدسيُّ[1]، كان أصْغَرَ من أخيه الحافظ عبدِ الغنيِّ بسنتين، وقدِم معهم إلىٰ دمشقَ سنةَ إحدىٰ وخمسين وخمسمائةٍ، ورحَل إلىٰ بغدادَ مرتين، وسمع الحديثَ، وكان عابدًا زاهدًا ورِعًا، كثيرَ الصلاة، كثيرَ الصِّيام؛ يَصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا، وكان فَقيهًا مُفْتيًا، له كتابُ «الفُرُوق»، وصنَّف أحْكامًا ولم يُتِمَّه، وكان يَؤُمُّ بمِحْرابِ الحَنابلةِ مع الشيخِ المُوَفَّقِ، وإنما كانوا يُصَلُّون بغيرِ مِحْرابٍ، ثم

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٤٧ ـ ٥٢).

وُضع المحرابُ في سنة سبعَ عشرةَ وستمائةٍ، وكان يَؤُمُّ بالناس فيه لقضاء الفوائت، وهو أولُ مَن فعَل ذلك. صلَّىٰ المغربَ ذات ليلةٍ وكان صائمًا، ثم رجَع إلىٰ بيته بدمشقَ، فأفطَر ثم مات فجأةً، فصلَّىٰ عليه بالجامع الأمويِّ الشيخُ المُوَفَّقُ عندَ مُصلَّاهم، ثم صعدوا به إلىٰ السَّفْح، وكان يومًا مشهودًا من كثرةِ الخلْق. قال سِبْطُ ابن الجوزيِّ: كان الخلقُ من الكهف إلىٰ مَغارة الدم إلىٰ المَيْطور، لو بُذِر السِّمْسِمُ ما وقَع إلا علىٰ رءوس الناس، فلما رجَعْتُ تلك الليلةَ فكَّرْتُ فيه وقلتُ: كان هذا رجلاً صالحًا ربَّما أنه نظَر إلىٰ ربِّه حينَ وُضع في لَحدِه. ومرَّ بذهْني أبياتُ الثَّوْريِّ التي أنْشَدها بعدَ موتِه في المَنام فقال:

نظَرْتُ إلى ربي كِفاحًا وقال لي ... هَنِيئًا رضايَ عنك يا بنَ سعيدِ
فقد كنتَ قَوَّامًا إذا أقبلَ الدُّجَى ... بعَبرةِ مُشْتاقٍ وقلبِ عَميدِ
فدونَك فاخْتَرْ أيَّ قَصرٍ أرَدْتَه ... وزُرْني فإني منك غَيرُ بَعيدِ

ثم قلتُ: أرْجُو أن يكونَ العمادُ رأىٰ ربَّه كما رآه سفيانُ الثَّوْريُّ. فنمْتُ فرأيْتُ الشيخَ العمادَ في النوم وعليه حُلَّةٌ خَضْراءُ، وعِمامةٌ خَضْراءُ، وهو في مكانٍ مُتَّسعٍ كأنه رَوْضةٌ، وهو يَرْقَىٰ في دَرَجٍ مُتَّسعةٍ، فقلتُ: يا عِمادَ الدينِ، كيف بِتَّ فإني واللَّهِ مُفكِّرٌ فيك؟ فنظَر إليَّ وتبَسَّم علىٰ عادتِه، ثم قال:

رأيتُ إلٰهي حينَ أُنْزِلتُ حُفْرتي ... وفارقْتُ أصحابي وأهلي وجِيرتي
وقال جُزِيتَ الخيرَ عني فإنني ... رَضِيتُ فَهَا عَفْوي لديكَ ورحمتي
دأبتَ زمانًا تأمُلُ الفوزَ والرِّضا ... فوُقِّيتَ نيراني ولُقِّيتَ جَنَّتي

قال: فانتَبَهْتُ وأنا مَذْعورٌ، وكَتَبْتُ الأبياتَ.

القاضي جمالُ الدين ابنُ الحَرَسْتانيِّ: عبدُ الصَّمَد بنُ محمد ابن أبي الفَضْل، أبو القاسم الأنصاريُّ ابنُ الحَرَسْتانيِّ، قاضي القُضاة بدمشقَ، وُلد سنةَ عشرين وخمسمائةٍ، وكان أبوه من أهلِ حَرَسْتا، فنزَل داخلَ بابِ تُومَا، وأمَّ بمسجدِ الزَّيْنَبيِّ، ونشَأ ولدُه هذا نَشْأةً حسَنةً، سمع الحديثَ الكثيرَ، وشارَك الحافظَ ابنَ عَساكرَ في كثيرٍ من شُيوخه، وكان يَجْلِسُ لإسْماع الحديث بمَقْصورة الخَضِر، وعندَها كان يُصَلِّي دائمًا، لا تَفوتُه الجَماعةُ بالجامع، وكان منزلُه بالحُوَيْرَة، ودرَّس بالمُجاهدية، وعُمِّر دهرًا طويلاً علىٰ هذا القَدَم الصالح وناب في الحكم عن ابن أبي عَصْرونَ، ثم ترَك ذلك ولزِم بيتَه وصلاتَه بالجامع، ثم عزَل العادلُ القاضيَ ابنَ الزَّكيِّ الطاهرَ بنَ محيي الدينِ محمدِ بنِ عليٍّ القرشيَّ، وألْزَم القاضيَ جمالَ الدين ابنَ الحَرَسْتانيِّ هذا بولاية القضاء، وله ثنتان وتسعون سنةً، وأعْطاه تَدْريسَ العَزيزية. وأخَذ التَّقَوِيَّةَ أيضًا من ابن الزَّكيِّ، وولَّاها فَخرَ الدينِ ابنَ عَساكرَ. قال ابنُ عبدِ السَّلام:

وما رأيتُ أحدًا أفقهَ من ابنِ الحَرَسْتانيِّ، كان يَحْفَظُ «الوسيطَ» للغزَّاليِّ. وذكَر غيرُ واحد أنه كان من أعْدَلِ القُضاة وأقومِهم بالحقِّ، لا تأخُذُه في اللهِ لَوْمةُ لائمٍ، وكان ابنُه عِمادُ الدين يَخْطُبُ بجامعِ دمشقَ، وولِي مَشْيَخةَ الأشْرَفيةِ يَنوبُ عنه، وكان القاضي جمالُ الدين يَجْلِسُ للحكمِ بمدرستِه المُجاهِديةِ، وكان السلطانُ قد أرسل إليه طَرَّاحةً ومَسْنَدًا لأجلِ أنه شيخٌ كبيرٌ، وكان ابنُه يَجْلِسُ بينَ يديه، فإذا نهض أبوه جلَس هو مكانَه، ثم إنه عزَل ابنَه عن نيابتِه لشيءٍ بلَغه عنه، واسْتَناب شمسَ الدينِ ابنَ الشِّيرازيِّ، وكان يَجْلِسُ تُجاهَه في شرقيِّ الإيوانِ، واسْتَناب أيضًا معه شمسَ الدينِ ابنَ سَنِيِّ الدولة، وبُنِيَت له دكةٌ في الزاويةِ القبليةِ بغَرْبِ المدرسةِ، واسْتَناب شرفَ الدينِ ابنَ المَوْصِليِّ الحَنَفيَّ، فكان يَجْلِسُ في محْرابِ المَدْرسةِ، واسْتَمَرَّ حاكمًا سنتين وسبعةَ أشهرٍ، ثم كانت وفاتُه يومَ السبتِ رابعَ ذي الحِجَّةِ من هذه السنة وله خمسٌ وتسعون سنةً، وصُلِّي عليه بجامعِ دمشقَ، ثم دُفِن بسَفْحِ قاسيونَ.

الأميرُ بدرُ الدين محمدُ بنُ أبي القاسم بن محمد الهكَّاريُّ، باني المدرسةِ التي بالقدسِ، وكان من خيارِ الأمراءِ، يَتَمَنَّى الشَّهادةَ دائمًا، فقتَلَته الفِرِنْجُ بحِصنِ الطُّورِ هذه السنةَ، ونُقِل إلى القدسِ الشريفِ فدُفِن بتربتِه بماملا، وتربتُه تُزارُ إلى الآن، رحِمه اللهُ.

الشُّجاعُ محمودٌ المعروفُ بالدَّمَّاغِ، كان من أصدقاءِ العادلِ يُضْحِكُه، فحصَّل أموالاً جَزيلةً، كانت دارُه داخلَ بابِ الفَرَجِ، فجعَلَتْها زوجتُه عائشةُ مَدْرَسةً للشافعيةِ والحنفيةِ، ووقَفَت عليها أوْقافًا دارَّةً. رحِمها اللهُ.

الشيخةُ الصالحةُ العابدةُ الزاهدةُ، شيخة العالمات بدمشقَ، وتُلقَّبُ بدُهْنِ اللَّوْزِ.

وفيها: توفِّيت بنت بوريحانَ، وهي آخرُ بناتِه وفاةً، وجعَلَت أموالَها وَقْفًا على تُرْبةِ أختِها بنتِ صفيةَ المشهورةِ.

* * *

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

استهلّت والعادلُ نازلٌ بمَرْج الصُّفَّر لمناجزة الفرنج، وأمَر ولدَه المُعَظَّمَ بتخريب حصن الطُّور، فخرَّبه ونقَل ما فيه من آلات الحرب إلى البُلدان خوفًا من الفرنج.

وفي ربيع الأول نزلَت الفرنجُ على دمياطَ، وأخذوا بُرْجَ السِّلْسلة في جُمادَىٰ الأولى، وكان حصنًا مَنيعًا، وهو قُفْلُ بلادِ مصرَ، فإن للّٰه وإنا إليه راجعون.

وفيها: الْتَقَى المُعَظَّمُ والفرنجُ على القَيْمُون، فكسَرهم وقتَل منهم خلقًا، وأسَر من الدَّاوِيَّة مائةً، فأدْخَلهم إلى القدس مُنَكَّسَةً أعلامُهم.

وفيها: جرَت خُطوبٌ كثيرةٌ ببلد المَوْصِل بسبب موت ملوكها أولاد قرَا أرْسَلان واحدًا بعدَ واحدٍ، وتغَلَّب غلامُ أبيهم بدرُ الدين لُؤْلُؤٌ على الأمور، ويُذكَرُ أنه هو الذي كان يقتُلُهم في الباطن ليَستحوذَ هو على الأمور، فاللّٰهُ أعلمُ.

وفيها: أقبَل ملكُ الروم كَيْكاوسُ بنُ كَيْخُسْرو يريدُ أخذَ مَمْلكة حلَبَ، وساعَده على ذلك الأفضلُ بنُ صلاح الدين صاحبُ سُمَيْساطَ، فصدَّه عن ذلك الملكُ الأشرفُ موسىٰ بنُ العادل، وقهَر ملكَ الروم، وكسَر جيشَه، وردَّه خائبًا.

وفيها: تملَّك الأشرفُ مدينةَ سِنْجارَ مُضافًا إلى ما بيده من المَمالك هنالك.

وفيها: تُوُفِّي السلطانُ الملكُ العادلُ أبو بكر بنُ أيوبَ. فأخَذَت الفرنجُ، لعَنهم اللّٰهُ، ثغرَ دمْياطَ، ثم ركِبوا، وقصَدوا بلادَ مصرَ من ثَغْر دمْياطَ، فحاصَروه مدة أربعة أشهر، والكاملُ محمدٌ مقابلُهم يُقاتِلُهم ويُمانِعُهم ويَصُدُّهم عما يُريدونه، فتملَّكوا على المسلمين بُرْجَ السِّلْسلة، وهو كالقُفْل على ديار مصرَ، وصفتُه في وسط جزيرة في النيل عندَ انتهائه إلى البحر، ومن هذا البرج إلى دمْياطَ - وهو على شاطئ البحر وحافة النيل - سلسلةٌ، ومنه إلى الجانب - الآخَر وعليه الجسرُ - سلسلةٌ أخرىٰ؛ ليمْنَعَ دخولَ المَراكب من البحر إلى النيل، فلا يُمكنُ الدُّخولُ، فلما ملَكَت الفرنجُ هذا البُرْجَ شقَّ ذلك على المسلمين بديار مصرَ وغيرها، وحينَ وصَل الخبرُ إلى الملك العادل وهو بمَرْج الصُّفَّر، تأوَّه لذلك تأوُّهًا شديدًا، ودقَّ بيده على صدره أسَفًا وحُزْنًا، ومرِضَ من ساعته مرضَ الموت لأمر يُريدُه اللّٰهُ عز وجل، فلما كان يومُ الجمعة سابعُ جُمادَىٰ الآخرة تُوُفِّي رحمه اللّٰهُ بقرية عالقين، فجاء ولدُه المُعَظَّمُ إليه مُسْرعًا، فجمَع حَواصلَه، وأرْسَله في مِحَفَّة، ومعه خادمٌ بصفة أن السلطانَ مَريضٌ، وكلما جاء أحدٌ من الأمراء ليُسلِّمَ على السلطان بلَّغهم عنه الطَّواشي، يعني لضعف السلطان عن الردِّ عليهم، فلما انْتُهي به إلى القلْعة المنصورة دُفن بها مدةً، ثم حُوِّل إلى تربته بمدرسة العادلية الكبيرة، وقد كان الملكُ سيفُ الدين أبو بكر بنُ أيوبَ بن شاذي من خيار الملوك وأجْودِهم سيرةً وأحسنِهم سريرةً، دينًا عاقلاً

صَبورًا وَقورًا، أبطَل المُحرَّمات والخمورَ والمَعازفَ من ممالكه كلِّها، وقد كانت مُمْتَدَّةً من أقصَى بلادِ مصرَ واليمنِ والشام والجَزيرةِ إلى هَمَذانَ كلِّها، أخَذها بعدَ أخيه صلاحِ الدينِ، رحمهما اللَّهُ وسوى حلَبَ، فإنه أقرَّها بيدِ ابنِ أخيه الظاهرِ غازي؛ لأنه زوجُ ابنته صَفيةَ الستِّ خاتون. وكان رحمه اللَّهُ حَليمًا صَفوحًا، صَبورًا على الأذَى، كثيرَ الجهادِ بنفسه، وحضَر مع أخيه مواقفَه كلَّها أو أكثرَها، وله في تلك الأيام اليدُ البيضاءُ، وكان رحمه اللَّهُ ماسكَ اليدِ، لكنه أنفَق في عامِ الغَلاءِ بمصرَ أموالاً عظيمةً جدًّا، وتصدَّق على أهلِ الحاجةِ من أبناءِ الناسِ وغيرِهم شيئًا كثيرًا، ثم في العامِ بعدَه في الفَناء كفَّن ثلاثمائة ألف إنسانٍ من الغرَباء، وكان كثيرَ الصَّدقة في أيام مرضِه، حتى كان يَخْلَعُ جَميعَ ما عليه ويَتصدَّقُ به وبمَرْكوبه، وكان كثيرَ الأكلِ، مُمَتَّعًا بصحته وعافيته مع كثرةِ صيامه، يأكُلُ في اليومِ الواحدِ أكَلاتٍ جيدةً، ثم بعدَ هذا يأكُلُ وقتَ النومِ رَطْلاً بالدمشقيِّ من الحَلْوَى السُّكَّريةِ اليابسةِ، وكان يَعْتَريه مرضٌ في أنفه في زمانِ الوَرْدِ، وكان لا يَقْدِرُ على الإقامة بدمشقَ حتى يَفْرُغَ زمنُ الوردِ، فكان يُضْرَبُ له الوطاقُ بمَرْجِ الصُّفَّرِ، ثم يَدْخُلُ البلدَ بعدَ ذلك. وتُوُفِّي، رحمه اللَّهُ، عن خمسٍ وسبعين سنةً.

وكان له من الأولادِ جَماعةٌ؛ محمدٌ الكاملُ صاحبُ مصرَ، وعيسى المُعَظَّمُ صاحبُ دمشقَ، وموسى الأشْرَفُ صاحبُ الجَزيرة وخِلاطَ وحَرَّانَ وغيرِ ذلك، والأوْحَدُ أيوبُ ومات قبلَه، والفائزُ إبراهيمُ، والمُظَفَّرُ غازي صاحبُ الرُّهَا، والعَزيزُ عثمانُ، والأمْجَدُ حسنٌ، وهما شقيقا المُعَظَّمِ، والمغيثُ محمودٌ، والحافظُ أرْسَلان صاحبُ جَعْبَرَ، والصالحُ إسماعيلُ، والقاهرُ إسحاقُ، ومُجيرُ الدينِ يَعقوبُ، وقُطْبُ الدينِ أحمدُ، وخَليلٌ، وكان أصغرَهم، وتَقيُّ الدينِ عباسٌ، وكان آخِرَهم وفاةً، بقِي إلى سنة ستين وستِّمائة، وكان له بناتٌ أشهرُهن السِّتُّ صَفيةُ خاتون زوجةُ الظاهرِ غازي صاحبِ حلَبَ وأمُّ الملكِ العزيزِ والدِ الناصرِ يوسُفَ الذي مَلَك دمشقَ، وإليه تُنْسَبُ الناصريَّتان بدمشقَ والجبلِ، وهو الذي قتَله هُولاوُو كما سيأتي.

صفة أخذ الفرنج دمياط

لما انتَهَى الخبرُ بموتِ العادلِ إلى ابنه محمد الكاملِ، وهو بثَغْرِ دمياطَ مرابطٌ الفرنجَ، أضْعَف ذلك أعْضادَ المسلمين وفشِلوا، ثم بلَغ الكاملَ خبرٌ آخَرُ أن الأميرَ أحمدَ بنَ عليِّ بنِ المَشْطوبِ، وكان أكبرَ أميرٍ بمصرَ، قد أراد أن يُبايعَ للفائزِ عِوَضًا عن الكاملِ، فساق وحدَه جَريدةً من دمياطَ قاصدًا إلى مصرَ لاسْتِدْراك هذا الخَطْبِ الجَسيمِ، ولما فقَده الجيشُ من بينهم انْحَلَّ نظامُهم، واعْتَقَدوا أنه قد حدَث أمرٌ أكبرُ مما بلَغهم، فركبوا وراءَه، فدخلَت الفرنجُ حينئذٍ بأمانٍ إلى الديارِ المصرية، واستَحْوَذوا على مُعَسْكرِ الكاملِ وأثقالِه وحواصلِ الجيشِ، فوقَع أمرٌ عظيمٌ جدًّا، وذلك بتقديرِ العزيزِ العليمِ، ودخَل

الكاملُ مصرَ، فلم يَقَعْ مما ظنَّه شيءٌ، وهرَب منه ابنُ المَشْطوبِ إلى الشام، ثم ركِب في الجيشِ إلى الفرنجِ، فإذا الأمرُ قد تزايدَ وقد تمكَّنوا هنالك من البُلْدانِ، وقتَلوا خَلْقًا، وغنِموا شيئًا كثيرًا، وعاثَت هناك أعرابٌ على أموالِ الناسِ ببلادِ دمياطَ، فكانوا أضرَّ على المسلمين من الفرنجِ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، فنزَل الكاملُ تُجاهَهم يُمانعُهم عن دخولِهم إلى القاهرةِ ومصرِهم بعدَ أن كان يمانعُهم عن دخولِ الثَّغرِ؛ وكتَب إلى إخوتِه يَسْتَحِثُّهم ويَسْتَنْجِدُ بهم، ويقولُ: الوَحاءَ الوَحاءَ، العَجَلَ العَجَلَ، أدركوا المسلمين قبلَ أن تَملِكَ الفرنجُ جميعَ الديارِ المصرية. فأقْبَلَت العَساكرُ الإسلاميةُ عندَ ذلك إليه من كلِّ مكانٍ، وكان أولَ مَن قدِم عليه أخوه الأشْرَفُ موسى صاحبُ الجزيرةِ، بيَّض اللَّهُ وجهَه، ثم المُعَظَّمُ، وكان من أمرِهم مع الفرنجِ ما سنَذْكُرُ بعدَ هذه السنة.

وفيها: ولِي حِسْبَةَ بغدادَ الصاحبُ مُحْيِي الدينِ يوسُفُ ابنُ الشيخِ أبي الفرجِ ابنِ الجوزيِّ، وهو مع ذلك يَعْمَلُ ميعادَ الوَعْظِ على قاعدةِ أبيه، وشُكِرَتْ مُباشَرتُه للحِسْبَة.

وفيها: فُوِّض إلى المُعَظَّمِ النظرُ في التُّرْبةِ البَدْرِيةِ تُجاهَ الشِّبْليَّةِ عندَ الجِسْرِ الذي على ثَوْرا، ويقالُ له: جِسْرُ كُحَيْلٍ. وهي مَنْسوبةٌ إلى بدرِ الدينِ حسنِ بنِ الدايةِ، كان هو وإخوتُه من أكابرِ أمراءِ نورِ الدينِ محمودِ بنِ زَنْكي.

قلتُ: وقد جُعِلَت في حدودِ الأربعين وستِّمائةٍ جامعًا فيه خطبةُ يومِ الجُمُعةِ، وللَّه الحمدُ.

وفيها: أرْسَل السلطانُ عَلاءُ الدينِ محمدُ بنُ تكِش إلى الملكِ العادلِ وهو مُخَيِّمٌ بمَرْجِ الصُّفَّرِ، فردَّ إليه مع الرسولِ خَطيبَ دمشقَ جمالَ الدينِ محمدَ بنَ عبدِ الملكِ الدَّوْلَعيَّ، واسْتُنيب عنه في الخَطابةِ الشيخُ المُوَفَّقُ عمرُ بنُ يوسفَ خطيبُ بيتِ الآبارِ، فأقام ببيتٍ في العَزيزيةِ يُباشِرُ عنه، حتى قدِم موتُ العادلِ، رحمه اللَّهُ.

وفيها: تُوُفِّي الملكُ القاهرُ صاحبُ المَوْصِلِ، فأُقيم ابنُه الصغيرُ مكانَه، ثم قُتِل، وتشَتَّت شَمْلُ البيتِ الأتابكيِّ، وتغَلَّب على الأمورِ الأميرُ بدرُ الدينِ لُؤْلُؤٌ غلامُ أبيهم نورِ الدينِ أرْسَلان.

وفيها: كان عودُ الوزيرِ صَفِيِّ الدينِ ابنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عليِّ بنِ شُكْرٍ من آمِدَ إلى دمشقَ بعدَ موتِ العادلِ، فعمِل فيه الشيخُ عَلَمُ الدينِ السخاويُّ مَقامةً يَمْدَحُه فيها ويبالغُ في شكرِه، وقد ذكَروا أنه كان مُتواضِعًا يُحبُّ الفُقهاءَ، ويُسَلِّمُ على الناسِ إذا اجْتاز بهم وهو راكبٌ في أُبَّهةِ وزارتِه، ثم إنه نُكِب في هذه السنة، وذلك أن الكاملَ هو الذي كان سببَ طَرْدِه وإبعادِه، كتَب إلى أخيه المُعَظَّمِ فيه، فاحْتاط على أموالِه وحَواصلِه، وعزَل ابنَه عن النَّظَرِ بالدَّواوينِ، وقد كان يَنوبُ عن أبيه في مدةِ غَيْبتِه.

وفي رجبٍ من هذه السنةِ أعاد المُعَظَّمُ ضَمانَ القِيانِ والخُمورِ وغيرِ ذلك من الفَواحشِ والمُنْكَراتِ التي كان أبوه قد أبْطَلها، بحيث إنه لم يَكُنْ أحدٌ يَتَجاسَرُ أن يَنْقُلَ خمرًا إلى دمشقَ إلا بالحيلةِ الخَفِيةِ،

واعتذرَ المعظَّمُ في صنعه هذا المُنْكرَ بقلة الأموالِ على الجُنْد، واحْتياجِهم إلى النَّفَقاتِ في قتالِ الفرنج. وما استشعر أنَّ هذا الصَّنيعَ يُديلُ عليهم الأعداءَ، ويُمكِّنُ فيهم الداءَ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من المشاهيرِ والأعْيان:

«السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب»، كما تقدم.

القاضي شَرَفُ الدِّين أبو طالب عبدُ اللَّه ابنُ زَيْن القُضاة عبد الرحمن بن سُلْطان بن يَحْيَى بن عليٍّ القرشيُّ الدمشقيُّ، من بني عمِّ ابنِ الزكيِّ، وكان أولَ مَن درَّس بالشامية البرّانية وبالرَّواحية أيضًا، وناب في الحكم عن ابنِ عمِّه محيي الدين ابنِ الزكيِّ. وتوفِّي في شعبانَ من هذه السنة، ودفن عند مسجد القدم.

أبو سليمانَ داودُ بنُ أبي الغنائم أحمدَ بن يحيى المُلْهَميُّ الضَّريرُ البَغْداديُّ، كان يُنْسَبُ إلى علم الأوائلِ، ولكنه كان يَتَستَّرُ بمذهبِ الظاهرية؛ ولهذا قال فيه ابنُ الساعي: الداوُديُّ مذهبًا، المَعَرِّيُّ أدبًا واعْتقادًا، ومن شعرِه قولُه:

إلى الرحمنِ أشكُوا ما أُلاقي	غَداةَ غَدَوا على هُوجِ النِّياقِ
سَأَلْتُكُمْ بِمَن زمَّ المَطايا	أَمَرٌّ بكم أَمَرُّ من الفراقِ
وهل داءٌ أشَدُّ من التَّنائي	وهل عيشٌ ألَذُّ من التَّلاقي

قاضي قُضاة بَغدادَ عمادُ الدين أبو القاسم عبدُ اللَّه بنُ الحسين بن الدَّامَغانيِّ الحنفيُّ، سمع الحديثَ، وتفَقَّه على مذهبِ أبي حَنيفةَ، ووَلِيَ القَضاءَ ببغدادَ مرتين نحوًا من سَبْعَ عَشْرةَ سنةً، وكان مَشكورَ السيرة، عارفًا بالحسابِ والفَرائضِ وقِسْمة التَّرِكات.

أبو اليُمْن نجاحُ بنُ عبد اللَّه الحَبَشيُّ الشَّرابيُّ نَجْمُ الدين، مولى الخَليفة الناصر، وكان لا يُفارِقُ الخليفةَ، وكان يُسَمَّى سَلْمانَ دارِ الخلافة، وقد وجَد عليه الخليفةُ وَجْدًا عظيمًا، وكان يومُ جنازته يومًا مشهودًا، كان بينَ يدي النعْشِ مائةُ بقرةٍ وألفُ شاةٍ وأحْمالٌ من التمرِ والخبزِ والماوَرْد، وقد صلَّى عليه الخليفةُ بنفسه تحتَ التاجِ، وتصَدَّق عنه بعشَرةِ آلافِ دينارٍ على المَشاهِد، ومثلِها على المُجاوِرين بالحرَمَيْن، وأعْتَق مَماليكَه، وأوقف عنه خمسَمائة مجلد.

أبو المُظَفَّر محمدُ بنُ عُلْوانَ بن مُهاجر بن عليٍّ بن مُهاجر المَوْصليُّ، تفَقَّه بالنِّظامية، وسمع الحديثَ، ثم عاد إلى الموصلِ، فساد أهلَ وقته، وتقَدَّمَ في الفَتْوَىٰ والتَّدْريس بمدرسةِ بدرِ الدين لُؤْلُؤ وغيرِها، وكان صالحًا دَيِّنًا، رحمه اللَّهُ.

أبو الطيِّب رزقُ اللَّه بنُ يحيى بن رزق اللَّه بن يحيى بن خَليفةَ بن سليمانَ بن رزقِ اللَّه بن غانمِ بن غنَّام الماحُوزيُّ، المُحدِّثُ الجَوَّالُ الرَّحَّالُ الثقةُ الحافظُ الأديبُ الشاعرُ.

أبو العباس أحمدُ بنُ برنقش بن عبد اللَّه العماديُّ، كان من أمراءِ سِنْجارَ، وكان أبوه من مَوالي الملكِ عمادِ الدين زَنْكي صاحبِها، وكان أحمدُ هذا أديبًا شاعرًا، ذا مالٍ جَزيلٍ وأملاكٍ كثيرةٍ، وقد احتاط على أموالِه قُطْبُ الدينِ محمدُ بنُ عمادِ الدينِ زَنْكي، وأوْدَعه سجنًا، فنُسي فيه، ومات كَمَدًا، ومن شعرِه:

تقولُ وقد ودَّعْتُها ودموعُها ... على نحرِها من خشيةِ البَيْنِ تَلْتَقي
مضَى أكثرُ العمرِ الذي كان نافعًا ... رُوَيْدَك فاعْمَلْ صالحًا في الذي بَقِي

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

فيها أمَر الشيخُ مُحْيي الدينِ ابنُ الجوزيِّ مُحْتَسِبُ بغدادَ بإزالةِ المُنْكَراتِ وكسْرِ الملاهي، ففُعِل ذلك في مستهَلِّ هذه السنةِ، وللَّه الحمدُ والمِنَّةُ.

ظهورُ جِنْكِزْخان وجنودِه وعبورُهم نهرَ جَيْحونَ

وفيها: عبَرَت التَّتارُ نهرَ جَيْحونَ صُحْبةَ ملكِهم جِنْكِزْخان من بلادِهم، وكانوا يَسْكُنون جبالَ طمغاجَ من أرضِ الصينِ، ولُغَتُهم مُخالِفةٌ للغةِ سائرِ التَّتارِ، وهم من أشجعِهم وأصبرِهم على القتالِ، وسببُ دخولِهم أن جِنْكِزْخان بعَث تُجَّارًا له، ومعهم أموالٌ كثيرةٌ إلى بلادِ خُوارَزم شاه يَتَبَضَّعون له ثيابًا للكُسْوةِ، فكتَب نائبُها إلى السلطانِ خُوارِزم شاه يَذْكُرُ له ما معهم من كثرةِ الأموالِ، فأرْسَل إليه بقَتْلِهم وبأخْذِ ما معهم، ففعَل ذلك، فغَضِب عندَ ذلك جِنْكِزْخان وأرْسَل يَتَهَدَّدُ خُوارَزْم شاه، فأشار مَن أشار على خُوارَزْم شاه بالمسيرِ إليهم، فسار إليهم وهم في شُغْلٍ بقتالِ كشلي خان، فنهب خوارزم شاه أموالَهم، وسبَى ذَرارِيَّهم وأطفالَهم، فأقْبَلوا إليه مَحْرُوبين، فاقْتَتلوا معه أربعةَ أيامٍ قتالًا لم يُسْمَعْ بمثلِه، أولئك يُقاتِلون عن حَرِيمِهم، والمسلمون عن أنفسِهم، يَعْلَمون أنهم متى وَلَّوا استَأْصَلوهم، فقُتِل من الفَرِيقَيْن خلقٌ كثيرٌ، حتى إن الخيولَ كانت تَزْلَقُ في الدماءِ، وكان جملةُ مَن قُتِل من المسلمين نحوًا من عشرين ألفًا، ومن التَّتارِ أضْعافُ ذلك، ثم تَحاجَز الفريقان، وولَّى كلٌّ منهم إلى بلادِه، ولجَأ خُوارَزْم شاه وأصحابُه إلى بُخارَى وسَمَرْقَنْدَ، فحصَّنها وبالَغ في كثرةِ مَن ترَك فيها من المقاتلةِ، ورجَع خوارَزْم شاه ليُجَهِّزَ الجيوشَ الكثيرةَ، فقصَدَت التَّتارُ بُخارَى وبها عشرون ألفَ مُقاتِلٍ، فحاصَرها جِنْكِزْخان ثلاثةَ أيامٍ، فطلَب منه أهلُها الأمانَ فأمَّنهم، ودخَلَها فأحْسَن السِّيرةَ فيهم مَكْرًا وخَديعةً، وامْتَنَعت عليه القَلْعةُ، فحاصَرها واستَعْمل أهلَ البلدِ في طَمِّ خَنْدَقِها، فكانت التَّتارُ يأتون بالمَنابرِ والرَّبَعاتِ، فيَطْرَحونها في الخَنْدقِ يَطُمُّونه بها، ففتَحها قَسْرًا في عشَرةِ

أيام، فقتَل كلَّ مَن كان بها، ثم عاد إلى البلدِ فاصطفَى أموالَ تُجَّارِها، وأباحَها لجندِه، فقتَلوا من أهلِها خلقًا لا يَعْلَمُهم إلا اللَّهُ عز وجل، وأسَروا الذريةَ والنساءَ، وفعَلوا بهن الفَواحشَ بحَضْرةِ أهليهن، فمن الناسِ مَن قاتَل دونَ حَرِيمِه حتى قُتِل، ومنهم مَن أُسِر فعُذِّب بأنواعِ العذابِ، وكثُر البكاءُ والضجيجُ بالبلدِ، ثم ألقَت التَّتارُ النارَ في دُورِ بُخارَىٰ ومدارِسِها ومساجدِها، فاحتَرَقَت حتى صارت بَلاقعَ خاويةً على عُروشِها، ثم كرُّوا راجعين عنها قاصدين سَمَرْقَنْدَ، فكان من أمرِهم فيها ما سيأتي ذكرُه في السنة الآتية.

وفي مُسْتَهَلِّ هذه السنةِ خُرِّب سُورُ بيتِ المقدسِ -عمَّره اللَّهُ بذكرِه- أمَر بذلك السلطانُ المعظَّمُ خوفًا من استيلاءِ الفرنجِ عليه، بعدَ مَشورةِ مَن أشار بذلك؛ فإن الفرنجَ إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلةً إلى أخذ الشامِ جميعِه، فشرَع في تخريبِ السورِ في أولِ يومٍ من المُحَرَّمِ، فهرَب منه أهلُه خوفًا من الفرنجِ أن يَهْجُموا عليهم ليلًا أو نهارًا، وترَكوا أموالَهم وأثقالَهم، وتمَزَّقوا في البلادِ كلَّ مُمَزَّقٍ، حتى قيل: إنه أُبيعَ القِنْطارُ من الزيتِ بعشَرةِ دراهمَ، ورَطْلُ النُّحاسِ بنصفِ درهمٍ، وضجَّ الناسُ وابْتَهَلوا إلى اللَّهِ عز وجل عندَ الصخرةِ وفي الأقصى. وقال بعضُهم يَهْجُو المُعَظَّمَ في ذلك:

في رجبٍ حَلَّل المُحَرَّمْ ... وأخرب القدسَ في المُحَرَّمْ

وفيها: استَحْوَذَت الفرنجُ، لعَنهم اللَّهُ، على مدينةِ دِمْياطَ، ودخَلوها بالأمانِ، فغدَروا بأهلِها، وقتَلوا رجالَها، وسبَوْا نساءَها وأطفالَها، وفجَروا بالنساءِ، وبعَثوا بمنبرِ الجامعِ والرَّبَعاتِ ورءوسِ القتلى إلى الجزائرِ، وجعَلوا الجامعَ كَنيسةً ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفيها: تَغَيَّظَ السلطانُ المُعَظَّمُ على القاضي زكيِّ الدينِ ابنِ مُحْيِي الدينِ ابنِ الزَّكيِّ قاضي البلدِ؛ وسببُه أن عمتَه سِتَّ الشامِ بنتَ أيوبَ كانت قد مرِضَت في دارِها التي جعَلَتْها بعدَها مدرسةً، فأرْسلَت إلى القاضي لتُوصيَ إليه، فذهَب إليها بشهودٍ معه، فكتَب الوصيةَ كما قالت، فقال المُعَظَّمُ: يَذْهَبُ إلى عمتي بغيرِ إذني، ويَسْمَعُ هو والشهودُ كلامَها؟! واتَّفَق أن القاضيَ طلَب من جابي العَزيزيةِ حسابَها، وضرَبه بينَ يديه بالمَقارعِ، وكان المُعَظَّمُ يُبْغِضُ هذا القاضيَ من أيامِ أبيه العادلِ، فعندَ ذلك أرْسَل المُعَظَّمُ إلى القاضي ببُقْجةٍ فيها قَباءٌ وكَلُّوتةٌ؛ القَباءُ أبيضُ والكَلُّوتةُ صفراءُ. وقيل: بل كانا حَمْراوين مُدَرَّنَيْن، وحلَف الرسولُ عن السلطانِ لَيَلْبَسَنَّهما ويَحْكُمُ بينَ الخُصومِ فيهما، وكان من لُطفِ اللَّهِ أن جاءَته الرسالةُ بهذا وهو في دِهْليزِ دارِه التي ببابِ البَريدِ، وهو مُنْتَصِبٌ للحكمِ، فلم يَقْدِرْ إلا أن لَبِسَهما وحكَم فيهما، ثم دخَل دارَه، واستَقْبَل مرضَ موتِه، فكانت وفاتُه في صفرٍ من السنةِ التي بعدَها، وكان الشرفُ بنُ عُنَيْنٍ الزُّرَعيُّ الشاعرُ قد أظْهَر التَّعَبُّدَ والنُّسُكَ، ويقالُ: إنه

اعْتَكَفَ بالجامع أيضًا. فأرْسَل إليه المُعَظَّمُ بخمرٍ ونَرْدٍ ليَشْتَغِلَ بهما، فكتَب إليه ابنُ عُنَيْن:

يا أيُّها الملكُ المُعَظَّمُ سُنَّةً ... أحْدَثْتَها تَبْقَى على الآبادِ
تَجْري الملوكُ على طريقك بعدَها ... خَلْعُ القُضاةِ وتُحْفَةُ الزُّهَّادِ

وقد كان نُوَّابُ ابنِ الزَّكيِّ أربعةً؛ شمسُ الدينِ ابنُ الشِّيرازيِّ إمامُ مشهدِ عليٍّ، كان يَحْكُمُ به في الشُّبَّاك، وربما برَز إلى طَرَف الرِّواقِ تُجاهَ البَلاطةِ السوداء، وشمسُ الدينِ ابنُ سَنِيِّ الدولة، كان يَحْكُمُ في الشُّبَّاك الذي في الكَلَّاسة تُجاهَ تُرْبة الملك صلاح الدين عندَ باب الغَزَّاليَّة، وجمالُ الدينِ المصريُّ، وكيلُ بيتِ المال، كان يَحْكُمُ في الشُّبَّاك الكَماليِّ بمشهد عثمانَ، وشرفُ الدينِ الموصليُّ الحنفيُّ كان يَحْكُمُ بالمدرسة الطَّرْخانيَّة بجَيْرونَ. واللَّهُ تعالى أعلمُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

سِتُّ الشام، واقفةُ المَدْرستَيْن البَرَّانيَّة والجَوَّانيَّة، **الخاتون الجليلةُ ستُّ الشام بنتُ أيوبَ بن شاذي**، أختُ الملوك وعمةُ أولادهم، كان لها من الملوك المَحارمِ خمسةٌ وثلاثون ملكًا، منهم شقيقُها المُعَظَّمُ تُورنشاه بنُ أيوبَ صاحبُ اليمن، وهو مَدْفونٌ عندَها في تُرْبَتِها في القبرِ القِبْليِّ من الثلاثة، وفي الأوسطِ منها زوجُها وابنُ عمِّها ناصرُ الدين محمدُ بنُ أسد الدين شِيرِكُوه بن شاذي صاحبُ حمصَ، وكانت قد تَزَوَّجَته بعدَ أبي ابنها حُسام الدين محمد بن عمرَ بن لاجينَ، وهي وابنُها حُسامُ الدين محمدُ بنُ عمرَ في القبر الثالث، وهو الذي يَلي مكانَ الدرس، ويقالُ للتُّرْبة والمدرسة: الحُساميةُ نسبةً إلى ابنها هذا حُسامِ الدين محمدِ بن عمرَ بن لاجينَ، وكانت ستُّ الشام من أكثر النساء صَدَقةً وإحسانًا إلى الفقراء والمَحاويج، وكانت تَعْمَلُ في كلِّ سنة في دارها بألوفٍ من الذهب أَشْربةً وأدْويةً وعَقاقيرَ وغيرَ ذلك، وتُفَرِّقُه على الناس. وكانت وفاتُها يومَ الجمعة آخرَ النهار السادسَ عشَرَ من ذي القَعْدة من هذه السنة في دارها التي جعلَتْها مدرسةً، وهي عندَ المارَسْتان، وهي الشاميةُ الجَوَّانيةُ، ونُقِلَت منها إلى تُرْبَتِها بالشامية البَرَّانية، وكانت جنازتُها عظيمةً حافلةً، رحمها اللَّهُ.

أبو البَقاء صاحبُ «الإعراب» و«اللُّباب»: عبدُ اللَّه بنُ الحسين بن عبد اللَّه، الشيخُ أبو البَقاء العُكْبَريُّ الضَّريرُ النحويُّ الحَنْبليُّ، صاحبُ «إعراب القرآن العزيز» وكتاب «اللُّباب» في النحو، وله حَواشٍ على «المَقامات» و«مُفَصَّل الزَّمَخْشَري» و«ديوان المُتَنَبِّي» وغيرُ ذلك، وله في الحساب وغيره، وكان صالحًا دَيِّنًا، مات وقد قارَب الثمانين، رحمه اللَّهُ، وكان إمامًا في اللغة والحساب والنحو، فَقيهًا مُناظِرًا عارفًا بالأصلَيْن والفقه، وحكَى القاضي ابنُ خَلِّكانَ عنه أنه ذكَر في شرح: «المَقامات» أن عَنْقاءَ مُغْرِبًا كانت تأتي إلى جبلٍ شاهقٍ عندَ أصحاب الرَّسِّ، فربما اخْتَطَفَت بعضَ أولادهم، فشكَوْها إلى نبيِّهم حَنْظلةَ بن صَفْوانَ، فدعا عليها فهلكَت. قال: وكان وجْهُها كوجه الإنسان، وفيها شَبَهٌ من كلِّ

طائر. وذكر الزَّمَخْشَرِيُّ في كتاب «ربيع الأبرار» أنها كانت في زمن موسى لها أربعةُ أجنحةٍ من كلِّ جانبٍ، ووجهٌ كوجه الإنسان، وفيها شَبَهٌ كثيرٌ من سائر الحيوانات، وأنها تأخَّرت إلى زمن خالد بن سنانٍ العَبْسيِّ الذي كان في الفَتْرة، فدعا عليها فهلَكت. وذكَر ابنُ خَلِّكان أن المُعزَّ الفاطميَّ جِيءَ إليه بطائرٍ غريبِ الشكلِ جدًّا من الصَّعيد يقالُ له: عَنْقاءُ مُغْرِبٌ.

قلتُ: وكلٌّ واحدٍ من خالد بن سنانٍ وحَنْظَلَةَ بن صَفْوانَ كان في زمن الفَتْرة، وكان صالحًا، ولم يَكُنْ نبيًّا، لقول رسول اللَّه ﷺ: «أنا أَوْلَى الناسِ بعيسى ابنِ مريمَ؛ لأنه ليس بيني وبينه نبيٌّ»(١). وقد تقدَّم ذلك.

الحافظُ عمادُ الدين أبو القاسم عليُّ ابنُ الحافظ بَهاء الدين أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم عليِّ بن الحسن بن هبة اللَّه بن عَساكرَ الدمشقيُّ، سمع الكثيرَ، ورحَل فمات ببغدادَ في هذه السنة، ومن لَطيفِ شعره قولُه في المِرْوَحة:

ومَروَحةٍ تُرَوِّحُ كلَّ هَمٍّ	ثلاثةَ أشهُرٍ لابدَّ منها
حَزيرانٌ وتَمُّوزٌ وآبٌ	وفي أَيْلولَ يُغْني اللَّهُ عنها

ابنُ الدَّواميِّ الشاعرُ، وقد أوْرَد ابنُ الساعي قطعةً صالحةً من شعره.

وسعيدُ بنُ الرَّزَّاز، وكان أحدَ المُعَدَّلين ببغدادَ، وسمع «البُخاريَّ» من أبي الوَقْت.

وأبو سعيد محمدُ بنُ محمود بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن، المَرْوَزيُّ الأصلِ الهَمَذانيُّ المَوْلد البَغْداديُّ المَنْشأ والوفاة، كان حسَنَ الشكلِ، كاملَ الأوصاف، له خطٌّ حسنٌ، ويَعْرِفُ فنونًا كثيرةً من العلوم، شافعيَّ المذهب، ويَتَكلَّمُ في مسائل الخلاف، حسَنَ الأخلاق، ومن شعره قولُه:

أرَى قِسَمَ الأرزاقِ أعجبَ قِسْمَةٍ	لذي دَعَةٍ مُثْرٍ ومُكْدٍ به الكَدُّ
وأحْمَقُ ذو مالٍ وأحمقُ مُعْدَمٌ	وعقلٌ بلا حظٍّ وعقلٌ له جَدُّ
يَعُمُّ الغِنَى والفقرُ ذا الجهلِ والحِجَا	وللَّه من قبلُ الأمورُ ومن بعدُ

أبو زكريا يحيى بنُ القاسم بن المُفَرِّج بن درْع بن الخَضِر الشافعيُّ، الشيخُ تاجُ الدين التَّكْرِيتيُّ، قاضيها، ثم درَّس بنظامية بغدادَ، وكان مُتْقِنًا لعلوم كثيرة؛ منها التفسيرُ والفقهُ والأدبُ والنحوُ واللغةُ، وله المُصَنَّفاتُ في ذلك كلِّه، وجمَع لنفسه تاريخًا حسنًا، ومن شعره قولُه:

لابدَّ للمرءِ من ضِيقٍ ومن سَعَةٍ	ومن سُرورٍ يُوافيه ومن حَزَنِ
واللَّهُ يَطْلُبُ منه شُكْرَ نِعْمَتِهِ	مادام فيها ويَبْغي الصبرَ في المِحَنِ
فكُنْ مع اللَّه في الحالَيْن مُعْتَنِقًا	فَرضَيْكَ هذين في سِرٍّ وفي عَلَنِ
فما على شدةٍ يَبْقَى الزمانُ فكُنْ	جَلْدًا ولا نعمةٌ تَبْقَى على الزمنِ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن ذلك قولُه :

لو كـــان قـــاضي الهَـــوَى عليَّ ولي مـــا جـــار في الحكم مَن عليَّ ولي
يا يوســـفيَّ الجـمـــال عـــبـــدُك لَمْ تَبْقَ لـه حـــيـــلـةٌ مـن الحـــيَـلِ
إنْ كـــان قُـــدَّ القَـــمـــيصُ من دُبُرٍ فـــفـــيكَ قُـــدَّ الفـــؤادُ من قُـــبُلِ

صاحبُ «الجَواهر» الشيخُ الإمامُ العلامةُ جَلالُ الدين أبو محمد عبدُ اللَّه بنُ نَجْم بن شاسٍ بن نزار بنِ عَشائرَ بن عبدِ اللَّهِ بن محمدِ بن شاس الجُذاميُّ السَّعْديُّ، الفقيهُ المالكيُّ، مُصنِّفُ كتابِ «الجَواهرِ الثَّمينةِ في مذهبِ عالمِ المدينةِ»، وهو مِن أكثرِ الكتبِ فَوائدَ في الفُروعِ، رتَّبه على طريقةِ «الوَجيزِ» للغَزَّاليِّ. قال ابنُ خَلِّكانَ: وفيه دَلالةٌ على غَزارةِ علمه وفَضْله، والطائفةُ المالكيةُ بمصرَ عاكفةٌ عليه لحسنِه وكَثْرةِ فَوائده، وكان مُدَرِّسًا بمصرَ، وتوفِّي بدِمْياطَ.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

في هذه السنةِ عمَّ البَلاءُ، وعظُم العَزاء بجِنْكِزْخان المُسَمَّى بتَمُوجين، لعَنه اللَّهُ تعالى وبمن معه من التَّتارِ، قبَّحهم اللَّهُ أجْمعين، واستَفْحَل أمرُهم، وامتدَّ إفْسادُهم مِن أقصى بلادِ الصينِ إلى أن وصَلوا إلى بلادِ العراقِ وما حولَها حتى انْتَهَوْا إلى إرْبِلَ وأعمالِها، فملَكوا في سنةٍ واحدةٍ، وهي هذه السنةُ، سائرَ المَمالكِ إلا العراقَ والجَزيرةَ والشامَ ومصرَ، وقهَروا جميعَ الطَّوائفِ التي بتلك النواحي الخوارزمية والقفجاق والكرجِ واللاَّن والخزر وغيرهم، وقتلوا في هذه السنة من المسلمين وغيرِهم في بُلْدانٍ مُتَعددةٍ كبارٍ وصغارٍ ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، وبالجملة فلم يَدْخُلوا بلدًا إلا قتَلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيرًا من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنَّهْبِ إن احْتاجوا إليه، وبالحَريقِ إن لم يَحْتاجوا إليه، حتى إنهم كانوا يَجْمَعون الحَريرَ الكثيرَ الذي يَعْجِزون عن حمله، فيُطْلِقون فيه النارَ فيُحْرَقُ وهم يَنْظُرون إليه، ويُخَرِّبون المَنازلَ، وما عجَزوا عن تَخْريبِه أحرقوه، وأكثرُ ما يُحَرِّقون المساجدُ والجَوامعُ، لعَنهم اللَّهُ تعالى، وكانوا يأْخُذون الأَسارَى مِن المسلمين، فيُقاتِلون بهم، ويُحاصِرون بهم، وإن لم يَنْصَحوا في القتالِ قتَلوهم.

وقد بسَط ابنُ الأثيرِ في «كامله» خبرَهم في هذه السنةِ بَسْطًا حسَنًا مُفَصَّلًا، وقدَّم على ذلك كلامًا هائلًا في تعظيمِ هذا الخَطْبِ العَجيبِ، قال: فنقولُ: هذا فصلٌ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ الحادثةِ العُظْمَى والمُصيبةِ الكبرى التي عقمَت الأيامُ والليالي عن مثلِها، عمَّت الخَلائقَ، وخصَّت المسلمين، فلو قال قائلٌ: إن العالمَ منذ خلَق اللَّهُ آدمَ وإلى الآنَ، لم يُبْتَلَوْا بمثلِها. لكان صادقًا؛ فإن التَّواريخَ لم تَتَضَمَّنْ ما يُقارِبُها ولا ما يُدانيها، ومِن أعظمِ ما يَذْكُرون مِن الحوادثِ ما فعَل بُخْتُنَصَّرَ ببني إسرائيلَ مِن القتلِ وتَخْريبِ البيتِ المقدَّسِ، وما البيتُ المقدَّسُ بالنسبةِ إلى ما خرَّب هؤلاءِ الملاعينُ مِن البلادِ، التي كلُّ مدينةٍ منها

أضعافُ البيت المقدَّس؟! وما بنو إسرائيلَ بالنسبة إلى مَن قتَلوا؟ فإن أهلَ مدينةٍ واحدةٍ ممَّن قتَلوا أكثرُ من بني إسرائيلَ، ولعل الخلقَ لا يَرَوْنَ مثلَ هذه الحادثة إلى أن يَنقَرِضَ العالمُ وتَفْنَى الدنيا إلا يأجوجَ ومأجوجَ، وأما الدَّجَّالُ فإنه يُبقي على مَن اتَّبعه ويُهلِكُ مَن خالَفه، وهؤلاء لم يُبقُوا على أحدٍ، بل قتَلوا الرجالَ والنساءَ والأطفالَ، وشقُّوا بُطونَ الحَوامِلِ، وقتَلوا الأَجِنَّةَ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللَّه العليِّ العظيمِ، لهذه الحادثة التي استَطار شرَرُها وعمَّ ضررُها، وسارَت في البلاد كالسَّحاب استَدبَرَته الريحُ، فإن قومًا خرَجوا من أطراف الصين، فقصَدوا بلادَ تُرْكِستانَ مثلَ كاشْغَرَ وبَلاسَاغُونَ، ثم منها إلى بلادِ ما وراءَ النهرِ مثلَ سَمَرْقَنْدَ وبُخارَىٰ وغيرِهما، فيَملِكونها ويَفعَلون بأهلِها ما نَذْكُرُه، ثم تَعْبُرُ طائفةٌ منهم إلى خُراسانَ، فيَفرُغون منها مُلْكًا وتَخريبًا وقتلاً ونهبًا، ثم يُجاوِزُونها إلى الرَّيِّ وهَمَذانَ وبلدِ الجبلِ وما فيه من البلاد إلى حَدِّ العراقِ، ثم يَقصِدون بلادَ أذْرِبيجانَ وأَرَّانَ، ويُخرِّبونها ويَقتُلون أكثرَ أهلِها، ولم يَنجُ إلا الشَّريدُ النادرُ في أقلَّ من سنةٍ، هذا ما لم يُسمَعْ بمثله.

ثم سارُوا إلى دَرْبَنْد شَرْوانَ، فملَكوا مدنَه، ولم يَسلَمْ غيرُ قلعتِه التي بها ملِكُهم، وعبَروا عندَها إلى بلدِ اللانِ واللَّكْزِ، ومَن في ذلك الصُّقْعِ من الأمم المختلفة، فأوْسَعوهم قتلاً ونهبًا وتخريبًا، ثم قصَدوا بلادَ قَفْجاقَ، وهم من أكثرِ الترك عددًا، فقتَلوا كلَّ مَن وقَف لهم، وهرَب الباقون إلى الغياضِ، وملَكوا عليهم بلادَهم. وسارت طائفةٌ أخرىٰ إلى غَزْنَةَ وأعمالِها وما يُجاوِرُها من بلادِ الهند وسِجِسْتانَ وكَرْمانَ، ففعَلوا فيها مثلَ أفعالِ هؤلاء وأشدَّ.

هذا ما لم يَطرُقِ الأسماعَ مثلُه، فإن الإسكَنْدَرَ الذي اتَّفَق المُؤرِّخون على أنه ملَك الدنيا، لم يَملِكْها في سنةٍ واحدةٍ، إنما ملَكها في نحوِ عشرِ سنينَ، ولم يَقتُلْ أحدًا، بل رضِي من الناسِ بالطاعة، وهؤلاء قد ملَكوا أكثرَ المَعْمورِ من الأرضِ وأطيَبَه وأحسَنَه عمارةً وأكثرَه أهلاً، وأعدَلَهم أخلاقًا وسيرةً في نحوِ سنةٍ، ولم يَتَّفِقْ لأحدٍ من أهلِ البلادِ التي لم يَطرُقُوها بقاءٌ إلا وهو خائفٌ مُتَرقِّبٌ وصولَهم، وهم مع ذلك يَسْجُدون للشمس إذا طلَعت، ولا يُحرِّمون شيئًا، ويأكُلون ما وجَدوه من الحيوانات والمَيْتاتِ، لعَنهم اللَّهُ تعالىٰ.

قال: وإنما استَقام لهم هذا الأمرُ لعدمِ المانعِ؛ لأن السلطانَ خُوارَزْم شاه محمدًا كان قد قتَل الملوكَ من سائرِ المَمالك، واستقلَّ بالأمورِ، فلما انْهَزَم منهم في العامِ الماضي، وضعُف عنهم، وساقوا وراءَه فهرَب، فلا يُدْرَىٰ أين ذهَب، وهلَك في بعضِ جَزائرِ البحرِ، خلَت البلادُ، ولم يَبْقَ لها مَن يَحْميها، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أمرًا كان مفعولاً، وإلى اللَّه تُرْجَعُ الأمورُ.

ثم شرَع في تَفصيلِ ما ذكَره مُجْمَلاً، فذكَر أولاً ما قدَّمْنا ذكرَه في العامِ الماضي من بعث جِنْكِزْخان

أولئك التُّجَّارَ بمالٍ له يأتونه بثمنه كُسْوةً ولباسًا، وأخَذَ خُوارَزم شاه تلك الأموال، فحنق عليه جنكزخان، وأرسل يتهدده، فسار إليه خوارزم شاه بنفسه وجُنوده، فوجَد التَّتارَ مَشْغولين بقتال كَشْلي خان، فنهَب أثقالَهم ونساءَهم وأطفالَهم، فرجَعوا وقد انْتَصرُوا على عدوِّهم، وازْدادوا حَنَقًا وغيظًا، فتواقَعوا هم وإياه مع ابنِ جِنْكِزْخان ثلاثةَ أيامٍ، فقُتِل من الفريقَيْن خلقٌ كثيرٌ، ثم تَحاجَزوا، ورجَع خُوارَزْم شاه إلى أطراف بلاده، فحصَّنها ثم كرَّ راجعًا إلى مقرِّ ملكه وهي مدينةُ خُوارَزْم، فأقبَل جِنْكِزْخان، فحصَر بُخارىٰ كما ذكَرْنا، فافْتَتَحها صُلْحًا، وغدَر بأهلها، حين افْتَتَح قلْعَتها قهْرًا، وقتَل الجميعَ، وأخَذ الأموالَ، وسبَى النِّساءَ والأطفالَ، وخرَّب الدُّورَ والمَحالَّ، وقد كان بها عشرون ألفَ مُقاتِلٍ، فلم يُغْنِ عنهم شيئًا، ثم سار منها إلى سَمَرْقَنْدَ، فحاصرَها في أوَّلِ محرَّمٍ هذه السنة، وبها خمسون ألفَ مُقاتِلٍ من الجند فنكَلوا، وبرزَ إليهم سبعون ألفًا من العامَّة، فقُتِل الجَميعُ في ساعةٍ واحدةٍ، وألْقىٰ إليه الخمسونَ ألفًا السَّلَمَ، فسلَبهم سلاحَهم، وما يَمْتَنِعون به، وقتَلَهم في ذلك اليوم، واستَباح البلدَ، فقتَل الجميعَ، وأخَذ الأموالَ، وسبَى الذُّرِّيَّةَ، وحرَّقه وترَكه بَلاقِعَ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، وأقام، لعنه اللَّهُ، هنالك وأرْسَل السَّرايا إلى البُلْدانِ، فأرْسَل سَريةً إلى بلادِ خُراسانَ، وتُسَمِّيها التَّتارُ المُغرِّبةَ، وأرْسَل أخرىٰ إلى وراءَ خُوارَزْم شاه، وكانوا عشرين ألفًا، قال: اطْلُبوه فأدْرِكوه ولو تعلَّق بالسماء. فساقوا في طلبه، فأدْرَكوه وبينَهم وبينَه نهرُ جَيْحونَ، وهو آمنٌ بسببه، فلم يَجِدوا سُفُنًا، فعملوا لهم أحْواضًا يَحْمِلون عليها الأسْلحةَ، ويُرْسِلُ أحدُهم فرسَه، ويأْخُذُ بذنبِها، فتَجُرُّه الفرسُ بالماء، وهو يَجُرُّ الحوضَ الذي فيه سلاحُه، حتى صاروا كلُّهم في الجانبِ الآخرِ، فلم يَشْعُرْ بهم خُوارَزْم شاه إلا وقد خالَطوه، فهرَب منهم إلى نَيْسابورَ، ثم منها إلى غيرِها، وهم في أثَرِه لا يُمْهِلونه حتى يَجْمَعَ لهم، فصار كلما أتَى بلدًا ليَجْتَمِعَ فيه عَساكرُه يُدْرِكونه، فيَهْرُبُ منهم، حتى ركِب في بحرِ طَبَرِسْتانَ، وسار إلى قلعةٍ في جَزيرةٍ فيه، وكانت فيها وفاتُه، وقيل: إنه لا يُعْرَفُ بعدَ رُكوبِه في البحرِ ما كان من أمرِه، بل ذهَب فلا يُدْرَىٰ أين ذهَب ولا كيفَ سلَك، ولا إلى أيِّ مَفَرٍّ هرَب. وملَكَت التَّتَرُ حَواصلَه، فوجَدوا في خزانته عشَرةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، وألفَ حِمْلٍ من الأطْلَسِ، وعشرين ألفَ فرسٍ وبَغْلٍ، ومن الغِلْمانِ والجَواري والخيامِ شيئًا كثيرًا، وكان له عشَرةُ آلافِ مَملوكٍ، كلٌّ واحدٍ مثلُ مَلِكٍ، فتَمَزَّق ذلك كلُّه في أقلَّ من سنةٍ، وقد كان خُوارَزْم شاه فَقيهًا حَنَفيًّا فاضلًا، له مُشاركاتٌ في فُنونٍ من العلم، يَفْهَمُ جيدًا، وقد ملَك بلادًا مُتَّسعةً ومَمالكَ مُتَعددةً إحدىٰ وعشرين سنةً وشهورًا، ولم يَكُنْ بعدَ مُلوكِ بني سَلْجُوقَ أكبرُ حُرْمةً ولا أعْظَمُ مُلْكًا منه؛ لأنه إنما كانت همَّته في الملك لا في اللَّذَّات والشَّهَوات، ولهذا قهَر المُلوكَ بتلكَ الأراضي، وأحَلَّ بالخطَا بأسًا شديدًا، حتى لم يَبْقَ ببلادِ خُرسانَ وما وراءَ النهرِ وكذلك عراقِ العَجَمِ

وغيرها من الممالك سلطانٌ سواه، وجميعُ البلادِ تحتَ يَدِ نُوَّابه. ثم ساروا إلى مازَنْدَرانَ، وقلاعُها من أمنَعِ القلاعِ، بحيث إن المسلمين لم يَفْتَتِحوها إلا في سنة تسعين في أيام سليمانَ بنِ عبد الملك، ففتَحها هؤلاء في أيسَرِ مدةٍ، ونهَبوا ما فيها، وقتَلوا أهاليَها، وسبَوْا وأحرَقوا، ثم ترَحَّلوا عنها نحوَ الرَّيِّ، فوجَدوا في الطريقِ أمَّ خُوارَزْم شاه، ومعها أموالٌ عظيمةٌ جدًّا، فأخَذوها وفيها من كلِّ غَريبٍ ونَفيسٍ مما لم يُشاهَدْ مثلُه من الجواهرِ وغيرِها، ثم قصَدوا الرَّيَّ فدخَلوها على حينِ غَفْلةٍ من أهلها، فقتَلوهم ونهبوهم وسبَوهم وأسروهم، ثم ساروا إلى هَمَذانَ، فملكوها ثم إلى زَنْجانَ، فقتَلوا وسبَوْا، ثم قصَدوا قَزْوينَ فنهَبوها، وقتَلوا من أهلها نحوًا من أربعين ألفًا، ثم تيمَّموا بلادَ أَذْرَبيجانَ، فصالَحهم ملكُها أُوزْبَكُ بنُ البَهْلَوانِ على مالٍ حمَلَه إليهم؛ لشُغْله بما هو فيه من السُّكْرِ وارْتكابِ السَّيئاتِ والانْهماكِ على الشَّهَواتِ، فترَكوه وساروا إلى مُوقانَ، فقاتَلهم الكُرْجُ في عشرةِ آلافِ مُقاتِلٍ، فلم يَقِفوا بينَ أيديهم طَرْفةَ عينٍ حتى انْهَزَمَت الكُرْجُ، وقتلت التتارُ منهم خلقًا كثيرًا، ثم قصَدوا تَفْليسَ وهي أكبرُ مدنِ الكُرْجِ واجتمعت عندَ ذلك الكُرْجُ فأقْبَلوا إليهم بحَدِّهم وحَديدهم، فكسَرَتهم التَّتارُ مرةً ثانيةً أقْبحَ كَسرةٍ وأشْنَعَها. وههنا قال ابنُ الأثير: ولقد جرَىٰ لهؤلاءِ التَّترِ ما لم يُسْمَعْ بمثلِه من قَديمِ الزمانِ وحَديثِه؛ طائفةٌ تَخرُجُ من حُدودِ الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى حدود بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويُجاوزون العراقَ من ناحيةِ هَمَذانَ، وتاللَّه لا أشُكُّ أن مَن يَجيءُ بعدَنا إذا بَعُدَ العَهْدُ، ويرَىٰ هذه الحادثةَ مَسْطورةً يُنكِرُها ويَسْتَبْعِدُها، والحقُّ بيده، فمتَى اسْتَبْعَد ذلك فلْيَنْظُرْ أننا سطَّرْنا نحن وكلُّ مَن جمَع التاريخَ في أزماننا هذه في وقتٍ كلُّ مَن فيه يَعْلَمُ هذه الحادثةَ، قد اسْتَوَىٰ في معرفتها العالمُ والجاهلُ لشُهْرتها، يسَّر اللَّهُ للمسلمين والإسلامِ مَن يَحْفَظُهم ويَحُوطُهم، فلقد دُفِعوا من العدوِّ إلى عظيمٍ، ومن الملوكِ المسلمين إلى مَن لا تَتَعدَّىٰ هِمَّته بطنه وفرجَه، وقد عُدِم سلطانُ المسلمين خُوارَزْم شاه.

قال: وانْقَضَت هذه السنةُ وهم في بلادِ الكُرْجِ، فلما رأَوْا منهم مُمانَعةً ومُقاتَلةً يَطولُ عليهم بها المَطالُ عدَلوا إلى غيرهم، وكذلك كانت عادتُهم، فساروا إلى تِبْريزَ، فصالَحهم أهلُها بمالٍ. قال: ثم ساروا إلى مَراغةَ، فحصَروها ونصَبوا عليها المَجانيقَ، وتترَّسوا بالأُسارَىٰ من المسلمين، وعلى البلدِ امرأةٌ- و«لن يُفْلِحَ قومٌ ولَّوْا أمرَهم امرأةً»[1] - ففتَحوا البلدَ بعدَ أيامٍ، وقتَلوا من أهله خلقًا لا يَعْلَمُ عدَّتَهم إلا اللَّهُ عز وجل، وغنموا منه شيئًا كثيرًا، وسبَوْا وأسَروا على عادتهم، لعَنهم اللَّهُ لَعْنةً تدخُلُ معهم نارَ جَهنَّمَ، وقد كان الناسُ يَخافون منهم خوفًا عظيمًا جدًّا حتى إنه دخَل رجلٌ منهم إلى دَرْبٍ من هذه البلدةِ وبه مائةُ رجلٍ لم يَسْتَطِعْ واحدٌ منهم أن يَتَقَدَّمَ إليه، ومازال يَقْتُلُهم واحدًا بعدَ واحدٍ حتى قتَل الجميعَ، ولم يَرْفَعْ منهم أحدٌ يدَه إليه، ونهَب ذلك الدَّرْبَ وحدَه. ودخَلَت امرأةٌ منهم في زِيِّ رجلٍ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٠٩٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

إلى بيتٍ فقتلَت كلَّ مَن في ذلك البيت وحدَها، ثم استَشْعَر أسيرٌ معها أنها امرأةٌ، فقتَلها، لعَنها اللَّهُ.

ثم قصَدوا مدينةَ إِرْبِلَ، فضاق المسلمون لذلك ذَرْعًا، وقال أهلُ تلك النَّواحي: هذا أمرٌ عَصيبٌ. وكتَب الخليفةُ إلى أهلِ الموصلِ والملك الأشرف صاحب الجزيرة يقولُ: إني قد جهَّزْت عَسْكَرًا، فكُونوا معه لقتال هؤلاء التَّتر. فأرْسَل الأشْرَفُ يَعْتَذِرُ إلى الخليفة بأنه مُتَوَجِّهٌ نحوَ أخيه الكامل إلى الديار المصرية بسبب ما قد دَهَم المسلمين هناك من الفرنج، وأخْذهم دمْياطَ التي قد أشْرَفوا بأخْذها على أخْذ الديار المصرية قاطبةً، وكان أخوه المُعَظَّمُ قد قدِم عليه إلى حَرَّانَ يَسْتَنْجِدُه لأخيهما الكاملِ ليَتَحاجَزوا الفرنجَ بدِمْياطَ، وهو على أُهْبَة المَسيرِ إلى الديارِ المصرية، فكتَب الخليفةُ إلى مُظَفَّر الدين صاحب إِرْبِلَ ليكونَ هو المُقَدَّمَ على العَساكرِ التي يَبْعَثُها الخليفةُ، وهي عشَرةُ آلاف مُقاتِلٍ، فلم يَقْدَمْ عليه منهم غيرُ ثمانمائة فارسٍ، ثم تفرَّقوا قبلَ أن يَجْتَمِعوا، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، ولكنْ سلَّم اللَّهُ بأن صرَف همَّةَ التَّتار إلى ناحية هَمَذانَ، فصالَحهم أهلُها، وترَك التَّترُ عندَهم شِحْنةً، ثم اتَّفَقوا على شِحْنتِهم، فرجَعوا إليهم، فحاصَروهم حتى فتَحوها قَسْرًا، وقتَلوا أهلَها عن آخرِهم، ثم ساروا إلى أَذْرَبِيجانَ، ففتَحوا أَرْدَبيلَ، ثم تِبْريزَ، ثم إلى بَيْلقانَ، فقتَلوا من أهلها خلقًا كثيرًا وجَمًّا غفيرًا، وحرَّقوها، وكانوا يَفْجُرون بالنساء، ثم يَقْتُلونهن ويَشُقُّون بُطونَهن عن الأَجِنَّة.

ثم عادوا إلى بلادِ الكُرْجِ، وقد استَعَدَّت لهم الكُرْجُ، فاقْتَتَلوا معهم، فكسَروهم أيضًا كَسْرةً فَظيعةً، ثم فتَحوا بُلْدانًا كثيرةً يَقْتُلون أهلَها، ويَسْبُون نساءَها، ويَأْسِرون من الرجال ما يُقاتِلون بهم الحُصونَ، يَجْعَلونهم بينَ أيديهم تُرْسًا يَتَّقون بهم الرَّمْيَ وغيرَه، ومَن سلِم منهم قتَلوه بعدَ انْقضاء الحرب، ثم ساروا إلى بلادِ اللانِ والقَفْجاقِ، فاقْتَتَلوا معهم قتالًا عظيمًا، فكسَروهم وقصَدوا أكبرَ مَدائنِ القَفجاقِ، وهي مدينةُ سُوداقَ، وفيها من الأمْتعة والثِّياب والتِّجائر من البُرْطاسيِّ والقُنْدُزِ والسِّنْجابِ شيءٌ كثيرٌ جدًّا، ولجَأت القَفْجاقُ إلى بلادِ الرُّوسِ، وكانوا نصارَى، فاتَّفَقوا معهم على قتال التَّترِ، فالْتَقَوْا معهم، فكسَرَتهم التَّتارُ كَسْرةً فَظيعةً منكرةً جدًّا، ثم ساروا نحوَ بُلْغار في حُدودِ العشرين وستِّمائة، ففرَغوا من ذلك كلِّه، ثم عادوا إلى نحوِ ملكهم جِنْكِزْخان، لعَنه اللَّهُ وإياهم.

هذا ما فعَلَتْه هذه السَّريةُ المُغَرِّبَةُ، وكان جِنْكِزْخان قد أرْسَل سريةً في هذه السنة إلى تِرْمِذَ فأخَذَتْها، وأخرى إلى فَرْغانةَ فملَكوها، وجهَّز جيشًا آخرَ نحوَ خُراسانَ، فحاصَروا بَلْخَ، فصالَحهم أهلُها، وكذلك صالَحوا مُدُنًا كثيرةً أخرى، حتى انْتَهَوْا إلى الطالَقان، فأعْجَزَتْهم قلْعتُها، وكانت حصينةً، فحاصَروها ستةَ أشهرٍ حتى عجَزوا، فكتَبوا إلى جِنْكِزْخان، فقدِم بنفسه، فحاصَرها أربعةَ أشهرٍ أخرى حتى فتَحها قَهْرًا، ثم قتلوا مَن فيها ومَن في البَلَد بكماله من الخاصة والعامة، ثم قصَدوا مدينةَ مَرْوَ مع جِنْكِزْخانَ، وقد عَسْكَر بظاهرها نحوٌ من مائتَيْ ألف مُقاتِلٍ من العَرَب وغيرِهم، فاقْتَتَلوا

معهم قتالاً عظيمًا حتى انكسر المسلمون، فإنَّا للَّه وإنا إليه راجعون، ثم حصروا البلدَ خمسة أيام، واستنزلوا نائبَها خديعةً، ثم غدروا به وبأهلِ البلدِ، فقتلوهم وغنموهم وسبَوهم، وعاقبوهم بأنواع العذاب، حتى إنهم قتلوا منهم في يوم واحدٍ سبعمائة ألف إنسانٍ، ثم ساروا إلى نيسابورَ، ففعلوا فيها قريبًا مما فعلوا بأهلِ مَرْوَ، ثم إلى طُوسَ، فقتلوا وخرَّبوا مَشْهَدَ عليِّ بنِ موسى والرشيدِ وتركوه خرابًا، ثم ساروا إلى هَراةَ فقتلوا خلقًا واستنابوا عليها، ثم ساروا إلى غَزْنَةَ، فقاتلهم جَلالُ الدينِ بنُ خُوارَزْم شاه فكسَرهم، فعادوا إلى هَراةَ، فإذا أهلُها قد نقَضُوا، فقتلوهم عن آخرِهم، ثم عادوا إلى ملكِهم جِنْكِزْخان، لعَنه اللَّهُ وإياهم، وأرسَل جِنْكِزْخان طائفةً أخرى إلى مدينةِ خُوارَزْم، فحاصَروها حتى فتَحوا البلدَ قهرًا، فقتَلوا مَن فيها قتلاً ذَريعًا، ونهَبوها وسبَوْا أهلَها، وأرْسَلوا الجِسْرَ الذي يَمْنَعُ ماءَ جَيْحونَ عنها، فغرِقَت دُورُها، وهلَك جميعُ أهلِها. ثم عادوا إلى ملكِهم جِنْكِزْخان وهو مُخَيِّمٌ على الطالَقانِ فجهَّز منهم طائفةً إلى غَزْنَةَ، فاقْتَتل معهم جَلالُ الدينِ بنِ خُوارَزْم شاه، فكسَرهم جَلالُ الدينِ كَسْرةً عظيمةً، واستَنْقَذ منهم خلقًا من أُسارَى المسلمين، ثم كتَب إلى جِنْكِزْخان يَطْلُبُ منه أن يَبْرُزَ بنفسه لقتاله، فقصَده جِنْكِزْخان فتَواجَها، وقد تفَرَّق على جَلالِ الدينِ بعضُ جيشِه، ولم يَبْقَ بُدٌّ من القتالِ، فاقْتَتلوا ثلاثةَ أيامٍ لم يُعْهَدْ مثلُها قبلَها من قتالِهم، ثم ضعُفَ أصحابُ السلطانِ جَلالِ الدينِ بنِ خُوارِزْم شاه، فذهَبوا فركِبوا في بحرِ الهندِ، فسارَت التَّتارُ إلى غَزْنَةَ، فأخَذوها بلا كُلْفةٍ ولا مُمانَعةٍ، كلُّ هذا أو أكثرُه وقَع في هذه السنةِ.

وفي هذه السنة أيضًا ترَك الأشرفُ موسى بنُ العادلِ لأخيه شهابِ الدينِ غازي مُلْكَ خلاطَ وميَّافارِقينَ وبلادَ أَرْمينِيَةَ وحاني، واعْتاض بالرُّهَا وسَرُوجَ، وذلك لاشْتِغاله عن حِفْظِ تلك النَّواحي بمُساعدةِ أخيه الكاملِ ونُصْرتِه على الفرنجِ، لعَنهم اللَّهُ.

وفي المُحَرَّمِ منها هبَّت رياحٌ ببغدادَ، وجاءت بُروقٌ، وسُمِعَت رُعودٌ شديدةٌ، وسقَطَت صاعقةٌ بالجانبِ الغربيِّ على المَنارةِ المُجاورةِ لغرو معين فثلَمَتها، ثم أُصْلِحَت، وغارت الصاعقةُ في الأرضِ.

وفي هذه السنةِ نُصِب مِحْرابُ الحَنابلةِ بالرِّواقِ الثالثِ الغربيِّ من جامعِ دمشقَ بعدَ مُمانَعةٍ من بعضِ الناسِ لهم، ولكن ساعَدهم بعضُ الأُمراءِ في نَصْبِه لهم، وهو الأميرُ رُكْنُ الدينِ المُعَظَّميُّ، وصلَّى فيه الشيخُ مُوَفَّقُ الدينِ بنُ قُدامةَ.

قلتُ: ثم رُفع في حدودِ سنةِ ثلاثين وسبعمائةٍ، وعُوِّضوا عنه بالمِحْرابِ الغربيِّ عندَ بابِ الزِّيارةِ، كما عُوِّض الحَنَفيةُ عن محْرابِهم الذي كان في الجانبِ الغربيِّ من الجامعِ بالمحرابِ المُجَدَّدِ لهم شرقيَّ بابِ الزِّيارةِ، حينَ جُدِّد الحائطُ الذي هو فيه في الأيامِ التَّنْكُزِيةِ، على يدِ ناظرِ الجامعِ تقيِّ الدينِ بنِ مراجلَ، أثابه اللَّهُ تعالى، كما سيأتي بيانُه في موضعِه إن شاء اللَّهُ تعالى.

وفيها :قتَل صاحبُ سنْجارَ أخاه، فملَكها مُستَقلاً بها الملكُ الأشْرَفُ بنُ العادل.

وفيها: نافَق الأميرُ عمادُ الدينِ بنُ المَشْطوبِ على الملكِ الأشْرَفِ، وكان قد آواه، وحفظه من أذى أخيه الكاملِ له حينَ أراد أن يُبايعَ للفائزِ، ثم إنه سعَى في الأرضِ فسادًا في بلادِ الجَزيرةِ، فسجَنه الأشرفُ حتى مات كَمَدًا وذُلاً وعُرْيًا.

وفيها: أوْقَع الكاملُ بالفرنجِ الذين على دِمْياطَ بأسًا شديدًا، فقتَل منهم عشَرةَ آلافٍ، وأخَذ خُيولَهم وأموالَهم. ولله الحمدُ.

وفيها :عزَل المُعَظَّمُ المُعْتَمدَ مبارزَ الدينِ إبراهيمَ عن ولايةِ دمشقَ، وولاَّها للعزيزِ خَليلٍ، ولما خرَج الحاجُّ إلى مكةَ، شرَّفها اللهُ تعالى، كان أميرَهم المُعْتَمدُ، فحصَل به خيرٌ كثيرٌ، وذلك أنه كفَّ عَبيدَ مكةَ عن نهبِ الحاجِّ بعدَ قَتْلِهم أميرَ حاجِّ العراقيِّين آقْباشَ الناصريَّ، وكان من أكبرِ الأمراءِ عندَ الخليفةِ الناصرِ، وأخَصِّهم عندَه؛ وذلك لأنه قدِم معه بخِلَعٍ للأميرِ حسنِ بنِ أبي عَزيزٍ قتادةَ بنِ إدْريسَ بنِ مُطاعنِ بنِ عبدِ الكريمِ العَلَويِّ الحَسَنيِّ الزَّيْديِّ بولايتِه لإمْرةِ مكةَ بعدَ أبيه، وكانت وفاتُه في جُمادَى الأولى من هذه السنة، فنازَع في ذلك راجحٌ، وهو أكبرُ أولادِ قتادةَ، وقال: لا يَتَأَمَّرُ عليها غيري. فوقَعت فتنةٌ أفضَى الحالُ إلى قتلِ آقْباشَ غَلَطًا. وقد كان قتادةُ من أكابرِ الأشرافِ الحَسَنيِّين الزَّيْديِّين، وكان عادلاً مُنْصِفًا مُنَعَّمًا، نقمةً على عَبيدِ مكةَ والمُفْسدين بها، ثم عكَس هذا السَّيْرَ، فظلَم وجدَّد المُكوسَ، ونهَب الحاجَّ غيرَ مرةٍ، فسلَّط اللهُ عليه ولدَه حسنًا، فقتَله وقتَل عمَّه وأخاه أيضًا، فلهذا لم يُمْهِلِ اللهُ حسنًا هذا، بل سلَبه الملكَ، وشرَّده في البلادِ، وقيل: بل قُتِل كما ذكَرْنا. وكان قتادةُ شيخًا طويلاً مَهيبًا لا يَخافُ من أحدٍ من الخلفاءِ ولا المُلوكِ، ويرَى أنه أحَقُّ بالأمرِ من كلِّ أحدٍ، وكان الخليفةُ يَوَدُّ لو حضَر عندَه ليُكْرِمَه، وكان يَأْبَى من ذلك ويَمْتَنعُ منه أشَدَّ الامْتناعِ، ولم يَفِدْ إلى أحدٍ قطُّ، ولا ذلَّ لخليفةٍ ولا ملكٍ، وكتَب إليه الخليفةُ مرةً يَسْتَدْعيه، فكتَب إليه:

ولي كفُّ ضِرغامٍ أُذِلُّ بِبَطْشِها ... وأشْرِي بها بينَ الوَرَى وأبيعُ
وكلُّ ملوكِ الأرضِ تَلْثُمُ ظهرَها ... وفي وسْطِها للمُجْدِبين رَبيعُ
أأجْعَلُها تحتَ الرَّحَى ثم أبْتَغي ... خَلاصًا لها إني إذًا لرَقيعُ
وما أنا إلا المِسْكُ في كلِّ بُقْعةٍ ... يَضُوعُ وأمَّا عندَكمْ فيَضيعُ

وقد بلَغ قتادةُ من السِّنِّ سبعين سنةً، وقد ذكَر ابنُ الأثيرِ وفاتَه في سنةِ ثماني عشْرةَ. فاللهُ أعلمُ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الملكُ الفائزُ غياثُ الدين إبراهيمُ بنُ العادل، كان قد انْتَظَم له الأمرُ في الملكِ بعدَ أبيه، على الديارِ المصريةِ على يدي الأميرِ عمادِ الدينِ بنِ المَشْطوبِ، لولا أن الكاملَ تَدارَك ذلك سريعًا، ثم أرْسَله أخوه في هذه السنةِ إلى أخيهما الأشْرَفِ موسى يَسْتَحِثُّه في سرعةِ المَسيرِ إليهم بسببِ الفرنجِ، فمات بينَ سنْجارَ والمَوْصلِ، وقيل: إنه سُمَّ. فرُدَّ إلى سنْجارَ، فدُفِن بها، رحمه اللهُ تعالى.

شيخُ الشيوخ صَدْرُ الدين أبو الحسن محمدُ ابنُ شيخ الشيوخ عماد الدين عمرَ بن حَمُّوَيْه الجُوَيني[١]، من بيتِ رياسةٍ وإمْرةٍ عندَ بني أيوبَ، وقد كان صدرُ الدين هذا فقيهًا فاضلاً، درَّس بالشافعيِّ، وبمشهد الحسين، وولي مَشْيَخةَ سعيد السُّعَداء والنظرَ فيها، وكانت له حُرْمةٌ وافرةٌ عندَ الملوك، أرْسَله الكاملُ إلى الخليفة يَسْتَنْصِرُه على الفرنج، فمات بالموصل بالإسْهال، ودُفِن بها عندَ قَضيبِ البانِ عن ثلاثٍ وسبعين سنةً.

صاحبُ حَماةَ الملكُ المنصورُ محمدُ ابنُ الملك المُظَفَّر تَقيِّ الدين عمرَ بن شاهنْشاه بن أيوبَ، وكان فاضلاً، له تاريخٌ في عشرِ مُجَلَّداتٍ سمَّاه «المِضْمار»، وكان شجاعًا فارسًا، فقام بالملك بعدَه ولدُه الناصرُ قليجُ أرْسَلان، ثم عزَله عنها الكاملُ، وحبَسه حتى مات، رحمه اللَّهُ تعالى، وولَّى أخاه المُظَفَّرَ بنَ المنصور.

صاحبُ آمِدَ الملكُ الصالحُ ناصرُ الدين محمودُ بنُ محمد بن قرا أرْسَلان بن أُرْتُق، وكان شجاعًا مُحبًّا للعلماء، وكان مُصاحبًا للأشرف موسى بن العادل يَجيءُ إلى خدمته مرارًا، وملَك بعدَه ولدُه الملكُ المسعودُ، وكان بَخيلاً فاسقًا، فأخَذ الكاملُ آمِدَ وحبَسه بمصرَ ثم أطْلَقه فأخَذ أموالَه، وسار إلى التَّتار، فأُخذت منه.

الشيخُ عبدُ اللَّه اليُونينيُّ[٢] المُلَقَّبُ أسدَ الشام، رحمه اللَّهُ ورضي عنه، من قرية ببَعْلَبَكَّ يقالُ لها: يُونِينُ. وكانت له زاويةٌ يُقصَدُ فيها للزيارة، وكان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والرياضة والأمر بالمعروف والنهْي عن المنكر، له همَّةٌ عاليةٌ في الزهد والورَع، بحيث إنه كان لا يَقْتَني شيئًا، ولا يَمْلِكُ مالاً ولا ثيابًا، بل يَلْبَسُ عاريَّةً، ولا يتجاوزُ قميصًا في الصيف، وفَرْوَةً فوقَه في الشتاء، وعلى رأسه قُبَّعًا من جلود المَعْزِ، شَعْرُه إلى ظاهر، وكان لا يَنْقَطِعُ عن غَزاةٍ من الغَزَوات، ويَرْمِي عن قوسٍ زنَتُه ثمانون رَطْلاً، وكان يُجاوِرُ في بعض الأحيان بجبل لُبنانَ، ويأتي في الشتاء إلى عُيون الفاسريا في سَفْح الجبل المُطِلِّ على قرية دُومةَ شرقيَّ دمشقَ؛ لأجل سُخونة الماء، فيَقْصِدُه الناسُ للزيارة هناك، ويَجيءُ تارةً إلى دمشقَ، فيَنْزِلُ بسَفْح قاسيونَ عندَ المَقادسة، وكانت له أحوالٌ ومُكاشَفاتٌ صالحةٌ، وكان يقالُ له: أسدُ الشام.

حكَى الشيخُ أبو المُظَفَّر سِبْطُ ابن الجوزيِّ عن القاضي جمال الدين يَعْقوبَ الحاكم بكَرَك البقاع، أنه شاهَد مرةً الشيخَ عبدَ اللَّه وهو يَتَوَضَّأُ من ثَوْرا عندَ الجِسْر الأبيض، إذ مرَّ نَصْرانيٌّ ومعه حِمْلُ بَغْلٍ خَمْرًا، فعثَرَت الدابَّةُ عندَ الجسر فسقَط الحِمْلُ فرأَى الشيخَ وقد فرَغ من وُضوئه، ولا يَعْرِفُه، واسْتَعان به على رفع الحِمْل، فاسْتَدْعاني الشيخُ فقال: تعالَ يا فَقيهُ فتُساعِدَنا على تَحْميل ذلك الحِمْل على الدابَّة. وذهَب النصرانيُّ، فتعَجَّبْتُ من ذلك، وتبِعْتُ الحِمْلَ وأنا ذاهبٌ إلى المدينة، فانْتَهَى به إلى

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٧٩-٨٠).

(٢) ترجمته في «السير» (٢٢/ ١٠١).

العُقَيْبَةِ، فأوْرَده إلى الخَمَّارِ بها، فإذا هو خَلٌّ، فقال له الخَمَّارُ: ويْحَك! هذا خَلٌّ. فقال النَّصْرانيُّ: أنا أَعْرِفُ من أين أُتيتُ. ثم ربَط الدابةَ في الخانِ، ورجَع إلى الصالحيةِ، فسأَل عن الشيخِ، فعرَفه فجاء إليه، فأسْلَم على يديه.

وله أحْوالٌ وكَراماتٌ كثيرةٌ جدًّا، وكان لا يقومُ لأحدٍ دخَل إليه، ويقولُ: إنما يقومُ الناسُ لربِّ العالمين. وكان الأمْجَدُ إذا دخَل عليه جلَس بينَ يديه، فيقولُ له: يا مُجَيْدُ، فعَلْتَ كذا وكذا. ويأْمُرُه بما يَأْمُرُه، ويَنْهاه عما يَنْهاه عنه، وهو يَمْتَثِلُ جميعَ ما يقولُه له؛ وما ذاك إلا لصدقِه في زهدِه ووَرَعِه وطريقِه، وكان يَقْبَلُ الفُتوحَ، ولا يَدَّخِرُ منه شيئًا لغدٍ، وإذا اشْتَدَّ جُوعُه أخَذ من ورقِ اللُّوْزِ، ففركَه واسْتَفَّه، وشرِب فوقَه الماءَ الباردَ، رحِمه اللَّهُ تعالى وأكْرَم مَثْواه.

وذكَروا أنه كان يَحُجُّ في بعضِ السِّنينَ في الهَواءِ، وقد وقَع هذا لطائفةٍ كثيرةٍ من الزُّهّادِ وصالحي العُبّادِ، ولم يَبْلُغْنا هذا عن أحدٍ من أكابرِ العلماءِ، وأولُ مَن يُذكرُ عنه هذا حَبيبٌ العَجَميُّ، وكان من أصحابِ الحسنِ البصريِّ، ثم مَن بعدَه من الصالحين، رحمةُ اللَّهِ تعالى عليهم أجْمَعين.

فلما كان يومُ جمعةٍ من عشرِ ذي الحِجَّةِ من هذه السنة صلَّى الشيخُ عبدُ اللَّهِ اليُونِينيُّ صلاةَ الجمعةِ بجامعِ بَعْلَبَكَّ، وكان قد دخَل الحَمّامَ يومَئذٍ قبلَ الصلاةِ وهو سَوِيٌّ صحيحٌ، فلما انْصرَف من الصلاةِ قال للشيخِ داودَ المُؤَذِّنِ وكان يُغَسِّلُ المَوْتى: انْظُرْ كيف تكونُ غدًا. ثم صعِد الشيخُ إلى زاويتِه، فبات يَذْكُرُ اللَّهَ تعالى تلك الليلةَ، ويَتَذَكَّرُ أصحابَه ومَن أحْسَن إليه ولو بأدْنَى شيءٍ، ويَدْعُو لهم، فلما دخَل وقتُ الصبحِ صلَّى بأصحابِه، ثم اسْتَنَد يَذْكُرُ اللَّهَ تعالى وفي يدِه مِسْبَحَتُه، فمات وهو كذلك جالسٌ لم يَسْقُطْ، ولم تَسْقُطِ السُّبْحةُ من يدِه، فلما انْتَهَى الخبرُ إلى الملكِ الأمْجَدِ صاحبِ بَعْلَبَكَّ، جاء إليه، فعايَنه كذلك فقال: لو بَنَيْنا عليه بُنْيانًا وهو هكذا؛ ليُشاهدَ الناسُ منه آيةً. فقيل له: ليس هذا من السنةِ. فنُحِّي وغُسِّل وكُفِّن، وصُلِّي عليه، ودُفِن تحتَ اللَّوْزَةِ التي كان يَجْلِسُ تحتَها يَذْكُرُ اللَّهَ تعالى، رحِمه اللَّهُ ونوَّر ضَريحَه.

وكانت وفاتُه يومَ السبتِ، وقد جاوَز ثمانين سنةً، رحِمه اللَّهُ تعالى وأكْرَم مَثْواه، وكان الشيخُ محمدٌ الفَقيهُ اليُونِينيُّ من جملةِ تَلاميذِه، وممَّن يَلوذُ به، وهو جَدُّ هؤلاءِ المشايخِ بمدينةِ بَعْلَبَكَّ.

أبو عبدِ اللَّهِ الحسينُ بنُ محمدِ ابنِ أبي بكرٍ المجليُّ المَوْصِليُّ، ويُعْرَفُ بابنِ الجُهَنيِّ، شابٌّ فاضلٌ، ولِي كِتابةَ الإنْشاءِ لبدرِ الدينِ لُؤْلُؤٍ زعيمِ الموصلِ، ومن شعرِه:

نفسي فداءُ الذي فكَّرْتُ فيه وقد	غَدَوْتُ أَغْرَقُ في بحرٍ من العَجَبِ
يَبْدُوا بليلٍ على صُبْحٍ على قمرٍ	على قَضيبٍ على وهمٍ على كَثَبِ

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

فيها: استَولَت التَّتارُ على كثيرٍ من البُلْدان كمَراغَةَ وهَمَذانَ وأَرْدَبِيلَ وتِبْريزَ وكَنْجَةَ، وقتَلوا أهالِيَها، ونهَبوا ما فيها، واستأسَروا ذَرارِيَّها، واقترَبوا مِن بغدادَ، فانزَعَج الخليفةُ مِن ذلك، وحصَّن بغدادَ، واستَخْدَم الأجنادَ، وقنَت الناسُ في الصَّلَواتِ والأَوْرادِ.

وفيها: قهَروا الكُرْجَ واللانَ، ثم قاتَلوا القَفْجاقَ، فكسَروهم، وكذلك الرُّوسُ، ويَنْهَبون ما قدَروا عليه مِن أموالِ هؤلاءِ ويَسْبون ذَرارِيَّهم ونساءَهم.

وفيها: سارَ المُعَظَّمُ إلى أخيه الأشرفِ، فاستَعْطَفه على أخيه الكاملِ، وكان في نفسِه مَوْجِدةٌ عليه، فأزالَها وسارا جميعًا نحوَ الديارِ المصريةِ لمُعاونةِ الكاملِ على الفرنجِ الذين قد أخَذوا ثَغْرَ دِمْياطَ، واستَحْكَم أمرُهم هنالك مِن سنةِ أربعَ عشْرةَ، وعُرِض عليهم في بعضِ الأوقاتِ أن يُرَدَّ إليهم بيتُ المقدسِ وجميعُ ما كان صلاحُ الدينِ فتَحه مِن بلادِ الساحلِ، ويَتْرُكوا دِمْياطَ، فامتَنَعوا مِن ذلك، ولم يَفْعلوا، فقدَّر اللَّهُ تعالى أنهم ضاقَت عليهم الأقْواتُ، فقدِم عليهم مَراكِبُ فيها مِيرةٌ لهم، فأخَذها الأُسطولُ البحْريُّ، وأُرْسِلَت المياهُ على أراضي دِمْياطَ مِن كلِّ ناحيةٍ، فلم يُمْكِنْهم بعدَ ذلك أن يَتصَرَّفوا في أنفسِهم، وحصَرَهم المسلمون مِن الجهةِ الأخرى حتى اضْطَرُّوهم إلى أضيقِ الأماكنِ، فعندَ ذلك أنابوا إلى المُصالَحةِ بلا مُعاوَضةٍ، فجاء مُقَدَّمُوهم إليه، وعندَه أخواه المُعَظَّمُ عيسى وموسى الأشرفُ، وكانا قائمَين بينَ يدَيه، وكان يومًا مشهودًا وأمرًا محمودًا، فوُقِّع الصُّلْحُ على ما أراد الكاملُ محمدٌ، بيَّض اللَّهُ وجهَه، وملوكُ الفرنجِ والعساكرُ كلُّها واقفةٌ بحضرتِه، ومدَّ سِماطًا عظيمًا، فاجْتَمَع عليه المؤمنُ والكافرُ والبَرُّ والفاجرُ، وقام راجحٌ الحِلِّيُّ الشاعرُ فأنشَد:

هَنيئًا فإنَّ السعدَ راح مُخَلَّدًا ... وقد أنجَز الرحمنُ بالنصرِ مَوْعِدَا
حَبانا إله الخلقِ فتحًا بَدَا لنا ... مُبِينًا وإنعامًا و عزًّا مُؤَيَّدَا
تهَلَّل وجهُ الدهرِ بعدَ قُطوبِه ... وأصْبَح وجهُ الشِّرْكِ بالظلمِ أسْوَدَا
ولما طغَى البحرُ الخِضَمُّ بأهلِه الطُّ ... غاةِ وأضْحَى بالمَراكبِ مُزْبِدَا
أقامَ لهذا الدينِ مَن سلَّ عَزْمَه ... صَقيلًا كما سُلَّ الحُسامُ مُجَرَّدَا
فلم يَنْجُ إلا كلُّ شِلْوٍ مُجَدَّلٍ ... ثوى منهمُ أو مَن تَراه مُقَيَّدَا
ونادَى لسانُ الكونِ في الأرضِ رافِعًا ... عَقيرتَه في الخافِقَيْن ومُنْشِدَا
أعُبَّادَ عيسى إن عيسى وحِزْبَه ... وموسى جميعًا يَخْدُمون محمدَا

قال أبو شامةَ: وبلَغَني أنه أشار عندَ ذلك إلى المُعَظَّمِ عيسى والأشرفِ موسى والكاملِ محمدٍ. قال: وهذا مِن أحْسَنِ شيءٍ اتَّفَق. وكان ذلك يومَ الأربعاءِ تاسعَ عشَرَ رجبٍ مِن هذه السنةِ،

وتراجَعَت الفرنجُ إلى عكّا وغيرِها مِن البلدانِ، ورجَع المُعَظَّمُ إلى الشام، واصْطَلَح الأشْرَفُ والكاملُ على أخيهما المُعَظَّم.

وفيها: ولّى الملكُ المُعَظَّمُ قَضاءَ دمشقَ لجمالِ الدينِ المِصْريِّ الذي كان وَكيلَ بيتِ المالِ بها، وكان فاضلاً بارعًا، يَجْلِسُ في كلِّ يومِ جُمُعةٍ قبلَ الصلاةِ بالعادليَّةِ وبعدَ فراغِها لإثْباتِ المَحاضرِ، ويَحْضُرُ عندَه في المدرسةِ جميعُ الشهودِ مِن كلِّ المَراكزِ حتى يتَيَسَّرَ على الناسِ إثْباتُ كتبِهم في الساعةِ الواحدة، جزاه اللَّهُ خيرًا.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

ياقوتٌ الكاتبُ المَوصليُّ[1]، رحِمه اللَّهُ، أمينُ الدينِ، المَشْهورُ بطريقةِ ابنِ البَوَّاب. قال ابنُ الأثير: لم يكنْ في زمانه مَن يُقارِبُه في خطِّه، وكانت لديه فَضائلُ جَمَّةٌ، والناسُ مُتَّفِقون على الثَّناءِ عليه، وكان نِعْمَ الرجلُ، وقد قال فيه نَجيبُ الدينِ الواسطيُّ قَصيدةً يمدحُه بها:

جـامعٌ شـاردَ العلومِ ولولا ... ه لَكانت أمُّ الفضائلِ ثَكْلَى

ذو يَراعٍ تخافُ زُبْيَتَه الأُسْـ ... ـدُ وتَعْنُو له الكتائبُ ذُلاً

وإذا افْتَرَّ ثغرُه عن سوادٍ ... في بياضٍ فالبِيضُ والسُّمْرُ خَجْلَى

أنت بدرٌ والكاتبُ ابنُ هلالٍ ... كأبيه لا فخرَ فيمَن تولَّى

إن يَكنْ أولاً فإنك بالتَّفْـ ... ـضيلِ أولَى فقد سبَقْتَ وصَلَّى

جلالُ الدينِ الحسنُ، مِن أولادِ الحسنِ بنِ الصَّبَّاحِ مُقَدَّمِ الإسْماعيليةِ، وكان قد أظْهَر في قومِه شعائرَ الإسلام، وحفَظَ الحُدودَ والمُحَرَّماتِ والقيامَ فيها بالزَّواجرِ الشرعية.

الشيخُ الصالحُ شهابُ الدينِ محمدُ بنُ خَلَفِ بنِ راجحٍ المَقْدسيُّ، الحَنْبَليُّ الزاهدُ العابدُ الناسكُ، كان يَقْرأُ على الناسِ يومَ الجمعةِ الحديثَ النبويَّ، وهو جالسٌ على أسفلِ مِنْبرِ الخَطابةِ بالجامعِ المُظَفَّريِّ، وقد سمع الكثيرَ، ورحَل وحفظ «مَقاماتِ الحَريريِّ» في خمسين ليلةً، وكانت له فُنونٌ كثيرةٌ، وكان ظَريفًا مطْبوعًا، رحمه اللَّهُ.

والخطيبُ مُوَفَّقُ الدينِ أبو عبد اللَّه عمرُ بنُ يوسفَ بنِ يحيى بنِ عمرَ بنِ كاملٍ المَقْدسيُّ، خَطيبُ بيتِ الآبارِ، وقد ناب بدمشقَ عن الخطيبِ جَمالِ الدينِ الدَّوْلعيِّ حينَ سار في الرسليةِ إلى خُوارَزْم شاه، حتى عاد.

المُحَدِّثُ البارعُ تَقِيُّ الدينِ أبو طاهر إسماعيلُ بنُ عبدِ اللَّه بنِ عبدِ المُحسنِ بنِ الأنْماطيِّ، قرأَ الحديثَ، ورحَل وكتَبه، وكان حسنَ الخطِّ مُتْقِنًا في علومِ الحديثِ، حافظًا له، وكان الشيخُ تقيُّ

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/١٤٩ ـ ١٥٠).

الدينِ ابنُ الصَّلاحِ يُثني عليه ويَمْدَحُه، وكانت كتبُه بالبيتِ الغَرْبيِّ من الكَلاَّسةِ الذي كان للملك المُحَسِّنِ بنِ صلاحِ الدينِ، ثم أُخذ من ابنِ الأنماطي وسُلِّم إلى الشيخ عبدِ الصَّمَدِ الدكائيِّ، واستَمر بيدِ أصحابِه بعدَ ذلك، وكانت وفاتُه بدمشقَ، ودُفن بمقابرِ الصُّوفية، وصَلَّى عليه بالجامعِ الشيخُ مُوَفَّقُ الدينِ، وبباب النصرِ الشيخُ فَخْرُ الدينِ ابنُ عساكرَ، وبالمَقْبَرةِ قاضي القُضاةِ جمالُ الدينِ المصْريُّ، رحمه اللَّهُ تعالى.

أبو الغَيْث شُعَيْبُ بنُ أبي طاهرِ بنِ كُلَيْبِ بنِ مُقْبِلٍ الضَّريرُ الفَقيهُ الشافعيُّ، أقام ببغدادَ إلى أن تُوُفِّي، وكان لديه فَضائلُ وله رَسائلُ، ومن شعرِه قولُه:

إذا كنتُمُ للناسِ أهلَ سياسةٍ	فسُوسوا كِرامَ الناسِ بالجُودِ والبَذْلِ
وسُوسُوا لِئامَ الناسِ بالذُّلِّ يَصْلُحوا	عليه فإنَّ الذُّلَّ أصْلَحُ للنَّذْلِ

أبو العزِّ مُشرَّفُ بنُ عليِّ بنِ أبي جعفرِ بنِ كاملٍ الخالصيُّ المُقْرِئُ الضَّريرُ الفَقيهُ الشافعيُّ، تفَقَّه بالنِّظامية، وسمع الحديثَ ورواه، وأنشَد عن الحسنِ بنِ عمرٍو الحَلَبيِّ:

تَمَثَّلْتُمُ لي والديارُ بَعيدةٌ	فخُيِّل لي أن الفُؤادَ لكم مَغْنَى
وناجاكُمُ قلبي على البُعْدِ بينَنَا	فأوحَشْتُمُ لفظًا وآنَسْتُمُ مَعْنَى

أبو سليمانَ داودُ بنُ إبراهيمَ الجيليُّ، أحدُ المُعيدين بالمدرسة النِّظامية، ومما أنْشَده:

أيا جامعًا أمْسِكْ عَنانَك مقصرًا	فإنَّ مَطايا الدَّهرِ تَكْبُو وتُقْصِرُ
ستَقْرَعُ سِنًّا أو تَعَضُّ نَدامةً	يَدَيكَ إذا خانَ الزمانُ وتُبْصِرُ
ويَلْقاكَ رُشْدٌ بعدَ غَيِّك واعظٌ	ولكنَّه يَلْقاكَ والأمرُ مُدْبِرُ

أبو المُظَفَّرِ عبدُ الوَدودِ بنُ محمودِ بنِ المباركِ بنِ عليِّ بنِ المباركِ بنِ الحسنِ، الواسطيُّ الأصلِ البغداديُّ الدارِ والمَوْلدِ، كمالُ الدينِ المعروفُ والدُه بالمُجيرِ، تفَقَّه على أبيه، وقرأ عليه عِلْمَ الكلامِ، ودرَّس بمدرسته عندَ بابِ الأَزَجِ، ووكَّله الخليفةُ الناصرُ، واشْتَهَر بالدِّيانة والأمانة، وباشَر مَناصبَ كِبارًا، وحجَّ مِرارًا عديدةً، وكان مُتواضعًا حسنَ الأخلاقِ، وكان يقولُ:

وما تَرَكَتْ ستٌّ وستون حِجَّةً	لنا حُجَّةً أن نَرْكَبَ اللهوَ مَرْكَبا

وكان يُنْشِدُ:

العِلْمُ يأتي كلَّ ذي	خَفْضٍ ويَأْبَى كلَّ آبي
كالماءِ يَنْزِلُ في الوِهادِ	وليس يَصْعَدُ في الرَّوابي

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

فيها: نُقِل تابوتُ العادلِ من القلعة إلى تُرْبتِه بالعادلية الكبيرة، فصُلِّي عليه أولاً تحتَ النَّسر بالجامع الأُمَويِّ، ثم جاءوا به إلى التُّرْبةِ المَذكورة، فدُفِن بها، ولم تَكُن المدرسةُ كمَلت بعدُ، وقد تكامَل بناؤُها في السنة الآتية أيضًا، وذكَر الدرسَ بها القاضي جمالُ الدينِ المصريُّ، وحضَر عندَه السلطانُ المُعَظَّمُ، فجلَس في الصَّدْرِ، وعن شماله القاضي، وعن يمينه جمالُ الدينِ الحَصيريُّ شيخُ الحَنَفيةِ، وكان في المجلسِ الشيخُ تَقيُّ الدينِ ابنُ الصَّلاحِ إمامُ السلطانِ، والشيخُ سيفُ الدينِ الآمديُّ إلى جانبِ المُدَرِّسِ، وإلى جانبِه شمسُ الدينِ ابنُ سَنيِّ الدولةِ، ويَليه النَّجْمُ خَليلٌ قاضي العَسْكَرِ، وتحتَ الحَصيريِّ شمسُ الدينِ ابنُ الشِّيرازيِّ، وتحتَه مُحْيي الدينِ ابنُ الزَّكيِّ، وفيه خَلْقٌ من الأعيانِ والأكابرِ، وفيهم فخرُ الدينِ ابنُ عَساكرَ.

وفيها: أرْسَل الملكُ المُعَظَّمُ الصدرَ البَكْريَّ مُحْتَسِبَ دمشقَ إلى جَلالِ الدينِ بنِ خُوارَزْم شاه يَسْتَعينُه على أخويه الكاملِ والأشرفِ اللذين قد تَمالأ عليه، فأجابه إلى ذلك بالسمعِ والطاعةِ، ولما عاد البكريُّ أضاف إليه مَشْيَخةَ الشُّيوخِ.

وحجَّ في هذه السنةِ الملكُ المَسْعودُ أَقْسيسُ بنُ الكاملِ صاحبُ اليمنِ، فبدَت منه أفعالٌ ناقصةٌ بالحَرَمِ الشريفِ من سُكْرٍ ورَشْقِ حَمامِ المسجدِ بالبُنْدُقِ من أعلى قُبَّةِ زَمْزَمَ، وكان إذا نام في دارِ الإمارةِ يُضْرَبُ الطائفون بالمَسْعَى بأطرافِ السيوفِ لئلا يُشَوِّشوا عليه وهو نَومٌ سكرٌ، قبَّحه اللَّهُ تعالى، ولكن كان مع هذا كلِّه مَهيبًا مُحْتَرَمًا، والبلادُ به آمنةٌ مُطْمَئنةٌ، وقد كان يَرْفَعُ سَنْجَقَ أبيه يومَ عرَفةَ على سَنْجَقِ الخليفةِ، فجرَى بسببِ ذلك فتنةٌ عظيمةٌ، وما مُكِّنَ من طُلوعِه وصُعودِه إلى الجبلِ إلا في آخرِ النهارِ بعدَ جَهدٍ جَهيدٍ.

وفيها: كان بالشامِ جَرادٌ كثيرٌ أكَل الزرعَ والثمارَ والأشجارَ.

وفيها: وقَعَت حُروبٌ كثيرةٌ بينَ القَفجاقِ والكُرْجِ، وقتالٌ كثيرٌ بسببِ ضيقِ بلادِ القَفْجاقِ عليهم.

وفيها: ولي قَضاءَ القُضاةِ ببغدادَ أبو عبدِ اللَّهِ محمدُ بنُ فَضْلانَ، ولبِس الخِلْعةَ في دارِ نائبِ الوزارةِ مُؤَيَّدِ الدينِ محمدِ بنِ محمدٍ القُمِّيِّ بحَضْرةِ الأعْيانِ والكُبَراءِ، وقُرِئَ تَقْليدُه بحَضْرتِهم، وساقه ابنُ الساعي بحُروفِه.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

عبدُ القادرِ بنُ داودَ، أبو محمدٍ الواسطيُّ، الفَقيهُ الشافعيُّ المُلَقَّبُ بالمحبِّ، استقَلَّ بالنِّظاميةِ دَهْرًا،

واشْتَغل بها، وكان فاضلاً دَيِّنًا صالحًا، ومما أنْشَده مِن الشعرِ قولُه:

الفَرْقَدان كلاهما شَهِدا له — والبدرُ ليلةَ تمِّه بسُهادِه
دَنِفٌ إذا اعتَبَقَ الظلامُ تَضَرَّمَتْ — نارُ الجَوَى في صَدرِه وفؤادِه
فَجَرَتْ مدامعُ جَفنِه في خدِّه — مِثلَ المَسيلِ يَسيلُ من أطوادِه
شوقًا إلى مُضْنِيه لم أرَ هكذا — مشتاقَ مُضْني جسمِه بِبِعادِه
ليت الذي أضناه سِحْرُ جُفُونِه — قبلَ المماتِ يكونُ مِن عُوَّادِه

أبو طالب يحيى بنُ عليٍّ اليعقوبيُّ، الفقيهُ الشافعيُّ، أحدُ المُعِيدين ببغدادَ، كان شيخًا مَليحَ الشَّيْبةِ، جَميلَ الوجهِ، كان يَلِي بعضَ الأوْقافِ، ومما أنْشَده لبعضِ الفُضلاءِ:

لَحَمْلُ تِهامةَ وجبالِ أُحْدٍ — وماءُ البحرِ يُنْقَلُ بالزَّبِيلِ
ونقلُ الصخرِ فَوقَ الظهرِ يومًا — لأهونُ مِن مجالسةِ الثقيلِ

ولبعضِهم أيضًا، وهو مما أنْشَده المذكورُ:

وإذا مضَى للمَرْءِ من أعوامِه — خمسون وهْوَ إلى التُّقَى لا يَجْنَحُ
عكَفَتْ عليه المُخْزِياتُ بقولِها — حالَفْتَنا فأقِمْ كذا لا تَبْرَحُ
وإذا رأى الشيطانُ غُرَّةَ وجهِه — حيًّا وقال فَدَيْتُ مَن لا يُفْلِحُ

اتَّفَق أنه طُولِب بشيءٍ مِن المالِ، فلم يَقْدِرْ عليه، فاسْتَعْمل شيئًا مِن الأَفْيونِ المِصْريِّ، فمات مِن يومِه، ودُفِن بالوَرْدية.

وفيها: تُوُفِّي قُطْبُ الدينِ ابنُ العادل بالفيومِ، ونُقِل إلى القاهرةِ.

وفيها: تُوُفِّي إمامُ الحَنابلةِ بمكةَ **الشيخُ نصرُ بنُ أبي الفرجِ المعروفُ بابنِ الحُصْريِّ**، جاوَر بمكةَ مدةً، ثم ساقَته المَنِيَّةُ إلى اليمنِ، فمات بها في هذه السنةِ، وقد سمع الحديثَ مِن جَماعةٍ مِن المَشايخِ.

وفيها: في ربيعٍ الأولِ تُوُفِّي بدمشقَ **الشِّهابُ عبدُ الكريمِ بنُ نَجْمِ بنِ الحنبليِّ**، أخو البَهاءِ والناصحِ، وكان فَقيهًا مُناظِرًا بَصيرًا بالمُحاكَماتِ، وهو الذي أخْرَج مسجدَ الوزيرِ مِن يدِ الشيخِ عَلَمِ الدينِ السَّخاويِّ.

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

فيها: عاد الأشْرفُ موسى بنُ العادلِ مِن عندِ أخيه الكاملِ صاحبِ مصرَ إلى الشامِ، فتلَقَّاه أخوه المُعَظَّمُ، وقد فهِم أنهما تَمالأ عليه، فبات ليلةً بدمشقَ، وسار مِن آخرِ الليلِ، ولم يَشْعُرْ أخوه بذلك، فسار إلى بلادِه، فوجَد أخاه الشِّهابَ غازي الذي اسْتَنابه على خِلاطَ ومَيَّافارِقِينَ قد قوِي رأسُه، وكاتَبه المُعَظَّمُ وصاحبُ إرْبِلَ، وحسَّنوا له مُخالفةَ الأشرفِ، فكتَب إليه الأشرفُ يَنْهاه عن ذلك، فلم

يَقْبَلْ، فجمَع له العَساكرَ ليُقاتلَه.

وفيها سار أَقْسِيسُ الملكُ المسعودُ صاحبُ اليمنِ ابنُ الكاملِ من اليمنِ إلى مكةَ، شرَّفها اللَّهُ تعالى، فقاتَله حسنُ بنُ قَتادةَ ببطنِ مكةَ بينَ الصَّفا والمَرْوةِ، فهزَمه أَقْسِيسُ وشرَّده، واسْتَقَلَّ بمُلكِ مكةَ مع اليمنِ، وجرَت أمورٌ فظيعةٌ، وتشرَّد حسنُ بنُ قَتادةَ قاتلُ أبيه وعمِّه وأخيه في تلك الشِّعابِ والأوْدِية.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الشيخُ مُوَفَّقُ الدينِ بنُ قُدامةَ المقدسيُّ، مصنِّفُ «المُغْني» في الفقه، عبدُ اللَّه بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ قدامةَ، الشيخُ موفقُ الدينِ أبو محمد المقدسيُّ[1]، إمامٌ عالمٌ بارعٌ، لم يكنْ في عصرِه بل ولا قبلَ دهرِه بمدةٍ، أفقهُ منه، وُلِد بجَمَّاعِيلَ في شعبانَ سنةَ إحدى وأربعين وخمسمائةٍ، وقدِم مع أهلِه إلى دمشقَ في سنةِ إحدى وخمسين، وقرَأ القرآنَ، وسمع الحديثَ الكثيرَ، ورحَل مرتين إلى العراقِ؛ إحداهما في سنةِ إحدى وستين مع ابنِ خالتِه الحافظِ عبدِ الغنيِّ، والأخرى سنةَ سبعٍ وستين، وحجَّ في سنةِ ثلاثٍ وسبعين، وتفقَّه ببغدادَ على مذهبِ الإمامِ أحمدَ، وبرَع وأفْتَى وناظَر، وتبَحَّر في فُنونٍ كثيرةٍ، مع زُهْدٍ وعبادةٍ، وورَعٍ وتَواضُعٍ، وحسنِ أخلاقٍ، وجُودٍ وحَياءٍ وحُسْنِ سَمْتٍ، ونورٍ وبَهاءٍ، وكثْرةِ تلاوةٍ وصلاةٍ وصيامٍ وقيامٍ، وطريقةٍ حسنةٍ واتِّباعٍ للسَّلَفِ الصالحِ، وكانت له أحْوالٌ ومُكاشَفاتٌ، وقد قال الشافعيُّ، رحمه اللَّهُ تعالى: إن لم يكُنِ العلماء العاملون أوْلياءَ اللَّه فلا أعْلَمُ للَّه وليًّا.

وكان يَؤُمُّ الناسَ للصلاةِ في مِحْرابِ الحَنابلةِ هو والشيخُ العمادُ، فلما تُوُفِّي العمادُ اسْتَقَلَّ هو بالوَظيفةِ، فإن غاب صلَّى عنه أبو سليمانَ عبدُ الرحمنِ بنُ الحافظِ عبدِ الغنيِّ، وكان يَتَنَفَّلُ بينَ العشاءَيْن بالقربِ من محْرابِه، فإذا صلَّى العشاءَ انْصرَف إلى منزلِه بدربِ الدَّوْلَعيِّ بالرَّصيفِ، وأخَذ معه من الفُقراءِ مَن تيَسَّر؛ يأكُلون معه من طعامِه، وكان مَنْزِلُه الأصْليُّ بقاسيونَ، فيَنْصَرِفُ في بعضِ الليالي بعدَ العشاءِ إلى الجبلِ، فاتَّفَق في بعضِ الليالي أن خطَف رجلٌ عمامتَه، وكان فيها كاغدٌ فيه رَمْلٌ، فقال له الشيخُ: خذِ الكاغدَ، وألْقِ العمامةَ. فظنَّ الرجلُ أن في الكاغدِ مالًا، فأخَذه وألْقَى العمامةَ، فأخَذَها الموفقُ ثم ذهَب. وهذا يَدُلُّ على ذَكاءٍ مُفْرِطٍ واسْتِحْضارٍ حسَنٍ في الساعةِ الراهنةِ، حتى خلَّص عمامتَه من يدِه بتَلَطُّفٍ.

وله مُصنَّفاتٌ عَديدةٌ مَشْهورةٌ، منها «المُغْني» في شرحِ «مختصرِ الخِرَقيِّ» في عشَرةِ مُجَلَّداتٍ، و«الكافي» في أربعةِ مُجَلَّداتٍ و«المُقْنِعُ» للحفظِ، و«الرَّوْضةُ» في أصولِ الفقهِ، وغيرُ ذلك من التَّصانيفِ المُفيدةِ، وكانت وفاتُه في يومِ عيدِ الفِطْرِ في هذه السنةِ، وقد بلَغ الثمانين، وكان يومَ

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ١٦٥ - ١٧٣).

سبت، وحضرَ جنازَته خَلْقٌ كثيرٌ، ودُفِن بتربته المشهورة، ورُئِيت له مَنامات صالحةٌ، رحمه اللَّهُ تعالى، وكان له أولادٌ ذُكورٌ وإناثٌ، فماتوا في حياته. ولم يُعقِبْ منهم سوى ابنه عيسى ولدَيْن، ثم ماتا وانْقطَع نَسْلُه، قال أبو المُظَفَّر السِّبطُ: نَقَلْتُ من خطِّ الشيخ مُوَفَّقِ الدين:

لا تَجْلِسَنَّ ببابِ مَن	يَأبى عليك دخولَ دارِهْ
وتقولُ حاجاتي إليـ	ـه يَعوقُها إن لم أُدارِهْ
واتْرُكْه واقْصِدْ ربَّها	تُقْضَى وربُّ الدارِ كارِهْ

ومما أنْشَدَه الشيخُ مُوَفَّقُ الدين لنفسه، رحمه اللَّهُ تعالى، ورضي عنه قولُه:

أبَعْدَ بياضِ الشعرِ أعمرُ مَسْكَنًا	سوى القبرِ إني إن فعَلْتُ لأحْمقُ
يُخبِّرُني شَيْبي بأنيَ مَيِّتٌ	وَشيكًا وينْعاني إليَّ فيَصْدُقُ
يُخرِّقُ عُمْري كلَّ يومٍ وليلةٍ	فهل أسْتطيعُ رَقْعَ ما يَتخَرَّقُ
كأني بجسمي فوقَ نَعْشي مُمَدَّدًا	فمن ساكتٍ أو مُعْوِلٍ يَتَحَرَّقُ
إذا سُئلوا عني أجابوا وعوَّلوا	وأدْمُعُهم تَنْهَلُّ هذا المُوَفَّقُ
وغُيِّبْتُ في صَدْعٍ من الأرض ضَيِّقٍ	وأُودِعْتُ لَحْدًا فوقَه الصَّخْرُ مُطْبَقُ
ويَحْثُو عليَّ التُّرْبَ أوثقُ صاحبٍ	ويُسْلِمُني للقبرِ مَن هو مُشْفِقُ
فيا ربِّ كُنْ لي مُؤْنِسًا يومَ وَحْشَتي	فإني بما أنْزَلْتَه لَمُصَدِّقُ
وما ضرَّني أني إلى اللَّه صائرٌ	ومَن هو من أهلي أبَرُّ وأرْفَقُ

فخرُ الدين بنُ عَساكرَ: عبدُ الرحمن بنُ محمد بن الحسَن بن هبَة اللَّه بن عَساكرَ، فخرُ الدين أبو منصور الدمشقيُّ، شيخُ الشافعية بها، وأمُّه أسْماءُ بنتُ محمد بن الحسن بن طاهر القريشيةُ ـ المعروفُ والدُها بأبي البَرَكات ابن الراني ـ، وهو الذي جدَّد مسجدَ القَدَم في سنة سبعَ عشْرةَ وخمسمائة، وبه قبرُه وقبرُها، ودُفِن هناك طائفةٌ كبيرةٌ من العلماء ـ وهي أختُ آمِنةَ والدة القاضي مُحْيي الدين محمد ابن عليِّ بن الزَّكيِّ.

اشْتَغل الشيخُ فخرُ الدين من صغَرِه بالعلم الشَّريف على شيخه قُطْب الدين مسعود النَّيسابوريِّ، وتَزَوَّج بابنته، ودرَّس مكانَه بالجاروخية، وبها كان يَسْكُنُ في إحدى القاعتَيْن اللتين أنْشَأهما، وبها تُوُفِّي غربيَّ الإيوان، ثم تولَّى تَدْريسَ الصَّلاحيَّة الناصريَّة بالقدس الشريف، ثم ولاَّه العادلُ تَدْريسَ التَّقَويَّة، وكان عندَه أعْيانُ الفُضَلاء، ثم تفرَّغ، فلزِم المُجاوَرَةَ في الجامع في البيت الصغير إلى جانب محْراب الصَّحابة، يَخْلُو فيه للعبادة والمُطالَعة والفَتاوَى، وكانت الفتاوَى تَفِدُ إليه من الأقْطار، وكان كثيرَ الذكر، حسنَ السَّمْت، وكان يَجْلِسُ تحتَ قُبَّة النَّسْر في كلِّ يوم اثنين وخميس مكانَ عمِّه لإسْماع الحديث بعدَ العصر، فيُقْرأُ عليه «دلائلُ النبوة» وغيرُه، وكان يَحْضُرُ مَشْيخَةَ دار الحديث

النُّورية، ومَشْهَدَ ابنِ عُرْوةَ أولَ ما فتح، وقد استَدْعاه الملكُ العادلُ بعدَما عزَل قاضيَه زكيَّ الدين، فأجْلَسه إلى جانبِه وقتَ السِّماط، وسأل منه أن يَلِي القَضاءَ بدمشقَ، فقال: حتى أستَخيرَ اللّهَ تعالى. ثم امْتَنع من ذلك، فشقَّ على السلطان امْتناعُه، وهمَّ أن يُؤْذيَه، فقيل له: احْمَد اللّه الذي في بلادك مثلُ هذا. ولما تُوُفِّي العادلُ، وأعاد ابنُه المُعَظَّمُ الخُمورَ أنْكَر عليه الشيخُ فخرُ الدين، فبقِي في نفسه منه، فانْتَزَع منه تَدْريسَ الصَّلاحيَّة التي بالقدس وتدريسَ التَّقَوية، ولم يَبْقَ معه سوى الجاروخية ودار الحديث النُّورية، ومَشْهَد ابنِ عُرْوةَ. وكانت وفاتُه يومَ الأربعاء بعدَ العصرِ عاشرَ رجب من هذه السنة، وله خمسٌ وستون سنةً، وصُلِّي عليه بالجامع، وكان يومًا مشهودًا، وحُمِلت جنازتُه إلى مَقابرِ الصُّوفية، فدُفِن بها، في أولها قريبًا من قبرِ شيخه قُطْب الدين مسعود.

ابنُ عُرْوةَ شرفُ الدين محمدُ بنُ عُروةَ المَوْصِليُّ، المَنْسوبُ إليه مَشْهَدُ ابنِ عُرْوةَ ـ ويقول الناسُ: مشهدُ عروةَ ـ بالجامع الأُمَويِّ؛ لأنه أولُ مَن فتَحه، وكان مَشْحونًا بالحَواصلِ الجامعية، وبنَى فيه البِرْكةَ، ووقَف فيه على الحديث دَرْسًا، ووقَف خَزائنَ كتبٍ فيه، وكان مُقيمًا بالقُدْس الشريف، ولكنه كان من خَواصِّ أصحاب الملك المُعَظَّم، فانْتَقَل إلى دمشقَ حينَ خرَّب سُورُ بيتِ المقدس إلى أن تُوُفِّي بها، وقبرُه عندَ قِباب أتابَك طغتكين قِبْليَّ المُصَلَّى، رحمه اللّهُ تعالى.

الشيخُ أبو الحسن الرُّوزْبَهاريُّ، دُفِن بالمكان المَنْسوب إليه بينَ السورين عندَ باب الفَراديس.

الشيخُ عبدُ الرحمن اليَمَنيُّ كان مُقيمًا بالمَنارة الشرقية، كان صالحًا زاهدًا وَرِعًا، ودُفن بمقابر الصوفية.

الرئيسُ عزُّ الدين المُظَفَّرُ بنُ أسْعَدَ بن حَمْزَةَ التَّميميُّ بن القَلانسيِّ، أحدُ رُؤساء دمشقَ وكُبَرائها، وجدُّه أبو يَعْلَى حمزةُ، له تاريخٌ ذيَّل به على ابنِ عَساكرَ، وقد سمع عزُّ الدين هذا الحديثَ من الحافظ أبي القاسم ابنِ عساكرَ وغيرِه، ولزِم مُجالسةَ الكِنْديِّ وانْتَفَع به.

الأميرُ الكبيرُ أحدُ حُجَّاب الخَليفة، محمدُ بنُ سليمانَ بن قتلمش بن تُرْكانشاه، أبو منصور السَّمَرْقَنْديُّ، وكان من أولاد الأُمراء، ووَلِي حاجبَ الحُجَّاب بالدِّيوان العَزيز الخَليفَتيِّ، وكان يَكْتُبُ جيدًا جدًّا، وله مَعْرِفةٌ حَسَنَةٌ بعلومٍ كثيرة، منها الأدبُ وعلومُ الرِّياضة، وعُمِّر دهرًا، وله شعرٌ حسنٌ، ومن شعرِه قولُه:

سَئِمْتُ تَكاليفَ هذي الحياة	وكَرَّ الصَّباح بها والمساءْ
وقد كنتُ كالطفلِ في عقلهِ	قليلَ الصَّواب كثيرَ الهُراءْ
أنامُ إذا كنتُ في مجلسٍ	وأسْهَرُ عندَ دُخول الغناءْ
وقصَّر خَطْويَ قيدُ المَشيبِ	وطال على ما عنَانيَ عَناءٌ
وغُودِرْتُ كالفَرْخِ في عُشِّهِ	وخلَّفْتُ حُلْمي وراءَ وراءْ
وما جَرَّ ذلك غيرُ البقاء	فكيف ترى فعلَ سوءِ البَقاءْ

وله أيضًا:

إلهي يا كثيرَ العفوِ غفرًا ... لما أسلفتُ في زمنِ الشبابِ
فقد سوَّدتُ بالآثامِ وجهًا ... ذليلاً خاضعًا لك في الترابِ
فبيِّضه بحسنِ العفوِ عني ... وسامحني وخفِّفْ من حسابي

ولما تُوفِّي صُلِّي عليه بالنِّظامية، ودُفن بالشُّونيزيَّة.

ورآه بعضُهم في المَنام فقال: ما فعَل بك ربُّك؟ فقال:

تحاشَيْتُ اللِّقاءَ لسُوءِ فعلي ... وخوفًا في المَعادِ من النَّدامَهْ
فلما أنْ قدِمتُ على إلهي ... وحاقَقَ في الحسابِ على قُلامَهْ
وكان العدلَ أن أَصْلَى جحيمًا ... تعطَّفَ بالمكارمِ والكرامَهْ
ونادانِي لسانُ العفوِ منه ... ألا يا عبدُ تَهْنِيك السَّلامَهْ

أبو عليٍّ الحسنُ بنُ أبي المَحاسنِ زُهْرةَ بن الحسن بن زُهْرةَ العَلَويُّ الحُسَيْنيُّ الحَلَبيُّ، نَقيبُ الأشرافِ بها، كان لديه فَضْلٌ وعلمٌ بالأدبِ والعربيةِ وأخبارِ الناسِ والتَّواريخِ والسِّيَرِ والحَديثِ، حافظًا للقرآنِ المَجيدِ، وله شعرٌ جيدٌ، فمنه قولُه:

قد رأيتُ المَعْشوقَ وهْو من الهجْـ ... ـرِ بحالٍ تَنْبُو النَّواظرُ عنهُ
أثَّر الدهرُ فيه آثارَ سَوْءٍ ... وأدالَتْ يدُ الحَوادثِ منهُ
عاد مُسْتَبْدَلاً ومُسْتَبْدِلاً عِزًّا ... بذُلٍّ كأنَّه لم يَصُنْهُ

أبو عليٍّ يحيى بنُ محمدِ بن عليِّ بن المُبارَك بن الجَلاَجِليِّ، من أبناءِ التُّجَّارِ، سمع الحديثَ، وكان جميلَ الهيئةِ، يَسْكُنُ بدارِ الخلافةِ، وكان عندَه علمٌ، وله شعرٌ حسَنٌ، فمنه قولُه:

خيرُ إخوانِك المُشاركُ في المُرِّ ... وأينَ الشَّريكُ في المُرِّ أينا
الذي إن شهِدْتَ سَرَّك في القَوْ ... مِ وإن غِبْتَ كان أُذْنًا وعَيْنَا
مثلُ سِرِّ العِقْيانِ إنْ مَسَّه النا ... رُ جَلاه الجِلاءُ فازْداد زَيْنَا
وأخو السَّوْءِ إن يَغِبْ عنك يَشْنَـ ... ـك وإن يَحْتَضِرْ يَكُنْ ذاك شَيْنَا
جَنِّبْه غيرُ ناصحٍ ومُناه ... أن يصيبَ الخليلُ إفكًا ومَيْنَا
فاخْشَ منه ولا تلَهَّفْ عليه ... إنَّ غُرْمًا له كنَقْدِك دَيْنَا

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

فيها: وصلَت سَريةٌ من جهةِ جِنْكِزْخان غيرُ الأُولَيَيْن إلى الرَّيِّ، وكانت قد عُمِّرَت قليلاً، فقتَلوا أهلَها أيضًا، ثم ساروا إلى ساوةَ، ثم إلى قُمَّ وقاشانَ، ولم تكونا طُرِقتا إلا هذه المرةَ، ففعَلوا بها مثلَ

ما تقدَّم من القتلِ والسَّبْيِ، ثم ساروا إلى هَمَذانَ، فقتَلوا أيضًا وسبَوْا، ثم ساروا خلفَ الخُوارَزْميةِ إلى أذْرَبِيجانَ، فكَبَسوهم وقتَلوا منهم خلقًا كثيرًا، فهرَبوا منهم إلى تبْريزَ، فلَحِقوهم وكتَبوا إلى ابنِ البَهْلَوانِ: إن كنتَ مُصالحًا لنا فابْعَثْ إلينا بالخُوارَزْميةِ، وإلاَّ فأنت مثلُهم. فقتَل منهم خلقًا، وأرْسَل برءُوسِهم إليهم، مع تُحَفٍ وهَدايا كثيرةٍ، هذا كلُّه وإنما كانت هذه السَّريةُ ثلاثةَ آلافٍ، والخُوارَزْميةُ وأصحابُ البَهْلَوانِ أضعافَ أضْعافِهم، ولكنْ ألْقَى اللَّهُ تعالى عليهم الخِذْلانَ والفشَلَ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وفيها: ملَك غياثُ الدينِ بنُ خُوارَزْم شاه بلادَ فارسَ مع ما في يدِه من مَمْلكةِ أصْفَهانَ وهَمَذانَ.

وفيها: استَعاد الملكُ الأشْرَفُ مدينةَ خِلاطَ من أخيه شهابِ الدينِ غازي، وكان قد جعَلها إليه مع جميعِ بلادِ أرْمينيَةَ ومَيَّافارِقِينَ وحاني وجبلِ جُورَ، وجعَله وليَّ عهدِه من بعدِه، فلمَّا عصَىٰ عليه وتَشعَّب دماغُه بما كتَب إليه المُعَظَّمُ من تَحْسينِه له مُخالفتَه، فركِب إليه وحاصَره بخلاطَ، فسُلِّمَتْ إليه، وامتَنع أخوه في القلعةِ، فلما كان الليلُ نزَل إلى أخيه مُعْتَذِرًا، فقبِل عُذْرَه ولم يُعاقِبْه، بل أقَرَّه على مَيَّافارِقِينَ وحدَها، وكان صاحبُ إرْبِلَ والمُعَظَّم متفقين مع الشِّهابِ غازي على الأشرفِ، فكتب الكاملُ إلى أخيه المُعَظَّم يتَهدَّدُه، لئن ساعَد على الأشرفِ ليَأْخُذَنَّ بلادَه، وكان بدرُ الدينِ لُؤْلُؤٌ صاحبُ الموصلِ مع الأشرفِ، فركِب إليه صاحبُ إرْبِلَ، فحاصَره بسببِ قلةِ جُنْدِه؛ لأنه أرْسَلَهم إلى الأشرفِ حينَ نازَل خِلاطَ، فلمَّا انْفَصلَت الأمورُ على ما ذكَرْنا ندِم صاحبُ إرْبِلَ والمُعَظَّمُ بدمشقَ أيضًا.

وفيها: أرْسَل المُعَظَّمُ ولدَه الناصرَ داودَ إلى صاحبِ إرْبِلَ تَقْويةً على مُخالفةِ الأشْرفِ، وأرْسَل صُوفيًا من السُّمَيْساطيَّةِ يقالُ له: الملقُ. إلى جَلالِ الدينِ بنِ خُوارَزْم شاه. وكان قد أخَذ أذْرَبِيجان في هذه السنةِ، وقوِي جَأْشُه. يتَّفِقُ معه على أخيه الأشرفِ، فوعَدَه النصرَ والرِّفادةَ.

وفيها: قدِم الملكُ المسعودُ أقْسِيسُ صاحبُ اليمنِ على أبيه الكاملِ بالديارِ المصريةِ، ومعه شيءٌ كثيرٌ من الهَدايا والتُّحَفِ، من ذلك مائتا خادمٍ وثلاثةُ أفْيِلَةٍ هائلةٍ، وأحْمالُ عودٍ وندٍّ ومسكٍ وعَنْبَرٍ، وخرَج أبوه الكاملُ لتَلَقِّيه، ومن نِيَّةِ أقْسِيسَ أن يَنْتَزِع الشامَ من يدِ عمِّه المُعَظَّم.

وفيها: كمَل عمارةُ دارِ الحديثِ الكاملية بمصرَ، ووَلِي مشيختَها الحافظُ أبو الخَطَّابِ بنُ دِحْيَةَ الكَلْبيُّ، وكان مِكْثارًا، كثيرَ الفنونِ، وعندَه فَوائدُ وعَجائبُ، رحمه اللَّه تعالى.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمد بن عليٍّ القادسيُّ الضَّريرُ الحَنْبَليُّ، والدُ صاحبِ «الذَّيْلِ على تاريخِ ابنِ الجوزيِّ»، وكان القادسيُّ هذا يُلازِمُ حُضورَ مجلسِ الشيخِ أبي الفرجِ بنِ الجوزيِّ ويُزْهِرُه؛ لما يَسْمَعُه من

الغَرائبِ، ويقولُ: واللَّهِ إن ذا مَليحٌ. فاسْتَقْرَضَ منه الشيخُ مرةً عشَرةَ دَنانيرَ، فلم يُعْطِه، وصار يَحْضُرُ ولا يتكلَّمُ، فقال الشيخُ مرةً: هذا القادسيُّ لا يُقْرِضُنا شيئًا، ولا يقولُ: واللَّهِ إن ذا مَليحٌ. رحِمهم اللَّهُ تعالى، وقد طُلِب القادسيُّ مرَّةً إلى دارِ المُسْتَضِيءِ لِيُصلِّيَ بالخليفةِ التَّراويحَ، فقيل له والخليفةُ يَسْمَعُ: ما مَذْهَبُك؟ فقال: حَنْبليٌّ. فقيل له: لا تُصلِّ بدارِ الخِلافةِ وأنت حَنْبليٌّ. فقال: أنا حَنْبليٌّ، ولا أُصلِّي بكم. فقال الخليفةُ: اتْرُكوه، لا يُصلِّي بنا إلاَّ هو. فصلَّى بهم.

أبو الكَرَمِ المُظَفَّرُ بنُ المُبارَكِ بنِ أحمدَ بنِ محمد البَغْداديُّ الحَنَفيُّ، شيخُ مَشْهدِ أبي حَنيفةَ وغيرِه، ولِيَ الحِسْبَةَ بالجانبِ الغربيِّ مِن بغدادَ، وكان فاضلاً دَيِّنًا شاعرًا، ومِن شعرِه قولُه:

فصُنْ بجَميلِ الصبرِ نفسَك واغتَنِمْ ... شريفَ المَزايا لا يَفُتْك ثوابُها
تَعِشْ سالمًا والقولُ فيك مُهَذَّبٌ ... كريمًا وقد هانت عليك صِعابُها
وتَندَرِجُ الأيامُ والكلُّ ذاهبٌ ... يَمُرُّ ويَفْنَى عَذْبُها وعَذابُها
وما الدهرُ إلا مَرُّ يومٍ وليلةٍ ... وما العمرُ إلاَّ طَيُّها وذَهابُها
وما الحَزْمُ إلاَّ في إخاءِ عَزيمةٍ ... فنَيْلُ المعالي صَفْوُها ولُبابُها
ودَعْ عنك إلمامَ الأماني فإنه ... سيُسْفِرُ يومًا غيُّها وصَوابُها

محمدُ بنُ أبي الفرجِ بنِ مَعالي بنِ بَرَكةَ، الشيخُ فخرُ الدينِ أبو المَعالي المَوْصليُّ، قدِم بغدادَ، واشْتَغل بالنِّظاميةِ، وأعاد بها، وكانت له مَعْرفةٌ بالقِراءاتِ، وصنَّف كتابًا في مَخارجِ الحُروفِ، وأسْنَد الحديثَ، وله شعرٌ لَطيفٌ.

أبو بكرِ بنُ حلبةَ المَوازِينيُّ البغداديُّ، كان فَرْدًا في علمِ الهَنْدسةِ وصناعةِ المَوازِينِ، يَخْتَرِعُ أشياءَ غريبةً عَجيبةً، مِن ذلك أنه ثقَب حَبَّةَ خَشْخَاشٍ سبعةَ ثُقوبٍ، وجعَل في كلِّ ثَقْبٍ شَعرةً، وكانت له حُظْوةٌ عندَ الدولةِ.

أحمدُ بنُ جعفرِ بنِ أحمدَ بنِ محمد، أبو العباسِ الدُّبَيْثيُّ البَيِّعُ الواسطيُّ، شيخٌ أديبٌ فاضلٌ، له نَظْمٌ ونَثْرٌ، عارفٌ بالأخبارِ والسِّيَرِ، وعندَه كتبٌ جيدةٌ كثيرةٌ، وله شرحُ قَصيدةٍ لأبي العَلاءِ المَعَرِّيِّ في ثلاثِ مُجلَّداتٍ، وقد أوْرَد له ابنُ الساعي شعرًا فَصيحًا حُلْوًا، لذيذًا في السمعِ، لَطيفًا في القلبِ.

* * *

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وستمائة

فيها عاثت الخُوَارزميَّةُ حينَ قَدِمُوا مع جلالِ الدينِ بنِ خُوَارِزْم شاه من بلاد غَزْنَة مَقْهُورِينَ من التتارِ إلى بلاد خُوزِسْتَانَ ونَوَاحِي العِراقِ، فأفسَدُوا فيه، وحَاصَرُوا مُدُنَه، ونَهَبُوا قُرَاه.

وفيها استَحْوَذَ جلالُ الدينِ بنُ خُوَارِزْم شاه على بلاد أَذْرَبِيجَانَ وكثيرٍ من بلاد الكَرْجِ وكَسَرَ الكَرْجَ، وهم في سبْعِينَ ألفَ مُقَاتِلٍ، فقتَلَ منهم عِشْرِينَ ألفًا من المُقَاتلة، واستَفْحَلَ أمرُه جـدًّا، وعظُمَ شأنُه، وفَتَحَ تَفْلِيسَ، فقتَلَ منها ثلاثينَ ألفًا. وزَعَمَ أبو شامَةَ أنَّه قَتَلَ من الكَرْجِ سبعينَ ألفًا في المَعْرَكَةِ، وقَتَلَ من تَفْلِيسَ تَمَامَ المائةِ ألفٍ. وقد اشتَغَلَ بهذه الغَزْوَةِ عن قَصْدِ بَغْدَادَ، وذلك أنَّه لَمَّا حَاصَرَ دَقُوقًا سبَّه أهلُها، فَفَتَحَها قَهْرًا، وقَتَلَ من أهلِها خَلْقًا كثيرًا، وخرَّبَ سُورَها، وعَزَمَ على قَصْدِ الخَلِيفَةِ ببَغْدَادَ؛ لأنَّهُ فيما زَعَمَ عَمِلَ على أبيهِ حتى هَلَكَ، واستَوْلَتِ التَّتَرُ على البلادِ، وكَتَبَ إلى المُعَظَّمِ بنِ العادلِ يَسْتَدْعِيه لقتالِ الخَلِيفَةِ، ويُحَرِّضُه على ذلك، فامتَنَع المُعَظَّمُ من ذلك، ولَمَّا عَلِمَ الخَلِيفَةُ بقَصْدِ جلالِ الدينِ بنِ خُوَارِزْم شاه بَغْدَادَ انزَعَجَ لذلك، وحَصَّنَ بَغْدَادَ، واستَخْدَمَ الجُيُوشَ والأَجْنَادَ، وأنْفَقَ في الناسِ ألفَ ألفِ دينارٍ، وكان جلالُ الدينِ قد بعَثَ جَيشًا إلى الكَرْجِ، فكَتَبُوا إليه أنْ أدرِكْنَا قبلَ أنْ نَهْلِكَ عن آخِرِنا، وبَغْدَادُ ما تَفُوتُ. فسارَ إليهم وكان من أمرِه ما ذَكَرْنَاه. وفيها كان غلاءٌ شَدِيدٌ بالعِرَاقِ والشامِ بسببِ قلَّةِ الأمطارِ وانْتِشَارِ الجَرَادِ، ثم أعْقَبَ ذلك فَنَاءٌ كثيرٌ بالعِرَاقِ والشامِ أيضًا، مَاتَ بسببِه خَلْقٌ كثيرٌ في البُلْدَانِ، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه رَاجِعُونَ.

وفاة الخليفة الناصر لدين الله وخلافة ابنه الظاهر (١)

لما كان يومُ الأحَدِ آخِرُ يومٍ من شَهرِ رَمَضَانَ المُعَظَّمِ من هذه السنَةِ تُوُفِّي الخليفَةُ الناصرُ لدينِ اللَّه أبو العبَّاسِ أحمدَ ابنُ المُسْتَضِيءِ بأمرِ اللَّه أبي محمدٍ الحسنِ ابنِ المُسْتَنْجِدِ باللَّه أبي المُظَفَّرِ يوسفَ ابنِ المُقْتَفِي لأمرِ اللَّه أبي عبدِ اللَّه محمدِ ابنِ المُسْتَظْهِرِ باللَّه أبي العبَّاسِ أحمدَ ابنِ المُقْتَدِي بأمرِ اللَّه أبي القاسمِ عبدِ اللَّه ابنِ الذَّخيرَةِ محمدِ ابنِ القائمِ بأمرِ اللَّه أبي جعفرَ عبدِ اللَّه ابنِ القادرِ باللَّه أبي العبَّاسِ أحمدَ ابنِ إسْحَاقَ ابنِ المُقْتَدِرِ باللَّه أبي الفَضْلِ جعفرِ ابنِ المُعْتَضِدِ باللَّه أبي العبَّاسِ أحمدَ ابنِ المُوَفَّقِ أبي أحمدَ ابنِ محمدِ ابنِ المُتَوَكِّلِ على اللَّه جعفرِ ابنِ المُعْتَصِمِ باللَّه أبي إسْحاقَ محمدِ بنِ هارُونَ الرشيدِ بنِ المَهْدِيِّ محمدِ بنِ عبدِ اللَّه أبي جعفرٍ المَنْصُورِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللَّه بنِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ الهاشميُّ العبَّاسيُّ، أميرُ المُؤْمنينَ، وُلِدَ ببَغْدَادَ عاشِرَ رَجَبٍ سنَةَ ثلاثٍ وخَمْسِينَ وخَمْسِمائةٍ وبُويعَ له بالخِلافَةِ بعدَ مَوْتِ أبيه سنَةَ خَمسٍ وسبْعِينَ، وتُوُفِّي في هذه السنَةِ وله من العُمْرِ تسعٌ وستُّونَ سنَةً

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ١٩٢ - ٢٤٣).

وشَهْرَان وعشْرُونَ يومًا، وكانت مُدَّةُ خلافَته سبعًا وأرْبَعينَ سنةً إلا شَهْرًا، ولم يَقُمْ أحدٌ من الخُلَفَاءِ العبَّاسيِّينَ في الخلافَة هذه المُدَّةَ الطَويلَةَ، ولم تَطُلْ مُدَّةُ أحدٍ من الخُلَفَاءِ مُطْلَقًا أكثَرَ من المُستَنْصِرِ العُبَيْديِّ، أقامَ بمِصْرَ حَاكمًا بها ستِّينَ سنَةً، وقد انْتَظَم في نَسَبِه أرْبَعَةَ عَشَرَ خَليفَةً ووَليٍّ عهْدٍ على ما رأيْتَ، وبَقيَّةُ الخُلَفَاء العبَّاسيِّينَ كلُّهم من أعْمَامه وبني عمِّه، وكان مَرَضُه قد طَالَ به، وجُمْهُورُه من عَسارِ البَوْلِ، معَ أنَّه كان يُجْلَبُ له المَاءُ من مَرَاحِلَ عن بَغْدَادَ ليَكُونَ أصفَىٰ، وشُقَّ ذَكَرُه مَرَاتٍ بسببِ ذلك، ولم يُغْنِ عنه هذا الحَذَرُ شيْئًا، وكان الذي وَلِيَ غَسْلَهُ مُحْيِي الدين يوسفُ ابنُ الشيخِ أبي الفَرَجِ ابن الجَوْزِيِّ، وصُلِّيَ عليه ودُفِنَ في دارِ الخلافَة، ثم نُقِلَ إلىٰ التُّرَبِ من الرُّصافَةِ في ثاني ذي الحِجَّةِ من هذه السنَةِ، وكان يومًا مَشْهُودًا.

قال ابنُ الساعي: أمَّاسيرتُه فقد تَقَدَّمَتْ في الحَوادِثِ. **وأمَّا ابنُ الأثير في «كامله» فإنَّه قال**: وبَقيَ الناصرُ لدين اللَّه ثلاثَ سنينَ عاطلاً عن الحَرَكَة بالكُليَّة، وقد ذَهَبَتْ إحْدَىٰ عَيْنَيْه، والأخْرَىٰ يُبْصرُ بها إبْصارًا ضَعيفًا، وآخرُ الأمْرِ أصَابَه دوسنطارية عشرينَ يومًا ومات، ووَزَرَ له عدَّةُ وُزَرَاءَ، وقد تَقَدَّمَ ذَكْرُهم، ولم يُطلقْ في أيام مَرَضه ما كان أحْدَثَه من الرُّسُوم الجائرَة، وكان قَبيحَ السيرَة في رَعيَّته ظالمًا لهم، فخُرِّبَ في أيامه العرَاقُ، وتَفَرَّقَ أهْلُه في البلاد، وأخَذَ أمْوَالَهم وأمْلاكَهم، وكان يَفْعَلُ الشيءَ وضدَّه؛ فَمن ذلك أنَّه عَملَ دُورًا للإفْطار في رَمَضانَ ودُورًا لضيافَة الحُجَّاجِ، ثم أبطَلَ ذلك، وكان قد أسْقَطَ مُكُوسًا ثم أعادَهَا، وجَعَلَ جُلَّ هَمِّه في رَمْي البُنْدُق، والطيُورِ المناسيبِ، وسَرَاويلات الفُتُوَّة.

قال ابنُ الأثير: وإنْ كان ما يَنْسبُه العَجَمُ إليه صحيحًا من أنَّه هو الذي أطْمَعَ التَّتَارَ في البلادِ وراسَلَهم، فهو الطَّامَّةُ الكُبْرَىٰ التي يَصْغُرُ عندَها كلُّ ذنبٍ عَظيم.

قلتُ: وقد ذُكرَ عنه أشْيَاءُ غَريبَةٌ؛ من ذلك أنَّه كان يَقُولُ للرسلِ الوافدينَ عليه: فَعَلْتُم في مكانِ كذَا كذا وكذا، وفي المَوْضع الفُلانيِّ كذا. حتىٰ ظَنَّ بَعْضُ الناسِ أو أكثرُهم أنَّه كان يُكاشَفُ، أو أنَّ جنيًّا يَأتيه بذلك. واللَّهُ أعْلَمُ.

خلافة الظاهر بن الناصر

لما توفي الخليفة الناصر لدين الله كان قد عهد إلىٰ ابنه أبي نصر محمد هذا ولقبه بالظاهر، وخُطبَ له على المَنابرِ، ثم عَزَلَه عن ذلك بأخيه عليٍّ فَتُوُفِّيَ في حياة أبيه سنةَ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ، فاحْتَاجَ إلىٰ إعادَة هذا إلىٰ ولايَة العَهْد، فَخُطبَ له ثانيًا، فَحينَ تُوُفِّيَ أبوه بُويعَ له بالخلافَة، وعُمْرُه يومَئذ ثِنْتَان وخَمْسُونَ سنَةً، فلم يلِ الخلافة أحدٌ من بني العبَّاسِ أسنُّ منه، وكان عَاقلاً وَقُورًا دَيِّنًا عَادلاً مُحْسنًا، رَدَّ مَظَالمَ كثيرَةً، وأسْقَطَ مُكُوسًا كان قد أحْدَثَها أبوه، وسارَ في الناسِ سيرَةً حَسَنَةً، حتىٰ قيلَ: إنَّه لم

يَكُنْ بعدَ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ أعْدَلُ منه لو طالَتْ مُدَّتُه. لكنَّه لم يَحُلْ عليه الحَوْلُ، بل كانت مُدَّتُه تِسْعَةَ أشْهُرٍ، أسْقَطَ الخَرَاجَ المَاضِيَ عن الأرَاضِي التي قد تعطَّلَتْ، ووَضَعَ عن أهلِ بلدَةٍ واحِدَةٍ - وهي بَعْقُوبَا - سبعِينَ ألْفَ دِينارٍ كان أبوه قد زَادَها عليهم في الخَرَاجِ، وكانت صَنْجَةُ المَخْزَنِ تَزِيدُ على صَنْجَةِ البلدِ نصْفَ دِينَارٍ في كلِّ مِائَةٍ إذا قَبَضُوا، وإذا أقْبَضُوا دَفَعُوا بصَنْجَةِ البلد، فَكَتَبَ إلى الديوان: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطفِّفين: ١ :٦] فكَتَبَ إليه بعضُ الكتابِ يقُولُ ياأميرَ المُؤْمِنِينَ، إنَّ تفَاوتَ هذا عن العامِ المَاضِي خمسَةٌ وثلاثُون ألْفًا. فأرسَلَ يُنْكِرُ عليه ويَقُولُ: هذا يُتْرَكُ وإنْ كَانَ تفَاوتُه ثلاثَمائَةَ ألْفٍ وخَمْسِينَ ألْفًا. رَحِمَه اللَّهُ تعالىٰ.

وأمَرَ القَاضِيَ أنَّ كلَّ مَن ثَبَتَ له حَقٌّ بطريقٍ شَرْعِيٍّ يُوصَلُ إليه بلا مُراجَعَةٍ، وأقَامَ في النَّظَرِ علىٰ الأمْوالِ الحَشْرِيَّةِ رَجُلاً صالحًا، واسْتَخْلَصَ علىٰ القضاءِ الشيخَ العلاَّمَةَ عمادَ الدينِ أبا صالحٍ نصرَ الدينِ بنَ عبدِ الرَّزَّاقِ بنِ الشيخِ عبدِ القادرِ الجِيلِيِّ، الحَنْبَلِيَّ، في يومِ الأرْبِعَاءِ ثامِنِ ذي الحِجَّةِ، وكان مِن خِيَارِ المسلمين ومِن خيارِ القُضاةِ العادِلِينَ، رَحِمَهم اللَّهُ أجْمَعِينَ. ولَمَّا عُرِضَ عليه القَضَاءُ لم يَقْبَلْه إلا بشرطِ أنْ يُوَرِّثَ ذَوِي الأرْحَامِ، فقال: أعْطِ كلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، واتَّقِ اللَّهَ ولا تتَّقِ سِواه.

وكان مِن عادَةِ أبيه أنْ يرْفَعَ إليه حُرَّاسُ الدُّرُوبِ في كلِّ صَبَاحٍ بما كان عندَهم في المَحَالِّ مِن الاجْتِمَاعَاتِ الصالِحَةِ والطَّالِحَةِ، فلمَّا ولِيَ الظاهِرُ أمَرَ بتَبْطِيلِ ذلك كلِّه وقال: أيُّ فَائِدَةٍ في كشفِ أحْوَالِ الناسِ وهَتْكِ أسْتَارِهم؟! فقيلَ له: إنَّ ترْكَ ذلك يُفْسِدُ الرَّعِيَّةَ. فقال: نحنُ نَدْعُو اللَّهَ لهم أنْ يُصْلِحَهم. وأطْلَقَ مَن كان في السُّجُونِ مُعْتَقَلاً علىٰ الأمْوالِ الدِّيوانِيَّةِ، ورَدَّ عليهم ما كان اسْتُخْرِجَ منهم قبلَ ذلك مِن المَظَالِمِ، وأرْسَلَ إلىٰ القاضِي بعشْرَةِ آلافِ دينارٍ يُوَفِّي بها دُيُونَ مَن في سُجُونِه مِن المَدِينِينَ الذين لا يَجِدُونَ وَفَاءً. وفَرَّقَ في العُلَمَاءِ بَقِّيَةَ المائَةِ ألْفٍ، وقد لامَه بعضُ الناسِ في هذه التَّصَرُّفَاتِ فقال: إنَّما فَتَحْتُ الدُّكَانَ بعدَ العَصْرِ، فَذَرُونِي أعْمَلْ صالِحًا وأفْعَلِ الخَيْرَ، فكم مقْدَارُ ما بَقِيتُ أَعِيشُ؟ ولم تَزَلْ هذه سِيرَتَه حتىٰ تُوُفِّيَ في العامِ الآتِي كما سَيَأْتِي، ورَخُصَتِ الأسْعَارُ في أيَّامِه، وقد كانت قبلَ ذلك في غايَةِ الشِّدَّةِ والغَلاءِ، حتىٰ إنَّه فيما حكَىٰ ابنُ الأثيرِ - أُكِلَتْ الكلابُ والسَّنانِيرُ والمَيْتَاتُ ببلادِ الجَزِيرَةِ والمَوْصِلِ، فزَالَ ذلك في أيامِه، وللَّهِ الحمدُ، وكان هذا الخليفةُ الظاهرُ حَسَنَ الشَّكْلِ، مَلِيحَ الوَجْهِ، أبيضَ مُشْرَبًا حُمْرَةً، حُلْوَ الشَّمائِلِ، شديدَ القُوَىٰ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها مِن الأعْيان:

أبو الحَسَنِ عليٌّ - الملقبُ بالمَلِكِ الأفضلِ - نورُ الدينِ بنُ السلطانِ صلاحِ الدينِ يوسُفَ بنِ أيوبَ، كان وليَّ عهدِ أبيه، وقد ملَكَ دمشقَ بعدَه مدةَ سنتين، ثم أخذها منه عمُّه العادلُ، ثم كاد أنْ يَمْلِكَ الدِّيارَ

المصْرِيَّةَ بعدَ أخيه العَزيزِ عُثْمانَ، فأخذها منه أيضًا عمُّه العادلُ أبو بكر، ثم اقْتَصرَ على صَرْخَدَ، فأخذها منه عمُّه العادلُ، ثم آل به الحالُ أنْ مَلَكَ سُمَيْساطَ، وبها تُوفِّي في هذه السنة، وكان فاضلاً شاعرًا، جَيِّدَ الكتابَةِ، ونُقِلَ إلى مدينة حَلَبَ فدُفِنَ بظاهرِها، رحمَه اللَّهُ تعالى. وقد ذكرَ ابنُ خلِّكان أنَّه كتب إلى الخليفَةِ الناصرِ لدينِ اللَّهِ يَشْكُو إليه عَمَّه أبا بكرٍ وأخَاه عُثْمَانَ، وكان الناصرُ شيعيًّا مثْلَه فقال:

مولايَ إنَّ أبا بكرٍ وصاحبَه	عُثْمانَ قد غَصَبَا بالسيف حَقَّ علي
وهْو الذي كانَ قد وَلاه والدُه	عليهم فاسْتقامَ الأمرُ حينَ وَلِي
فخالَفَاه وحَلا عقدَ بيعَتِه	والأمرُ بينهما والنصُّ فيه جَلِي
فانظُرْ إلى حظِّ هذا الاسم كيفَ لَقِي	من الأواخرِ ما لاقَى من الأوَّل[1]

الأميرُ سيفُ الدين عليُّ بنُ الأمير عَلَمَ الدين بن سليمانَ بن جَنْدَر، وكان من أكابرِ الأمَراءِ بحَلَبَ، وله الصَّدَقَاتُ الكثيرَةُ، ووقَفَ بها مَدْرَسَتَيْنِ؛ إحداهما على الشافعيةِ، والأخرى على الحَنَفِيَّةِ، وبنى الخاناتِ والقَنَاطِرَ وغيرَ ذلك من سُبُلِ الخَيْراتِ والغَزَواتِ، رحمَه اللَّهُ.

الشيخُ عليٌّ الكُرْديُّ المُولَّهُ المُقيمُ بظاهرِ باب الجَابِيَةِ. **قال الشيخُ أبو شامَةَ**: وقد اخْتَلَفُوا فيه؛ فبعضُ الدماشقَةِ يَزْعُمُ أنَّه كان صاحبَ كَرامَاتٍ، وأنْكرَ ذلك آخَرُونَ وقالوا: ما رآه أحدٌ يُصلِّي ولا يَصُومُ ولا لبس مَدَاسًا، بل كان يَدُوسُ النَّجَاساتِ، ويَدْخُلُ المَسْجدَ على حالِه. وقال آخَرُون: كان له تابعٌ من الجِنِّ يَتَحَدَّثُ على لسانه.

وحكَى السِّبْطُ عن امْرَأةٍ قالتْ: جاءَ خَبَرٌ عن أُمِّي باللاذقيَّةِ أنَّها مَاتتْ، وقال لي بَعْضُهم: إنَّها لم تَمُتْ. قالت: فَمَرَرْتُ به وهو قاعدٌ عندَ المَقَابِرِ، فَوَقَفْتُ عندَه، فَرَفَعَ رأْسَه وقال: ماتتْ ماتتْ، أيْشٍ تَعْمَلِينَ؟ فكان كما قال.

قال: وحكَى لي عبدُ اللَّهِ صاحبِي قال: جُعْتُ يَوْمًا وما كان معي شيءٌ، فاجْتَزْتُ به، فَدَفَعَ إليَّ نصفَ درْهَمٍ وقال: يَكْفِي هذا للخُبْزِ والعَنْبَرِيسِ.

قال: ودَخَلَ يومًا على الخطيب جَمَالَ الدينِ الدَّوْلَعِيِّ فقال له: يا شيخُ عليُّ، قد أكَلْتُ اليومَ كُسَيْرَاتٍ يابسةً، وشَرِبْتُ عليها الماءَ، فَكَفَتْنِي. فقال له الشيخُ عليٌّ الكُرْديُّ: وما تَطْلبُ نَفْسُكَ شيئًا آخرَ غيرَ هذا؟ قال: لا. فقال: يامسْكينُ، مَنْ يَقْنَعْ بكِسْرَةٍ يابسةٍ يَحْبِسْ نَفْسَه في هذه المَقْصُورَةِ، ولا يَقْضِي مَا فَرَضَه اللَّهُ عليه من الحَجِّ!

الفَخْرُ ابنُ تَيْمِيَّةَ بنُ أبي القاسم بن محمدٍ، الشيخُ فَخْرُ الدين أبو عبد اللَّهِ بن تَيْمِيَّةَ الحَرَّانيُّ، عالمُها

---

(١) هذا كلام سيء ليس بصحيح قطعًا وكفى المؤلف أن نبه على القائل بأنه كان شيعيًا والله المستعان.

ومُفْتِيها وخَطِيبُها وواعظُها، اشتَغَلَ على مَذْهَبِ الإمام أحمدَ، وبَرَعَ فيه وبَرَزَ وحصَّلَ، وجَمَعَ تَفْسِيرًا حَافلاً في مُجَلَّداتٍ كَثِيرةٍ، وله الخُطَبُ المَشْهُورَةُ المَنْسُوبَةُ إليه، وهو عَمُّ الشيخِ مَجْدِ الدينِ صاحب «المُنْتَقى» في الأحْكَامِ، قال أبو المُظفَّرِ سبطُ ابنِ الجَوزيِّ: سَمِعتُه يومَ جُمُعَةٍ بعدَ الصلاةِ وهو يَعظُ الناسَ يُنْشدُ:

أحْبَابَنا قد نَذَرَتْ مُقْلَتي ... ما تَلْتَقي بالنَّوم أو نَلْتَقي
رِفْقًا بقلبٍ مُغْرَمٍ واعْطِفُوا ... على سَقَامِ الجَسَدِ المُحْرَقِ
كَم تَمْطُلُوني بليالي اللِّقَا ... قَدْ ذَهَبَ العُمْرُ ولم نَلْتَقِ

وقد ذَكَرْنا أنَّه قَدِمَ بَغْدَادَ حاجًّا بعدَ وفاةِ شيخِه أبي الفَرَجِ ابنِ الجَوْزيِّ، ووَعَظَ بها في مكانِ شيخِه.

الوزير ابنُ شُكْرٍ، صَفِيُّ الدين أبو محمد عبدُ اللَّه بنُ عليِّ بن عبد الخالق بن شُكْرٍ، وُلِدَ بالدِّيار المِصْرِيَّة بدَمِيرَةَ بينَ مصرَ والإسْكَنْدَرِيَّة سنةَ أرْبعينَ وخَمْسمائَةٍ، ودُفِنَ بتُرْبَتِه عندَ مَدْرَسَته بمِصْرَ، وقد وزَرَ للمَلِك العادل، وعَمِلَ أشياءَ في أيَّامه، منها تَبْليطُ جامعِ دِمَشْقَ، وأحَاطَ سور المُصَلَّى عليه، وعَمِلَ الفَوَّارَةَ ومَسجدَها وعِمَارَةَ جامع المِزَّة، وقد نُكِبَ وعُزِلَ سنةَ خمسَ عَشْرَةَ وستِّمائَةٍ، وبَقِيَ مَعْزُولاً إلى هذه السنة، وكانت فيها وَفَاتُه، وقد كان مَشْكُورَ السِّيرَةِ، ومنهم مَن يقولُ: كَان ظالمًا. فاللَّهُ أعْلَمُ.

أبو إسْحاقَ إبْرَاهيمُ بنُ المُظفَّرِ بن إبْرَاهيمَ بن عليٍّ، المَعْرُوفُ بابن البَرْنيِّ، الواعظُ البَغْدَاديُّ، أخذَ الفَنَّ عن شيخِه أبي الفَرَجِ ابنِ الجَوْزيِّ، وسمعَ الحديثَ الكثيرَ، ومن شِعْرِه قولُه في الزُّهْدِ:

ما هذه الدُّنْيا بدارِ مَسَرَّةٍ ... فَتَخَوَّفي مَكْرًا لها وخِدَاعَا
بينا الفَتَى فيها يُسَرُّ بنَفْسِهِ ... وبمالِه يَسْتَمْتِعُ اسْتِمْتَاعَا
حتى سَقَتْه من المَنِيَّةِ شَرْبَةً ... وحَمَتْه منه بعدَ ذاكَ رَضَاعَا
فغَدَا بما كَسَبَتْ يَدَاه رَهِينَةً ... لا يَسْتَطيعُ لِمَا عراه دِفَاعَا
لو كان يَنْطقُ قالَ مِن تحتِ الثَّرَى ... فَلْيُحْسِنِ العَمَلَ الفَتَى ما اسطاعَا

البَهَاءُ السِّنْجَارِيُّ، أبو السَّعادَاتِ أسْعَدُ بنُ يحيى بن مُوسَى، الفَقيهُ الشافعيُّ الشاعرُ، قال ابنُ خَلِّكَانَ: كان فَقيهًا، وتكَلَّمَ في الخِلاف، إلا أنَّه غَلَبَ عليه الشِّعْرُ، فأجادَ فيه، واشْتَهرَ به، وخَدَمَ به المُلُوكَ، وأخذَ منهم الجَوَائزَ، وطافَ البلادَ، وله ديوانٌ بالتُّرْبَةِ الأشْرَفِيَّةِ بدِمَشْقَ، ومن رَقِيق شعرِه ورَائقِه قولُه:

وهَوَاكَ ما خَطَرَ السُّلُوُّ ببالِه ... ولأنتَ أعْلَمُ في الغَرامِ بحالِه
ومتى وشَى واشٍ إليكَ بأنَّه ... سالٍ هواكَ فذاكَ مِن عُذَّالِه
أو ليس للكَلِفِ المُعَنَّى شاهدٌ ... مِن حالِه يُغْنيكَ عَن تَسْآلِه
جَدَّدْتَ ثَوْبَ سَقَامِه وهَتَكْتَ سَتْـ ... ـرَ غَرامِه وصَرَمْتَ حَبْلَ وِصالِه

وهي قَصيدةٌ طَويلَةٌ امْتَدَحَ فيها قاضِي القُضاةِ كمالَ الدينِ الشَّهْرَزُورِيَّ.

وله:

لـلَّـه أيَّـامـي عـلـى رَامَـة | وطيب أوْقَـاتي عـلى حـاجـر
تـكادُ لـلـسُّـرْعَـةِ في مَـرِّهـا | أوَّلُهـا يَـعْـثُـرُ بالآخِـرِ

وكانت وفَاتُه في هذه السنةِ عن تِسْعِينَ سنةً.

عثمانُ بنُ عيسى بن دِرْبَاس بنِ فَيْرِ بنِ جَهْمِ بنِ عَبْدُوس الهذبانيُّ المارانيُّ ضياءُ الدين، أخو القاضي صَدْرِ الدينِ عبدِ المَلكِ حاكمِ الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ في الدَّوْلَةِ الصَّلاحيَّة، وضياءُ الدينِ هذا هو شارحُ «المُهَذَّب»، وصَلَ فيه إلى كتابِ الشَّهاداتِ في نحوِ منْ عِشْرينَ مُجلدًا، وشَرَحَ «اللُّمَع» في أصُولِ الفقهِ و«التَّنبيه» للشِّيرازيِّ، وكان بارعًا عالمًا بالمَذْهَبِ، رَحِمَه اللَّهُ تعالى.

أبو الحَسَنِ عليُّ بنُ الحسنِ الرازيُّ ثم البَغْدَاديُّ الواعظُ، عندَه فَضَائِلُ، وله شِعْرٌ حسنٌ، فمنه قولُه في الزُّهْدِ:

اسْتَـعِـدِّي يا نفسُ للمَـوْت واسْـعَيْ | لِنجـاةٍ فـالحـازِمُ المُسْـتَعِـدُّ
قـد تَبَـيَّنْت أنَّـه ليس للحَـيِّ | خُـلُـودٌ ولا مِـنَ المَـوْت بُـدُّ
إنَّمـا أنت مُسْـتَـعِـيرةٌ مـا سـو | فَ تَـرُدِّينَ والعَـوَارِي تُـرَدُّ
أنْت تَسْـهِينَ والحَـوادثُ لا تَسْـ | ـهُـو وتَلْهِـينَ والمَنَـايا تَجِـدُّ
لا تُرَجِّي البَـقَـاءَ في مَـعْـدِنِ المَوْ | تِ ودارٍ حُـتُـوفُـهـا لَـكِ وِرْدُ
أيُّ مُـلْـكٍ فـي الأرْضِ أمْ أيُّ حَـظٍّ | لامْـرِئٍ حظُّه مِـن الأرْضِ لَحْـدُ
كـيـفَ يـهْـوَى امْـرُؤٌ لَذَاذَةَ أيَّـ | ـامٍ عليه الأنفاسُ فيها تُعَـدُّ

أبو محمدٍ عبدُ اللَّه بنِ أحمد بنِ الزَّيْتُونيِّ البُوازيجيُّ ثم البَغْدَاديُّ، شيخٌ فاضِلٌ، له رِوَايَةٌ، وممَّا أنْشَدَه:

ضَـيَّقَ العُـذْرَ في الضَّـرَاعَـةِ أنَّا | لـو قَنِعْنَا بِقَـسْـمِنا لَكَفَـانَا
مـا لنا نَعْـبُـدُ العِـبَـادَ إذا كـا | نَ إلى اللَّـهِ فَـقْـرُنا وغِنَـانَا

أبو الفَضْلِ عبدُ الرَّحيمِ بنُ نَصْرِ اللَّه بن عليِّ بنِ مَنْصُورِ بنِ الكَيَّالِ الواسِطيُّ، مِن بيتِ الفِقْه والقضاءِ، وكان أحد المُعَدَّلِينَ ببَغْدَادَ، ومن شِعْرِه:

فـتَـبًّـا لدُنْيَا لا يَدُومُ نَعيـمُـهـا | تَسُـرُّ يَسِـيرًا ثم تُبْـدِي المَسَـاوِيا
تُرِيكَ جَـمَـالاً في النِّقَـابِ وزُخْـرُفًا | وتُسْـفِرُ عَـن شَوْهاءَ طَخْيَـاءَ عَـامِيَـا

ومن ذلك قولُه:

إنْ كنتُ بعدَ الظاعنينَ تسامَحَتْ	بالغمْضِ أجْفاني فما أجْفاني
أو كنتُ من بعدِ الأحبَّةِ ناظرًا	حُسْنًا بإنساني فما أنْساني
الدَّهْرُ مَغْفُورٌ له زلاتُه	إنْ حادَ أوْطاني على أوطاني

أبو عليٍّ الحسنُ بنُ عليِّ بنِ الحسنِ بنِ عليِّ بنِ الحسنِ بنِ عليِّ بنِ عمَّارِ بنِ فهرِ بنِ وقَّاح الياسريُّ، نِسْبَةً إلى عمَّارِ بنِ ياسر، شيخٌ بغداديٌّ فاضلٌ، له مُصنَّفَاتٌ في التفسيرِ والفَرائضِ، وله خُطَبٌ ورَسائلُ وأشْعارٌ حسنةٌ، وكان مَقْبولَ الشَّهادةِ عندَ الحُكَّامِ.

أبو بكر محمدُ بنُ يوسُفَ بنِ الطَّبَّاخِ الواسطيُّ البغداديُّ الصُّوفيُّ، باشرَ بعضَ الولاياتِ ببَغدادَ، ومَّا أنْشَدَه:

ما وَهبَ اللَّهُ لامْرِئٍ هِبَةً	أحْسنَ من عَقْله ومن أدَبهْ
هما جَمالُ الفتى فإنْ فُقِدا	فَفَقْدُهُ للحَياةِ أجْمَلُ بهْ

ابنُ يونسَ شارحُ «التَّنبيه» أبو الفضْلِ أحمدُ ابنُ الشيخِ العلامةِ كمالِ الدينِ أبي الفَتْحِ موسى بنِ يونُسَ بنِ محمدِ بنِ مَنَعةَ بنِ مالكِ بنِ محمدِ بنِ سعدِ بنِ سعيدِ بنِ عاصمِ بنِ عابدِ بنِ كعبِ بنِ قَيْسِ ابنِ إبْراهيمَ الإرْبِليُّ الأصلِ، ثم المَوْصِليُّ، من بيتِ العلْمِ بها والرِّياسَةِ، اشْتَغَلَ على أبيه في فُنُونه وعُلُومه، فَبَرَعَ وتَقَدَّمَ ودرَّسَ، وشرَحَ كتابَ «التَّنبيه»، واختَصرَ «إحْياءَ علوم الدينِ» للغزَّاليِّ مرَّتَيْنِ صغيرًا وكبيرًا، وكان يُدَرِّسُ منه.

قال ابنُ خلِّكانَ: وقد وَلِيَ بإرْبِلَ مَدْرَسَةَ الملكِ المُظفَّرِ بعدَ مَوْتِ والدي في سنة عشرٍ وستِّمائةٍ، وكنتُ أحْضُرُ عندَه وأنا صَغيرٌ، ولم أرَ أحدًا يُدَرِّسُ مثْلَه، ثم صارَ إلى بلده سنةَ سبعَ عَشْرَةَ، ومات في يومِ الإثْنَيْنِ الرابع والعشْرينَ من رَبيعٍ الآخِرِ من هذه السنةِ عن سبعٍ وأرْبعينَ سنةً، رَحِمَه اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فيها الْتَقى الملكُ جلالُ الدينِ بنُ خُوارِزْم شاه الخُوارِزْميُّ مع الكرْجِ، فكَسَرَهم كَسْرَةً عَظيمَةً، وصَمَدَ إلى أكبَرِ مُعاقَلَتِهم تَفْليسَ، ففتَحَها عنْوةً، وقَتَلَ من فيها من الكَفَرَةِ، وسَبَى ذَرارِيَّهم، ولم يتَعرَّضْ لأحدٍ من المُسْلمينَ الذينَ كانُوا بها، واسْتَقرَّ مُلْكُه عليها، وقد كان الكُرْجُ أخَذُوها من المُسْلمينَ في سنة خمسَ عَشْرَةَ وخَمْسِمائةٍ، وهي بأيْديهم إلى الآنَ حتى اسْتَنْقَذَها منهم جلالُ الدينِ هذا، فكان فَتْحًا عَظيمًا، وللَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وفيها سارَ إلى خِلاطَ ليأْخُذَها من نائبِ المَلِكِ الأشْرَفِ، فلم يَتَمكَّنْ من أخْذِها وقاتَلَه أهْلُها قتالاً

عَظِيمًا، فَرَجَعَ عنهم بسببِ اشْتِغَالِه بعِصْيانِ نائبِه بمَدِينَة كَرْمَانَ وخلافه له، فسارَ إليه وتَرَكَهم.

وفيها: اصْطَلَحَ المَلِكُ الأشْرَفُ مع أخيه المُعَظَّم، وسارَ إليه إلى دِمَشْقَ، وقد كان المعَظَّمُ مُمَالئًا عليه مع جلال الدين وصاحبِ إرْبِلَ وصاحبِ ماردين وصاحبِ الروم، وكان مع الأشْرَفِ أخُوه الكاملُ وصاحبُ المَوْصلِ بدرُ الدين لُؤْلُؤٌ، ثم استَمَالَ أخاه المُعَظَّمَ إلى ناحيتِه فَقَوِيَ جانبه.

وفيها: كان قِتَالٌ كبيرٌ بينَ برنسِ أنْطَاكِيَّةَ وبينَ الأرْمَنِ، وجَرَتْ خُطُوبٌ كثيرةٌ بينهم.

وفيها: أوْقَعَ الملكُ جلالُ الدين بالتُّرْكُمَانِ الإيوانِيَّةِ بأْسًا شديدًا، وكانُوا يَقْطَعُونَ الطَرِيقَ على المسلمينَ.

وفيها: قَدِمَ مُحْيي الدين يوسُفُ ابنُ الشيخِ جمالِ الدين ابنِ الجَوْزِيِّ من بَغْدَادَ في الرَّسْلِيَّةِ إلى الملك المُعَظَّم بدمَشْقَ، ومعه الخِلَعُ والتَّشاريفُ لأولادِ العادلِ من الخليفَةِ الظاهرِ بأمْرِ اللَّه، ومَضْمُونُ الرسالَةِ نَهْيُه عن مُوالاة جلال الدين بن خُوَارِزْم شاه، فإنَّه خارجيٌّ، من عَزْمه قتالُ الخليفة وأخْذ بَغْدَادَ منهم، فأجابَه إلى ذلك، وركبَ القاضي مُحْيي الدين ابنُ الجَوْزِيِّ إلى الملك الكاملِ بالدِّيارِ المصْرِيَّةِ، وكان ذلك أولَ قُدُومه إلى الشام ومِصْرَ، وحَصَلَ له جَوائزُ كثيرةٌ من المُلُوك، منها كان بناءُ المَدْرَسَةِ الجَوْزِيَّةِ بالنَّشابِيينَ بدمَشْقَ.

وفيها: وَلِيَ تَدْرِيسَ الشِّبْلِيَّةِ بالسَّفْحِ شمسُ الدين يوسُفُ بنُ قِزُغْلِي سِبْطُ ابنِ الجَوْزِيِّ بمَرْسُوم الملكِ المُعَظَّم، وحَضَرَ عندَه أولَ يوم القُضاةُ والأعْيانُ.

وفاةُ الخليفةِ الظاهرِ بأمْرِ اللَّه[1]
وخلافةُ ابنه المستنصر

كانت وفاةُ الخليفة، رَحِمَه اللَّهُ تعالى، يومَ الجُمُعَةِ ضُحَى الثالثَ عَشَرَ من رجب من هذه السنَة، أعْني سنةَ ثلاثٍ وعشْرينَ وستِّمائة، ولم يَعْلَمِ الناسُ بمَوْتِه إلا بعدَ الصلاةِ فدعَا له الخُطَباءُ يومئذٍ على المَنابرِ على عادتِهم، وكانت خلافتُه تسعَةَ أشهُرٍ وأرْبَعَةَ عَشَرَ يومًا، وعمره ثِنْتَانِ وخمسون سنَةً، وكان من أجْوَدِ بني العَبَّاسِ سيرةً، وأحْسَنِهم سَرِيرَةً، وأكْثَرِهم عطَاءً، وأحْسَنِهم مَنْظَرًا ورُوَاءً، ولو طالتْ مُدَّتُه لَصَلَحَتِ الأمَّةُ صلاحًا كثيرًا على يديه، ولكنْ أحَبَّ اللَّهُ تَقْرِيبَه وإزْلافَه لديه، فاخْتَارَ له مَا عنْدَه وأجْزَلَ له إحْسانَه ورِفْدَه، وقد ذَكَرْنَا ما اعْتَمَدَه في أوَّلِ ولايته من إطْلاقِ الأموالِ الدِّيوانِيَّةِ، ورَدِّ المَظَالِمِ، وإسْقَاطِ المُكُوسِ، وتَخْفِيفِ الخَرَاجِ عن الناسِ، وأداءِ الدُّيونِ عمَّن عَجَزَ عن قضَائها، والإحْسانِ إلى العُلَمَاءِ والفقَراءِ، وتَوْلِيَةِ ذوي الدِّيَانَةِ، وقد كان كتَبَ كتابًا لوُلاةِ الرَّعِيَّةِ، فيه: بسم

(١) ترجمة الخليفة الظاهر في «السير» (٢٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨).

اللَّه الرحمن الرحيم، اعْلَمُوا أنَّه ليسَ إمْهَالُنا إهْمَالاً، ولا إغْضَاؤُنا احْتِمالاً، ولكن لِنَبْلُوَكم أيُّكم أحْسَنُ عَمَلاً، وقد غَفَرْنا لكم ماسلَفَ مِن إخْرَابِ البلاد، وتَشْرِيدِ الرَّعَايا، وتَقْبِيحِ السُّمْعَة، وإظْهارِ الباطلِ الجَلِيِّ في صورةِ الحَقِّ الخَفِيِّ حِيلَةً ومَكِيدَةً، وتَسْمِيَةِ الاسْتِئْصَالِ والاجْتِياحِ اسْتِيفَاءً واسْتِدْرَاكًا، لأغْرَاضٍ انْتَهَزْتُم فُرَصَها، مُخْتَلَسَةً مِن بَرَاثِنِ ليثٍ باسلٍ، وأنيابِ أسَدٍ مَهِيبٍ، تتَّفقُونَ بألْفاظٍ مُخْتَلِفَةٍ على مَعْنًى واحد، وأنتم أُمَنَاؤه وثِقَاتُه، فتُميلُونَ رَأيَه إلى هَوَاكم، وتَمْزُجُونَ باطلكم بحَقِّه، فيُطِيعُكم وأنتم له عَاصُونَ، ويُوافقُكم وأنتم له مخالفُونَ، والآنَ قد بَدَّلَ اللَّهُ بخَوْفكم أمنًا، وبفَقْركم غِنًى، وبباطلكم حَقًّا، ورزَقَكم سُلْطانًا يُقِيلُ العَثْرَةَ، ولا يُؤَاخِذُ إلا مَن أصرَّ، ولا يَنْتَقِمُ إلا ممَّن استَمرَّ، يأمُرُكم بالعَدْلِ وهو يُرِيدُه منكم، ويَنْهَاكُم عن الجَوْرِ وهو يَكْرَهُه لكم، يخافُ اللَّهَ تعالى فيُخَوِّفكم مَكْرَه، ويَرْجُو اللَّهَ تعالى ويُرَغِّبكم في طاعَتِه، فإنْ سَلَكْتُم مسَالِكَ خُلَفَاءِ اللَّه في أرْضِه وأُمَنَائه على خَلْقِه، وإلا هَلَكْتُم، والسلامُ.

ووُجِدَ في دارِه رِقَاعٌ مَخْتُومَةٌ لم تُفْتَحْ، فيها سِعاياتٌ إليْه بسببِ أُناسٍ كثيرةٍ مِن الوُلاةِ وغيرِهم، لم يفتَحْها سَتْرًا للناسِ ودَرءًا عن أعْرَاضِهم، رَحِمَه اللَّهُ.

وقد خَلَّفَ مِن الأوْلادِ عَشْرَةً ذُكُورًا وإناثًا، منهم ابنُه الأكْبَرُ الذي بُويِعَ له بالخلافَةِ مِن بعدِه أبو جَعْفَرٍ المَنْصُورِ، ولُقِّبَ بالمُسْتَنْصِرِ باللَّه، وغَسَّلَه محمدٌ الخَيَّاطُ الواعظُ، ودُفِنَ في دارِ الخِلافَةِ، ثم نُقِلَ إلى التُّرَبِ مِن الرُّصافَةِ، رَحِمَه اللَّهُ تعالى.

خِلافةُ المُستَنصِرِ باللهِ العَبَّاسيِّ أميرِ المؤمنينَ أبي جَعْفَرٍ منصُورِ بنِ الظاهرِ محمدِ بنِ الناصِرِ أحمدَ

بُويِعَ بالخلافَةِ يومَ مَاتَ أبُوه يومَ جُمُعَةٍ ثالثَ عَشَرَ رجبٍ مِن هذه السنَةِ، سنةَ ثلاثٍ وعشْرِينَ وستِّمائَةٍ، استَدْعَوْا به مِن التاج، فبَايَعَه الخَاصَّةُ والعامَّةُ مِن أهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ، وكان يومًا مَشْهُودًا، وكان عُمْرُه يومَئذٍ خَمْسًا وثلاثِينَ سنةً وخَمْسَةَ أشْهُرٍ وأحدَ عَشَرَ يومًا، وكان مِن أحْسَنِ الناسِ شَكْلاً وأبْهَاهم مَنْظَرًا، وهو كما قال القائلُ:

كَأنَّ الثُّريَّا عُلِّقَتْ في جَبِينه ... وفي خَدِّه الشِّعْرَى وفي وجهِه القَمرُ

وفي نَسَبِه الشَّرِيفِ خَمْسَةَ عشَرَ خَلِيفَةً، منهم خَمْسَةٌ مِن آبائه، ولُوا نَسَقًا، وتَلَقَّى هو الخلافَةَ عنهم وِرَاثَةً كابرًا عن كَابِرٍ، وهذا شيءٌ لم يتَّفِقْ لأحدٍ مِن الخلفَاءِ قبلَه، وسارَ في الناسِ كَسِيرَةِ أبيه الظاهرِ في الجُودِ وحُسْنِ السِّيرَةِ والإحْسانِ إلى الرَّعيَّةِ، وبَنَى المَدْرَسَةَ الكَبِيرَةَ المُسْتَنْصِرِيَّةَ التي لم تُبْنَ مَدْرَسَةٌ في الدُّنْيا مثلُها، وسيَأْتِي بيانُ ذلكَ في مَوْضِعِه، إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى، واستَمرَّ أرْبَابُ الوِلاياتِ

الذينَ كانُوا في عَهْد أبيه على ما كانُوا عليه، ولمَّا كان يومُ الجُمُعَة المُقْبِلَة خُطِبَ للإمام المُسْتَنْصِر بالله على المَنَابِر، ونثرَ الذَهَبُ والفضَّةُ عندَ ذكرِ اسْمِه، وكان يومًا مَشْهُودًا، وأنشَدَ الشُّعَراءُ المَدَائحَ والمَرَاثِيَ، وأطلقَتْ لهم الخِلَعُ والجَوَائزُ.

وقَدِم رسُولٌ من صاحب المَوْصِلِ يومَ غُرَّةِ شَعْبَانَ مع الوزيرِ ضياءِ الدين أبي الفتح نصرِ اللَّهِ بنِ الأثير، فيها التَّهْنِئةُ والتَّعْزِيَةُ بعبارةٍ فصيحةٍ بليغة.

ثم إنَّ المُسْتَنْصر باللَّه كان يُواظبُ على حُضُورِ الجُمُعَة راكبًا ظاهرًا للنَّاس، وإنَّما معه خادمَان وركْب دارٍ، وخرَجَ مَرَّةً وهو راكبٌ فسَمعَ ضَجَّةً عظيمَةً، فقال ما هذا؟ فقيل له: التَّأذينُ. فتَرَجَّلَ عن فَرَسه، وسَعَى ماشيًا، ثم صار يُدْمِنُ المَشْيَ إلى الجمعة رَغْبَةً في التَّواضع والخُشُوع، ويَجْلسُ قَريبًا من الإمَام ويسْتَمعُ الخُطْبَةَ، ثم أُصْلِحَ له المُطْبِقُ، فكان يَمْشِي منه إلى الجُمُعَة، وركَبَ في الثاني والعشْرينَ من شَعْبَانَ رُكوبًا ظاهرًا للناسِ عَامَّةً، ولمَّا كانت أولُ ليلةٍ من رَمَضانَ تَصَدَّقَ بصَدَقَاتٍ كثيرةٍ من الدقيقِ والغَنَم والنَّفَقَاتِ على العُلَمَاءِ والفُقَرَاءِ والمَحَاويج، إعانَةً لهم على الصِّيام، وتَقْوِيَةً لهم على القِيام.

وفي يوم السابع والعشْرينَ من رَمَضانَ نُقِلَ تابُوتُ أبيه الظاهرِ من دارِ الخلافَة إلى التُّرَبِ من الرُّصافَة، وكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا وبعثَ الخليفَةُ المُسْتَنْصرُ يومَ العيد صَدَقَاتٍ كثيرةً وإنْعامًا جَزيلاً إلى الفُقَهَاءِ والصُّوفِيَّة وأئمة المساجد، على يدي مُحْيي الدين ابنِ الجَوْزِيِّ.

وذكرَ ابنُ الأثيرِ أنَّه كانت زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ في هذه السنَة، هَدَمَتْ شيئًا كثيرًا من القُرَى والقلاع ببلادهم. وذكرَ أنَّه ذبحَ رَجُلٌ شاةً ببلدهم، فوَجَدَ لَحْمَها مُرًّا حتى رأْسَها وأكارعَها ومعَاليقَها وجَميعَ أجْزَائها.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الخليفَةُ الظاهرُ كما تقَدَّمَ.

الجمالُ المصريُّ يونُس بنُ بَدْرَانَ بن فَيْرُوزَ، جمالُ الدين المصريُّ، قاضي القُضاة بدمَشْقَ في هذا الحين، اشْتَغَلَ وحَصَّلَ وبَرَعَ، واختَصَرَ كتابَ «الأُمّ» للإمَام الشافعيِّ، وله كتابٌ مُطَوَّلٌ في الفَرَائض، ووَلِي تَدْريسَ الأمينيَّة بعدَ التَّقيِّ الضَّرِيرِ الذي قَتَلَ نَفْسَه، ووَلاه إيَّاها الوزيرُ صَفِيُّ الدين ابنُ شُكْرٍ، وكان مُعْتَنِيًا بأمْرِه، ثم ولِيَ وكالَةَ بيت المال بدمَشْقَ، وتَرَسَّلَ إلى المُلُوك والخُلَفَاء عن صاحب دمَشْقَ، ثم ولاه المُعَظَّمُ قضاءَ القُضاة بدمَشْقَ بعدَ عَزْلِه الزكيَّ بنِ الزكيِّ، ووَلاه تَدْريسَ العادليَّة الكَبِيرة حين كَمَل بنَاؤُها، فكان أوَّلَ مَن دَرَّسَ بها، وحضَر عنده الأعْيانُ كما ذكَرْنا. وكان يقُولُ أولاً درسًا في التَّفْسير حتى أكملَ التَّفْسيرَ إلى آخرِه، ثم تُوُفِّي عقبَ ذلك، ويُقالُ: درَّسَ الفقْهَ

بعدَ التَّفسيرِ. وكان يَعْتَمِدُ في أمرِ إثباتِ السِّجلاتِ اعْتمادًا حَسَنًا، وهو أنه كان يَجْلِس في كلِّ يوم جُمُعَة بُكْرَةً ويوم الثلاثاء، ويَسْتَحضِرُ عندَه في إيوانِ العادليَّة جميعَ شُهُودِ البلد، ومَن كان له كتابٌ يُثْبِتُه حَضَرَ واستَدْعَى شُهُودَه، فأدُّوا على الحاكمِ، وثبتَ ذلك سريعًا، وكان يَجْلِسُ كلَّ يوم جُمعةٍ بعدَ العَصْرِ في الشُّبَّاك الكماليِّ بمَشْهَدِ عُثْمَانَ، فيَحْكُمُ حتى يُصَلِّيَ المَغْرِبَ، وربما مكثَ حتى يُصَلِّيَ العشاءَ أيضًا، وكان كثيرَ المُذاكَرَة للعلمِ، كثيرَ الاشتغالِ، حسنَ الطريقَة، لم يُنْقَمْ عليه أنَّه أخذَ شيئًا لأحدٍ.

قال أبو شامَةَ: وإنَّما كان يُنْقَمُ عليه أنه كان يُشيرُ على بعضِ الورَثَة بمُصالَحَة بيت المال، وأنَّه اسْتَنابَ ولدَه التاجَ محمدًا، ولم يكُنْ مَرْضِيَّ الطَّريقَةِ، وأمَّا هو فكان عَفيفًا في نَفْسِه نَزِهًا مَهيبًا. **قال أبو شامَةَ:** وكان يَدَّعي أنَّه قُرَشيٌّ شَيْبِيٌّ، فتكلَّمَ الناسُ فيه بسببِ ذلك، وتولَّى القضاءَ بعدَه شمسُ الدينِ أحمدُ بنُ الخَليليِّ الخُوَيِّيُّ.

قلتُ: وكانت وفاتُه في ربيعٍ الأوَّلِ من هذه السنَة، ودُفِنَ في داره التي في رأسِ دَرْبِ الرَّيحانِ من ناحيَةِ الجامعِ، ولتُربَته شُبّاكٌ شرقيُّ المَدْرسَة الصَّدْريَّة اليومَ، وقد قال فيه ابنُ عُنَيْنٍ، وكان هَجَاه:

مَا قَصَّرَ المصْريُّ في فِعْلِه	إذْ جَعَلَ التُّرْبَةَ في دارِه
أرَاحَ للأحْيَاءِ مِن رَجْمِهِ	وأبْعَدَ الأمْواتَ مِن نارِه

المُعْتَمِدُ والي دمَشْقَ المُبارِزُ إبْراهيمَ، المَعْروفُ بالمُعْتَمِد والي دمَشْقَ، وكان من خيارِ الوُلاةِ وأعَفِّهم وأحْسَنِهم سيرَةً وأجْوَدِهم سَريرَةً، أصلُه من المَوْصلِ، وقَدمَ الشَّامَ، فخَدَمَ فَرُّخْشاه بن شاهنْشاه بن أيُّوبَ، ثم استَنابَه البدرُ مَوْدُودٌ أخو فَرُّخْشاه، وكان شحْنَةَ دمَشْقَ، فَحُمِدَتْ سيرتُه في ذلك ثم صار هو شحْنَةَ دمَشْقَ أرْبَعينَ سنَةً، فجرَتْ في أيَّامه عَجائبُ وغَرائبُ، وكان كثيرَ السَّتْرِ على ذوي الهَيْئاتِ، ولا سيَّما من كان من أبْناءِ الناسِ وأهْلِ البُيُوتَاتِ. واتَّفَقَ في أيَّامه أنَّ رَجُلاً حائكًا كان له ابنٌ صَغيرٌ، في آذانه حَلَقٌ، فعَدَا عليه رجلٌ من جيرانِهم، فقَتَلَه غيلَةً، وأخَذَ ما عليه من الحُليِّ، ودفَنَه في بعضِ المَقَابرِ، فاشْتَكَوْا عليه فلم يُقِرَّ بشيءٍ، وتألَّمَتْ والدتُه من ذلك، وسألَتْ زَوْجَها أنْ يُطَلِّقَها، فطَلَّقَها، فذهَبَتْ إلى ذلك الرجلِ الذي قَتَلَ ولدَها، وسألَتْه أنْ يتزوَّجَها، وأظهَرَتْ له أنَّها قد أحَبَّتْه فتَزَوَّجَها، ومكَثَتْ عندَه حينًا، ثم سألَتْه في بعضِ الأوقاتِ عن ولَدِها الذي اشْتَكَوْا عليه بسببِه، فقال: نعم، أنا قتَلْتُه. فقالتْ: أشْتَهي أنْ تُرِيَني قَبْرَه حتى أنْظُرَ إليه، فذهَبَ بها إلى قبرِ خشخاشة، ففتَحَه فنظَرَتْ إلى ولدِها، فاسْتَعْبَرَتْ وقد أخذَت معها سكِّينًا أعَدَّتْها لهذا اليومِ، فضرَبَتْه حتى قَتَلَتْه، ودفَنَتْه مع ولدِها في ذلك القَبْرِ، فجاءَ أهلُ المَقْبَرَة، فحَمَلُوها إلى الوالي المعْتَمِد هذا، فسألَها فذكَرَتْ له خبَرَها، فاستَحْسَنَ ذلك منها، وأطْلَقَها وأحْسَنَ إليها.

وحكى هو للسِّبطِ قال: بينما أنَا يومًا خارج من بابِ الفَرَجِ، فإذا برجلٍ يحْمِلُ طَبْلاً وهو سَكْرَانُ،

فأمَرْتُ به فضُرِبَ الحدَّ، وأمَرْتُهم فكَسَرُوا الطَّبْلَ، وإذا رِكْوَةٌ كبيرةٌ خَمْرًا فشَقُّوها، وكان العادلُ قد مَنَع أن يُعْصَرَ خَمْرٌ ويُحْمَلَ إلى دِمَشْقَ شيءٌ منه بالكُلِّيَّة، فكان الناسُ يَتَحَيَّلُونَ بأنواعٍ من الحِيَلِ ولَطائفِ المَكْرِ. قال السِّبْطُ: فسألْتُه: من أينَ علِمتَ أنَّ في الطَّبْلِ شيئًا. فقال: رأيْتُه يَمْشِي وتَرْجُفُ ساقاه، فَعَرَفْتُ أنَّه يَحْمِلُ شيئًا ثَقِيلاً في الطَّبْلِ.

وله من هذا الجنسِ غَرائِبُ، وقد عَزَلَه المُعَظَّمُ، وكان في نَفْسِه منه، وسَجَنَه في القَلْعَةِ نَحْوًا من خَمْسِ سِنِينَ، ونادَىٰ عليه في البلدِ، فلم يَجِئْ أحدٌ ذكرَ أنَّه أخذَ منه حبَّةَ خَرْدَلٍ، ولما مات، رَحِمَه اللَّهُ، دُفِنَ في تُرْبَتِه المُجاوِرَةِ لمَدْرَسَةِ أبي عُمَرَ من شامِها قِبْلِيَّ السُّوقِ، وله عند تُرْبَتِه مسجدٌ يُعْرَفُ به، رحِمَه اللَّهُ.

واقفُ الشِّبْلِيَّةِ التي بطريقِ الصالحيَّة، شِبْلُ الدولةِ كافُورٌ الحُسَامِيُّ، نِسْبَةً إلى حُسامِ الدينِ محمدِ بنِ لاجِينَ وَلَدِ سِتِّ الشام، وهو الذي كان مُسْتَحِثًّا على عِمارَةِ الشاميَّةِ البَرَّانيَّةِ لمَوْلاتِه سِتِّ الشام، وهو الذي بنَى الشِّبْلِيَّةَ للحَنَفِيَّةِ والخانْقاه على الصُّوفيَّةِ إلى جانبِها، وكانت مَنْزِلَه، ووقَفَ القَناةَ والمَصْنَعَ والسَّاباطَ، وفَتَحَ للناسِ طَرِيقًا من عند المَقْبَرَةِ غَرْبِيَّ الشاميَّةِ البَرَّانيَّةِ إلى طريقِ عين الكَرْشِ، ولم يَكُنِ الناسُ لهم طريقٌ إلى الجَبَلِ من هناكَ، إنَّما كانُوا يَسْلُكُونَ من عند مَسْجِدِ الصَّفِيِّ بالعُقَيْبَةِ، رحِمَه اللَّهُ تعالى، وكانت وَفاتُه في رَجَبٍ، ودُفِنَ في تربتِه التي كانت مَدْرَسَةً، وقد سمِعَ الحديثَ على الكِنْدِيِّ وغَيْرِه.

واقفُ الرَّواحيَّةِ بدِمَشْقَ وحلَبَ، أبو القاسمِ هِبَةُ اللَّهِ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الواحدِ المَعْرُوفُ بابنِ رَوَاحَةَ، كان أحدَ التُّجارِ وذَوِي الثَّرْوَةِ والمُعَدَّلِينَ بدِمَشْقَ، وكان في غايَةِ الطُّولِ والعَرْضِ، ولا لِحْيَةَ له، وقد ابْتَنَى المَدْرَسَةَ الرَّواحيَّةَ داخِلَ بابِ الفَرادِيسِ ووَقَفَها على الشَّافعيَّةِ، وفَوَّضَ نَظَرَها وتَدْرِيسَها إلى الشيخِ تقيِّ الدينِ بنِ الصَّلاحِ الشَّهْرَزُورِيِّ، وله بحلَبَ مَدْرَسَةٌ أُخْرَىٰ مثلُها، وقد انْقَطَعَ في آخِرِ عُمْرِه في المَدْرَسَةِ التي بدِمَشْقَ، وكان يَسْكُنُ البيتَ الذي في إيوانِها من الشَّرْقِ، ورَغِبَ فيها بعدَ أنْ يُدفَنَ فيه إذا مات، فلم يُمَكَّنْ من ذلك، بل دُفِنَ في مَقابِرِ الصُّوفِيَّةِ، وبعدَ وَفاتِه شَهِدَ مُحْيِي الدينِ بنُ عَرَبِي الطائيُّ، وتَقِيُّ الدينِ خَزْعَلٌ النَّحْوِيُّ المصريُّ المَقْدِسيُّ ثم الدمشقيُّ إمامُ مَشْهَدِ عليٍّ، شهِدا على ابنِ رَوَاحَةَ بأنَّه عزَلَ الشيخَ تقيَّ الدينِ عن هذه المَدْرَسَةِ، فَجَرَتْ خُطُوبٌ طويلةٌ، ولم يَنْتَظِمْ ما رامُوه، ومات خَزْعَلٌ في هذه السنَةِ أيضًا، فَبَطَلَ ما سَلَكُوه.

أبو محمدٍ محمودُ بنُ مَوْدُودِ بنِ مَحْمُودِ بنِ بَلْدَجِي الحَنَفِيُّ المَوْصِلِيُّ، وله بها مدرَسَةٌ تُعْرَفُ به،

وكان من أبناءِ التُّرْكِ، وصارَ مِن مَشَايخِ العلمَاءِ الحَنَفيَّةِ، وله دينٌ متينٌ، وشِعْرٌ حسنٌ جَيِّدٌ، فمنه قَوْلُه:

مَن ادَّعَى أن له حَالَةً … تُخرِجُه عن مَنهَجِ الشَّرْعِ
فَلاتَكُونَنَّ له صَاحِبًا … فإنَّه خُرْءٌ بلا نَفْعِ

كانت وفاتُه بالمُوْصلِ في السادسِ والعِشْرينَ من جُمَادَىٰ الآخِرَةِ من هذه السنَةِ، وله نَحْوٌ من ثمانينَ سنةً رَحِمَه اللَّهُ تعالىٰ.

ياقُوتٌ ويقالُ له: يَعْقُوبُ بنُ عبدِ اللَّهِ، نجيبُ الدين، مَوْلىٰ الشيخِ تاجِ الدينِ الكِنْديِّ. وقد وقَفَ عليه الشيخُ الكتبَ التي بالخزانة بالزَّاويَةِ الشرْقيَّةِ الشَّمَاليَّةِ من جَامعِ دِمَشْقَ، وكانت سبْعَمائةٍ وأحدًا وستِّينَ مُجَلَّدًا، ثم على ولَدِه من بعده، ثم على العُلَمَاءِ، فَتَمَحَّقَتْ هذه الكُتُبُ وبيعَ أكثَرُها، وقد كان ياقُوتٌ هذا لديه فَضيلةٌ وأدَبٌ وشعْرٌ جَيِّدٌ، وكانت وفاتُه ببَغْدَادَ في مُسْتَهَلِّ رجبٍ، ودُفِنَ بمَقْبَرَةِ الخَيْزُرَانَ بالقُربِ مِن مَشْهَدِ أبي حَنِيفَةَ. رَحِمَه اللَّهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

فيها: كاتبَ عَامَّةُ أهلِ تَفْلِيسَ الكُرْجَ، فجاءُوا إليهم فَدَخَلُوها، فقَتَلُوا العَامَّةَ والخاصَّةَ، ونَهَبُوا وسَبَوْا وخَرَّبُوا وأحْرَقُوا، وخَرَجُوا على حَمِيَّةٍ، وبلغَ ذلك جَلالَ الدينِ، فَسَارَ سريعًا ليُدْرِكَهم، فلم يُدْرِكْهم.

وفيها: قَتَلَتْ الإِسْمَاعيليَّةُ أميرًا كبيرًا مِن نُوَّابِ جلالِ الدينِ بنَ خوَارِزْم شاه، فسارَ إلى بلادهم، فَقَتَلَ منهم خَلْقًا كثيرًا، وخَرَّبَ مَدينَتَهم، وسَبَىٰ ذراريَّهم، ونهَبَ أموالَهم، وقد كانُوا، قَبَّحَهم اللَّهُ، مِن أكْبَرِ العَوْنِ على المسلمينَ لَمَّا قَدِمَ التَّتارُ إلى الناسِ، وكانُوا أضرَّ على الناسِ منهم.

وفيها تَوَاقَعَ جلالُ الدينِ وطائفَةٌ كبيرةٌ من التَّتارِ، فَهَزَمَهم وأوْسَعَهم قَتْلاً وأسْرًا، وساقَ وراءَهم أيَّامًا، فَقَتَلَهم حتى وصلَ إلى الرَّيِّ، فبلغَه أنَّ طائفَةً قد جاءُوا لِقَصْدِه، فأقامَ يَنْتَظِرُهم، فكان من أمْرِه وأمْرِهم مَا سيأتي في سنَةِ خمسٍ وعشْرينَ.

وفيها: دخلَتْ عَسَاكِرُ المَلِكِ الأشْرَفِ إلى بلادِ أذَرْبِيجانَ، فَمَلَكُوا منها مُدُنًا كثيرةً، وغَنِمُوا أموالاً جَزِيلَةً، وخَرَجُوا معهم بزَوْجَةِ الملكِ جلالِ الدينِ بنتِ طُغْرُلَ، وكانت تُبغِضُه وتُعَاديه، فأنْزَلُوها مَدينَةَ خلاطَ، وسيَأْتي ما كان من خَبَرِهم في السنَةِ الآتيَةِ، إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى.

وفيها: قَدِمَ رَسُولُ الأنْبرُورِ ملكِ الفرنْجِ بالبحْرِ إلى المُعَظَّمِ يَطْلُبُ منه ما كان فَتَحَه عَمُّه الملكُ الناصرُ صلاحُ الدينِ من بلادِ السَّواحلِ، فَأَغْلَظَ له المُعَظَّمُ في الجَوابِ، وقال له: قُلْ لصاحبِكَ ما عِندِي إلا السَّيْفُ. واللَّهُ أعْلَمُ.

وفيها: جَهَّزَ الأشْرَفُ أخاه شهابَ الدين غَازِي إلى الحَجِّ في مَحْمَلٍ عَظِيمٍ يحْملُ ثِقَلَه ستُّمائة جَمَلٍ، ومَعه خَمْسُونَ هَجِينًا، على كلِّ هَجِينٍ مَمْلُوكٌ، فسارَ من ناحيَّة العراقِ، وجَاءَتْه هَدَايَا الخليفَةِ إلى أثْنَاء الطريقِ، وعادَ على طريقه التي حَجَّ منها.

وفيها: وَلِيَ قَضاءَ القُضَاة ببَغْدَادَ نَجْمُ الدين أبو المَعَالي عبدُ الرحمن بن مُقْبِلٍ الواسطيُّ، وخُلِعَ عليه كما هي عادَةُ الحُكَّام، وكان يَوْمًا مَشْهُودًا.

وفيها: كان غَلاءٌ شَديدٌ ببلادِ الجَزيرَةِ، وقَلَّ اللحمُ، حتى حَكَى ابنُ الأثير أنَّه لمْ يُذْبَحْ بمَدينَةِ المَوْصِلِ في بعضِ الأيَّامِ سوى خَرُوفٍ واحدٍ في زَمَنِ الرَّبِيعِ.

قال: وسقَطَ فيها عَاشرَ آذارَ ثلجٌ كثيرٌ بالجَزيرَةِ والعرَاقِ مَرَّتَيْنِ، فَأَهْلَكَ الأزْهَارَ وغَيْرَها. قال: وهذا شيءٌ لم يُعْهَدْ مثلُه، والعَجَبُ كلُّ العَجَبِ من العرَاقِ مع كثرةِ حَرِّه كيفَ وَقَعَ فيه مثلُ هذا.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

جِنْكِزْخَان[1]، السلطانُ الأعْظَم عندَ التَّتارِ، والدُ مُلُوكِهم اليومَ، الذي يَنْتَسِبُونَ إليه، يقُولُونَ: مَن عَظَّمَ القَان إنَّما يريد هذا الملكَ، وهو الذي وَضَعَ لهم «الياسَاق» التي يتَحاكَمُونَ إليها، ويَحْكُمُون بها، وأكْثَرُها مُخالِفٌ لشرائع اللَّه تعالى وكُتُبِه، وإنما هو شيءٌ اقْتَرَحَه من عند نَفْسه، وتَبِعُوه في ذلك، وقد كانت أُمُّه تَزْعُمُ أنَّها حَمَلَتْ به من شُعَاعِ الشَّمْسِ، فلهذا لا يُعْرَفُ له أبٌ، والظاهرُ أنَّه مَجْهُولُ النَّسَبِ، وقد رأَيْتُ مُجَلَّدًا جَمَعَه الوزيرُ ببَغْدَادَ علاء الدينِ الجُوَيْنيُّ في تَرْجَمَته، فذَكَرَ فيه سيرَتَه، ومَا كَان يَشْتَمِلُ عليه من العَقْلِ السِّياسيِّ والكَرَمِ والشجَاعَةِ والتَّدْبيرِ الجَيِّدِ للمُلْك والرَّعايَا والحُرُوبِ، فذكرَ أنَّه كان في ابْتداء أمْره خَصيصًا عندَ المَلِك أُزْبَكْ خان، وكان إذ ذاكَ شابًّا حسنًا، وكان اسمُه أوَّلاً تَمُرْجِي ثم لَمَّا عَظُمَ سمَّى نَفْسَه جِنْكِزْخَان، وكان هذا المَلِكُ قد قَرَّبَه وأدْناه، فحَسَدَه عُظَمَاءُ المَلِك، ووَشَوْا به إليه حتى أخرَجُوه عليه وهَمَّ بِقَتْله، ولم يَجِدْ له طَرِيقًا في ذنبٍ يَتَسَلَّطُ به عليه، فهو في ذلك إذ تَغَضَّبَ المَلِكُ على مَمْلُوكَيْنِ صَغِيرَيْنِ فَهَرَبَا منه، ولَجأ إلى جِنْكِزْخَان، فأكْرَمَهُما وأحْسَنَ إليهما، فأخْبَرَاه بما يُضْمِرُه المَلِكُ أُزْبَكْ خان من قَتْله والهَمِّ به، فأخَذَ حِذْرَه وتَحَيَّزَ بدولَةٍ واتَّبَعَه طوائفُ من التَّتارِ، وصارَ كثيرٌ من أصْحَابِ أُزْبَكْ خان يَنْفرُونَ إليه، ويَفِدُون عليه، فَيُكْرِمهم ويُعْطِيهم حتى قَوِيَتْ شَوْكَتُه، وكَثُرَتْ جُنُودُه، ثم حاربَ بعدَ ذلك أُزْبَكْ خان، فَظَفَرَبه وقَتَلَه، واستَحْوَذَ على مَمْلَكَته ومُلْكِه، وانْضافَ إليه عُدَدُه وعَدَدَه، وعَظُمَ أمْرُه، وبَعُدَ صيتُه، وخَضَعَتْ له قَبَائلُ التُّرْكِ ببلادِ طمغَاجَ كلِّها، حتى صارَ يَرْكَبُ في نحوِ ثمانمائة ألفِ مُقَاتِلٍ، وأكْبَرُ

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

القَبَائِلِ قَبِيلَتُه التي هو مِن أصْلِها يُقالُ لها: قيات. ثم أقْرَبُ القبائِلِ إليه بعدَهم قبيلَتَان كبيرَتَا العددِ، وهما أويرات وقنقورات.

وكان يصْطادُ مِن السنة ثلاثةَ أشْهُرٍ، والباقِي للحَرْبِ والحُكْمِ.

قـال الجُـوَيْنيُّ: وكان يضْرِبُ الحَلْقَةَ يكونُ ما بينَ طَرَفَيْها ثلاثةَ أشهُرٍ، ثم تتضايَقُ فَيَجْتَمِعُ فيها مِن أنْواعِ الحَيَوانَاتِ شيءٌ كثيرٌ لا يُحَدُّ كثرةً.

ثم نَشِبَتِ الحَرْبُ بينَه، وبينَ جَلالِ الدينِ خُوَارِزْم شاه صاحبِ بلادِ خُراسَانَ والعِرَاقِ وأذْرَبِيجانَ وغيرُ ذلك مِن الأقَاليمِ والمَمَالِكِ، فَقَهَرَه جنْكِزْخَان وكَسَرَه وغَلَبَه، واسْتَحْوَذَ علىٰ سائِرِ بلادِه هو بنَفْسِه وبأوْلادِه في أيْسَرِ مُدَّةٍ كما ذَكَرْنا ذلكَ في الحَوادِثِ، وكان ابْتِداءُ مُلْكِ جنْكِزْخَان في سنةِ تسعٍ وتسْعِينَ وخَمْسِمائةٍ، وكان قِتالُه لخُوَارِزْم شاه في حُدُودِ سنَةِ ستَّ عَشْرَةَ وستِّمائةٍ، ومات خُوَارِزْم شاه في سنَةِ سبعَ عَشْرَةَ كما ذَكَرْنَا، فاسْتَحْوَذَ حينَئذٍ علىٰ المَمَالِكِ بلا مُنَازِعٍ ولا مُمَانِعٍ، وكانت وَفَاتُه في سنَةِ أرْبَعٍ وعِشْرين وستِّمائةٍ، فَجَعَلُوه في تابُوتٍ مِن حَدِيدٍ ورَبَطُوه بسلاسلَ وعَلَّقُوه بينَ جَبَلَيْنِ هنالك، وأمَّا كتابُه «الياساق» فإنَّه يُكْتَب في مُجَلَّدَين بخَطٍّ غَلِيظٍ، ويُحْمَلُ علىٰ بَعِيرٍ مُعَظَّمٌ عندَهم، وقد ذَكَرَ بَعْضُهم عنه أنَّه كان يَصْعَدُ جبلاً، ثم يَنْزِلُ، ثم يَصْعَدُ، ثم يَنْزِلُ حتىٰ يُعْيِي ويَقَعُ مَغْشِيًا عليه، ويَأمُرُ مَن عِندَه أنْ يَكْتُبَ ما يُلْقَىٰ علىٰ لِسانه حينَئذٍ، فإنْ كان هذا هكذا فالظَّاهِرُ أنَّ الشَّيْطانَ كان يَنْطِقُ علىٰ لسانه بما فيها.

ثم ذَكَرَ الجوَيْنِيُّ أن بعضَ عُبَّادِهم كان يَصْعَدُ الجبالَ في البَرْدِ الشديدِ للعبادَةِ، فَسَمِع قَائلاً يقولُ له: إنَا قد مَلَّكْنا جنْكِزْخَان وذُرِّيَّتَه وجهَ الأرْضِ.

قال الجُوَيْنِيُّ: فمَشَايِخُ المَغُولِ يُصَدِّقُونَ بهذا، ويأخُذُونَه مُسَلَّمًا.

وذَكَـرَ الجَـوَيْنِيُّ شيئًا مِن «الياسَاق»، مِن ذلك؛ أنَّه مَن زَنَىٰ قُتِلَ، مُحْصَنًا كان أو غَيرَ مُحْصَنٍ، وكذلك مَن لاطَ قُتِلَ، ومَن تَعَمَّدَ الكَذِبَ قُتِلَ، ومَن سحَرَ قُتِلَ، ومَن تَجَسَّسَ قُتِلَ، ومَن دخَلَ بينَ اثْنَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فأعَانَ أحَدَهما قُتِلَ، ومَن بالَ في الماءِ الواقِفِ قُتِلَ، ومَن انْغَمَسَ فيه قُتِلَ، ومَن أطْعَمَ أسيرًا أو سَقَاه أو كَسَاه بغَيْرِ إذْنِ أهْلِه قُتِلَ، ومَن وجَدَ هَارِبًا ولم يَرُدَّه قُتِلَ، ومَن رَمَىٰ إلىٰ أحَدٍ شَيْئًا مِن المَأْكُولِ قُتِلَ، بل يُناوِلُه مِن يَدِه إلىٰ يدِه، ومَن أطْعَمَ أحدًا شيئًا فليأْكُلْ منه أوَّلاً، ولو كان المُطْعِمُ أميرًا لأسيرٍ، ومَن أكَلَ ولم يُطْعِمْ مَن عِندَه قُتِلَ، ومَن ذَبَحَ حَيَوانًا ذُبِحَ مِثْلَه، بل يَشُقُّ جَوْفَه، ويتَنَاوَلُ قَلْبَه بيدِه يَسْتَخْرِجُه من جَوْفه أوَّلاً.

وفي هذا كلِّه مُخَالَفَةٌ لِشَرَائعِ اللَّهِ المُنَزَلَةِ على عِبادِه الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ، فمَن تَرَكَ الشَّرْعَ المُحْكَمَ المُنَزَّل على محمد بنِ عبدِ اللَّهِ خَاتِمِ الأنبياءِ، وتَحاكَمَ إلى غيرِه من الشَّرائعِ المَنْسُوخَةِ كفرَ، فكيفَ بمَن تَحاكَمَ إلى «الياسَاق» وقَدَّمَها عليه؟! مَن فعلَ ذلك كفَرَ بإجْمَاعِ المُسْلمينَ. قال اللَّهُ تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ومِن آدابِهم الطاعَةُ لسُلطانِهم غايَةَ الاسْتطاعَةِ، وأنْ يَعرِضُوا عليه أبْكارَهم الحسانَ ليَخْتارَ لنَفْسه، ومَن شاءَ مِن حَاشيَته ماشاء منهنَّ، ومِن شأنِهم أن يُخاطِبُوا المَلِكَ باسمه، ومَن مَرَّ بقَومٍ يأكُلونَ فله أنْ يَأكُلَ معهم بغَيرِ اسْتئذانٍ، ولا يَتخطَّى مَوقدَ النارِ ولا طَبَقَ الطعامِ، ولا يَقفُ على أُسكُفَّةِ الخرْكاه، ولا يَغسِلُون ثِيابَهم حتى يَبْدُو وَسخُها، ولا يُكلِّفُونَ العُلَماءَ مِن كلٍّ ما ذُكِرَ شيْئًا من الجِنايات، ولا يَتَعرَّضُونَ لمالِ ميتٍ، وقد ذكرَ علاءُ الدينِ الجُوَيْنيُّ طَرَفًا كبيرًا مِن أخْبارِ جِنكِزْخَان ومَكَارِمَ كان يَفعَلُها لِسَجيَّته وما أدَّاه إليه عَقلُه، وإنْ كان مُشرِكًا باللَّه يَعبُدُ معَه غَيرَه، وقد قَتَلَ من الخلائقِ ما لا يَعلَمُ عَدَدَهم إلا الذي خلَقَهم، ولكن كان البَداءَة مِن خُوارِزِم شاه، فإنَّه لمَّا أرسَلَ جِنكِزْخان تُجَّارًا مِن جِهَتِه معهم بَضائعُ كثيرةٌ مِن بلادِه، فانتَهَوا إلى إيرانَ، فَقَتَلَهم نائبُها مِن جِهَةِ خُوارِزم شاه، وهو والدُ زَوْجَته كَشْلي خان، وأخَذَ جَميعَ ما كان معهم، فأرسَلَ جِنكِزْخان إلى خُوارِزم شاه يَستَعْلِمُه هل وَقَعَ هذا الأمْرُ عن رِضًا منه أو أنَّه لم يَعلَمْ به فَأنكَرَه، وقال له فيما أرسَلَ إليه: مِن المَعْهُودِ مِن المُلُوكِ أن التُّجارَ لا يُقتَلُونَ؛ لأنَّهم عِمارَةُ الأقاليمِ، وهم الذين يَحمِلُونَ إلى المُلُوكِ التُّحَفَ والأشياءَ النَّفيسَةَ، ثم إنَّ هؤلاءِ التُّجَّارَ كانُوا على دِينِكَ، فَقَتَلَهم نَائبُكَ، فإن كان أمرًا أنكرْتَه، وإلا طَلَبْنا بدِمائهم. فلمَّا سَمِعَ خُوارِزم شاه ذلك مِن رسولِ جِنكِزْخان لم يكُنْ له جَوابٌ سوى أنَّه أمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِه، فأساءَ التَّدْبيرَ، وقد كان خَرِفَ وكَبِرَتْ سِنُّه، وقد وَرَدَ الحديثُ: «اترُكُوا التُّرْكَ ما تَرَكُوكم»[1]. فلمَّا بَلَغَ ذلك جِنكِزْخان تَجَهَّزَ لِقتالِه وأخْذِ بلادِه، فكان بقَدَرِ اللَّه ما كان مِن الأُمُورِ التي لم يُسْمَعْ بأغْرَبَ منها ولا أبْشَعَ.

فمِمَّا ذكَرَه الجُوَينيُّ عنه أنَّه قَدَّمَ له بعضُ الفلاحينَ بالصَّيدِ ثلاثَ بِطِّيخاتٍ، فلم يتَّفِقْ أنَّ عندَ جِنكِزْخان أحدًا مِن الخَزَنْدارِيةِ، فقال لِزَوْجَته خاتُون: أعْطِيه هذينِ القُرْطَينِ اللذينِ في أُذُنَيْكِ. وكان فيهما جَوْهَرتانِ نَفيسَتانِ جدًّا، فَشَحَّتْ المَرْأَةُ بهما وقالتْ: انْظُرْ إلى غَيْرِه فإنَّ هذا لا يَدْرِي ما هما. فقال لها: ادْفَعيهما إليه فإنَّهما لا يَبِيتانِ هذه الليلةَ إلا عندكَ، وهذا الرَّجلُ لا يُمْكِنُنا أنْ نَدَعَه يذهبْ عنَّا مُقَلْقَلَ الخاطرِ، وربَّما لا يَحْصُلُ له شيءٌ بعدَ هذا، وإنَّ هذين لا يُمكِنُ أنَّ أحدًا إذا اشتَراهما إلا

---

(١) أسانيده متكلم فيها أخرجه أبو داود (٤٣٠٢) والنسائي في «الكبرى» (٤٣٨٥) وغيرهما عن رجل من الصحابة وفي إسناده أبي سكينة أحد المحررين لم أجد فيه جرحًا ولا تعديلاً وهو مختلف في صحبته انظر «الإصابة» (٧/ ١٥٥) و«الإنابة» (٢/ ٢٧٥) وله طريق آخر عند الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٨١ رقم (١٠٣٨٩) عن ابن مسعود وفي إسناده متروك وتوبع هذا المتروك من منكر الحديث عند العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٢٨٦) وله طريق آخر عنده (١٩/ ٨٨٢) بإسناد عن معاوية بن أبي سفيان ولا يصح أيضًا. قال العقيلي: «سائر الحديث لا أصل له».

جاءَ بهما إليك. فانْتزَعَتهما فَدَفَعَتْهما إلى الفلاح، فطارَ عَقْلُه بهما، وذهبَ بهما، فباعَهما لبعضِ التُّجارِ بألفِ دينارٍ، ولم يَعْرفْ قيمتَهما، فَحَمَلَهما التاجرُ إلى الملكِ، فرَدَّهما على زَوْجَتِه، ثم أنْشَدَ الجُوَيْنيُّ عندَ ذلك:

ومَن قالَ إنَّ البَحْرَ والقَطْرَ أشْبَها ... نَدَاه فقد أثْنى على البَحْرِ والقَطْرِ

قال: واجْتَازَ يومًا في سوقٍ، فَرَأَىٰ عندَ بقَّالٍ عُنَّابًا، فأعْجَبَه لونُه ومالَتْ نفْسُه إليه، فأمَرَ الحاجبَ أنْ يَشْتَرِيَ منه ببالسٍ، فاشْتَرَىٰ الحاجبُ منه بربعِ بالسٍ، فلما وَضَعَه بينَ يدَيْه أعْجَبَه وقال: هذا كلُّه ببالسٍ؟! فقال: وبَقِيَ منه هذا. وأشَارَ إلى مَا بَقِيَ معه مِن المالِ، فَغَضِبَ وقال: متى يَجِدُ مَن يَشْتَرِي منه مِثْلي؟ تَمِّمُوا له عَشَرَةَ بوالسَ.

قالوا: وأهْدَىٰ له رجلٌ جام زُجَاجٍ مِن مَعْمُولِ حَلَبَ، فاستَحْسَنَه جِنْكِزْخَان، فَوَهَّنَ أمْرَه عنده بعضُ خَوَاصِّه، وقال: خُونْدُ، هذا زُجَاجٌ لا قِيمَةَ له. فقال: أليسَ قد حَمَلَه مِن بلادٍ بعيدَةٍ حتى وَصَلَ إلينا سالمًا؟ أعْطُوه مائتي بالسٍ.

وقيل له: إنَّ في هذا المكَانِ كنزًا عَظِيمًا، فلو فَتَحْتَه أخَذْتَ منه مالاً كثيرًا. فقال: الذي في أيدينَا يَكْفِينَا، ودَعُوا هذا يَفْتَحُه الناسُ ويَأْكُلُونَه، فهم أحقُّ به منَّا. ولم يَتَعَرَّضْ له.

قال: واشْتهرَ عن رَجُلٍ في بلادِه أنَّه يقُولُ: أنا أعْرِفُ مَوْضعَ كَنْزٍ، ولا أقُولُه إلا للقان. وألحَّ عليه الأُمراءُ أن يُعْلِمَهم، فلم يَفْعَلْ، فذكَروا ذلك لِلقان، فأحْضَره على خيلِ الأولاقِ -يعني البريدَ- سريعًا، فلما حضرَ إلى بين يديه سأله عن الكنْزِ، فقال: إنما كنتُ أقولُ ذلك حِيلةً لأرَىٰ وجهَك. فلما رأىٰ تَغَيُّرَ كلامه غضب وقال له: قد حصَلَ لك ما طلبتَ فارجعْ إلى موضعك. وأمَر بردِّه سالمًا، ولم يُعْطِه شيئًا. قال الجوينيُّ: وهذا غريبٌ.

قال: وأهْدَىٰ له إنسانٌ رُمَّانةً، فكسَرها وفرَّق حبَّها على الحاضرين، ثم أمَر له بعددِ حَبِّها بَوالسَ، ثم أنْشَد عندَ ذلك:

فلذاك تَزْدَحِمُ الوُفُودُ ببابِه ... مِثْلَ ازْدِحامِ الحَبِّ في الرُّمَّانِ

قال: وقدِم عليه رجلٌ كافرٌ يقولُ: رأيتُ في النوم جِنْكِزْخان يقولُ: قُلْ لابني يَقْتُلُ المسلمين. فقال له: هذا كذبٌ. وأمَر بقتله.

قال: وأمَر بقتلِ ثلاثةٍ قد قضَت «الياسَقُ» بقتلِهم، فإذا امرأةٌ تَبْكي وتَلْطِمُ. فقال: ما هذه؟ أحْضِروها. فقالت: هذا ابني، وهذا أخي، وهذا زوجي. فقال: اخْتاري واحدًا منهم حتى أُطْلِقَه لك. فقالت: الزوجُ يَجِيءُ مثلُه، والابنُ كذلك، والأخُ لا عِوَضَ له. فاسْتَحْسَنَ ذلك منها، وأطْلَقَ الثلاثةَ لها.

قال: وكان يُحبُّ المُصارعين وأهلَ الشُّطارة، وقد اجْتَمَع عندَه منهم جماعةٌ، فذُكِر له إنسانٌ بخُراسانَ، فأحْضَره، فصرَع جميعَ مَن عندَه، فأكْرَمه وأعْطاه، وأطْلَق له بنتًا من بناتِ المغولِ حَسْناءَ، فمكَثَت عندَه مدةً لا يَتَعَرَّضُ لها، فاتَّفَق مَجيئُها زائرةً بيتَ القان، فجعَل السلطانُ يُمازِحُها ويقولُ: كيف رأيتِ المُسْتَعْرِبَ؟ فذَكَرَت أنه لم يَقْرَبْها، فتَعَجَّب من ذلك وأحْضَره فسأَله عن ذلك فقال: يا خُونْدُ، أنا إنما حظِيتُ عندَك بالشُّطارة، ومتى قربْتُها نقَصَت مَنْزِلتي عندَك.

قال: ولما احْتُضِر أوْصَى أولادَه بالاتِّفاقِ وعدمِ الافْتراقِ، وضرَب لهم في ذلك الأمْثالَ، وأحْضَر بين يديه نُشّابًا، ويأخذُ السهمَ فيُعْطيه الواحدَ منهم، فيَكْسِرُه، ثم أحْضَر حُزْمةً أخرى ودفَعها مَجْموعةً إليهم، فلم يُطيقوا كسْرَها. فقال: هذا مَثَلُكم إذا اجْتَمَعْتُم واتَّفَقْتُم، وذلك مَثَلُكم إذا انْفَرَدْتُم واخْتَلَفْتُم.

قال: وقد كان له عِدَّةُ أولادٍ ذُكورٍ وإناثٍ منهم أربعةٌ هم عُظماءُ الأولادِ؛ وأكبرُهم تولى، وهم؛ تولى وباتو وبركة وتركجار، وكان كلٌّ منهم له وَظيفةٌ عندَه. ثم تكَلَّم الجُوَيْنيُّ على ملكِ ذريتِه إلى زمانِ هُولاكو خان، وهو يقولُ في اسمه: باذْشاه زاده هولاكو. وذكَر ما وقَع في زمانِه من الأوابدِ والأمورِ المُزْعِجةِ، كما بسَطْنا في الحوادثِ. واللَّهُ أعلمُ.

السلطانُ الملكُ المُعَظَّمُ، عيسى بنُ العادلِ أبي بكرِ بنِ أيوبَ، ملكُ دمشقَ والشامِ، كانت وفاتُه يومَ الجمعةِ سَلْخَ ذي القَعْدةِ من هذه السنةِ، وكان اسْتِقلالُه بملكِ دمشقَ لما تُوُفِّي أبوه سنةَ خمسَ عشْرةَ، وكان شُجاعًا عاقلاً فاضلاً، اشْتَغل في الفقهِ على مذهبِ أبي حَنيفةَ على الحَصيريِّ مدرسِ النُّوريةِ، وفي اللغةِ والنحوِ على الشيخِ تاجِ الدينِ الكِنْديِّ، وكان مَحْفوظُه «مُفَصَّلَ الزَّمَخْشَريِّ»، وكان يُجيزُ مَن حَفِظه بثلاثين دينارًا، وكان قد أمَر أن يُجْمَعَ له كتابٌ في اللغةِ يَشْمَلُ «صِحاحَ الجَوْهريِّ»، و«الجَمْهَرةَ» لابنِ دُرَيْدٍ و«التَّهْذيبَ» للأزْهَريِّ وغيرَ ذلك، وأمَر أن يُرَتَّبَ له «مسندُ الإمامِ أحمدَ»، وكان يُحبُّ العلماءَ ويُكْرِمُهم، ويَجْتَهِدُ في مُتابَعَةِ الخيرِ، ويقولُ: أنا على عَقيدةِ الطَّحاويِّ. وأوْصَى عندَ وفاتِه أن لا يُكَفَّنَ إلا في البَياضِ، وأن يُلْحَدَ له، ويُدْفَنَ في الصحراءِ، ولا يُبْنَى عليه، وكان يقولُ: واقعةُ دِمْياطَ أَدَّخِرُها عندَ اللَّهِ تعالى، وأَرْجُو أن يَرْحَمَني بها. يعني أنه أبْلَى فيها بَلاءً حَسَنًا - رحمه اللَّهُ تعالى، وقد جُمع له من الشجاعةِ والسماحةِ والبَراعةِ والعلمِ ومَحَبّةِ أهلِه، وكان يَجيءُ في كلِّ يومِ جمعةٍ إلى تُرْبَةِ والدِه، فيَجْلِسُ قليلاً، ثم إذا ذكَر المُؤَذِّنون يَنْطَلِقُ إلى تربةِ عمِّه صلاحِ الدينِ، فيُصَلِّي فيها الجمعةَ، وكان قليلَ التَّعاظُمِ؛ يَرْكَبُ في بعضِ الأحيانِ وحدَه، ثم يَلْحَقُه بعضُ غِلْمانِه

سَوْقًا، وقال فيه بعضُ أصحابه، وهو مُحبُّ الدينِ ابنُ أبي السُّعودِ البغداديُّ:

لئن غُـودرَتْ تلك المحـاسنُ في الثَّـرَى ... بوال فـمـا وَجْـدي عـليك ببـال
ومُـذْ غِـبْتَ عني مـا ظفـرتُ بصـاحب ... أخيّ ثـقـة إلا خـطـرْتَ ببـالي

وملَك دمشقَ بعدَه ولدُه الناصرُ داودُ بنُ المُعَظَّم، وبايَعه الأمراءُ.

أبو المعالي أسعدُ بنُ يَحْيى بن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب الفقيهُ الشافعيُّ السِّنجاريُّ، شيخٌ أديبٌ فاضلٌ خَيِّرٌ، له نَظْمٌ ونثرٌ ظَريفٌ، وله نَوادرُ حَسَنَةٌ، وجاوزَ التسعين، قد استَوْزَره صاحبُ حَماةَ في وقتٍ، وله شعرٌ رائقٌ أوْرَد منه ابنُ الساعي قطعةً جيدةً، فمن ذلك قولُه:

وهَواك مـا خطَر السُّلُوُّ ببـالـه ... ولأنت أعلمُ في الغَـرام بحـالـه
فـمـتى وشَى واشٍ إليك بأنـه ... سـال هَواك فـذاك مِن عُـذّالَه
أو ليس للكَلِف المُعَنَّى شـاهـدٌ ... من حـالـه يُغْنيك عن تَسْـآلـه
جـدَّدْتَ ثوبَ سَـقـامـه وهتَكْتَ سِتْـ ... ـرَ غَـرامـه وصَـرَمْتَ حَـبلَ وصـالـه
يا للعَـجـائبِ مِن أسـيـرِ دأبُه ... يَفْـدي الطَّليقَ بنفـسـه وبمالـه

وله أيضًا:

لامَ العَـواذلُ في هَواك فـأكْـثَـروا ... هَيْـهـاتَ مـيـعـادُ السُّلُوِّ المَحْشَـرُ
جـهلوا مكـانَك في القلوب فطوَّلوا ... لو أنهم وجَـدوا كـوَجْـدي أقْـصَروا
صَـبْـرًا على عَـذْبِ الهَـوَى وعَـذابه ... وأخـو الهَـوَى أبدًا يُلامُ ويُعْـذَرُ

أبو القاسم عبدُ الرحمن بنُ محمد بن أحمدَ بن حَمْدانَ الطِّيبيُّ، المعروفُ بالصائنِ، أحدُ المُعيدين بالنِّظاميةِ، ودرَّس بالثِّقَتِيّةِ، وكانَ عارفًا بالمَذْهَبِ والفَرائضِ والحِساب، صنَّف شرحًا «للتَّنْبيه»، ذكَره ابنُ الساعي.

أبو النَّجْم محمدُ بنُ القاسم بن هِبَة اللَّه التَّكْريتيُّ، الفقيهُ الشافعيُّ، تفَقَّه ببغدادَ على أبي القاسم بنِ فَضْلانَ، ثم أعاد بالنِّظامية، ودرَّس في غيرها، وكان يَشْتَغلُ كلَّ يوم عشرين درسًا، وليس له دأبٌ إلا الاشْتغالُ وتلاوةُ القرآن ليلاً ونَهارًا، وكان بارعًا، كثيرَ العلوم، قد أتْقَن المَذْهَبَ والخلافَ، وكان يُفْتي في مسألة الطلاقِ الثلاث بواحدة، فتغَيَّظ عليه قاضي القُضاة أبو القاسم عبدُ اللَّه بنُ الحسين الدّامَغانيُّ، فلم يَسْمَعْ منه، ثم أُخْرِج إلى تَكْريتَ، فأقام بها، ثم استُدْعي إلى بغدادَ، فعاد إلى الاشْتِغال، وأعاده قاضي القُضاة نصرُ بنُ عبدِ الرزاق إلى إعادته بالنِّظامية، وعاد إلى ما كان عليه من الاشْتغال والفَتْوَى والوَجاهة إلى أن تُوُفِّي في هذه السنة، رحمه اللَّهُ تعالى. وهذا ذكَره ابنُ الساعي.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

فيها كانت حروبٌ كثيرةٌ بينَ جَلال الدينِ والتَّتارِ، كسَروه غيرَ مَرَّةٍ، ثم بعدَ ذلك كلِّه كسَرهم كَسْرةً عَظيمةً، وقتَل منهم خلقًا وأُمَمًا لا يُحْصَوْن كثرةً، وكان هؤلاء التَّتارُ قد انْفَردوا وعصَوْا على جِنْكِزْخان، فكتَب ابنُ جِنْكِزْخان إلى جَلال الدينِ يقولُ: إن هؤلاء ليسوا منا ونحن أبْعَدْناهم، ولكن ستَرَىٰ منا ما لا قِبَلَ لك به.

وفيها قدمَت طائفةٌ كبيرةٌ من الفرنجِ من ناحيةِ صِقِلِّيَةَ، فنزَلوا عَكَّا وصُورَ، وحمَلوا على مدينةِ صَيْدَا، فانْتَزَعوها من أيدي المسلمين، وغزَوها وقوِيَت شَوْكتُهم، وجاء الانبرُور ملكُ جزيرةِ قُبْرُسَ، ثم سار، فنزَل مدينةَ عَكَّا فخاف المسلمون، وباللَّهِ المستعانُ.

وركِب الملكُ الكاملُ محمدُ بنُ العادلِ صاحبُ مصرَ إلى بيتِ المقدسِ فدخَله، ثم سار إلى نابُلُسَ، فخاف الناصرُ داودُ بنُ المُعَظَّمِ من عمِّه الكاملِ، فكتَب إلى عمِّه الأشرفِ، فقدِم عليه جَريدةً، وكتَب إلى أخيه الكاملِ يَسْتَعْطِفُه، ويَكُفُّه عن ابنِ أخيه، فأجاب الكاملُ بأني إنما جئْتُ لحفظِ بيتِ المقدسِ وصَوْنِه عن الفرنجِ الَّذين يُريدون أخْذَه، وحاشَىٰ للَّه أن أُحاصِرَ أخي أو ابنَ أخي، وبعدَ أن جئتَ أنت إلى الشامِ، فأنت تَحْفَظُها، وأنا راجعٌ إلى الديارِ المصرية. فخشِي الأشرفُ وأهلُ الشامِ إن رجَع الكاملُ أن تَمْتَدَّ أطْماعُ الفرنجِ إلى بيتِ المقدسِ، فركِب الأشْرَفُ إلى أخيه الكاملِ، فثبَّطه عن الرجوعِ، وأقاما جميعًا هنالك، جزاهما اللَّهُ تعالى خيرًا، يَحْفَظان جَنابَ بيتِ المقدسِ عن الفرنجِ، لعَنهم اللَّهُ تعالى. واجْتَمَع إلى الملكِ جَماعةٌ من مُلوكِهم، كأخيه الأشرفِ وأخيهما الشِّهابِ غازي ابنِ العادلِ وأخيهم الصالحِ إسماعيلَ بنِ العادلِ، وصاحبِ حِمْصَ أسدِ الدينِ شيركُوه بنِ ناصرِ الدينِ محمدِ بنِ شيركوه، وغيرِهم، واتَّفَقوا كلُّهم على نَزْعِ الناصرِ داودَ عن مُلْكِ دمشقَ وتَسْليمِها إلى الأشرفِ موسى؛ لأجلِ حفظِ الشامِ من الفرنجِ، وسيأتي تنفيذُ ذلك في السنةِ المُسْتَقْبلةِ، إن شاءَاللَّهُ تعالى.

وفيها عُزِل الصَّدْرُ البكْريُّ عن حِسْبةِ دمشقَ ومَشْيَخةِ الشيوخِ، ووُلِّي فيهما اثنان غيرُه.

قال الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ: وفي أوائلِ رجبٍ تُوُفِّي الشيخُ الفقيهُ الصالحُ أبو الحسنِ عليُّ بنُ المَرَّاكُشي، المُقيمُ بالمدرسةِ المالكيةِ، ودُفِن بالمَقْبَرةِ التي وَقَفها الرئيسُ خليلُ بنُ زُويزانَ قِبْليَّ مَقابرِ الصُّوفيةِ، وكان أولَ مَن دُفِن بها.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

استهلت هذه السنة وملوكُ بني أيوبَ مُفْتَرِقون مختلفون، قد صاروا أحزابًا وفرقًا، وقد اجتمع ملوكُهم إلى الكاملِ محمدٍ صاحبِ مصرَ، وهو مُقيمٌ بنواحي القدسِ الشريف، فقويت نفوسُ الفرنجِ، لعنهم اللهُ، بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحرِ، وبموتِ المُعَظَّمِ واختلافِ مَن بعدَه من الملوك، فطلبوا من المسلمين أن يَرُدُّوا إليهم ما كان الناصرُ صلاحُ الدينِ أخذه منهم، فوقعت المُصالحةُ بينهم وبينَ الملوك على أن يَرُدُّوا لهم بيتَ المقدسِ وحدَه، وتبقى بأيديهم بقيةٌ، فتسلَّموا القدسَ الشريفَ، وكان المُعَظَّمُ قد هدَم أسوارَه، فعظُم ذلك على المسلمين جدًّا، وحصل بسببِ ذلك وَهْنٌ شديدٌ وإرجافٌ عظيمٌ، فإنا للهِ وإنا إليه راجعون. ثم قدم الكاملُ، فحاصَر دمشقَ، وضيَّق على أهلِها، فقطَع الأنهارَ، ونُهِبَت الحواضرُ، وغلَت الأسعارُ، ولم يَزَلْ بالجنودِ حولَها حتى أخرَج منها ابنَ أخيه صلاحَ الدين الملكَ الناصرَ داودَ بن المعظم، على أن يقيمَ ملكًا بمدينة الكَرَك والشَّوْبَك ونابُلُسَ وقرايَا من الغَوْرِ والبَلْقاءِ، ويكونَ الأميرُ عزُّ الدينِ أَيْبَك أُستاذُ دارِ المُعَظَّمِ صاحبَ صَرْخَدَ، ثم تقايَض الأشرفُ وأخوه الكاملُ، فأخَذ الأشرفُ دمشقَ وأعطَى أخاه حَرّانَ والرُّهَا ورأسَ العَيْنِ والرَّقَّةَ وسَرُوجَ، ثم سار الكاملُ فحاصَر حَماةَ، وكان صاحبُها الملكُ المنصورُ بنُ تقيِّ الدينِ عُمرَ قد تُوُفِّي، وعهِد بالأمرِ من بعدِه إلى أكبرِ ولدِه المُظَفَّرِ محمدٍ، وهو زوجُ بنتِ الكاملِ، فاستَحْوذَ على حَماةَ أخوه صلاحُ الدينِ قِليج أرسلان، فحاصَره الكاملُ حتى أنزَله من قلعتِها، وسلَّمها إلى أخيه المُظَفَّرِ محمدٍ، ثم سار فتسلَّم البلادَ التي قايَض بها عن دمشقَ من أخيه الملكِ الأشرفِ كما ذكَرْنا، وكان الناسُ بدمشقَ قد اشتَغَلوا بعلمِ الأوائلِ في أيامِ الملكِ الناصرِ داودَ، وكان يُعاني ذلك، وربما نسَبه بعضُهم إلى نوعٍ من الانحلالِ. فاللهُ أعلمُ. فنادَى الملكُ الأشرفُ بالبُلْدانِ أن لا يَشْتَغِلَ الناسُ بذلك، وأن يَشْتَغِلوا بعلمِ التفسيرِ والحديثِ والفقهِ، وكان سيفُ الدينِ الآمديُّ مُدَرِّسًا بالعَزيزيةِ، فعزَله عنها، وبقي مُلازِما منزلَه حتى مات في سنةِ إحدى وثلاثين كما سيأتي.

وفيها كان الناصرُ داودُ قد أضاف إلى قاضي القُضاةِ شمسِ الدينِ بنِ الخُوَيِّيِّ القاضيَ مُحْيِيَ الدينِ أبا الفضائلِ يحيى بنَ محمدِ بنِ عليِّ بنِ الزَّكيِّ، فحكَم أيامًا بالشُّبّاكِ، شرقيَّ بابِ الكَلّاسةِ، ثم صار يَحْكُمُ بدارِه، مُشارِكًا لابنِ الخُوَيِّيِّ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

أبو يوسفَ يعقوبُ بنُ صابرٍ الحَرّانيُّ ثم البغداديُّ المَنْجَنيقيُّ، كان فاضلًا في فنِّه، وشاعرًا مُطَبِّقًا، لطيفَ الشِّعرِ، حَسَنَ المعاني، وقد أورَد له ابنُ الساعي قطعةً صالحةً، ومن أحسنِ ما أورَد له قصيدةٌ فيها تعزيةٌ عظيمةٌ لجميعِ الناسِ، وهي قولُه:

هل لِمَن يَرتَجي البَقاءَ خلودُ ... وسِوَى اللَّه كلُّ شيءٍ يَبيدُ
والذي كان من تراب وإن عا ... شَ طويلاً للتراب يَعودُ
فمَصيرُ الأنام طُرًّا إلى ما ... صار فيه آباؤُهم والجُدودُ
أين حَوّاءُ أين آدمُ إذ فا ... تَهمُ الخُلدُ والثَّوَى والخُلودُ
أين هابيلُ أين قابيلُ إذ هـ ... ـذا لهذا مُعاندٌ وحَسودُ
أين نوحٌ ومَن نَجَا مَعه بالـ ... ـفُلك والعالمون طُرًّا فَقيدُ
أسلَمَتْه الأيامُ كالطفلِ للمو ... تِ ولَم يُغنِ عُمرُه المَمْدودُ
أين عادٌ بل أين جنةُ عاد ... أم تَرَى أين صالحٌ وثَمودُ
أين إبراهيمُ الذي شاد بيتَ الـ ... ـلَّه فهْو المُعَظَّمُ المَقْصودُ
حسَدوا يوسُفًا أخاهمْ فكادو ... هُ ومَات الحسودُ والمَحْسودُ
وسليمانُ في النُّبوَّة والمُلْـ ... ـك قضَى مثلَ ما قضَى داودُ
فغَدَوْا بعدَما أُطيع لذَا الخَلْـ ... ـقُ وهذا له أُلينَ الحَديدُ
وابنُ عِمْرانَ بعدَ آياته التسـ ... ـعِ وشقِّ الخِضَمِّ فهْو صَعيدُ
والمسيحُ ابنُ مريمٍ وهْو رُوحُ الـ ... ـلَّه كادت تَقْضي عليه اليهودُ
وقضَى سيدُ النَّبيِّين والها ... دي إلى الحقِّ أحمدُ المَحْمودُ
وبنوه وآلُه الطاهرون الزُّ ... هْرُ صلَّى عليهمُ المَعْبودُ
ونجومُ السماء مُنْتَثِراتٌ ... بعدَ حين وللهواءِ رُكودُ
ولنارِ الدنيا التي تُوقَدُ الصَّخْـ ... ـرَ خُمودٌ وللمياه جُمودُ
وكذا للثَّرَى غَداةَ يَؤُمُّ النَّـ ... ـاسَ منها تَزَلزُلٌ وهُمودُ
هذه الأُمَّهاتُ نارٌ وتُربٌ ... وهَواءٌ رَطْبٌ وماءٌ بَرودُ
سوف تَفْنَى كما فنينا فلا يَبْـ ... ـقَى مِن الخلقِ والدٌ ووَليدُ
لا الشَّقيُّ الغَوِيُّ مِن نُوَب الأيَّـ ... ـامِ يَنْجَو ولا السعيدُ الرَّشيدُ
ومتى سَلَّتِ المَنايا سيوفًا ... فالمَوالي حَصيدُها والعَبيدُ

الملكُ المسعودُ أَقْسيسُ بنُ الكاملِ صاحبُ اليمنِ، وقد ملَك مكةَ مِن سنةِ تسعَ عشْرةَ، فأحْسَن بها المَعْدَلَةَ، ونفَى الزَّيْديَّةَ منها، وأمِنَت الطُّرُقاتُ والحُجَّاجُ، ولكنه كان مُسْرِفًا على نفسِه، فيه عَسْفٌ وظلمٌ أيضًا. وكانت وفاتُه بمكةَ، ودُفِن ببابِ المَعْلَى.

محمدٌ السَّبْتيُّ النَّجَّارُ، كان يَعُدُّه بعضُهم مِن الأبدالِ، قال أبو شامةَ: وهو الذي بنَى المسجدَ غربيَّ دارِ الوكالةِ، عن يَسارِ المارِّ في الشارعِ، مِن مالِه، ودُفِن بالجبلِ. وكانت جِنازتُه مَشْهودةً. رحِمه اللَّهُ تعالى.

العبَّادي الشاعرُ: أبو الحسن عليُّ بنُ سالم بن يزبك بن محمد بن مُقلّد، العبَّاديُّ الشاعرُ، من الحَديثة، قدِم بغدادَ مراراً، وامتَدَحَ المُستنصِرَ وغيرَه، وكان فاضلاً كثيرَ التَّغَزُّلِ.

أبو الفتوح نصرُ بنُ عليٍّ البَغْداديُّ، الفَقيهُ الشافعيُّ، ويُلَقَّبُ بثَعْلَبٍ، اشتَغَل في المذهبِ والخلافِ، ومن شعرِه قولُه:

جِسْمي معي غيرَ أن الرُّوحَ عندكمُ	فالجسمُ في غُربةٍ والرُّوحُ في وَطَنِ
فلْيَعْجَبِ الناسُ منِّي أنَّ لي بدنًا	لا رُوحَ فيه ولي رُوحٌ بلا بَدَنِ

أبو الفضل جبْريلُ بنُ منصور بن هبةِ اللَّه بن جبْريلَ بن الحسن بن غالب بن يَحْيَى بن موسى بن يحيَى بن الحسن بن غالب بن الحسن بن عمرو بن الحسن بن النُّعمان بن المنذر، المَعروفُ بابن زُطينا البَغْداديِّ، كان كاتبَ الدِّيوانِ بها، أسْلَم، وكان نَصْرانيًّا، فحسُن إسلامُه، وكان من أفْصَحِ الناسِ وأبْلَغِهم مَوْعظةً، فمن ذلك قولُه: خيرُ أوقاتك ساعةٌ صَفَتْ للَّه، وخَلَصَت من الفكْرة لغيره والرَّجاء لسواه، وما دُمْتَ في خدمة السلطان، فلا تَغْتَرَّ بالزمان، اكْفُفْ كفَّك، واصْرِفْ طَرْفَك، وأكْثِرْ صومَك، وأقْلِلْ نومَك، واشْكُرْ ربَّك، يُحْمَدْ أمْرُك.

وقال: زادُ المسافرِ مُقَدَّمٌ على رَحيله، فأعِدَّ الزادَ تَبْلُغِ المُرادَ.

وقال: إلى متى تَتَمادَى في الغَفْلة؟ كأنك قد أمِنْتَ عَواقبَ المُهْلة، عمرُ اللهو مضَى، وعمرُ الشَّبيبة انْقَضَى، وما حصلْتَ من ربِّك على ثقةٍ بالرِّضا، وقد انْتَهَى بك الأمرُ إلى سنِّ التَّخاذُل، وزمنِ التَّكاسُل، وما حظيتَ بطائل.

وقال: رُوحُك تَخْضَع، وعينُك لا تَدْمَع، وقلبُك لا يَخْشَع، ونفْسُك لا تَشْبَع، وتَظْلِمُ نفسَك وأنت لها تَتَوَجَّع، وتُظْهِرُ الزهدَ في الدنيا وفي المالِ تَطْمَع، وتَطْلُبُ ما ليس لك بحقٍّ وما وجَب عليك من الحقِّ لا تَدْفَع، وتَرُومُ فضلَ ربِّك وللماعون تَمْنَع، وتُعيبُ نفسَك الأمَّارةَ وهي عن اللهو لا تَرْجِع، وتُوقِظُ الغافلين بإنْذارِك وتتَناوَمُ عن سهمك وتَهْجَع، وتَخُصُّ غيرَك بخيرك ونفسَك الفَقيرةَ لا تَنْفَع، وتَحُومُ على الحقِّ وأنت بالباطلِ مُولَع، وتَتَعَثَّرُ في المَضايقِ وطريقُ النجاة مَهْيَع، وتَتَهَجَّمُ على الذنوبِ وفي المُجْرمين تَشْفَع، وتَرْكَنُ إلى دارِ السلامة وأنت بالعَطَبِ مُرَوَّع، وتَحْرِصُ على زيادة الاكتسابِ وحسابُك في كِفْلِ غيرِك يُوضع، وتُظْهِرُ القَناعةَ بالقليلِ وبالكثيرِ لا تَشْبَع، وتُعَمِّرُ الدارَ الفانيةَ ودارُك الباقيةُ خَرابٌ بَلْقَع، وتَسْتَوْطِنُ في منزلِ رَحيلٍ كأنَّك إلى ربِّك لا تَرْجِع، وتَظُنُّ أنك بلا رَقيبٍ وأعمالُك إلى المَراقِبِ تُرْفَع، وتُقْدِمُ على الكبائرِ وعن الصغائرِ تَتَوَرَّع، وتُؤَمِّلُ الغُفْرانَ وأنت عن الذنوب لا تُقْلع، وتَرَى الأهْوالَ مُحيطةً بك وأنت في مَيْدانِ اللَّهْوِ تَرْتَع، وتَسْتَقْبِحُ أفعالَ الجُهَّالِ وبابَ الجهلِ تَقْرَع، وقد آن لك أن تأْنَفَ من التَّعَسُّفِ وعن الدَّنايا تَتَرَفَّع، وقد سار المُخِفُّون وتخَلَّفْتَ فماذا تَتَوَقَّع؟

وقد أورَد له ابنُ الساعي شعراً حسنًا؛ فمنه:

إن سَهِرَت عينُك في طاعةٍ ... فذاك خيرٌ لك من نومِ
أمسُك قد فات بعِلّاتِهِ ... فاستدرِكِ الفائتَ في اليومِ

وله:

إن ربّا هَداك بعدَ ضلالٍ ... سُبُلَ الرُّشدِ مُستَحِقُّ العِبادهْ
فتَعَبَّدْ له تجِدْ منه عِتقًا ... واستَدِمْ فضلَه بطُولِ الزَّهادَهْ

وله:

إذا تعَفَّفتَ عن حَرامِ ... عُوِّضْتَ بالطَّيِّبِ الحَلالِ
فاقْنَعْ تَجِدْ في الحَرامِ حِلًّا ... فضلًا من اللَّهِ ذي الجَلالِ

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

فيها: كانت وَقْعةٌ عظيمةٌ بينَ الأشرفِ موسىٰ بنِ العادلِ وبينَ جَلالِ الدينِ بنِ خُوارَزْم شاه الخُوارَزْميِّ، وكان سببَها أن جَلالَ الدينِ كان قد أخذَ مدينةَ خِلاطَ في العامِ الماضي، وخرَّبها وشرَّد أهلَها، وحارَبه عَلاءُ الدينِ كَيْقُباذ ملكُ الرومِ، وأرْسَل إلى الأشرفِ يَستَحِثُّه على القدومِ عليه ولو جَريدةً وحدَه، فقدم الأشرفُ في طائفةٍ كثيرةٍ من عسكرِ دمشقَ، وانْضاف إليه عسكرُ بلادِ الجَزيرةِ ومَن بقِي من عَسْكرِ خِلاطَ، فكانوا خمسةَ آلافِ مُقاتلٍ صَليبَةً، معهم العُدَّةُ الكاملةُ، والخُيولُ الهائلةُ، فالْتَقَوْا مع جَلالِ الدينِ بأَذْرَبيجانَ، وهو في عشرين ألفَ مُقاتلٍ، فلم يَقُمْ لهم ساعةً واحدةً، ولا صبرَ، بل تَقَهْقَر وانْهَزم واتَّبَعوهم على الأَثَرِ، ولم يَزالوا في أثرِهم إلى مدينةِ خُوَيٍّ، وعاد الأشرفُ إلى مدينةِ خِلاطَ، فوجَدها خاويةً على عُروشِها، فمهَّدها وأطَّدَها، ثم تَصالَح هو وجَلالُ الدينِ، وعاد إلى مُستَقَرِّ مُلْكِه بدمشقَ، حرَسها اللَّهُ تعالى وإياه.

وفيها: تسَلَّم الملكُ الأشرفُ قلعةَ بَعْلَبَكَّ من الملكِ الأمجدِ بَهْرام شاه بعدَ حِصارٍ طَويلٍ، ثم استَخْلَف على دمشقَ أخاه الصالحَ إسماعيلَ، ثم سار إلى الشرقِ بسببِ أن جَلالَ الدينِ الخُوارَزْميَّ استَحْوَذ على بلادِ خِلاطَ، وقتَل من أهلِها خلقًا كثيرًا، ونهَب أموالًا كثيرةً، فالْتَقى معه الأشرفُ رأسًا هائلًا، واقتَتلوا قتالًا عظيمًا، فهزَمه الأشرفُ هزيمةً مُنْكَرةً، وهلَك من الخُوارَزْميةِ خلقٌ كثيرٌ، ودُقَّت البَشائرُ في البلادِ فرَحًا بنُصْرةِ الأشرفِ على الخُوارَزْميةِ، فإنهم كانوا لا يَفْتَحون بلدًا إلا قتَلوا مَن فيه ونهَبوا أموالَه، فكسَرهم اللَّهُ تعالى، وقد كان الأشرفُ رأى النبيَّ ﷺ في المَنامِ قبلَ الوَقْعةِ، وهو يقولُ

له: يا موسى، أنت مَنْصورٌ عليهم. ولما فرَغ مِن كَسْرِهم عاد إلى بلادِ خِلاطَ، فرمَّم شَعَثَها، وأصْلَح ما كان فسَد منها.

ولم يَحُجَّ أحدٌ مِن أهلِ الشامِ في هذه السنةِ، ولا في التي قبلَها، وكذا فيما قبلَها أيضًا، فهذه ثلاثُ سنينَ لم يَسِرْ مِن الشامِ حاجٌّ إلى الحجازِ.

وفيها أخَذَت الفرنجُ جَزيرةَ مَيُورْقَةَ وقتَلوا بها خلقًا، وأسَروا آخَرين، فقدِموا بهم إلى الساحلِ، فاسْتَقْبَلهم المسلمون، فأخْبَروا بما جرَىٰ عليهم مِن الفرنجِ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها مِن الأعْيانِ:

زَيْنُ الأُمَناءِ الشيخُ الصالحُ أبو البَرَكاتِ الحسنُ بنُ محمدِ بنِ الحسنِ بنِ هبةِ اللَّهِ(١)، زَيْنُ الأُمَناءِ، ابنُ عَساكرَ الدِّمَشقيُّ الشافعيُّ، سمِع الحديثَ على عمَّيه الحافظِ أبي القاسمِ والصائنِ وغيرِ واحدٍ، وعُمِّر وتفرَّد بالرِّوايةِ، وجاوَز الثمانين بنحوٍ مِن ثلاثِ سنينَ، وأُقْعِد في آخرِ عمرِه، فكان يُحْمَلُ في مِحَفَّةٍ إلى الجامعِ وإلى دارِ الحديثِ النُّوريَّةِ لإسْماعِ الحديثِ، وانْتَفَع الناسُ به مدةً طويلةً، ولما تُوُفِّي حضَر الناسُ جنازتَه، ودُفِن عندَ أخيه الشيخِ فخرِ الدينِ بنِ عَساكرَ بمقابرِ الصُّوفيةِ. رحِمهما اللَّهُ تعالى.

الشيخُ بيرمُ المارِدِينيُّ، كان صالحًا مُنْقَطِعًا مُحبًّا للعُزْلَةِ عن الناسِ، وكان مُقيمًا بالزَّاويةِ الغَربيةِ مِن الجامعِ، وهي التي يُقالُ لها: الغَزَّاليةُ. وتُعْرَفُ بزاويةِ الدَّوْلَعيِّ وبزاويةِ القُطْبِ النَّيسابوريِّ، وبزاويةِ الشيخِ نصرٍ المَقْدسيِّ. قاله الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامةَ. وكان يومُ جنازتِه يومًا مشهودًا، ودُفِن بسفحِ قاسِيونَ. رحِمه اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة

اسْتَهَلَّت والملكُ الأشرفُ موسى بنُ العادلِ ببلادِ الجَزيرةِ مَشْغولٌ بإصلاحِ ما كان جَلالُ الدينِ الخُوارَزْميُّ قد أفْسَده مِن بلادِه. وقد قدِمَت التَّتارُ في هذه السنةِ إلى الجَزيرةِ وديارِ بكرٍ، فعاثوا بالفَسادِ يمينًا وشمالاً، فقتَلوا ونهَبوا وسبَوْا، على عادتِهم، خذَلهم اللَّهُ تعالى.

وفيها: رُتِّب إمامٌ بمشهدِ أبي بكرٍ مِن جامعِ دمشقَ، وصُلِّيَت فيه الصَّلواتُ الخمسُ.

وفيها: درَّس الشيخُ تَقِيُّ الدِّينِ بنُ الصَّلاحِ الشَّهْرَزُوريُّ الشافعيُّ بالمدرسةِ الشاميةِ الجَوَّانيةِ جوارَ المارَسْتانِ في جُمادىٰ الأولىٰ منها.

وفيها: درَّس الناصحُ بنُ الحَنْبليِّ بالصاحبةِ بسفحِ قاسِيونَ التي أنْشأَتْها الخاتونُ ربيعةُ بنتُ أيوبَ أختُ ستِّ الشَّامِ.

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٢٨٤-٢٨٧).

وفيها: حبَس الملكُ الأشرفُ الشيخَ عليًا الحَريريَّ بقلعة عزَّتا.

وفيها: كان غَلاءٌ شديد بديارِ مصرَ وبلادِ الشام وحلَبَ والجَزيرة بسبَب قلة المياه السَّماوية والأرضية، فكانت هذه السنةُ كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

وذكَر ابنُ الأثيرِ كلامًا طويلاً مَضْمونُه خروجُ طائفةٍ مِن التَّتارِ مرةً أخرى مِن بلادِ ما وراءَ النهرِ، وكان سببَ قُدومِهم هذه السنةَ أن الإسْماعيليةَ كتَبوا إليهم يُخبِرونهم بضعف أمرِ جلالِ الدينِ بنِ خُوارَزْم شاه، وأنه عادَى جميعَ الملوكِ حولَه حتى الخليفةَ، وأنه قد كسَره الأشرفُ بنُ العادل مرتين، وكان جَلالُ الدينِ قد ظهَرت منه أفعالٌ ناقصةٌ تَدُلُّ على قلة عقله، وذلك أنه تُوُفِّي له غُلامٌ خَصيٌّ يقالُ له: قلجٌ. وكان يُحبُّه، فوجَد عليه وَجْدًا عظيمًا بحيث إنه أمَر الأُمراءَ أن يَمْشُوا في جِنازَته، فمشَوْا فَراسخَ إلى تربتِه، وأمَر أهلَ البلدِ أن يَخرُجوا بحُزْنٍ وتَعْدادٍ عليه، فتوانَى بعضُهم في ذلك، فهمَّ بقتلِهم حتى تَشفَّع فيهم بعضُ الأمراءِ، ثم لم يسمَحْ بدفنِ قلجٍ، فكان يُحْمَلُ معه في محَفَّةٍ، وكلما أُحْضِر بينَ يديه طَعامٌ يقولُ: احْمِلوا هذا إلى قلجٍ. فقال له بعضُهم: أيُّها الملكُ، قد مات قلجٌ. فأمَر بضربِ عنقه فقُتِل، فكانوا بعدَ ذلك يقولون: قَبِلَه وهو يُقَبِّلُ الأرضَ ويقولُ: هو الآن أصلَحُ مما كان. يعني أنه مَريضٌ وليس بميتٍ، فيَجِدُ الملكُ راحةً بذلك؛ مِن قلةِ عقله ودينه، قبَّحه اللَّهُ تعالى.

فلما جاءت التَّتارُ اشْتَغَل بهم، وأمَر بدفنِ قلجٍ، وهربَ مِن بينِ أيديهم، وامْتَلأ قلبُه خوفًا منهم، وجعل كلما سار إلى قُطْرٍ لحِقوه إليه، وخرَّبوا ما اجْتازوا به مِن الأقاليمِ والبُلْدانِ، حتى انْتَهَوا إلى الجَزيرةِ، وجاوَزوها إلى سِنْجارَ وماردينَ وآمِدَ، يُفْسِدون ما قدَروا عليه قتْلاً وأسْرًا ونهبًا، وتَمزَّق شملُ جَلالِ الدينِ، وتفرَّق عنه جيشُه، فصاروا شَذَرَ مَذَرَ، وبُدِّلوا بالأمنِ خوفًا، وبالعزِّ ذُلاًّ، وبالاجتماعِ تَفْريقًا، فسبحانَ مَن بيدِه الملكُوتُ! وانْقَطَع خبرُ جَلالِ الدينِ فلا يُدْرَى أين سلَك ولا أين ذهَب، وتَمكَّنت التَّتارُ مِن الناسِ في سائرِ البلادِ لا يَجِدون مَن يَمْنَعُهم ولا مَن يَرْدَعُهم، وألْقَى اللَّهُ تعالى الوَهْنَ والضَّعْفَ في قلوبِ الناسِ منهم، كانوا كثيرًا ما يَقْتُلونَ الناسَ، فيقولُ المسلمُ: لا باللَّه، لا باللَّه. فكانوا يَلْعَبون على الخيلِ، ويُغَنُّون ويُحاكُون الناسَ: لا باللَّه لا باللَّه. وهذه طامَّةٌ عُظْمَى وداهيةٌ كبرى، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وحجَّ الناسُ في هذه السنةِ مِن الشامِ، وكان فيمن خرَجَ الشيخُ تَقيُّ الدينِ أبو عمرِو بنُ الصَّلاحِ، ثم لم يَحُجَّ الناسُ بعدَ هذه السنةِ أيضًا لكثرةِ الحروبِ والخوفِ مِن التَّتَرِ والفرنجِ، فإنا للَّهِ وإنا إليه راجعون.

وفيها: تكامَل بناءُ المدرسة التي بسُوق العَجَم من بغدادَ، المَنسوبة إلى إقبال الشَّرابيِّ، وحضَر الدرسَ بها، وكان يومًا مشهودًا، واجتَمع فيها جميعُ المُدرِّسين والمُفتين ببغدادَ، وعمِل بصَحْنِها قِبابَ الحَلْواء، فحُمِل منها إلى جميع المدارس والرُّبط، ورتَّب فيها خمسةً وعشرين فقيهًا لهم الجَوامكُ الدارَّةُ في كلِّ شهر، والطعامُ في كلِّ يوم والحلواتُ في أوقات المَواسم، والفَواكهُ في زمانها، وخلَع على المُدَرِّس والمُعيدين والفُقهاء يومئذٍ، وكان وقتًا حسنًا، تَقَبَّل اللَّهُ تعالى منه.

وفيها: سارَ الأشرفُ أبو العباس أحمدُ ابنُ القاضي الفاضلِ في الرَّسْلية عن الكامل محمدٍ صاحب مصرَ إلى الخليفة المُستنصر باللَّه ببغدادَ، فأُكرِم وأُعيد مُعَظَّمًا.

وفيها دخَل الملكُ المُظَفَّرُ أبو سعيد كوكُبُرِي ابنُ زَيْن الدين صاحبُ إرْبِلَ إلى بغدادَ، ولم يَكُنْ دخَلَها قطُّ، فتلقَّاه المَوْكِبُ، وشافَهه الخليفةُ بالسلام مرتين في وقتَيْن، وكان ذلك شرفًا له، غبَطه به سائرُ ملوك الآفاق، وسألوا أن يُهاجروا ليَحْصُلَ لهم مثلُ ذلك، فلم يُمكَّنوا لحفظ الثُّغور، ورجَع إلى مملكته مُعَظَّمًا مُكَرَّمًا.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

ابنُ مُعْطي النَّحْويُّ: يحيَى بنُ مُعْطي بن عبد النُّور النحْويُّ، صاحبُ «الألفية» وغيرها من المُصنَّفات النَّحْوية المفيدة، ويُلَقَّبُ بزَيْن الدين، أخَذ عن الكِنْديِّ وغيره، ثم سافَر إلى مصرَ، فكانت وفاتُه بالقاهرة في مُسْتَهَلِّ ذي الحِجَّة من هذه السنة، وشهِد جنازَته الشيخُ شِهابُ الدين أبو شامةَ، وكان قد رحَل إلى مصرَ في هذه السنة، وحكَى أن الملكَ الكاملَ شهِد جنازَته أيضًا، وأنه دُفن قريبًا من قبر المُزَنيِّ بالقَرافة في طريق الشافعيِّ عن يَسْرة المارِّ. رحمه اللَّهُ.

الدَّخْوارُ الطَّبيبُ واقفُ الدَّخْوارية مهذَّبُ الدين عبدُ الرحيم بنُ عليِّ بن حامد، المعروفُ بالدَّخْوار، شيخُ الأطبَّاء بدمشقَ، وقد وقَف دارَه بدرب العَميد بالقرب من الصاغة العَتيقة على الأطبَّاء بدمشقَ المحروسة مدرسةً لهم، وكانت وفاتُه في صفر من هذه السنة، ودُفن بسفح قاسِيونَ، وعلى قبره قُبَّةٌ على أعْمدة في أصل الجبل شرقيِّ الركنية، وقد ابْتُلي بستة أمْراض مُتَعاكسة، منها ريحُ اللَّقْوة، وكان مولدُه سنةَ خمس وستين وخمسمائة، وكان عمرُه ثلاثًا وستين سنةً.

قال ابنُ الأثير: وفيها تُوُفِّي:

القاضي أبو غانم بنُ العَديم الشيخُ الصالحُ، وكان من المُجْتَهِدين في العبادة والرياضة، والعاملين بعلمهم، ولو قال قائلٌ: إنه لم يَكُنْ في زمانه أعبدُ منه. لَكان صادقًا، فرضي اللَّهُ تعالى عنه وأرْضَاه، فإنه من جَماعة شُيوخنا، سمعْنا عليه الحديثَ، وانْتَفَعْنا برؤيته وكلامه.

قال: وفيها أيضًا في الثاني عشرَ من ربيع الأول تُوُفِّي صديقُنا أبو القاسم عبدُ المَجيد بنُ العَجَميِّ

الحَلَبيُّ، وهو وأهلُ بيته مُقَدَّمو السُّنَّة بحلَبَ، وكان رجلاً ذا مُروءةٍ غَزيرةٍ، وخُلُقٍ حسنٍ، وحِلْمٍ وافرٍ ورياسةٍ كثيرةٍ، يُحِبُّ إطعامَ الطعام، وأحَبُّ الناسِ إليه مَن أكَل طعامَه، ويُقَبِّلُ يَدَه، وكان يَلْقَىٰ أضْيافَه بوجهٍ مُنبَسطٍ، ولا يَقْعُدُ عن إيصالِ راحةٍ وقَضاءِ حاجةٍ، فرحمه اللَّهُ تعالىٰ رحمةً واسعةً.

قلتُ: وهذا آخرُ ما وُجِد مِن «الكاملِ في التاريخ» للحافظِ عزِّ الدين أبي الحسنِ عليِّ بنِ محمدِ بنِ الأثيرِ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ عبدِ الكريم بن أبي السَّعادات بن كرمٍ المَوْصليُّ، أحدُ الفُقهاءِ الحَنَفيين، شرَح قطعةً كبيرةً مِن «القُدُوريِّ»، وكتَب الإنْشاءَ لصاحبِها بدرِ الدينِ لُؤْلُؤ، ثم استَقال مِن ذلك، وكان فاضلاً شاعرًا، ومِن شعرِه:

دعُوه كما شاءَ الغَرامُ يَكونُ ... فلستُ وإن خان العُهودَ أخُونُ
ولِينوا له في قولِكم ما استَطَعْتُمُ ... عسى قلبُه القاسي عليَّ يَلينُ
وبثُّوا صَباباتي إليه وكرِّروا ... حَديثي عليه والحديثُ شُجونُ
بنفسي الأُلَىٰ بانوا عن العينِ خُفْيةً ... وحُبُّهُمُ في القلبِ ليس يَبِينُ
وسَلُّوا على العُشّاقِ يومَ تحمَّلوا ... سُيوفًا لها وُطْفُ الجُفونِ جُفونُ

المجدُ البَهْنَسيُّ وزيرُ الملكِ الأشْرف، ثم عزلَه وصادَره، ولما تُوُفِّي دُفِن بتربتِه التي أنْشَأها بسفحِ قاسيونَ، وجعَل كتبَه بها وَقْفًا، وأجْرَىٰ عليها أوْقافًا جيدةً دارَّةً.

جَمالُ الدولة خليلُ بنُ زُوَيْزانَ، رئيسُ قصرِ حَجَّاجٍ، كان كَيِّسًا ذا مُروءةٍ، له صَدَقاتٌ كثيرةٌ، وله زيارةٌ في مَقابرِ الصُّوفيةِ مِن ناحيةِ القِبْلةِ، ودُفِن بتربته عندَ مسجدِ فلوس، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

الملكُ الأمْجَدُ واقفُ المدرسة الأمْجَدية بالشرف.

وفيها: كانت وفاةُ الأمجدِ بَهْرام شاه بن فَرُّخشاه بن شاهنْشاه بن أيوبَ[1] صاحبِ بَعْلَبَكَّ بعدَه لم يَزَلْ حتىٰ قَدِم الأشْرفُ موسىٰ بنُ العادلِ إلىٰ دمشقَ فَملَكها في سنة ستٍّ وعشرين، فانتَزَع مِن يدِه بَعْلَبَكَّ في سنةِ سبعٍ وعشرين، وأسْكَنه عندَه بدمشقَ في دارِ أبيه، فلمَّا كان في شهرِ شَوالٍ مِن هذه السنةِ عدا عليه مَملوكٌ مِن مَماليكه تُرْكيٌّ، فقتَله ليلاً، وكان قد اتَّهَمه بحِياصَةٍ له وحبَسه، فتغَلَّب عليه في بعضِ الليالي فقتَله، وقُتِل المَمْلوكُ بعدَه، ودُفِن الأمْجَدُ في تربتِه التي إلىٰ جانبِ تُرْبةِ أبيه في الشَّرفِ الشَّماليِّ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ. وقد كان شاعرًا فاضلاً، له ديوانُ شعرٍ، وقد أوْرَد له ابنُ الساعي قطعةً جيدةً مِن شعرِه الرائقِ الفائقِ، وترْجَمْتُه في «طَبَقاتِ الشافعية»، ولم يَذْكُرْه أبو شامةَ

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٣٣٠).

في «الذَّيْلِ»، وهذا عَجيبٌ منه. ومما أوْرَد له ابنُ الساعي قولُه في شابٍّ رآه يَقْطَعُ قُضْبانَ بانٍ، فأنشأ على البَديهةِ يقولُ:

مَن لي بأهْيفَ قال حينَ عَتَبْتُه ... في قَطعِ كلِّ قضيبِ بانٍ رائقِ
تحكي شمائلَه الرَّشاءُ إذا انثنى ... ريَّانَ بينَ جداولٍ وحدائقِ
سرقَتْ غصونُ البانِ لينَ شمائلي ... فقطعتُها والقطعُ حدُّ السارقِ

ومن شعره قولُه:

يُؤرِّقُني حنينٌ وادِّكارُ ... وقد خلَتِ المرابعُ والدِّيارُ
تناءَى الظَّاعنونَ ولي فؤادٌ ... يسيرُ مع الهوادجِ حيثُ ساروا
حنينٌ مثلما شاءَ التَّنائي ... وشوقٌ كلَّما بَعُدَ المزارُ
ولَيْلي بَعْدَ بينهمُ طويلٌ ... فأينَ مَضَتْ ليالِيَّ القِصارُ
وقد حكَم السُّهادُ على جُفوني ... تساوَى الليلُ عندي والنَّهارُ
سُهادي بعدَ نأيِهمُ كثيرٌ ... ونومي بعدما رحلوا غِرارُ
فمنْ ذا يستعيرُ لنا عُيونًا ... تنامُ وهل ترى عينًا تُعَارُ
فلا ليلي له صبحٌ منيرٌ ... ولا وَجْدي يقالُ له عِثارُ
وكم من قائلٍ والحيُّ غادٍ ... يُحجِّبُ ظُعْنَه النَّقْعُ المثارُ
وُقوفُك في الدِّيارِ وأنتَ حيٌّ ... وقد رحَل الخليطُ عليك عارُ

وله:

كم يذهبُ هذا العُمْرُ في الخُسرانِ ... ما أغفَلَني فيه وما أنساني
ضيَّعتُ زماني كلَّه في لعبٍ ... يا عُمرُ فهل بعدَك عمرٌ ثاني

وقد رآه بعضُهم في المَنامِ فقال له: ما فعَل اللَّهُ بك؟ فقال:

كنتُ مِن ذنبي على وَجَلِ ... زال عنِّي ذلكَ الوَجَلُ
أمِنَتْ نَفْسي بَوائقَها ... عِشْتُ لما مِتُّ يا رَجُلُ

رحمه اللَّهُ، وعفا عنه.

جَلالُ الدين تكش، وقيل: محمودُ بنُ عَلاء الدين خُوارَزْم شاه محمد بن تكش الخُوارَزْميُّ[1]، وهم مِن سُلالةِ طاهرِ بنِ الحسينِ، وتكِش جدُّهم هو الذي أزال دولةَ السَّلْجوقيَّة. كانت التَّتارُ قد قهَروا أباه حتى شرَّدوه في البلادِ، فمات ببعضِ جَزائرِ البحرِ، ثم ساقوا وراءَ جَلالِ الدينِ هذا حتى

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٣٢٦-٣٢٩).

مزَّقوا عَساكرَه شَذَرَ مَذَرَ، وتفرَّقوا عنه أيْدي سَبَا، وانفَرد هو وحدَه، فلقيه فلاَّحٌ من قرية بأرض مَيَّافارقين، فأنكَره لِمَا عليه من الجَواهر والذهب، وعلى فرسه، فقال له: مَن أنت؟ فقال: أنا ملكُ الخُوارَزْمية. وكانوا قد قتَلوا للفلاح أخًا، فأنزَله وأظهَر إكرامَه، فلما نام قتَله بفأسٍ كانت عندَه، وأخَذ ما عليه، فبلَغ الخبرُ إلى شهاب الدين غازي بن العادل، صاحب مَيَّافارقين فاستَدْعَى بالفلاح، فأخَذ ما كان عليه من الجَواهر والحُلِيِّ، وأخَذ الفرسَ أيضًا، وكان الملكُ الأشرفُ يقولُ: هو سدٌّ بيننا وبينَ التَّتار، كما أن السدَّ بيننا وبينَ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

فيها: عُزِل القاضيان بدمشقَ؛ شمسُ الدين ابنُ الخُوَيِّيِّ، وشمسُ الدين ابنُ سَنِيِّ الدولة، ووليِ قَضاءَ القُضاة عمادُ الدين ابنُ الحَرَسْتانيِّ، ثم عُزِل في سنة إحدى وثلاثين، وأُعيد شمسُ الدين ابنُ سَنِيِّ الدولة، كما سيأتي.

وفي سابعَ عشَرَ شوَّالِها عزَل الخليفةُ المُستَنصِرُ وزيرَه مُؤَيَّدَ الدين محمدَ بنَ محمد بن عبد الكريم القُمِّيَّ، وقبَض عليه وعلى أخيه حسنٍ وابنه فخرِ الدين أحمدَ بن محمد القُمِّيِّ وأصحابِهم وحُبِسوا، واستَوْزَر الخليفةُ مكانَه أُستاذَ الدار شمسَ الدين أبا الأزهرِ أحمدَ بنَ محمد بن الناقد، وخلَع عليه خِلْعةً سَنِيَّةً، وفرح الناسُ بذلك.

وقد أقبَلَت طائفةٌ من التَّتار، فوصَلوا إلى شَهْرَزُورَ، فندَب الخليفةُ صاحبَ إرْبِلَ مُظَفَّرَ الدين كُوكُبُرِي بن زَيْن الدين، وأضاف إليه عساكرَ من عنده، فساروا نحوَهم، فهربَت منهم التَّتارُ، ولله الحمدُ، وأقاموا في مُقابَلتِهم مدةَ شهورٍ، ثم تمرَّض مُظَفَّرُ الدين، وعاد إلى بلده إرْبِلَ، وتراجَعَت العساكرُ إلى بلادها.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

ابنُ نُقْطَةَ الحافظُ: محمدُ بنُ عبد الغنيِّ بن أبي بكر البَغْداديُّ، أبو بكر بنُ نُقْطةَ، الحافظُ المُحَدِّثُ الفاضلُ[1]، صاحبُ الكتاب النافع المُسَمَّى بـ«التَّقْييد» في تراجم رُواة الكتب والمَشاهير من المُحَدِّثين، وكان أبوه فَقيهًا فقيرًا مُنْقطِعًا في بعض مساجد بغدادَ، يُؤْثِرُ أصحابَه بما يَحْصُلُ له، ونشَأ ولدُه هذا، فعُني بعلم الحديث وسماعه والرِّحْلة فيه إلى الآفاق شرقًا وغربًا، حتى برَز فيه على الأقْران، وفاق أهلَ ذلك الزمان والأوان، وُلد سنةَ تسع وسبعين وخمسمائة، وتُوُفِّي يومَ الجمعة الثاني والعشرين من صفر من هذه السنة، رحمهم اللهُ تعالى.

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٣٤٧-٣٤٩).

الجمال عبدُ الله بنُ الحافظ عبدُ الغنيِّ المقدسيُّ، كان فاضلاً كريمًا حييًا، سمع الكثيرَ، ثم خالط الملوكَ وأبناءَ الدُّنيا فتغيرت أحوالُه ومات ببستانِ ابن شُكرٍ عند الصالح إسماعيلَ بن العادل وهو الذي كفَّنه، ودُفن بسفح قاسيون، رحمه الله تعالى.

أبو عليٍّ الحسنُ بنُ أبي بكر المُبارَك بن أبي عبد اللَّه محمد بن يحيى بن المُسَلَّم الزَّبيديُّ ثم البغداديُّ، كان شيخًا صالحًا فَقيهًا حَنَفيًا فاضلاً، ذا فُنونٍ كثيرة؛ من ذلك علمُ الفَرائضِ والعَروضِ، وله فيه أُرْجُوزةٌ حسنةٌ، انْتَخَب منها ابنُ الساعي من كلِّ بحرٍ بيتَيْن، وسرَد ذلك في «تاريخه».

أبو الفتح مسعودُ بنُ إسماعيلَ بن عليِّ بن موسى السَّلَماسيُّ، فَقيهٌ أديبٌ شاعرٌ، له تَصانيفُ، وقد شرَح «المَقامات» و«الجُمَلَ» في النحو، وله خُطَبٌ وأشعارٌ حسنةٌ، رحمه اللَّهُ تعالى.

أبو بكر محمدُ بنُ عبد الوهَّاب بن عبد اللَّه الأنصاريُّ فخرُ الدين بنُ الشِّيرَجيِّ الدمشقيُّ، أحدُ المُعَدِّلين بها، وُلد سنةَ تسعٍ وأربعين وخمسمائةٍ، وسمع الحديثَ، وكان يَلِي ديوانَ الخاتون ستِّ الشام بنت أيوبَ، وفوِّضَت إليه أمْرَ أوقافها.

قال السِّبْطُ: وكان ثقةً أمينًا كيِّسًا مُتواضعًا. قال: وقد وزَر ولدُه شَرَفُ الدين للناصرِ داودَ مدةً يَسيرةً، وكانت وفاةُ فخرِ الدين في يوم عيدِ الأضحَىٰ، ودُفن بمَقابر باب الصغيرِ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ وعفا عنه.

حُسامُ بنُ غُزِّي بن يونُسَ، عمادُ الدين أبو المَناقب المَحَلِّيُّ المصْريُّ ثم الدِّمشقيُّ، كان شيخًا صالحًا فاضلاً فَقيهًا شافعيًّا حسَنَ المُحاضَرة، وله أشعارٌ حسنةٌ.

قال أبو شامةَ: وله في «مُعْجَم القُوصي» ترجمةٌ حسنةٌ، وذكَر أنه تُوُفِّي عاشرَ ربيعِ الآخرِ، ودُفن بمَقابرِ الصُّوفية.

قال السِّبْطُ: وكان مُقيمًا بالمدرسة الأمينية، وكان لا يأكُلُ لأحدٍ شيئًا ولا للسلطان، بل إذا حضَر طعامًا كان معه في كُمِّه شيءٌ يأكُله، وكان لا يزالُ معه ألفُ دينارٍ على وسَطه. وحكَىٰ عنه قال: خلَع عليَّ الملكُ العادلُ ليلةً طَيْلَسانًا، فلما خرَجْتُ مَشَىٰ بينَ يديَّ نَفَّاطٌ يَحْسَبُني القاضيَ، فلما وصَلْتُ إلى باب البريد عندَ دارِ سيف خَلَعْتُ الطَّيْلَسانَ، وجعَلْتُه في كُمِّي، وتبَاطَأْتُ في المشي، فالْتَفَت فلم يَرَ وراءَه أحدًا، فقال لي: أين القاضي؟ فأشَرْتُ إلى ناحية النُّورية، وقلتُ: ذهَب إلى داره. فلما أسْرَع إلى ناحيةِ النُّورية هَرْوَلْتُ إلى المدرسةِ الأمينية، واسْتَرَحْتُ منه.

قال ابنُ الساعي: كان مولدُه سنةَ ستين وخمسمائةٍ، وخلَّف أموالاً كثيرةً، ورِثَتْها عَصَبَتُه. قال: وكانت له مَعْرِفةٌ حسنةٌ بالأخبارِ والتَّواريخِ وأيامِ الناسِ، مع دينٍ وصَلاحٍ ووَرَعٍ، وأوْرَد له من شعرِه

قولُه:

قيل لي مَن هَويتَ قد عبَثَ الشَّعْـ ـرُ بخدَّيه قلتُ ما ذاك عارُهْ
جَمْرُ خدَّيه أحرقتْ عنبرَ الخا لِ فمن ذلك الدُّخَانِ عِذارُهْ

وقولُه:

شَوقي إليكمْ دونَ أشواقِكم لكنَّه لابدَّ ما يُشْرَحُ
لأنني عن قلبِكمْ غائبٌ وأنتمُ في القلبِ لم تَبْرَحُوا

أبو عبد اللَّه محمدُ بنُ عليِّ بن محمد بن الجاروِد المارانيُّ، الفَقيهُ الشافعيُّ، أحدُ الفُضلاء، ولِي القَضاءَ بإِرْبِلَ، وكان ظريفًا خَليعًا، وكانَ مِن مَحاسنِ الأيامِ، وله أشعارٌ رائقةٌ ومَعانٍ فائقةٌ، فمِن شِعْرِه قولُه:

مَشيبٌ أتَى وشبابٌ رحَلْ فحَلَّ العَناءُ به حيث حلْ
وعمرٌ تَقَضَّى بلا طاعةٍ فويحك يا نفسُ ما ذا الزَّلَلْ
وذَنبُك جَمٌّ ألا فارْجِعيْ وعُودي فقد حانَ وقتُ الأجَلْ
ودِيني الإلهَ ولا تُقصِري ولا يَخْدَعَنَّك طولُ الأمَلْ
فما لكِ غيرُ التُّقَى مُسْتَعَدْ ولا صاحبٌ غيرُ حُسنِ العملْ

أبو الثَّناء محمودُ بنُ زاكي بن عليِّ بن يحيى الطائيُّ الرَّقِّيُّ، نَزيلُ إرْبلَ، ووَلِي النَّظرَ بها للملكِ مُظَفَّرِ الدينِ، وكان شيخًا أديبًا فاضلًا، ومِن شعرِه قولُه:

وأهْيفُ ما الخَطِّيُّ إلا قَوامُهُ وما الغُصنُ إلا ما يُثَنِّيه لِينُهُ
وما الدِّعْصُ إلا ما تَحَمَّل خَصْرُهُ وما النَّبلُ إلا ما تَرِيشُ جُفُونُهُ
وما الخمرُ إلا ما يُرَوِّقُ ثَغْرُهُ وما السِّحْرُ إلا ما تُكِنُّ عيونُهُ
وما الحسنُ إلا كُلُّه فمَنِ الذي إذا ما رآه لا يَزيدُ جنونُهُ

ابنُ مُعْطِي النَّحْويُّ يحيى، ترْجَمه أبو شامةَ في السنةِ الماضيةِ، وهو أضْبَطُ؛ لأنه شهد جنازتَه بمصرَ، وأما ابنُ الساعي فإنه ذكَره في هذه السنةِ، وقال: إنه كان حَظِيًّا عندَ الكاملِ محمدٍ صاحبِ مصرَ، وإنه كان قد نظَم أرجوزةً في القراءاتِ السبعِ، ونظَم ألفاظَ «الجَمْهرةِ»، وكان قد عزَم على نَظْمِ «صِحاحِ الجَوْهريِّ».

* * *

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة

فيها: باشر خَطابةَ بغدادَ ونقابةَ العباسيِّين العَدْلُ مجدُ الدين أبو القاسم هبةُ اللَّهِ بنُ عبدِ اللَّهِ المَنْصوريُّ، وخُلع عليه خِلْعةٌ سَنِيَّةٌ، وكان فاضلاً قد صحب الفُقراءَ والصُّوفيةَ، وتَزَهَّدَ بُرْهةً من الزمان، فلما دُعي إلى هذا الأمر أجاب سريعًا، وأقبلت عليه الدنيا بزهرتها وخدمه الغلمان الأتراكُ ولبس لباسَ المترفين وقد عاتَبه بعضُ تَلامذته بقَصيدةٍ طويلة، وعنَّفه على ما صار إليه، وقد سرَدها ابنُ الساعي بطُولِها في «تاريخه».

وفيها: سار القاضي مُحْيي الدينِ يوسُفُ ابنُ الشيخ جمالِ الدينِ أبي الفرج ابنِ الجوزيِّ في الرِّسْلِيةِ من الخليفة إلى الكاملِ محمدٍ صاحبِ مصرَ، ومعه كتابٌ هائلٌ فيه تَقْليدُه المُلْكَ، وفيه أوامرُ كثيرةٌ مَليحةٌ من إنشاءِ الوزيرِ نَصيرِ الدينِ أحمدَ بنِ الناقد، سرَده ابنُ الساعي أيضًا بكَماله. وقد كان الكاملُ مُخَيِّمًا بظاهرِ آمِدَ من أعمالِ الجزيرة، قد افْتَتَحها بعدَ حصارٍ طويلٍ، وهو مسرورٌ بما نال من مُلْكِها.

وفيها: فُتِحَت دارُ الضِّيافةِ ببغدادَ للحَجيج حينَ قدموا من حجِّهم، وأُجْرِيَت عليهم النَّفقاتُ والكَساوي والصِّلاتُ. وللَّه الحمدُ والمنَّةُ.

وفيها: سارَت العساكرُ المُسْتَنْصِريةُ صُحْبةَ الأميرِ شرفِ الدينِ أبي الفَضائلِ إقبالٍ الخاصِّ المُسْتَنْصريِّ إلى مدينة إرْبِلَ وأعمالِها، وذلك لمَرَضِ مَلِكِها مُظَفَّرِ الدينِ كُوكُبُرِي بنِ زَيْنِ الدينِ، وأنه ليس له من بعده من يَمْلِكُ البلادَ، فحينَ وصلها الجيشُ منَعَه أهلُ البلد، فحاصَروه حتى افْتَتَحوه عَنْوةً في السابعَ عشَرَ من شوالٍ في هذه السنة، وجاءَت البَشائرُ بذلك، فضُرِبت الطُّبولُ ببغدادَ بسبب ذلك، وفرِح أهلُها، وكُتِب التَّقليدُ عليها لإقبالٍ المذكورِ، فرتَّب فيها المَناصبَ، وسار فيها سيرةً جيدةً، وامْتَدَح الشُّعراءُ هذا الفتحَ من حيثُ هو، وكذلك مدَحوا فاتحَها إقبالاً ومن أحسنِ ما قال بعضُهم:

يا يومَ سابعَ عشْرَ شوالٍ الذي ... رُزِق السعادةَ أوَّلاً وأخيرا

هُنِّيتَ فيه بفتحِ إرْبِلَ مثلَما ... هُنِّيتَ فيه وقد جَلَسْتَ وزيرا

يعني أن الوزيرَ نَصيرَ الدين ابن العَلْقَميِّ، كان قد وزَر في مثل هذا اليوم من العام الماضي.

وفي مُسْتَهَلِّ رمضانَ من هذه السنة شُرِع في عِمارة دارِ الحديث الأشْرَفية بدمشقَ، وكانت قبلَ ذلك دارًا للأميرِ قايمازَ، وبها حمامٌ فهُدِمَت، وبُنِيَت الدارُ عوَضَها.

وقد ذكَر السِّبْطُ في هذه السنة أن في ليلة النصف من شعبانَ فُتِحَت دارُ الحديث الأشْرَفيةُ المُجاورةُ لقلعة دمشقَ، وأمْلَى بها الشيخُ تَقِيُّ الدين ابنُ الصلاح الحديثَ، ووقَف عليها الأشْرَفُ الأوقافَ، وبها نَعْلُ النبيِّ ﷺ. قال: وسمع الأشْرَفُ «صحيحَ البخاريِّ» في هذه السنة على الزَّبِيديِّ. قلتُ: وكذا سمعوا عليه بالديارِ وبالصالحية.

قال: وفيها فتح الكاملُ آمِدَ وحصنَ كَيْفَا، ووجَد عندَ مَلِكِها خمسَمائة حُرَّةٍ للفراش، فعذَّبه الأشرفُ عذابًا أليمًا.

قال: وفيها قصَد صاحبُ ماردينَ وجيشُ بلادِ الرومِ الجَزيرةَ، فقتَلوا وسبَوْا، وفعَلوا ما لم يَفْعَلْه التَّتارُ بالمسلمين.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من المَشاهير:

أبو القاسم عليُّ ابنُ الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي[1] كان شيخًا ظريفًا لطيفًا، سمع الكثيرَ، وعمِل صناعةَ الوَعْظ مدةً، ثم ترَك ذلك، وكان يَحْفَظُ شيئًا كثيرًا من الأخبارِ والنَّوادرِ والأشعارِ، وُلِد سنةَ إحدَىٰ وخمسين وخمسمائة، وكانت وفاتُه في هذه السنة، وله تسعٌ وسبعون سنةً.

وقد ذكَر السِّبْطُ وفاةَ الوزيرِ صَفِيِّ الدينِ عبدِ اللَّهِ بنِ عليِّ بنِ شُكْرٍ في هذه السنة، وأثْنَىٰ عليه وعلىٰ مَحَبتِه للعلمِ وأهلِه، وأن له مُصَنَّفًا سماه «البَصائرَ»، وأنه تغَضَّب عليه العادلُ، ثم ترَضَّاه الكاملُ، وأعاده إلىٰ وِزارتِه وحُرْمتِه، ودُفِن بمدرستِه المشهورةِ بمصرَ. وذكَر أن أصلَه من قريةٍ يقالُ لها: دَمِيرَةُ، بمصرَ.

الملكُ ناصرُ الدينِ محمدُ ابنُ عزِّ الدينِ مسعودِ ابنِ نُورِ الدينِ أرْسَلان شاه ابنِ قُطْبِ الدينِ مَوْدودِ ابنِ عمادِ الدينِ زَنْكي آقْسُنْقُرَ، صاحبُ الموصلِ، كان مولدُه في سنةِ ثلاثَ عشْرةَ وستِّمائة، وقد أقامَه بدرُ الدينِ لؤلؤٌ صورةً حتىٰ تمكَّن أمرُه، وقَوِيَتْ شوكتُه، ثم حجَر عليه، فكان لا يَصِلُ إلىٰ أحدٍ من الجَواري ولا شيءٍ من السَّراري، حتىٰ لا يُعْقِبَ، وضيَّق عليه في الطعامِ والشرابِ، فلمَّا تُوُفِّيَ جدُّه لأمِّه مُظَفَّرُ الدينِ كُوكُبُرِىٰ صاحبُ إرْبِلَ، منَعه حينَئذٍ من الطعامِ والشرابِ ثلاثةَ عشَرَ يومًا، حتىٰ مات كَمَدًا وجُوعًا وعَطَشًا، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ، وكان من أحسنِ الناسِ صُورةً، وهو آخرُ ملوكِ المَوْصِلِ من البيتِ الأتابَكيِّ.

القاضي شرفُ الدينِ إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ أحدُ مَشايخِ الحَنَفيةِ، وله مُصَنَّفاتٌ في الفَرائضِ وغيرِها، وهو ابنُ خالةِ القاضي شمسِ الدينِ ابنِ الشِّيرازيِّ الشافعيِّ، وكلاهما كان يَنوبُ عن ابنِ الزَّكيِّ وابنِ الحَرَسْتانيِّ، وكان يُدَرِّسُ بالطَّرْخانيةِ، وبها مَسْكَنُه، فلما أرْسَل إليه المُعَظَّمُ أن يُفْتيَ بإباحةِ نَبيذِ التمرِ وماءِ الرُّمَّانِ امْتَنَع من ذلك، وقال: أنا علىٰ مذهبِ محمدِ بنِ الحسنِ في ذلك، والروايةُ عن أبي حَنيفةَ شاذَّةٌ، ولا يَصِحُّ حديثُ ابنِ مسعودٍ في ذلك، ولا الأثرُ عن عمرَ أيضًا. فغضِب عليه المُعَظَّمُ، وعزَله عن التَّدْريسِ، وولَّاه لتلميذِه الزَّيْنِ بنِ العَتَّالِ، وأقام الشيخُ بمنزلِه حتىٰ مات، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ.

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٣٥٢-٣٥٣).

قال أبو شامة: وفي هذه السنة تُوُفِّي جماعةٌ من السَّلاطين؛ منهم المُغيثُ بنُ المُغيث بن العادل، والعزيزُ عثمانُ بنُ العادل، ومُظَفَّرُ الدين صاحبُ إرْبِلَ وغيرُهم.

قلتُ: أما صاحبُ إرْبِلَ فهو: الملكُ المُظَفَّرُ أبو سعيد كُوكُبُرِى بنُ زَيْن الدين عليِّ بن بُكْتُكين أحدُ الأجْواد والسادات الكُبَراء والملوك الأمجاد، له آثارٌ حسَنةٌ، وقد عمَّر الجامعَ المُظَفَّرِيَّ بسفح قاسيونَ، وكان قد همَّ بسياقة الماء إليه من ماء بَرْزَةَ، فمنعَه المُعَظَّمُ من ذلك، واعْتَلَّ بأنه قد يَمُرُّ على مقابر المسلمين بالسُّفوح، وكان يَعْمَلُ المَوْلدَ الشريفَ في ربيع الأول، ويَحْتفلُ به احْتفالاً هائلاً، وكان مع ذلك شهْمًا شُجاعًا بطلاً عاقلاً عالمًا عادلاً، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

وقد صنَّف الشيخُ أبو الخَطَّاب بنُ دِحْيَةَ له مجلدًا في المولد النبويِّ سمَّاه «التَّنْويرَ في مولد السراج المنير»، فأجازه على ذلك بألف دينار. وقد طالت مدتُه في المُلْك في زمان الدولة الصَّلاحية، وقد كان مُحاصِرًا مدينةَ عَكَّا، وإلى هذه السنة، محمودَ السِّيرة والسَّريرة.

قال السِّبْطُ: حكَى بعضُ مَن حضَر سِماطَ المُظَفَّر في بعض المَوالد أنه مَدَّ في ذلك السِّماط خمسةَ آلاف رأس شَوِيٍّ، وعشَرةَ آلاف دَجاجة، ومائةَ ألف زُبْدِيَّة، وثلاثين ألفَ صَحْن حَلْوَىٰ. قال: وكان يَحْضُرُ عندَه في المولد أعْيانُ العلماء والصُّوفية، فيَخْلَعُ عليهم، ويُطلقُ لهم، ويَعْمَلُ للصُّوفية سَماعًا من الظهر إلى الفجر، ويَرْقُصُ معهم بنفسه، وكانت له دارُ ضِيافة للوافدين من أيِّ جهة على أيِّ صفة، وكانت صدَقاتُه في جميع القُرَب والطاعات على الحرمَيْن وغيرهما، ويَسْتَفِكُّ من الفرنج في كلِّ سنة خلقًا من الأُسارىٰ، حتى قيل: إن جملةَ مَن استَفَكَّ من أيديهم ستون ألفَ أسير. قالت زوجتُه ربيعةُ خاتون بنتُ أيوبَ - وقد زوَّجه إياها أخوها صلاحُ الدين، لَمَّا كان معه على عَكَّا - قالت: كان قميصُه لا يُساوي خمسةَ دَراهمَ من خام، فعاتَبْتُه في ذلك فقال: لُبْسي ثوبًا بخمسة، وأتَصدَّقُ بالباقي خيرٌ من أن ألْبَسَ ثوبًا مُثَمَّنًا، وأدَعَ الفقيرَ والمِسْكينَ. وكان يَصْرِفُ على المولد في كلِّ سنة ثلاثَمائة ألف دينار، وعلى دار الضِّيافة في كلِّ سنة مائةَ ألف دينار، وفي ثمن الأُسارىٰ في كلِّ سنة مائتي ألف دينار، وعلى الحَرَمَيْن والمياه بدَرْب الحجاز ثلاثين ألفَ دينار، سوى صدَقات السِّرِّ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ، وكانت وفاتُه بقلعة إرْبِلَ، وأوْصَى أن يُحْمَلَ إلى مكةَ، فلم يَتَّفِقْ، فدُفِن بمشهد عليٍّ.

والملكُ العزيزُ عثمانُ بنُ العادل، وهو شَقيقُ المُعَظَّم، كان صاحبَ بانياسَ وتلك الحُصون التي هنالك، وهو الذي بنَى الصُّبَيْبَةَ، وكان عاقلاً قليلَ الكلام، مُطيعًا لأخيه المُعَظَّم، ودُفِن عندَه. وكانت وفاتُه يومَ الاثنين عاشرَ رمضانَ بِبُسْتانه الناعمة من بيت لِهْيَا، سامَحَه اللَّهُ تعالىٰ.

ابنُ عُنَيْن الشاعرُ، أبو المَحاسن محمدُ بنُ نَصر اللَّه بن مكارم بن الحسن بن عليِّ بن محمد بن غالب الأنصاريُّ، المعروفُ بابن عُنَيْن، قال ابنُ الساعي: أصلُه من الكوفة، ووُلِد بدمشقَ ونشَأ بها، وسافَرَ

عنها سنين، فجاب الأقْطارَ والبلادَ شرقًا وغربًا، ودخَل الجَزيرةَ وبلادَ الرومِ والعراقَ وخُراسانَ وما وراءَ النهرِ والهندَ واليمنَ والحِجازَ ومصرَ وبغدادَ، ومدَح أكثرَ أهلِ هذه البلادِ، وحصَّل أمْوالاً جَزيلةً، وكان ظَريفًا شاعرًا مُطَبِّقًا مشهورًا، حسنَ الأخلاقِ، جَميلَ المُعاشَرةِ. وقد رجَع إلىٰ بلدِه دمشقَ، فكان بها حتىٰ مات في هذه السنةِ، في قولِ ابنِ الساعي. وأمَّا السِّبْطُ وغيرُه فإنهم أرَّخوا وفاتَه في سنةِ ثلاثٍ وثلاثين، وقد قيل: إنه مات في سنةِ إحدىٰ وثلاثين. فاللَّهُ أعلمُ. والمَشهورُ أن أصلَه مِن حَوْرانَ مِن مدينةِ زُرْعَ، وكانت إقامتُه بدمشقَ في الجَزيرةِ قِبليَّ الجامعِ، وكان هَجَّاءً، له قُدرةٌ علىٰ ذلك، وصنَّف كتابًا سمَّاه «مِقْراضَ الأعْراضِ»، يَشْتَمِلُ علىٰ نحوٍ مِن خمسِمائةِ بيتٍ، قلَّ مَن سلِم مِن الدَّماشِقَةِ مِن شرِّه، ولا الملكُ صلاحُ الدينِ ولا أخوه العادلُ، وقد كان يُزَنُّ بتركِ الصلواتِ المكتوبةِ. فاللَّهُ أعلمُ.

وقد نفاه الملكُ الناصرُ صلاحُ الدينِ إلىٰ الهندِ، فامْتَدَح ملوكَها، وحصَّل أموالاً جَزيلةً، وصار إلىٰ اليمنِ، فيُقالُ: إنه وزَر لبعضِ ملوكِها، ثم عاد في أيامِ العادلِ إلىٰ دمشقَ، ولما ملَك المُعَظَّمُ استَوْزَره، فأساء السِّيرةَ، واسْتقال هو مِن تِلْقاءِ نفسِه فعزَله، وكان قد كتَب إلىٰ الدَّماشِقةِ مِن بلادِ الهندِ:

فعَلامَ أبْعَدتُمْ أخا ثقةٍ ... لم يَجْتَرِمْ ذنبًا ولا سَرَقا
انفُوا المُؤَذِّنَ مِن بلادِكمُ ... إن كان يُنفَى كلُّ مَن صَدَقا

ومما هجا به الملكَ الناصرَ صلاحَ الدينِ، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ:

سلطانُنا أعْرَجٌ وكاتبُه ... ذُو عَمَشٍ والوزيرُ مُنحدِبُ
والدَّوْلَعيُّ الخطيبُ مُعْتَكِفٌ ... وهْو على قِشْرِ بيضةٍ يَثِبُ
ولابنِ باقا وعْظٌ يَغُرُّ به النـ ... ـاسَ وعبدُ اللَّطيفِ مُحْتَسِبُ
وصاحبُ الأمرِ خُلْقُه شَرِسٌ ... وعارِضُ الجيشِ داؤُه عَجَبُ

وقال في الملكِ العادلِ سيفِ الدينِ، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ:

إن سلطانَنا الذي نَرْتَجِيه ... واسعُ المالِ ضيِّقُ الإنْفاقِ
هو سيفٌ كما يقالُ ولكنْ ... قاطعٌ للرُّسومِ والأرْزاقِ

وقد حضَر مرةً مجلسَ الفخرِ الرازيِّ بخُراسانَ وهو علىٰ المنبرِ يَعظُ الناسَ، فجاءت حَمامةٌ خلفَها جارحٌ، فألْقَت نفسَها علىٰ الفخرِ الرازيِّ كالمُسْتَجِيرةِ به، فأنْشَأ ابنُ عُنَيْنٍ يقولُ:

جاءت سليمانَ الزمانِ حمامةٌ ... والموتُ يَلْمَعُ مِن جَناحَيْ خاطفِ
قَرِمٌ لَواه الجوعُ حتى ظِلُّه ... بإزائه يَجْري بقلبٍ واجفِ
مَن أعْلَمَ الوَرْقاءَ أن مَحَلَّكُمْ ... حَرَمٌ وأنك مَلجَأٌ للخائفِ

الشيخُ شهابُ الدين السُّهْرَوَرْديُّ[١]، صاحبُ «عَوارف المَعارف»، عمرُ بنُ محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عَمُّوْيَه، واسمُه عبدُ اللّه البَكْريُّ البغداديُّ، شهابُ الدينِ أبو حَفْصٍ السُّهْرَوَرْديُّ، شيخُ الصُّوفيةِ ببغدادَ، وكان من كبارِ الصالحين وسادات المسلمين، وتردَّد في الرَّسْليةِ بينَ الخُلفاء والملوك مراراً، وحصلَت له أموالٌ جَزيلةٌ، ففرَّقها بينَ الفُقراءِ والمُحتاجين، وقد حجَّ مرةً وفي صُحْبته خلقٌ من الفقراءِ لا يَعْلَمُهم إلا اللّهُ، عز وجل، وكانت فيه مُروءة وإغاثةٌ للمَلْهوفين وإعانةٌ للمحتاجين، وأمرٌ بمعروفٍ ونَهْيٌ عن منكرٍ، وكان يَعظُ وعليه ثيابُ البِذْلةِ قال مرةً هذا البيتَ:

ما في الصحابِ أخو وَجْدٍ نُطارِحُه ... حديثَ نَجْدٍ ولا صَبٌّ نُجاريه

وجعل يُكَرِّرُه ويَتواجَدُ، فقام شابٌّ - عليه قَباءٌ وكَلُّوتَةٌ - من الحاضرين فقال: يا شيخُ، كم تَشْطَحُ وتَتَنَقصُ بالقوم، واللّهِ إن فيهم مَن لا يَرْضَى أن يُجاريَك، ولا يصلُ فَهْمُك إلى ما يقولُ؟! هلا أنشدْتَ:

ما في الصِّحابِ وقد سارت حُمُولُهُمُ ... إلا مُحبٌّ له في الركبِ مَحْبُوبُ
كأنما يُوسفٌ في كلِّ راحلةٍ ... والحَيُّ في كلِّ بَيْتٍ منه يَعْقُوبُ

فصاح الشيخُ، ونزَل عن المنبرِ، وقصَد الشابَّ ليعتذرَ إليه فلَم يَجدْه، ووجَد مكانَه حُفْرَةً فيها دمٌ كثيرٌ من كثرةِ ما كان يَفْحَصُ برِجْلَيْه عند إنشادِ الشيخِ البيتَ.

وقد ذكَر ابنُ خَلِّكانَ أشياءَ كثيرةً من أناشيدِه، وأثنَى عليه خيراً، وأنه تُوُفِّي في هذه السنةِ وله ثلاثٌ وتسعون سنةً، رحمه اللّهُ تعالى.

ابنُ الأثيرِ مُصَنِّفُ «الغابة» و«الكامل»[٢]: هو الإمامُ العَلامةُ عزُّ الدينِ أبو الحسنِ عليُّ بنُ أبي الكرمِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ عبدِ الكريمِ بنِ عبدِ الواحدِ الشَّيْبانيُّ الجَزَريُّ المَوصليُّ، المعروفُ بابنِ الأثيرِ، مُصَنِّفُ كتابِ «أسدُ الغابةِ في أسماءِ الصَّحابةِ»، وَكتابِ «الكاملِ في التاريخِ» وهو من أحْسنِها حَوادثَ، ابْتَداه من المُبْتَدَأ إلى سنة ثمانٍ وعشرين وستِّمائةٍ، وقد كان يَتَرَدَّدُ إلى بغدادَ، وكان خَصيصًا عندَ ملوكِ الموصلِ، ووزَر لبعضِهم كما تقدَّم بيانُه، وأقام بها في آخرِ عمرِه مُوَقَّرًا مُعَظَّمًا إلى أن تُوُفِّي بها في شعبانَ من هذه السنةِ، عن خمسٍ وسبعين سنةً، رحمه اللّهُ. وأما أخوه مجْدُ الدينِ أبو السَّعاداتِ المُباركُ فهو مُصَنِّفُ كتابِ «جامعِ الأصولِ» وغيرِه، وأخوهما الوزيرُ ضياءُ الدينِ أبو الفتحِ نصرُ اللّهِ كان وزيرًا للملكِ الأفضلِ عليِّ بنِ الناصرِ فاتحِ بيتِ المقدسِ، صاحبِ دمشقَ كما تَقدَّم. وجَزيرةُ ابنِ عمرَ قيل: إنها مَنْسوبةٌ إلى رجلٍ يقالُ له: عبدُ العزيزِ بنُ عمرَ. من أهلِ بَرْقَعِيدَ،

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٣٧٣-٣٧٨).

(٢) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٣٥٣-٣٥٦).

وقيل: بل هي مَنسوبةٌ إلى ابنَيْ عمرَ، وهما أوْسٌ وكاملٌ ابنا عمرَ بنِ أوسٍ التَّغْلبيِّ، فاللَّهُ أعلمُ. حرَّر ذلك القاضي ابنُ خَلِّكانَ رحمه اللَّهُ.

ابنُ المُسْتَوفي الإرْبليُّ، مباركُ بنُ أحمدَ بن مُبارَك بن مَوْهوب بن غَنيمةَ بن غالب، العلاَّمةُ شرفُ الدين أبو البَرَكات اللَّخْميُّ الإرْبليُّ، كان إمامًا في علومٍ كثيرةٍ؛ كالحديث وأسماءِ الرجال والأدب والحساب، وله مُصَنفاتٌ كثيرةٌ وفَضائلُ غَزيرةٌ، وقد بسَط ترجمتَه القاضي شمسُ الدين بنُ خَلِّكانَ في «الوَفَيات»، فأجاد وأفاد، رحمهم اللَّهُ.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة

وفيها: عمَّر الأشرفُ مسجدَ جَرَّاحٍ ظاهرَ بابِ الصَّغيرِ.

وفيها: قدم رسولُ الأنْبرورِ ملكِ الفرنجِ إلى الأشرف ومعه هَدايا؛ منها دُبٌّ أبيضُ، شعرُه مثلُ شعرِ الأسد، ذكَروا أنه يَنْزِلُ إلى البحرِ، فيُخْرِجُ السمكَ فيَأْكُلُه، ومنها طاووسٌ أبيضُ أيضًا.

وفيها: كمَلت عِمارةُ القَيْسارية التي هي قِبليَّ النَّحَّاسين، وحُوِّل إليها سوقُ الصاغة، وشغَر سوقُ اللُّؤْلؤِ الذي كان فيه الصاغةُ العَتيقةُ عندَ الحَدَّادين.

وفيها: جُدِّدَت الدَّكاكينُ التي بالزيادة.

قلت: وقد جُدِّدَت شرقيَّ هذه الصاغة الجديدة قَيْسارِيَّتان في زمانِنا، وسكَنها الصُّوَّاغُ وتُجَّارُ الذهبِ والجوهرِ، وهما حسَنتان، والجميعُ وَقْفُ الجامعِ المعمورِ.

وفيها: كمَل بناءُ المدرسةِ المُسْتَنْصرية ببغدادَ، ولم تُبْنَ مدرسةٌ قبلَها مثلُها، ووُقِفَت على المَذاهبِ الأربعةِ؛ من كلِّ طائفةٍ اثنان وستُّون فقيهًا، وأربعةُ مُعيدين، ومدرسٌ لكلِّ مَذْهبٍ، وشيخُ حديثٍ، وقارئان، وعشَرةٌ مُسْتَمِعين، وشيخُ طبٍّ، وعشَرةٌ من المسلمين يَشْتَغِلون بعلمِ الطبِّ، ومكتبٌ للأيتامِ، وقُرِّر للجميعِ من الخبزِ واللحمِ والحَلْوَى والنَّفَقةِ ما فيه كِفايةٌ وافرةٌ لكلِّ واحدٍ. ولما كان يومُ الخميسِ خامسُ رجبٍ حُضِرت الدروسُ بها، وحضَر الخليفةُ المُسْتَنْصِرُ باللَّه بنفسه الكريمة وأهلِ دولته من الأمراءِ والوُزراءِ والقُضاةِ والفُقهاءِ والصوفيةِ والشعراءِ، ولم يَتَخَلَّفْ أحدٌ من هؤلاءِ، وعُمِل سِماطٌ عظيمٌ بها، أكَل منه الحاضرون، وحُمِل منه إلى سائرِ دُروبِ بغدادَ من بُيوتاتِ الخَواصِّ والعَوامِّ، وخُلِع على جميعِ المُدَرِّسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميعِ الدولةِ والفُقهاءِ بها والمعيدين، وكان يومًا مشهودًا، وأمرًا محمودًا، وأنْشَدَت الشُّعراءُ الخليفةَ المَدائحَ الفائقةَ والقَصائدَ الرائقةَ، وقد ذكَر ذلك ابنُ الساعي في «تاريخه» مُطَوَّلًا مَبْسوطًا شافيًا كافيًا وافيًا، وقُرِّر لتَدْريسِ الشافعيةِ بها الشيخُ الإمامُ العلامةُ محيي الدين أبو عبدِ اللَّه محمدُ بنُ فضلانَ، وللحنفيةِ الشيخُ الإمامُ العلامةُ رَشيدُ الدينِ أبو حَفْصٍ عمرُ بنُ محمدٍ الفَرْغانيُّ، وللحَنابلةِ الشيخُ الإمامُ العلامةُ الرئيسُ

مُحْيي الدينِ يوسفُ ابنُ الشيخِ أبي الفرجِ ابنِ الجوزيِّ، ودرَّس عنه يومَئذٍ ابنُه عبدُ الرحمنِ نيابةً لغَيْبته في بعضِ الرسالاتِ إلى الملوكِ، ودرَّس للمالكيةِ يومَئذٍ الشيخُ الصالحُ العالمُ أبو الحسنِ المَغْرِبيُّ المالكيُّ نيابةً أيضًا حتى يُعيَّنَ شيخٌ غيرُه، ووُقِفَت فيها خزانةُ كتبٍ لم يُسْمَعْ بمثلِها في كثرتِها وحسنِ نُسخِها وجودةِ الكتبِ المَوْقوفةِ بها. وكان المُتَوَلِّي لعمارةِ هذه المدرسةِ مُؤيِّدُ الدينِ أبو طالبٍ محمدُ بنُ العَلْقميِّ الذي وزَر بعدَ ذلك، وقد كان إذ ذاك أُستاذَ دارِ الخلافةِ، وخُلِع عليه يومَئذٍ وعلى الوزيرِ نصيرِ الدينِ خلعةً. ثم عُزِل مدرسُ الشافعيةِ في رابعَ عشَرَ ذي القَعْدةِ بقاضي القُضاةِ أبي المعالي عبدِالرحمنِ بنِ مُقْبِلٍ، مُضافًا إلى ما بيدِه مِن القَضاءِ، وذلك بعدَ وفاةِ مُحْيي الدينِ بنِ فَضْلانَ، وقد ولي القَضاءَ مدةً، ودرَّس بالنِّظاميةِ وغيرِها، ثم عُزِل، ثم رُضِي عنه، ثم درَّس بالمُسْتَنْصِريةِ كما ذكَرْنا، فلما تُوُفِّي وليها بعدَه ابنُ مُقْبِلٍ، رحمهم اللَّهُ تعالى.

وممَّن تُوُفِّيَ في هذه السنة من الأعْيان:

السيفُ الآمِديُّ أبو الحسنِ عليُّ بنُ أبي عليِّ بنِ محمدِ بنِ سالمٍ التَّغْلبيُّ، الشيخُ سيفُ الدينِ الآمِديُّ، ثم الحَمَويُّ، ثم الدِّمشقيُّ، صاحبُ المُصنَّفاتِ في الأصْلَيْنِ وغيرِ ذلك، من ذلك «أبْكارُ الأفكارِ» في الكلامِ، و«دَقائقُ الحقائقِ» في الحِكْمةِ، و«إحكامُ الأحكامِ» في أصولِ الفقهِ، وكان حَنْبليَّ المذهبِ، فصار شافعيًّا أُصوليًّا مَنْطقيًّا جَدَليًّا خلافيًّا، وكان حسنَ الأخلاقِ، سَليمَ الصدرِ، كثيرَ البُكاءِ، رَقيقَ القلبِ، وقد تكلَّموا فيه بأشياءَ اللَّهُ تعالى أعلمُ بصحتِها، والذي يَغْلِبُ على الظَّنِّ أنه ليس لغالبِها صحةٌ، وقد كانت ملوكُ بني أيوبَ كالمُعَظَّمِ والكاملِ يكرمونه، وإن كانوا لا يحبونه كثيرًا وقد فوَّض إليه الملكُ المعظمُ تَدْريسَ العَزيزيةِ، فلما ولي الأشْرَفُ دمشقَ عزَله عنها، ونادَى في المَدارسِ أن لا يَشْتَغِلَ أحدٌ بغيرِ التَّفْسيرِ والحديثِ والفقهِ، ومَن اشْتَغَل بعلومِ الأوائلِ نفَيْتُه، فأقام الشيخُ سيفُ الدينِ بمنزلِه إلى أن تُوُفِّي بدمشقَ في صفرٍ من هذه السنةِ، ودُفِن بتربتِه بسَفْحِ قاسيونَ.

وذكَر القاضي ابنُ خَلِّكانَ أنه اشْتَغل ببغدادَ على الشيخِ أبي الفتحِ نصرِ بنِ فتْيانَ بنِ المَنِّيِّ الحنبليِّ، ثم انْتَقَل إلى مذهبِ الشافعيِّ، فأخَذ عن ابنِ فَضْلانَ وغيرِه، وحفظ طريقةَ الشريفِ في الخلافِ وزَوائدَ طريقةِ أسْعَدَ الميهَنيِّ، ثم انْتَقَل إلى الشامِ، واشْتَغل بعلومِ المعقولِ، ثم إلى الديارِ المصريةِ، فأعاد بمدرسةِ الشافعيةِ بالقَرافةِ الصغرى، وتصدَّر بالجامعِ الظافريِّ، واشْتَهَر فضلُه، وانْتَشَرَت فَضائلُه، فحسَده أقوامٌ، فسعَوْا به، وكتَبوا خُطوطَهم باتِّهامِه بمذهبِ الأوائلِ والتَّعْطيلِ والانْحلالِ، فطلَبوا مِن بعضِهم أن يُوافقَهم، فكتَب:

حسَدوا الفتَى إذ لم يَنالوا سعْيَهُ ... فالقومُ أعْداءٌ له وخُصومُ

وانتقل الشيخُ سيفُ الدين إلى حَماة، ثم تَحوَّلَ إلى دمشقَ، فدرَّس بالعَزيزية، ثم عُزِل عنها، ولزم بيتَه إلى أن مات في هذه السنة، وله ثمانون عامًا، رَحمه اللَّهُ تعالى، وعفا عنه.

واقفُ الرُّكْنية الحنفية الأميرُ الكبيرُ رُكْنُ الدين مَنْكُورس الحنفيُّ الفَلَكيُّ، غلامُ فَلَك الدين أخي الملك العادل؛ لأنه واقفُ الفَلَكية، كما تقدَّم، وكان هذا الرجلُ من خيارِ الأمراء، يَنْزِلُ في كلِّ ليلةٍ وقتَ السَّحَرِ إلى الجامع وحدَه بطَوَّافةٍ، ويُواظِبُ على حضورِ الصَّلَوات فيه مع الجماعة، وكان قليلَ الكلام، كثيرَ الصَّدَقات، وقد بنَى المدرسةَ الرُّكْنيةَ بسفحِ قاسيونَ، ووقَف عليها أوقافًا كثيرةً، وعمِل عندَها تُرْبةً، وحينَ تُوُفِّي بقريةِ جَرُودَ حُمِل إليها، رحمه اللَّهُ تعالى.

الشيخُ الإمامُ العالمُ رَضيُّ الدِّين أبو داودَ سليمانُ بنُ المُظَفَّر بن غَنائمَ الجيليُّ الشافعيُّ، أحدُ فُقهاءِ الشافعية ببغدادَ والمفتين فيها والمشتغلين للطلبة مدةً طويلةً، له كتابٌ في المَذهب نحوٌ من خمسةَ عشرَ مجلدًا، يَحكي فيه الوجوهَ الغريبةَ والأقوالَ المُسْتَغْرَبَةَ، وكان لطيفًا ظريفًا، تُوُفِّي رحمه اللَّهُ يومَ الأربعاءِ ثالثَ ربيعٍ الأول من هذه السنة ببغدادَ.

والحافظُ أبو الحسن ابنُ الأثيرِ الشيخُ عزُّ الدِّين أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدِ بنِ محمدِ بن عبدِ الكريمِ، الجَزَريُّ الموصليُّ، صاحبُ التصانيفِ الفائقة منها كتابُ «الكاملِ في التاريخ» من أحسنِ الكتبِ في هذا الفنِّ وأبسطِها في الحوادث، وأمَّا وفياتُه فليست مبسوطةً بسطَ حوادثه، وبالجملة فهو من عيونِ التواريخ وأمتعِها، وله من المصنفاتِ المشهورة.

الشيخُ طَيٌّ المصريُّ، أقام مدةً بالشامِ في زاويةٍ له بدمشقَ عندَ الرحْبةِ التي يُباعُ فيها الصَّناديقُ عندَ دارِ بني القَلانسيِّ، شرقيَّ حمامِ سامةَ، وكان ظريفًا كَيِّسًا زاهدًا، يَتَرَدَّدُ إليه الأكابرُ، ودُفِن بزاويته المذكورة، رحمه اللَّهُ تعالى.

الشيخُ عبدُ اللَّه الأَرْمَنيُّ[1]، أحدُ العُبَّادِ الزُّهَّادِ الذين جابوا البلادَ، وسكَنوا البَراريَّ والجبالَ والوِهادَ، واجْتَمَعوا بالأقطابِ والأبْدالِ والأوْتاد، وممَّن كانت له الأحْوالُ والمُكاشَفاتُ، والمُجاهَداتُ والسِّياحاتُ، في سائرِ النَّواحي والجِهات، وقد قرَأ القرآنَ في بدايته، وحفظ «القُدُوريَّ» على مذهبِ أبي حَنيفةَ، ثم اشْتَغل بالمُعامَلاتِ والرِّياضات، ثم أقام في آخرِ عمرِه بدمشقَ حتى مات بها، ودُفِن بسَفْحِ قاسيونَ.

وقد حُكِي عنه أشياءُ حسنةٌ، منها أنه قال: اجْتَزْتُ مرةً في السِّياحة ببلدة، فطالَبَتْني نفسي بدخولِها، فآلَيْتُ أن لا أَسْتَطْعِمَ منها بطعامٍ، ودخَلْتُها فمرَرْتُ برجلٍ غَسَّالٍ، فنظَر إليَّ شزْرًا، فخِفْتُ منه، وخرَجْتُ من البلدِ هاربًا، فلحِقني ومعه طعامٌ فقال: كُلْ فقد خرَجْتَ من البلد. فقلتُ له وأنت

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ٣٦٧-٣٦٨).

في هذا المَقام وتَغْسِلُ الثِّيابَ في الأسْواقِ؟! فقال: لا تَرْفَعْ رأسَك، ولا تَنْظُرْ إلى شيءٍ من عملك، وكُنْ عبدًا للَّه، ولو استَعْمَلك في الحُشِّ فارْضَ به. ثم قال:

ولو قلتَ لي مُتْ قلتُ سَمْعًا وطاعةً وقلتُ لداعي الموت أهلاً ومَرْحَبا

وقال: اجتَزْتُ مرةً في سياحتي براهبٍ في صَوْمَعةٍ فقال لي: يا مسلمُ، ما أقْرَبُ الطرقِ عندَكم إلى اللَّه عز وجل؟ قلتُ: مُخالفةُ النفسِ. قال: فردَّ رأسَه إلى صَوْمَعته، فلما كنتُ بمكةَ زمنَ الحجِّ إذا رجلٌ يُسَلِّمُ عليَّ عندَ الكعبةِ، فقلتُ: مَن أنت؟ فقال: أنا الراهبُ. قلتُ: بمَ وصَلْتَ إلى هاهنا؟ قال: بالذي قلتَ لي. وفي روايةٍ أنه قال له: عرَضْتُ الإسلامَ على نفسي فأبَتْ. فعلِمْتُ أنَّه حقٌّ، فأسْلَمْتُ وخالَفْتُها. فأفْلَح وأنْجَح.

قال: وبينا أنا ذاتَ ليلةٍ بجبلِ لُبْنانَ إذا حراميةُ الفرنجِ، فأخَذوني فقيَّدوني وشدُّوا وَثاقي، فكنتُ عندَهم تلك الليلةَ في أضيقِ حالٍ، فلما كان النهارُ شربوا وناموا، فبينا أنا مَوثوقٌ إذا حراميةُ المسلمين قد أقْبَلوا نحوَهم، فأنْبَهتُهم فلجَئوا إلى مَغارةٍ هنالك، فسلِموا من أولئك المسلمين، فقالوا: كيف فعَلْتَ هذا وقد كان خَلاصُك على أيديهم؟ قلتُ: إنكم أطْعَمْتُموني، فكان من حقِّ الصُّحْبةِ أن لا أَغُشَّكم. فعرَضوا عليَّ شيئًا من مَتاعِ الدنيا، فأبَيْتُ وأطْلَقوني.

وحكَى السِّبْطُ قال: زُرْتُه مرةً وهو ببيت المقدسِ، وكنتُ قد أكَلْتُ سمكًا مالحًا، فلما جلَسْتُ عندَه أخَذَني عطَشٌ شديدٌ، وإلى جانبه إبْريقٌ فيه ماءٌ باردٌ، فجعَلْتُ أَسْتَحْيي منه، فمد يدَه إلى الإبْريقِ وقد احْمَرَّ وجهُه، وناولَني وقال: خُذْ، كم تُكاسِرُ. فشرِبْتُ.

وذكَر أنه لما ارْتَحَل من بيتِ المقدسِ كان سورُها بعدُ قائمًا حديدًا على عِمارة الملك صلاحِ الدينِ قبلَ أن يُخَرِّبَه المُعَظَّمُ، فوقَف لأصْحابِه يُوَدِّعُهم، ونظَر إلى السورِ وقال: كأني بالمَعاولِ وهي تَعْمَلُ في هذا السورِ عما قريبٍ. فقيل له: مَعاولُ المسلمين أو الفرنجِ؟ فقال: بل مَعاولُ المسلمين. وكان كما قال.

وقد ذُكِرَت له أحْوالٌ كثيرةٌ حسنةٌ، ويقالُ: إن أصلَه أرْمَنيٌّ، وإنه أسْلَم على يدي الشيخِ عبدِ اللَّه اليُونينيِّ. وقيل: بل أصلُه رُوميٌّ من قونيَةَ، وإنه قدِم على الشيخِ عبدِ اللَّهِ اليُونينيِّ، وعليه بُرْنُسٌ كبَرانسِ الرُّهْبانِ، فقال له: أسْلِمْ. فقال: أسْلَمْتُ لربِّ العالمين. وكانت أمُّه دايَةَ امرأةِ الخليفةِ، وقد جرَت له كائنةٌ غريبةٌ، فسلَّمه اللَّهُ بسببِ ذلك، وعرَفه الخليفةُ فأطْلَقه.

* * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وستمائة

فيها خرَّب الملكُ الأشرفُ موسى بنُ العادل، خانَ الزنْجاريِّ الذي كان بالعُقَيْبة، فيه خَواطئُ وخُمورٌ ومُنْكَراتٌ متعددةٌ، فهدَمه وأمَر بعمارة جامعٍ مكانَه سُمِّي جامعَ التَّوْبة، تقبَّل اللَّهُ تعالى منه.

وفيها: تُوُفِّي القاضي بَهاءُ الدين يوسُفُ بنُ رافع بنِ تَميم بنِ شَدَّادٍ الحَلَبيُّ، أحدُ رؤسائها من بيت العلم والسِّيادة، له علمٌ بالتَّواريخ وأيامِ الناسِ وغيرِ ذلك، وقد سمع الكثير وحدَّث.

والشيخُ شهابُ الدين عبدُ السلام بنُ المُطَهَّر بنِ عبد اللَّه بن محمد بن عَصْرونَ الحَلَبيُّ أيضًا، كان فَقيهًا زاهدًا عابدًا، وكانت له نحوٌ من عشرين سُرِّيَّة، وكان شيخًا يُكْثِرُ من الجماع، فاعْتَرَتْه أمراضٌ مختلفةٌ فأتْلَفَته، ومات بدمشقَ، ودُفِن بقاسيونَ، وهو والدُ قُطْبِ الدين وتاجِ الدين.

والشيخُ الإمامُ العالمُ صائنُ الدين أبو محمد عبدُ العزيز الجيليُّ الشافعيُّ، أحدُ الفُقهاء المُفتين المُشْتَغلين بالمدرسة النِّظامية ببغدادَ، وله شرحٌ على «التَّنْبيه» للشيخ أبي إسحاقَ، تُوُفِّي في ربيعٍ الأول، رحمه اللَّهُ تعالى.

والشيخُ الإمامُ العالمُ الخطيبُ الأديبُ، أبو محمد حَمْدُ بنُ حُمَيد بن محمود بن حُمَيد بن أبي الحسن ابن أبي الفرج بن مِفْتاح التَّميميُّ الدُّنَيْسِريُّ، الخطيبُ بها والمُفْتي لأهلها، الفَقيهُ الشافعيُّ، تَفَقَّه ببغدادَ بالنِّظامية، ثم عاد إلى بلده المشارِ إليها، وقد صنَّف كتبًا. وأنْشَد عنه ابنُ الساعي سماعًا منه:

روَت لي أحاديثَ الغَرامِ صَبابَتي ... بإسنادها عن بانة العلَم الفَرْدِ
وحدَّثني مَرُّ النَّسيم عن الحِمَى ... عن الدَّوْح عن وادي الغَضَا عن رُبى نجدِ
بأن غرامي والأسى قد تلازَما ... فلنْ يَبْرَحا حتى أُوَسَّدَ في لَحْدي

وقد أرَّخ الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ في «الذَّيْل» وفاةَ الشِّهاب السُّهْرَوَرْديِّ صاحبِ «عَوارف المَعارف» في هذه السنة، وذكَر أن مولدَه في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وأنه جاوَز التِّسْعين. وأما السِّبْطُ فإنه أرَّخ وفاتَه في سنة ثلاثين كما تقدَّم.

قاضي القُضاة بحلَبَ أبو المَحاسن يوسُفُ بنُ رافع بن تَميم بن عُتْبة بن محمد الأسَديُّ الموصليُّ الشافعيُّ، كان رجلاً فاضلاً أديبًا مُقْرِئًا، ذا وَجاهةٍ عندَ الملوك، أقام بحَلَبَ، ووَلِي القَضاءَ ونظَر الأوقافَ بها، وله تَصانيفُ وشعرٌ، تُوُفِّي في هذه السنة، رحمه اللَّهُ تعالى.

ابنُ الفارضِ ناظمُ التائية في السُّلوك على طريقة المُتَصَوِّفة المَنْسُوبين إلى الاتِّحاد، هو أبو حفصٍ عمرُ بنُ أبي الحسن عليِّ بنِ المُرْشِد بن عليٍّ، الحَمَويُّ الأصْل، المِصْريُّ المولد والدارِ والوَفاة، كان أبوه يكْتُبُ فروضَ النساء والرجال، وقد تكلَّم فيه غيرُ واحدٍ من مشايخنا بسبب قصيدته المشارِ إليها، وقد ذكَره شيخُنا أبو عبد اللَّه الذَّهبيُّ في «ميزانه» وحطَّ عليه. مات في هذه السنة وقد قارَب السِّتِّين.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

فيها: قطع الكاملُ وأخوه الأشرفُ الفراتَ، وأصلحا ما كان أفسده جيشُ الروم من بلادهما، وخرَّب الكاملُ قلعةَ الرُّهَا، وأحلَّ بدُنَيْسرَ بأسًا شديدًا، وجاء كتابُ بدرِ الدين صاحبِ الموصلِ بأن التتارَ أقبَلوا بمائةِ طُلْبٍ، كلُّ طُلْبٍ بخمسمائةِ فارسٍ، فرجَع الملكان إلى دمشقَ سريعًا، وعاد جيشُ الرومِ إلى بلادهما بالجزيرةِ، وأعادوا الحصارَ كما كان، ورجَعت التَّتارُ عامَهم ذلك إلى بلادهم، واللَّه تعالى أعلمُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

ابنُ عُنَيْن الشاعرُ، وقد تقدَّمَت ترجمتُه في سنة ثلاثين.

ابنُ دِحيةَ، أبو الخطَّابِ عمرُ بنُ الحسنِ بن عليِّ بن محمد بن فَرْح بن خلف بن قُومسَ بن مَزْلال بن مَلَّال بن بدرِ بنِ أحمدَ بنِ دِحْيةَ بن خليفةَ الكلْبيُّ المغربيُّ السَّبْتيُّ، كان قاضيَها ثمَّ صار إلى مصرَ، الحافظُ شيخُ الديارِ المصريةِ في الحديثِ، وهو أولُ مَن باشَرَ مَشْيَخةَ دارِ الحديثِ الكامليةِ بها. قال السِّبْطُ: وقد كان كابنِ عُنَيْنٍ في ثَلْبِ المسلمين والوَقيعةِ فيهم، ويتَزَيَّدُ في كلامه، فترك الناسُ الرِّوايةَ عنه وكذَّبوه، وقد كان الكاملُ مُقْبِلاً عليه، فلما انْكَشَف له حالُه أخَذ منه دارَ الحديثِ وأهانه، وتُوُفِّي في ربيعٍ الأول بالقاهرة، ودُفِن بقَرافةِ مصرَ.

وقد قال الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ: وللشيخِ السَّخاويِّ فيه أبياتٌ حَسنةٌ.

وقال القاضي ابنُ خَلِّكانَ بعدَ سياقِ نسبِه كما تقدَّم، وذكَر أنه كتَبه من خطِّه، قال: وذكَر أن أمَّه أمَةُ الرحمنِ بنتُ أبي عبدِ اللَّه ابنِ أبي البَسَّامِ موسى بن عبدِ اللَّه بنِ الحسينِ بنِ جعفرِ بنِ عليِّ بن محمدِ بنِ عليِّ بنِ موسى بنِ جعفرِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ علي بن أبي طالبٍ، فلهذا كان يَكْتُبُ بخطِّه: ذو النَّسَبَيْن، بينَ دِحْيةَ والحسينِ، رضي اللَّهُ عنهما.

قال ابنُ خَلِّكانَ: وكان من أعيانِ العلماءِ ومَشاهيرِ الفُضلاءِ، مُتقِنًا لعلمِ الحديثِ وما يَتعلَّقُ به، عارفًا بالنحوِ واللغةِ وأيامِ العربِ وأشعارِها اشْتَغل ببلادِ المغربِ، ثم رحَل إلى الشامِ، ثم إلى العراقِ، واجْتاز بإرْبِلَ سنةَ أربعٍ وستِّمائةٍ فوجَد مَلِكَها المُعظَّمَ مُظفَّرَ الدينِ ابنَ زَيْنِ الدينِ يَعْتَني بالمولدِ النَّبويِّ، فعمِل له كتابَ «التَّنْويرِ في مولدِ السِّراجِ المُنيرِ» وقرأه عليه بنفسِه، فأجازه بألفِ دينارٍ. قال: وقد سمعناه على الملكِ المُعَظَّمِ في ستةِ مَجالسَ في سنةِ خمسٍ وعشرين وستِّمائةٍ.

قلتُ: وقد وَقَفْتُ على هذا الكتابِ، وكتَبْتُ منه أشياءَ حَسَنةً مُفيدةً.

قال ابنُ خَلِّكانَ: وكان مولدُه في سنةِ أربعٍ وأربعين وخمسمائةٍ. وقيل: ستٍّ أو سبعٍ وأربعين وخمسمائة. وتُوُفِّي في هذه السنةِ، وكان أخوه أبو عمرٍو عثمانُ قد باشَر بعدَه دارَ الحديثِ الكامليةَ بمصرَ، وتُوُفِّي بعدَه بسنةٍ.

قلتُ: وقد تكلّم الناسُ فيه بأنواعٍ من الكلام، ونسبه بعضُهم إلى وَضْع حديثٍ في قَصْرِ صلاة المغرب، وكنتُ أوَدُّ أن أقفَ على إسنادِه لنَعْلَمَ كيف رجالُه، وقد أجْمَع العلماءُ - كما ذكره ابنُ المُنْذِرِ وغيرُه - على أن المغربَ لا يُقْصَرُ.

وقد وقفتُ على جزءٍ جمَعه المحدِّثُ المُتقِنُ المُفيدُ أبو صادقٍ محمدُ ابنُ الحافظ أبي الحسينِ يحيى بن عليِّ بنِ عبدِ اللَّه القُرَشيُّ العُطارديُّ في ترجمة شيخِه أبي الخَطَّاب ابنِ دِحْيَةَ هذا، جمَع فيه أقوالَ الناسِ في ثَلْبِه والكلام في مَرْباه ومَنْشَئه واشتغاله وطَلَبِه، وذكر بعضُهم أنه ولِي القضاءَ بسبتةَ، فاللَّهُ أعلمُ، وذكَر طعنَ الناسِ في ادِّعائه نسبَه إلى دِحْيَةَ الكَلْبيِّ، وأنه انقطَع نَسْلُه من بعدِ ثلاثمائةٍ، وأنشَد لابنِ عُنَيْنٍ فيه - قائلِ البيتين الشهيرَيْن وهما - قولُه:

دِحْيَةُ لم يُعْقِبْ فكم تَفْتَري	إليه بالبُهتانِ والإفكِ
ما صحَّ عندَ الناسِ شيءٌ سوى	أنَّك من كلبٍ بلا شَكِّ

وإن من أقبحِ ما رأيتُه في هذا الجزء ما ذكَره عن شيخِه الحافظُ المؤرِّخُ ابنُ النَّجارِ، عن الحافظِ عليِّ ابنِ المُفضَّلِ أنه قال: اجتمعتُ أنا وابنُ دِحْيَةَ في مجلسِ السلطان، فسألني السلطانُ عن حديثٍ فأجَبْتُه فيه، فقال لي: مَن رواه؟ فلم يَحْضُرْني إسنادُه فانفَصَلنا، فاجتَمع بي ابنُ دِحْيَةَ وقال لي: يا فقيهُ، لَمّا سألَك السلطانُ عن إسنادِ ذاك الحديث، لِمَ لَمْ تذكرْ له أيَّ إسنادٍ شئتَ؟ فإنه ومَن حضَر مجلسَه لا يعلمون هل هو صحيحٌ أم لا فعظمتَ في أعينِهم. فعلمتُ أنه يتَهاونُ بأمورِ الدِّينِ، جَريءٌ على الكَذِب.

ثم قال: وحدَّثني الفقيهُ تقيُّ الدينِ عبيدُ بنُ محمدِ بنِ عباسٍ الإسْعِرْديُّ، عن شيخنا الفقيه الإمامِ العالمِ أوحدِ الأنامِ مُفْتي المسلمين بهاءِ الدينِ أبي الحسنِ عليِّ بنِ هِبَةِ اللَّه بنِ سلامة بن المُسَلَّم اللَّخْميِّ، يعني ابنَ الجُمَّيْزيِّ، أنه قال: كان السلطانُ المَلِكُ الكاملُ قد خرَج إلى الشام، فخرَج أبو الخطَّابِ عمرُ بنُ دِحْيةَ معه، وولدُ الشيخ مُعينِ الدينِ ابنِ شيخِ الشيوخ، فحضَرَت صلاةُ المغرب، فقدَّم السلطانُ ابنَ دِحْيَةَ فصلَّى بهم المَغْرِبَ، فلما أنْ فَرَغَ من الصلاة، قال ابنُ شيخِ الشيوخ: ما أعْلَمُ أحدًا من الأئمةِ يُجَوِّزُ قَصْرَ صلاة المغربِ في السَّفَرِ. فقال ابنُ دَحْيَةَ: كيفَ لا وقد أخْبَرَنا فلانٌ عن فلانٍ. وسَرَدَ إسْنادَه إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنَّه قَصَرَ المَغْربَ في السَّفَرِ. فلم يُجِبِ ابنُ شيخِ الشيوخ ومكَثَ على حاله.

قلتُ هذا وضْعٌ فاحشٌ مخالفٌ لما اجْمَع عليه العُلَماءُ، كما ذكرَه ابنُ المُنْذرِ وغَيْرُه، ومثْلُ هذا الإسْنادِ لا يُحْفَظُ؛ لأنَّ سامعه لم يَضْبِطْه، وواضِعُه لا يَقْدِرُ على إعادتِه ثانيًا، واللَّهُ أعْلَمُ.

الحاجِريُّ الشاعرُ، صاحبُ الدِّيوانِ المَشْهُورِ، وهو عيسى بنِ سَنْجَرَ بنِ بَهْرَامَ بنِ جِبْريلَ بنِ

خُمارْتكين بن طاشْتكين الإِربِليُّ، شاعرٌ مُطبقٌ، تَرْجَمَه ابنُ خَلكانَ، وذَكَرَ أشْياءَ من شِعْرِه كثيرةً، ذكرَ أنَّه كان صاحبَهم، وأنَّه كتبَ إلى أخيه ضياءِ الدِّينِ عيسى يَسْتَوْحِشُ منه:

اللَّهُ يَعْلَمُ ما أبقى سوى رَمَقٍ ... مني فِراقُك يامَن قُربُه الأملُ
فابْعَثْ كِتابَكَ واسْتَوْدِعْه تَعْزِيَةً ... فَرُبَّما متُّ شَوْقًا قبلَ ما يَصِلُ

وذَكَرَ له في الخالِ، رَحِمَه اللَّهُ تعالى:

ومُهَفْهَفٍ من شَعْرِه وجَبينِه ... أمْسَى الوَرَى في ظُلْمةٍ وضياءِ
لا تُنْكِرُوا الخالَ الذي في خَدِّه ... كلُّ الشَّقيقِ بنُقْطَةٍ سَوْداءِ

ثم دَخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها: حاصَرَتْ التَّتارُ إرْبِلَ بالمَجانيقِ، ونَقَبُوا الأسْوارَ حتى فَتَحُوها عُنْوةً، فقتلُوا أهْلَها وسَبَوا ذَرارِيهم، وامْتَنَعَتْ عليهم القلعةُ، وفيها النائبُ من جهَةِ الخليفة، فدخلَ فصلُ الشتاءِ، فأقْلَعُوا عنها، وانشَمَرُوا إلى بلادهم، وقيلَ: إنَّ الخليفةَ جهَّزَ لهم جيشًا، فانْهَزَمَ التَّتارُ.

وفيها: استَخْدَمَ الصالحُ أيوبُ بنُ الكاملِ صاحبُ حصنِ كَيْفَا الخُوارَزْمِيَّةَ الذين تَبَقَّوا من جيشِ جلالِ الدينِ، وانْفَصَلُوا عن الرُّوميِّ، فَقَوِيَ جَأشُ الصالحِ أيوبَ.

وفيها: طَلَبَ الأشْرَفُ موسَى بنُ العادلِ من أخيه الكاملِ الرَّقَّةَ؛ لتَكُونَ قوةً له وعَلَفًا لدوابِّه إذا جاز الفُراتَ مع أخيه في البَواكيرِ، فقال الكاملُ: أمَا يَكْفيه أنَّ معه دمَشقَ مَمْلَكَةَ بني أُمَيَّةَ؟ فأرْسَلَ الأشرَفُ الأميرَ فَلَكَ الدينِ بنَ المَسيريِّ إلى الكاملِ في ذلك، فأغْلَظَ له في الجوابِ، وقال: أيْش يَعْمَلُ بالمُلْك؟ يَكْفيه عِشْرَتُه للمَغاني وتَعَلُّمُه لصناعَتِهم. فَغَضِبَ الأشْرَفُ عندَ ذلك وتَنَمَّرَ، وبَدَتْ الوَحْشَةُ بينهما، وأرْسَلَ الأشْرَفُ إلى حَمَاةَ وحَلَبَ وبلادِ الشرقِ، فحالفَ أولئكَ المُلوكَ على أخيه الكاملِ، فلو طال عُمْرُ الأشْرَفِ لأفْسَدَ المُلْكَ على أخيه؛ وذلك لكَثْرةِ مَيلِ المُلوكِ إليه، لكَرَمِه وشجاعته وشُحِّ أخيه الكاملِ، ولكنَّه أدْرَكَتْه مَنِيَّتُه في أوَّلِ السَّنَةِ الدَّاخلةِ، رَحِمَه اللَّهُ تعالى.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

المَلِكُ العزيزُ بنُ الظاهرِ صاحبُ حَلَبَ، محمدُ بنُ السُّلْطانِ المَلِكِ الظاهرِ غياثِ الدينِ غازي بنِ المَلِكِ الناصرِ صلاحِ الدينِ فاتحِ القُدْسِ الشَّريفِ، وهو وأبوه وابنُه الناصرُ أصْحابُ مُلْكِ حَلَبَ من أيامِ الناصرِ، وكانت أمُّ العَزيزِ الخاتُونُ بنتَ المَلِكِ العادلِ أبي بكرِ بنِ أيوبَ، وكان حَسَنَ الصُّورَةِ، كريمًا عَفيفًا، تُوُفِّيَ وله من العُمْرِ أربعٌ وعِشْرُونَ سنَةً، وكان مُدَبِّرَ دَوْلته الطَّواشِي شهابُ الدينِ، وكان من

الأمَراء، رَحمَه اللَّهُ تعالى. وقامَ في المُلْك بعده ولدُه الناصرُ صلاحُ الدين يُوسُفُ.

صاحبُ الرُّوم كَيْقُباذ المَلِكُ علاءُ الدين، صاحبُ بلادِ الرُّوم، كان من أعْدَل المُلُوك وأحْسَنِهم سيرةً، وقد زَوَّجَه العادلُ ابنَتَه وأولَدَها، وقد استَوْلَى على بلادِ الجَزيرَةِ في وقتٍ، وأخَذَ أكثَرَها من يدِ الكاملِ محمد، وكَسرَ الخُوَارَزْمِيَّةَ مع الأشْرَف مُوسى، رَحمَهما اللَّهُ.

الناصحُ الحَنْبَليُّ[1]، في ثالث المُحَرَّم تُوُفِّي الشيخُ ناصحُ الدينِ عبدُ الرحمنِ بنُ نَجْم بنِ عَبْد الوَهَّاب ابنِ الشيخ أبي الفَرَج الشِّيرازيُّ، وهم يَنْتَسِبُونَ إلى سعدِ بن عُبادَةَ، رَضيَ اللَّهُ عنه، وُلِدَ الناصحُ سنَةَ أرْبَعٍ وخَمْسِينَ وخمسمائةٍ، وقرَأ القُرآنَ وسَمعَ الحديثَ، وكان يَعظُ في بعضِ الأحْيانِ. وقد ذكَرْنا قبلُ أنَّه وَعظَ في حياة الشيخ الحافظ عبد الغَنِيِّ، وهو أوَّلُ من درَّسَ بالصالحيَّة التي بالجَبَلِ، وله بُنَيَّتٌ، وله تَصَانيفُ. وقد اشْتَغَلَ على ابنِ المَنِّيِّ ببغْدَادَ، وكان فاضلاً صالحًا، وكانت وفَاتُه بالصالحيَّة، ودُفِنَ هناكَ رَحمَه اللَّهُ.

الكَمَالُ بنُ مُهَاجِر التاجرُ، كان كثيرَ الصَّدَقَات والإحسانِ إلى الناس، مات فَجْأةً في جُمَادَى الأُولَى بدِمَشْقَ، فدُفِنَ بقاسيونَ، واستَحْوَذَ الأشْرَفُ على أمْواله، فَبَلَغَتْ التَّرِكَةُ قريبًا من ثلاثمائة ألف دينارٍ، من ذلك سُبحَةٌ فيها مائةُ حبَّةٍ، كلُّ واحدَةٍ مثلُ بيضَة الحَمَامَة.

الشيخ الحافظُ أبو عمرو عثمانُ بنُ دِحْيَةَ، أخو الحافظ أبي الخطَّاب ابنِ دِحْيَةَ، كان قد وليَ دارَ الحديث الكامليَّة حينَ عُزِلَ أخوه عنها، حتى تُوُفِّيَ في عامه هذا، وكان نَدَرَ في صناعَة الحديث أيضًا رَحمَه اللَّهُ تعالى.

القاضي عبدُ الرحمن التَّكْرِيتيُّ، الحاكمُ بالكَرَك، ومُدرِّسُ مَدْرسَة الزَّبَدَانيِّ، فلما أُخذَتْ أوْقَافُها سارَ إلى القُدْس، ثم إلى دِمَشْقَ، فكان يَنُوبُ بها عن القُضاة، وكان فاضلاً نَزِهًا عَفيفًا دَيِّنًا، رَحمَه اللَّهُ تعالى ورَضيَ عنه.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة

فيها: كانت وَفَاةُ الأشْرَف، ثم أخيه الكاملِ، أمَّا الأشْرَفُ موسَى بنُ العادلِ باني دارِ الحديث الأشْرَفيَّة وجامع التَّوْبَة وجامع جَرَّاح، فإنَّه تُوُفِّي في يوم الخَميس رابع المُحَرَّم من هذه السنَة، بالقَلْعَة المنصورة، ودُفِنَ بها حتى نَجزَتْ تُرْبَتُه التي بُنِيَتْ له شماليَّ الكَلاَّسَة، ثم حُوِّلَ إليها، رَحمَه اللَّهُ تعالى، في جُمادَى الأُولَى، وقد كان ابْتداءُ مَرَضه في رجب من السنَة الماضيَة، واخْتَلَفَتْ عليه الأدْواءُ حتى كان الجَرَائحيُّ يُخْرِجُ العظامَ من رأسه، وهو يُسبِّحُ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ، فلما كان آخرُ السنَة

(١) ترجمته في «السير» (٢٣ / ٦ ـ ٧).

تَزَايَدَ به المَرَضُ واعْتَراه إسْهالٌ مُفْرِطٌ، فخارَتْ قُوتُه، فَشَرَعَ في التَّهيُّؤ للقاء اللَّه تعالى، فأعْتَقَ مائتَي غلام وجاريَةٍ، ووَقَفَ دارَ فَرُّخْشاه التي يُقالُ لها: دارَ السَّعادة. وبستانَه بالنَّيْرَب على ابْنَته، وتَصَدَّقَ بأموالٍ جزيلةٍ، وأحْضَرَ له كَفَنًا كان قد أعَدَّه من مَلابِسِ الفُقَراء والمشَايخ الذينَ لَقِيَهم من الصالحينَ. وقد كان رَحِمَه اللَّهُ، شَهْمًا شُجاعًا كريمًا جَوادًا مُحبًّا للعلْم وأهْله ولا سيَّما لأهلُ الحديث، ومقادسَة الصالحيَّة، وقد بَنَى لهم دارَ حديث بالسَّفْح، وبالمدينَة للشافعيَّة أخرَى، وجعلَ فيها نَعْلَ النَّبيِّ ﷺ الذي ما زال حريصًا على تَحْصيله من النَّظَّام ابن أبي الحديد التاجر، وقد كان النَّظَّامُ ضَنينًا به، فَعزَمَ الأشْرفُ على أخذ قطْعَة منه؛ خوفًا من أن يَذْهَبَ بالكلية، فقدَّرَ اللَّهُ مَوْتَ ابن أبي الحديد بدمَشْق، فأوْصَىٰ للمَلِك الأشْرَف به، فَجَعَلَه الأشرفُ بدار الحديث، ونَقَلَ إليها كُتُبًا سَنيَّةً نَفيسةً، وبَنَى جامعَ التَّوْبَة بالعُقَيْبة، وقد كان خَانًا للزِّنْجاريِّ، فيه من المُنْكَرات شيءٌ كثيرٌ، وبَنَى مسجدَ القَصَب وجامعَ جَرَّاح ومسجدَ دار السَّعَادَة، وقد كان مَوْلدُه في سنَة ستٍّ وسبعينَ وخَمْسمائة، ونَشَأَ بالقُدْس الشَّريف بكفالَة الأمير فخر الدين عثمانَ الزَّنْجَاريِّ، وكان أبوه يُحبُّه، وكذلك أخُوه المُعَظَّمُ، ثم استَنَابَه أبوه على مُدُن كثيرَة بالجزيرة؛ منها الرُّها وحَرَّانُ، ثم اتَّسَعَتْ مَمْلَكَتُه حتى مَلَكَ خلاطَ، وكان من أَعَفِّ الناس وأحْسَنهم سيرَةً وسَريرَةً، لا يَعْرفُ غيرَ نسائه وجواريه، مع أنَّه كان يُعاني الشَّرابَ، وهذا من أعْجَب الأمُور.

حكَى السِّبْطُ عنه قال: كنتُ يومًا بهذه المَنْظَرَة من خلاطَ إذ دَخَلَ الخادمُ فقال: بالباب امْرأةٌ تَسْتأذنُ. فدخلَتْ فإذا صُورَةٌ لم أرَ أحْسَنَ منها، وإذا هي ابنةُ الملك الذي كان بخلاطَ قَبْلي، فذكَرَتْ أنَّ الحاجبَ عليًّا قد استَحْوَذَ على قريةٍ لها، وأنَّها قد احْتَاجَتْ إلى بُيُوت الكراء، وأنَّها إنَّما تَتَقَوَّتُ من عَمَلِ النُّقوش للنِّساء، فأمَرْتُ بردِّ ضَيْعَتها إليها، وأمَرْتُ لها بدارٍ تَسْكُنُها، وقد كنتُ قُمْتُ لها حينَ دَخَلَتْ، وأجْلَسْتُها بينَ يَديَّ، وأمَرْتُها بسَتْر وجْهها حينَ أسْفَرَتْ عنه، ومعها عَجُوزٌ، فحينَ قَضَيْتُ شُغْلَها قلتُ لها: انْهَضي على اسْم اللَّه تعالى. فقالت العَجُوزُ: يا خَوندُ، إنَّما جاءَتْ لتَحْظَى بخدْمَتكَ هذه اللَّيْلَةَ. فقلتُ: معاذَ اللَّه، لا يَكُونُ هذا. واستَحْضَرْتُ في ذهْني ابْنَتي ربما يُصيبُها نَظيرُ ما أصابَ هذه، فقامَتْ وهي تقُولُ: سَتَرَكَ اللَّهُ مثلَ ما سَتَرْتَني. وقُلْتُ لها: مهما كان لك من حاجَة فانْهيها إليَّ أقْضها لك. فَدَعَتْ لي وانْصَرَفَتْ. فقالت لي نَفْسي: ففي الحلال مَنْدُوحةٌ عن الحَرام، فَتَزَوَّجْها. فقلتُ: واللَّه لا كان هذا أبدًا، أينَ الحَيَاءُ والكَرَمُ والمُرُوءةُ؟!

قال: ومَات مَمْلُوكٌ من مَماليكي، وتَرَكَ وَلَدًا ليسَ يكُونُ في الناس بتلكَ البلاد أحْسَنُ شَبابًا ولا أحْلَى شَكْلاً منه، فأحْبَبْتُه وقَرَّبْتُه، وكان مَن لا يَفْهَمُ أمْري يَتَّهِمُني به، فاتَّفَقَ أنه عدا على إنْسانٍ، فَضَرَبَه حتى قَتَلَه، فاشْتَكَى عليه إليَّ أوْلياءُ المَقْتُول، فقُلْتُ: أثْبِتُوا أنَّه قَتَلَه. فأثْبَتُوا ذلك،

وحَاجَفَتْ عنه مَمَاليكي، وأرادُوا إرْضاءَهم بِعَشْرِ دياتٍ، فلم يَقْبَلُوا، ووقَفُوا لي في الطَّرِيقِ وقالوا: قد أثْبَتْنا أنَّه قَتَلَهُ. فقُلْتُ: خُذُوه. فتَسلَّمُوه، فأخَذُوه فقتَلُوه، ولو طَلَبُوا مُلْكِي فِداءً لَدَفَعْتُه إليهم، ولكنني استَحْيَيتُ مِن اللَّه تعالىٰ أن أُعارِضَ شَرْعَه بحظٍّ نَفْسِي. رَحمَه اللَّهُ تعالىٰ.

ولما مَلَك دِمَشْقَ في سنَة ستٍّ وعِشْرِينَ وستَّمائةٍ نادىٰ مُناديه بها أن لا يَشْتَغِلَ أحدٌ مِن الفُقَهاءِ بشيءٍ مِن العُلُومِ سوىٰ الحديثِ والتَّفسيرِ والفقهِ، ومَن اشْتَغَلَ في المَنْطِقِ وعُلُومِ الأوائلِ نُفِيَ مِن البلدِ. وكان البلدُ به في غايَةِ الأمْنِ والعَدْلِ، وكَثْرَةِ الصَّدَقَاتِ والخَيْرَاتِ، كانت القَلعَةُ لا تُغلَقُ في ليالي رَمَضَانَ كلِّها، وصُحُونُ الحلاَوات خارِجَةٌ منها إلىٰ الجامعِ والخَوانقِ والرُّبطِ والصَّالحِيَّة، إلىٰ الصَّالحِينَ والفُقَرَاءِ والرُّؤَساءِ وغَيْرِهم، وكان أكثرُ جُلُوسه بِمَسْجِدِ أبي الدَّرْدَاءِ الذي جدَّدَه وزَخْرفَه بالقَلْعَةِ، وكان مَيْمُونَ النَّقيبَةِ، ولم تُكْسَرْ له رايَةٌ قطُّ، وقد استَدْعَىٰ الزَّبِيديَّ مِن بَغْدَادَ حتىٰ سمعَ هو والناسُ عليه «صحيحَ البُخارِيِّ» وغيرَه، وكان له مَيلٌ شَديدٌ إلىٰ الحديثِ وأهْلِه، رَحمَه اللَّهُ تعالىٰ. ولَمَّا تُوُفِّيَ رآه بَعْضُهم في المَنَامِ وعليه ثِيابٌ خُضْرٌ، وهو يَطِيرُ مع جماعَةٍ مِن الصَّالحِين، فقالوا له: ما هذا وقد كُنتَ تُعانِي الشَّرَابَ في الدُّنيا؟ فقال: ذاك البدنُ الذي كنا نَفعَلُ به ذاك عندكم في الدَّنيا، وهذه الرُّوحُ التي كُنَّا نُحِبُّ بها هؤلاءِ فهي مَعَهم، وقد صدقَ، رَحمَه اللَّهُ؛ قال رسولُ اللَّه ﷺ: «المَرْءُ مع مَن أحَبَّ»[1].

وقد كان أوْصَىٰ بالمُلك بعْدَه لأخِيه الصَّالحِ إسْماعِيلَ، فلما تُوُفِّيَ أخُوه ركِبَ في أُبَّهَةِ المُلك، ومَشَىٰ الناسُ بينَ يَدَيه، وركِبَ إلىٰ جانِبِه صاحبُ حِمْصَ وعزُّ الدينِ أيْبَك المُعظَمِيُّ حاملٌ الغاشِيَةَ علىٰ رأْسه، ثم إنَّه صادَرَ جَمَاعَةً مِن الدَّماشِقَة الذينَ قِيلَ عنهم إنهم مع الكاملِ. منهم العَلَمُ تَعاسِيفُ وأوْلادُ ابنِ مُزْهِرٍ، وحَبَسَهم ببُصْرَىٰ، وأطْلَقَ الحَرِيريَّ مِن قَلْعَةِ عَزَّتا، وشَرَطَ عليه أن لا يَدْخُلَ دِمَشْقَ، ثم قَدِمَ الكاملُ مِن مِصْرَ، وانْضافَ إليه الناصِرُ داودُ صاحبُ الكَرْكِ ونابُلُسَ والقُدْسِ، فحاصَرُوا دِمَشْقَ حِصاراً شديداً، وقد حَصَنَّها الصَّالحُ إسْماعِيلُ، وقُطِعَتْ المِياهُ، وردَّ الكاملُ ماءَ بَرَدَىٰ إلىٰ ثَوْرَا، وأُحْرِقَتْ العُقَيْبَةُ وقصرُ حَجَّاجٍ، فافْتَقَرَ خَلْقٌ كثيرٌ، واحْتَرقَ آخَرُونَ، وجَرَت خُطُوبٌ كَثيرةٌ، ثم آلَ الحالُ في آخرِ جُمادَىٰ الأولىٰ إلىٰ أن سَلَّمَ الصَّالحُ إسْماعِيلُ دِمَشْقَ إلىٰ أخيه الكَامِلِ، علىٰ أنَّ له بَعْلَبَكَّ وبُصْرَىٰ، وسكَنَ الأمْرُ، وكان الصُّلْحُ بينَهما علىٰ يَدَي القاضِي مُحْيِي الدينِ يوسُفَ ابنِ الشيخِ أبي الفَرَجِ ابنِ الجَوْزِيِّ؛ اتَّفَقَ أنَّه كان بدِمَشْقَ قد قَدِمَ في رَسْلِيَّةٍ مِن جِهَةِ الخليفَةِ إلىٰ دِمَشْقَ، فَجزَاه اللَّهُ تعالىٰ خيْراً، ودخَلَ الكاملُ دِمَشْقَ، وأطْلَقَ الفَلَكَ بنَ المَسِيرِيِّ مِن سجنِ الحيَّاتِ بالقَلْعَةِ الذي كان أودَعَه فيه الأشْرَفُ، ونَقَلَ الأشْرفَ إلىٰ تُرْبَتِه، وأمَرَ الكاملُ في يومِ الإثْنَيْنِ سادسِ جُمادَىٰ الآخِرَةِ أئِمَةَ الجامعِ أنْ لا يُصلِّيَ أحدٌ منهم المَغْرِبَ سِوىٰ الإمَامِ الكبيرِ؛ لِما

---

(١) صحيح: متفق عليه أخرجه البخاري (٦١٦٨) ومسلم (٢٦٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه

كان يَقَعُ مِن التَّشْويشِ والاخْتِلافِ بسببِ اجْتِماعِهم في وقتٍ واحدٍ، ولَنِعْمَ ما فَعَلَ، رَحِمَه اللَّهُ تعالى، وقد فُعِلَ هذا في زَمَانِنا في صلاةِ التَّراويحِ، اجْتَمَع الناسُ على قارئٍ واحدٍ، وهو الإمَامُ الكبيرُ في المِحْرَابِ المُقَدَّمِ عندَ المِنْبَرِ، ولم يَبْقَ إمَامٌ حينئذٍ سوى الذي بالحَلَبِيَّةِ عندَ مَشْهَدِ عليٍّ، ولو تُرِكَ لكان حَسَنًا واللَّهُ أعْلَمُ.

ذكرُ وفاةِ الملكِ الكاملِ

محمدِ بنِ العادلِ[1]

تَمَلَّكَ الكاملُ دِمَشْقَ مُدَّةَ شَهْرَيْنِ، ثم أخَذَتْه أمْرَاضٌ مُخْتَلِفَةٌ، مِن ذلك سُعالٌ وإسْهالٌ ونَزْلَةٌ في حَلْقِه، ونِقْرِسٌ في رِجْلَيْه، فاتَّفَقَ موتُه في بيتٍ صَغيرٍ مِن دارِ القَصَبَةِ، وهو البيتُ الذي تُوُفِّيَ فيه عمُّه الناصِرُ صلاحُ الدينِ، ولم يكُن عندَ الكاملِ أحدٌ حالَ مَوْتِه مِن شدةِ هَيْبَتِه، بل دَخَلُوا فوَجَدُوه مَيِّتًا رَحِمَه اللَّهُ تعالى. وقد كان مَوْلِدُه في سنةِ ثلاثٍ وسبْعِينَ وخَمْسِمائةٍ، وكان أكْبَرَ أوْلادِ العادلِ بعدَ مَوْدودٍ، وإليه أوْصَى العادلُ؛ لعلمِه بِثَباتِه، وكمالِ عَقْلِه، ووفُورِ مَعْرِفتِه، وقد كان جَيِّدَ الفَهْمِ، يُحبُّ العُلَماءَ، ويَسْألُهم أسْئِلَةً مُشْكِلَةً، وله كلامٌ جَيِّدٌ على «صحيحِ مسلمٍ»، وكان ذكيًّا، مَهيبًا، ذا بأسٍ شديدٍ، عادلاً مُنْصِفًا، له حُرْمَةٌ وافِرَةٌ، وسَطْوَةٌ قَوِيَّةٌ، مَلَكَ مِصْرَ ثلاثِينَ سَنَةً كاملةً، وكانت الطُّرُقاتُ في زَمَانِه آمِنَةً، والرعايا مُتَناصِفَةً، لا يتَجاسَرُ أحدٌ أن يَظْلِمَ أحدًا، شَنَقَ جَماعةً مِن الأجْنادِ أخَذُوا شعيرًا لبعضِ الفلاحينَ بأرْضِ آمِدَ، واشْتَكَى إليه بعضُ الرِّكْبْدارِيةِ أن أسْتاذَه اسْتَعْمَلَه سِتَّةَ أشْهُرٍ بلا أُجْرَةٍ، فأحْضَرَ الجُنْدِيَّ وألْبَسَه ثِيابَ الرِّكْبْدارِيةِ، وألْبَسَ الرِّكْبْدارَ ثِيابَ الجُنْدِيِّ، وأمَرَ الجُنْدِيَّ أنْ يَخْدِمَ الرِّكْبْدارَ سِتَّةَ أشْهُرٍ على هذه الهَيْئَةِ، ويَحْضُرَ الرِّكْبْدارُ المَوْكِبَ والخِدْمَةَ حتى يَنْقَضيَ الأجلُ، فتأدَّبَ الناسُ بذلك غايَةَ الأدبِ، رَحِمه اللَّهُ تعالى. وكانت له اليَدُ البيضاءُ في رَدِّ ثَغْرِ دِمْياطَ إلى المُسْلِمِينَ بعدَ أنْ اسْتَحْوَذَ عليه الفِرِنْجُ، لَعَنَهم اللَّهُ، فرَابَطَهم أرْبَعَ سِنِينَ حتى اسْتَنْقَذَه منهم، وكان يومُ أخذِه له واسْتِرْجاعِه إيَّاه يومًا مَشْهُودًا، كما ذَكَرْناه مُفَصَّلاً، ولِلَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وكانت وفاتُه ليلةَ الخميسِ الثاني والعِشْرِينَ مِن رَجَبٍ مِن هذه السنةِ، ودُفِنَ بالقَلْعَةِ حتى كَمَلَتْ تُرْبَتُه التي بالحائطِ الشمَاليِّ مِن الجامعِ ذاتُ الشُّبَّاكِ الذي هناكَ قريبًا مِن مَقْصُورَةِ ابنِ سِنانٍ، وهي الكِنْدِيَّةِ التي عندَ الحَلَبِيَّةِ، نُقِلَ إليها ليلةَ الجُمُعَةِ الحادي والعِشْرِينَ مِن رمضانَ مِن هذه السنةِ.

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٢/ ١٢٧ - ١٣١).

ومِن شِعْرِه يَسْتَحِثُ أخاه الملِكَ الأشْرَفَ مِن بلادِ الجَزيرَةِ حينَ كان مُحاصَرًا بدِمْياطَ:

يا مُسْعِفي إنْ كُنت حَقًّا مُسْعِفي ... فارْحَلْ بغَيرِ تَقَيُّدٍ وتَوَقُّفِ
واطْوِ المَنازلَ والدِّيارَ ولا تُنِخْ ... إلا على بابِ المَليكِ الأشْرَفِ
قَبِّلْ يَدَيْه لا عَدِمْتَ وقُلْ له ... عَنِّي بحُسْنِ تَعَطُّفٍ وتَلَطُّفِ
إنْ تأْتِ صِنْوَكَ عن قَريبٍ تَلْقَهُ ... ما بينَ حدِّ مُهَنَّدٍ ومُثَقَّفِ
أوْ تُبطِ عَن إنْجادِه فلِقاؤُه ... يومَ القِيامَةِ في عِراضِ المَوْقِفِ

ذِكرُ ما جرَى بعدَه

كان قد عَهِدَ لولده العادل ـ وكان صَغيراً ـ بالدّيار المِصْريَّة وبالبلاد الشَّاميَّة، ولولده الصالح أيوبَ ببلادِ الجزيرة، فأمْضَى الأمَراءُ ذلك، فأمَّا دمَشْقُ فاخْتَلَفَ الأُمَراءُ بها في الملك الناصرِ داودَ بنَ المُعَظَّم، والملك الجَوادِ مُظَفَّرِ الدينِ يونُسَ بنِ مَوْدود بنِ العادل، فكان مَيْلُ عمَادُ الدينِ ابنِ الشَّيْخ إلى الجَوادِ، وآخَرُونَ إلى الناصرِ، وكان نازلاً بدارِ أُسامَةَ، فانْتَظَمَ أمرُ الجَوادِ، وجاءتْ الرِّسالَةُ إلى الناصرِ أن اخْرُجْ من البلدِ، فركِبَ مِن دارِ أسامَةَ، والعامَّةُ من دارِه إلى القَلْعَة لا يَشُكُّونَ في ولايَتِه المُلْكَ، فسلَكَ نحو القَلْعَة، فلما جاوزَ العِماديَّةَ عَطَفَ برأسِ فَرَسه نحوَ بابِ الفَرَجِ، فصَرَخَتْ العامَّةُ: لا، لا، لا. فسارَ حتى نَزَلَ القابُونَ عندَ وَطْأةِ بَرْزَة. فعَزَمَ بعضُ الأمَراءِ الأشْرَفيّة على مَسْكه، فساقَ فباتَ بقَصْرِ أمِّ حكيمٍ، وساقُوا وراءَه، فَتَقَدَّمَ إلى عَجْلُونَ، فَتَحَصَّنَ بها وأمِنَ.

وأمَّا الجَوادُ فإنَّه ركِبَ في أُبَّهَةِ المُلْك، وأنْفَقَ الأمْوالَ والخلعَ على الأمُراء. قال السِّبْطُ: فَرَّقَ ستةَ آلافِ ألفِ دينارٍ وخَمْسَةَ آلافِ خِلْعَةٍ، وأبْطَلَ المُكُوسَ والخُمُورَ، ونَفَى الخَواطِئَ، واسْتَقَرَّ مُلْكُه بدِمَشْقَ، واجْتَمَعَ عليه الأمراءُ الشَّاميُّونَ والمِصْريُّونَ، ورَحَلَ الناصرُ داود من عَجْلُونَ نحوَ غَزَّةَ وبلادِ السواحلِ، فاسْتَحْوَذَ عليها فركِبَ الجَوادُ في طلبه، ومعه العساكرُ الشَّاميَّةُ والمِصْريَّةُ، وقال للأشْرَفيَّةِ كاتِبُوه وأطْمِعُوه. فلما وصَلَتْ إليه كُتُبُهم طمِعَ في مُوافَقَتِهم، فرَجَعَ في سَبْعمائَة راكبٍ إلى نابُلُسَ، فقَصَدَه الجَوادُ وهو نازلٌ على جينينَ، والناصرُ على سَبَسْطِيَةَ، فهربَ الناصرُ فاسْتَحْوَذُوا على حَواصِله وأثْقاله، فاسْتَغْنَوْا بها، وافْتَقَرَ بسببها فقْراً مُدْقِعًا، ورَجَعَ الناصرُ إلى الكَرَكِ جَريدَةً قد سُلِبَ أموالَه وأثْقالَه، وعادَ الجوادُ إلى دمَشْقَ مُؤيَّدًا منْصُوراً.

وفيها: اخْتَلَفَتْ الخُوارَزْميَّةُ على المَلِكِ الصالحِ نَجْمِ الدينِ أيُّوبَ بنِ الكاملِ صاحبِ حصْنِ كَيْفَا وتلك النَّواحي، وعزَمُوا على القَبْضِ عليه، فَهَرَبَ منهم، ونَهَبُوا أموالَه وأثْقالَه، ولَجَأَ إلى سِنْجَارَ، فقَصَدَه بدرُ الدينِ لُؤْلُؤٌ صاحبُ المَوْصِلِ ليُحاصِرَه ويأْخُذَه في قَفَصٍ إلى الخَليفةِ، وكان أهْلُ تلك

الناحيَة يكرَهُونَ مُجاورَتَه لِكِبْرِه وقُوةِ سَطْوتِه، فلم يَبْقَ إلى أخذِه إلا القَليلُ، فكاتبَ الخُوارَزْمِيَّةَ، واستَنْجَدَ بهم، وخَضَعَ لهم ووَعَدهم بأشياءَ كثيرةٍ، فَقَدِمُوا إليه جَرائدَ لِيَمْنَعُوه من البدرِ لُؤلُؤ، فلما أحَسَّ بهم لُؤلُؤٌ هرَبَ منهم، فاستَحْوَذُوا على أمواله وأثقاله، فَوَجَدُوا فيها شيئًا كثيرًا لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، ورَجَعَ إلى بلده المَوصِلِ جَريدةً خائبًا، وسلِمَ الصالحُ أيوبُ مما كان فيه من الشِّدَة.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الخَطيبُ الدَّوْلَعي محمدُ بنُ زيد بن ياسين، الخَطيبُ جمالُ الدينِ الدَّوْلَعيُّ، نِسْبَةً إلى قَرْيَةٍ بأرْضِ المَوْصِلِ، وقد ذَكَرْنا ذلك عندَ تَرْجَمَةِ عَمِّه عبدِ المَلك بنِ ياسينَ الخَطيب بدمَشْقَ أيضًا، وكان مُدَرِّسًا بالغَزَّاليَّة مع الخطابَة، وقد مَنَعه المُعَظَّمُ في وقتٍ عن الفَتْوَى، فعاتَبه السِّبْطُ في ذلك، فاعْتَذَرَ بأنَّ شيوخَ بلدهم أشاروا بذلكَ عليه، لكثْرَة أخطائه في فَتَاويه، وكان شديدَ المُواظَبة على الوَظيفَة لا يَكَادُ يُفارِقُ بيتَ الخَطابَة، ولم يَحُجَّ قَطُّ مع أنَّه كانت له أموالٌ كثيرةٌ، وقفَ مَدْرَسَةً بجَيْرونَ، وقد وَلِيَ الخَطابَةَ بعْدَه أخٌ له، وكان جاهلاً، ولم يَسْتَقِرَّ فيها، وتولاها الكمالُ عمرُ بنُ أحمدَ بنِ هِبَةِ اللَّهِ بنِ طَلْحَةَ النَّصيبيُّ، وولِيَ تَدْريسَ الغَزَّاليَّة الشيخُ عِزُّ الدين بنُ عبدِ السلام.

القاضي شمسُ الدين بنُ الشِّيرازي: محمدُ بنُ هِبَة اللَّه بن محمد بن هبة اللَّه بن مَميل الشيخُ أبو نصر بنُ الشِّيرازي[1]، وُلد سنةَ تسعٍ وأربعين وخمسمائة، وسمع الكثيرَ على الحافظ ابنِ عَساكرَ وغيرِه، واشتَغل في الفقه، وأفتَى ودرَّس بالشامية البَرَّانية، وناب في الحكم عدة سنين، وكان فقيهًا عالمًا فاضلاً كيِّسًا، حسنَ الأخلاق، عارفًا بالأخبارِ وأيَّام العرب والأشعار، كريمَ الطِّباع، حَميدَ الآثار، وكانت وفاتُه ليلةَ الخميسِ ثالثَ جُمادَى الآخرة، ودُفن بقاسيونَ، رحمه اللَّهُ تعالى.

القاضي شمسُ الدين بنُ سَنِيِّ الدولة يحيى، أبو البركات ابنُ هبة اللَّه بن الحسن الدِّمشقيُّ قاضيها، كان عالمًا عَفيفًا فاضلاً عادلاً مُنْصفًا نزِهًا، كان الملكُ الأشرَفُ يقولُ: ما ولي دمشقَ مثلُه. وقد ولي الحكمَ ببيت المقدس مدَّةً، وناب بدمشقَ عن القُضاة، ثم استَقَلَّ بالحكم، وكانت وفاتُه يومَ الأحدِ سادسَ ذي القَعْدة، وصُلِّي عليه بالجامع، ودُفن بقاسيونَ، وتأسَّف الناسُ عليه، رحمه اللَّهُ تعالى، وتَوَلَّى بعدَه الشيخُ شمسُ الدين ابنُ الخُوَيِّيِّ.

ابنُ الأستاذ القاضي زَيْنُ الدين عبدُ اللَّه بنُ عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن عُلْوان الأسَديُّ، عُرف بابنِ الأُستاذ الحلَبيِّ، قاضيها بعدَ بَهاء الدين بنِ شَدَّادٍ، وكان رئيسًا عالمًا فاضلاً، حسَنَ الخُلُقِ والسَّمْت، وكان أبوه من الصالحين الكبار، رحمهم اللَّهُ تعالى.

الشيخُ الصالحُ المُعَمَّرُ، أبو بكر محمدُ بنُ مسعودِ بن بَهْرُوز البَغْداديُّ، ظهَر سَماعُه من أبي الوَقْت في

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٣/ ٣١-٣٤).

سنةِ خمسَ عشْرةَ وستِّمائةٍ، فانثال الناسُ عليه يَسْمَعون منه، وتفَرَّد بالروايةِ عنه في الدنيا بعدَ الزَّبِيديِّ وغيرِه، تُوُفِّي ليلةَ السبتِ التاسعِ والعشرين مِن شعبانَ، رحمه اللَّهُ تعالى.

الأميرُ الكبيرُ المُجاهدُ المُرابطُ صارمُ الدينِ خَطْلَبَا بنُ عبدِ اللَّه، مملوكُ سَرْكَس ونائبُه بعدَه مع ولدِه على تِبْنِينَ وتلك الحُصونِ، وكان كثيرَ الصَّدَقاتِ والإحسانِ، ودُفِن مع أستاذِه بقبابِ سَرْكَس، وهو الذي بناها بعدَ أستاذِه، وكان خَيِّرًا، قليلَ الكلامِ، كثيرَ الغَزْوِ، مُرابِطًا مدةَ سنينَ، رحِمه اللَّهُ تعالى، وعفا عنه بمَنِّه وكرمِه.

* * *

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة

فيها قَبَض الملكُ الجَوَادُ على الصَّفيِّ بنِ مَرْزوقٍ، وصادَره بأربعمائة ألف دينارٍ، وحبَسه بقلعة حمْصَ، فمكَث ثلاثَ سنينَ لا يَرَىٰ الضوءَ، وقد كان ابنُ مَرْزوقٍ قبلَ ذلك يُحْسِنُ إلى الجواد إحْسانًا كثيرًا.

وسلَّط الجَوادُ خادمًا لزوجته يقالُ له: الناصحُ. فصادَر الدَّماشقةَ، وأخَذ منهم نحوًا من ستِّمائة ألف دينارٍ، ومسَك الأميرَ عمادَ الدينِ ابنَ الشيخِ الذي كان سببَ تَمْليكِه دمشقَ، ثم خاف من أخيه فخرِ الدينِ ابنِ الشيخِ الذي بديارِ مصرَ، وقلِق من مُلْك دمشقَ، وقال: أَيْش أَعْمَلُ بالملك؟ بازٌ وكلبٌ أحَبُّ إليَّ من هذا. ثم خرَج إلى الصيد، وكاتَب الصالحَ نَجْمَ الدين أيوبَ بنَ الكامل، فتَقابَضا من حصنِ كَيفَا وسِنْجارَ وما يَتْبعُ ذلك إلى دمشقَ، فملَك الصالحُ أيوبُ دمشقَ، ودخَلها في مُسْتَهَلِّ جُمادَىٰ الأولىٰ من هذه السنة، والجَوادُ بينَ يديه بالغاشية، ثم حمَلها المظفَّرُ صاحبُ حَماةَ، وكان يومًا مشهودًا، ثم نزَل الجوادُ بدارِ السعادة، وندِم على ما كان منه، فأراد أن يَسْتَدْرِكَ الفائتَ، فلم يَتَّفِقْ له، وخرَج من دمشقَ، والناسُ يَلْعَنونه في وجهِه؛ بسببِ ما أسْداه إليهم من المُصادَرات، وأرْسَل إليه الصالحُ أيوبُ ليَرُدَّ إلى الناسِ أموالَهم، فلم يَلْتَفِتْ إليه، وسار وبقِيَت في ذمته.

ولما اسْتَقَرَّ الصالحُ في ملكِ مصرَ، كما سيأتي، حبَس الناصحَ الخادمَ، فمات في أسْوَأ حالةٍ، من القِلَّة والقَمْلِ، جَزاءً وِفاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وفيها ركِب الصالحُ أيوبُ من دمشقَ في رمضانَ قاصدًا الديارَ المصريةَ؛ ليَأْخُذَها من ابنِ أخيه العادلِ لصِغَرِه، فنزَل بنابُلُسَ واسْتَوْلَى عليها، وأخْرَجها من يدِ الناصرِ داودَ، وأرْسَل إلى عمِّه الصالحِ إسماعيلَ صاحبِ بَعْلَبَكَّ ليَقْدَمَ عليه ليَكونَ في صحبته إلى الديارِ المصرية، وكان قد جاء إليه إلى دمشقَ وبايَعه، فجعَل يُسَوِّفُ به، ويَعْمَلُ عليه، ويحالفُ الأُمراءَ بدمشقَ ليَكونَ ملكَهم، ولا يَتَجاسَرُ أحدٌ من الصالحِ أيوبَ لجَبَروته أن يُخْبِرَه بذلك، وانْقَضَت السنةُ، وهو مُقيمٌ بنابُلُسَ يَسْتَدْعيه إليه، وهو يُماطِلُه.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

جمالُ الدين الحَصيريُّ الحَنَفيُّ، محمودُ بنُ أحمدَ، العَلَّامةُ جمالُ الدينِ الحَصيريُّ شيخُ الحَنَفية بدمشقَ، ومُدَرِّسُ النُّورية، أصلُه من قريةٍ يُقالُ لها: حَصيرٌ. من مُعامَلة بُخارَىٰ، تفَقَّه بها، وسمع الحديثَ الكثيرَ، وصار إلى دمشقَ، فانْتَهَت إليه رياسةُ الحَنَفية بها، لاسيَّما في أيامِ المُعَظَّم، كان يَقْرَأُ عليه «الجامعَ الكبيرَ»، وله عليه شَرْحٌ، وكان يَحْتَرِمُه ويُعَظِّمُه ويُكْرِمُه، وكان رحمه اللَّهُ تعالى، غَزيرَ الدَّمْعةِ، كثيرَ الصَّدَقاتِ، عاقلًا نَزِهًا عَفيفًا، تُوُفِّيَ يومَ الأحدِ ثامنَ صفَرٍ، ودُفِن بمقابرِ الصُّوفية،

تغمَّده اللَّهُ برحمته آمينَ. تُوُفِّي وله تسعون سنةً، وأولُ درسه في النُّورية في سنة إحدىٰ عشْرةَ وستِّمائةٍ، بعدَ الشَّرَف داودَ الذي تولَّاها بعدَ البُرْهانِ مسعودٍ أولِ مُدَرِّسيها، رحمهم اللَّهُ تعالىٰ.

الأميرُ عمادُ الدين عمرُ بنُ شيخِ الشيوخِ صَدْرِ الدين عليِّ بنِ حَمُّويَه، كان سببًا في ولاية الجَوَادِ دمشقَ، ثم سار إلىٰ مصرَ، فلامَه صاحبُها العادلُ، فقال: الآن أَرْجعُ إلىٰ دمشقَ، وآمُرُ الجَوَادَ بالمسيرِ إليك، علىٰ أن تَكونَ له إسْكَنْدَريَّةُ عِوَضَ دمشقَ، فإن امْتَنع عَزَلْتُه عنها، وكنتُ أنا نائبَك فيها. فنهاه أخوه فخرُ الدينِ ابنُ الشيخِ عن تَعاطي ذلك، فلم يَقْبَل، ورجَع إلىٰ دمشقَ، فتلقَّاه الجَوَادُ إلىٰ المُصلَّىٰ، وأنزَله عندَه بالقلعة بدارِ المَسَرَّة، وخادَعه عن نفسِه، ثم دسَّ إليه مَن قتَله جَهْرةً في صورةِ مُسْتَغيثٍ به، واستَحْوذ علىٰ أمواله وحَواصله، وكانت له جنازةٌ حافلةٌ، ودُفن بقاسيونَ.

الوزيرُ جَمالُ الدين عليُّ بنُ جريرٍ، وزَر للأشرفِ، واسْتَوْزَره الصالحُ أيوبُ أيامًا، ثم مات عَقِبَ ذلك، كان أصلُه من الرَّقَّة، وكان له أمْلاكٌ يَسيرةٌ يَعيشُ منها، ثم آل أمْرُه إلىٰ أن وزَر للأشرفِ بدمشقَ، وقد هجاه بعضُهم، وكانت وفاتُه بالخَوانِق في جُمادَىٰ الآخرة، ودُفن بمقابرِ الصوفية.

جعفرُ بنُ عليِّ بنِ أبي البَرَكات بنِ جعفرِ بنِ يحيى الهَمْدانيُّ، رَاوِيةُ السِّلَفيِّ، قدِم إلىٰ دمشقَ صُحْبةَ الناصرِ داودَ، وسمع عليه أهلُها، وكانت وفاتُه بها، ودُفِن بمَقابرِ الصوفية، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ، وله تسعون سنةً.

الحافظُ الكبيرُ زَكيُّ الدين أبو عبد اللَّه محمدُ بنُ يوسفَ بنِ محمد البرزاليُّ الإشْبيليُّ[1]، أحدُ مَن اعتَنىٰ بصناعة الحديث وبرَز فيه، وأفاد الطلبةَ، وكان شيخَ الحديث بمشهد ابنِ عُرْوةَ، ثم سافَر إلىٰ حلَبَ، فتُوُفِّي بحَماةَ في رابعَ عشَرَ رمضانَ من هذه السنة، وهو جدُّ شيخنا الحافظ علَم الدين بنِ القاسم بنِ محمدٍ البِرْزاليِّ، مُؤَرِّخِ دمشقَ الذي ذيَّل على الشيخ شِهاب الدينِ أبي شامةَ، وقد ذَيَّلْتُ أنا علىٰ «تاريخِه» بعونِ اللَّهِ تعالىٰ وقُدْرَتِه.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة

اسْتَهلَّت هذه السنةُ وسلطانُ دمشقَ نجمُ الدينِ الصالحُ أيوبُ بنُ الكاملِ مُخَيِّمٌ عندَ نابُلُسَ، يَسْتَدْعِي عمَّه الصالحَ إسماعيلَ ليَسيرَ إلىٰ الديارِ المصرية، بسببِ أخذِها من صاحبِها العادلِ بنِ الكاملِ، وقد أرْسَلَ الصالحُ إسماعيلُ ولدَه وابنَ يَغْمُورٍ إلىٰ صحبة الصالح أيوبَ بنابُلُسَ، فهما يُنْفِقان الأموالَ في الأمراء ويُحْلِفانِهم علىٰ الصالح أيوبَ للصالح إسماعيلَ، فلما تمَّ الأمرُ، وتمَكَّن الصالحُ إسماعيلُ مِن مُرادِه، أرْسَل إلىٰ الصالحِ أيوبَ يَطْلُبُ منه ولدَه ليكونَ عِوَضَه ببَعْلَبَكَّ، ويَسيرَ

(١) ترجمته في «السير» (٢٣/ ٥٥ - ٥٧).

هو إلى خدمته، فأرْسَله إليه، ولا يَسْتَشْعِرُ الصالحُ أيوبُ بشيءٍ مما وقَع، وكلُّ ذلك عن تَرتيبِ أبي الحسنِ غَزَّالٍ المُتَطَبِّبِ وزيرِ الصالحِ - وهو الأمينُ واقفُ الأَمينيةِ ببَعْلَبَكَّ - فلما كان يومُ الثلاثاء السابعِ والعشرين من صفرٍ هجَم الملكُ الصالحُ إسماعيلُ، وفي صحبتِه أسدُ الدينِ شيرُكُوه صاحبُ حمصَ إلى دمشقَ، فدخَلاها بَغْتةً من بابِ الفَراديسِ، فنزَل الصالحُ إسماعيلُ بدارِه من دربِ الشَّعَّارين، ونزَل صاحبُ حمصَ بدارِه، وجاء نَجْمُ الدينِ بنُ سلاَّم، فهنَّأ الصالحَ إسماعيلَ، ورقَص بينَ يديه، وهو يقولُ: إلى بيتِك جئتَ. وأصبَحوا فحاصَروا القلعةَ، وبها المُغيثُ عمرُ بنُ الصالحِ نَجْمِ الدينِ، ونقَبوا القلعةَ من ناحيةِ بابِ الفرجِ، وهتَكوا حُرْمتَها ودخَلوها وتسلَّموها، واعتَقَلوا المُغيثَ في بُرْجٍ هنالك.

قال أبو شامةَ: واحْتَرَقت دارُ الحديثِ وما هنالك من الحَوانيتِ والدُّورِ حولَ القلعةِ. ولما وصَل الخبرُ بما وقَع إلى الصالحِ أيوبَ تفَرَّق عنه أصحابُه والأُمراءُ؛ خوفًا على أهاليهم من الصالحِ إسماعيلَ، وبقي الصالحُ أيوبُ وحدَه في مماليكِه وجاريتِه أمِّ خَليلٍ، وطمِع فيه الفلاَّحون والغَوارِنَةُ، وأرْسَل الناصرُ داودُ صاحبُ الكَرَكِ إليه مَن أخَذَه من نابُلُسَ مُهانًا على بَغْلةٍ، بلا مِهْمازٍ ولا مِقْرعةٍ، فاعْتَقَله عندَه سبعةَ أشهرٍ، وأرْسَل العادلُ من مصرَ إلى الناصرِ يَطْلُبُ منه أخاه الصالحَ أيوبَ، ويُعْطيه مائةَ ألفِ دينارٍ، فما أجابه إلى ذلك، بل عكَس ما طلَب منه بإخْراجِ الصالحِ من سجنِه والإفراجِ عنه وإطْلاقِه مع الجيشِ يَرْكَبُ ويَنْزِلُ، فعندَ ذلك حارَبَت الملوكُ من دمشقَ ومصرَ وغيرِهما الناصرَ داودَ، وبرَز العادلُ من الديارِ المصريةِ إلى بُلْبَيسَ قاصدًا قتالَ الناصرِ داودَ، فاضْطَرَب الجيشُ عليه، واخْتَلَف الأمراءُ، وقيَّدوا العادلَ، واعْتَقَلوه في خَرْكاه، وأرْسَلوا إلى الصالحِ أيوبَ يَسْتَدْعونه إليهم، فامْتَنَع الناصرُ داودُ من إرسالِه حتى اشْتَرَط عليه أنه يأخُذُ له دمشقَ وحمصَ وحلَبَ وبلادَ الجَزيرةِ وديارَ بكرٍ ونصفَ مَمْلكةِ مصرَ ونصفَ ما في الخَزائنِ من الحَواصلِ والأموالِ والجَواهرِ. قال الصالحُ أيوبُ: فأجَبْتُ إلى ذلك مُكْرَهًا، ولا يَقدِرُ على جميعِ ما اشْتَرَط عليَّ ملوكُ الأرضِ، وسِرْنا فأخَذْتُه معي خوفًا أن يكونَ هذا الكتابُ من المصريين مَكيدةً، ولم يَكُنْ لي به حاجةٌ. وذكَر أنه كان يَسْكَرُ، ويَخْبِطُ الأمورَ، ويُخالفُ الآراءَ السَّديدةَ. فلما وصَل الصالحُ إلى المصريين ملَّكوه عليهم، ودخَل الديارَ المصريةَ سالمًا مُؤَيَّدًا منصورًا مُظَفَّرًا مَحْبورًا مَسْرورًا، فأرْسَل إلى الناصرِ داودَ عشرين ألفَ دينارٍ، فردَّها عليه ولم يَقْبَلْها منه. واسْتَقَرَّ مُلْكُه بمصرَ، وأما الجَوَادُ فإنه أساء السِّيرةَ بسِنْجارَ، وصادَر أهلَها وعسَفَهم، وكاتَبوا بدرَ الدينِ لؤلؤًا صاحبَ الموصلِ، فقصَدهم - وقد خرَج الجَوَادُ للصيدِ - فأخَذ البلدَ بغيرِ شيءٍ، وصار الجَوَادُ إلى عانةَ، ثم باعَها من الخليفةِ بعدَ ذلك.

وفي ربيعٍ الأولِ درَّس القاضي الرَّفيعُ عبدُ العزيزِ بنُ عبدِ الواحدِ الجِيليُّ بالشاميةِ البَرَّانيةِ.

وفي يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر ولي الشيخُ عزُّ الدين عبدُ العزيز بنُ عبد السلام بن أبي القاسم السُّلَميُّ خطابةَ جامع دمشقَ، وخطَب الصالحُ إسماعيلُ لصاحب الروم ببلاد دمشقَ وغيرها؛ لأنه حالَفه على الصالح أيوبَ.

قال أبو شامة: وفي حَزيرانَ أيامَ المِشْمش جاء مَطَرٌ عظيمٌ هدَم كثيرًا من الحيطان وغيرها، وكنتُ يومَئذ بالمِزَّة.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

صاحبُ حمصَ الملكُ المُجاهدُ أسَدُ الدين شيرُكوه بنُ ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ولَّاه إياها الملكُ الناصرُ صلاحُ الدين بعدَ موت أبيه سنةَ إحدى وثمانين وخمسمائة، فمكَث فيها سبعًا وخمسين سنةً، وكان من أحسن الملوك سيرةً، طهَّر بلادَه من الخمور والمُكوس والمُنْكَرات، وهي في غاية الأمن والعَدْل، لا يَتَجاسَرُ أحدٌ من الفرنج ولا العرب يَدْخُلُ بلادَه إلا أهانه غايةَ الإهانة، وكانت ملوكُ بني أيوبَ يَتَّقونه؛ لأنه كان يرى أنه أحقُّ بالأمر منهم؛ لأن جدَّه هو الذي فتَح مصرَ، وأولُ مَن ملَك منهم، وكانت وفاتُه رحمه اللَّهُ بحمصَ، وعُمِل عَزاؤه بجامع دمشقَ، عفا اللَّهُ عنه بمَنِّه.

القاضي الخُوَيِّيُّ شمسُ الدين أحمدُ بنُ خَليل بن سَعادةَ بن جعفر الخُوَيِّيُّ، قاضي القُضاة بدمشقَ يومَئذ، وكان عالمًا بفنون كثيرة من الأصول والفروع وغير ذلك، وكانت وفاتُه يومَ السبت، بعدَ الظهر، السابعَ من شعبانَ، وله خمسٌ وخمسون سنةً، بالمدرسة العادلية، وكان حسَنَ الأخلاق، جَميلَ المُعاشَرة، وكان يقولُ: لا أَقْدرُ على المَناصب، إلى مُسْتَحقِّيها. له مُصَنَّفاتٌ. منها عَروضٌ. قال فيه أبو شامةَ:

أحمدُ بنُ الخليل أرْشَده اللَّـ ـهُ لما أرْشَد الخَليلَ بنَ أحمدْ
ذاك مُسْتَخْرِجُ العَروض وهذا مُظْهِرُ السِّرِّ منه والعَوْدُ أحمدْ

وقد ولي القَضاءَ بعدَه رَفيعُ الدين عبدُ العَزيز بنُ عبد الواحد بن إسماعيلَ بن عبد الهادي الجِيليُّ مع تَدْريس العادلية، وكان قاضيًا ببَعْلَبَكَّ، فأحْضَره إلى دمشقَ الوزيرُ أمينُ الدين الذي كان سامريًّا فأسْلَم، وزَر للصالح إسماعيلَ، واتَّفَق هو وهذا القاضي على أكْل أموال الناس بالباطل. قال أبو شامةَ: ظهَر منه سُوءُ سيرة وعَسْفٌ وفِسْقٌ وجَوْرٌ ومُصادرةٌ في الأموال.

قلتُ: وقد ذكَر غيرُه عنه أنه ربما حضَر يومَ الجمعة في المشهد الكَماليِّ بالشُّبَّاك وهو سَكْرانُ بالخمر، وأن قَنانيَّ الخمر كانت تَكونُ على بِرْكة العادلية يومَ السبت، وكان يَعْتَمدُ في التَّرِكات اعْتمادًا سيئًا جدًّا، وقد عامَله اللَّهُ تعالى بنَقيض مَقْصوده، وأهْلَكه اللَّهُ على يدي مَن كان سببَ سَعادته، كما سيأتي بيانُه قريبًا إن شاء اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

فيها بسلّم الصالحُ إسماعيلُ صاحبُ دمشقَ حصنَ شَقيفِ أرْنُونَ لصاحبِ صَيْدَا الفرنجيِّ، فاشْتَدَّ الإنْكارُ عليه بسببِ ذلك من الشيخِ عزِّ الدينِ ابنِ عبدِ السلامِ خَطيبِ البلدِ، والشيخِ أبي عمرِو بنِ الحاجبِ شيخِ المالكية، فاعْتَقَلَهما مدةً، ثم أطْلَقَهما وألْزَمَهما منازلَهما، وولّى الخَطابةَ وتَدريسَ الغَزَّاليةِ لعمادِ الدينِ داودَ بنِ عمرَ بنِ يوسُفَ المَقْدسيِّ خَطيبِ بيتِ الآبارِ، ثم خرجَ الشيخانِ من دمشقَ، فقصَدَ أبو عمرٍو الناصرَ بالكَرَكِ، ودخَلَ الشيخُ عزُّ الدينِ الديارَ المصريةَ، فتلقَّاه صاحبُها الصالحُ أيوبُ بالاحْترامِ والإكْرامِ، وولاَّه خَطابةَ القاهرةِ وقَضاءَ مصرَ، واشْتَغل عليه أهلُها، فكان ممَّن أخَذ عنه الشيخُ تقيُّ الدينِ ابنُ دَقيقِ العيدِ، رحمهما اللَّهُ تعالى.

وفيها: قدم رسولٌ من ملكِ التَّتارِ تُولى بنِ جِنْكِزْخان إلى ملوكِ الإسلامِ يَدْعُوهم إلى طاعته ويَأْمُرُهم بتَخْريبِ أسْوارِ بُلْدانِهم، وعُنوانُ الكتابِ: من نائبِ ربِّ السماءِ، ماسحِ وجهِ الأرضِ، ملكِ الشرقِ والغربِ خاقان. وكان الكتابُ مع رجلٍ مسلمٍ من أهلِ أصْبَهانَ، لطيفِ الأخلاقِ، فأولُ ما ورَد على شهابِ الدينِ غازي بنِ العادلِ صاحبِ مَيَّافارِقِينَ، وقد أخْبَره بعَجائبَ في أرضِهم غريبةٍ، منها أن في البلادِ المُتاخِمةِ للسدِّ أُناسًا أعْيُنُهم في مَناكِبِهم، وأفْواهُهم في صُدورِهم، يأكُلُون السمكَ، وإذا رأَوْا أحدًا من الناسِ هرَبوا. وذكَر أن عندَهم بزْرًا يَنْبُتُ منه الغنمُ، يَعيشُ الخَروفُ منها شهرين وثلاثةً، ولا يَتَناسلُ، ومن ذلك أن بمازَنْدَرانَ عينًا يَطْلُعُ فيها كلَّ ثلاثين سنةً خشبةٌ عظيمةٌ مثلُ المَنارةِ، فتُقيمُ طولَ النهارِ، فإذا غَرَبَت الشمسُ غاصَتْ في العينِ، فلا تُرَى إلى مثلِ ذلك الوقتِ، وأن بعضَ الملوكِ احْتال ليُمسكوها بسَلاسلَ رُبِطَت فيها فغارَتْ، وقطَعَت تلك السَّلاسلَ، ثم كانت إذا طلَعت تُرَى فيها تلك السَّلاسلُ، وهي إلى الآنَ كذلك.

قال أبو شامة: وفيها: قلَّت المياهُ من السماءِ والأرضِ، وفسَد كثيرٌ من الزرعِ والثمارِ. واللَّهُ أعلمُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ والمَشاهير:

مُحْيي الدينِ ابنُ عَرَبيٍّ، صاحبُ «الفُصوصِ» وغيرِها، **محمدُ بنُ عليِّ بنِ محمدٍ، ابنُ عَرَبيٍّ، أبو عبدِ اللَّهِ الطائيُّ الحاتميُّ الأنْدَلُسيُّ**، طافَ البلادَ، وأقام بمكةَ مدةً، وصنَّف فيها كتابَه المُسَمَّى بـ«الفُتوحاتِ المَكية» في نَحوِ عشرين مُجَلدًا، فيه ما يُعْقَلُ وما لا يُعْقَلُ، وما يُنْكَرُ وما لا يُنْكَرُ، وما يُعْرَفُ وما لا يُعْرَفُ، وله الكتابُ المُسَمَّى بـ«فُصوصِ الحِكَمِ» فيه أشْياءُ كثيرةٌ ظاهرُها كفرٌ صريحٌ، وله «العباداتُ»، وديوانُ شعرٍ رائقٍ، وله مُصنَّفاتٌ أُخَرُ كثيرةٌ، وأقام بدمشقَ مدةً طويلةً قبلَ وفاته، وكان بنو الزَّكيِّ لهم عليه اشْتمالٌ، وبه احْتفالٌ، ولجميعِ ما يَقولُه احْتمالٌ.

قال أبو شامة: وله تَصانيفُ كثيرةٌ، وكانت عليه سهلةً، وله شعرٌ حسنٌ، وكلامٌ طويلٌ على طريقِ

التَّصوف، وكانت له جنازةٌ حسنةٌ، ودُفن بمقبرة القاضي مُحْيي الدين ابن الزكيِّ بقاسيونَ، وكانت جنازتُه في الثاني والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة.

وقال السِّبْطُ: كان يقولُ إنه يَحْفَظُ الاسمَ الأعْظَمَ، ويقولُ إنه يَعْرفُ الكيمياءَ بطريق المُنازَلة لا بطريق الكَسْب، وكان فاضلاً في علم التَّصوُّف، وله تَصانيفُ كثيرةٌ.

القاضي نَجْمُ الدين أبو العباس أحمدُ بنُ محمد بن خلف بن راجح المَقْدسيُّ الحنبليُّ الشافعيُّ، المعروفُ بابن الحَنْبليِّ، كان شيخًا فاضلاً دَيِّنًا بارعًا في علم الخلاف، ويَحْفَظُ «الجمعَ بينَ الصحيحَيْن» للحُمَيْديِّ، وكان مُتواضعًا، حسَنَ الأخلاق، قد طاف البُلْدانَ في طلب العلم، ثم استَقَرَّ بدمشقَ، ودرَّس بالعَذْراويَّة والصَّارميَّة والشَّاميَّة البَرَّانيَّة وأمِّ الصالح، وناب في الحكم عن جَماعة من القُضاة إلى أن تُوُفِّي بها، وهو نائبُ الرَّفيع الجيليِّ، وكانت وفاتُه يومَ الجمعة سادسَ شوال، ودُفن بقاسيونَ.

ياقوتُ بنُ عبد الله، أمينُ الدين الرُّوميُّ، منسوبٌ إلى ولاء أَتابَكَ، قدم بغدادَ مع رسول صاحب الموصل لؤلؤ. قال ابنُ الساعي: اجْتَمَعْتُ به، وهو شابٌّ أديبٌ فاضلٌ، يَكْتُبُ خطًّا حسنًا وهو في غاية الجَوْدة، ويَنْظِمُ شعرًا جيدًا. ثم روىٰ عنه شيئًا منه. قال: وتُوُفِّي في جُمادَىٰ الآخرة مَحْبوسًا.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة

فيها: قصَد الملكُ الجَوَادُ أن يَدْخُلَ مصرَ ليكونَ في خدمة الصالح أيوبَ، فلما وصَل إلىٰ الرَّمْل تَوَهَّم منه الصالحُ أيوبُ، وأرْسَل إليه كمالَ الدين ابنَ الشيخ ليَقْبِضَ عليه، فرجَع الجَوادُ، فاسْتَجار بالناصر داودَ، وكان إذ ذاك بالقدس الشريف، وبعَث معه جيشًا، فالْتَقَوْا مع ابن الشيخ، فكسَروه وأسروه، فوبَّخه الناصرُ داودُ، ثم أطْلَقه، وأقام الجَوَادُ في خدمة الناصر حتىٰ تَوَهَّم منه، فقيَّده وأرْسَله تحتَ الحَوْطة إلىٰ بغدادَ، فأطْلَقه بطنٌ من العرب عن قوة، فلجَأ إلىٰ صاحب دمشقَ مدةً، ثم انْتَقل إلىٰ الفرنج، ثم عاد إلىٰ دمشقَ، فحبَسه الصالحُ إسماعيلُ بعَزَّتا إلىٰ أن مات في سنة إحدىٰ وأربعين كما سيأتي.

وفيها: شرَع الصالحُ أيوبُ في بناء المَدارس بمصرَ، وبنَىٰ قلعةً بالجَزيرة غرِم عليها شيئًا كثيرًا من بيت المال، وأخَذ أمْلاكَ الناس، وخرَّب نَيِّفًا وثلاثين مسجدًا، وقطَع ألفَ نخلة، ثم أخْرَبها التُّرْكُ في سنة إحدىٰ وخمسين كما سيأتي بيانُه.

وفيها: ركب الملكُ المنصورُ إبراهيمُ ابنُ الملك المجاهد صاحبُ حمصَ، ومعه الحلبيُّون، فاقْتَتلوا مع الخُوارَزْمية بأرض حَرَّانَ، فكسَروهم ومزَّقوهم كلَّ مُمَزَّق، وعادوا مَنْصورين إلىٰ بلادهم، فاصْطَلَح شهابُ الدين غازي صاحبُ ميَّافارقين مع الخُوارَزْمية، وآواهم إلىٰ بلده ليكُونوا من حزْبه.

قال أبو شامة: وفيها: كان دخولُ الشيخِ عزِّ الدين إلى الديارِ المصرية، فأكرَمه صاحبُها، وولَّاه الخَطابةَ بالقاهرةِ وقَضاءَ القُضاةِ بمصرَ، بعدَ وفاةِ القاضي شرفِ الدينِ المُوقِّع، ثم عزَل نفسَه مرتين، وانقَطَع في بيتِه، رحمه اللَّهُ تعالى.

قال: وفيها: تُوُفِّي بالمَوْصِلِ الشمسُ بنُ الخَبَّازِ النحْويُّ الضَّريرُ في سابعِ رجبٍ. والكَمالُ بنُ يونسَ الفقيهُ في النصفِ من شعبانَ، وكانا فاضلَيْ بلدِهما في فنِّهما.

قلتُ: أما الشمسُ بنُ الخَبَّازِ فهو أبو عبدِ اللَّه أحمدُ بنُ الحسين بن أحمدَ بنِ معالي بن منصور بن علِيٍّ، الضَّريرِ النَّحويُّ الموصليُّ، المعروفُ بابنِ الخَبَّازِ، اشْتَغل بعلمِ العربيةِ وحَفِظَ «المُفَصَّلَ» و«الإيضاحَ والتَّكْملة» والعَروضَ والحسابَ، وكان يَحْفَظُ «المُجْمَلَ» في اللغةِ وغيرَ ذلك، وكان شافعيَّ المذهبِ، كثيرَ النَّوادرِ والمُلَحِ، وله أشعارٌ جيدةٌ، وكانت وفاتُه في العاشرِ من رجبٍ، وله من العمرِ خمسون سنةً، رحمه اللَّهُ تعالى.

وأمَّا الكمالُ بنُ يونُسَ فهو موسى بنُ يونُسَ بن محمد بن مَنَعةَ بن مالك العُقَيْليُّ، أبو الفتح الموصليُّ، شيخُ الشافعية بها، ومدرسٌ بعدةِ مَدارسَ فيها، وكانت له معرفةٌ تامةٌ بالأُصولِ والفروعِ والمَعْقولاتِ والمَنْطِقِ والحكمةِ، ورحَل إليه الطلبةُ من البُلْدانِ، وبلَغ ثمانيةً وثمانين عامًا، وله شعرٌ حسنٌ. فمن ذلك ما امْتَدَح به البدرَ لؤلؤًا صاحبَ الموصلِ، وهو قولُه:

لئن شَرُفَتْ أرضٌ بمالك رِقِّها ... فمَمْلكةُ الدنيا بكُمْ تَتَشَرَّفُ

بَقِيتَ بقاءَ الدهرِ أمرُك نافذٌ ... وسعيُك مشكورٌ وحُكمُك مُنصِفُ

كان مولدُه سنةَ إحدى وخمسين وخمسمائةٍ، وتُوُفِّي للنصفِ من شعبانِ هذه السنةِ، رحمه اللَّه تعالى.

قال أبو شامة: وفيها تُوُفِّي بدمشقَ: عبدُ الواحد الصُّوفيُّ الذي كان قَسًّا راهبًا بكَنيسةِ مَرْيَمَ سبعين سنةً، أسْلَم قبلَ موتِه بأيامٍ، ثم تُوُفِّي شيخًا كبيرًا بعدَ أن أقام بخانْقاه السُّمَيْساطيةِ أيامًا، ودُفِن بمَقابرِ الصوفية، وكانت له جنازةٌ حافلةٌ، حضَرْتُ دفنَه والصلاةَ عليه، رحمه اللَّهُ تعالى.

أبو الفضل أحمدُ بنُ إسْفَنْديارَ بن المُوَفَّق بن أبي عليٍّ البُوشَنْجيُّ الواعظُ، شيخُ رباط الأرجُوانية.

قال ابنُ الساعي: كان جميلَ الصورةِ، حسَنَ الأخلاقِ، كثيرَ التَّوَدُّدِ والتَّواضُعِ، مُتَكَلِّمًا مُفَوَّهًا مَنْطِقيًّا، حسنَ العبارةِ، جيدَ الوعظِ، طيبَ الإنْشادِ، عَذْبَ الإيرادِ، له نَظْمٌ حسنٌ. ثم ساق عنه قصيدةً يَمْدَحُ بها الخليفةَ المُسْتَنْصِرَ.

أبو بكر محمدُ بنُ يحيى بن المُظَفَّر بن عليِّ بن نُعَيْم، المعروفُ بابن الحُبَيْر السَّلاميِّ، شيخٌ صالحٌ عالمٌ فاضلٌ، كان حَنْبَليًّا، ثم صار شافعيًّا، ودرَّس بعدةِ مدارسَ ببغدادَ للشافعية، وكان أحدَ المُعَدِّلين بها،

تولَّىٰ مُباشَراتٍ كثيرةً، وكان فقيهًا أُصوليًّا عالمًا بالخلافِ، وتقدَّم ببلدِه وعظُم كثيرًا، ثم اسْتَنابه ابنُ فَضْلانَ بدارِ الحَرِيم، ثم صار مِن أمرِه أن درَّس بالنِّظامية، وخُلع عليه ببغلةٍ، وحضَر عندَه الأعيانُ، ومازال بها حتىٰ تُوُفِّي عن ثمانين سنةً، ودُفِن ببابِ حربٍ.

قاضي القُضاة ببغدادَ أبو المعالي عبدُ الرحمن بنُ مُقْبلِ بنِ عليٍّ الواسطيُّ الشافعيُّ، اشْتَغل ببغدادَ، وحصَّل وأعاد في بعضِ المدارسِ، ثم اسْتَنابه قاضي القُضاة عمادُ الدين أبو صالحٍ نصرُ بنُ عبدِ الرَّزَّاقِ بنِ عبدِ القادرِ، في أيامِ الخليفة الظاهرِ بنِ الناصرِ، ثم ولِي قضاءَ القُضاة مُسْتَقلاًّ، ثم ولِي تدريسَ المُسْتَنْصرية بعدَ موتِ أولِ مَن درَّس بها مُحْيي الدينِ محمدِ بنِ فَضْلانَ، ثم عُزِل عن ذلك كلِّه، وعُيِّن لمَشْيَخةِ بعضِ الرُّبُطِ، ثم كانت وفاتُه في هذا العامِ، وكان فاضلاً دَيِّنًا مُتواضعًا، رحمه اللَّهُ تعالىٰ وعفا عنه.

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة

فيها: تُوُفِّي المُسْتَنْصرُ باللَّهِ وخلافةُ ولده المُستَعصِمِ باللَّه، فكانت وفاةُ الخليفةِ المُستَنصرِ باللَّه أميرِ المؤمنين بُكْرةَ يوم الجمعةِ عاشرَ جُمادَىٰ الآخرةِ، وله مِن العُمرِ إحدىٰ وخمسون سنةً، وأربعةُ أشهرٍ وسبعةُ أيامٍ، وكُتِم موتُه حتىٰ كان الدعاءُ له علىٰ المنابرِ ذلك اليوم، وكانت مدةُ ولايتِه ستَّ عشْرةَ سنةً وعشَرةَ أشهرٍ وسبعةَ وعشرين يومًا، ودُفِن بدارِ الخلافةِ، ثم نُقِل إلىٰ الترب مِن الرُّصافةِ. وكان جميلَ الصورةِ، حسنَ السَّريرةِ، جيدَ السِّيرةِ، كثيرَ الصَّدَقاتِ والبرِّ والصِّلاتِ، مُحْسنًا إلىٰ الرعيةِ بكلٍّ ما يَقْدرُ عليه، كان جدُّه الناصرُ قد جمَع ما يَتَحَصَّلُ مِن الذهبِ في بركةٍ بدارِ الخلافةِ، فكان يَقِفُ علىٰ حافَّتِها ويقولُ: أَتُرَىٰ أَعيشُ حتىٰ أَمْلأَها. وكان المُسْتَنْصرُ يَقِفُ علىٰ حافَّتِها ويقولُ: أَتُرَىٰ أَعِيشُ حتىٰ أُنْفِقَها كلَّها. كان يَبْني الرُّبُطَ والخاناتِ والقَناطرَ في الطُّرُقاتِ مِن سائرِ الجهاتِ، وقد عمل بكلِّ مَحَلَّةٍ مِن مَحَالِّ بغدادَ دارَ ضيافةٍ للفقراء، لاسيَّما في شهرِ رمضانَ، وكان يَتَقَصَّدُ الجَواريَ اللاتي قد بَلَغْن الأربعين، فيُشْتَرَيْن له فيُعتقُهن ويُجهزُهن ويُزَوِّجُهن، وفي كلِّ وقتٍ يُبْرِزُ صِلاتِه أُلوفٌ مُتَعدِّدةٌ مِن الذهبِ، تُفَرَّقُ في المَحالِّ ببغدادَ علىٰ ذَوِي الحاجاتِ والأراملِ والأيْتامِ وغيرِهم، تقَبَّل اللَّهُ تعالىٰ منه وجزاه خيرًا، وقد وضَع ببغدادَ المدرسةَ المستنصريةَ للمَذاهبِ الأربعة، وجعَل فيها دارَ حديثٍ ومَارَسْتانًا وحمامًا ودارَ طِبٍّ، وجعَل لمُسْتَحِقِّيها مِن الجوامكِ والأطعمةِ والحَلاواتِ والفواكهِ ما يَحْتاجون إليه في أوقاتِه، وأوقَف عليها أوقافًا عظيمةً حتىٰ قيل: إن ثمنَ التِّبْنِ مِن غَلاَّتِ رِيعِها يَكْفي المدرسةَ وأهلَها. ووقَف فيها كُتُبًا نَفيسةً ليس لها في الدنيا نَظيرٌ، فكانت هذه المدرسةُ جَمالاً لبغدادَ، بل لسائرِ البلادِ.

وقد احترق في هذه السنة المَشْهَدُ الذي بسامَرًّا المنسوبُ إلى عليٍّ الهادي والحسنِ العَسْكريِّ، وقد كان بناه أرْسَلان البَساسيريُّ في أيام تَغَلُّبه على تلك النَّواحي، في حدودِ سنة خمسين وأربعمائة، فأمَر الخليفةُ المُستَنْصِرُ بإعادته إلى ما كان عليه، وقد تكلَّمت الرَّوافضُ في الاعْتذارِ عن حريقِ هذا المشهدِ بكلامٍ طويلٍ باردٍ لا حاصلَ له، وصنَّفوا فيه أخْباراً، وأنْشَدوا أشعاراً كثيرةً لا مَعْنَى لها، وهو المشهدُ الذي يَزْعمون أنه يخرجُ منه المُنْتَظَرُ الذي لا حقيقةَ له، لا عينَ ولا أثرَ، ولو لم يُبْنَ لَكانَ أجوَدَ، وهو الحسنُ بنُ عليِّ بنِ محمدٍ الجَوَادِ بنِ عليٍّ الرضا بنِ موسى الكاظمِ بنِ جعفرٍ الصادقِ بنِ محمدِ بنِ الباقرِ بنِ عليٍّ زينِ العابدين بنِ الحسينِ الشَّهيدِ بكَرْبلاءَ، ابنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، رضي اللَّهُ عنهم أجْمَعين، وقبَّح مَن يَغْلُو فيهم ويُبْغِضُ بسببِهم مَن هو أفضلُ منهم.

وكان المُستَنصرُ، رحمه اللَّهُ، كريمًا حليمًا رئيسًا مُتَوَدِّدًا إلى الناسِ، وكان جميلَ الصورةِ، حسَنَ الأخلاقِ، بَهِيَّ المَنْظَرِ، عليه نورُ بيتِ النبوةِ، رضي اللَّهُ تعالى عنه وأرْضاه. وحُكي أنه اجْتاز راكبًا في بعضِ أزقةِ بغدادَ قبلَ غروبِ الشمسِ مِنْ رمضانَ، فرأى شيخًا كبيرًا، ومعه إناءٌ فيه طعامٌ، قد حمَله من مَحَلَّةٍ إلى مَحلَّةٍ أخرى، فقال: أيُّها الشيخُ، لمَ لا أخَذتَ الطعامَ من مَحلَّتك؟ أوَ أنت محتاجٌ فتأخذَ من المَحلَّتَين؟ فقال: لا واللَّهِ يا سيدي - ولم يَعْرِفْ أنه الخليفةُ - ولكنِّي شيخٌ كبيرٌ، وقد نزَل بيَ الوقتُ، وأنا أَسْتَحِي من أهلِ مَحلَّتي أن أُزاحِمَهم وقتَ الطعامِ، وأتَحَيَّنُ وقتَ كونِ الناسِ في صلاةِ المغربِ، فأَدْخُلُ بالطعامِ إلى منزلي حيثُ لا يَراني أحدٌ. فبكَى الخليفةُ، رحمه اللَّهُ تعالى، وأمَر له بألفِ دينارٍ، فلما دُفِعَت إليه فرح الشيخُ فرحًا شديدًا حتى قيل: إنه انْشَقَّ قلبُه من شدةِ الفرحِ، ولم يَعِشْ بعدَ ذلك إلا عشرين يومًا، ثم مات فحُملت الألفُ دينارٍ إلى الخليفةِ؛ لأنه لم يَخْلُفْ وارثًا. وقد أنْفَقَ منها دينارًا واحدًا، فتعجَّب الخليفةُ من ذلك، وقال: شيءٌ قد خرَجْنا عنه للَّهِ لا يَعودُ إلينا، تصدَّقوا بها على فُقراءِ مَحلَّتِه.

وقد خلَّف من الأولادِ ثلاثةً؛ اثنان شَقيقان، وهما أميرُ المؤمنين المُستَعْصِمُ باللَّهِ الذي ولِي الخلافةَ بعدَه أبو أحمدَ عبدُ اللَّهِ، والأميرُ أبو القاسمِ عبدُ العزيزِ، وأختُهما من أمٍّ أخرى كريمةُ، صان اللَّهُ حِجابَها. وقد رثاه الناسُ بأشعارٍ كثيرةٍ، أوْرَد منها ابنُ الساعي قطعةً صالحةً، رحمه اللَّهُ تعالى.

ولم يَسْتَوْزِرْ أحدًا، بل أقَرَّ أبا الحسنِ محمدَ بنَ محمدٍ القُمِّيَّ على نِيابةِ الوزارةِ، ثم كان بعدَه نصيرُ الدينِ أبو الأزْهَرِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الناقدِ الذي كان أُستاذَ دارِ الخلافةِ، واللَّهُ تعالى أعلمُ بالصوابِ.

خلافة المستعصم بالله أمير المؤمنين

وهو آخرُ خُلفاءِ بني العباسِ ببغدادَ، وهو الخليفةُ الشَّهيدُ الذي قتَله التَّتارُ بأمرِ هُلاوو بنِ تولي ملكِ التتارِ بنِ جنكزخان، لعَنه اللَّهُ، في سنةِ ستٍّ وخمسين وستِّمائةٍ، كما سيأتي بيانُه، إن شاء اللَّهُ تعالى، وهو أميرُ المؤمنين المُسْتَعْصِمُ باللَّهِ الإمامُ أبو أحمدَ عبدُ اللَّهِ بنُ أميرِ المؤمنين المُستَنصِرِ باللَّهِ أبي جعفرٍ المنصورِ بنِ أميرِ المؤمنين الظاهرِ باللَّهِ أبي نصرٍ محمدِ بنِ أميرِ المؤمنين الناصرِ لدينِ اللَّهِ أبي العباسِ أحمدَ بنِ أميرِ المؤمنين المُستَضِيءِ بأمرِ اللَّهِ أبي محمدٍ الحسنِ ابنِ أميرِ المؤمنين المُستَنجِدِ باللَّهِ أبي المُظَفَّرِ يوسُفَ بنِ أميرِ المؤمنين المُقْتَفِي لأمرِ اللَّهِ أبي عبدِ اللَّهِ محمدِ ابنِ أميرِ المؤمنين المُستَظهِرِ باللَّهِ أبي العباسِ أحمدَ ابنِ أميرِ المؤمنين الخليفةِ المُقْتَدي بأمرِ اللَّهِ أبي القاسمِ عبدِ اللَّهِ، وبقيةُ نسبِه إلى العباسِ في ترجمةِ جدِّه الناصرِ، وهؤلاء الذين ذَكَرْناهم كلُّهم ولي الخلافةَ، يَتْلُو بعضُهم بعضًا، ولم يَتَّفِقْ هذا لأحدٍ قبلَ المُسْتَعْصِمِ؛ أن في نسبِه ثمانيةٌ ولُوا الخلافةَ نَسَقًا لم يَتخَلَّلْهم أحدٌ، وهو التاسعُ، رحمه اللَّهُ تعالى.

لما تُوُفِّي أبوه بُكْرَةَ الجمعةِ عاشرَ جُمادَى الآخرةِ من سنةِ أربعين وستِّمائةٍ استُدْعِي هو من التاجِ يومَئذٍ بعدَ الصلاةِ فبُويِع بالخلافةِ، ولُقِّب بالمُستَعصِمِ، وله من العمرِ يومَئذٍ ثلاثون سنةً وشهورٌ، وقد أتْقَن في شَبِيبَتِه تلاوةَ القرآنِ حفظًا وتَجْويدًا، وأتْقَن العربيةَ والخطَّ الحسنَ وغيرَ ذلك من الفَضائلِ على الشيخِ شمسِ الدينِ أبي المُظَفَّرِ عليِّ بنِ محمدِ بنِ النيارِ أحدِ أئمةِ الشافعيةِ في زمانِه، وقد أكْرَمه، وأحْسَن إليه في خلافتِه، وكان المُستَعْصِمُ، على ما ذُكِر، كثيرَ التِّلاوةِ، حسَنَ الأداءِ، طيبَ الصوتِ، يَظهَرُ عليه خشوعٌ وإنابةٌ، وقد نظَر في شيءٍ من التفسيرِ وحَلِّ المُشْكِلاتِ، وكان مَشْهورًا بالخيرِ، مَشْكورًا، مُقْتَديًا بأبيه المُستَنصِرِ جُهْدَه وطاقتَه، وقد مشَت الأمورُ في أيامِه على السَّدادِ والاسْتِقامةِ، وللَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وكان القائمُ بهذه البيعةِ المُستَعْصِميةِ شرفُ الدينِ أبو الفَضائلِ إقبالٌ المُستَنصِريُّ، فبايَعه أولًا بنو عمِّه وأهلُه من بني العباسِ، ثم أعْيانُ الدولةِ من الأمراءِ والوُزَراءِ والقَضاةِ والعلماءِ والفقهاءِ ومَن بعدَهم من أُولي الحَلِّ والعَقْدِ والعامَّةِ وغيرِهم، وكان يومًا مشهودًا، ومَجْمَعًا محمودًا، ورأيًا سعيدًا، وأمرًا حميدًا، وجاءَت البَيْعةُ من سائرِ الجهاتِ والأقْطارِ، والبُلْدانِ والأمْصارِ، وخُطِب له في سائرِ البُلْدانِ، والأقاليمِ والرَّساتيقِ، وعلى سائرِ المَنابرِ شرقًا وغربًا، بُعْدًا وقُرْبًا، كما كان أبوه وأجْدادُه من بني العباسِ، رحمهم اللَّهُ أجْمَعين.

ومما وقَع من الحوادثِ في هذه السنةِ أنه كان بالعراقِ وَباءٌ شديدٌ في آخرِ أيامِ المُستَنصِرِ، وغلا السكرُ والأدْويةُ، فتصدَّق الخليفةُ المُستَنصِرُ باللَّهِ، رحمه اللَّهُ تعالى، بسكرٍ كثيرٍ على المَرْضَى، تقبَّل اللَّهُ منه.

وفي يوم الجمعة رابعَ عشرَ شعبانَ أذن الخليفةُ المُستعصمُ باللَّه لأبي الفرج عبدِ الرحمنِ بنِ مُحْيي الدينِ يوسُفَ ابنِ الشيخِ أبي الفرجِ ابنِ الجوزيِّ ـ وكان شابًا ظريفًا فاضلاً ـ في الوَعْظِ بِبابِ البَدْرِية، فتكلَّم وأجاد وأفاد، وامْتَدح الخليفةَ المُستعصمَ بقصيدةٍ مُفيدةٍ طويلةٍ جليلةٍ فَصيحةٍ مَليحةٍ، سرَدها ابنُ الساعي بكَمالِها، ومَن يُشابِهْ أباه فما ظَلَم، والشِّبْلُ في المَخْبَرِ مثلُ الأسد.

وفيها: كانت وقْعةٌ عظيمةٌ بينَ الحلَبيِّين وبينَ الخُوارَزْمية، ومع الخُوارَزْميةِ شهابُ الدينِ غازي صاحبُ مَيَّافارِقينَ، فكسَرهم الحَلَبيون كسْرةً عظيمةً مُنْكَرةً، وغنِموا من أموالِهم شيئًا كثيرًا جدًّا، ونُهِبَت نَصيبِينُ مرةً أخرىٰ، وهذه سابعَ عشرَ مرةً نُهِبَت في هذه السِّنين، فإنا للَّهِ وإنا إليه راجعون. وعاد غازي إلىٰ مَيَّافارِقينَ، وتفرَّقَت الخُوارَزْميةُ يَعيثون في الأرضِ فَسادًا صُحْبةَ مُقَدَّمِهم بَرَكات خان، لا باركَ اللَّهُ فيه، وقدِم علىٰ شهابِ الدينِ غازي مَنْشورٌ بمدينةِ خِلاطَ فتسلَّمها وما فيها من الحَواصِلِ.

وفيها: عَزَمَ الصالحُ أيوبُ صاحبُ مصرَ علىٰ دخولِ الشامِ، فقيل له: إن العساكرَ مُخْتلفةٌ، فجهَّز عَسْكرًا إليها، وأقام هو بمصرَ يُدبِّرُ مَمْلَكتَها.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

المُسْتَنصِرُ باللَّه أميرُ المؤمنين كما تقدم.

والحُرْمَةُ المَصُونَةُ الجليلةُ بركاتُ خاتون بنتُ عِزِّ الدين مسعودِ بنِ مَوْدودِ بنِ زَنْكي بنِ آقْسُنْقُرَ الأتابكيَّةُ، واقفةُ المدرسةِ الأتابكيَّةِ بالصالحيَّةِ، وكانت زوجةَ السُّلْطانِ الملكِ الأشْرف، رحمه اللَّهُ، وفي ليلةِ وفاتِها كانت وقَفَت مدرستَها وتربتَها بالجبلِ. قاله أبو شامةَ، ودُفِنَت بها، رحمها اللَّهُ تعالىٰ وتقبَّل منها.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة

فيها: تردَّدَت الرسلُ بينَ الصالحِ أيوبَ صاحبِ مصرَ وبينَ عمِّه الصالحِ إسماعيلَ صاحبِ دمشقَ، علىٰ أن يَرُدَّ إليه ولدَه المُغيثَ عمرَ بنَ الصالحِ أيوبَ المُعْتَقَلَ في قلعةِ دمشقَ، وتَسْتَقِرَّ دمشقُ في يدِ الصالحِ إسماعيلَ، فوقَع الصلحُ علىٰ ذلك، وخُطِب للصالحِ أيوبَ بدمشقَ، فخاف الوزيرُ أمينُ الدولةِ أبو الحسنِ غَزَّالٌ المسلمانيُّ، وزيرُ الصالحِ إسماعيلَ من غائلةِ هذا الأمر، فقال لمَخْدومه: لا تَرُدَّ هذا الغلامَ إلىٰ أبيه تَخْرُجُ البلادُ من يدِك، هذا خاتمُ سليمانَ في يدِك للبلاد. فعندَ ذلك أبْطَلَ ما كان وقَع من الصُّلحِ، وردَّ الغلامَ إلىٰ القلعة، وقُطِعَت الخطبةُ للصالحِ أيوبَ، ووقَعَت الوَحْشةُ بينَ الملكَيْن، وأرْسَل الصالحُ أيوبُ إلىٰ الخُوارَزْميةِ يَسْتَحْضِرُهم لحصارِ دمشقَ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وكانت الخُوارَزْميةُ قد فتَحوا في هذه السنة بلادَ الروم، وأخَذوها من أيدي ملكِها ابنِ علاء الدين، وكان قليلَ العقلِ يَلْعَبُ بالكلابِ والسِّباعِ، ويُسَلِّطُها على الناسِ، فاتَّفَق أنه عضَّه سَبُعٌ فمات، فتغَلَّبوا على البلادِ حينَئذٍ.

وفيها: احْتِيط على أعْوانِ القاضي الرَّفيعِ الجِيليِّ، وضُرِب بعضُهم بالمَقارِع، وصُودِروا، ورُسِم على القاضي الرَّفيعِ بالمدرسة المُقَدَّميَّة داخلَ بابِ الفَراديسِ، ثم أُخْرِجَ ليلاً وذُهِب به، فسُجِن بمَغارةِ أفقه من نَواحي البِقاعِ، ثم انْقَطَع خبرُه. وقال أبو شامةَ: وذكروا أنه تُوُفِّي لا رحِمه اللَّهُ تعالى، ومنهم مَن قال: إنه أُلْقِي من شاهِقٍ. ومنهم مَن قال: خُنِق. وذلك كلُّه بذي الحِجَّةِ من هذه السنة.

وفي يوم الجمعةِ الخامسِ والعشرينَ منه قُرِئَ مَنْشورُ ولايةِ القضاءِ بدمشقَ لمُحْيِي الدين يحيى بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ محمدِ بنِ يحيى القُرَشيِّ، بالشُّبَّاكِ الكَماليِّ بالجامعِ. كذا قال الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامةَ.

وزعَم السِّبْطُ أن عزلَه إنما كان في السنةِ الآتيةِ، وذكَر أن سببَ هلاكِه أنه كتَب إلى الملكِ الصالحِ يقولُ له: إنه أوْرَد إلى خزانته من الأموالِ ألفَ ألفِ دينارٍ من أموالِ الناسِ. فأنْكَر الصالحُ ذلك، وردَّ عليه الجوابَ أنه لم يَرِدْ سوى ألفِ ألفِ درهمٍ، فأرْسَل القاضي يقولُ: فأنا أُحاقِقُ الوزيرَ. وكان الصالحُ لا يُخالِفُ الوزيرَ، فأشار حينَئذٍ على الصالحِ بعزْلِه لتَبْرَأَ ساحةُ السلطانِ من شَناعاتِ الناسِ، فعزَلَه وكان من أمرِه ما كان. وفَوَّض أمرَ مَدارسِه إلى الشيخِ تَقيِّ الدينِ ابنِ الصَّلاحِ، فعيَّن العادليةَ للكَمالِ التَّفْليسيِّ، والعَذْراويَّةَ لمُحْيِي الدينِ ابنِ الزَّكيِّ الذي ولِي القضاءَ بعدَه، والأمينيةَ لابنِ عبدِ الكافي، والشاميةَ البَرَّانيةَ للتَّقيِّ الحَمَويِّ، وتغيَّب القاضي الرَّفيعُ، وأسْقَط عَدالةَ شهودِه.

قال السِّبْطُ: أرْسَلَه الأمينُ مع جماعةٍ على بغلٍ بإكافٍ لبعضِ النصارى إلى مَغارةِ أفقه في جبلِ لُبْنانَ من ناحيةِ الساحلِ، فأقام بها أيامًا، ثم أرْسَل إليه عَدْلَيْن من بَعْلَبَكَّ لِيَشْهَدا عليه ببيعِ أملاكِه من أمينِ الدَّولةِ، فذكَرا أنَّهما شاهَداه، وعليه تَخفيفةٌ وقَنْدُورةٌ، وأنه استَطْعَمهما شيئًا من الزَّادِ، وذكَر أنَّ له ثلاثةَ أيامٍ لم يَأْكُلْ شيئًا، وأطعماه من زوَّادتِهما، وشهِدا عليه وانْصَرَفا، ثم جاء داودُ النَّصْرانيُّ فقال: قُمْ، فقد أُمِرْنا بحملِك إلى بَعلَبَكَّ. فأيْقَن بالهَلاكِ حينَئذٍ، فقال: دَعُوني أُصَلِّي ركعتين. فقال: قُمْ. فقَام فصلَّى، فأطالَ الصلاةَ، فرفَسه النَّصْرانيُّ، فألْقاه من رأسِ الجبلِ إلى أسفلِ الوادي الذي هناك، فما وصَل حتى تقَطَّع، وحُكِي أنه تَعَلَّق ذيلُه بسنٍّ الجبلِ، فمازال داودُ يَرْميه بالحجارةِ حتى ألْقاه إلى أسفَلِ الوادي، وذلك عندَ الشُّقَيفِ المُطِلِّ على نهرِ إبراهيمَ.

قال السِّبْطُ: وقد كان فاسدَ العَقيدةِ، دَهْرِيًّا مُسْتَهْزِئًا بأمورِ الشرعِ، يَخْرُجُ إلى المجلسِ سَكْرانَ، ويَحْضُرُ إلى الجمعةِ كذلك، وكانت دارُه كالخاناتِ. فلا حولَ ولا قوةَ إلا باللَّهِ العليِّ العظيمِ. قال:

وأخذ المُوَفَّقُ الواسطيُّ أحدُ أُمَنائه ـ وكان من أكبرِ البَلايا ـ أخذ لنفسه من أموالِ الناسِ ستَّمائة ألف درهم، فعُوقب عُقوبةً عظيمةً حتى أُخِذَت منه، وقد كُسِرَت ساقاه، ومات تحتَ الضربِ، فأُلقيَ في مَقابرِ اليهودِ والنصارىٰ، وأكَلَتْه الكلابُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الشيخُ شمسُ الدين أبو الفُتُوح عمرُ بنُ أسعدَ بنِ المُنَجَّى التَّنوخيُّ المَعَرِّيُّ الحَنْبليُّ(١)، قاضي حَرَّانَ قديمًا، ثم قدِم دمشقَ، ودرَّس بالمِسْمارية، وتولَّىٰ خِدَمًا في الدولة المُعَظَّمية، وكانت له روايةٌ عن ابن صابرٍ والقاضِيَيْن؛ الشَّهْرَزُوريِّ وابنِ أبي عَصْرونَ، وكانت وفاتُه في سابعَ عشَرَ ربيعٍ الأول من هذه السنة، رحمه اللَّهُ تعالىٰ، وتوفِّي أخوه العِزُّ بعدَه في ذي الحجة، ودُفِنَ بمدرستِه التي بالجبلِ رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

الشيخُ الحافظُ الصَّالحُ تَقيُّ الدين أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ محمدِ بن الأزْهَرِ الصَّرِيفِينيُّ، كان يَدْرِي الحديثَ، وله به معرفةٌ جيدةٌ، أثْنَىٰ عليه أبو شامةَ، وصُلِّي عليه بجامع دمشقَ، ودُفِن بقاسيونَ، رحمه اللَّهُ.

واقفُ الكَرَوَّسيَّة محمدُ بنُ عقيلِ بنِ كَرَوَّسَ، جمالُ الدين مُحْتَسِبُ دمَشقَ، كان كَيِّسًا مُتواضعًا، تُوُفِّي بدمشقَ في شَوَّالٍ، ودُفِن بدارِه التي جعَلَها مدرسةً، وله دارُ حديثٍ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ وعفَا عنه.

الملكُ الجَوادُ يونسُ بنُ مَمْدود بن العادل أبي بكر بن أيُّوبَ، الملكُ الجَوَادُ، وكان أبوه أكبرَ أولادِ العادل، تَقَلَّبَت به الأحْوالُ، وملَكَ دمشقَ بعدَ عمِّه الكاملِ محمدِ بنِ العادل، وكان في نفسه جيدًا مُحبًّا للصالحين، ولكن كان في بابه مَن يَظْلِمُ الناسَ، ويَنْسِبُ ذلك إليه، فأبْغَضَته العامَّةُ، وسبُّوه، وألجَئوه إلىٰ أن قايَض بدمشقَ الملكَ الصالحَ أيوبَ بنَ الكاملِ إلىٰ سِنْجارَ وحصنِ كَيْفا، ثم لم يَحْفَظْهما بل خرَجَتا عن يده، ثم آل به الحالُ إلىٰ أن سجَنه الصالحُ إسماعيلُ بحصنِ عَزَّتا، حتىٰ كانت وفاتُه في هذه السنة، رحمه اللَّهُ تعالىٰ، فنُقِل في شَوَّالٍ إلىٰ تربة المعظَّم بسَفْحِ قاسيونَ، وكان عندَه ابنُ يَغْمورٍ مُعْتَقَلًا، فحوَّله الصالحُ إسماعيلُ إلىٰ قلعة دمشقَ، فلمَّا ملَكها الصالحُ أيوبُ نقَله إلىٰ الديارِ المصرية، وشنَقه مع الأمينِ غَزَّالٍ وزيرِ الصالح إسماعيلَ، علىٰ قلعة القاهرة، جَزاءً علىٰ صُنْعِهما في حقِّ الصالحِ أيوبَ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ؛ أما ابنُ يَغْمورٍ فإنه عمِل عليه حتىٰ حوَّل عنه مُلْكَ دمشقَ إلىٰ الصالحِ إسماعيلَ، وأما أمينُ الدولة فإنه منَع الصالحَ من تسليمِ ولدِه عمرَ إليه، فانْتَقَم منهما بهذا، وهو مَعْذُورٌ في ذلك.

مسعودُ بنُ أحمدَ بنِ مسعود بنِ مازَهَ البخاريُّ، أحدُ الفُقهاءِ الحَنَفيةِ الفُضلاءِ، وله علمٌ بالتفسيرِ

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٣ / ٨٠ ـ ٨١).

وعلم الحديث، ولديه فضلٌ غزيرٌ، قدم بغدادَ صُحْبَةَ رسولِ التَّتارِ للحجِّ، فحُبس عندَه سنتين، ثم أُفْرِج عنه، فحجَّ ثم عاد، فمات ببغدادَ في هذه السنة، رحمه اللَّهُ تعالى.

أبو الحسنِ عليُّ بنُ يحيى بنِ الحسنِ بنِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ محمدٍ البطريقِ بنِ نصرِ بنِ حَمْدونَ بنِ ثابتٍ الأسَديُّ الحِلِّيُّ، ثم الواسطيُّ، ثم البغداديُّ، الكاتبُ الشاعرُ الشِّيعيُّ، فَقيهُ الشِّيعة، أقام بدمشقَ مدةً، وامْتَدَح كثيرًا مِن الأمراءِ والملوكِ، منهم الكاملُ صاحبُ مصرَ وغيرُه، ثم عاد إلى بغدادَ، فكان يَشْغَلُ الشيعةَ في مذهبِهم، وكان فاضلاً ذَكيًّا، جيدَ النَّظْمِ والنَّثْرِ، ولكنه مَخْذولٌ مَحْجوبٌ عن الحقِّ. وقد أوْرَد ابنُ الساعي قطعةً جيدةً مِن أشعارِه في الكاملِ وغيرِه.

* * *

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة

فيها: استَوْزَرَ الخليفةُ المُستَعصِمُ باللهِ مُؤَيَّدَ الدينِ أبا طالبٍ محمدَ بنَ أحمدَ بنِ عليِّ بن محمد بنِ العَلْقَميِّ؛ المَشْئومَ على نفسه وعلى أهلِ بغدادَ، والذي لم يَعْصِم المُستَعْصِم في وِزارته؛ فإنه لم يكنْ وزيرَ صِدْقٍ ولا مَرْضيَّ الطريقة، فإنه الذي أعان على المسلمين في قضية هُولاَوو وجُنوده، قبَّحه اللهُ وإياهم، وقد كان ابنُ العَلْقَميِّ قبلَ هذه الوِزارة أُستاذَ دارِ الخلافة، فلما مات نصرُ الدينِ محمدُ بنُ الناقدِ استُوزِر ابنُ العَلْقَميِّ، وجُعِل مكانَه في الأستاذ دارية الشيخ مُحْيي الدين يوسُف ابنُ أبي الفَرَجِ ابنِ الجوزيِّ، وكان من خيارِ الناس، رحِمه اللهُ تعالى، وهو واقفُ الجَوْزية التي بالنَّشَّابِين بدمشقَ، تقبَّل اللهُ منه.

وفيها: جُعِل الشيخُ شمسُ الدينِ عليُّ بنُ محمدِ بنِ الحسينِ بنِ النيارِ مُؤَدِّبُ الخَليفة شيخَ الشيوخِ ببغدادَ، وخُلِع عليه، ووكَّل الخليفةُ عبدَ الوهَّابِ بنَ المُطَهِّرِ وكالةً مُطْلَقةً، وخلَع عليه.

وفيها كانت وَقْعةٌ عظيمةٌ بينَ الخُوارَزْمية الذين كان الصالحُ أيوبُ صاحبُ مصرَ قد استَقْدَمهم ليَستَنجِدَ بهم على الصالحِ إسماعيلَ أبي الحسنِ صاحبِ دمشقَ، فنزَلوا على غَزَّةَ، وأرْسَل إليهم الصالحُ أيوبُ الأمْوالَ والخِلَعَ والخيلَ والأقْمشةَ والعساكرَ، فاتَّفَق الصالحُ إسماعيلُ والناصرُ داودُ صاحبُ الكَرَك، والمنصورُ صاحبُ حِمْصَ مع الفرنجِ، واقْتَتلوا مع الخُوارَزْمية قتالاً شديدًا، فهزَمَتهم الخُوارَزْميةُ كَسْرَةً مُنْكَرَةً فَظيعةً، هزَمَت الفرنجَ بصُلْبانها وراياتها العالية على رُءُوسِ أَطْلابِ المسلمين، وكانت كُئوسُ الخمرِ دائرةً بينَ الجيوشِ، فنابَت كئوسُ المَنونِ عن تلك الخمورِ، فقُتِل من الفرنجِ في يومٍ واحدٍ زيادةٌ عن ثلاثين ألفًا، وأَسَروا جَماعةً من ملوكِهم وقُسوسِهم وأساقفتِهم، وخلقًا من أمراءِ المسلمين، وبَعثوا بالأُسارَىٰ إلى الصالحِ أيوبَ بمصرَ، وكان يومَئذٍ يومًا مشهودًا وأمرًا محمودًا، وقد قال بعضُ أمراءِ المسلمين: قد علِمْتُ أنّا لمّا وقَفْنا تحتَ صُلْبانِ الفرنجِ أنّا لا نُفلِحُ. وغنِمَت الخُوارَزْميةُ مِن الفرنجِ ومَن كان معهم شيئًا كثيرًا، وأرْسَل الصالحُ أيوبُ إلى دمشقَ ليُحاصِرَها، فحصَّنها الصالحُ إسماعيلُ، وخرَّب مِن حولِها رِباعًا كثيرةً، وكسَر جسرَ باب توما فكسرالنهرَ، فتراجَع الماءُ حتى صار بُحَيْرةً مِن بابِ تُوماءَ وبابِ السَّلامَةِ، فغرِق جميعُ ما كان بينَهما مِن العُمْرانِ، وافْتَقَر كثيرٌ مِن الناسِ، فإنا للهِ وإنا إليه راجعون.

ومِمَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الملكُ المُغيثُ عمرُ بنُ الصالحِ أيوبَ، كان الصالحُ إسماعيلُ قد أسَره، وسجَنه في بُرجِ قلعةِ دمشقَ، حينَ أخذَها في غَيْبة الصالحِ أيوبَ، فاجْتَهَد أبوه بكلِّ ممكنٍ في خَلاصِه فلم يَقْدِرْ، وعارَضه فيه أمينُ الدولةِ غَزَّالٌ المسلمانيُّ، واقفُ المدرسةِ الأَمينية ببَعْلَبَكَّ، فلم يَزَلِ الشابُّ محبوسًا بالقلعةِ مِن

سنة ثمانٍ وثلاثين إلىٰ ليلة الجمعة ثاني عَشَرَ ربيعِ الآخرِ من هذه السنة، فأصبح ميِّتًا في مَحْبِسه غمًّا وحُزْنًا، ويقال: إنه قُتل. فاللَّهُ أعلمُ. وكان من خيار أبناء الملوك، وأحسنهم شكلاً، وأكملهم عقلاً. ودُفن عندَ جدِّه الكامل في تربته شماليَّ الجامع، فاشْتَدَّ حَنَقُ أبيه الصالح أيوبَ علىٰ صاحب دمشقَ.

شيخُ الشيوخِ بدمشقَ، تاجُ الدين أبو محمد عبدُ اللَّه بنُ عمرَ بن عليِّ بن محمد بن حَمُّوَيَه، أحدُ الفُضلاء المُؤرِّخين المُصنِّفين، له كتابٌ في ثمانِي مُجلداتٍ، ذكَر فيه أصولَ الأشياء، وله «السياسةُ الملوكيةُ» صنَّفها للكامل محمدٍ، وغيرُ ذلك، وسمع الحديثَ وحفظ القرآنَ، وكان قد بلَغ الثمانين، وقيل: إنه لم يَبْلُغْها، وقد سافَر إلىٰ بلاد المغرب في سنة ثلاث وتسعين، واتَّصل بمَرَّاكُشَ عندَ ملكها المنصورِ يعقوبَ بنِ يوسفَ بنِ عبدِ المؤمنِ، فأقام هناك إلىٰ سنة ستِّمائة، فقدِم إلىٰ بلاد مصرَ، وولِي مَشْيَخةَ الشيوخ بعدَ أخيه صدرِ الدين بنِ حَمُّوَيَه، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

الوزيرُ نصيرُ الدين أبو الأزهر، أحمدُ بنُ محمد بن عليِّ بن أحمدَ بن الناقد البغداديُّ، وزيرُ المُستنصرِ، ثم ابنِه المُستعصمِ، كان من أبناء التجار، ثم توَصَّل إلىٰ أن وزَر لهذين الخليفتَيْن، وكان فاضلاً بارعًا حافظًا للقرآن، كثيرَ التِّلاوة، نشأ في حُشْمةٍ باذخة، ثم كان في وَجاهةٍ هائلة، وقد أُقْعِد في آخرِ أمره، وهو في ذلك في غاية الاحترام والإكرام، وله أشعارٌ حسنةٌ كثيرةٌ، أورَد منها ابنُ الساعي قطعةً صالحةً، تُوُفِّي في هذه السنة وقد جاوَز الخمسين.

نَقيبُ النُّقَباء وخطيبُ الخُطباء ووكيلُ الخلفاء، أبو طالب الحسينُ بنُ أحمدَ بن عليِّ بن أحمدَ بن هبة اللَّه بن محمد بن عليِّ ابن الخليفة المُهْتَدي باللَّه العباسيُّ، كان من سادات العباسيِّين وأئمة المسلمين، وخُطَباءِ المُؤمنين، واسْتَمرَّت أحوالُه علىٰ السَّداد والصَّلاح، ولم يَنْقَطِعْ قطُّ عن الخَطابة، ولم يَمْرَضْ قطُّ حتىٰ كانت ليلةُ السبت الثاني والعشرين من رجبٍ من هذه السنة، قام في أثناء الليل لبعض حاجاته، فسقَط علىٰ أمِّ رأسه، فسقَط من فمه دمٌ كثيرٌ، وسكَت فلم يَنْطِقْ كلمةً واحدةً يومَه ذلك إلىٰ الليل، فمات رحمه اللَّهُ تعالىٰ، وكانت له جنازةٌ حافلةٌ.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة

وهي سَنَةُ الخُوارَزْمية؛ وذلك أن الصالحَ أيوبَ بنَ الكامل صاحبَ مصرَ بعَث الخُوارَزْمية، ومعهم مَلِكُهم بَرَكاتُ خان في صُحْبة مُعِين الدين ابنِ الشيخ، فأحاطوا بدمشقَ يُحاصِرون عمَّه الصالحَ إسماعيلَ أبا الجَيْش صاحبَ دمشقَ، وأُحْرِق قصرُ حَجَّاجٍ، وحكْرُ السُّمَّاق، وجامعُ جَرَّاحٍ خارجَ باب الصغير، ومساجدُ كثيرةٌ، ونُصِبَ المَنْجَنيقُ عندَ باب الصغير وعندَ باب الجابية، ونُصِبَتْ داخلَ البلد مَنْجَنيقاتٌ أيضًا، وترَامَىٰ الفريقان، وأرْسَل الصالحُ إسماعيلُ إلىٰ الأمير مُعِين الدين ابنِ الشيخ بسَجَّادةٍ وعُكَّازٍ وإبريقٍ، وأرْسَل يقولُ: اشْتغالُك بهذا أوْلَىٰ من اشْتغالك بمُحاصَرة الملوك. فأرْسَل

إليه المُعِينُ بزَمْرٍ وجَنْكٍ وغُلالة حرير أحمرَ وأصفرَ، وأرْسَل يقولُ له: أما السَّجَّادةُ فإنها تَصلُحُ لي، وأما أنت فهذا أولى بك. ثم أصبَح ابنُ الشيخ، فاشْتَدَّ الحصارُ بدمشقَ، وأرْسَل الصالحُ إسماعيلُ، فأحْرَق جَوْسَقَ والده العادل، وامْتَدَّ الحَريقُ في زُقاقِ الرُّمَّان إلى العُقَيْبَة فاحْتَرَقَتْ بأسْرِها، وقُطِعَت الأنهارُ، وغلَت الأسعارُ وأُخيفَت الطرقُ، وجرَىٰ بدمشقَ أمورٌ شنيعةٌ بَشِعةٌ جدًّا، لم تتمَّ عليها قطُّ، وامْتَدَّ الحِصارُ شهوراً من هذه السنة إلى جمادىٰ الأولىٰ، فأرْسَل أمينُ الدولة يَطْلُبُ من ابن الشيخ شيئًا من ملابسه، فأرْسَل إليه بفَرَجيَّةٍ وعِمامةٍ وقَميصٍ ومِنْديلٍ، فلبِس ذلك الأمينُ، وخرَج إلى مُعِين الدين، فاجْتَمَع به بعدَ العِشاءِ طويلاً، ثم عاد، ثم خرَج مرةً أخرىٰ، فاتَّفَق الحالُ علىٰ أن يَخْرُجَ الصالحُ إسماعيلُ إلى بَعْلَبَكَّ، ويُسَلِّمَ دمشقَ إلى الصالح أيوبَ، ودخَل مُعِينُ الدين ابنُ الشيخ، فنزَل في دارِ أسامةَ، فولَّى وعزَل، وقطَع ووصَل، وفوَّض قَضاءَ القُضاةِ إلى صدرِ الدين ابن سَنِيِّ الدولة، وعزَل القاضيَ مُحْيِي الدين ابنَ الزَّكيِّ، واسْتَناب ابنَ سَنِيِّ الدولة التَّفْليسيَّ الذي ناب لابن الزَّكيِّ، والعزيزَ السِّنْجاريَّ، وأرْسَل مُعِينُ الدين ابنُ الشيخ أمينَ الدولة غَزَّالَ بنَ المسلمانيِّ وزيرَ الصالح إسماعيلَ تحتَ الحَوْطة إلى الديار المصرية.

وأما الخُوارَزْميةُ فإنهم لم يَكُونوا حاضِرين وقتَ الصُّلْح، فلما علِموا بوُقوع الصلح غضِبوا وساروا نحوَ داريَّا، فنهَبوها وساروا نحوَ بلادِ الشرق، وكاتَبوا الصالحَ إسماعيلَ فحالَفوه علىٰ الصالحِ أيوبَ، ففرِح بذلك، ونقَض الصلحَ الذي كان وقَع منه، وعادت الخُوارَزْميةُ فحاصَروا دمشقَ، وجاء إليهم الصالحُ إسماعيلُ من بَعْلَبَكَّ، فضاق الحالُ علىٰ الدَّماشقة، فعُدِمَت الأقواتُ، وغلَت الأسْعارُ جدًّا، حتىٰ إنه بلَغ ثمنُ الغِرارة ألفًا وستِّمائة، وقِنْطارِ الدقيقِ بسبعمائة، والخبزُ كلُّ وُقيَّتَيْن إلا ربعًا بدرهم، ورَطْلُ اللحم بسبعة، وأُبيعَت الأمْلاكُ بالدقيق، وأُكِلَت القِطاطُ والكلابُ والمَيْتاتُ والجِيَفُ، وتَماوَت الناسُ في الطرقات، وعجَزوا عن الغَسلِ والتَّكْفينِ والإقْبارِ، فكانوا يَلْقُون مَوْتاهم في الآبارِ، حتىٰ أنْتَنَت المدينةُ وضجِر الناسُ، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وفي هذه الأيامِ تُوُفِّي الشيخُ تَقيُّ الدين ابنُ الصلاح، شيخُ دارِ الحديثِ وغيرِها من المدارسِ، فما أُخْرِج من بابِ الفَرَج فدُفِن بالصوفية إلا بالجَهد الجَهيد، رحمه اللّهُ تعالىٰ.

قال السِّبْطُ: ومع هذا كانت الخُمورُ دائرةً والفِسْقُ ظاهراً، والمُكوسُ بحالها.

وذكَر الشيخُ شهابُ الدين أن الأسْعارَ غلَت في هذه السنة جدًّا، وهلَك الصَّعاليكُ بالطرقات؛ كانوا يَسْألون لُقْمةً، ثم صاروا يَسْألون لُبابةً، ثم تنازَلوا إلى فَلْسٍ يَشْتَرون به نُخالةً يَبُلُّونها ويأكُلونها كالدَّجاج. قال: وأنا شاهَدْتُ ذلك. وذكَر تَفاصيلَ الأسْعارِ وغَلاءَها في الأطعمةِ وغيرِها، ثم زال هذا كلُّه في آخرِ السنةِ بعدَ عيدِ الأضْحىٰ، وللّه الحمدُ والمِنَّةُ.

ولما بلَغ الصالحُ أيوبَ أن الخُوارَزْميةَ قد مالئُوا عليه، وصالَحوا عمَّه الصالحَ إسماعيلَ، كاتَب الملكَ المنصورَ إبراهيمَ بنَ أسدِ الدينِ شيرَكُوه صاحبَ حمصَ، فاستَمالَه إليه، وقوِي جانبُ نائبِ دمشقَ مُعينِ الدينِ حسنِ ابنِ الشيخِ، ولكنه تُوُفِّي في رمضانَ من هذه السنةِ كما سيأتي بيانُه في الوَفَياتِ.

ولما رجَع المنصورُ صاحبُ حمصَ عن مُوالاةِ الصالحِ إسماعيلَ، شرَع في جمعِ الجيوشِ من الحَلَبِيِّين والتُّرْكمانِ والأعرابِ لاسْتِنْقاذِ دمشقَ من الخُوارَزْميةِ، وحصارِهم إياها، فبلَغ ذلك الخُوارَزْميةَ فخافوا من ذلك وغائلتِه، وقالوا: دمشقُ ما تَفوتُ، والمصلحةُ قتالُه عندَ بلدِه. فساروا إليه عندَ بُحَيْرةِ حمصَ، وأرسَل الناصرُ داودُ جيشَه إلى الصالحِ إسماعيلَ مع الخُوارَزْميةِ، وساق جيشُ دمشقَ فانْضافوا إلى صاحبِ حمصَ، والْتَقوا مع الخُوارَزْميةِ عندَ بُحَيْرةِ حمصَ، وكان يومًا مشهودًا، قُتِل فيه عامَّةُ الخُوارَزْميةِ، وقُتِل ملكُهم بَرَكاتُ خان، وجِيءَ برأسِه على رُمْحٍ، فتفَرَّق شَمْلُهم، وتَمَزَّقوا شَذَرَ مَذَرَ، وساق المنصورُ صاحبُ حمصَ إلى بَعْلَبَكَّ، فتسَلَّمها الصالحُ أيوبُ، وجاء إلى دمشقَ، فنزَل بِبُسْتانِ سامةَ خدمةً للصالحِ أيوبَ، ثم حدَّثَته نفسُه بأخذِها، فاتَّفَق مرضُه، فمات رحمه اللَّهُ في السنةِ الآتيةِ، ونُقِل إلى حمصَ، فكانت مدةُ ملكِه لها بعدَ أبيه عشْرَ سنين، وقام من بعدِه فيها ابنُه الملكُ الأشرفُ مدةَ سنتين، ثم أُخِذَت منه على ما سيأتي، وتسَلَّم نُوَّابُ الصالحِ أيوبَ بَعْلَبَكَّ وبُصْرَى، ولم يَبْقَ بيدِ الصالحِ إسماعيلَ بلدٌ يأْوِي إليه ولا أهلٌ ولا ولدٌ ولا مالٌ، بل أُخِذَ جميعُ مالِه، ونُقِلَت عيالُه تحتَ الحَوْطةِ إلى الديارِ المصريةِ، وسار هو فاسْتَجار بالملكِ الناصرِ بنِ العزيزِ بنِ الظاهرِ غازي صاحبِ حلَبَ، فآواه وأكْرَمه واحْتَرمه، وقال الأتابَكُ لؤلؤٌ الحَلَبيُّ لابنِ أُستاذِه الناصرِ، وكان شابًّا صغيرًا: انْظُرْ إلى عاقبةِ الظلمِ. وأما الخُوارَزْميةُ فإنهم ساروا إلى ناحيةِ الكَرَكِ، فأكرَمهم الناصرُ داودُ صاحبُها، وأحْسَنَ إليهم، وصاهَرهم وأنْزَلهم بالصَّلْتِ، فأخَذوا معها نابُلُسَ، فأرْسَل إليهم الملكُ الصالحُ أيوبُ جيشًا مع فخرِ الدينِ ابنِ الشيخِ، فكسَرهم على الصَّلْتِ وأجْلاهم عن تلك البلادِ، وحاصَر النَّاصرَ بالكَرَكِ، وأهانه غايةَ الإهانةِ، وقدِم الملكُ الصالحُ نَجْمُ الدينِ أيوبُ من الديارِ المصريةِ، فدخَل دمشقَ في أُبَّهَةٍ عظيمةٍ، وأحْسَنَ إلى أهلِها، وتصَدَّق على الفقراءِ والمساكينِ وسار إلى بعلبكَّ وإلى بصرى وإلى صرخدا فَتَسلَّمَها من صاحبِها عزِّ الدينِ أيْبَكَ المُعَظَّميِّ، وعوَّضه عنها، ثم عاد إلى مصرَ مُؤَيَّدًا منْصورًا. وهذا كلُّه في السنةِ الآتيةِ، ولِلَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وفي هذه السنةِ كانت وَقْعةٌ عظيمةٌ بينَ جيشِ الخليفةِ وبينَ التَّتارِ، لعَنهم اللَّهُ، فكسَرهم المسلمون كَسْرةً عظيمةً، وفرَّقوا شَمْلَهم، وهَرَبوا من بينِ أيديهم، فلم يَلْحَقوهم، ولم يَتْبَعوهم خوفًا من غائلةِ

مكرِهم، وعملاً بقوله ﷺ: «اتركُوا التُّركَ ما تركوكم»[١] .

وفي هذه السنة ظهَر ببلادِ خُوزِسْتانَ، علىٰ شقِّ جبلٍ داخلَه، مِن الأبْنِيةِ الغَرِيبةِ العَجيبةِ ما يَحارُ فيه الناظرُ، وقد قيل: إن ذلك مِن بناءِ الجنِّ، وأورَد صفتَه ابنُ الساعي في «تاريخه».

وممَّن تُوُفِّيَ في هذه السنة من الأعْيان:

الشيخُ تَقيُّ الدينِ ابنُ الصَّلاحِ عثمانُ بنُ عبد الرحمن بن عثمانَ[٢] ، الشيخُ الإمامُ العَلاَّمةُ، مُفْتي الشامِ ومُحدِّثُه، تقيُّ الدينِ أبو عمرٍو ابنُ الصلاحِ، الشَّهْرَزُوريُّ ثم الدمشقيُّ، سمع الحديثَ ببلادِ الشرقِ، وتفقَّه هنالك بالموصلِ وحلَبَ وغيرِهما، وكان أبوه مُدَرِّسًا بالأسَدية التي بحلبَ، وواقفُها أسدُ الدينِ شِيرَكوه بنُ شاذي، وقدِم الشام، وهو في عِداد الفُضلاءِ الكِبارِ، وأقام بالقدسِ الشريفِ مدةً، ودرَّس بالصَّلاحية، ثم تحوَّل منه إلىٰ دمشقَ، ودرَّس بالرَّواحية ثم بالشاميَّة الجَوَّانية، ثم بدارِ الحديثِ الأشرفيةِ، وهو أولُ مَن وليَها مِن شيوخِ الحديث، وهو الذي صنَّف كتابَ وقْفِها، وقد صنَّف كتبًا كثيرةً مُفيدةً في علوم الحديث وفي الفقهِ، وتَعاليقَ حسنةً علىٰ «الوَسيطِ» وغيرِه مِن الفوائدِ التي يُرْحَلُ إليها. وكان دَيِّنًا زاهدًا ورِعًا ناسكًا، علىٰ طريقة السَّلَفِ الصالح، كما هي طريقةُ مُتَأَخِّري أكثرِ المُحَدِّثين، مع الفَضيلةِ التامَّةِ في فُنونٍ كثيرةٍ، ولم يَزَلْ علىٰ طريقةٍ جيدةٍ حتىٰ كانت وفاتُه بمنزله في دارِ الحديثِ الأشْرفيةِ، في ليلةِ الأربعاءِ الخامسِ والعشرين مِن ربيعٍ الآخرِ مِن سنة ثلاث وأربعين وستِّمائةٍ، وصُلِّي عليه بجامعِ دمشقَ، وشيَّعه الناسُ إلىٰ داخلِ بابِ الفرجِ، ولم يُمْكِنْهم البُروزُ لظاهرِه لحصارِ الخُوارَزْميةِ، وما صحبه إلىٰ جَبَّانة الصوفية إلا نحوُ العشَرة، رحمه اللَّهُ تعالىٰ وتغَمَّدَه برَحْمَتِه. وقد أثْنَىٰ عليه القاضي شمسُ الدينِ ابنُ خَلِّكانَ، وكان مِن شيوخِه. قال السِّبْطُ: أنْشَدني الشيخُ تَقيُّ الدينِ ابنُ الصلاحِ مِن لفظِه، رحمه اللَّهُ:

احْذَرْ مِن الواواتِ أرْ بعةً فهنَّ مِن الحُتُوفْ
واوَ الوصيَّةِ والوَدِيـ ـعةِ والوَكالةِ والوُقُوفْ

وحكَى ابنُ خَلِّكانَ عنه أنه قال: أُلهِمْتُ في المَنامِ هؤلاءِ الكَلماتِ؛ ادْفَعِ المسألةَ ما وجَدْتَ التَّجمُّلَ يُمْكِنُك، فإن لكلِّ يومٍ رزقًا جديدًا، والإلحاحُ في الطلبِ يُذْهِبُ البَهاءَ، وما أقربَ الصَّنيعَ مِن المَلْهوفِ، وربما كانت الغِيَرُ نوعًا مِن آدابِ اللَّهِ تعالىٰ، والحُظوظُ مَراتبُ فلا تَعْجَلْ علىٰ ثمرةٍ قبلَ أن تُدْرِكَ، فإنك ستَنالُها في أوانِها، ولا تَعْجَلْ في حَوائجِك فتَضيقَ بها ذَرْعًا، ويَغْشاكَ القُنوطُ.

ابنُ النَّجَّارِ الحافظُ صاحبُ «التاريخ»: محمدُ بنُ محمودِ بنِ الحسنِ بن هبةِ اللَّهِ بن مَحاسنَ بن

---

(١) أسانيده متكلم فيها تقدم تخريجه والكلام عليه .

(٢) ترجمته في «السير» (٢٣/ ١٤٠-١٤٤).

النَّجَّار، أبو عبد اللَّه البغداديُّ، الحافظُ الكبيرُ، سمع الكثيرَ، ورحَل شرقًا وغربًا، وُلد سنةَ ثمانٍ وسبعين وخمسمائة، وشرَع في كتابه «التاريخ» وعمرُه خمسَ عشْرةَ سنةً، وقرأ الأدبَ والنحوَ والقراءاتِ، وقرأ بنفسه على المَشايخِ كثيرًا، حتى حصَّل نحوًا من ثلاثةِ آلافِ شيخٍ، من ذلك نحوٌ من أربعمائةِ امرأةٍ، وتغرَّب ثمانيًا وعشرين سنةً، ثم عاد إلى بغدادَ وقد جمَع أشياءَ كثيرةً، من ذلك «القمرُ المُنيرُ في المُسْنَد الكبيرِ»، يَذْكُرُ لكلِّ صحابيٍّ ما روَى، و«كَنْزُ الأيامِ في معرفةِ السننِ والأحكامِ»، و«المُختلِفُ والمؤتلِفُ»، و«السابقُ واللاحقُ»، و«المُتَّفِقُ والمُفْتَرِقُ»، وكتابُ «الألقاب»، و«نَهْجُ الإصابةِ في معرفةِ الصحابةِ»، و«الكمالُ في أسماءِ الرجالِ»، وغيرُ ذلك مما لم يَتِمَّ أكثرُه، وله كتابُ «الذَّيْلِ على تاريخِ مدينةِ السلامِ»، في ستةَ عشَرَ مجلدًا كاملًا، وله في أخبارِ مكةَ والمدينةِ وبيتِ المقدسِ، و«غُرَرُ الفَوائدِ» في خمسِ مجلداتٍ، وأشياءُ كثيرة جدًّا، سرَدَها ابنُ الساعي في ترجمتِه، وذكَر أنه لما عاد إلى بغدادَ عُرِض عليه الإقامةُ في المدارسِ، فقال: معي ما أسْتَغْنِي به. فاشْتَرَى جاريةً، وأوْلَدها ولدًا، وأقام بُرْهةً يُنفِقُ على نفسِه من كسبِه، ثم احْتاج إلى أن نزَل مُحَدِّثًا في جماعةِ المُحَدِّثِين بالمدرسةِ المُسْتَنْصِريةِ حينَ وُضِعَت، ثم مرِض مدةَ شهرين، وأوْصَى إلى ابنِ الساعي في أمرِ تَرِكته، وكانت وفاتُه يومَ الثلاثاءِ الخامسَ من شعبانَ من هذه السنةِ، وله من العمرِ خمسٌ وسبعون سنةً، وصُلِّي عليه بالمدرسةِ النِّظاميةِ، وشهِد جنازَته خلْقٌ كثيرٌ، وكان يُنادَى حولَ جنازَتِه: هذا حافظُ حديثِ رسولِ اللَّه ﷺ، الذي يَنْفِي الكذبَ عنه. ولم يَتْرُكْ وارثًا، وكانت تَرِكتُه عشرين دينارًا وثيابَ بدنِه، وأوْصَى أن يُتَصَدَّقَ بها، وأوْقَف خِزانتَيْن من الكتبِ بالنِّظاميةِ تُساوِي ألفَ دينارٍ، فأمْضَى ذلك الخليفةُ المُسْتَعْصِمُ، وقد أثْنَى عليه الناسُ، ورثَوْه بمَراثٍ كثيرةٍ، سرَدَها ابنُ الساعي في آخرِ ترجمتِه.

الحافظُ ضياءُ الدينِ المَقْدسيُّ صاحبُ «الأحْكامِ»: محمدُ بنُ عبدِ الواحدِ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ الرحمنِ المقدسيُّ[1]، سمع الحديثَ الكثيرَ، وكتَب كثيرًا، ورحَل وطافَ وجمَع وصنَّف وألَّف كتبًا مُفيدةً حسنةً كثيرةَ الفَوائدِ، من ذلك كتابُ «الأحكام» ولم يُتِمَّه، وكتابُ «المُختارَةِ» وفيه علومٌ حسنةٌ حَديثيةٌ، وهي أجْوَدُ من «مُسْتَدْرَكِ الحاكمِ» لو كمَل، وله «فَضائلُ الأعمالِ»، وغيرُ ذلك من الكتبِ الحسنةِ الدالةِ على حفظِه واطِّلاعِه وتضلُّعِه من علمِ الحديثِ مَتْنًا وإسنادًا. وكان رحمه اللَّهُ تعالى في غايةِ العبادةِ والزَّهادةِ والوَرَعِ والخيرِ، وقد وقَف كتبًا كثيرةً عظيمةً بخطِّه لخزانةِ المدرسةِ الضِّيائيةِ التي وقَفها على أصحابِهم من أهلِ الحديثِ والفُقهاءِ، وقد وُقِفَت عليها أوقافٌ أُخَرُ كثيرةٌ بعدَ ذلك.

الشيخُ علَمُ الدينِ أبو الحسنِ السَّخاويُّ، عليُّ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الصَّمَدِ بنِ عبدِ الأحدِ بنِ عبدِ الغالبِ

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٣/ ١٢٦ - ١٣٠).

الهَمَداني المصري ثم الدمشقي، شيخُ القُرَّاء بدمشقَ، ختَم عليه ألوفٌ من الناسِ، وكان قد قرأ على الشاطبيِّ، وشرَح قصيدتَه، وله شرحُ «المُفَصَّلِ» وله تَفسيرٌ وتَصانيفُ كثيرةٌ، ومَدائحُ في رسولِ اللَّهِ ﷺ، وكان له حلْقةٌ بجامعِ دمشقَ، ووَلِي مَشْيخةَ الإقْراءِ بتربةِ أمِّ الصالحِ، وبها كان مَسْكَنُه، وبه تُوُفِّي ليلةَ الأحدِ ثاني عشرَ جُمادَى الآخرةِ، ودُفِن بقاسيونَ. وذكَر القاضي ابنُ خَلِّكانَ أن مولدَه في سنةِ ثمانٍ وخمسين وخمسِمائةٍ، وذكَر من شعرِه قولَه:

قالوا غدًا نأتي ديارَ الحِمَى ... ويَنزِلُ الرَّكْبُ بمَغْناهُمُ
وكلُّ مَن كان مُطيعًا لهمْ ... أصْبَح مَسْرورًا بلُقْياهمُ
قلتُ فلي ذنبٌ فما حيلتي ... بأيِّ وجْهٍ أتَلَقَّاهمُ
قالوا أليس العفوُ من شأنهمْ ... لاسيَّما عمَّن تَرَجَّاهمُ

ربيعةُ خاتون واقفةُ الصاحبةِ بقاسيونَ: ربيعةُ خاتون بنتُ أيوبَ أختُ السلطانِ صلاحِ الدينِ، زوَّجها أخوها أولًا بالأميرِ سعدِ الدينِ مسعودِ بنِ مُعينِ الدينِ أُنَرَ، وتزوَّج هو بأختِه عِصْمةِ الدينِ خاتون، التي كانت زوجةَ الملكِ نورِ الدينِ، رحمه اللَّهُ تعالى، واقفةَ الخاتونيةِ الجَوَّانيةِ والخانْقاه، ثم لما مات الأميرُ سعدُ الدينِ زوَّجها من الملكِ مُظَفَّرِ الدينِ صاحبِ إرْبِلَ، فأقامت عندَه بإرْبِلَ أزْيَدَ من أربعين سنةً حتى مات، ثم قدِمَت دمشقَ، فسكَنَت في دارِ العَقيقيِّ حتى كانت وفاتُها في هذه السنةِ وقد جاوَزَت الثمانين، ودُفِنَت بقاسيونَ، وكانت في خدمتِها الشيخةُ الصالحةُ العالمةُ أَمَةُ اللَّطيفِ بنتُ الناصحِ الحنبليِّ، وكانت فاضلةً، ولها تَصانيفُ، وهي التي أرْشَدَتها إلى وَقْفِ المدرسةِ الصاحبةِ بسفحِ قاسيونَ على الحَنابلةِ، وأوقَفَت أَمَةُ اللطيفِ على الحَنابلةِ مدرسةً أخرى، وهي الآن شرقيَّ الرِّباطِ الناصريِّ، ثم لما ماتت الخاتونُ وقَعَت العالمةُ في المُصادَراتِ، وحُبِسَت مدةً ثم أُفْرِج عنها، وتزَوَّجها الأشْرَفُ صاحبُ حِمْصَ، وسافَرَت معه إلى الرَّحْبةِ وتَلِّ باشرٍ، ثم تُوُفِّيَت في سنةِ ثلاثٍ وخمسين، ووُجِد لها بدمشقَ ذَخائرُ كثيرةٌ وجَواهرُ نَفيسةٌ، تُقارِبُ ستِّمائةِ ألفِ درهمٍ، غيرَ الأمْلاكِ والأوْقافِ.

مُعينُ الدينِ الحسنُ ابنُ شيخِ الشيوخِ، وزيرُ الصالحِ نَجْمِ الدينِ أيوبَ، أرْسَلَه إلى دمشقَ، فحاصَرها مع الخُوارَزْميةِ أولَ مرةٍ حتى أخَذها من يدِ الصالحِ إسماعيلَ، وأقام بها نائبًا من جهةِ الصالحِ أيوبَ، ثم تمالأ الخُوارَزْميةُ مع الصالحِ إسماعيلَ عليه، فحصَروه بدمشقَ، ثم كانت وفاتُه في العشْرِ الأخيرِ من رمضانَ هذه السنةِ، عن ستٍّ وخمسين سنةً، وكانت مدةُ ولايتِه بدمشقَ أربعةَ أشهرٍ ونصفًا، وصُلِّي عليه بجامعِ دمشقَ، ودُفِن بقاسيونَ إلى جانبِ أخيه عمادِ الدينِ.

وفيها: كانت وفاةُ **واقفِ القِلِجيةِ الحَنَفيةِ، وهو الأميرُ سيفُ الدينِ ابنُ قِلِيجٍ**، ودُفِن بتربتِه التي

بمدرسته المذكورة، التي كانت سكنَه بدار فلوس، تقبَّل اللَّهُ تعالى منه.

وخَطيبُ الجبلِ **شرَفُ الدين عبدُ اللَّه ابنُ الشيخ أبي عمرَ**، رحمه اللَّهُ تعالى.

والسيفُ **أحمدُ بنُ عيسى ابن الإمام مُوَفَّق الدين ابن قُدامةَ**.

وفيها: تُوُفِّي إمامُ الكَلاَّسةِ الشيخُ **تاجُ الدين أبو الحسن محمدُ بنُ أبي جعفر**، مُسْنِدُ وقتِه، وشيخُ الحديث في زمانه روايةً وصَلاحًا، رحمه اللَّهُ تعالى.

والمُحَدِّثان الكبيران الحافظان المُفيدان **شرَفُ الدين أحمدُ بنُ الجَوْهريِّ، وتاجُ الدين عبدُ الجَليلِ الأَبْهَريُّ**.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة

فيها: كسَر المنصورُ الخُوارَزْميةَ عندَ بُحَيْرةِ حِمْصَ، واستَقرَّت يدُ نُوَّابِ الصالح أيوبَ على دمشقَ وبَعْلَبَكَّ وبُصْرَىٰ، ثم في جُمادَىٰ الآخرة كسَر فخرُ الدين ابنُ الشيخ الخُوارَزْميةَ على الصَّلْت كَسْرةً، فرَّق بقيةَ شَمْلِهم، ثم حاصَر الناصرَ بالكَرَك، ورجَع عنه إلى دمشقَ.

وقدِم الصالحُ أيوبُ إلى دمشقَ في ذي القَعْدة، فأحْسَن إلى أهلها، وتسلَّم هذه المدنَ، وانْتَزَعَ صَرْخَدَ من يد عزِّ الدين أَيْبَك، وعوَّضه عنها، وأخَذ الصَّلْتَ من الناصر داودَ بن المُعَظَّم، وأخَذ حصنَ الصُّبَيْبَة من السعيد بن العزيز بن العادل، وعظُم شأنُه جدًّا، وزار في رُجوعه بيتَ المقدس، وتفَقَّد أحوالَه، وأمَر بإعادة أسْوارِه أن تُعَمَّرَ كما كانت في الدولة الناصرية، فاتح القدس، وأن يُصْرَفَ الخَراجُ وما يَتحَصَّلُ من غَلاَّتِ بيت المقدس في ذلك، وإن عاز شيئًا صرفَه من عنده.

وفيها: قدمت الرسلُ من عند البابا الذي للنصارىٰ تُخْبِرُ بأنه قد أباح دمَ الأنبرور ملك الفرنج؛ لتَهاوُنه في قتال المسلمين، وأرْسَل طائفةً من عنده ليَقْتُلوه، فلما انْتَهَوْا إليه كان قد اسْتَعَدَّ لهم، وأجْلَس مَمْلوكًا له على السَّرير، فاعْتَقدوه الملكَ فقتَلوه، فعندَ ذلك أخَذهم الأنبرورُ فصلَبهم على باب قَصْره بعدَما ذَبَحَهم وسلَخهم وحشَا جلودَهم تِبْنًا، فلما بلَغ ذلك البابا أرْسَل إليه جيشًا كثيفًا لقتاله، فأوْقَع اللَّهُ تعالى بينهم الخلافَ بسبب ذلك، ولِلَّه الحمدُ والمِنَّةُ، وبه التوفيقُ والعِصْمةُ.

وفيها: هبَّت ريحٌ عاصفةٌ شديدةٌ بمكةَ يومَ الثلاثاء ثامنَ عشَرَ ربيعٍ الآخر، فألْقَت ستارةَ الكعبة المُشَرَّفة، وكانت قد عَتُقَت، فإنها من سنة أربعين لم تُجَدَّدْ؛ لعدم الحجِّ في تلك السِّنينَ من ناحية الخليفة، فما سكَنَت الريحُ إلا والكعبةُ عُرْيانةٌ وقد زال عنها شِعارُ السَّواد، وكان هذا فألاً على زَوال دولة بني العباس، ومُنْذِرًا بما سيَقَعُ بعدَ هذا من كائنة التَّتار، لعَنهم اللَّهُ تعالى. فاسْتَأْذَن نائبُ اليَمَن عمرُ بنُ رسول شيخَ الحرم العفيفَ منصورَ بنَ منعةَ في أن يَكْسُوَ الكعبةَ، فقال: لا يَكونُ هذا إلا من مال الخليفة. ولم يَكُنْ عندَه مالٌ، فاقترَض ثلاثَمائة دينار، واشْتَرَىٰ ثيابَ قُطْنٍ، وصبَغها سَوادًا،

وركَّب عليها طرازاتِها العَتيقةَ، وكسَا بها الكعبةَ، ومكَثَت الكعبةُ ليس عليها كِسْوةٌ إحدىٰ وعشرين ليلةً.

وفيها: فُتِحَت دارُ الكتبِ التي أنْشَأَها الوزيرُ مُؤَيَّدُ الدينِ محمدُ بنُ أحمدَ العَلْقَميُّ بدارِ الوزارةِ، وجاءت في نهايةِ الحُسْنِ، ووُضع فيها مِن الكتبِ النَّفيسةِ النافعةِ شيءٌ كثيرٌ، وامْتَدَحها الشعراءُ بأبياتٍ وقصائدَ حِسانًا.

وفي أواخرِ ذي الحِجَّة طهَّرَ الخليفةُ المُسْتَعْصِمُ باللَّه ولديه الأميرَيْن أبا العباسِ أحمدَ وأبا الفَضائلِ عبدَ الرحمنِ، وعُمِلَت وَلائمُ ومآكلُ وأفراحٌ لا يُسْمَعُ بمثلِها مِن أزمانٍ مُتَطاولةٍ، وكان ذلك وَداعًا لمَسَرَّاتِ بغدادَ وأهلِها في ذلك الزمانِ.

وفيها: احْتاط الناصرُ داودُ صاحبُ الكَرَكِ على الأميرِ عمادِ الدينِ داودَ بنِ مُوسَك، وكان مِن خيارِ الأمراءِ والأجْوادِ الأمجادِ، واصْطَفىٰ أمواله كلَّها، وسجَنه عندَه في الكَرَكِ، فشفَع فيه فخرُ الدينِ ابنُ الشيخِ لمَّا كان مُحاصِرَه في الكَرَكِ فأطْلَقه، فخرَجت في حَلْقه خُرَاجةٌ، فبطَّها فمات، ودُفِن عندَ قبرِ جعفرٍ والشُّهداءِ بمُؤْتَةَ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

وفيها تُوُفِّي ملكُ الخُوارَزْمية قَبْلاً بركات خان لما كُسِرَت أصحابُه عندَ بُحَيْرةِ حمصَ، كما تقَدَّم ذِكْرُه.

وفيها توفِّي: الملكُ المنصورُ ناصرُ الدين إبراهيمُ بنُ الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحبُ حمصَ بدمشقَ بعد أن سلَّم بعلبكَّ للملك الصالح أيوب ونُقِلَ إلىٰ حمص وكان نزوله أوّلاً ببستان سامة فلما مرض حُمِلَ إلىٰ الدهشة بُسْتان الأشرف بالنَّيْرَب فمات به.

وفيها تُوُفِّي: الصائنُ محمدُ بنُ حَسَّانَ بن رافعٍ العامريُّ الخطيبُ، وكان كثيرَ السَّماعِ مُسْنِدًا، وكانت وفاتُه بقصرِ حَجَّاجٍ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

وفيها تُوُفِّي: الفَقيهُ العَلَّامةُ محمدُ بنُ محمود بن عبد المُنْعم المراتبيُّ الحَنْبليُّ، وكان فاضلاً ذا فنونٍ، أثْنَىٰ عليه أبو شامةَ، وقال: صحِبْتُه قديمًا، ولم يَتْرُكْ بعدَه بدمشقَ مثلَه في الحَنابلةِ، وصُلِّي عليه بجامعِ دمشقَ، ودُفِن بسفحِ قاسيونَ، رحمه اللَّهُ.

والضِّياءُ عبدُ الرحمنِ العماديُّ المالكيُّ، الذي ولِي وَظائفَ الشيخِ أبي عمرِو بنِ الحاجبِ حينَ خرَج مِن دمشقَ سنةَ ثمانٍ وثلاثين، وجلَس في حلْقتِه، ودرَّس مكانَه بزاويةِ المالكيةِ.

والفَقيهُ تاجُ الدينِ إسماعيلُ بنُ جَهْبَلٍ بحلَبَ، وكان فاضلاً دَيِّنًا، سَليمَ الصدرِ، رحمه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة

فيها: كان عَوْدُ السلطانِ الملكِ الصالحِ نَجْمِ الدينِ أيوبَ بنِ الكاملِ مِن الشامِ إلى الديارِ المصرية، وزار في طريقه بيتَ المَقْدِسِ، وفرَّق في أهلِه أموالاً كثيرةً، وأمَر بإعادةِ سُورِه، كما كان في أيامِ عمِّ أبيه الملكِ الناصرِ فاتحِ القُدْسِ، ونزَّل الجيوشَ لحصارِ الفرنجِ، ففُتِحَت طَبَرِيَّةُ في عاشرِ صفرٍ، وفُتِحَت عَسْقلانُ في أواخرِ جُمادَىٰ الآخرةِ.

وفي رجبٍ عُزِل الخطيبُ عمادُ الدينِ داودُ بنُ خطيبِ بيتِ الآبارِ عن الخَطابةِ بالجامعِ الأُمَويِّ، وتَدْريسِ الغَزَّاليةِ، ووَلِي ذلك القاضي عمادُ الدينِ بنُ عبدِ الكريمِ بنِ الحَرَسْتانيِّ شيخُ دارِ الحديثِ بعدَ ابنِ الصلاحِ.

وفيها: أرْسَل الصالحُ أيوبُ يَطْلُبُ جَماعةً مِن أعيانِ الدَّماشقةِ اتُّهِموا بمُمالاةِ الصالحِ إسماعيلَ، منهم القاضي مُحْيِي الدينِ بنُ الزَّكيِّ، وبنو صَصْرَىٰ وابنُ العمادِ الكاتبُ، والحَكيميُّ مَملوكُ الصالحِ إسماعيلَ، والشِّهابُ غازي والي بُصْرَىٰ، فلما وصَلوا إلى مصرَ لم يَكُنْ إليهم شيءٌ مِن العُقوباتِ والإهانةِ، بل خُلع على بعضِهم وتُرِكوا باختيارِهم مُكْرَمين.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها مِن المَشاهيرِ:

الحسينُ بنُ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ حَمْزةَ العَلَويُّ الحُسَيْنيُّ، أبو عبدِ اللَّهِ الأَقْساسيُّ النَّقيبُ قُطْبُ الدينِ، أصلُه مِن الكوفةِ، وأقام ببغدادَ، ووَلِي النِّقابةَ، ثم اعْتُقِل بالكوفةِ، وكان فاضلاً أديبًا شاعرًا مُطَبِّقًا، أوْرَد له ابنُ الساعي أشعارًا كثيرةً، رحِمه اللَّهُ.

الشَّلَوْبِينُ النَّحْويُّ: هو عمرُ بنُ محمدِ بنِ عمرَ بنِ عبدِ اللَّهِ الأزْديُّ، أبو عليٍّ الأندَلُسيُّ الإشْبيليُّ، المعروفُ بالشَّلَوْبِينِ. وهو بلغةِ الأندَلُسيِّين: الأبيضُ الأشْقَرُ. قال ابنُ خَلِّكانَ: خُتِم به أئمةُ النحوِ، وكان فيه تَغَفُّلٌ. وذكَر له شعرًا ومُصَنَّفاتٍ، منها «شَرْحُ الجُزُوليةِ» وكتابُ «التَّوْطِئةِ». وأرَّخ وفاتَه بهذه السنةِ. وقد جاوَز الثمانين، رحِمه اللَّهُ تعالى وعفا عنه.

الشيخُ عليٌّ الحَريريُّ: عليُّ بنُ أبي الحسنِ بنِ المنصورِ البُسْريُّ، المعروفُ بالحريريِّ، أصلُه مِن قريةِ بُسْرَ شرقيَّ زُرْعَ، وأقام بدمشقَ مدةً يَعْمَلُ صَنْعَةَ الحَريرِ، ثم ترَك ذلك، وأقْبَل يَعْمَلُ الفقيريَّ على يدِ الشيخِ عليٍّ المُغَرْبَلِ تلميذِ الشيخِ رسلانَ التركمانيِّ الجعبريِّ، فاتَّبعه طائفةٌ مِن الناسِ يقالُ لهم: الحريريةُ. وابْتَنَى له زاويةً على الشَّرَفِ القبليِّ، وبَدَرت منه أفعالٌ أنْكَرَها عليه الفُقهاءُ، كالشيخِ عزِّ الدينِ بنِ عبدِ السلامِ، والشيخِ تَقيِّ الدينِ بنِ الصَّلاحِ، والشيخِ أبي عمرِو بنِ الحاجبِ شيخِ المالكيةِ وغيرِهم، فلما كانت الدولةُ الأشْرَفيةُ حُبِس في قلعةِ عَزَّتا مدةَ سنين، ثم أطْلَقه الصالحُ إسماعيلُ، واشْتَرَط عليه أن لا يُقيمَ بدمشقَ، فلزِم بلدَه بُسْرَ مدةً حتى كانت وفاتُه في هذه السنةِ.

قال الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ في «الذيل»: وفي رمضانَ أيضًا تُوُفِّي الشيخُ عليُّ المعروفُ بالحَريريِّ، المُقيمُ بقريةِ بُسْرَ في زاويته، وكان يَتَرَدَّدُ إلى دمشقَ، وتبِعه طائفةٌ من الفُقراء، وهم المَعْروفون بالحَريرية أصحاب الزيِّ المُنافي للشَّريعة، وباطنُهم شرٌّ من ظاهرِهم، إلا مَن رجَع إلى اللَّه منهم، وكان عندَ هذا الحَريريِّ من الاستِهزاء بأمورِ الشريعة والتَّهاوُن بها من إظهارِ شعارِ أهلِ الفُسوقِ والعِصْيانِ شيءٌ كثيرٌ، وانفَسَد بسببِه جَماعةٌ كثيرةٌ من أولادِ كُبَراء دمشقَ، وصاروا على زيِّ أصحابِه، وتبِعوه بسببِ أنه كان خَليعَ العِذارِ، يَجْمَعُ مجلسُه الغناءَ الدائمَ والرَّقْصَ والمُرْدانَ، وتركَ الإنكارِ على أحدٍ فيما يَفْعَلُه، وتركَ الصلواتِ، وكثْرةَ النَّفَقات، فأضلَّ خلقًا كثيرًا، وأفسَد جَمًّا غَفيرًا، ولقد أفْتَى في قتلِه مِرارًا جماعةٌ من علماءِ الشَّريعة، ثم أراح اللَّهُ تعالى منه. هذا لفظُه بحروفه.

واقفُ العزِّيَّة الأميرُ عزُّ الدين أيْبَك أُستاذُ دارِ المُعَظَّم، وكان من العُقلاء الأجواد الأمْجاد، استَنابه المُعَظَّمُ على صَرْخَدَ، فظهَرت منه نَهْضةٌ وكِفايةٌ، ووقَف العِزِّيَّتَيْن الجَوَّانيةَ والبَرَّانيةَ. ولما أخَذ منه الصالحُ أيوبُ صَرْخَدَ عوَّضه عنها، وأقام بدمشقَ، ثم وُشِي به بأنه يُكاتِبُ الصالحَ إسماعيلَ، فاحْتيط عليه وعلى أموالِه وحَواصلِه، فمرِض وسقَط إلى الأرضِ، وقال: هذا آخِرُ عهدي. ولم يَتَكَلَّمْ حتى مات، ودُفِن ببابِ النصرِ بمصرَ، ثم نُقِل إلى تربتِه التي فوقَ الوَرَّاقة، رحِمه اللَّهُ تعالى. وإنما أرَّخ السِّبْطُ وفاتَه في سنةِ سبعٍ وأربعين. فاللَّهُ أعلمُ.

الشِّهابُ غازي بنُ العادل صاحبُ مَيَّافارِقينَ وخِلاطَ وغيرِهما من البُلْدانِ، كان من عُقلاءِ بني أيوبَ وفُضلائِهم، وأهلِ الدِّيانةِ منهم، ومما أنشَد قولُه:

ومن عجبِ الأيامِ أنك جالسٌ	على الأرضِ في الدنيا وأنت تَسيرُ
فَسَيْرُك يا هذا كَسَيْرِ سفينةٍ	بقومٍ جُلوسٍ والقُلوعُ تَطيرُ

ثم دخلت سنةُ ستٍّ وأربعين وستمائةٍ

فيها: قدِم السلطانُ الصالحُ نَجْمُ الدين أيوبُ من الديارِ المصرية إلى دمشقَ، وجهَّز الجيوشَ والمَجانيقَ إلى حمصَ؛ لأنه كان صاحبُها الملكُ الأشرفُ موسى بنُ المنصورِ بنِ أسد الدين شيرْكُوه قد قايَض بها تَلَّ باشرٍ لصاحب حلَبَ الناصرِ يوسُفَ بنِ العَزيزِ، ولما علِمَت الحَلَبيُّونَ بخُروجِ الدَّماشقة برَزُوا أيضًا في جَحْفَلٍ عظيمٍ ليَمْنَعوا حمصَ منهم، واتَّفَق مجيءُ الشيخ نَجْمِ الدين البادَرائيِّ مدرسِ النِّظامية ببغدادَ في رسالةٍ، فأصْلَح بينَ الفريقَيْن، وردَّ كلاًّ من الفئتَيْن إلى مُسْتَقَرِّها، وللَّه الحمدُ.

وفيها: قَتَل مملوكٌ تركيٌّ شابٌّ صبيٌّ سيدَه على دَفْعه عنه لما أراد به من الفاحشة، فصُلِب الغلامُ مُسَمَّرًا، وكان شابًّا حسنًا جدًّا، فتأسَّف الناسُ له لكونه صغيرًا ومظلومًا وحسنًا، ونظَموا فيه قَصائدَ؛

وممَّن نظَم فيه الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامةَ في «الذَّيلِ»، وقد أطال قصتَه جدًّا.

وفيها: سقطَت قَنْطرةٌ رُوميَّةٌ قديمةُ البناء بسُوقِ الدقيقِ مِن دمشقَ، عندَ قصرِ أمِّ حكيمٍ، فتهدَّم بسببِها شيءٌ كثيرٌ مِن الدُّورِ والدَّكاكينِ، وكان سُقوطُها نَهارًا.

وفي ليلة الأحدِ الخامسِ والعشرين مِن رجبٍ وقَع حريقٌ بالمنارةِ الشرقيةِ، فأحْرَق جميعَ حَشْوِها، وكانت سَلالمُها سِقالاتٍ مِن خشبٍ، وهلَك للناسِ وَدائعُ كثيرةٌ كانت فيها، وسلَّم اللَّهُ الجامعَ، ولِلَّهِ الحمدُ. وقدِم السلطانُ بعدَ أيامٍ إلى دمشقَ، فأمَر بإعادتِها كما كانت.

قلتُ: ثم احترَقَت وسقَطَت بالكلية بعدَ سنة أربعين وسبعمائة، وأُعيدَت عِمارتُها أحسنَ مما كانت، ولِلَّهِ الحمدُ، وبقِيَت حينَئذٍ المنارةُ البَيْضاءُ الشرقيةُ بدمشقَ كما نطَق به الحديثُ في نزولِ عيسى، عليه السلامُ، عليها، كما سيأتي بيانُه وتَقْريرُه في موضعِه إن شاء اللَّهُ تعالى.

ثم عاد السلطانُ الصالحُ أيوبُ مَريضًا في محَفَّةٍ إلى الديارِ المصريةِ وهو ثَقيلٌ مُدْنِفٌ، وما شغَله مرضُه وما هو فيه عن أمرِه بقتلِ أخيه العادلِ أبي بكرِ بنِ الكاملِ الذي كان صاحبَ الديارِ المصريةِ بعدَ أبيه، وقد كان سجَنه سنةَ استَحْوذ على مصرَ، فلما كان في هذه السنةِ في شوالِها أمَر بخَنْقِه، فخُنِق ودُفِن بتربةِ شمسِ الدولةِ، فما عُمِّر بعدَه إلا إلى النصفِ مِن شعبانَ في العامِ القابلِ في أسوأ حالٍ وأشدِّ مرضٍ، فسبحانَ مَن له الخلقُ والأمرُ.

وفيها: كانت وفاةُ قاضي القُضاةِ بالديارِ المصريةِ.

أفضلِ الدينِ الخُونَجيِّ، الحكيمِ المَنْطقيِّ البارعِ في ذلك، وكان مع ذلك جيدَ السِّيرةِ في أحكامِه. قال أبو شامةَ: أثْنَى عليه غيرُ واحدٍ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها:

عليُّ بنُ يحيى، جَمالُ الدينِ أبو الحسنِ المُخرِّميُّ، كان شابًّا فاضلًا أديبًا شاعرًا ماهرًا، صنَّف كتابًا مُختَصَرًا وَجيزًا جامعًا لفُنونٍ كثيرةٍ في الرياضةِ والعقلِ وذمِّ الهَوَى، وسمَّاه «نَتائجَ الأفكارِ»، قال فيه مِن الكَلِمِ المُسْتفادةِ الحِكْميةِ: السلطانُ إمامٌ مَتْبوعٌ، ودينٌ مشروعٌ، فإن ظلَم جارت الحكامُ لظلمِه، وإن عدَل لم يَجُرْ أحدٌ في حكمِه، مَن مكَّنه اللَّهُ في أرضِه وبلادِه، وائتَمَنه على خلقِه وعبادِه، وبسَط يدَه وسلطانَه، ورفَع محلَّه ومكانَه، فحَقيقٌ عليه أن يُؤدِّيَ الأمانةَ، ويُخلِصَ الدِّيانةَ، ويُجمِّلَ السَّريرةَ، ويُحسِنَ السِّيرةَ، ويَجْعَلَ العَدْلَ دَأْبَه المعهودَ، والأمنَ بحرَ غرضِه المقصودِ، فالظلمُ يُزِلُّ القَدَمَ، ويُزيلُ النِّعَمَ، ويَجْلِبُ النِّقَمَ، ويُهْلِكُ الأُمَمَ.

وقال أيضًا: مُعارَضةُ الطَّبيبِ تُوجِبُ التَّعذيبَ. رُبَّ حيلةٍ أنْفَعُ مِن قَبيلةٍ. الموتُ في طلبِ الثارِ خيرٌ مِن الحياةِ في العارِ. سَمينُ الغضبِ مَهْزولٌ، ووالي الغَدْرِ مَعْزولٌ. قلوبُ الحُكماءِ تَسْتَشِفُّ

الأسْرار من لَمَحات الأبصار. ارْضَ من أخيك في ولايته بعُشْرِ ما كنتَ تَعْهَدُه من مودته. التَّواضُعُ من مَصائدِ الشرف. ما أحْسَنَ حُسْنَ الظَّنِّ لولا أن فيه العجزَ. ما أقْبَحَ سُوءَ الظَّنِّ لولا أن فيه الحَزْمَ.

وذكَر في غُضون كلامه أن خادمًا لعبدِ اللَّه بنِ عمرَ أذْنَب، فأرادَ ابنُ عمرَ أن يُعاقِبَه على ذنبه، فقال: يا سيدي، أمَا لك ذنبٌ تَخافُ اللَّهَ تعالى منه؟ قال: بلى. قال: فبالذي أمْهَلَك لمَا أمْهَلْتَني. ثم أذْنَب العبدُ ثانيًا، فأراد عُقوبتَه، فقال له مثلَ ذلك، فعفا عنه، ثم أذْنَب الثالثةَ، فعاقَبه وهو لا يَتَكَلَّمُ، فقال له ابنُ عمرَ: ما لك لم تَقُلْ ما قلتَ في الأُولَيَيْن؟ فقال: يا سيدي، حَياءً من حِلْمِك مع تَكرارِ جُرْمي. فبكَى ابنُ عمرَ وقال: أنا أحَقُّ بالحَياءِ من ربي، أنت حرٌّ لوجهِ اللَّهِ تعالى.

ومِن شعرِه يَمْدَحُ الخليفةَ:

يا مَن إذا ضَنَّ السَّحابُ بمائه ... هطَلَت يداه على البَرِيَّةِ عَسْجَدَا
جَوَّزْتَ كِسْرَى يا مُبَخِّلَ حاتِمٍ ... فغَدَتْ بنو الآمالِ نحوَكَ سُجَّدَا

وقد أوْرَد له ابنُ الساعي أشعارًا كثيرةً حسنةً، رحمه اللَّهُ تعالى.

الشيخُ أبو عمرو بنُ الحاجب المالكيُّ عثمانُ بنُ عمرَ بن أبي بكر بن يونُسَ الدَّوِينيُّ ثم المصريُّ، العَلَّامةُ أبو عمرو بنُ الحاجبِ شيخُ المالكية، كان أبوه حاجبًا للأميرِ عزِّ الدينِ مُوسَك الصَّلاحيِّ، واشْتَغَل هو بالعلم، فقرَأ القراءاتِ، وحرَّر النحوَ تَحريرًا بَليغًا، وتفَقَّه وساد أهلَ عصرِه، ثم كان رأسًا في علومٍ كثيرةٍ، منها الأُصولُ والفُروعُ والعربيةُ والتَّصْريفُ والعَروضُ والتَّفْسيرُ، وغيرُ ذلك.

وقد كان اسْتَوْطَن دمشقَ في سنةِ سبعَ عشْرةَ وستِّمائةٍ، ودرَّس بها للمالكية بالجامعِ حتى كان خُروجُه بصُحْبةِ الشيخِ عزِّ الدين بن عبدِ السلام في سنةِ ثمانٍ وثلاثين، فصارا إلى الديارِ المصريةِ حتى كانت وفاةُ الشيخِ أبي عمرٍو في هذه السنة بالإسْكَنْدَرية، ودُفِن بالمَقْبَرة التي بين المَنارة والبلد.

قال الشيخُ أبو شامةَ: وكان من أذْكَى الأئمَّة قَريحةً، وكان ثقةً حُجَّةً مُتَواضعًا عَفيفًا، كثيرَ الحَياء، مُنْصِفًا مُحبًّا للعلم وأهله ناشرًا له، مُحْتَملاً للأذَى، صَبورًا على البَلْوَى، قدِم دمشقَ مِرارًا، آخرُها سنةَ سبعَ عشْرةَ، فأقام بها مُدَرِّسًا للمالكية وشيخًا للمُسْتَفيدين عليه في عِلْمَيِ القراءاتِ والعربيةِ، وكان رُكْنًا من أركانِ الدينِ في العلمِ والعملِ، بارعًا في العلوم، مُتْقِنًا لمذهبِ مالكِ بنِ أنسٍ، رحمه اللَّهُ تعالى.

وقد أثْنَى عليه ابنُ خَلِّكانَ ثَناءً كثيرًا، وذكَر أنه جاء إليه في أداءِ شَهادةٍ حينَ كان ابنُ خَلِّكانَ نائبًا في الحكمِ بمصرَ، وسأله عن مسألةِ اعْتراضِ الشَّرْطِ على الشَّرْطِ، كإذا قال: إن أكَلْت إن شَرِبْت فأنت طالقٌ. لِمَ كان لا يَقَعُ الطلاقُ حتى تشرَبَ أولاً؟ وذكَر أنه أجاب عن ذلك في تُؤَدَةٍ وسُكونٍ.

قلتُ: له مُخْتَصَرٌ في الفقهِ من أحسنِ المُخْتَصَراتِ، انْتَظَم فيه «جواهرَ ابنِ شاسٍ»، ومُخْتَصَرٌ في

أصولِ الفقهِ استَوْعَب فيه عامَّةَ فَوائدِ «الإِحْكام» لسيفِ الدينِ الآمديِّ، وقد منَّ اللَّهُ تعالىٰ عليَّ بحفظه، وجمَعْتُ كَراريسَ في الكلامِ علىٰ ما أوْدَعه فيه مِن الأحاديثِ النبوية، ولِلَّه الحمدُ والمنةُ، وله «شَرْحُ المُفَصَّلِ» و«الأمالي» في العربيةِ «والمُقَدِّمة» المَشْهورةُ في النحوِ، اخْتَصَر فيها «مُفَصَّلَ الزَّمَخْشَرِيِّ» وشرَحها، وقد شرَحها غيرُه أيضًا، وله «التَّصْريفُ» و«شرحُه»، وله العَروضُ علىٰ وزنِ الشاطبيةِ، رحمه اللَّهُ ورضِي عنه.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة

فيها: كانت وَفاةُ الملكِ الصالحِ أيوبَ، وقَتْلُ ابنِه المُعَظَّمِ تُورانْشاه، وتوليةُ المُعزِّ عزِّ الدينِ أَيْبَكَ التُّرْكمانيِّ علىٰ ما سيأتي.

وفي رابعِ المُحَرَّمِ يومَ الاثنين توَجَّه السلطانُ الملكُ الصالحُ مِن دمشقَ إلىٰ الديارِ المصرية في مِحَفَّةٍ. قاله السِّبْطُ: وكان قد نادىٰ في دمشقَ: مَن له عندَنا شيءٌ فلْيَأْتِ. فاجْتَمَع خلقٌ كثيرٌ بالقلعةِ، فدُفِعَت إليهم أموالُهم.

وفي عاشرِ صفرٍ دخَل إلىٰ دمشقَ نائبُها الأميرُ جمالُ الدينِ بنُ يَغْمُورٍ مِن جهةِ الصالحِ أيوبَ، فنزَل بدَرْبِ الشَّعَّارينَ داخلَ بابِ الجابيةِ.

وفي جُمادَىٰ الآخرةِ أمَر النائبُ بتَخْريبِ الدَّكاكينِ المُحْدَثةِ في وسَطِ بابِ البريدِ، وأمَر أن لا يُبْقَىٰ فيه دُكَّانٌ سوىٰ ما في جانبَيْه إلىٰ جانبِ الحائطَين القِبْليِّ والشماليِّ، وما في الوسطِ يُهْدَمُ. قال أبو شامةَ: وقد كان العادلُ هدَم ذلك، ثم أُعيد، ثم هدَمه ابنُ يَغْمورٍ، والمَرْجُوُّ اسْتِمرارُه علىٰ هذه الصفةِ.

وفيها: توَجَّه الناصرُ داودُ مِن الكَرَكِ إلىٰ حَلَبَ، فأرْسَل الصالحُ أيوبُ إلىٰ نائبِه بدمشقَ جَمالِ الدينِ بنِ يَغْمورٍ بخَرابِ دارِ سامةَ المَنْسوبةِ إلىٰ الناصرِ بدمشقَ، وبُسْتانِه الذي بالقابونِ، وهو بُسْتانُ القَصْرِ، وأن تُقْلَعَ أشْجارُه ويُخَرَّبَ القصرُ، وتَسَلَّم الصالحُ أيوبُ الكَرَكَ مِن الأمْجَدِ حسنِ بنِ الناصرِ، وأخْرَج مَن كان بها مِن بيتِ المُعَظَّمِ، واسْتَحْوَذ علىٰ حَواصلِها وأموالِها، فكان فيها مِن الذهبِ ألفُ ألفِ دينارٍ، وأقْطَع الصالحُ الأمْجَدَ هذا إقْطاعًا جيدًا.

وفيها: طغَىٰ الماءُ ببغدادَ حتىٰ أتْلَف شيئًا كثيرًا مِن المَحالِّ والدُّورِ الشهيرةِ، وتعَذَّرَت الجُمَعُ في أكثرِ الجَوامعِ بسببِ ذلك سوىٰ ثلاثةِ جَوامعَ، ونُقِلَت تَوابيتُ جماعةٍ مِن الخلفاءِ إلىٰ التُّرَبِ مِن الرُّصافةِ خوفًا عليهم مِن أن تَغْرَقَ مَحالُّهم؛ منهم المُعْتَضِدُ بنُ الأميرِ أبي أحمدَ بنِ المُتَوَكِّلِ، وذلك بعدَ دفنِه بنَيِّفٍ وخمسين سنةً وثلاثمائةِ سنةٍ، وكذا نُقِل ولدُه المُكْتَفي، وكذا المُتَّقي بنُ المُقْتَدِرِ باللَّهِ، رحمهم اللَّهُ تعالىٰ.

وفيها: هجَمَت الفرنجُ على دِمْياطَ، فهرَب مَن كان فيها من الجندِ والعامَّة، واستَحْوَذَ الفرنجُ على الثَّغْرِ، وقتَلوا خلقًا كثيرًا من المسلمين، وذلك في ربيع الأول منها، فنصَب السلطانُ المُخَيَّمَ تُجاهَ العدوِّ بجميعِ الجيشِ، وشنَق خلقًا ممَّن هرَب من الفرنجِ، ولامَهم على تركِ المُصابَرةِ قليلاً ليُرْهِبوا عدوَّ اللَّهِ وعدوَّهم، وقوِي المرضُ، وتزايَد بالسلطان جدًّا، فلما كانت ليلةُ النصفِ من شعبانَ تُوُفِّي إلى رحمة اللَّه تعالى بالمنصورة، فأخفَت جاريتُه أمُّ ولده خليلٍ المَدْعُوَّةُ شجرَ الدُّرِّ موتَه، وأظهَرَت أنه مريضٌ مُدْنَفٌ لا يُوصَلُ إليه، وبقِيَت تُعْلِمُ عنه بعَلامته سَواءً، وأعْلَمَت إلى أعْيانِ الأمراء، فأرْسَلوا إلى ابنه الملكِ المُعَظَّمِ تُورانْشاه، وهو بحصنِ كَيْفَا، فأقْدَموه إليهم سريعًا، وذلك بإشارةِ أكابرِ الأمراء؛ منهم فخرُ الدينِ بنُ الشيخِ، فلما قدِم إليهم ملَّكوه عليهم، وبايَعوه أجْمَعون، فركِب في عَصائبِ المُلْكِ، وقاتَل الفرنجَ، فكسَرهم وقتَل منهم ثلاثين ألفًا، وللَّه الحمدُ، وذلك في أولِ السنةِ الداخلة، ثم قتَلوه بعدَ شهرين من مُلْكِه عليهم، ضرَبه بعضُ الأمراء -وهو عزُّ الدينِ أيبَكُ التُّرْكمانيُّ- فضرَبه في يده، فقطَع بعضَ أصابعه، فهرَب إلى قصرٍ من خشبٍ في المُخَيَّمِ، فحاصَروه فيه، وأحْرَقوه عليه، فخرَج من بابه مُسْتَجيرًا برسولِ الخليفة، فلم يَقْبَلوا منه، فهرَب إلى النِّيلِ، فانْغَمَر فيه، ثم خرَج، فقُتِل سريعًا شَرَّ قِتْلةٍ، وداسُوه بأرجلهم، ودُفِن كالجيفة، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون. وكان فيمَن ضربَه البُنْدُقْدارِيُّ على كتفه، فخرَج السيفُ من تحتِ إبطه الآخرِ، وهو يَسْتَغيثُ فلا يُغاثُ.

وممَّنْ قُتِل في هذه السنة:

فخرُ الدينِ يوسفُ بنُ الشيخِ بنِ حَمُّويَه[1]، وكان فاضلاً دَيِّنًا مَهيبًا وَقورًا، خَليقًا بالمُلْكِ، كانت الأمراءُ تُعَظِّمُه جدًّا، ولو دعاهم إلى مُبايعته بعدَ الصالحِ لما اخْتَلَف عليه اثنان، ولكنه كان لا يَرَى ذلك؛ حمايةً لجانبِ بني أيوبَ، قتَلَته الداويَّةُ من الفرنجِ شهيدًا قبلَ قُدومِ المُعَظَّمِ تُورانْشاه إلى مصرَ، في ذي القَعْدة، ونُهِبَت أموالُه وحَواصلُه وخيولُه، وخُرِّبَت دارُه، ولم يَتْرُكوا شيئًا من الأفعالِ الشَّنيعةِ البَشِعةِ إلا صنَعوه به، مع أن الذين تعاطَوْا ذلك من الأمراءِ كانوا معَظِّمين له غايةَ التَّعْظيم.

ومن شعره:

عصَيْتُ هَوَى نفسي صغيرًا فعندَما ... رمَتْني الليالي بالمَشيبِ وبالكِبَرْ
أطَعْتُ الهَوَى عكسَ القضيةِ ليْتَني ... خُلِقتُ كبيرًا وانتَقَلتُ إلى الصِّغَرْ

(١) ترجمته في «السير» (٢٣/ ١٠٠-١٠٢).

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة

في ثالث المُحَرَّم يوم الأربعاء كان كَسْرُ المُعَظَّم تُورانْشاه للفرنج على ثَغْرِ دِمْياطَ، فقتَل منهم ثلاثين ألفًا، وقيل: مائةَ ألفٍ. وغنموا شيئًا كثيرًا، ولله الحمدُ، ثم قتَل جَماعةً من الأمراء الذين أُسِروا، وكان فيمَن أُسر ملكُ الإفرَنْسيس وأخوه، وأُرْسِلت غِفارةُ ملك الإفرَنْسيس إلى دمشقَ، فلبِسها نائبُها في يوم المَوْكِبِ، وكانت من سَقِرْلاط أحمرَ، تحتَها فَرْوُ سِنْجابٍ، فأنشَد في ذلك جَماعةٌ من الشعراء فَرَحًا بما وقَع، ودخَل الفقراءُ كَنيسةَ مَرْيَمَ، فأقاموا بها سَماعًا، فَرَحًا بما نصَر اللهُ تعالى على النصارى، وكادوا أن يُخَرِّبوها، وكانت النصارى ببَعْلَبَكَّ وقد فرِحوا حينَ أخَذَت النصارى دِمْياطَ، فلما كانت هذه الكَسْرةُ عليهم سَخَّموا وُجوهَ الصُّوَرِ، فأرْسَل نائبُ البلدِ فجَنّاهم، وأمَر اليهودَ فصفَعوهم، ثم لم يَخْرُجْ شهرُ المُحَرَّم حتى قتَل الأمراءُ ابنَ أُسْتاذِهم المُعظَّمَ تُورانْشاه ودفَنوه إلى جانبِ النِّيلِ من الناحيةِ الأخرى، رحِمه اللهُ تعالى، ورحِم أسْلافَه بمَنِّه وكرمِه.

تمليكُ الملكِ المعزِ عزِ الدينِ أيبَكَ التُّركماني مصرَ بعدَ بني أيوبَ، وتداوُلُ دولةِ الأتراك

لما قتَل الأمراءُ البَحْريةُ وغيرُهم من الصالحيةِ ابنَ أُسْتاذِهم المُعَظَّمَ غِياثَ الدينِ تُورانْشاه بنَ الصالحِ أيوبَ بنِ الكاملِ بنِ العادلِ أبي بكرِ بنِ نَجْمِ الدينِ أيوبَ، وكان مُلْكُه بعدَ أبيه بشهرين كما تقدَّم بيانُه، ثم لَمّا قُتِلَ وانفَصَل أمرُه نادَوْا فيما بينَهم لا بأسَ لا بأسَ. واستَدْعَوْا من بينِهم الأميرَ عزَّ الدينِ أيبَك التُّرْكُمانيَّ، فملَّكوه عليهم وبايَعوه، ولقَّبوه بالملك المُعزِّ، وركِبوا إلى القاهرةِ، ثم بعدَ خمسةِ أيامٍ أقاموا لهم صَبيًّا من بني أيوبَ ابنَ عشرِ سنين، وهو الملكُ الأشرفُ مُظَفَّرُ الدينِ موسى بنُ الناصرِ يوسُفَ بنِ المسعودِ أقْسِيسَ بنِ الكاملِ، وجعَلوا المُعزَّ أتابكَه، فكانت السِّكَّةُ والخُطْبةُ باسمِهما، وكاتبوا أُمراءَ الشامِ بذلك، فما تمَّ لهم الأمرُ بالشامِ، بل خرَج عن أيديهم، ولم تَسْتَقِرَّ لهم المَمْلَكةُ إلا على الديارِ المصريةِ، وكلُّ ذلك عن أمرِ الخاتونِ شجَرِ الدُّرِّ أمِّ خَليلٍ حَظيَّةِ الصالحِ أيوبَ، فتزَوَّجَت بالمُعزِّ، وكانت الخُطْبةُ والسِّكَّةُ باسمِها، يُدْعَى لها على المَنابِرِ أيامَ الجُمَعِ بمصرَ وأعمالِها، وكذا تُضْرَبُ السِّكَّةُ باسمِها أمِّ خَليلٍ، والعَلامةُ على المَناشيرِ والتَّواقيعِ بخطِّها واسمِها، مدةَ ثلاثةِ أشهرٍ قبلَ المُعزِّ، ثم آل أمْرُها إلى ما سَنَذْكُرُه من الهَوانِ والقتلِ.

ذكرُ مُلكِ الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر فاتح القدس، صاحب حلب، لدمشق حرسها اللهُ تعالى

لما وقَع بالديارِ المصرية مِن قَتْلِ الأمراءِ للمُعَظَّم تُورانْشاه بنِ الصالحِ أيوبَ ركِب الحلَبِيون، معهم ابنُ أُستاذِهم الناصرُ يوسُفُ بنُ العزيزِ محمدِ بنِ الظاهرِ غازي بنِ الناصرِ يوسُفَ فاتحِ بيتِ المقدسِ، ومَن كان عندَهم مِن ملوكِ بني أيوبَ، منهم الصالحُ إسماعيلُ بنُ العادلِ، وكان أحقَّ الموجودين بالمُلكِ، مِن حيثُ السِّنِّ والعَقْلِ والحُرْمةِ والرِّياسةِ، ومنهم الناصرُ داودُ بنُ المُعَظَّمِ بنِ العادلِ، والأشْرَفُ موسى بنُ المنصورِ إبراهيمَ بنِ أسدِ الدينِ شِيرْكُوه الذي كان صاحبَ حمصَ، وغيرُهم، فجاءوا إلى دمشقَ، فحاصَروها فملَكوها سريعًا، ونُهِبَت دارُ ابنِ يَغْمورٍ. وحُبِس في القلعةِ، وتسلَّموا ما حولَها، كبَعْلَبَكَّ وبُصْرَى والصَّلْتِ وعَجْلُون وصَرْخَدَ، وامْتَنَعت عليهم الكَرَكُ والشَّوْبَكُ بالمَلِكِ المُغيثِ عمرَ بنِ العادلِ بنِ الكاملِ، كان قد تغَلَّب عليهما في هذه السنةِ حينَ قُتِل المُعَظَّمُ تُورانْشاه، فطلَبه المصْريون ليُمَلِّكوه عليهم، فخاف مما حلَّ بابنِ عمِّه، فلم يَذْهَبْ إليهم.

ولما استَقَرَّت يدُ الحلَبِيِّين على دمشقَ وما حولَها جلَس الناصرُ في القلعةِ، وطيَّب قلوبَ الناسِ، ثم ركِبوا إلى غَزَّةَ ليَتَسلَّموا الدِّيارَ المصْريةَ، فبرَز إليهم الجيشُ المصْريُّ، فاقْتَتلوا معهم أشدَّ القتالِ، فكُسِر المصْريون أولاً بحيث إنه خُطِب للناصرِ بها ذلك اليومَ، ثم كانت الدائرةُ على الشاميِّين، فانْهَزَموا وأُسِر مِن أعْيانِهم خلقٌ كثيرٌ، وعُدِم مِن الجيشِ الصالحُ إسماعيلُ، رحمه اللهُ تعالى، وقد أنْشَد هنا الشيخُ أبو شامةَ رحمه اللهُ تعالى لبعضِهم:

ضَيَّع إسماعيلُ أموالَنا … وخرَّب المغنى بلا معنى
وراح مِن جِلَّقَ هذا جَزا … مَن أفْقَرَ الناسَ وما استغنى

ذكرُ شيءٍ مِن ترجمةِ الصالحِ أبي الخَيْشِ إسماعيلَ واقفِ تربةِ أمِّ الصالحِ

وقد كان الصالحُ، رحمه اللهُ، مَلِكًا عاقلاً حازمًا، تَقَلَّبَت به الأحوالُ أطْوارًا كثيرةً، وقد كان الأشْرفُ موسى أوْصَى له بدمشقَ مِن بعدِه، فملَكها شهورًا، ثم انْتَزَعها منه أخوه الكاملُ، ثم ملَكها مِن يدِ الصالحِ أيوبَ خَديعةً ومَكْرًا، فاستَمَرَّ فيها أزْيَدَ مِن أربعِ سنين، ثم استَعادها منه الصالحُ أيوبُ عامَ الخُوارَزْميةِ سنةَ ثلاثٍ وأربعين، واستَقَرَّت بيدِه بلَداه بَعْلَبَكُّ وبُصْرَى، ثم أُخِذَتا منه كما ذكَرْنا، ولم يَبْقَ له بلدٌ يأوِي إليه، فلجَأ إلى المَملكةِ الحَلَبيةِ في جوارِ الناصرِ يوسُفَ صاحبِ حَلَبَ، فلما كان

في هذه السنة كما ذكَرْنا عُدِم بالديارِ المصرية في المعركة، فلا يُدْرَىٰ ما فُعِل به. واللَّهُ تعالىٰ أعْلَمُ.

وهو واقفُ التُّرْبةِ والمدرسةِ ودارِ الحديثِ والإقراءِ بدمشقَ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ في هذه السنة من الأعْيانِ والمشاهير:

الملكُ المُعَظَّمُ تُورانشاه بنُ الصالحِ أيوبَ بنِ الكامِلِ بنِ العادل، كان أولاً صاحبَ حصنِ كَيْفَا في حياةِ أبيه، وكان أبوه يَسْتَدْعيه إليه في أيامه فلا يُجيبُه، فلما تُوُفِّي أبوه كما ذكَرْنا اسْتَدْعاه الأمراءُ، فأجابهم وجاء إليهم فملَّكوه عليهم، ثم قتَلوه كما ذكَرْنا، وذلك يومَ الاثنين السابعَ والعشرين من المُحَرَّم، وقد قيل: إنه كان مُتَخَلِّعًا لا يَصْلُحُ للمُلْك. وقد رُئِي أبوه في المَنامِ بعدَ قتلِ ابنِه، وهو يَقولُ:

قَتَلوه شَرَّ قِتْلَهْ	صار للعالَمِ مُثْلَهْ
لم يُراعُوا فيه إلاًّ	لا ولا مَن كان قَبْلَهْ
سَتَراهمْ عن قَريبٍ	لأقَلِّ الناسِ أُكْلَهْ

وكان ما ذكَرْنا من اقْتِتالِ المصريين والشاميين.

ومن عُدِم فيما بينَ الصَّفَّيْن من أعيانِ الأمراءِ والمسلمين، فمنهم الشمسُ لُؤْلُؤٌ مُدَبِّرُ مَمالكِ الحَلَبِيِّين، وكان من خيارِ عبادِ اللَّه الصالحين الآمرين بالمعروفِ والناهين عن المنكر.

واقِفَةُ الحافظيَّة: وفيها كانت وفاةُ **الخاتون أرغون الحافظية**، سُمِّيَت الحافظيةَ لخدمتها وتربيتها الحافظَ صاحبَ قلعةِ جَعْبَر، وكانت امرأةً عاقلةً مُدَبِّرةً، عُمِّرَت دهرًا، ولها أموالٌ جَزيلةٌ عظيمةٌ، وهي التي كانت تُصْلِحُ الأطْعِمةَ للمُغيثِ عمرَ بنِ الصالحِ أيوبَ، فصادَرها الصالحُ إسماعيلُ، وأخَذ منها أربعَمائةِ صُنْدوقٍ من المال، وقد وقَفَت دارَها بدمشقَ على خُدَّامِها، واشْتَرت بُسْتانَ النَّجيبِ ياقوتٍ الذي كان خادمَ الشيخِ تاجِ الدينِ الكِنْديِّ، وجعلَت فيه تُرْبةً ومَسْجدًا، ووقَفَت عليهما أوْقافًا جيدةً، رحمها اللَّهُ.

واقفُ الأمينيَّة التي بِبَعْلَبَكَّ، أمينُ الدولة أبو الحَسَن غَزَّالٌ المُتَطَبِّبُ، وزيرُ الصالح إسْماعيلَ أبي الخَيْشِ الذي كان مَشْئُومًا على نَفْسه وعلى سُلْطانه، وسَبَبًا في زوالِ النِّعمَةَ عنه وعن مَخْدُومه، وهذا هو وزيرُ السَّوْءِ وقد اتَّهَمَه السِّبْطُ بأنَّه كان مُتَسَتِّرًا بالدِّين، وأنَّه لم يَكُنْ له في الحَقيقَة دينٌ، فأراحَ اللَّهُ تعالىٰ منه عَامَّةَ المُسْلمينَ، وكان قَتْلُه في هذه السنَةِ لَمَّا عُدِمَ الصالحُ إسْماعيلُ بديارِ مصْرَ؛ عَمَدَ مَن عَمَدَ من الأمَراءِ إليه وإلىٰ ابن يَغمُورٍ ناصرِ الدينِ، فَشَنَقُوهما وصَلَبُوهما على القَلْعَة بمِصْرَ، وقد وُجِدَ لأمينِ الدولة غَزَّالٍ هذا من الأمْوالِ والتُّحَفِ والجَواهرِ والأثاثِ ما يُساوي ثلاثَةَ آلافِ ألْفِ دينارٍ، وعَشْرَةُ آلافِ مُجَلَّدٍ بخَطٍّ مَنْسُوبٍ، وغير ذلك من الخُطُوطِ النَّفيسَةِ الفائقَةِ.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة

فيها: عادَ المَلِكُ الناصرُ صاحبُ حلبَ إلى دمشْقَ، وقدمَتْ عَساكرُ المصْريِّينَ، فحكَمُوا على بلاد السَّواحِلِ إلى حَدِّ الشَّريعَةِ، فجَهَزَّ إليهم الناصرُ جَيشًا، فَطَرَدُوهم حتى رَدُّوهم إلى الديارِ المِصْرِيَّةِ، وقَصَرُوهم عليها.

وتَزَوَّجَتْ في هذه السنَةِ أمُّ خَليلٍ شَجَرُ الدُّرِّ بالمَلِكِ المُعزِّ عزِّ الدينِ أيْبَكَ التُّرْكُمَانيِّ، مَمْلُوكِ زَوْجِها الصالحِ أيوبَ.

وفيها نُقِلَ تابُوتُ الصالحِ أيُّوبَ إلى تُرْبَتِه بمَدْرَسَتِه، ولَبِسَتْ الأتراكُ ثِيابَ العَزَاءِ، وتَصَدَّقَتْ أُمُّ خليلٍ بأمْوالٍ جَزِيلَةٍ.

وفيها خَرَّبَتْ التُّرْكُ دمْياطَ، ونَقَلُوا آلاتها إلى مصرَ، وأخْلَوُا الجَزيرةَ أيضًا خَوْفًا من عَوْدِ الفرنْجِ.

وفيها :كَمُلَ شرْحُ الكتابِ المُسَمَّى بـ«نَهْجِ البَلاغَةِ» في عِشْرينَ مُجَلَّدًا مما ألَّفَه عبدُ الحَميدِ بنُ هِبَةِ اللَّهِ بنِ أبي الحَديدِ المَدَائنيُّ، الكاتِبُ للوَزيرِ مُؤَيِّدُ الدينِ بنِ العَلْقَميِّ، فأطْلَقَ له الوزيرُ مائةَ دينارٍ وخِلْعَةً وفَرَسًا، وامْتَدَحَه عبدُ الحَميدِ بقَصيدَةٍ لأنَّه كان شيعيًّا مُعْتَزِليًّا.

وفي رَمَضانَ اسْتَدْعَى الشيخُ سِراجُ الدينِ عمرُ بَرَكَةَ النَّهْرُقُلِّيُّ مُدرِّسُ النِّظاميَّةِ ببَغْدادَ، فَوَلِيَ قَضاءَ القُضَاةِ ببَغْدادَ مع التَّدْريسِ المَذْكُورِ، وخُلِعَ عليه.

وفي شَعْبانَ وَلِيَ تاجُ الدينِ عبدُ الكَريمِ بنُ أسْتاذِ دارِ الشيخِ مُحْيي الدينِ يوسُفُ بنِ الشيخِ أبي الفَرَجِ بنِ الجَوْزيِّ حِسْبَةَ بَغْدادَ بعدَ أخيه عبدِ اللَّهِ الذي تَرَكَها تَزَهُّدًا عنها، وخُلِعَ عليه بطَرْحةٍ، ورُفِعَ على رأسِه غَاشيَةٌ، وركِبَ الحُجَّابُ في خدمَتِه.

وفي هذه السنَةِ صُلِّيَتْ صَلاةُ العيدِ يومَ الفِطْرِ بعدَ العَصْرِ، وهذا اتِّفاقٌ غَريبٌ.

وفيها: وَصَلَ كتابٌ إلى الخَليفَةِ من مَلِكِ اليَمَنِ صلاحِ الدينِ يُوسُفَ بنِ عمرَ بنِ رسولٍ يَذكُرُ فيه أنَّ رَجُلاً باليَمَنِ خَرَجَ يَدَّعِي الخلافَةَ، وأنَّه أنْفَذَ إليه جَيْشًا، فَكَسَرُوه وقَتَلُوا خَلْقًا من أصْحابِه، وأخَذَ منه صَنْعَاءَ، وهَرَبَ هو بنَفْسِه في شِرْذِمَةٍ قليلةٍ ممَّنْ بَقِيَ من أصْحابِه.

وفيها: أرْسَلَ إليه الخَليفَةُ بالخِلَعِ والتَّقْليدِ.

وفيها كانت وَفَاةُ بهاءِ الدينِ عليٍّ بنِ هبَةِ اللَّهِ بنِ سَلاَمَةَ الجُمَّيْزِيِّ خطيبُ القاهرَةِ، رَحَلَ في صغَرِه إلى العراقِ، فَسَمِعَ شُهْدَةَ وغَيْرَها، وكان فَاضِلاً، أتْقَنَ مَعْرِفَةَ مذهَبِ الشَّافعيِّ، رَحِمَه اللَّهُ تعالى، وكان دَيِّنًا حَسَنَ الأخْلاقِ، واسعَ الصَّدْرِ، كثيرَ البِرِّ، قَلَّ أنْ قَدِمَ عليه أحَدٌ إلاَّ أطْعَمَه شَيْئًا، وقد سَمِعَ الكثيرَ على السِّلَفيِّ وغَيْرِه، وأسْمَعَ الناسَ شَيئًا كثيرًا من مَرْويَّاتِه، وكانت وَفَاتُه في ذي الحِجَّةِ من هذه السنَةِ، وله تِسْعُونَ سنَةً، ودُفِنَ بالقَرَافَةِ، رَحِمَه اللَّهُ تعالى.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعيان:

أقضى القُضَاة أبو الفَضْل عبدُ الرحمن بنُ عبد السلام بن إسْمَاعيلَ بن عبد الرحمن بن إبراهيمَ اللَّمْغانيُّ الحَنَفيُّ، من بيت العلْم والقضَاء، دَرَّسَ بمَشْهَد أبي حَنيفةَ، ونَابَ عن قَاضي القُضَاة ابن فَضْلانَ الشافعيِّ، ثم عن قَاضي القُضَاة أبي صالح نَصر بن عبد الرَّزَّاق الحَنْبَليِّ، ثم عن قَاضي القُضَاة عبد الرحمن بن مُقْبِل الواسطيِّ، ثم بعدَ وفَاته في سنَة ثلاث وثلاثينَ اسْتَقلَّ القَاضي عبدُ الرحمن اللَّمْغانيُّ المَذْكُورُ بولاَيَة الحكم ببَغْدَادَ، ولُقِّبَ أقْضَى القُضاة، ودَرَّسَ للحَنَفيَّة بالمُسْتَنْصريَّة في سنَة خمس وثلاثينَ، وكان مَشْكُورَ السِّيرَة في أحْكَامه ونَقْضه وإبْرَامه. ولَمَّا تُوفِّي تَولَّى بعدَه قَضاءَ القُضاة ببَغْدَادَ شيخُ النِّظاميَّة سراجُ الدين النَّهْرقُلِّيُّ.

سنة خمسين وستمائة

فيها: وَصَلَتْ التَّتارُ إلى الجَزيرَة وسَرُوجَ ورأس العَيْن وما والَى هذه البلادَ، فقَتَلُوا وسَبَوْا ونَهَبُوا وخَرَّبُوا، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه رَاجعُونَ، ووقَعُوا بتُجَّار يَسيرُونَ بينَ حَرَّانَ ورأس العَين، فأخَذُوا منهم ستَّمائة حمْل سكَّر ومَعْمُول من الديار المصْريَّة، وستُّمائة ألف دينار، وكان عدةُ مَن قَتَلُوا في هذه السنَة من أهل الجَزيرَة نحواً من عَشْرَة آلاف قَتيل، وأسَرُوا من الولدان والنِّساء ما يُقَاربُ ذلكَ، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه رَاجعُونَ.

قال السِّبْطُ: وفيها حَجَّ الناسُ من بَغْدَادَ، وكان لهم عَشْرُ سنينَ لم يَحُجُّوا من زَمن المُسْتَنْصر.

وفيها وَقَعَ حَريقٌ بحَلَبَ، احْتَرقَ بسببه ستُّمائة دار، يُقالُ إنَّ الفرنْجَ، لَعَنَهم اللَّهُ تعالى، ألْقَوْه فيها قَصْداً.

وفيها: أعَادَ قَاضي القُضَاة عمرُ بنُ عليٍّ النَّهْرقُلِّيُّ أمْرَ المدرسة التاجية التي كان قد اسْتَحْوَذَ عليها طائفةٌ من العَوامِّ، وجعَلوها كالقَيْسارية يَتَبايَعون فيها مدةً طويلةً، وهي مدرسةٌ جيدةٌ حسَنَةٌ قَريبةُ الشَّبَه من النِّظامية، وقد كان بانيها يقالُ له: تاجُ المُلْك. وزيرُ مَلِكْشاه السَّلْجوقيِّ، وأولُ مَن درَّس بها الشيخُ أبو بكر الشاشيُّ.

وفيها: كانت وفاةُ جمال الدين بن مَطْروح، وقد كان فاضلاً رئيساً كيِّساً شاعراً من خيار المُتَعَمِّمين، ثم اسْتَنابه الملكُ الصالحُ أيوبُ في وقت على دمشقَ، فلبس لُبْسَ الجُنْد. قال السِّبْطُ: وكان لا يَليقُ في ذلك. ومن شعره في الناصر داودَ صاحب الكَرَك لما اسْتَعاد القدسَ من الفرنج حينَ سُلِّمَت إليهم في سنة ستٍّ وثلاثين في الدولة الكاملية، فقال هذا الشاعرُ ابنُ مَطْروح:

المسجدُ الأقصَى له عادةٌ ... سارتْ فصارتْ مَثَلاً سائرَا
إذا غدا للكفر مُسْتَوطَنًا ... أن يَبْعَثَ اللَّهُ له ناصرَا
فناصرٌ طهَّره أوّلاً ... وناصرٌ طهَّره آخرَا

ولما عزله الصالحُ عن النِّيابةِ أقام خاملاً، وكان كثيرَ البرِّ بالفُقراءِ والمساكين، وكانت وفاتُه بمصرَ.

وفيها تُوفِّي شمسُ الدين محمدُ بنُ سعد المَقْدسيِّ، الكاتبُ الحسنُ الخطِّ، كان كثيرَ الأدب، سمع الكثيرَ، وخدَم السلطانَ الصالحَ إسماعيلَ والناصرَ داودَ، وكان ديِّنًا فاضلاً شاعراً، له قصيدةٌ ينْصَحُ فيها السلطانَ الصالحَ إسماعيلَ، وما يَلْقاه الناسُ من وزيرِه وقاضيه وغيرِهما من حَواشيه.

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها: عبدُ العزيز بنُ عليٍّ بن عبد الجَبَّار المَغْربيُّ أبوه، وُلد ببغدادَ، وسمع بها الحديثَ، وعُني بطلبِ العلم، وصنَّف كتابًا في مجلداتٍ على حروفِ المُعْجَم في الحديث، وحرَّر فيه حكايةَ مَذْهَبِ الإمامِ مالك، رحمه اللَّهُ تعالى.

الشيخُ أبو عبد اللَّه محمدُ بنُ غانم بن كَريم الأصْبَهانيُّ، قدِم بغدادَ، وكان شابًّا فاضلاً، فتَتَلْمَذ للشيخ شهابِ الدين السُّهْرَوَرْديِّ، فانتفع به، وتكلَّم بعدَه على الناسِ في التَّصوف، وفيه لَطافةٌ، ومن كلامه في الوَعْظ: العالمُ كالذَّرَّة في فَضاء عَظَمته، والذَّرَّةُ كالعالم في كتاب حِكْمته، الأصولُ فروعٌ إذا تَجلَّى جَمالُ أوليَّتِه، والفُروعُ أصولٌ إذا طَلَعت من مَغْربِ نفي الوَسائط شمسُ آخريَّته، أستارُ الليلِ مَسْدولة، وشُموعُ الكواكبِ مَشْعولة، وأعْيُنُ الرُّقَباءِ عن المُشْتاقين مَشْغولة، وحجابُ الحُجبِ عن أبوابِ الوَصْلِ مطرودةٌ مَعْزولة، ما هذه الوَقْفةُ والحَبيبُ قد فتَح الباب؟! ما هذه الفترةُ والمَوْلَى قد صَرَف حاجبَ الحُجَّاب؟!

وُقوفي بأكْناف العَقيقِ عُقوقُ إذا لم أرِدْ والدمعُ فيه عقيقُ
وإذ لم أمُت شوقًا إلى ساكنِ الحِمَى فما أنا فيما أدَّعيه صَدوقُ
أيا رَبْعَ ليلى ما المُحِبُّون في الهَوى سَواءٌ ولا كلُّ الشَّرابِ رَحيقُ
ولا كلُّ مَن يَلْقاكَ يَلْقاكَ قلبُه ولا كلُّ مَن يَحْنُو إليك مَشُوقُ
تكاثَرت الدَّعْوى على الحبِّ فاسْتَوَى أسيرُ صَباباتِ الهَوَى وطَليقُ

أيها الآمنون، هل فيكم مَن يَصْعَدُ إلى السماء؟ أيها المَحْبوسون في مَطاميرِ مُسَمَّياتهم، هل فيكم سليمانُ الفَهمُ لِفهمِ رُموزِ الوُحوشِ والأطْيار؟ هل فيكم موسويُّ الشوقِ يقولُ بلسانِ شوقِه: أرِني أنْظُرْ إليك، فقد طال الانْتظار؟!

وقال بعدَ الاستِسْقاء: لما صعدَت إلى اللَّه عز وجل نفسُ المُشْتاق، بكَتْ آماقُ الآفاق، وجادَت بالدُّرِّ مُرْضعةُ السَّحاب، فامتَصَّ لبنَ الرحمةِ رَضيعُ التراب، وخرَج من أخْلافِ الغَمام نطافُ الماءِ النَّمير، فاهتَزَّت به الهامدةُ وقرَّت عُيونُ الغَدير، وتزَيَّنَت الرِّياضُ بالسُّنْدُسِ الأخضر، فحبَّر الصِّبْغُ حبرَها أحْسنَ تَحْبير، وانْفَلَق بأنْمُلة الصَّبا أكْمامُ الأنوار، وانْشَقَّت بنَفَحات أنْفاسه جُيوبُ الأزْهار، ونطَقَت أجْزاءُ الكائنات بلُغاتِ صفاتِها وعاداتِ عِبَرِها: أيُّها النائمون تَيَقَّظوا، أيها المستَعِدُّون

تعرَّضوا: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

أبو الفتح نصرُ اللَّه بنُ هبة اللَّه بن عبد الباقي بن هبَة اللَّه بن الحسين بن يحيى بن بصاقةَ الغفاريُّ الكنانيُّ المصريُّ، ثم الدِّمَشقيُّ، كانَ من أخصَّاء الملكِ المُعظَّمِ وولده الناصرِ داودَ، وقد سافرَ معه إلى بغدادَ في سنة ثلاثٍ وثلاثين وستِّمائةٍ، وكان أديبًا مَليحَ المُحاضَرةِ، ومن شعره:

ولمَّا أبَيْتُمْ سادتي عن زيارتي ... وعوَّضْتُموني بالبِعادِ عن القُرْبِ

ولم تَسْمَحوا بالوَصْلِ في حالِ يَقْظَتي ... ولم يَصْطَبِرْ عنكمْ لِرقَّتِه قلبي

نصَبْتُ لصيدِ الطيفِ جَفْني حِبالةً ... فأدْرَكْتُ خفضَ العيشِ بالنومِ والنصْبِ

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة

فيها: دخَل الشيخُ نَجْمُ الدين البادَرائيُّ رسولُ الخليفة بينَ صاحبِ مصرَ وصاحبِ الشامِ، وأصْلَح بينَ الجيشَيْن، وكانوا قد اشْتَدَّت الحربُ بينَهم ونشِبَت، وقد مالأَ الجيشُ المصريُّ الفرنجَ، ووعَدهم أن يُسلِّموا إليهم بيتَ المقدسِ إن نصَروهم على الشاميِّين، وجرَت خُطوبٌ كثيرةٌ، فأَصْلَح بينَهم وخلَّص جماعةً من بُيوتِ الملوكِ من الديارِ المصريةِ؛ منهم أولادُ الصالحِ إسماعيلَ، وبنتُ الأشْرَفِ وغيرُهم من أولادِ صاحبِ حمصَ وغيرِهم، فجزاه اللَّهُ خيرًا.

وفيها: فيما ذكَر ابنُ الساعي، كان رجلٌ ببغدادَ على رأسه زَباديُّ قاشانيٌّ، فزلَق فتكَسَّرَت، ووقَف يَبْكي، فتَألَّم الناسُ له لفقرِه و حاجتِه، وأنه لم يكنْ يَمْلِكُ غيرَها، فأعْطاه رجلٌ من الحاضرين دينارًا، فلما أخَذه نظرَ فيه طويلاً، ثم قال: واللَّه هذا الدينارُ أَعْرِفُه، وقد ذهَب مني في جملةِ دَنانيرَ عامَ أولَ، فشتَمه بعضُ الحاضرين، فقال له ذلك الرجلُ: فما علامةُ ما قلتَ؟ قال: زنةُ هذا كذا وكذا. وكان معه ثلاثةٌ وعشرون دينارًا، فوزَنوه فوجَدوه كما ذكَر، فأخْرَج له الرجلُ ثلاثةً وعشرين دينارًا، وكان قد وجَدها، كما قال، حينَ سقَطَت منه، فتعَجَّب الناسُ من ذلك. قال: ويَقْرُبُ من هذا أن رجلاً بمكةَ نزَع ثيابَه ليَغْتَسلَ من ماءِ زَمْزَمَ، وأخرَج من عَضُدِه دُمْلُجًا زنَتُه خمسون مثقالاً، فوضَعه مع ثيابِه، فلما فرَغ من اغْتِساله لبِس ثيابَه، ونسِي الدُّمْلُجَ ومضَى، وصار إلى بغدادَ، وبقِي مدةَ سنتين بعدَ ذلك، وأيِس منه، ولم يَبْقَ معه سوى شيءٍ يسيرٍ، فاشْتَرَى به زُجاجًا من القَواريرِ ليَبيعَها ويَتَكَسَّبَ بها، فبينما هو يَطوفُ بها إذ تَعِسَ، فسقَطَت القَواريرُ، فتكسَّرَت فوقَف يَبْكي، واجْتَمع الناسُ عليه يَتَألَّمون له، فقال في جملةِ كلامه: واللَّه يا جماعةُ، لقد ذهَب مني من مدةِ سنتين دُمْلُجٌ من ذهبٍ عندَ بئرِ زَمْزَمَ زنَتُه خمسون مثقالاً، ما تألَّمْتُ لفقده ما تألَّمْتُ لتَكْسيرِ هذه القواريرِ، وما ذاك إلا لأن هذه كانت جميعَ ما أَمْلِكُ. فقال له رجلٌ من الجماعةِ: فأنا واللَّه لقِيتُ ذلك الدُّمْلُجَ. وأخْرَجه من عَضُدِه فدفَعه إليه، فتعَجَّب الناسُ والحاضرون.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وستمائة

قال سبطُ ابنُ الجوزيِّ في كتابه «مرآة الزمان»: فيها وردَت الأخبارُ من مكةَ، شرَّفها اللَّهُ تعالى، بأن نارًا ظهرَت في أرضِ عَدَنَ في بعضِ جبالها، بحيث إنه يَطيرُ شَرَرُها إلى البحرِ في الليلِ، ويَصْعَدُ منها دُخانٌ عظيمٌ في أثناء النهار، فما شكُّوا أنها النارُ التي ذكَر النبيُّ ﷺ، أنها تَظْهَرُ في آخرِ الزمان، فتاب الناسُ، وأقْلَعوا عما كانوا عليه من المَظالمِ والفَساد، وشرَعوا في أفعالِ الخيرِ والصَّدَقات.

وفيها قدِم الفارسُ أَقْطاي من الصَّعيد، وقد نهَب أموالَ المسلمين، وأسَر بعضَهم، ومعه جَماعةٌ من البَحْرية المُفْسِدين في الأرض، وقد بغَوْا وطغَوْا وتجَبَّروا، ولا يَلْتَفِتون إلى الملك المُعِزِّ أَيْبَك التُّرْكُمانيِّ، ولا إلى زوجته شَجَرِ الدُّرِّ، فشاوَر المُعِزُّ زوجتَه شَجَرَ الدُّرِّ في قتلِ أقْطَاي، فأذِنَت له، فعمِل عليه حتى قتَله في هذه السنة بالقلعة المنصورة بمصرَ، فاسْتَراح المسلمون من شرِّه، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

وفيها: درَّس الشيخُ عزُّ الدينِ بنُ عبد السلامِ بمدرسةِ الصالحِ أيوبَ بينَ القَصْرَيْن.

وفيها: قدِمَت بنتُ ملكِ الرومِ في تَجمُّلٍ عظيمٍ وإقاماتٍ هائلةٍ إلى دمشقَ زوجةً لصاحبِها الناصرِ ابنِ العزيزِ بنِ الظاهرِ بنِ الناصرِ، وجرَت أوقاتٌ حافلةٌ بدمشقَ بسببِها.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من المَشاهير:

الخُسْرُوشاهيُّ المُتَكَلِّمُ عبدُ الحَميدِ بنُ عيسى، الشيخُ شمسُ الدينِ الخُسْرُوشاهيُّ، أحدُ مَشاهيرِ المُتَكلِّمين، وممَّن اشْتَغل على الفخرِ الرازيِّ في الأصولِ وغيرِها، ثم قدِم الشامَ، فلزِم الملكَ الناصرَ داودَ بنَ المُعَظَّمِ، وحظِي عندَه.

قال أبو شامةَ: وكان شيخًا مَهيبًا فاضلًا مُتواضعًا، حسَنَ الظاهرِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

قال السِّبْطُ: وكان مُتواضعًا كيِّسًا، مَحْضَرَ خيرٍ، لم يُنْقَلْ عنه أنه آذَى أحدًا، إن قدَر على نفعٍ وإلا سكَت، تُوُفِّي بدمشقَ، ودُفِن بقاسِيونَ على بابِ تُرْبةِ الملكِ المُعَظَّمِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

الشيخُ مجدُ الدينِ ابنُ تَيْمِيَّةَ، صاحبُ «الأحكام» عبدُ السلامِ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ أبي القاسمِ الخَضِرِ بنِ محمدِ بنِ عليٍّ، ابنُ تَيْمِيَّةَ الحَرَّانيُّ الحَنْبليُّ، جدُّ الشيخِ تقيِّ الدينِ ابنِ تَيْمِيَّةَ، وُلِد في حدودِ سنةِ تسعين وخمسمائةٍ، وتَفَقَّه في صِغَرِه على عمِّه الخطيبِ فخرِ الدينِ، وسمع الكثيرَ، ورحَل إلى البلادِ، وبرَع في الحديثِ والفقهِ وغيرِه، ودرَّس وأفْتَى وانْتَفَع به الطلبةُ، ومات يومَ الفطرِ بحَرَّانَ.

الشيخُ كمالُ الدينِ بنُ طَلْحةَ، الذي ولِي الخَطابةَ بدمشقَ بعدَ الدَّوْلَعيِّ، ثم عُزِل وصار إلى الجَزيرةِ، فولِي قَضاءَ نَصِيبِينَ، ثم صار إلى حلَبَ، فتُوُفِّي بها في هذه السنة.

قال أبو شامةَ: وكان فاضلًا عالمًا، طُلِب أن يَلِيَ الوزارةَ، فامْتَنع من ذلك، وكان هذا من التَّأْييدِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

السَّدِيدُ بنُ علاَّنَ، آخرُ مَن روىٰ عن الحافظ ابنِ عساكرَ سَماعًا بدمشقَ.

الناصحُ فرجُ بنُ عبـد اللَّه الحَبَشيُّ، كان كثيرَ السَّماعِ مُسْندًا خَيِّرًا صالحًا مُواظِبًا على سَماعِ الحديثِ وإسْماعِه، إلىٰ أن مات بدارِ الحديث النُّورية بدمشقَ، رحمه اللَّهُ.

النُّصْـرةُ بنُ صَـلاحِ الديـنِ يوسفَ بنِ أيوبَ، تُوُفِّي بحلَبَ في هذه السنةِ. وآخَرون رحـمـهم اللَّهُ أجْمَعين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة

قـال السِّبْطُ: فيـها عـاد الناصرُ داودُ مِن الأنْبارِ إلىٰ دمشقَ، ثم عاد وحجَّ مِن العـراقِ، وأصْلَح بينَ العراقيِّين وأهلِ مكةَ، ثم عاد معهم إلىٰ الحَلَّة.

قال أبو شامة: وفيها في ليلةِ الاثنين ثامنَ عشرَ صفرٍ، تُوُفِّي بحلَبَ الشيخُ الفَقيهُ:

ضياءُ الدين صَقْرُ بنُ يحيى بنِ سالمٍ، وكان فاضلاً دَيِّنًا، ومِن شعرِه قولُه رحمه اللَّهُ تعالىٰ:

مَـن ادَّعـىٰ أن لـه حـالـةً ... تُـخْـرِجُـه عن مَنْهَجِ الشـرعِ
فـلا تَكُـونَنَّ لـه صـاحـبًـا ... فـإنـه ضُـرٌّ بـلا نَـفْـعِ

واقفُ القُوصية، أبو العـرب إسماعيلُ بنُ حامد بن عبـد الرحمن الأنصاريُّ القُوصيُّ، واقـفُ دارِه بالقربِ مِن الرَّحْبَةِ علىٰ أهلِ الحديثِ، وبهـا قبرُه، وكـان مُدَرِّسًا بحلْقـة جمالِ الإسلام تُجاهَ البرادة، فعُرِفَت به، وكان ظريفًا مَطْبوعًا، حسَنَ المُحاضَرةِ، وقد جمَع له مُعْجَمًا حكَىٰ فيـه عن مَشايخه أشياءَ كثيرةً مُفيدةً.

قال أبو شامة: وقد طالَعْتُه بخطِّه فرأيتُ فيه أغاليطَ وأوْهامًا في أسماءِ الرجالِ وغيرِها، فمن ذلك أنه انْتَسَب إلىٰ سعدِ بنِ عُبادةَ بنِ دُلَيْمٍ، فقال: سعدُ بنُ عُبادةَ بنِ الصامت. وهذا غلطٌ فاحشٌ. وقال في مسندِ خرقةِ التَّصَوُّفِ، فغلط وصحَّف حبيبًا أبا محمـد: حُسَيْنًا. قال أبو شـامةَ: رَأيْتُ ذلك بخطِّه، وكانت وفاتُه يومَ الاثنين سابعَ عشرَ ربيعٍ الأولِ مِن هذه السنة، رحمه اللَّهُ.

وقد تُوُفِّي **الشريفُ المُرْتَضَى** نَقيبُ الأشْرافِ بحلَبَ، وكانت وفاتُه بها، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة

فـيـهـا: كان ظهورُ النارِ مِن أرضِ الحجازِ التي أضاءَت لها أعْناقُ الإبلِ ببُصْرَىٰ، كما نطَق بذلك الحديثُ المُتَّفَقُ عليه، وقد بسَط القولَ في ذلك الشيخُ الإمامُ العَلاَّمةُ الحافظُ شهابُ الدين أبو شامةَ المَقْدسيُّ في كتابِه «الذَّيْل» وشرَحه واختصره، واسْتَحْضَره مِن كتبٍ كثيرةٍ ورَدَت مُتَواترةً إلىٰ دمشقَ مِن أرضِ الحجازِ بصفةِ أمْرِ هذه النارِ التي شُوهِدَت مُعايَنةً، وكيفيةِ خُروجِها وأمْرِها، وهذا مُحَرَّرٌ في

كتاب «دلائل النُّبوة» من السيرة النبوية، في أوائل هذا الكتاب، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

ومُلَخَّصُ ما أوْرَدَه أبو شامةَ رحمه اللَّهُ تعالى أنه قال: وجاء إلى دمشقَ كتبٌ من المدينة النَّبوية، على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام، بخُروج نارٍ عندَهم في خامسِ جُمادَىٰ الآخرةِ من هذه السنةِ، وكُتِبَت الكتبُ في خامسِ رجبٍ، والنارُ بحالها، ووصَلَت الكتبُ إلينا في عاشرِ شعبانَ. ثم قال:

بسم اللَّه الرحمنِ الرحيم، ورَد إلى مدينةِ دمشقَ، حرَسها اللَّهُ تعالى، في أوائلِ شعبانَ من سنة أربعٍ وخمسين وستِّمائةٍ كتبٌ من مدينة رسول اللَّه ﷺ، فيها شرْحُ أمرٍ عظيمٍ حدَث بها، فيه تصديقٌ لما في «الصحيحَيْن» من حديث أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: **«لا تقوم الساعةُ حتى تَخرُجَ نارٌ من أرض الحجاز تُضيءُ أعناقَ الإبلِ بِبُصْرَى»**[(١)]. فأخبَرَني بعضُ مَن أثِقُ به ممَّن شاهَدها أنه بلَغه أنه كتَب بتيماءَ على ضوئها الكتبَ. قال: وكنا في بيوتنا تلك الليالِيَ، وكأنَّ في دارِ كلٍّ واحدٍ منا سراجًا، ولم يكُنْ لها حرٌّ ولَفْحٌ على عظَمِها، إنما كانت آيةً من آيات اللَّه عز وجل. قال أبو شامةَ: وهذه صورةُ ما وقَفْتُ عليه من الكتبِ الواردة فيها: لما كانت ليلةُ الأربعاء ثالثَ جُمادَىٰ الآخرةِ سنةَ أربعٍ وخمسين وستِّمائةٍ ظهَر بالمدينة - يعني النبويَّةَ - دَوِيٌّ عظيمٌ، ثم زَلْزَلةٌ عظيمةٌ رجَفَت منها الأرضُ والحيطانُ والسُّقوفُ والأخشابُ والأبوابُ، ساعةً بعدَ ساعةٍ إلى يوم الجمعة الخامسِ من الشهرِ المذكورِ، ثم ظهَرَت نارٌ عظيمةٌ في الحَرَّةِ قريبةٌ من قُرَيْظةَ نُبصِرُها من دُورِنا من داخلِ المدينة كأنها عندَنا، وهي نارٌ عظيمةٌ، إشْعالُها أكثرُ من ثلاثِ مَنائرَ، وقد سالت أوْديةٌ منها بالنارِ إلى وادي شَظًا مَسيلَ الماء، وقد سدَّت سَيلَ شَظًا وما عاد بسَيلٍ، واللَّه لقد طلَعْنا جَماعةً نُبصرُها، فإذا الجبالُ تَسيلُ نيرانًا، وقد سدَّت الحَرَّةَ طريقَ الحاجِّ العراقيِّ، فسارت إلى أن وصلَت إلى الحَرَّةِ، فوقَفَت بعدَما أشْفَقْنا أن تَجيءَ إلينا، ورجَعَت تَسيرُ في الشرقِ، ويخرُجُ من وسَطِها سهولٌ وجبالُ نيرانٍ تأكُلُ الحجارةَ، فيها أُنموذَجٌ عما أخبَر اللَّهُ تعالى في كتابِه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢، ٣٣]. وقد أكلَت الأرضَ. وقد كتَبْتُ هذا الكتابَ يومَ خامسِ رجبٍ سنةَ أربعٍ وخمسين وستِّمائةٍ، والنارُ في زيادةٍ ما تغيَّرَت، وقد عادَت إلى الحرارِ في قُرَيْظةَ طريقِ عيرِ الحاجِّ العراقيِّ إلى الحَرَّةِ كلُّها نيرانٌ تَشْتَعِلُ، نُبصرُها في الليلِ من المدينة كأنها مَشاعلُ الحاجِّ. وأما أُمُّ النارِ الكبيرةِ فهي جبالُ نيرانٍ حُمْرٌ، والأُمُّ الكبيرةُ التي سالت النِّيرانُ منها من عند قُرَيْظةَ، وقد زادَت وما عاد الناسُ يَدْرون أيُّ شيءٍ يتمُّ بعدَ ذلك، واللَّهُ يَجْعَلُ العاقبةَ إلى خيرٍ، وما أقْدِرُ أَصِفُ هذه النارَ.

قال أبو شامة: وفي كتابٍ آخرَ: ظهَر في أول جمعةٍ من جُمادَىٰ الآخرةِ سنةَ أربعٍ وخمسين وستِّمائةٍ، ووقَع في شرقيِّ المدينةِ المُشرَّفةِ، نارٌ عظيمةٌ بينَها وبينَ المدينة نصفُ يومٍ، انْفَجَرت من الأرضِ، وسال منها وادٍ من نارٍ حتى حاذَىٰ جبلَ أُحُدٍ، ثم وقَفَت وعادت إلى الساعةِ، ولا نَدري

---

(١) **صحيح**: متفق عليه أخرجه البخاري، (٧١١٨) ومسلم (٢٩٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظ البخاري يأتي قريبًا.

ماذا تَفعَلُ؟ ووقتُ ما ظهَرت دخَل أهلُ المدينة إلى نبيِّهم، عليه الصلاةُ والسلامُ، مُستَغفِرين تائبين إلى ربِّهم تعالى، وهذه دَلائلُ القيامة.

قال: وفي كتابٍ آخَرَ: لما كان يومُ الاثنين مُستَهلَّ جُمادَىٰ الآخرة، سنةَ أربعٍ وخمسين وستِّمائة وقَع بالمدينة صوتٌ يُشْبِهُ صوتَ الرَّعْد البَعيد تارةً وتارةً، أقام على هذه الحال يومين، فلما كانت ليلةُ الأربعاء ثالثَ الشهر المذكور تعَقَّب الصوتَ الذي كنا نَسْمَعُه زَلازلُ، فتُقيمُ على هذه الحال ثلاثةَ أيامٍ يقعُ في اليوم والليلة أربعَ عشْرةَ زلزلةً، فلما كان يومُ الجمعة خامسَ الشهر المذكور انْبَجَسَت الحَرَّةُ بنارٍ عظيمةٍ يكونُ قَدْرُها مثلَ مسجد رسول اللَّه ﷺ، وهي برأْيِ العين من المدينة، نُشاهدُها وهي تَرْمي بشَرَرٍ كالقصرِ، كما قال اللَّهُ تعالى، وهي بموضعٍ يقالُ له: أُحَيْلينُ. وقد سال من هذه النار وادٍ يكونُ مقْدارُه أربعةَ فَراسخَ، وعرضُه أربعةَ أميالٍ، وعمقُه قامةً ونصفًا، وهي تَجْري على وجه الأرض، ويَخرُجُ منها أمهادٌ وجبالٌ صغارٌ، ويسيرُ على وجه الأرض، وهو صخرٌ يَذُوبُ حتى يَبْقَىٰ مثلَ الآنُك، فإذا جَمَد صار أسودَ، وقبلَ الجُمود لونُه أحمرُ، وقد حصَل بطريق هذه النار إقلاعٌ عن المَعاصي، والتَّقرُّبُ إلى اللَّه تعالى بالطاعات، وخرَج أميرُ المدينة عن مَظالمَ كثيرةٍ إلى أهلها.

قال الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ: ومن كتاب شمس الدين سنانِ بن عبد الوهَّاب بن نُمَيْلةَ الحُسَيْنيِّ قاضي المدينة إلى بعض أصحابه؛ لما كانت ليلةُ الأربعاء ثالثَ جُمادَىٰ الآخرة حدَث بالمدينة في الثُّلُث الأخير من الليل زَلْزلةٌ عظيمةٌ أشْفَقْنا منها، وباتَت باقيَ تلك الليلة تُزلْزِلُ كلَّ يومٍ وليلةٍ قَدْرَ عشْرِ نَوْباتٍ، واللَّه لقد زَلْزَلَت مرةً ونحن حولَ حجرة رسول اللَّه ﷺ، اضطَرب لها المنْبَرُ إلى أن أوْجَسْنا منه صوتًا للحديد الذي فيه، واضْطَرَبت قَناديلُ الحَرَم الشريف، وتمَّت الزَّلْزَلةُ إلى يوم الجمعة ضُحًى، ولها دَوِيٌّ مثلُ دَوِيِّ الرعد القاصف، ثم طلَع يومَ الجمعة في طريق الحَرَّة في رأسِ جَبَلَيْن نارٌ عظيمةٌ مثلُ المدينة العظيمة، وما بانَت لنا إلا ليلةَ السبت، وأشْفَقْنا منها، وخِفْنا خوفًا عظيمًا، وطلَعْتُ إلى الأمير وكلَّمْتُه، وقلتُ له: قد أحاط بنا العذابُ، ارْجِعْ إلى اللَّه تعالى. فأعْتَق كلَّ مماليكه، وردَّ على جَماعةٍ أموالَهم، فلما فعَل ذلك قلتُ: اهْبِط الساعةَ معنا إلى النبيِّ ﷺ. فهبَط وبِتْنا ليلةَ السبت، والناسُ جميعُهم والنِّسْوانُ وأولادُهم، ولا بقِي أحدٌ لا في النَّخيل ولا في المدينة إلا عندَ النبيِّ ﷺ، وأشفَقْنا منها، وظهَر ضوءُها إلى أن أُبصرتْ من مكةَ ومن الفَلاة جميعها. ثم سال منها نهرٌ من نارٍ، وأخَذ في وادي أُجَيْلين وسدَّ الطريقَ، ثم طلَع إلى بَحْرة الحاجِّ، وهو بحرُ نارٍ يَجْري، وفوقَه جَمْرٌ يَسيرُ إلى أن قطعَت الواديَ؛ واديَ الشَّظَا، وما عاد يَجري في الوادي سَيْلٌ قطُّ؛ لأنها حفَرتْه نحوَ قامتَيْن وثلُث عُلُوُّها، وباللَّه يا أخي إن عيشتَنا اليومَ مُكَدَّرةٌ، والمدينةُ قد تاب جميعُ أهلِها، ولا بقِي يُسْمَعُ فيها رَبابٌ، ولا دُفٌّ ولا شُرْبٌ، وتمَّت النارُ تَسيرُ إلى أن سدَّت بعضَ طريقِ

الحاجِّ وبعض بَحْرة الحاجِّ، وجاء في الوادي إلينا منها قَتيرٌ، وخفْنا أنه يَجيئنا، فاجْتَمَع الناسُ، ودخَلوا على النبيِّ ﷺ، وباتوا عندَه جميعُهم ليلةَ الجمعة، وأما قَتيرُها الذي مما يَلينا فقد طَفِيَ بقدرة اللَّه، سبحانه وتعالى، وأنها إلى الساعة ما نقَصَت إلا تَرَىٰ مثلَ الجمال حجارةً من نارٍ، ولها دَوِيٌّ ما يَدَعُنا نَرْقُدُ ولا نأكُلُ ولا نَشْرَبُ، وما أَقْدِرُ أَصِفُ لك عِظَمَها، ولا ما فيها من الأهْوال، وأبْصَرها أهلُ يَنْبُعَ وندَبوا قاضيَهم ابنَ أسْعَدَ، وجاء وغَدا إليها، وما أصبَح يَقْدِرُ يَصِفُها من عِظَمِها، وكتَب الكُتَّابُ يومَ خامسِ رجبٍ، وهي على حالها، والناسُ منها خائفون، والشمسُ والقمرُ من يومَ طلَعَت ما يَطْلُعان إلا كاسِفَيْن، فنَسْألُ اللَّهَ العافيةَ.

قال أبو شامة: وبان عندَنا بدمشقَ أثرُ الكُسوف من ضعف نُورهما على الحيطان، وكنا حَيارَىٰ من ذلك أيْش هو؟ إلى أن جاءنا الخبرُ عن هذه النار.

قلتُ: وكان أبو شامةَ قد أرَّخ قبلَ مَجيءِ الكتب بأمر هذه النار، فقال: وفيها في ليلة الاثنين السادسَ عشرَ من جُمادَىٰ الآخرة خسَف القمرُ أولَ الليل، وكان شديدَ الحُمْرة، ثم انْجَلى، وكسَفت الشمسُ، وفي غده احْمَرَّت وقتَ طُلوعها وغُروبها وبقِيَت كذلك أيامًا مُتَغَيِّرةَ اللون، ضَعيفةَ النور، واللَّهُ تعالى على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، ثم قال: واتَّضَح بذلك ما صوَّره الشافعيُّ من اجْتماع الكُسوف والعيد، واسْتَبْعَده أهلُ النِّجامة. ثم قال أبو شامة: ومن كتاب آخرَ من بعض بني الفاشانيِّ بالمدينة يقولُ فيه: وصَل إلينا في جُمادَىٰ الآخرة نَجابةٌ من العراق، وأخْبَروا عن بغدادَ أنه أصابها غرَقٌ عظيمٌ حتى دخل الماءُ من أسوار بغدادَ إلى البلد، وغرِق كثيرٌ من البلد، ودخَل الماءُ دارَ الخليفة وسْطَ البلد، وانْهَدَمَت دارُ الوزير وثلاثُمائة وثمانون دارًا، وانْهَدم مَخْزَنُ الخليفة، وهلَك من خزانة السلاح شيءٌ كثيرٌ بل تلف كلُّه، وأشْرَف الناسُ على الهَلاك، وعادَت السفنُ تَدْخُلُ إلى وسَط البَلد، وتَخْتَرِقُ أزِقَّةَ بغدادَ.

قال: وأما نحن فإنه جرَىٰ عندَنا أمرٌ عظيمٌ؛ لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جُمادَىٰ الآخرة ومن قبلها بيومين، عاد الناسُ يَسْمَعون صوتًا مثلَ صوت الرَّعْد ساعةً بعد ساعة - وما في السماء غيمٌ حتى نقولَ إنه منه - يومين إلى ليلة الأربعاء، ثم ظهَر الصوتُ حتى سمعه الناسُ وتزلزلت الأرضُ ورجَفَتْ بنا رَجْفةً لها صوتٌ كدويِّ الرعد، فانْزَعَج لها الناسُ كلُّهم، وانْتَبَهوا من مَراقدهم، وضجَّ الناسُ بالاسْتغْفار إلى اللَّه تعالى، وفزِعوا إلى المسجد، وصلَّوْا فيه، وتمَّت تَرْجُفُ بالناس ساعةً بعدَ ساعة إلى الصبح؛ وذلك اليومَ كلَّه يومَ الأربعاء وليلةَ الخميس كلَّها ويومَ الخميس وليلةَ الجمعة. وصبحَ يوم الجمعة ارْتَجَّت الأرضُ رَجَّةً قويةً إلى أن اضْطَرَب مَنارُ المسجد بعضُه ببعضٍ، وسُمع لسقف المسجد صَريرٌ عظيمٌ، وأشْفَق الناسُ من ذُنوبهم، وسكَنَت الزَّلْزَلةُ بعدَ صُبْحِ يوم الجمعة إلى

قبلِ الظهرِ، ثم ظهرت عندنا بالحرَّةِ وراءَ قُرَيظةَ على طريقِ السُّوارِقيَّةِ بالمَقاعِدِ مسيرةً من الصبحِ إلى الظهرِ نارٌ عظيمةٌ تنفجرُ من الأرضِ، فارْتاع لها الناسُ روعةً عظيمةً، ثم ظهر لها دخانٌ عظيمٌ في السماءِ ينعقدُ حتى يبقى كالسَّحابِ الأبيضِ، إلى قبلِ مغيبِ الشمسِ من يومِ الجمعةِ، ثم ظهرت النارُ، لها ألسنٌ تصعدُ في الهواءِ إلى السماءِ حمراءَ كأنها العَلَقَةُ، وعظُمت وفزع الناسُ إلى المسجدِ النبويِّ، وإلى الحجرةِ الشريفةِ، واستَجار الناسُ بها، وأحاطوا بالحُجْرةِ وكشفوا رءوسَهم، وأقرُّوا بذُنوبهم، وابتَهَلوا إلى اللَّهِ تعالى، واستَجاروا بنبيِّه، عليه الصلاةُ والسلامُ، وأتى الناسُ إلى المسجدِ من كلِّ فجٍّ ومن النَّخْلِ، وخرَج النساءُ من البيوتِ والصِّبْيانُ، واجْتَمَعوا كلُّهم، وأخْلَصوا للَّهِ، وغطَّت حُمْرةُ النارِ السماءَ كلَّها حتى بقِي الناسُ في مثلِ ضَوْءِ القمرِ، وبقِيت السماءُ كالعَلَقَةِ، وأيْقَن الناسُ بالهلاكِ أو العذابِ، وبات الناسُ تلك الليلةَ بينَ مُصلٍّ وتالٍ للقرآنِ وراكعٍ وساجدٍ، وداعٍ إلى اللَّهِ عز وجل، ومُتنصِّلٍ من ذُنوبِه ومُستَغْفِرٍ وتائبٍ، ولزِمت النارُ مكانَها، وتناقَص تَضاعُفُها ذلك ولَهِيبُها، وصعِد الفَقيهُ والقاضي إلى الأميرِ يَعِظُونَه، فطرَح المَكْسَ، وأعْتَق مَماليكَه كلَّهم وعبيدَه، وردَّ علينا كلَّ ما لنا تحتَ يده، وعلى غيرِنا، وبقِيَت تلك النارُ على حالِها تَلْتَهِبُ الْتِهابًا، وهي كالجبلِ العظيمِ وكالمدينةِ ارتفاعًا وعَرْضًا، يخْرُجُ منها حَصًى يصْعَدُ في السماءِ، ويَهْوِي فيها، ويَخْرُجُ منها كالجبلِ العظيمِ نارٌ ترْمِي كالرَّعْدِ، وبقِيَت كذلك أيامًا، ثم سالت سَيَلانًا في وادي أُحَيْلين، تَنْحَدِرُ مع الوادي إلى الشَّظَاة، حتى لحِق سَيَلانُها بالبَحْرةِ بَحْرةِ الحاجِّ، والحجارةُ معها تَتَحرَّكُ وتَسيرُ حتى كادَت تُقارِبُ حَرَّةَ العريضِ، ثم سكَنَت، ووقَفَت أيامًا، ثم عادَت النارُ تخرُجُ وتَرْمِي بحجارةٍ خلفَها وأمامَها، حتى بنَت لها جبلَيْن، وما بقِي يَخْرُجُ منها من بينِ الجَبَلَيْن لسانٌ لها أيامًا، ثم إنها عَظُمَت الآنَ، وسَنَاها إلى الآنَ، وهي تَتَّقِدُ كأعظمِ ما يكونُ، ولها كلَّ يومٍ صوتٌ عظيمٌ آخرَ الليلِ إلى ضَحْوةٍ، ولها عَجائبُ ما أَقْدِرُ أن أَشْرَحَها لك على الكَمالِ، وإنما هذا طرَفٌ منها كبيرٌ يَكْفي، والشمسُ والقمرُ كأنهما مُنْكَسِفان إلى الآنَ، وكتبتُ هذا الكتابَ، ولها شهرٌ، وهي في مكانِها ما تَتَقَدَّمُ ولا تَتَأَخَّرُ، وقد قال فيها بعضُهم أبياتًا:

يا كاشفَ الضُّرِّ صَفْحًا عن جَرائمنا ... لقد أحاطَت بنا يا ربُّ بَأْساءُ
نَشْكُو إليك خُطوبًا لا نُطيقُ لها ... حَمْلاً ونحن بها حقًّا أحِقَّاءُ
زَلازلاً تَخْشَعُ الصُّمُّ الصِّلابُ لها ... وكيف يَقْوَى على الزِّلْزال شَمَّاءُ
أقام سبعًا يَرُجُّ الأرضَ فانْصَدَعَت ... عن مَنْظَرٍ منه عينُ الشمسِ عَشْواءُ
بَحْرٌ من النارِ تَجْري فوقَه سُفُنٌ ... من الهِضابِ لها في الأرضِ إرْساءُ
يُرَى لها شَرَرٌ كالقصرِ طائشةً ... كأنها ديمةٌ تَنْصَبُّ هَطْلاءُ
تَنْشَقُّ منها قلوبُ الصَّخْرِ إنْ زَفَرَتْ ... رعبًا وتَرْعُدُ مِثلَ السيفِ أضواءُ

منهـا تكاثَفَ في الجوِّ الدُّخَانُ إلى ... أن عادت الشمسُ منه وهْي دَهْماءُ
قد أَثَّرَتْ سُفْعَةٌ في البدر لَفْحَتُها ... فليلةُ التِّمِّ بعدَ النورِ لَيْلاءُ
تُحَدِّثُ النَّيِّراتُ السَّبْعَ أَلْسنُها ... بما يُلاقي بها تحت الثرى الماءُ
وقدْ أحاطَ لظاها بالبروجِ إلى ... أن كاد يُلحقُها بالأرضِ إهْواءُ
فيا لَها آيةً منْ مُعْجزاتِ رسو ... لِ اللَّهِ يَعْقلُها القومُ الألِبَّاءُ
فباسْمك الأعْظَمِ المكْنونِ إنْ عَظُمتْ ... منَّا الذنوبُ وساءَ القلبُ أسواءُ
فاسمحْ وهَبْ وتَفَضَّلْ وامْحُ واعفُ وجُدْ ... واصْفَحْ فكلٌّ لفَرْطِ الجهلِ خَطّاءُ
فقومُ يونسَ لما آمنوا كُشِفَ الـ ... ـعذابُ عنهمْ وعَمَّ القومَ نَعْماءُ
ونحن أمةُ هذا المصطفى ... ولنا منه إلى عفوك المرجوِّ دَعّاءُ
هذا الرسولُ الذي لَوْلاه ما سلكتْ ... مَحَجَّةٌ في سبيلِ اللَّهِ بيضاءُ
فارحَمْ وصَلِّ على المختارِ ما خَطَبَتْ ... على عُلا منبرِ الأوراقِ ورقاءُ

قلتُ: والحديثُ الواردُ في أمرِ هذه النارِ مُخَرَّجٌ في «الصحيحَيْن» مِن طريقِ الزُّهْريِّ، عن سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عن أبي هريرةَ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «لا تقومُ الساعةُ حتى تَخرُجَ نارٌ من أرضِ الحجازِ تُضيءُ أعْناقَ الإبلِ بِبُصْرَى»[1] . وهذا لفظُ البُخاريِّ. وقد وقَع هذا في هذه السنةِ - أعْنِي سنةَ أربعٍ وخمسين وستِّمائةٍ - كما ذكَرْنا، وقد أخْبَرَني قاضي القُضاةِ صَدْرُ الدينِ عليُّ بنُ أبي القاسمِ التَّميميُّ الحَنَفيُّ الحاكمُ بدمشقَ في بعضِ الأيامِ في المُذاكَرةِ، وجرَىٰ ذِكْرُ هذا الحديثِ، وما كان مِن أمرِ هذه النارِ في هذه السنةِ فقال: سمِعْتُ رجلاً مِن الأعرابِ يُخْبِرُ والدي ببُصْرَىٰ في تلك الليالي أنهم رأَوْا أعْناقَ الإبلِ في ضوءِ هذه النارِ التي ظهَرَت في أرضِ الحجازِ. قلتُ: وكان مولدُه في سنةِ ثنتين وأربعين وستِّمائةٍ، وكان والدُه مُدَرِّسًا للحنَفيةِ بمدينةِ بُصْرَىٰ، وكذلك كان جَدُّه وهو أيضًا، فدرَّس بها، ثم انْتَقَل إلىٰ دمشقَ، فدرَّس بالصادريةِ وبالمُقَدَّميَّةِ، ثم ولِي قَضاءَ القُضاةِ الحَنَفيةِ، وكان مَشْكورَ السِّيرةِ في الأحْكامِ، وقد كان عمرُه حينَ وقَعَت هذه النارُ بالحجازِ ثنتَيْ عشْرةَ سنةً، ومثلُه ممَّن يَضْبِطُ ما يَسْمَعُ مِن الخبرِ أن الأعْرابيَّ أخْبَر والدَه في تلك الليالي. وصلواتُ اللَّهِ وسلامُه على نبيِّه سيدِنا محمدٍ وآلِه وصَحْبِه وسلَّم تسليمًا كثيراً.

ومما نظَمه بعضُ الشُّعراءِ في هذه النارِ الحجازيةِ وغَرَقِ بغدادَ قولُه:

سبحانَ مَن أصْبَحَت مَشيئتُه ... جاريةً في الورَى بمقْدارِ
أغْرَق بَغدادَ بالمياه كما ... أحْرَق أرضَ الحجازِ بالنارِ

قال أبو شامةَ: والصَّوابُ أن يُقالَ:

في سَنَةٍ أغْرَق العراقَ وقد ... أحْرَق أرضَ الحجازِ بالنارِ

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

وقال ابنُ الساعي في تاريخ سنة أربع وخمسين وستِّمائة: وفي يوم الجمعة ثامنَ عشرَ رجب - يَعْني من هذه السنة - كنتُ جالسًا بينَ يدي الوزير، فورَد عليه كتابٌ من مدينة الرسول ﷺ صُحْبةَ قاصدٍ يُعْرَفُ بقَيْمازَ العَلَويِّ الحَسَنيِّ المَدَنيِّ، فناوله الكتابَ فقرأه، وهو يَتَضَمَّنُ أن مدينةَ رسول اللّه ﷺ زُلْزِلَت يومَ الثلاثاء ثانيَ جُمادَى الآخرة حتى ارْتَجَّ المِنْبَرُ الشريفُ النبويُّ، وسُمِع صَريرُ الحديد، وتحرَّكَت السَّلاسلُ، وظهَرت نارٌ على مَسيرِ أربعة فَراسخَ من المدينة، وكانت تَرْمي بشررٍ كأنه رُءُوسُ الجبال، ودامَت خمسةَ عشرَ يومًا. قال القاصدُ: وجئتُ ولم تَنْقَطِعْ بعدُ، بل كانت على حالها، وسأله: إلى أيِّ الجهات تَرْمي؟ فقال: إلى جهة الشرق. واجْتَزْتُ عليها أنا ونَجابةُ اليمنِ، ورَمَيْنا فيها سَعَفةً، فلم تُحْرِقْها، بل كانت تَحْرِقُ الحجارةَ وتُذيبُها، وأخْرَج قَيْمازُ المذكورُ شيئًا من الصخرِ المُحْتَرِق، وهو كالفحم لونًا وخفَّةً.

قال: وذكَر في الكتاب، وكان بخطِّ قاضي المدينة، أنهم لما زُلْزِلوا دخَلوا الحَرَمَ، وكشَفوا رءوسَهم واسْتَغْفَروا، وأن نائبَ المدينة أعْتَق جميعَ مَماليكه، وخرَج من جميع المَظالم، ولم يَزالوا مُسْتَغْفِرين متضرِّعين حتى سكَنَت الزَّلْزلةُ، إلا أن النارَ التي ظهَرت لم تَنْقَطِعْ، وجاء القاصدُ المذكورُ، ولها خمسةَ عشرَ يومًا وإلى الآنَ.

قال ابنُ الساعي: وقرأتُ بخطِّ العَدْلِ محمودِ بنِ يوسُفَ بنِ الأمعانيِّ شيخِ حَرَمِ المدينة النبوية، على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام، يقولُ: إن هذه النارَ التي ظهَرت بالحجاز آيةٌ عظيمةٌ، وإشارةٌ صحيحةٌ مستقيمةٌ دالَّةٌ على اقْترابِ الساعة، فالسعيدُ مَن انْتَهَز الفُرْصةَ قبلَ الفَوْت، وتَدارَك أمْرَه بإصلاحِ حاله مع اللّه عز وجل قبلَ الموت، وهذه النارُ في أرضٍ ذاتِ حجرٍ، لا شجرَ فيها ولا نَبْتَ، وهي تَأْكُلُ بعضُها بعضًا إن لم تَجِدْ ما تَأْكُلُه، وهي تُحْرِقُ الحجارةَ وتُذيبُها، حتى تعودَ كالطِّينِ المَبْلول، ثم يَضْرِبُه الهواءُ حتى يعودَ كخَبَثِ الحديد الذي يخرُجُ من الكير، فاللّهُ يَجْعَلُها عِبْرةً للمسلمين ورَحْمةً للعالمين، بمحمدٍ وآله الطاهرين.

قال أبو شامة: وفي ليلة الجمعة مُسْتَهَلَّ رمضانَ من هذه السنة احْتَرَق مسجدُ المدينة، على ساكنه أفضلُ الصلاة والسلام، ابْتَدَأ حَريقُه من زاويته الغَرْبية من الشمال، وكان دخَل أحدُ القَومة إلى خزانةٍ ثَمَّ، ومعه نارٌ فعلقَت في الآلات ثَمَّ، واتَّصلَت بالسقف بسرعة، ثم دبَّت في السقوف، وأخَذَت قِبْلةً، فأعْجَلَت الناسَ عن قطعها، فما كان إلا ساعةٌ حتى احْتَرَقت سقوفُ المسجد أجْمَعَ، ووقَعَت بعضُ أساطينه، وذاب رَصاصُها، وكلُّ ذلك قبلَ أن ينامَ الناسُ، واحْتَرَق سقفُ الحجرة النبوية، ووقَع ما وقَع منه في الحجرة، وبقي على حاله حتى شُرِع في عمارة سقفه وسقف المسجد النبويِّ، على صاحبه أفضلُ الصلاة والسلام، وأصْبَحَ الناسُ، فعزَلوا موضعًا للصلاة، وعُدَّ ما وقَع من تلك النارِ

الخارجة وحريقِ المسجد من جُملةِ الآياتِ، وكأنّها كانت مُنْذرةً بما يَعْقُبُها في السنةِ الآتيةِ من الكائناتِ على ما سنَذْكُرُه، إن شاءَ اللَّهُ تعالى. هذا كلامُ الشيخِ شهابِ الدينِ أبي شامةَ.

وقد قال أبو شامةَ في الذي وقَع في هذه السنةِ وما بعدَها شعرًا، وهو قولُه:

بعد ستٍّ من المئين وخمسيـ ... ـن لدى أربعٍ جرَى في العامِ
نارُ أرضِ الحجازِ معْ حَرْقِ المسْـ ... ـجدِ معْه تَغْريقُ دارِ السلامِ
ثم أخْذُ التتارِ بغدادَ في أوَّ ... لِ عامٍ من بعد ذاك وعامِ
لم يُعَنْ أهلُها وللكفرِ أعْوا ... نٌ عليهمْ يا ضَيْعةَ الإسلامِ
وانقَضَتْ دولةُ الخلافةِ منها ... صار مُسْتَعْصِمٌ بغيرِ اعْتِصامِ
فحنانًا على الحجازِ ومصرٍ ... وسلامًا على بلادِ الشامِ
ربِّ سلِّمْ وصُنْ وعافِ بَقايا الـ ... ـمُدْنِ يا ذا الجلالِ والإكرامِ

وفي هذه السنة كمَلَت عمارةُ المدرسة الناصرية الجَوَّانية داخلَ بابِ الفَراديسِ، وحضَر فيها الدرسَ واقفُها الملكُ الناصرُ صلاحُ الدينِ يوسُفُ ابنُ الملكِ العزيزِ محمدِ ابنِ الملكِ الظاهرِ غياثِ الدينِ غازي ابنِ الناصرِ صلاحِ الدينِ يوسُفَ بنِ أيوبَ بنِ شادي فاتحِ بيتِ المقدسِ، ودرَّس فيها قاضي البلدِ صَدْرُ الدينِ ابنُ سَنِيِّ الدولةِ، وحضَر عندَه الأمراءُ والدولةُ والعلماءُ وجُمْهورُ أهلِ الحَلِّ والعَقْدِ بدمشقَ.

وفيها: أُمِر بعمارةِ الرِّباطِ الناصريِّ بسفحِ قاسيونَ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ في هذه السنةِ من الأعْيانِ:

الشيخُ عمادُ الدينِ عبدُ اللَّهِ بنُ الحسنِ بنِ النَّحَّاسِ، ترَك الخدمَ، وأقْبَل على الزَّهادةِ والتِّلاوةِ، والعِبادةِ والصِّيامِ المُتَتابِعِ، والانْقِطاعِ بمسجدِه بسفحِ قاسيونَ نحوًا من ثلاثين سنةً، وكان من خِيارِ الناسِ. ولما تُوُفِّي دُفِن عندَ مسجدِه بتربةٍ مشهورةٍ به، وحمامٍ يُنْسَبُ إليه في مساريقِ الصالحيةِ، وقد أثْنَى عليه السِّبْطُ، وأرَّخوا وفاتَه كما ذكَرْنا.

يوسفُ بنُ الأميرِ حُسامِ الدينِ قِزُغْلي بنِ عبدِ اللَّهِ عَتيقِ الوزيرِ عَوْنِ الدينِ يحيى بنِ هُبَيْرَةَ الحَنْبليِّ[1]، الشيخُ شمسُ الدينِ، أبو المُظَفَّرِ الحَنَفيُّ البَغْداديُّ، ثم الدمشقيُّ، سِبْطُ ابنِ الجوزيِّ، أمُّه رابعةُ بنتُ الشيخِ جمالِ الدينِ أبي الفرجِ ابنِ الجوزيِّ الواعظِ، وقد كان حسنَ الصُّورةِ، طيبَ الصوتِ، حسَنَ الوَعْظِ، كثيرَ الفَضائلِ والمُصنَّفاتِ، وله «مِرآةُ الزمانِ» في عشرين مجلدًا من أحسنِ التَّواريخِ، انتظَم فيه «المُنْتَظَمَ» لجدِّه، وزاد عليه، وذَيَّلَ إلى زمانِه، وهو من أحسَنِ التَّواريخِ وأبْهَجِها، قدِم دمشقَ في حُدودِ الستِّمائةِ، وحظِي عندَ ملوكِ بني أيوبَ، وقدَّموه وأحْسَنوا إليه، وكان له مَجْلِسُ وَعْظٍ كلَّ يومِ

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٣/ ٢٩٦-٢٩٧).

سبت بُكْرةَ النهارِ عندَ السارية التي يَقومُ عندَها الوُعَّاظُ اليومَ عندَ باب مَشْهَد عليِّ بن الحسين زَيْن العابدين، وقد كان الناسُ يَبيتون ليلةَ السبت بالجامع، ويَتْرُكون البَساتينَ في الصيف حتى يَسْمَعوا ميعادَه، ثم يُسْرِعون إلى بَساتينهم، فيَتَذاكَرون ما قاله من الفَوائد والكلام الحَسَن، على طريقة جدِّه.

وقد كان الشيخُ تاجُ الدين الكِنْديُّ، وغيرُه من المشايخ، يَحْضُرون عندَه تحتَ قُبَّة يَزيدَ، التي عندَ باب المَشْهَد، ويَسْتَحْسِنون ما يقولُ، ودرَّس بالعزِّيَّة البَرَّانية التي بَناها الأميرُ عزُّ الدين أَيْبَك المُعَظَّميُّ، أُستاذُ دار المُعَظَّم، وهو واقفُ العزِّيَّة الجَوَّانية التي بالكشك أيضًا، وكانت قديمًا تُعْرَفُ بدُور ابن مُنْقِذ، ودرَّس السِّبْطُ أيضًا بالشِّبْلية التي بالجبل عندَ جسر كُحَيْل، وفُوِّض إليه البَدْرِيَّةُ التي قُبالَتَها، فكانت سَكَنَه، وبها تُوُفِّي ليلةَ الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحِجَّة من هذه السنة، وحضَر جنازتَه سلطانُ البلد الناصرُ بنُ العزيز فمَن دونَه، وقد أثْنَى عليه الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ في عُلومه وفَضائله ورياسته وحُسْن وَعْظه وطِيب صوته ونَضارة وجهه، وتَواضُعه وزُهده وتَودُّده، لكنه قال: وقد كنتُ مَريضًا ليلةَ وفاته، فرأَيْتُ وفاتَه في المَنام قبلَ اليَقَظة، ورأَيْتُه في حالة مُنْكَرة، ورآه غيري أيضًا كذلك، فنَسْأَلُ اللَّهَ العافيةَ، ولم أَقْدِرْ على حُضور جنازته، وكانت جنازتُه حافلةً، حضَرها خلقٌ كثيرٌ؛ السلطانُ فمَن دونَه، ودُفن هناك، وقد كان فاضلاً عالمًا ظَريفًا، مُنْقَطِعًا مُنْكرًا على أرباب الدول ما هم عليه من المُنْكَرات، وقد كان مقتصدًا في لباسه، مُواظِبًا على المُطالَعة والاشْتغال والجَمْع والتَّصْنيف، مُنْصِفًا لأهل العلم والفضل، مُباينًا لأهل الجَبْرِيَّة والجهل، وتأتي الملوكُ وأرْبابُ الدُّول إليه زائرين وقاصدين، ورُبِّي في طُول زمانه في جاهٍ عَريض عندَ الملوك والعَوامِّ نحوَ خمسين سنةً، وكان مَجْلِسُ وَعْظه مُطْرِبًا، وصوتُه فيما يُورِدُه فيه حسنًا طيِّبًا، رحمه اللَّهُ تعالى ورضي عنه. قلتُ: وهو ممَّن يُنْشَد له عندَ مَوته قولُ الشاعر:

مازلتَ تَدْأَبُ في التاريخ مجتهدًا ... حتى رأيتُك في التاريخ مَكْتُوبًا

وقد سُئل يومَ عاشُوراءَ زمنَ الملك الناصر صاحب حلَبَ أن يَذْكُرَ للناس شيئًا من مَقْتَل الحسين، فصعد المِنْبَر، وجلَس طويلاً لا يَتَكَلَّمُ، ثم وضَع المِنْديل على وجهه، وبكَى ثم أنْشأ يقولُ وهو يَبْكي شديدًا.

وَيْلٌ لمَن شُفعاؤُه خُصَماؤُه ... والصُّورُ في نَشْر الخَلائق يُنْفَخُ
لابدَّ أن تَرِدَ القيامةَ فاطمٌ ... وقميصُها بدم الحسين مُلَطَّخُ

ثم نزَل عن المنبر وهو يَبْكي، وصعد إلى الصالحية وهو يَبْكي كذلك، رحمه اللَّهُ.

واقفُ مَارَسْتان الصالحية: الأميرُ الكبيرُ سيفُ الدين أبو الحسن يوسفُ بنُ أبي الفَوارس بن مُوسَك القَيْمَريُّ الكُرْديُّ، أكبرُ أُمراء القَيْمَرية، كانوا يَقفون بينَ يديه كما تُعامَلُ الملوكُ، ومن أكبر حَسَناته

وَقْفُه المارَسْتانَ الذي بسفح قاسيونَ، وكانت وفاتُه ودفنُه بالسَّفح في القُبَّة التي تُجاهَ المارَسْتانِ المذكورِ، وكان ذا مالٍ كثيرٍ وثَرْوةٍ، رحمه اللَّهُ.

مُجيرُ الدين يعقوبُ بنُ الملك العادل أبي بكر بن أيوبَ، دُفن عندَ والده بتُرْبة العادلية.

الأميرُ مُظَفَّرُ الدين إبراهيمُ بنُ صاحب صَرْخَدَ عزِّ الدين أَيْبَكَ أُستاذ دارِ المُعَظَّم واقف العِزِّيَّتَيْن؛ البَرَّانية والجَوَّانية على الحَنَفية، ودُفن عندَ والده بالتربة تحتَ القُبَّة عندَ الوَرَّاقة، رحمهما اللَّهُ تعالى.

الشيخُ شمسُ الدين عبدُ الرحمن بنُ نوح المَقْدسيُّ، الفَقيهُ الشافعيُّ مُدَرِّسُ الرَّواحية بعدَ شيخه تَقيِّ الدين ابنِ الصَّلاح، ودُفن بالصُّوفية، وكانت له جنازةٌ حافلةٌ، رحمه اللَّهُ.

قال أبو شامةَ: وكثُر في هذه السنة موتُ الفَجْأة. فمات خلقٌ كثيرٌ بسبب ذلك.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها: زكيُّ بنُ الفويرة، أحدُ المُعَدِّلين بدمشقَ، وبدرُ الدين بنُ التِّبْنينيُّ أحدُ رُؤسائها، وعزُّ الدين عبدُ العزيز بنُ أبي طالب بن عبد الغَفَّار التَّغْلبيُّ ابنُ الحنويِّ، وهو سِبْطُ القاضي جَمال الدين ابن الحَرَسْتانيِّ، رحمهم اللَّهُ تعالى وعفا عنهم أجْمَعين.

* * *

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة

فيها: أصبح الملكُ المعزُّ صاحبُ مصرَ عزُّ الدين أَيبَكُ التُّرْكُمانيُّ بداره ميّتًا، وقد ولي المُلْكَ بعدَ أُستاذه الملك الصالح نَجْم الدين أيوبَ بشُهور، كان فيها ملكَ تُورانْشاه المُعَظَّمُ بنُ الصالح، ثم خلَفَته شَجَرُ الدُّرِّ أمُّ خَليلٍ مدةَ ثلاثة أشهر، ثم أُقيم هو في المُلك ومعه المَلِكُ الأشْرَفُ موسى بنُ الناصر يوسُفَ بنِ أَقْسيسَ بنِ الكامل مدةً، ثم اسْتَقَلَّ بالمُلك بلا مُنازَعة، وكسَر الناصرَ لما أراد أخْذَ الديارِ المصرية، وقتَل الفارسَ أقْطاي في سنة ثنتين وخمسين، وخلَع بعدَه الأشْرَفَ، واسْتَقَلَّ بالمُلك وحدَه، ثم تزَوَّج بشجرِ الدُّرِّ أمِّ خليلٍ، وكان كريمًا شُجاعًا حَكيمًا ديِّنًا، ثم كان موتُه في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول، وهو واقفُ المدرسةِ المُعِزِّيَّة التي بمصرَ، ومَجازُها من أحسنِ الأشياء، وهي من داخلٍ ليست بتلك الفائقة. وقد قال بعضُهم فيها: هذه مَجازٌ لا حقيقةَ له. ولما قُتِل، رحمه اللَّهُ، اتُّهِم مَماليكُه زوجتَه أمَّ خليلٍ المسماةَ بشجرِ الدُّرِّ به، وكان قد عزَم على تَزويج ابنةِ صاحبِ المَوْصِلِ بدرِ الدين لؤلؤ، فأمَرَت جَواريَها أن يُمْسِكْنَه لها، فمازالت تَضْرِبُه بقَباقيبِها، والجَواري يَعْرُكْنَ في مَعاريه حتى مات وهو كذلك، ولما سَمِع مَماليكُه أقْبَلوا بصُحبة مَملوكه الأكبرِ سيف الدين قُطُز، فقتَلوها وألْقَوها على مَزْبَلةٍ غيرَ مَسْتورةِ العَوْرة، بعدَ الحجاب المَنيع والمَقام الرفيع، وقد علَّمَت على المَناشيرِ والتَّواقيع، وخطَب الخُطباءُ باسمِها، وضُرِبَت السِّكَّةُ برَسْمِها، فذهَبَت فلا تُعْرَفُ بعدَ ذلك بعينها ولا رسمِها: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وأقامت الأتراكُ بعدَ أُستاذهم عزِّ الدين أيبَك التُّرْكُمانيِّ - بإشارةِ أكبرِ مَماليكه الأميرِ سيفِ الدين قُطُز - ولدَه نُورَ الدين عليًّا، ولقَّبوه الملكَ المنصورَ، وخُطِب له على المَنابر، وضُرِبَت السِّكَّةُ باسمه، وجرَت الأمورُ على ما يَخْتارُه برأيه ورَسْمِه.

وفيها: كانت فتنةٌ عظيمةٌ ببغدادَ بينَ الرافضة وأهلِ السنة، فنُهِبت الكَرْخُ ودُورُ الرافضة حتى دُورُ قَراباتِ الوزير ابنِ العَلْقَميِّ، وكان ذلك من أقوى الأسباب في مُمالأته التتارَ.

وفيها: دخلَت الفُقراءُ الحَيْدريةُ الشامَ، ومن شعارِهم لُبسُ الفَراجي والطَّراطير، ويَقُصُّون لحاهم، ويَتْرُكون شَواربَهم، وهو خلافُ السنة، ترَكوها لمُتابعةِ شيخِهم حَيْدَرَ حينَ أسَره المَلاحِدةُ، فقصُّوا لحيتَه، وترَكوا شَواربَه، فاقْتَدَوْا به في ذلك، وهو مَعْذورٌ مأْجورٌ، وقد نهَى رسولُ اللَّهِ ﷺ عن ذلك، وليس لهم فيه قُدْوةٌ، وقد بُنِيَت لهم زاويةٌ بظاهرِ دمشقَ قريبًا من العونية.

وفي يومِ الأربعاء ثامنَ عشَرَ ذي الحجَّة من هذه السنة المُباركة عُمِل عَزاءُ واقفِ البادَرائية بها الشيخ نَجْم الدين عبدِ اللَّه بنِ محمدٍ البادَرائيِّ البغداديِّ، مُدَرِّسِ النِّظامية، ورسولِ الخلافةِ إلى ملوكِ

الآفاقِ في الأمورِ المُهِمة، وإصلاحِ الأحوالِ المُدْلَهِمَّة، وقد كان فاضلاً بارعًا رئيسًا وَقورًا مُتواضعًا، وقد ابْتَنَى بدمشقَ مدرسةً حسنةً مكانَ دارِ الأميرِ أُسامةَ، وشرَطَ على المُقيمِ بها العُزوبةَ، وأن لا يَكونَ الفَقيهُ في غيرِها من المدارسِ، وإنما أراد بذلك توفيرَ خاطرِ الفقيهِ وجَمْعِيَّتَه على طلبِ العلمِ، ولكن حصَل بذلك خَلَلٌ كثيرٌ وشرٌّ لبعضِهم كبيرٌ، وقد كان شيخُنا الإمامُ العَلاَّمةُ شيخُ الشافعيةِ بالشامِ وغيرِها بُرْهانُ الدينِ أبو إسحاقَ إبراهيمُ ابنُ الشيخِ تاجِ الدينِ الفَزاريِّ مُدَرِّسُ هذه المدرسةِ وابنُ مُدَرِّسِها، يَذْكُرُ أنه لما حضَر الواقفُ في أولِ يومِ دَرَّس بها، وحضَر عندَه السلطانُ الناصرُ، قُرِئ كتابُ الوَقْفِ، وفيه: ولا يَدْخُلُها امرأةٌ. فقال السلطانُ: ولا صبيٌّ؟ فقال الواقفُ: يا مولانا، ربُّنا ما يَضْرِبُ بعصاتَيْن. فإذا ذكَر هذه الحكايةَ تبسَّم عندَها، رحمه اللَّهُ تعالى.

وكان هو أولَ مَن درَّس بها، ثم ولدُه كَمالُ الدينِ من بعدِه، وجعَل نَظَرَها إلى وَجيهِ الدينِ بنِ سُوَيْدٍ، ثم صار في ذُريتِه إلى الآنَ. وقد نظَر في بعضِ الأوقاتِ القاضي شمسُ الدينِ ابنُ الصائغِ، ثم انْتُزِع منه حيث أُثْبِت لهم النظرُ، وقد أوْقَف البادَرائيُّ على هذه المدرسةِ أوقافًا حسنةً دارَّةً، وجعَل فيها خِزانةَ كتبٍ حسَنةً نافعةً، وقد عاد إلى بغدادَ في هذه السنةِ، فولي بها قضاءَ القُضاةِ كُرْهًا منه، فأقام فيه سبعةَ عشَرَ يومًا، ثم تُوُفِّي إلى رحمةِ اللَّهِ تعالى في مُسْتَهَلِّ ذي الحِجَّةِ من هذه السنةِ. ودُفِن بالشُّونيزيةِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

وفي ذي الحجَّةِ من هذه السنةِ بعدَ موتِ البادَرائيِّ بأيامٍ قَلائلَ نزَلَت التَّتارُ على بغدادَ مُقَدِّمةً لملكِهم هُولاوو بنِ تُولي بنِ جِنْكِزْخان، عليهم لَعائنُ الرحمنِ، وكان افْتِتاحُهم لها وجِنايتُهم عليها في أولِ السنةِ الآتيةِ على ما سيأتي بيانُه وتفصيلُه، وباللَّهِ المُسْتعانُ.

وممَّن تُوُفِّيَ في هذه السنة من الأعْيان:

البادَرائيُّ واقفُ المدرسةِ البادَرائيّةِالتي بدمشقَ، كما تقدَّم بيانُه.

والشيخُ تَقيُّ الدينِ عبدُ الرحمنِ بنُ أبي الفَهْمِ اليَلْدانيُّ بها في ثامنِ ربيعٍ الأولِ، ودُفِن بها، وكان شيخًا صالحًا مُشْتَغلاً بالحديثِ سَماعًا وكِتابةً وإسْماعًا، إلى أن تُوُفِّي وله نحوٌ من مائةِ سنةٍ.

قلتُ: وأكثرُ كتبِه ومَجاميعِه التي بخطِّه مَوْقوفةٌ بخزانةِ الفاضليةِ من الكَلاَّسةِ، وقد رأَى رسولَ اللَّهِ ﷺ في النومِ فقال له: يا رسولَ اللَّهِ، ما أنا رجلٌ جيدٌ؟ قال: بلى، أنت رجلٌ جيدٌ. رحمه اللَّهُ وأكرَم مَثْواه.

الشيخُ شرفُ الدينِ محمدُ بنُ أبي الفضلِ المُرْسيُّ، وكان شيخًا فاضلاً مُفْتيًا مُحقِّقَ البحثِ، كثيرَ الحجِّ، له مكانةٌ عندَ الأكابرِ، وقد اقْتَنَى كتبًا كثيرةً، وكان أكثرُ مُقامِه بالحجازِ، وحيث حلَّ عظَّمه رُؤساءُ تلك البَلْدةِ، وكان مُقْتَصِدًا في أُمورِه، وكانت وفاتُه، رحمه اللَّهُ، بالزعْقَةِ بينَ العَريشِ والدَّارُوم في منتصفِ ربيعٍ الأولِ من هذه السنةِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

الملكُ الناصرُ داودُ بنُ المُعَظَّم عيسى بن العادل،ملكَ دمشقَ بعدَ أبيه، ثم انْتُزِعَت مِن يدِه، وأخَذها عمُّه الأشْرَفُ، واقْتَصَرَ على الكَرَكِ ونابُلُسَ، ثـم تَقَلَّبَت به الأحوالُ، وجرَت له خُطوبٌ طِوالٌ حتى لم يَبْقَ معه شيءٌ مِن المَحالِّ، وأوْدَعَ وَديعةً تُقارِبُ مائةَ ألفِ دينارٍ عندَ الخليفةِ المستعصمِ، فأنْكَره إياها، ولم يَرُدَّها عليه، وقد كان له فَصاحةٌ وشعرٌ جيدٌ، ولديه فَضائلُ جَمَّةٌ، واشْتَغَل في علمِ الكلامِ على الشمسِ الخُسْرُوشاهيِّ تلميذِ الفخرِ الرازيِّ، وكان يَعْرِفُ علومَ الأوائلِ جيدًا، وقد حكَوْا عنه أشْياءَ تَدُلُّ - إن صحَّت - على سُوءِ عَقيدته. فاللَّهُ أعلمُ.

وذُكِرَ أنه حضَرَ أولَ درسٍ ذُكِرَ بالمُسْتَنْصِريةِ في سنةِ ثنتين وثلاثين وستِّمائةٍ، وأن الشعراءَ أنْشَدوا المُسْتَنْصِرَ مَدائحَ كثيرةً، فقال بعضُهم في جملةِ قصيدةٍ له:

لو كنت في يوم السَّقيفة شاهدًا ... كنتَ المُقَدَّمَ والإمامَ الأعْظَما

فقال الناصرُ داودُ للشاعرِ: اسْكُتْ، فقد أخْطَأْتَ، قد كان جَدُّ أميرِ المؤمنين العباسُ شاهدًا يومَئذٍ، ولم يَكُنِ المُقَدَّمَ، وما الإمامُ الأعظمُ إلا أبو بكرٍ الصديقُ. فقال الخليفةُ: صدَق. فكان هذا مِن أحسنِ ما نُقِل عنه، رحِمه اللَّهُ تعالى.

وقد تقاصَرَ أمْرُه إلى أن رسَم عليه الناصرُ بنُ العزيزِ بقريةِ البُوَيْضا التي لعمِّه مجيرِ الدينِ يَعْقوبَ، حتى تُوُفِّي بها في هذه السنةِ، فاجْتَمَع الناسُ بجِنازتِه، وحُمِل منها، فصُلِّي عليه، حتى دُفِن عندَ والدِه بسفحِ قاسيونَ.

الملكُ المُعِزُّ عِزُّ الدينِ أَيْبَكُ التُّرْكُمانيُّ[1] ،أولُ ملوكِ الأتراكِ، كان من أكبرِ مَماليكِ الصالحِ نَجْمِ الدينِ أيوبَ بنِ الكاملِ، وكان دَيِّنًا صَيِّنًا عَفيفًا كريمًا، مكَث في الملكِ نحوًا مِن سبعِ سنين، ثم قتَلَته زوجتُه شجرُ الدُّرِّ أمُّ خليلٍ، وقام في الملكِ مِن بعدِه ولدُه نورُ الدينِ عليٌّ، ولُقِّب بالملكِ المَنْصورِ، وكان مُدَبِّرَ مَملكتِه مَمْلوكُ أبيه سيفُ الدينِ قُطُز، ثم عزَلَه واسْتَقَلَّ بالملكِ بعدَه نحوًا من سنةٍ، وتَلَقَّب بالمُظَفَّرِ، فقدَّر اللَّهُ كَسْرَ التَّتارِ على يدِيه بعينِ جالوتَ، وقد بسَطْنا هذا كلَّه في الحَوادثِ فيما تقَدَّم وما سيأتي، وللَّه الحمدُ.

شجرُ الدُّرِّ بنتُ عبدِ اللَّه، أمُّ خليلٍ التركيةُ،كانت من حَظايا الملكِ الصالحِ نجمِ الدينِ أيوبَ، وكان ولدُها منه خَليلٌ من أحسنِ الصُّوَرِ، فمات صغيرًا، وكانت تكونُ في خدمتِه، لا تُفارِقُه حضَرًا ولا سفرًا مِن شدةِ مَحَبتِه لها، وقد ملَكَت الدِّيارَ المصريةَ بعدَ مَقْتَلِ ابنِ زوجِها المُعَظَّمِ تُورانْشاه، فكان يُخْطَبُ لها، وضُرِبت السِّكَّةُ باسمِها، وعلَّمَت على المَناشيرِ مدةَ ثلاثةِ أشهرٍ، ثم تملَّك المُعِزُّ كما

(١) ترجمته في «السير» (٢٣/ ١٩٨ - ٢٠٠).

ذكَرْنا، ثم تزوَّجها بعدَ تملُّكه الديارَ المصريةَ بسنوات، ثم غارت عليه لما بَلغها أنه يُريدُ أن يَتزَوَّجَ بنتَ صاحبِ الموصلِ بدرِ الدينِ لؤلؤ، فعمِلَت عليه حتى قتلَته كما تقدَّم ذكرُه، فتمالأ عليها مَماليكُه المُعزِّيةُ فقتَلوها وألقَوها على مَزْبَلةٍ ثلاثةَ أيام، ثم نُقلَت إلى تربةٍ لها بالقربِ من قبرِ الستِّ نَفيسةَ، رحِمها اللَّهُ تعالى، وكانت قويةَ النفس؛ لما علِمَت أنه قد أُحيط بها أتْلَفَت شيئًا كثيرًا من الجَواهرِ واللآلئ، كسَرَتْه في الهاوُن، لا لها ولا لغيرِها، وكان وزيرَها في دولتِها الصاحبُ بَهاءُ الدينِ عليُّ بنُ محمدِ بنِ سُلَيمٍ المعروفَ بابنِ حِنَّاءَ، وهو أولُ مَناصبِه.

الشيخُ الأسعدُ هبةُ اللَّه بنُ صاعد، شرفُ الدينِ الفائزيُّ؛ لخدمته قديمًا الملكَ الفائزَ سابقَ الدينِ إبراهيمَ بنِ الملكِ العادلِ، وكان نَصْرانيًّا فأسْلَم، وكان كثيرَ البرِّ والصدقاتِ والصِّلات، اسْتَوْزَره المُعزُّ، وكان حَظِيًّا عندَه جدًّا، لا يَفْعَلُ شيئًا إلا بعدَ مُراجَعته ومُشاوَرته، وكان قبلَه في الوزارةِ القاضي تاجُ الدينِ ابنُ بنتِ الأعَزِّ، وقبلَه القاضي بدرُ الدينِ السِّنْجاريُّ، ثم صارت بعدَ ذلك كلِّه إلى هذا الشيخِ الأسْعَدِ المسلمانيِّ، وقد كان الفائزيُّ يُكاتِبُه المُعزُّ بالمملوك، ثم لما قُتِل المُعزُّ أُهين الأسعدُ حتى صار شَقِيًّا، وأخَذ الأميرُ سيفُ الدينِ قُطُز خَطَّه بمائةِ ألفِ دينار، وقد هجاه بَهاءُ الدينِ زُهَيرُ بنُ عليٍّ، فقال:

لعَنَ اللَّهُ صاعدًا ... وأباه فصاعدًا
وبنيه فنازلاً ... واحدًا ثم واحدًا

ثم قُتِل بعدَ ذلك كلِّه، ودُفِن بالقَرافة، وقد رثاه القاضي ناصرُ الدينِ بنُ المُنيرِ، وله فيه مَدائحُ وأشْعارٌ حسنةٌ يُقرِّظُه بها، فصيحةٌ رائقةٌ.

ابنُ أبي الحَديد العراقيُّ الشاعرُ: عبدُ الحَميد بنُ هبةِ اللَّه بن محمد بن محمد بن الحسين، أبو حامد بنُ أبي الحَديد، عزُّ الدينِ المَدائنيُّ، الكاتبُ الشاعرُ المُطَبِّقُ الشِّيعيُّ الغالي، له «شرحُ نَهْجِ البلاغة» في عشرين مجلدًا، وُلِد بالمَدائنِ سنةَ ستٍّ وثمانين وخمسمائة، ثم صار إلى بغدادَ، فكان أحدَ الكُتَّابِ والشعراءِ بالدِّيوانِ الخليفتيِّ، وكان حَظِيًّا عندَ الوزيرِ ابنِ العَلْقَميِّ، لما بينَهما من المُناسبةِ والمُقارَبةِ والمُشابَهة؛ في التَّشيُّعِ والأدبِ والفَضيلة، وقد أوْرَد له ابنُ الساعي أشياءَ كثيرةً من مَدائحه وأشْعاره الفائقةِ الرائقة، وكان أكثرَ فَضيلةً وأدبًا من أخيه أبي المعالي مُوَفَّقِ الدينِ أحمدَ بنِ هبةِ اللَّه، وإن كان الآخرُ فاضلاً بارعًا أيضًا، وقد ماتا في هذه السنة، رحِمهما اللَّهُ تعالى.

المُشدُّ الشاعرُ، الأميرُ سيفُ الدينِ عليُّ بنُ عمرَ بن قزل، مُشدُّ الدِّيوانِ بدمشقَ، وكان شاعرًا مُطَبِّقًا، له ديوانٌ مشهورٌ، وقد رآه بعضُهم بعدَ موته، فسأله عن حاله، فأنْشَده:

نُقلت إلى رَمْسِ القبورِ وضيقها ... وخوفي ذنوبي أنها بي تُعَثِّرُ
فصادفْتُ رَحْمانًا رءوفًا وأنعُمًا ... حباني بها نَفْسيًا لما كنتُ أَحْذَرُ
ومَن كان حُسْنُ الظنِّ في حالِ موتِهِ ... جميلاً بعفوِ اللَّهِ فالعفوُ أَجْدَرُ

بشارةُ بنُ عبد اللَّه الأرْمَنيُّ الأصلِ، بدرُ الدينِ الكاتبُ، مولى شِبْلِ الدولةِ المُعَظَّميِّ، سمع الكِنْديَّ وغيرَه، وكان يَكْتُبُ خطًّا جيدًا، وأسْنَد إليه مولاه النظرَ في أوقافِه، وجعَله في ذريتِه، فهم إلى الآنَ يَنْظُرون في الشِّبْلِيَّتَيْن، وكانت وفاتُه في النصفِ مِن رمضانَ مِن هذه السنةِ.

القاضي تاجُ الدينِ أبو عبدِ اللَّه محمدُ ابنُ قاضي القُضاةِ جَمالِ الدينِ المِصْريُّ، ناب عن أبيه، ودرَّس بالشاميةِ، وله شعرٌ، فمنه قولُه:

صيَّرْتُ فمي لفيهِ باللثمِ لثامْ ... عمْدًا ورَشَفْتُ من ثناياهُ مُدامْ
فازْوَرَّ وقال أنت في الفقهِ إمامْ ... رِيقي خمرٌ وعندَك الخمرُ حَرامْ

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة

فيها: أخَذَت التَّتارُ بغدادَ، وقتَلوا أكثرَ أهلِها حتى الخليفةَ، وانْقَضَت دولةُ بني العباسِ منها.

استَهَلَّت هذه السنةُ وجنودُ التَّتارِ قد نازَلَت بغدادَ صُحْبَةَ الأميرَيْن اللذين على مُقَدِّمةِ عَساكرِ سلطانِ التَّتارِ هُولاكُوقان، وجاءَت إليهم أمْدادُ صاحبِ الموصلِ يُساعدونهم على البَغادِدةِ وميرتُه وهداياه وتُحَفه، وكلُّ ذلك خوفًا على نفسه مِن التتارِ، ومُصانَعةً لهم، قَبَّحهم اللَّهُ تعالى، وقد سُتِرت بغدادُ، ونُصِبَت فيها المَجانيقُ والعَرَّاداتُ وغيرُها مِن آلاتِ المُمانَعةِ التي لا تَرُدُّ مِن قدَرِ اللَّهِ سبحانه وتعالى شيئًا، كما ورَد في الأثرِ: «لن يُغْنِي حَذَرٌ من قَدَرٍ»[1]. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]. وأحاطَت التَّتارُ بدارِ الخلافةِ يَرْشُقُونها بالنُّشَّابِ مِن كلِّ جانبٍ، حتى أُصِيبَت جاريةٌ كانت تَلْعَبُ بينَ يدي الخليفةِ وتُضْحِكُه، وكانت مِن جملةِ الحَظايا، وكانت مُوَلَّدةً تُسَمَّى عرفةَ، جاءها سهمٌ مِن بعضِ الشَّبابيكِ فقتَلها وهي تَرْقُصُ بينَ يدي الخليفةِ، فانْزَعَج الخليفةُ مِن ذلك، وفزِع فزَعًا شديدًا، وأحْضَر السهمَ الذي أصابَها بينَ يديه، فإذا عليه

(١) طرقه ضعيفة وتمامه «والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء ينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة» أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٢) بإسناده وصححه فتعقبه الذهبي بأن فيه زكريا بن منظور مجمع على ضعفه ولذلك أورده ابن الجوزي في «العلل» (٢/ ٨٤٣) وقال: «هذا حديث لا يصح» ثم ذكر بعض الأقوال في زكريا لكن أخرج أحمد (٥/ ٢٣٤) من حديث معاذ بنحو من ألفاظه ولكن مسلسل بالعلل، وعند الترمذي، (٣٥٤٨) من حديث ابن عمر بالشطر الأخير وإسناده ضعيف وبالجملة فإن طرق هذا الحديث - التي وقفت عليها ضعيفة - وراجع «مسند» أحمد (٢٢٠٤٤) ط الرسالة مع تخريجه و«العلل» لأبي حاتم الرازي (٦٤٠).

مكتوبٌ: إذا أراد اللَّهُ إنفاذَ قضائه وقدره سلبَ ذَوي العقول عُقولَهم. فأمَر الخليفةُ عندَ ذلك بزيادة الاحْتِراز، وكَثْرة السَّتائر على دار الخلافة، وكان قدومُ هولاكُوقان بجُنوده كلِّها -وكانوا نحواً من مائتَي ألف مُقاتِل- إلى بغدادَ في ثاني عشرَ المُحرَّم من هذه السنة، وهو شديدُ الحَنَق على الخليفة بسبب ما كان تقَدَّمَ من الأمر الذي قدَّره اللَّهُ وقضاه وأنْفَذَه وأمْضاه، وهو أن هولاكوقان لما كان أولُ بُروزه من همَذان متوَجِّهًا إلى العراق أشار الوزيرُ مُؤَيِّدُ الدين محمدُ بنُ العَلْقمي على الخليفة بأن يَبْعَث إليه بهدايا سَنِية؛ ليكونَ ذلك مُداراةً له عما يُريدُه من قصد بلادهم، فخذَّل الخليفةَ عن ذلك دُوَيْدارُه الصغيرُ أَيْبَك وغيرُه، وقالوا: إن الوزيرَ إنما يُريدُ بهذا مُصانعةَ ملك التتار بما يَبْعثُه إليه من الأموال وأشاروا بأن يَبْعَثَ إليه بشيءٍ يسير، فأرْسَل شيئًا من الهدايا، فاحْتَقَرها هولاكوقان، وأرْسَل إلى الخليفة يَطْلُبُ منه دُوَيْدارَه المذكورَ، وسليمان شاه، فلم يَبْعَثْهما إليه، ولا بالى به حتى أزف قدومُه، ووصَل إلى بغدادَ بجُنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يُؤْمنُ باللَّه ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغدادَ من ناحيتها الغربية والشرقية، وجُنودُ بغدادَ في غاية القلة ونهاية الذِّلَّة، لا يَبْلُغون عشَرةَ آلاف فارس، وهم في غاية الضعف، وبقيةُ الجيش كلُّهم قد صُرِفوا عن إقْطاعاتهم حتى اسْتَعْطَى كثيرٌ منهم في الأسْواق وأبواب المساجد، وأنْشَد فيهم الشعراءُ القصائدَ يَرْثُون لهم، ويَحْزَنُون على الإسلام وأهله، وذلك كلُّه عن آراء الوزير ابن العَلْقَمي الرافضي، وذلك أنه لما كان في السنة الماضية كان بينَ أهل السُّنَّة والرافضة حربٌ شديدةٌ، نُهِبت فيها الكَرْخُ مَحَلَّةُ الرافضة، حتى نُهِبَت دُورُ قَرابات الوزير، فاشْتَدَّ حَنَقُه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبَّر على الإسلام وأهله ما وقَع من الأمر الفَظيع الذي لم يُؤَرَّخْ أَشْنَعُ منه منذ بُنِيَت بغدادُ، وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أولَ مَن برَز إلى التَّتار هو، فخرَج في أهله وأصحابه وخدَمه وحَشَمه، فاجْتَمَع بالسلطان هولاكوقان، لعنَه اللَّهُ تعالى، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمُثول بينَ يديه لتَقَعَ المُصالحةُ على أن يكونَ نصفُ خَراج العراق لهم ونصفُه للخليفة، فاحْتاج الخليفةُ إلى أن خرَج في سبعمائة راكب من القُضاة والفُقهاء والصوفية ورءوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقْتَرَبوا من منزل السلطان هولاكوقان حُجِبوا عن الخليفة إلا سبعةَ عشرَ نفسًا، فخلَص الخليفةُ بهؤلاء المَذْكورين، وأُنْزِل الباقون عن مَراكِبهم ونُهِبَت، وقُتِلوا عن آخرِهم، وأحْضِر الخليفةُ بينَ يدي هولاكو فسأله عن أشياءَ كثيرة، فيقالُ: إنه اضْطَرَب كلامُ الخليفة من هَوْل ما رأى من الإهانة والجَبَروت، ثم عاد إلى بغدادَ وفي صحبته خواجا نَصيرٌ الطُّوسيُّ، لعنةُ اللَّه عليه، والوزيرُ ابنُ العَلْقَمي وغيرُهما، والخليفةُ تحتَ الحَوْطة والمُصادَرة، فأحْضَر من دار الخلافة شيئًا كثيرًا من الذهب والحُلِيِّ والمَصاغ والجَواهر والأشياء النَّفيسة، وقد أشار أولئك المَلأُ من الرافضة، لعنةُ اللَّه عليهم، وغيرُهم من المنافقين على هولاكوقان أن لا يُصالحَ الخليفةَ، وقال الوزيرُ: متى وقَع الصلحُ على المُناصَفة لا يَستَمرُّ هذا إلا عامًا أو عامين، ثم يَعودُ الأمرُ إلى ما كان عليه قبلَ ذلك. وحسَّنوا له قتْلَ الخليفة، فلما عاد الخليفةُ إلى السلطان هولاكوقان أمَر بقتله، ويقالُ: إن الذي أشار بقتله الوزيرُ ابنُ العَلْقَمي والنصيرُ الطُّوسيُّ.

وكان النَّصيرُ عندَ هولاكوقان قد استَصْحَبه في خدمته لما فتَح قِلاعَ الألَموتِ وانتَزَعها مِن أيدي الإسْماعيلية، وكان النَّصيرُ وزيراً لشمسِ الشموسِ ولأبيه مِن قبله عَلاء الدينِ ابن جَلالِ الدينِ، وكانوا ينتسبون إلى نزارِ بنِ المُسْتَنصرِ العُبَيْديِّ، وانتَخَب هولاكوقان النَّصيرَ ليكونَ في خدمته كالوزيرِ المُشيرِ، فلما قدم هولاكوقان وتهَيَّب مِن قتلِ الخليفة هوّن عليه الوزيران ذلك، فقتَلوه رَفْساً وهو في جُوالقَ؛ لئلا يَقَعَ إلى الأرضِ شيءٌ مِن دمه، خافوا أن يُؤْخَذَ بثأره فيما قيل لهم، وقيل: بل خُنِق. ويقالُ: غُرِّقَ. فاللَّهُ أعلمُ. فباءوا بإثمه وإثم مَن كان معه مِن ساداتِ العلماء والقُضاة والأكابرِ والرُّؤَساء والأمراء وأُولي الحَلِّ والعَقْد ببلاد بغدادَ - وستأتي ترجمةُ الخليفة في الوَفَيات - ومالوا على البلد، فقتَلوا جميعَ مَن قدَروا عليه مِن الرجالِ والنساء والوِلدان والمَشايخ والكُهول والشُّبّان، ودخَل كثيرٌ مِن الناسِ في الآبارِ وأماكنِ الحُشوشِ، وقُنِيِّ الوَسَخِ، وكمَنوا كذلك أياماً لا يَظْهَرون، وكان الفِئامُ مِن الناسِ يَجْتَمِعون في الخاناتِ، ويُغْلِقون عليهم الأبوابَ، فتَفْتَحُها التتارُ إمَّا بالكسرِ أو بالنارِ، ثم يَدْخُلون عليهم فيَهْربون منهم إلى أعالي المكانِ، فيَقْتُلونهم في الأسْطِحَة، حتى تَجْريَ المَيازيبُ مِن الدماء في الأَزِقَّة، فإنَّا للَّه وإنا إليه راجعون، وكذلك في المساجدِ والجَوامعِ والرُّبُط، ولم يَنْجُ منهم أحدٌ سوى أهلِ الذِّمَّة مِن اليهودِ والنصارى، ومَن الْتَجَأ إليهم وإلى دارِ الوزيرِ ابنِ العَلْقَميِّ الرافضيِّ، وطائفة مِن التجارِ أخَذوا لهم أماناً بذَلوا عليه أموالاً جَزيلةً حتى سلِموا وسلِمَت أموالُهم. وعادت بغدادُ بعدَما كانت آنَسَ المدنِ كلِّها كأنها خَرابٌ ليس فيها أحدٌ إلا القليلُ مِن الناسِ، وهم في خوفٍ وجُوعٍ وذِلَّةٍ وقِلَّةٍ. وكان الوزيرُ ابنُ العَلْقَميِّ قبلَ هذه الحادثة يَجْتَهِدُ في صَرفِ الجُيوشِ وإسْقاطِ أسهمِهم مِن الدِّيوانِ، فكانت العَساكرُ في آخرِ أيامِ المُسْتَنصرِ قريباً مِن مائة ألفِ مُقاتِلٍ، فيهم مِن الأمراء مَن هو كالملوكِ الأكابرِ، فلم يَزَلْ يَجْتَهِدُ في تَقْليلِهم إلى أن لم يَبْقَ إلا عشَرةُ آلافٍ، ثم كاتَب التَّتارَ، وأطْمَعَهم في أخْذِ البلادِ، وسهَّل عليهم ذلك، وجلَّى لهم حَقيقةَ الحالِ، وكشَف لهم ضعفَ الرجالِ، وذلك كلُّه طَمَعاً منه أن يُزيلَ السُّنَّةَ بالكُلية، وأن يُظْهِرَ البِدْعةَ الرافضيَّةَ وأن يُقيمَ خليفةً مِن الفاطميِّين، وأن يُبيدَ العُلماءَ والمُفْتين، واللَّهُ غالبٌ على أمْرِه، وقد ردَّ كيدَه في نحرِه، وأذَلَّه بعدَ العِزَّةِ القَعْساءِ، وجعَله حوشكاشاً للتتارِ بعدَ ما كان وزيراً للخُلفاءِ، واكْتَسَب إثْمَ مَن قُتِل بمدينة بغدادَ مِن الرجالِ والنساءِ والأطفالِ، فالحكمُ للَّه العليِّ الكبيرِ ربِّ الأرضِ والسماءِ.

وقد جرَى على بني إسرائيلَ ببيتِ المقدسِ قريبٌ مما جرَى على أهلِ بغدادَ، كما قصَّ اللَّهُ تعالى علينا ذلك في كتابه العزيزِ، حيث يقولُ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٤، ٥] الآيات. وقد قُتِل مِن بني إسْرائيلَ خَلْقٌ مِن الصُّلَحاء، وأُسِر جماعةٌ مِن أولادِ الأنبياء، وخُرِّب بيتُ المَقْدسِ بعدَما كان مَعْموراً بالعبادِ والزُّهَّادِ والأحْبارِ والأنبياءِ، فصار

خاويًا على عُروشِه، واهيَ البناء.

وقد اختَلَف الناسُ في كمية مَن قُتِل ببغدادَ من المسلمين فقيل: ثمانُمائة ألفٍ. وقيل: ألفُ ألفٍ وثمانُمائة ألفٍ. وقيل: بلَغَت القَتْلَى ألفَي ألفِ نفسٍ. فإنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعون، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللَّه العزيزِ الحكيمِ العليِّ العظيم.

وكان دخولُهم إلى بغدادَ في أواخرِ المُحَرَّم، ومازال السيفُ يَقْتُلُ أهلَها أربعين صباحًا، وكان قتلُ الخليفةِ المُستَعْصِمِ باللَّه أميرِ المؤمنين يومَ الأربعاءِ رابعَ عشَرَ صفرٍ، وعَفَى قبرُه، وكان عمرُه يومَئذٍ ستًّا وأربعين سنةً وأربعةَ أشهرٍ، ومدةُ خلافته خمسَ عشْرةَ سنةً وثمانيةُ أشهرٍ وأيامٌ، وقُتِل معه ولدُه الأكبرُ أبو العباسِ أحمدُ، وله خمسٌ وعشرون سنةً، ثم قُتِل ولدُه الأوسطُ أبو الفضلِ عبدُ الرحمنِ، وله ثلاثٌ وعشرون سنةً، وأُسِر ولدُه الأصغرُ مُباركٌ، وأُسِرَت أخَواتُه الثلاثُ؛ فاطمةُ وخديجةُ ومريمُ، وأُسِر مِن دارِ الخلافةِ مِن الأبكارِ ما يُقارِبُ ألفَ بكرٍ فيما قيل، واللَّهُ أعلمُ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وقُتِل أُستاذُ دارِ الخلافةِ الشيخُ مُحْيي الدينِ يوسُفُ ابنُ الشيخِ أبي الفرجِ ابنِ الجوزيِّ، وكان عدُوَّ الوزيرِ، وقُتِل أولادُه الثلاثةُ؛ عبدُ الرحمنِ، وعبدُ اللَّه، وعبدُ الكريمِ، وأكابرُ الدولة واحدًا بعدَ واحدٍ، منهم الدُّوَيْدارُ الصغيرُ مُجاهدُ الدينِ أيْبَك، وشهابُ الدينِ سليمان شاه، وجَماعةٌ مِن أُمراءِ السُّنَّة وأكابرِ البلد.

وكان الرجلُ يُسْتَدْعَى به من دارِ الخلافة من بني العباس، فيَخرُجُ بأولاده ونسائه وجواريه، فيُذْهَبُ به إلى مَقْبَرةِ الخَلالِ، تُجاهَ المَنْظَرةِ، فيُذْبَحُ كما تُذْبَحُ الشاةُ، ويُؤْسَرُ مَن يَختارُون من بناته وجَواريه.

وقُتِل شيخُ الشيوخِ مُؤَدِّبُ الخليفة صدرُ الدينِ عليُّ بنُ النَّيَّارِ، وقُتِل الخُطَباءُ والأئمةُ، وحَمَلةُ القرآنِ، وتعَطَّلَت المساجدُ والجَماعاتُ والجُمعاتُ مدةَ شهورٍ ببغدادَ، وأراد الوزيرُ ابنُ العَلْقَميِّ، قبَّحه اللَّهُ ولعَنه، أن يُعَطِّلَ المساجدَ والجوامعَ والمَدارسَ والرُّبُطَ ببغدادَ، ويَسْتَمِرَّ بالمَشاهدِ ومحالِّ الرَّفْضِ، وأن يَبْنِيَ للرافضة مدرسةً هائلةً يَنْشُرون عِلْمَهم وعَلَمَهم بها وعليها، فلم يُقْدِرْه اللَّهُ تعالى على ذلك، بل أزال نِعْمَتَه عنه، وقصَف عمرَه بعد شهورٍ يَسيرةٍ من هذه الحادثة، وأتْبَعَه بولده فاجْتَمَعا-واللَّهُ أعلمُ-في الدَّرْكِ الأسفلِ من النارِ.

ولما انْقَضَى أمَدُ الأمرِ المَقْدورِ وانْقَضَت الأربعون يومًا بقِيَت بغدادُ خاويةً على عُروشِها، ليس بها أحدٌ إلا الشاذُّ من الناسِ، والقَتْلَى في الطرقات كأنها التُّلولُ، وقد سقَط عليهم المَطَرُ، فتغَيَّرت صُوَرُهم، وأنْتَنَت البلدُ من جِيَفِهم، وتغَيَّر الهواءُ، فحصَل بسببه الوَباءُ الشديدُ، حتى تعَدَّى وسرَى

في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلقٌ كثيرٌ من تغيرِ الجوِّ وفَسادِ الرِّيحِ، فاجْتَمَع على الناسِ الغَلاءُ والوَبَاءُ والفَناءُ والطَّعْنُ والطاعونُ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

ولما نُودي ببغدادَ بالأمانِ خرَجَ مَن كان تحتَ الأرضِ بالمَطاميرِ والقُنِيِّ والمَغايرِ كأنهم الموتَى إذا نُبِشوا من القبورِ، وقد أنكَر بعضُهم بعضًا، فلا يَعْرِفُ الوالدُ ولدَه ولا الأخُ أخاه، وأخَذَهم الوَباءُ الشديدُ، فتَفانَوْا ولَحِقوا بمَن سلَف من القَتْلَى، واجْتَمَعوا في البِلَى تحتَ الثَّرَى، بأمرِ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ وأخفَى، اللَّهُ لا إله إلا هو له الأسماءُ الحُسْنَى.

وكان رَحيلُ السلطانِ المُسَلَّطِ هولاكوقان عن بغدادَ في جُمادَى الأولى من هذه السنة إلى مَقَرِّ مُلْكِه، وفوَّض أمْرَ بغدادَ إلى الأميرِ عليٍّ بَهادُر، فوَّض إليه الشِّحْنَكِيَّةَ بها وإلى الوزيرِ مؤيدِ الدينِ محمدِ بنِ العَلْقَميِّ، فلم يُمْهِلْه اللَّهُ ولا أهْمَله بعدُ، بل أخَذه أخْذَ عزيزٍ مُقْتَدرٍ، في مُسْتَهَلِّ جُمادَى الآخرةِ عن ثلاثٍ وستين سنةً، وكان عندَه فَضيلةٌ في الإنْشاءِ، ولديه فَضيلةٌ في الأدبِ، ولكنه كان شيعيًّا جلدًا خَبيثًا رافضيًّا، فمات كمَدًا وغمًّا وحُزْنًا وندَمًا، إلى حيث ألْقَتْ رَحْلَها أمُّ قَشْعَمٍ، فوَلِيَ بعدَه الوِزارةَ ولدُه عزُّ الدينِ أبو الفضلِ محمدٌ، فألْحَقَه اللَّهُ بأبيه في بقيةِ هذا العامِ، وللَّه الحمدُ والمِنَّةُ.

وذكَر أبو شامةَ وشيخُنا أبو عبدِ اللَّه الذَّهبيُّ وقُطْبُ الدينِ اليُونينيُّ، أنه أصاب الناسَ في هذه السنة بالشامِ وَباءٌ شديدٌ، وذكَروا أن سببَ ذلك من فَسادِ الهواءِ والجوِّ، فسَد من كثرةِ القَتْلَى ببلادِ العراقِ، وانْتَشَر حتَّى تَعَدَّى إلى بلادِ الشامِ. فاللَّهُ أعلمُ.

وفي هذه السنة اقْتَتَل المصْريون مع صاحبِ الكَرَكِ الملكِ المُغيثِ عمرَ بنِ العادلِ بنِ أبي بكرِ بنِ العادلِ الكبيرِ، وكان في جيشِه جماعةٌ من أمراءِ البَحْريةِ، منهم رُكْنُ الدينِ بَيْبَرْسُ البُنْدُقْداريُّ، فكسَرَهم المصْريون، ونهَبوا ما كان معهم من الأثْقالِ والأموالِ، وأسَروا جَماعةً من رءوسِ الأمراءِ، فقُتِلوا صَبْرًا، وعادوا إلى الكَرَكِ في أسْوأ حالةٍ وأشْنَعِها، وجعَلوا يُفْسِدون في الأرضِ، ويَعيثون في البلادِ، فأرْسَل إليهم الناصرُ صاحبُ دمشقَ جيشًا ليَكُفَّهم عن ذلك، فكسَرهم البَحْريةُ، واسْتَنْصَروا فبرَز إليهم الناصرُ بنفسِه، فلم يَلْتَفِتوا إليه، وقطَعوا أطْنابَ خيمتِه التي هو فيها بإشارةِ رُكْنِ الدينِ بَيْبَرْسَ المذكورِ، وجرَت حروبٌ وخُطوبٌ يَطولُ بَسْطُها، وباللَّه المُسْتَعانُ.

ذكرُ مَنْ تُوُفِّيَ في هذه السنة من المَشاهيرِ والأعْيانِ: **خليفةُ الوقتِ المُسْتَعْصِمُ باللَّه** أميرُ المؤمنين[1]، آخرُ خلفاءِ بني العباسِ بالعراقِ، وهو أبو أحمدَ عبدُ اللَّه ابنُ أميرِ المؤمنين المُسْتَنْصِرِ باللَّه أبي جعفرٍ منصورِ بنِ الظاهرِ بأمرِ اللَّه أبي نصرٍ محمدِ بنِ الناصرِ لدينِ اللَّه أبي العباسِ أحمدَ ابنِ أميرِ المؤمنين المُسْتَضِيءِ بأمرِ اللَّه أبي محمدٍ الحسنِ ابنِ أميرِ المؤمنين المُسْتَنْجِدِ باللَّه أبي المُظَفَّرِ يوسفَ ابنِ أميرِ المؤمنين

(١) ترجمته في «السير» (٢٣/ ١٧٤ - ١٨٤).

المُقْتَفي لأمرِ اللَّهِ أبي عبدِ اللَّهِ محمدِ ابنِ أميرِ المؤمنين المُسْتَظْهِرِ باللَّهِ أبي العباسِ أحمدَ ابنِ المُقْتَدي بأمرِ اللَّهِ أبي القاسمِ عبدِ اللَّهِ ابنِ الأميرِ الذَّخيرةِ أبي العباسِ محمدِ ابنِ القائمِ بأمرِ اللَّهِ أبي جعفرٍ عبدِ اللَّهِ ابنِ القادرِ باللَّهِ أبي العباسِ أحمدَ ابنِ الأميرِ إسحاقَ ابنِ المُقْتَدِرِ باللَّهِ أبي الفضلِ جعفرِ ابنِ المُعْتَضِدِ باللَّهِ أبي العباسِ أحمدَ ابنِ الأميرِ المُوفَّقِ أبي أحمدَ طَلْحةَ ابنِ المُتَوَكِّلِ على اللَّهِ أبي الفضلِ جعفرِ ابنِ المُعْتَصِمِ باللَّهِ أبي إسحاقَ محمدِ ابنِ الرَّشيدِ أبي محمدٍ هارونَ ابنِ المَهْديِّ أبي عبدِ اللَّهِ محمدِ ابنِ المنصورِ أبي جعفرٍ عبدِ اللَّهِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ الهاشميُّ العباسيُّ، مَوْلدُه سنةَ تسعٍ وستِّمائةٍ، وبُويع له بالخلافةِ في العشرين من جُمادَى الأولى سنةَ أربعين، وكان مَقْتَلُه في يومِ الأربعاءِ الرابعَ عشرَ من صفرٍ سنةَ ستٍّ وخمسين وستِّمائةٍ، فيكونُ عمرُه يومَ قُتِل سبعًا وأربعين سنةً، رحمه اللَّهُ تعالى.

وقد كان، رحمه اللَّهُ تعالى، حسنَ الصُّورةِ، جيدَ السيرةِ صحيحَ السَّريرةِ، صَحيحَ العَقيدةِ، مُقْتَديًا بأبيه المُسْتَنْصِرِ في المَعْدَلةِ وكثْرةِ الصَّدَقاتِ وإكْرامِ العلماءِ والعُبَّادِ، وقد اسْتَجاز له الحافظُ ابنُ النَّجَّارِ من مَشايخِ خُراسانَ، منهم المُؤَيَّدُ الطوسيُّ، وأبو رَوْحٍ عبدُ المُعِزِّ بنُ محمدٍ الهَرَويُّ، وأبو بكرٍ القاسمُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ الصَّفَّارِ وغيرُهم، وحدَّث عنه جَماعةٌ منهم مُؤَدِّبُه شيخُ الشيوخِ صدرُ الدينِ أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدِ بنِ النَّيَّارِ، وأجازَ هو للإمامِ مُحْيي الدينِ ابنِ الجوْزيِّ، وللشيخِ نَجْمِ الدينِ البادَرائيِّ، وحدَّثا عنه بهذه الإجازةِ.

وقد كان، رحمه اللَّهُ تعالى سُنِّيًّا على طريقةِ السلفِ واعْتقادِ الجماعةِ كما كان أبوه وجَدُّه، ولكن كان فيه لينٌ وعدمُ تَيَقُّظٍ ومَحَبَّةٌ للمالِ وجَمْعِه، ومن جملةِ ذلك أنه غَلَّ الوَديعةَ التي اسْتَوْدَعه إياها الناصرُ داودُ بنُ المُعَظَّمِ، وكانت قيمتُها نحوًا من مائةِ ألفِ دينارٍ، فاسْتُقْبِح هذا من مثلِ الخليفةِ، وهو مُسْتَقْبَحٌ ممن هو دونَه بكثيرٍ؛ بل من أهلِ الكتابِ مَن إن تَأْمَنْه بقِنْطارٍ يُؤَدِّه إليك كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

قتَلَه التَّتارُ مَظلومًا مُضْطَهَدًا في يومِ الأربعاءِ رابعَ عشرَ صفرٍ من هذه السنةِ، وله من العمرِ ستَّةٌ وأربعون سنةً وأربعةُ أشهرٍ. وكانت مدةُ خلافتِه خمسَ عشْرةَ سنةً وثمانيةَ أشهرٍ وأيامًا، فرحمه اللَّهُ وأكْرَم مَثْواه، وبلَّ بالرَّحْمةِ ثَراه. وقد قُتِل بعدَه وَلَداه، وأُسِر الثالثُ مع بناتٍ ثلاثٍ من صُلْبِه، وشغَر مَنْصِبُ الخلافةِ بعدَه، ولم يَبْقَ في بني العباسِ مَن سدَّ مَسَدَّه، فكان آخرَ الخلفاءِ من بني العباسِ الحاكمين بالعَدْلِ بينَ الناسِ، ومَن يُرْتَجَى منهم النَّوالُ ويُخْشَى منهم الباسُ، وخُتِموا بعبدِ اللَّهِ المُسْتَعْصِمِ، كما افْتُتِحوا بعبدِ اللَّهِ السَّفَّاحِ، وكان عدةُ خلفاءِ بني العباسِ إلى المستعصمِ سبعةً وثلاثين خليفةً، فكان أولَهم عبدُ اللَّهِ السفاحُ، بُويع له بالخلافةِ، وظهَر مُلْكُه وأمْرُه في سنةِ ثنتين وثلاثين

ومائة، بعدَ انْقضاءِ دولةِ بني أميةَ كما تقدَّم بيانُه، وآخرُهم عبدُ اللَّهِ المُسْتَعْصِمُ، وقد زال مُلْكُه، وانْقَضَت خلافتُه في هذا العامِ، أعني سنةَ ستٍّ وخمسين وستِّمائةٍ، فجملةُ أيامِهم خمسُمائةِ سنةٍ وأربعٌ وعشرون سنةً، وزالت يدُهم عن العراقِ والحكمِ بالكليةِ مدةَ سنةٍ وشهورٍ في أيامِ البَساسيريِّ بعدَ الخمسين وأربعمائةٍ، ثم عادت كما كانت. وقد بسَطْنا ذلك في موضعِه في أيامِ القائمِ بأمرِ اللَّهِ، وللَّهِ الحمدُ.

ولم تَكُنْ أيدي بني العباسِ حاكمةً على جَميعِ البلادِ كما كانت بنو أميةَ قاهرةً لجميعِ البلادِ والأقْطارِ والأمْصارِ، فإنه قد خرَج عن بني العباسِ بلادُ المغربِ، ملَكها في أوائلِ الأمرِ بعضُ بني أميةَ ممن بقِي منهم مِن ذرِّيَّةِ عبدِ الرحمنِ بنِ مُعاويةَ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ، ثم تَغَلَّب عليه الملوكُ بعدَ دُهورٍ مُتَطاولةٍ كما ذكَرْنا، وقارَن بني العباسِ دولةُ المُدَّعِين أنهم مِن الفاطميِّين ببلادِ مصرَ وبعضِ بلادِ المغربِ وما هنالك، وبلادِ الشامِ في بعضِ الأحْيانِ والحَرَمَيْن في أزمانٍ طويلةٍ.

واسْتَمَرَّت دولةُ الفاطميِّين قريبًا مِن ثلاثمائةِ سنةٍ حتى كان آخرَهم العاضدُ الذي مات بعدَ الستين وخمسمائةٍ في الدولةِ الصَّلاحيةِ الناصريةِ المَقْدسيةِ كما ذكرنا، وكانت عدةُ مُلوكِ الفاطميِّين أربعةَ عشَرَ مَلِكًا مُتَخَلِّفًا، ومدةُ ملكِهم تَحْريرًا مِن سنةِ سبعٍ وتسعين ومائتين إلى أن تُوُفِّي العاضدُ سنةَ بضعٍ وستين وخمسمائةٍ، والعجبُ أن خلافةَ النبوةِ التاليةَ لزمانِ رسولِ اللَّهِ ﷺ كانت ثلاثين سنةً، كما نطَق بها الحديثُ الصحيحُ، فكان فيها أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، ثم ابنُه الحسنُ بنُ عليٍّ ستةَ أشهرٍ حتى كمَلت بها الثلاثون، كما قرَّرْنا ذلك في دَلائلِ النبوةِ، ثم كانت مُلْكًا، فكان أولَ ملوكِ الإسلامِ مِن بني أبي سفيانَ مُعاويةُ بنُ أبي سفيانَ صَخْرِ بنِ حربِ بنِ أميةَ، ثم ابنُه يَزيدُ، ثم ابنُ ابنِه مُعاويةُ بنُ يزيدَ بنِ مُعاويةَ، وانقرَض هذا البَطْنُ المُفْتَتَحُ بمُعاويةَ المُخْتَتَمُ بمُعاويةَ، ثم ملَك مَرْوانُ بنُ الحكمِ بنِ أبي العاصِ بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمسِ بنِ عبدِ مَنافِ بنِ قُصَيٍّ، ثم ابنُه عبدُ الملكِ، ثم الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ، ثم أخوه سليمانُ، ثم ابنُ عمِّه عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، ثم يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ، ثم هشامُ بنُ عبدِ الملكِ، ثم الوليدُ بنُ يزيدَ، ثم يزيدُ بنُ الوليدِ، ثم أخوه إبراهيمُ الناقصُ، وهو ابنُ الوليدِ أيضًا، ثم مَرْوانُ بنُ محمدٍ المُلَقَّبُ بالحمارِ، وكان آخرَهم، فكان أولُهم اسمُه مَرْوانُ وآخرُهم اسمُه مَرْوانُ، وكان أولَ خلفاءِ بني العباسِ السَّفَّاحُ واسمُه عبدُ اللَّهِ، وكان آخرَهم المُسْتَعْصِمُ واسمُه عبدُ اللَّهِ، كذلك أولُ خلفاءِ الفاطميِّين اسمُه عبدُ اللَّهِ المهديُّ، وآخرُهم عبدُ اللَّهِ العاضدُ، وهذا اتِّفاقٌ غريبٌ جدًّا، قلَّ مَن يَتَنَبَّهُ له. واللَّهُ سبحانه أعلمُ.

وهذه أُرْجوزةٌ لبعضِ الفُضلاءِ انتظَم فيها ذِكرَ جميعِ الخُلفاءِ:

الحمدُ للَّه العظيمِ عَرْشُهُ ... القاهرِ الفَرْدِ القويِ بَطْشُهُ
مُقَلِّبِ الأيامِ والدُّهورِ ... وجامعِ الأنامِ للنُّشورِ
ثم الصلاةُ بدَوامِ الأَبدِ ... على النبيِّ المُصْطَفَى محمدِ
وآلِهِ وصحبِهِ الكرامِ ... السادةِ الأئمةِ الأعْلامِ
وبعدَ هذا هذه أُرْجوزهْ ... نظَمْتُها لَطيفَةٌ وَجيزه
نظَمْتُ فيها الرَّاشدين الخُلَفا ... مَن قامَ من بعدِ النبيِّ المُصْطَفَى
ومَن تلاهمْ وهَلُمَّ جَرّاً ... جعَلْتُها تَبْصِرةً وذِكْرَى
لِيَعْلَمَ العاقلُ ذو التَّصويرِ ... كيف جرَت حَوادثُ الأُمورِ
وكلُّ ذي مَقْدِرة ومُلْكِ ... مُعَرَّضون للفَنا والهُلْكِ
وفي اخْتلافِ الليلِ والنَّهارِ ... تَبْصرةٌ لكلِّ ذي اعْتبارِ
والمُلْكُ للجَبَّارِ في بلادِه ... يُورثُهُ مَن شاءَ من عبادِه
وكلُّ مخلوقٍ فللفَناءَ ... وكلُّ مُلْكٍ فإلَى انْتهاءَ
ولا يَدومُ غيرُ مُلْكِ الباري ... سبحانَه من مَلِكٍ قَهَّارِ
مُنْفَرِدٍ بالعِزِّ والبَقاءِ ... وما سواه فإلَى انْقِضاءِ
أولُ مَن بُويِعَ بالخِلافَهْ ... بعدَ النبيِّ ابنُ أبي قُحافَهْ
أعْنِي الإمامَ العادلَ الصِّدِّيقا ... ثم ارْتَضَى من بعدِه الفاروقا
ففتَحَ البلادَ والأمْصارا ... واسْتأصَلَتْ سيُوفُهُ الكُفَّارا
وقام بالعَدْلِ قِيامًا يُرْضِي ... بذاك جبَّارَ السما والأرضِ
ورضِيَ الناسُ بذي النُّورَيْنِ ... ثم عليٌّ والدُ السِّبْطَيْنِ
ثم أتَت كَتائبٌ مع الحسنْ ... كادوا بأن يُجَدِّدوا بها الفِتَنْ
فأصْلَحَ اللَّهُ على يديه ... كما عَزا نبيُّنا إليه
وأجمَعَ الناسُ على مُعاويَهْ ... ونقَلَ القِصةَ كلُّ راويَهْ
فمهَّد المُلكَ كما يُريدُ ... وقام فيه بعدَه يَزيدُ
ثم ابنُه وكان بَرًّا راشدا ... أعْني أبا ليلى وكان زاهدا
فترَكَ الإمْرةَ لا عن غَلَبَهْ ... ولم يَكُنْ منه إليها طَلَبَهْ
وابنُ الزبيرِ بالحِجازِ يدأبُ ... في طلَبِ المُلْكِ وفيه يَنْصَبُ
وبالشَّامِ بايَعُوا مَرْوانا ... بحُكْمِ مَن يقولُ كُن فكانا
ولم يدُمْ في المُلْكِ غيرَ عامِ ... وعافَصَتْه أسهُمُ الحِمامِ
واسْتوسَقَ المُلْكُ لعَبْدِ المَلِكْ ... ونارَ نَجْمُ سَعْدِه في الفَلَكْ
وكلُّ مَنْ نازَعَه في المُلْكَ ... خَرَّ صَريعًا بسيوفِ الهُلْكَ
فقتَلَ المُصعَبَ بالعراقِ ... وَسَيَّرَ الحَجاجَ ذا الشِّقاقِ

إلى الحِجَاز بسيوف النِّقَمِ … وابنُ الزُّبَيْرِ لا ئذٌ بالحَرَمِ
فجاء بعدَ قَتْله بصَلْبِه … ولم يَخَفْ في أمْرِه من ربِّه
وعندما صَفَتْ له الأُمُورُ … تَقَلَّبت لحَيْنه الدُّهُورُ
ثم أتَى من بعده الوليدُ … ثم سَلَيْمَانُ الفَتَى الرَّشيدُ
ثم اسْتَفَاضَ في الورَى عدلُ عُمَرْ … تابَعَ أمْرَ ربِّه كما أمَرْ
وكان يُدْعَى بأشَجِّ القَوْمِ … وذي الصَّلاة والتُّقَى والصومِ
فجَاء بالعَدْل وبالإحْسانِ … وكفَّ أهْلَ الظُّلْمِ والطُّغْيانِ
مُقْتَدِيًا بسُنَّة الرَّسُولَ … والرَّاشدينَ من ذوي العُقُولَ
فَجَرَّعَ الإسْلامُ كأسَ فَقْده … ولم يَرَوا مِثْلاً له من بَعْده
ثم يزيدُ بعدَه هشامُ … ثم الوليدُ فُتَّ منه الهامُ
ثم يزيدُ وهْوَ يُدْعَى الناقِصَا … فجَاءَه حِمَامُه مُعافِصا
ولم تَطُلْ مُدَّةُ إبْراهِيمَا … وكان كلُّ أمْرِه سَقِيما
وأسْنَدَ المُلْكَ إلى مَرْوانا … فكان من أُموره ما كانا
وانْقَرَضَ المُلْكُ على يَدَيْه … وحَادثُ الدَّهْرِ سَطَا عليه
وَقَتْلُه قد كان بالصَّعيد … ولم تُفِدْه كَثْرَةُ العَديد
وكان فيه حَتْفُ آلِ الحَكَمِ … واسْتُنْزِعَتْ عنهم ضُرُوبُ النِّعَمْ
ثم أتَى مُلْكُ بني العَبَّاسِ … لا زالَ فينا ثابتَ الأساسِ
وجاءَت البَيْعَةُ مَن أرْضِ العَجَمْ … وقلَّدَتْ بيَعَتهم كلُّ الأمَمِ
وكلُّ مَن نازَعَهم من أُمَمِ … خرَّ صَرِيعًا لليَدَيْن والفَمِ
وقد ذكَرتُ مَن تَولَّى منهمِ … حينَ تَولَّى القائمُ المُسْتَعْصِمِ
أوَّلُهم يُنْعَتُ بالسَّفَّاحِ … وبعدَه المَنْصُورُ ذو النَّجَاحِ
ثم أتَى من بعده المَهْدي … يتْلوه مُوسَى الهادي الصَّفِّي
وجاءَ هارُونَ الرَّشيدُ بعدَهْ … ثم الأمينُ حينَ ذاقَ فَقْدَهُ
وقام بعدَ قَتْله المَأمُونُ … وبعدَه المُعْتَصِمُ المَكينُ
واسْتُخْلفَ الواثقُ بعدَ المُعْتَصِمْ … ثم أخوه جَعْفَرٌ مُوفِي الذِّمَمْ
وأخْلَصَ النِّيَّةَ في التَّوَكُّلِ … للَّه ذي العَرْشِ القديمِ الأوَّلِ
فأدْحَضَ البدْعَةَ في زَمانهْ … وقامت السُّنَّةُ في أوانهْ
ولم يُبَقِّ بِدْعَةً مُضِلَّهْ … وألْبَسَ المُعْتَزِلِيَّ ذِلَّة
فَرَحْمَةُ اللَّه عليه أبَدَا … ما غارَ نَجْمٌ في السَّماءِ أو بَدَا
وعندَما اسْتُشْهِدَ قامَ المُنْتَصِرْ … والمُسْتَعينُ بعده كما ذُكِرْ
وجاء بعدَ مَوته المُعْتَزُّ … والمُهْتَدِي المُكَرَّمُ الأعَزُّ

وبعدَه استَولَي وقامَ المُعْتَمِدْ   ومَهَّدَ المُلكَ وساسَ المُعْتضِدْ
والمُكْتَفِي في الصُّحَفِ العُلْيا سَطِرْ   وبعدَه ساسَ الأمُورَ المُقْتَدِرْ
واسْتَوسَقَ المُلكُ بعِزِّ القاهِرِ   وبعدَه الرَّاضِي أخو المَفاخِرِ
والمُتَّقِي من بعدُ والمُسْتَكْفِي   ثم المُطِيعُ ما به مِن خُلْفِ
والطائِعُ الطائِعُ ثم القادِرُ   والقائمُ الزَّاهِدُ وهو الشاكِرُ
والمُقْتَدِي من بعده المُسْتَظْهِرُ   ثم أتَى المُسْتَرْشِدُ المَوَقَّرُ
وبعدَه الراشِدُ ثم المُقْتَفِي   وحين ماتَ اسْتَنْجَدُوا بيوسفِ
والمُسْتَضِي العادلُ في أفْعالِه   الصادقُ الصَّدُوقُ في أقوالِه
والناصرُ الشَّهْمُ الشَّدِيد الباسِ   ودامَ طُولُ مُكْثِه في الناسِ
ثم تلاه الظاهرُ الكَرِيمُ   وعَدْلُه كلٌّ به عَلِيمُ
ولم تَطُلْ أيامُه في المَمْلَكَهْ   غيرَ شُهُور واعْتَرته الهَلَكَهْ
وعَهْدُه كان إلى المُسْتَنْصِرِ   العادلِ البَرِّ الكَرِيمِ العُنْصُرِ
دامَ يَسُوسُ الناسَ سبعَ عَشْرَهْ   وأشْهُراً بعَزَماتٍ بَرَّهْ
ثم تُوُفِّي عامَ أربَعِينا   وفي جُمادَى صادَفَ المَنُونا
وبايَعَ الخَلائقُ المُسْتَعْصِمَا   صَلَّى عليه ربُّنا وسلَّما
يَبْعَثُ نُجُبَ الرُّسْلِ في الآفاقِ   يَقْضُونَ بالبيعَةِ والوِفاقِ
وشَرَّفُوا بذِكْرِه المنابِراَ   ونَشَروا من جُودِه المَفاخِراَ
وسارَ في الآفاقِ حُسْنُ سِيرَتِهْ   وعَدْلُه الزائِدُ في رَعِيَّتِهْ

قال الشيخ عِمادُ الدينِ ابنُ كَثِيرٍ: ثم قُلْتُ أنا بعدَ ذلكَ أبياتًا:

ثمِ ابتلاه اللَّهُ بعدُ بالتَّتارِ   أتْباعِ جنْكِزْ الخانِ الجَبَّارِ
صُحْبَةُ ابْنِ ابنٍ له هولاكُو   فلم يَكُنْ مِن أمْرِه فَكاكُ
فمَزَّقُوا جُنُودَه وشَمْلَه   وقَتَلُوه نَفْسَه وأهْلَه
ودَمَّرُوا بَغْدادَ والبِلاداَ   وقَتَّلُوا الأحفادَ والأجْدادا
وانْتَهَبُوا المالَ مع الحَرِيمِ   ولم يَخافُوا سَطْوَةَ العَظِيمِ
وغَرَّهم إنْظارُه وحِلْمُه   وما اقْتَضاه عدْلُه وحُكْمُه
وشَغَرَت من بعده الخِلافَهْ   ولم يُؤَرَّخْ مِثْلُها من آفَهْ
ثم أقامَ المُلْكَ أعْنِي الظاهِراَ   خليفَةً أعْنِى به المُسْتَنْصِراَ
ثم وَلِيَ من بعدِ ذاكَ الحاكِمُ   قَسِيمُ بَيْبَرْسَ الإمامُ العالِمُ
ثم ابنُه الخليفَةُ المُسْتَكْفِي   وبعضُ هذا للَبِيبِ يَكْفِي
ثم وَلِيَ مِن بعدِه جَماعَهْ   ما عندَهم علمٌ ولا بِضاعَهْ

ثم خَليفةُ الوقت المُعْتَضِدْ ... ولا يكَادُ الدَّهْرُ مِثْلَه يَجِدْ
في حُسْنِ خَلْقٍ واعْتِقَادٍ وحِلَى ... وكيف لا وهْو مِن الشُّمِّ الأُلَى
سادوا البلادَ والعبادَ فَضْلاَ ... وملَئُوا الأقْطارَ حكمًا وعَدْلا
أولاد عَمِّ المُصْطَفَى محمد ... وأفْضَلُ الخَلْقِ بلا تَرَدُّدِ
صَلَّى عليه اللَّهُ ذو الجَلالِ ... ما دامَتْ الأيامُ والليالي

فصل

والفاطميُّونَ قَليلُوا العدَّهْ ... لكِنَّهم مُدَّ لهم في المُدَّه
فَملكُوا بضْعًا وستِّينَ سنَهْ ... من بعد مائَتَينِ وكان كالسِّنَهْ
والعِدَّةُ أربعَ عشْرَةَ المَهْديُّ ... والقائمُ المَنْصُورُ والمَعْديُّ
أعْنِي به المُعزَّ باني القاهرة ... ثم العَزيزُ الحاكِمُ الكَوَافِرَهْ
والظاهِرُ المُستنصِرُ المُسْتَعْلِي ... والآمِرُ الحَافظُ سوءَ الفِعْلِ
والظافِرُ الفائِزُ ثم العاضِدُ ... آخرُهُم وما لهذا جاحِدُ
أُهْلِكَ بعدَ البِضْعِ والسِّتِّينا ... مِن قَبْلِها خَمْسُمائة سنينا
وقد رقمتُ العُمَرَ فوقَ الاسمِ ... ومُدَّةُ الدَّوْلَة تَحتَ الرَّسْمِ
وقد بَسَطْنا ذاكَ فيما سلَفَا ... وأصْلُهم يَهُودُ مَا هم شُرُفَا
بذاكَ أفْتَى السادَةُ الأئِمَهْ ... أنْصارُ دينِ اللَّهِ مِن ذي الأُمَّه

فصلْ

وهكذا خُلفا بنِي أُميهْ ... عدَّتُهم كَعِدَّةِ الرفَضِيَّهْ
ولكن المُدَّةُ كانت ناقصهْ ... عن مائَة مِن السنِينَ خالِصَهْ
وكلُّهم قد كان ناصِبيَّا ... إلا الإمامَ عمرَ التقِيّا
مُعاوِيهْ ثم ابنُه يزيدُ ... وابنُ ابنه مُعاوِيَ السَّديدُ
مَرْوانُ ثم ابنٌ له عبدُ المَلكْ ... مُنابِذٌ لابنِ الزُّبيْرِ حتى هلَكْ
ثم استَقَلَّ بعدَه بالمُلْك ... في سائِرِ الأرْضِ بغَيْرِ شَكِّ
ثم الوليدُ النَّجْلُ بانِي الجَامِعِ ... وليسَ مِثْلُ شكْلِه من جَامِعِ
ثم سُلَيْمانُ الجَوادُ وعمرْ ... ثم يَزيدُ وهشامٌ وغُدَرْ
أعني الوليدَ بنَ يزيدَ الفاسِقَا ... ثم يزيدُ بنُ الوليد فائقا
يُلَقَّبُ الناقِص وَهْو كامِلُ ... ثُمَّتْ إبْراهِيمُ وهْوَ عاقِلُ

ثم مَـرْوانُ الحِـمَـارُ الجَـعْـدِي آخِـرُهـم فـاظفَـرْ بذا من بعـدي

وممن قُتِلَ مع الخليفة واقفُ الجَوزيَّة بدمَشْقَ أستاذُ دار الخلافة الصاحبُ مُحْيي الدين يوسفُ بنُ الشيخ جمال الدين أبي الفَرَج بن الجَوْزيِّ عبد الرحمن بن عليِّ بن محمد بن عليِّ بن عُبَيد الله بن عبد الله بن حماد بن أحمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النَّضْر بن محمد بن محمد بن أبي بكر الصِّدِّيق القُرَشيُّ التَّيْميُّ البكري البَغْداديُّ الحَنْبَليُّ المَعْروفُ بابن الجَوْزيِّ، وُلِدَ في ذي القَعْدَة سنةَ ثمانين وخَمْسمائة، ونشأ شابًّا حَسَنًا، وحين تُوُفِّيَ أبوه وَعَظَ في مَوْضعه، فأحْسَنَ وأجادَ وأفادَ، ثم تَقَدَّمَ وولِيَ حِسْبَةَ بَغْدادَ مع الوَعْظ الرائق والأشْعار الحسنة الرائقة، ووَلِيَ تَدْريسَ الحَنابلة بالمُسْتَنْصرية سنةَ ثِنْتَيْن وثلاثين وستِّمائة، وكانت له تَدَاريسُ أُخَرُ، ثم لمَّا وَلِيَ مُؤَيَّدُ الدولة ابن العَلْقَميِّ الوَزارةَ وشَغَرَ عنه الأستاذدارية وَلِيَها مُحيي الدين هذا، وانْتَصَب ابنُه عبدُ الرَّحْمن للحِسْبَة والوَعْظ، فأجادَ فيها، وشَعَرَ أيضًا حَسَنًا، ثم كانت الحِسْبَةُ تَنْتَقِلُ في بَنيه الثلاثة؛ جَمال الدين عبد الرحمن، وشَرَفُ الدين عبد الله، وتاجُ الدين عبد الكريم، وقد قُتِلُوا معه في هذه السنة، رَحمَهم اللَّهُ. ولمُحْيي الدين هذا مُصنَّفٌ في مَذْهَب الإمام أحمدَ، وقد ذَكَرَ له ابنُ الساعي أشْعارًا حَسَنَةً يُهَنِّئُ بها الخليفةَ في المَواسم والأعْياد، تَدُلُّ على فَضيلة تامَّة وفَصَاحة بالغة، وقد وقَفَ المَدْرَسَةَ الجَوْزيَّةَ بدمَشْقَ، وهي من أحْسَنِ المَدارس وأوْجَهِهَا، تَقَبَّلَ اللَّهُ منه وأثابه برَحْمَته.

الصَّرْصَري المادح: يَحيى بنُ يُوسُفَ بن يَحْيى بن مَنْصُور بن المُعَمَّر بن عبد السلام، الشيخُ الإمامُ العَلاَّمَةُ البارعُ، جَمالُ الدين أبو زكريا الصَّرْصَريُّ، الشاعرُ المادحُ الحَنْبَليُّ الضَّريرُ البَغْداديُّ، وشِعْرُه في مدائح رسول الله ﷺ مَشْهُورٌ، وديوانُه في ذلكَ مَعْرُوفٌ غيرُ مَنْكُور، وُلِدَ سنةَ ثمانٍ وثمانين وخَمْسمائة، وسَمعَ الحَديثَ والفقهَ واللُّغَةَ، ويقالُ: إنَّه كان يَحْفَظُ «صحاحُ الجَوْهَريِّ» بكَمالها، وصَحِبَ الشيخَ عليَّ بنَ إدْريسَ تلميذَ الشيخ عبد القادر، وكان ذَكيًّا يَتَوَقَّدُ، يَنْظِمُ على البديهة سريعًا أشْياءَ حَسَنَةً فَصيحةً بليغةً، وقد نَظَمَ «الكافي» للشَّيْخ مُوَفَّقُ الدين بن قُدامة، و«مُخْتَصَر الخِرَقي»، وأمَّا مدائحُه في رسول الله ﷺ فيقالُ: إنَّها تَبْلُغُ عشْرينَ مُجَلَّدًا. ولمَّا دَخَلَ التَّتارُ إلى بَغْدادَ دُعِيَ إلى دار بها فَرْمانٌ من هولاكُو، فأبَى أنْ يُجيبَ إليه، وأعَدَّ في داره حجَارةً، فحين دَخَلَ عليه التَّتارُ رَمَاهم بتلكَ الأحْجَار، فَهَشَم منهم جَمَاعَةً، فلمَّا خَلَصُوا إليه قَتَلَ بعُكَّازه أحَدَهم، ثم قَتَلُوه شَهيدًا، رَحمَه اللَّهُ تعالى وأكْرَمَ مَثْواه، وله من العُمْر ثمانٍ وستُّونَ سَنَةً. وقد أوْرَدَ له الشيخُ قُطْبُ الدين اليُونينيُّ من ديوانه قطْعَةً صالحَةً في تَرْجَمته في «الذَّيْل»، اسْتَوْعَبَ حُرُوفَ المُعْجَم كلها، وذكرَ قَصائدَ طِوالاً كثيرةً حَسَنَةً، رَحمَه اللَّهُ تعالى.

البهاءُ زُهَيْرٌ صاحبُ الدِّيوان، وهو زُهَيْرُ بنُ محمد بن عليِّ بن يَحْيى بن الحَسَن بن جَعْفَر بن مَنْصُور ابن عاصم المُهَلَبيُّ العتكيُّ المصْريُّ، وُلِدَ بمَكَةَ، ونشأَ بقُوصَ، وأقامَ بالقاهرَة، الشاعرُ المُطَبِّقُ، الكاتبُ

الجَوَّادُ في حُسْنِ الخَطِّ، له ديوانٌ مَشْهُورٌ، وقَدِمَ على السُّلْطانِ الملكِ الصالحِ نَجْمِ الدينِ أيوبَ، وكان غَزِيرَ المُرُوءَةِ، حَسَنَ التَّوسُّطِ في إيصالِ الخَيرِ إلى النَّاسِ، ودَفْعِ الشَّرِّ عنهم، وقد أثْنَى عليه القاضي شمسُ الدين ابنُ خَلِّكانَ، وقال: أجازَ لي روايةَ ديوانِه، وهو مَشْهُورٌ، وقد بَسَطَ تَرْجَمَتَه الشيخُ قُطْبُ الدينِ اليُونِينيُّ.

الحافظُ زَكيُّ الدينِ المُنْذِريُّ عبدُ العظيمِ بنُ عبدِ القَوِيِّ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ سَلامَةَ بنِ سعدِ بنِ سعيدٍ[1]، الإمامُ العلَّامةُ الحافظُ أبو محمدٍ زَكيُّ الدينِ المُنْذِريُّ الشافعيُّ المِصْرِيُّ، وأصلُه من الشامِ، ولكنَّه وُلِدَ بمصرَ، وكان شيخَ الحديثِ بها مدةً طويلةً، إليه الوِفادةُ والرِّحْلةُ من سنينَ مُتطاولةٍ، وقيل: إنه وُلِدَ بالشامِ سنةَ إحدى وثمانين وخمسمائةٍ، وسمع الكثيرَ، ورحَلَ وطلَبَ، وعُنِيَ بهذا الشأنِ، حتى فاقَ أهلَ زمانِه فيه، وصنَّفَ وخرَّجَ، واختَصَرَ «صحيحَ مسلمٍ»، و«سننَ أبي داودَ»، وهو أحسنُ اختصارًا من الأولِ، وله يدٌ طُولَى في اللغةِ والفقهِ والتاريخِ، وكان ثقةً حُجَّةً مُتَحَرِّيًا زاهدًا، وتُوُفِّيَ يومَ السبتِ رابعَ ذي القَعْدةِ من هذه السنةِ بدارِ الحديثِ الكامليةِ بمصرَ. ودُفِنَ بالقَرافةِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

النُّورُ أبو بكرٍ محمدُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ العزيزِ بنِ عبدِ الرحيمِ بنِ رُسْتُمَ الإسْعَرْدِيُّ، الشاعرُ المشهورُ الخَليعُ، كان القاضي صَدْرُ الدينِ ابنُ سَنِيِّ الدولةِ قد أجْلَسه مع الشُّهودِ تحتَ الساعاتِ، ثم استَدْعاه الناصرُ صاحبُ البلدِ، وجعَله من جُلَسائِه ونُدَمائِه، وخلَع عليه خِلَعَ الأجْنادِ، فانْسَلَخَ من هذا الفنِّ إلى غيرِه، وجمَع كتابًا سمَّاه «الزَّرْجُون في الخَلاعةِ والمُجونِ» وذكَر فيه أشياءَ كثيرةً من النَّظْمِ والنَّثْرِ في الخَلاعةِ، ومن شعرِه:

لذةُ العمرِ خمسةٌ فاقْتَنِيها ... من خَليعٍ غدا أديبًا فَقيهَا
في نَديمٍ وقَيْنةٍ وحَبيبٍ ... ومُدامٍ وسبِّ مَن لامَ فيهَا

الوزيرُ ابنُ العَلْقَميِّ الرافضيُّ، قبَّحه اللَّهُ، محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، الوزيرُ مُؤَيَّدُ الدينِ أبو طالبٍ ابنُ العَلْقَميِّ البَغْداديُّ، خدَم في أيامِ المُسْتَنْصِرِ أُستاذَ دارِ الخلافةِ مدةً طويلةً، ثم استوزَره المُسْتَعْصِمُ، ولم يكنْ وزيرَ صِدْقٍ، فإنه كان من الفُضلاءِ الأُدباءِ، إلا أنه كان رافضيًّا خَبيثًا، رَديءَ الطَّوِيةِ على الإسلامِ وأهلِه، وقد حصَل له من التعظيمِ والوَجاهةِ في أيامِ المُسْتَعْصِمِ ما لم يَحْصُلْ لكثيرٍ ممَّن قبلَه من الوُزراءِ، ثم مالأَ على الإسلامِ وأهلِه للتتارِ أصحابِ هولاكو قان، حتى جاءوا فجاسوا خِلالَ الديارِ وكان أمرًا مفعولًا، ثم حصَل له من الإهانةِ في أيامِهم والقلةِ والذلَّةِ وزوالِ سِتْرِ اللَّهِ، ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، رأَته امرأةٌ وهو راكبٌ في أيامِ التتارِ بِرْذَوْنًا، وسائقٌ يَضْرِبُ فرسَه، فوقَفَت إلى جانبِه وقالت: يا بنَ العَلْقَميِّ، هكذا كان بنو العباسِ يُعاملونك؟ فوقَعَت كلمتُها في قلبِه، وانْقَطَع في دارِه إلى أن مات كَمَدًا في مُسْتَهَلِّ جُمادَى الآخرةِ من هذه السنةِ، وله من العمرِ ثلاثٌ وستون سنةً، ودُفِنَ في قُبورِ الرَّوافضِ، وقد سمع بأذنيه ورأَى بعينَيْه من الإهانةِ من التتارِ

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٣/ ٢١٨-٢١٩).

والمسلمين ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، وتولَّى بعدَه ولدُه الوزارةَ، ثم أخَذه اللَّهُ إليه سريعًا، وقد هجاه بعضُ الشعراءِ فقال:

يا فِرْقةَ الإسلامِ نُوحُوا وانْدُبُوا	أسَفًا على ما حلَّ بالمُسْتَعْصِمِ
دَسْتُ الوزارةِ كان قبلَ زمانِه	لابنِ الفُراتِ فصارَ لابنِ العَلْقَمي

محمدُ بنُ عبد الصمد بن عبد اللَّه بن حَيْدَرَةَ، فتحُ الدين أبو عبد اللَّه بنُ العَدْل، مُحْتَسِبُ دمشقَ، كان من الصدورِ المشكورين، حسنَ الطريقةِ، وجدُّه العَدْلُ نَجيبُ الدينِ أبو محمدٍ عبدُ اللَّه بنُ حَيْدَرَةَ، وهو واقفُ المدرسةِ التي بالزَّبَدانيِّ في سنةِ تسعين وخمسمائة، تقبَّل اللَّهُ منه.

القُرْطُبيُّ صاحبُ «المُفْهِم في شرحِ مسلم»: أحمدُ بنُ عمرَ بنِ إبراهيمَ بنِ عمرَ، أبو العباسِ الأنصاريُّ القُرْطُبيُّ المالكيُّ، الفقيهُ المُحَدِّثُ المُدَرِّسُ بالإسكندرية، وُلِد بقُرْطُبةَ سنةَ ثمانٍ وسبعين وخمسمائةٍ، وسمِع الكثيرَ هناك، واختَصَر «الصحيحَيْن»، وشرَح «صحيحَ مسلمٍ» بكتابِه المُسَمَّى بـ«**المُفْهِمِ**»، وفيه أشياءُ حسَنةٌ مُفيدةٌ مُحَرَّرةٌ، رحمه اللَّهُ تعالى.

الكَمالُ إسحاقُ بنُ أحمدَ بنِ عثمانَ، أحدُ مَشايخِ الشافعيةِ، أخَذ عنه الشيخُ مُحْيِي الدينِ النَّواويُّ وغيرُه، وكان مُدَرِّسًا بالرَّواحيةِ، وكانت وفاتُه في ذي القَعْدةِ من هذه السنة.

العمادُ داودُ بنُ عمرَ بنِ يوسفَ بنِ يحيى بنِ عمرَ بنِ كاملٍ أبو المَعالي وأبو سليمانَ الزُّبَيْديُّ المَقْدسيُّ ثم الدمشقيُّ، خطيبُ بيتِ الآبارِ، وقد خطَب بدمشقَ ستَّ سنينَ بعدَ انفصالِ الشيخِ عزِّ الدينِ ابنِ عبدِ السلامِ عنها، ودرَّس بالغزَّاليَّةِ، ثم عُزِل عنها وعاد إلى بيتِ الآبارِ، فمات بها.

عليُّ بنُ محمد بن الحسين، صَدْرُ الدين أبو الحسنِ بنُ النَّيَّارِ شيخُ الشيوخِ ببغدادَ، وكان أولاً مُؤَدِّبًا للإمامِ المُسْتَعْصِمِ باللَّه، فلما صارَت الخلافةُ إليه نال الشيخُ رِفْعَةً عظيمةً ووَجاهةً هائلةً، وولاه مشيخةَ الشيوخِ ببغدادَ، وانتَظَمت إليه أَزِمَّةُ الأمورِ، ثم إنه ذُبِح بدارِ الخلافةِ كما تُذْبَحُ الشاةُ في هذه السنة، رحمه اللَّهُ تعالى.

الشيخُ العابدُ عليٌّ الخبَّازُ، كان له أصحابٌ وأتباعٌ ببغدادَ، وله زاويةٌ يُزارُ فيها، قتَلَه التَّتارُ، وأُلْقِي على مَزْبَلةٍ ببابِ زاويتِه ثلاثةَ أيامٍ حتى أكَلَت الكلابُ من لحمِه، ويقالُ: إنه أخْبَر بذلك عن نفسِه في حياتِه، رحمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ أحمدَ بنِ أبي الفتحِ، أبو عبد اللَّه المَقْدسيُّ خطيبُ مَرْدا، سمع الكثيرَ، وعاش تسعين سنةً، وقدِم في سنةِ ثلاثٍ وخمسين، فسمع الناسُ عليه الكثيرَ بدمشقَ، ثم عاد فمات ببلدِه في هذه السنة، رحمه اللَّهُ.

البدرُ لؤلؤٌ صاحبُ الموصلِ المُلَقَّبُ بالملك الرحيم، كانت وفاتُه في شعبانَ من هذه السنة عن مائة سنةٍ، وقد ملَك المَوْصِلَ نحوًا من خمسين سنةً، وكان ذا عقلٍ ودَهاءٍ ومكْرٍ، لم يَزَلْ يَعْمَلُ على أولادِ أُسْتاذِه حتى أبادهم، وزالت الدولةُ الأتابَكيةُ عن الموصلِ، ولما انفَصَل هولاكو قان عن بغدادَ بعدَ

الوقعة الفَظيعة، سار إلى خدمته مُتاقيًا له، ومعه الهَدايا والتُّحَفُ، فأكرَمه واحترَمه، ورجَع من عنده، فمكَث بعدَ مَرْجِعه بالموصلِ أيامًا يَسيرةً، ثم مات، ودُفِن بمدرسته البَدْرية، وتأسَّف الناسُ عليه لحُسْنِ سيرته وجَودةِ مَعْدِلته، وقد جمَع له الشيخُ عزُّ الدين بنُ الأثير كتابَه المُسمَّى بـ«الكامل في التاريخ»، فأجازَه عليه، وأحْسَن إليه، وكان يُعْطِي لبعضِ الشعراء ألفَ دينار ونحوَها، وقد قام في الملك بعدَه ولدُه الصالحُ إسماعيلُ.

وقد كان بدرُ الدينِ لؤلؤٌ أرْمَنيًّا اشتَراه رجلٌ خيَّاطٌ، ثم صار إلى المَلِكِ نورِ الدينِ أرسلان شاه بن عزِّ الدينِ مسعودِ بنِ مودودِ بنِ زَنْكي بنِ آقْسُنْقُرَ الأتابَكيِّ صاحبِ الموصلِ، وكان مَليحَ الصورةِ، فحظِي عندَه، وتقَدَّم في دولته إلى أن صارت الكلمةُ دائرةً عليه، والوفودُ من سائرِ جهاتِ مُلْكِهم إليه. ثم إنه أخَنى على أولادِ أُسْتاذه فقتَلهم غيلةً واحدًا بعدَ واحدٍ، إلى أن لم يَبْقَ معه أحدٌ منهم، فاستَقَلَّ بالملك حينئذٍ، وصفَت له الأمورُ وراقت، وكان يَبْعَثُ في كلِّ سنةٍ إلى مشهدِ عليٍّ قِنْديلاً زِنَتُه ألفُ دينارٍ، وقد بلَغ مِن العُمرِ قريبًا من تسعين سنةً، وكان شابًّا حسنَ الشبابِ، من نَضارةِ وجهِه، وحُسْنِ شكلِه، وكانت العامةُ تُلَقِّبُه بقَضيبِ الذهبِ، وكان ذا همَّةٍ عاليةٍ، وداهيةً شديدَ المكرِ، بعيدَ الغَوْرِ.

الملكُ الناصرُ داودُ بنُ المُعَظَّم، ترْجَمه الشيخُ قُطْبُ الدينِ اليُونينيُّ في تَذْييله على «المرآة» في هذه السنةِ، وبسَط ترجمتَه جدًّا، وما جرَى له من مُبْتَدَأ أمرِه إلى آخرِ زمانِه، وأورَد من أشعارِه وأقوالِه شيئًا كثيرًا، وأفاد أشياءَ حسنةً، رحِمه اللَّهُ تعالى. وقد ذكَرْنا ترجمتَه في الحوادث، واللَّهُ أعلمُ، وقد مَلَك بعدَ أبيه مدينةَ دمشقَ وأعمالَها مدةً، ثم تمالأ عليه عمَّاه الكاملُ والأشرفُ وانتزعاها من يدِه، وعوَّضاه منها الكَرَكَ والصَّلْتَ وعَجْلونَ ونابُلُسَ، ثم ذهَب ذلك كلُّه من يدِه وصار إلى العراقِ، فاستَودَع الخليفةَ المُسْتَعْصِمَ في سنةِ سبعٍ وأربعين وَديعةً قيمتُها مائةُ ألفِ دينارٍ، فغلَّها ولم يردَّها إليه، وتكَرَّر وُفودُه إليه وتوَسُّلُه بالناسِ في ردِّها إليه، فلم يُفِدْ من ذلك شيئًا، ومن أحسنِ مَقاماتِ الناصرِ داودَ؛ لمَّا حضَر الدرسَ بالمُستَنصِريَّةِ في سنةِ ثلاثٍ وثلاثين وستِّمائةٍ، والخليفةُ حاضرٌ، فقام الفقيهُ وجيهُ الدينِ القَيْروانيُّ فامتدح الخليفةَ بقصيدةٍ قال في بعضِها:

لو كنتَ في يومِ السَّقيفةِ حاضرًا كنتَ المُقَدَّمَ والإمامَ الأرْوَعا

فقال له الناصرُ داودُ: أخْطَأْتَ؛ قد كان جَدُّ أميرِ المؤمنين العباسُ حاضرًا يومَ السَّقيفةِ، وإنما كان المُقَدَّمَ والإمامَ الأرْوَعا أبو بكرٍ الصديقُ. فقال الخليفةُ: صدَق. وخلَع عليه، ونفَى الوَجيهَ القَيْروانيَّ إلى مصرَ، فدرَّس في مدرسةِ الوزيرِ صفيِّ الدينِ بنِ شُكْرٍ، وكان وفاةُ الناصرِ داودَ بقريةِ البُوَيْضا مُرَسَّمًا عليه، وشهِد جنازتَه صاحبُ دمشقَ.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة

استهلت هذه السنةُ وليس للمسلمين خليفةٌ، وسلطانُ دمشقَ وحلبَ الملكُ الناصرُ صلاحُ الدين يوسفُ بنُ العزيزِ محمد بنِ الظاهرِ غازي بنِ الناصرِ فاتحِ بيتِ المقدس، وهو واقعٌ بينَه وبينَ المصريين، وقد ملَّكوا نورَ الدينِ عليَّ بنِ المُعِزِّ أَيْبَك التُّرْكماني، ولقَّبوه بالمنصور، وقد أرسَلَ الملكُ الغاشمُ هولاكوقان إلى الملكِ الناصرِ بدمشقَ يستدعيه إليه، فأرسَلَ ولدَه العزيزَ وهو صغيرٌ، ومعه هدايا كثيرةٌ وتحفٌ، فلم يحتفلْ به هولاكو، وغضب على أبيه إذ لم يُقْبِلْ إليه، وقال: أنا الذي أسيرُ إلى بلاده بنفسي. فانزعج الناصرُ لذلك، وبعث بحريمه وأهله إلى الكرَكِ ليُحصِّنَهم بها، وخاف أهلُ دمشقَ خوفًا شديدًا حين بلَغهم أن التتارَ قد قطَعوا الفراتَ، فصار كثيرٌ منهم إلى الديارِ المصريةِ في زمنِ الشتاء، ومات كثيرٌ منهم ونُهِبَ آخرون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأقبَل هولاكو، فقصَد نحوَ الشامِ بجنوده وعساكره، وقد كانت ميافارقين قد امتنَعَت على التتارِ مدةَ سنةٍ ونصفٍ، فأرسَل إليها ولدَه أشموطَ، فافتتَحها قسرًا، واستنزَل ملكَها الكاملَ بنَ الشهابِ غازي بنِ العادلِ، فأرسَلَه إلى أبيه وهو محاصرٌ حلبَ، فقتَله بينَ يديه، واستَتاب عليها بعضَ مماليكِ الأشرفِ، وطيف برأسِ الكاملِ في البلاد، ودخَلوا برأسه إلى دمشقَ، فنُصب على بابِ الفراديسِ البرَّاني، ثم دُفِن بمسجدِ الرأسِ داخلَ بابِ الفراديسِ الجُوَّاني، فنظَم أبو شامةَ في ذلك قصيدةً يذكُرُ فيها فضلَه وجهادَه، وشبَّهه بالحسينِ في قتله مظلومًا، ودُفن رأسُه عندَ رأسه.

وفيها عمِل الخواجا نَصيرُ الدينِ الطُّوسيُّ الرَّصَدَ بمدينةِ مَراغةَ، ونقَل إليه شيئًا كثيرًا من كتبِ الأوقافِ التي كانت ببغدادَ، وعمِل دارَ حكمةٍ فيها فلاسفةٌ، لكلِّ واحدٍ في اليومِ ثلاثةُ دراهمَ، ودارَ طبٍّ، فيها للحكيمِ في اليومِ درهمان، ومدرسةً، لكلِّ فقيهٍ في اليومِ درهمٌ، ودارَ حديثٍ، لكلِّ محدِّثٍ نصفُ درهمٍ في اليوم.

وفيها: قدِم القاضي الوزيرُ كمالُ الدينِ عمرُ بنُ أبي جَرادةَ المعروفُ بابنِ العَديمِ إلى الديارِ المصريةِ، رسولاً من صاحبِ دمشقَ الناصرِ بنِ العزيزِ يستنجِدُ المصريِّين على قتالِ التتارِ، بأنهم قد اقترَب قدومُهم إلى الشام، وقد استَولَوا على بلادِ الجزيرةِ وحرَّان وغيرِها، في هذه السنة، وقد جاز أشموطُ بنُ هولاكو الفراتَ، واقترَب من مدينةِ حلبَ، فعُقد عند ذلك مجلسٌ بينَ يدي المنصورِ بنِ المُعزِّ التُّركماني، وحضَر قاضي الديارِ المصريةِ بدرُ الدينِ السِّنْجاريُّ، والشيخُ عزُّ الدينِ ابنُ عبدِ السلام، وأفاضوا الكلامَ فيما يتعلَّقُ بأخذِ شيءٍ من أموالِ العامَّةِ لمساعدةِ الجُنْدِ، وكانت العُمْدةُ على ما يقولُه ابنُ عبدِ السلام، فكان حاصلُه: إذا لم يَبْقَ في بيتِ المالِ شيءٌ، وأنفَقْتُم الحوائصَ الذَّهبَ وغيرَها من الزينةِ، وتساوَيتُم أنتم والعامَّةُ في الملابسِ سوى آلاتِ الحربِ، ولم يَبْقَ للجُنْديِّ شيءٌ سوى فرسِه التي يركَبُها، ساغ أخذُ شيءٍ من أموالِ الناسِ في دفعِ الأعداء؛ لأنه إذا دهَم العدوُّ وجَب على الناسِ كافةً أن يدفعوهم بأموالِهم وأنفسِهم.

ولاية الملك المظفر قطز

وفيها : قبَض الأميرُ سيفُ الدين قُطُز على ابن أُستاذِه نُورِ الدينِ عليٍّ المُلَقَّب بالمنصور، وذلك في غَيْبة أكثرِ الأمراءِ من مَماليك أبيه وغيرِهم في الصيد، فأمْسَكَه وسَيَّره مع أمِّه وابنيه وإخْوته إلى بلادِ الأشكري، وتسَلْطَن هو، وسمَّى نفسَه بالملك المُظَفَّر، وكان هذا من رحمة اللَّه تعالى بالمسلمين، فإنه الذي يسَّر اللَّهُ على يديه كَسْرَةَ التَّتارِ كما سيأتي بيانُه إن شاء اللَّهُ تعالى. وهذا الذي اعْتَذَر به إلى ابنِ العَديم، فإنه قال: لابد للناسِ من سلطانٍ قاهرٍ يُقاتِلُ التتارَ، وهذا صبيٌّ صغيرٌ لا يَعرِفُ تَدْبيرَ المَمْلكة.

وفيها : برَز الملكُ الناصرُ صاحبُ دمشقَ إلى وَطْأةِ بَرْزَةَ في جَحافلَ كثيرةٍ من الجيشِ والمُطَّوِّعةِ والأعْرابِ وغيرِهم، ولما علِم ضعفَهم عن مُقاومةِ المَغولِ ارفضَّ ذلك الجَمْعُ، ولم يَصبرْ لا هو ولا هم، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وفيها تُوُفِّيَ من الأعْيان:

واقفُ الصَّدْرية الرئيسُ صَدْرُ الدين أسْعَدُ بنُ عثمانَ بنِ أسعدَ بنِ المُنَجَّا بن بَرَكات بن مُؤَمَّل التَّنوخيُّ المَعَرِّيُّ، ثم الدِّمشقيُّ الحَنْبليُّ، أحدُ المُعَدَّلين ذوي الأموالِ والمُروءاتِ والصَّدَقاتِ الدارَّة البارَّة، وقَف مدرسةً للحَنابلة، وقبرُه بها إلى جانبِ تربة القاضي المصريِّ في رأسِ دَرْبِ الرَّيْحانِ من ناحيةِ الجامع الأُمَويِّ، وقد ولِي نظرَ الجامع مدةً، وقد استَجَدَّ أشْياءَ كثيرةً، منها سوقُ النَّحَّاسين قِبليَّ الجامع، ونقَل الصاغةَ إلى مكانِها الآنَ، وقد كانت قبلَ ذلك حيث يُقال لها: الصاغةُ العَتيقةُ. وجدَّد الدَّكاكينَ التي بينَ أعْمِدةِ الزِّيادة، و ثَمَّر للجامع أموالاً جَزيلةً، وكانت له صَدَقاتٌ كثيرةٌ، وذُكِر عنه أنه يَعْمَلُ صنعةَ الكيميا، وأنه صحَّ معه عملُ الفضة، وعندي أن هذا لا يَصِحُّ عنه. واللَّهُ أعلمُ.

الشيخُ يوسفُ القَمينيُّ كان يُعْرَفُ بالأقْمِينيِّ؛ لأنه كان يَسْكُنُ قَمِينَ حَمَّامِ نورِ الدينِ الشَّهيد، وكان يَلْبَسُ ثيابًا طوالاً تَحُفُّ على الأرضِ، ويَبُولُ في ثيابِه، ورأسُه مَكْشوفٌ، وله أحوالٌ وكُشوفٌ كثيرةٌ، وكان كثيرٌ من العَوامِّ وغيرِهم يَعْتَقِدون صلاحَه وولايتَه؛ وذلك لأنهم لا يَعْلَمون أن الكُشوفَ قد تَصْدُرُ من المُؤْمِنِ والكافرِ كما كان ابنُ صَيَّادٍ، ومن البَرِّ والفاجرِ، فلابدَّ من اخْتِبارِ صاحبِ الحالِ بالكتابِ والسنة، فمَن وافَق حالُه الكتابَ والسنةَ، فهو رجلٌ صالحٌ سواءٌ كاشَف أم لا، ومَن لم يُوافِقْ فليس برجلٍ صالحٍ سواءٌ كاشَف أم لا.

قال الشافعيُّ، رحمه اللَّهُ تعالى: إذا رأيْتُم الرجلَ يَمْشي على الماءِ، ويَطيرُ في الهواءِ، فلا تَغْتَرُّوا به حتى تَعْرِضوا أمْرَه على الكتابِ والسنة.

ولما مات دُفِن بتربةٍ بسفحِ قاسِيونَ، وهي مشهورةٌ به شَرْقيَّ تربةِ أبي عمرَ المقدسيِّ الرَّواحيةِ، وهي

مُزَخْرَفةٌ، وقد اعْتَنَىٰ بها بعضُ مَن كان يَعْتَقِدُ فيه. وكانت وفاتُه في سادسِ شعبانَ من هذه السنة. وكان الشيخُ إبراهيمُ الجيعانةُ لا يَتَجاسَرُ أن يَدْخُلَ البلدَ والقَمينيُّ حيٌّ، فيومَ مات الأقمينيُّ دخَلها وكان بالشَّاغُورِ، ودخَل العَوامُّ معه يَصيحون ويَصْرُخون. وهم أتْباعُ كلِّ ناعقٍ.

الشمسُ عليُّ بنُ النُّشَبي المُحدِّثُ، ناب في الحِسْبةِ عن الصَّدْرِ البَكْريِّ، في أيامه، وقرأ الكثيرَ بنفسه، وسمع وأسْمَع، وكتَب بخطِّه كثيرًا، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

أبو عبد اللَّه الفاسي شارحُ «الشاطبية»، اشْتَهَر بالكُنْيَة، وقيل: إن اسمَه القاسمُ. وكانت وفاتُه بحلبَ، وكان عالمًا فاضلاً في العربية والقراءات وغيرِ ذلك، وقد أجاد في شرحه «للشاطبية» وأفاد، واسْتَحْسَنه الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ شارحُها أيضًا.

النَّجْمُ أخو البدر مُفَضَّلٌ، وكان شيخَ الفاضلية بالكَلاَّسة، وكان له إجازةٌ من السِّلَفيِّ.

خطيبُ العُقَيْبة بدرُ الدين يحيى بنُ الشيخ عزِّ الدين بن عبد السلام، ودُفِن بباب الصغير علىٰ جدِّه، وكانت جنازتُه حافلةً، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

سعدُ الدين محمدُ بنُ الشيخ مُحْيي الدين بن عَرَبيٍّ ذكَره أبو شامةَ، وأثْنَىٰ عليه في فَضيلته وأدبِه وشعره، وذكَر ما يَدُلُّ علىٰ فَضيلته وأدبٍ وشعرٍ فيه قوةٌ.

وقد ذكَر أبو شامةَ وفاةَ الملك الناصر داودَ في هذه السنة، وقد قدمنا ترجمتَه في التي قبلُ.

سيفُ الدين بنُ صَبِرةَ مُتَولِّي شُرْطة دمشقَ، ذكَر أبو شامةَ أنه حينَ مات جاءت حيةٌ فنهَشَت أفْخاذَه، وقيل: إنها الْتَفَّت في أكْفانه، وأعْيَىٰ الناسَ دفعُها. قال: وقيل: إنه كان نُصَيْريًّا رافضيًّا خَبيثًا مُدْمِنَ خمرٍ. نَسْألُ اللَّهَ العافيةَ.

النَّجيبُ بنُ شُقَيْشقةَ الدِّمشقيُّ، أحدُ الشهودِ بها، له سَماعُ حَديثٍ، ووقَف دارَه بدَرْبِ البانياسيِّ دارَ حديثٍ، وهي التي كان يَسْكُنُها شيخُنا الحافظُ المِزِّيُّ قبلَ انْتقاله إلىٰ دار الحديث الأشْرَفية. قال أبو شامةَ: وكان ابنُ شُقَيْشقةَ، وهو النَّجيبُ أبو الفتح نصرُ اللَّه بنُ أبي العزِّ بنِ أبي طالبٍ الشَّيْبانيُّ، مَشْهورًا بالكذبِ ورقَّةِ الدينِ وغيرِ ذلك، وهو أحدُ الشهودِ المَقْدوحِ فيهم، ولم يَكُنْ بحالٍ أن يُؤْخَذَ عنه. قال: وقد أجْلَسه أحمدُ بنُ يحيىٰ بنِ هبةِ اللَّه المُلَقَّبُ بالصَّدْرِ بنِ سَنِيِّ الدولة في حالِ ولايته قضاءَ القُضاة بدمشقَ، فأنْشَد فيه بعضُ الشعراء:

جلَس الشُّقَيْشقةُ الشَّقيُّ ليَشْهَدا	بأبيكُما ماذا عدا فيما بدا
هل زُلْزِلَ الزِّلْزالُ أم قد أُخْرِجَ الدَّ	جالُ أم عُدِم الرجالُ ذَوُو الهُدَىٰ
عجبًا لمَحْلولِ العَقيدةِ جاهلٍ	بالشرعِ قد أذِنوا له أن يَعْقِدا

قال أبو شامةَ: في سنةِ سبعٍ وخمسين وستِّمائةٍ تُوفِّي شخصٌ زِنْديقٌ يَتَعاطَىٰ الفَلْسفةَ والنَّظرَ في علمِ

الأوائلِ، وكان يَسْكُنُ مَدارسَ فقهاءِ المسلمين، وقد أفْسَدَ عَقائدَ جَماعةٍ من الشبابِ المُشْتَغلين فيما بلَغَني، وكان يَتَجاهَرُ باسْتِنْقاصِ الأنبياءِ عليهم السلامُ، وهو يُعْرَفُ بابنِ الفَخْرِ بنِ البديعِ البندهيِّ، كان أبوه يَزْعُمُ أنه مِن جملةِ تَلامذةِ الفَخْرِ الرازيِّ ابنِ خَطيبِ الرَّيِّ صاحبِ المُصَنَّفات.

ثم دخلت سنةُ ثمانٍ وخمسين وستمائة

استَهَلَّت هذه السنةُ بيومِ الخميسِ وليس للناسِ خَليفةٌ، ومَلِكُ العِراقَيْن وخُراسانَ وغيرِ ذلك من بلادِ الشرقِ السلطانُ هولاكوقان مَلِكُ التَّتارِ ابنُ تُولِي بنِ جِنْكِزْخان، وسلطانُ ديارِ مصرَ الملكُ المُظَفَّرُ سيفُ الدينِ قُطُز مملوكُ المُعِزِّ أيْبَك التُّرْكُمانيِّ، وسلطانُ دمشقَ وحلَبَ الملكُ الناصرُ بنُ العزيزِ بنِ الظاهرِ غازي بنِ الناصرِ فاتحِ القدسِ، وبلادُ الكَرَكِ والشَّوْبَكِ للملكِ المُغيثِ بنِ العادلِ أبي بكرِ بنِ الكاملِ محمدِ بنِ العادلِ أبي بكرِ بنِ أيوبَ، وهو حِزْبٌ مع الناصرِ صاحبِ دمشقَ على المصريين، ومعهما الأميرُ رُكْنُ الدينِ بَيْبَرْسُ البُنْدُقْداريُّ، وقد عزَموا على قتالِ المصريين وأخْذِ البلدِ منهم.

أخذُ التتارِ حلبَ ودمشقَ

وبينما الناسُ على هذه الحالِ، وقد تَواتَرَت الأخبارُ بقَصْدِ التَّتارِ بلادَ الشامِ، إذ دخَل جيشُ المَغولِ صُحْبةَ ملكِهم هولاكو، وجازوا الفُراتَ على جُسورٍ عمِلوها، ووصَلوا إلى حَلَبَ في ثاني صفرٍ من هذه السنةِ، فحاصَروها سبعةَ أيامٍ، ثم افْتَتَحوها بالأمانِ، وغدَروا بهم، فقتَلوا من أهلِها خلقًا لا يَعْلَمُهم إلا اللَّهُ عز وجل، ونهَبوا الأموالَ وسبَوُا النساءَ والأطفالَ، وجرَى عليهم قريبٌ مما جرَى على أهلِ بغدادَ، فجاسوا خلالَ الديارِ، وجعَلوا أعزَّةَ أهلِها أذِلَّةً وكذلك يفعلون، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون. وامْتَنَعَت عليهم قلعتُها شهرًا، ثم تَسَلَّموها بالأمانِ، وخَرَّبَ أسوارَ البلدِ وأسْوارَ القلعةِ، وبقِيَت حلَبُ كأنها حمارٌ أجْرَبُ، وكان نائبَها الملكُ المُعَظَّمُ تُورانْشاه بنُ صلاحِ الدينِ، وكان عاقلاً حازمًا، لكنه لم يُوافِقْه الجيشُ على المصلحةِ ولكن سَرِعوا وكان أمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدورًا. وقد كان السلطانُ هولاكو أرسل إلى أهلِ البلدِ يقولُ لهم حين قدم بجحافله: نحن إنما جئنا لقتالِ الملكِ الناصرِ بدمشقَ، ونحن نُريدُ منكم أن تَجْعَلوا بالقلعةِ شِحْنةً، فإن كانت النُّصْرةُ لنا فالبلادُ كلُّها في حُكْمنا، وإن كانت علينا فإن شئتم قَتَلْتُم الشِّحْنةَ وإن شئتُم أطلَقْتُموه. فأجابوه: ما لك عندنا إلا السيفُ. فتعَجَّب من ضعفِهم وجوابِهم بهذا، فزحَف حينَئذٍ إليهم، وأحاط بالبلدِ، وكان ما كان بقضاءِ اللَّهِ وقدَرِه، ولما فُتِحَت حلبُ أرْسَلَ صاحبُ حَماةَ بمَفاتيحِها إليه، فاستَنابَ عليها رجلاً من العَجَمِ يَدَّعي أنه مِن ذُريةِ خالدِ بنِ الوليدِ يقالُ له: خُسْروشاه. فخرَّبَ أسْوارَها كما فُعِل بمدينةِ حلبَ.

صفة أخذهم لدمشق وزوال مُلكهم عنها سريعًا

أرْسَل هولاكو وهو نازلٌ على حلبَ جيشًا مع أميرٍ من كبارِ دولتِه يقالُ له: كَتْبُغَا نُوين. فوردُوا دمشقَ في آخرِ صفر، فأخذوها سريعًا من غيرِ مُمانَعةٍ ولا مُدافعةٍ، بل تَلَقَّاهم كبارُها بالرَّحْبِ والسَّعَة، وقد كتَب معهم السلطانُ هولاكو فرمانَ أمانٍ لأهلِ البلدِ، فقُرِئَ بالمَيْدانِ الأخضَرِ، ونُودِي به في البلدِ، فأمِن الناسُ على وَجَلٍ أن يَغدروا كما فُعِل بأهلِ حلَبَ، هذا والقلعةُ مُمْتَنعةٌ مَسْتورةٌ، وفي أعاليها المَجانيقُ مَنْصوبةٌ، والحالُ شديدةٌ، فأحْضَرَت التَّتارُ مجانيقَ تُحْمَلُ على عَجَلٍ والخيولُ تَجُرُّها، وهم راكبون على الخيلِ، وأسْلِحتُهم تُحْمَلُ على أبْقارٍ كثيرةٍ، فنُصب المَجانيقُ على القلعةِ من غربيِّها، وهدموا حيطانًا كثيرةً وأخَذوا حجارتَها ورمَوْا بها القلعةَ رَمْيًا مُتواترًا كالمطرِ المُتَدارك، فهدَموا كثيرًا من أعاليها وشُرُفاتِها، وتَداعَت للسقوطِ، فأجابَهم مُتَوَلِّيها في آخرِ ذلك النهارِ للمُصالَحة، ففتَحوها وخرَّبوا كلَّ بدنةٍ فيها، وأعاليَ بُروجِها، وذلك في المنتصف من جُمادَى الأولى من هذه السنةِ، وقتَلوا المُتَوَلِّيَ بها بدرَ الدينِ بنَ قراجا، ونَقيبَها جمالَ الدينِ بنَ الصَّيْرفيِّ الحَلَبيَّ، وسلَّموها إلى أميرٍ منهم يقالُ له: إيل سبان. وكان لعَنه اللَّهُ تعالى مُعَظِّمًا لدينِ النصارَى، فاجْتَمَع به أساقفتُهم وقُسوسُهم، فعظَّمهم جدًّا وزار كَنائسَهم، فصارت لهم دولةٌ وحَوْلةٌ وصَوْلةٌ بسببِه، لعَنهم اللَّهُ تعالى، وذهبَت طائفةٌ من النصارَى إلى هولاكو بهدايا وتُحَفٍ، وقدِموا من عندِه ومعهم أمانٌ؛ فَرَمانٌ من جهتِه، ودخَلوا البلدَ من بابِ تُوماءَ ومعهم صَليبٌ منصوبٌ يَحْملونه على رُءوسِ الناسِ، وهم يُنادُون بشعارِهم، ويقولون: ظهَر الدينُ الصحيحُ، دينُ المسيحِ. ويَذُمُّون دينَ الإسلامِ وأهلَه، ومعهم أَواني فيها خَمْرٌ لا يَمُرُّون على بابِ مسجدٍ إلا رشُّوا عندَه خَمْرًا، وقَماقمُ مَلآنةٌ خَمرًا يَرُشُّون منها على وُجوهِ الناسِ، ويَأْمُرُون كلَّ مَن يَجْتازون به في الأسواقِ والطرقاتِ أن يقومَ لصَليبِهم، ودخَلوا من دربِ الحجرِ، فوَقَفُوا عندَ رِباطِ الشيخِ أبي البيانِ، ورشُّوا هنالك خمرًا، وكذلك على بابِ مسجدَيْ دَرْبِ الحجرِ الصغيرِ والكبيرِ، واجْتازوا في السوقِ حتى وصَلوا إلى دربِ الرَّيْحانِ أو قريبٍ منه، فتَكاثَر عليهم المسلمون، فردُّوهم إلى سوقِ كَنيسةِ مَرْيَمَ، فوقَف خطيبُهم إلى دَكَّةِ دُكَّانٍ في عطفةِ السوقِ هنالك، فذكر في خطبتِه مدْحَ دينِ النصارَى، وذمَّ دينِ الإسلامِ وأهلِه، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون. ثم ولَجوا بعدَ ذلك إلى كنيسةِ مريمَ، وكانت بعدُ عامرةً، ولكن كان هذا سببَ خَرابِها، وللَّه الحمدُ.

وحكَى الشيخُ قطبُ الدينِ في «الذيلِ على المرآة» أنهم ضرَبوا بالناقوسِ بكنيسةِ مريمَ. فاللَّهُ أعلمُ.

قال: وذكَر أنهم دخَلوا إلى الجامعِ بخمرٍ، وكان من نيتِهم إن طالت مدةُ التَّتارِ أن يُخَرِّبوا كثيرًا من المساجدِ وغيرِها، فكفَى اللَّهُ شرَّهم. ولما وقَع هذا في البلدِ اجْتَمَع قُضاةُ المسلمين والشُّهودُ والفُقهاءُ،

فدخلوا القلعةَ يَشْكُون هذا الحالَ إلى مُتَسَلِّمِها إيل سبان، فأُهينوا وطُرِدوا وقُدِّم كلامُ رُؤساءِ النَّصارىٰ عليهم، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وقد كان في أول هذه السنة سلطانُ الشامِ الناصرُ بنُ العزيزِ، قد أقام في وَطْأَةِ بَرْزَةَ، ومعه خلقٌ كثيرٌ من الجيوشِ والأمراءِ وأبناءِ الملوكِ لِيُناجزوا التَّتارَ إن قدموا عليهم، وكان ممَّن معه الأميرُ بَيْبَرسُ البُنْدُقْداريُّ في جَماعةٍ مِن البَحْرية، والكلمةُ بينَ الجيوشِ مُخْتَلِفةٌ غيرُ مُؤْتَلِفةٍ، لما يُريدُه اللَّهُ عز وجل. وقد عزَمت طائفةٌ من الأمراءِ على خَلْعِ الملكِ الناصرِ وسَجْنِه ومُبايعةِ أخيه شقيقِه الملكِ الظاهرِ عليٍّ، فلمَّا تنسَّمَ الناصرُ ذلك هرَب إلى القلعةِ المنصورةِ وتفَرَّقَت العساكرُ شَذَرَ مَذَرَ، وساق الأميرُ رُكْنُ الدينِ بَيْبَرْسُ البُنْدُقْداريُّ في أصحابِه إلى ناحيةِ غَزَّةَ، فاسْتَدْعاه الملكُ المُظَفَّرُ قُطُز إليه، واسْتَقْدَمه عليه، وأقْطَعه قَلْيُوبَ، وأنْزَله بدارِ الوزارةِ، وعظَّم شأنَه لديه، وإنما كان حتفه على يديه.

وقعة عين جالوت

واتَّفَق وُقوعُ هذا كلِّه في العشْرِ الأخيرِ من رمضانَ من هذه السنة، فما مضَت إلا ثلاثةُ أيامٍ حتى جاءت البِشارةُ بِنُصْرةِ المسلمين على التَّتارِ بعَيْنِ جالوتَ وللَّه الحمدُ، وذلك أن الملكَ المُظَفَّرَ سيفَ الدينِ قُطُز صاحبَ الديارِ المصريةِ لما بلَغه أن التتارَ قد فعَلوا بالشامِ ما ذكَرْنا، وقد نهَبوا البلادَ كلَّها حتى وصَلوا إلى غَزَّةَ، وقد عزَموا على الدخولِ إلى الديارِ المصريةِ وقد عزَم الملكُ الناصرُ صاحبُ دمشقَ على الرحيلِ إلى مصرَ، وليتَه فعل. وكان في صُحْبتِه الملكُ المنصورُ صاحبُ حَماةَ، وخلقٌ من الأمراءِ وأبناءِ الملوكِ، وقد وصَل إلى قَطْيَةَ، وتهيَّأ الملكُ المظفَّرُ للقائه وأرسل إليه وإلى المنصورِ مستحثين، وأرسل إليه يقولُ: تقدَّمْ حتى نكونَ كَتِفًا واحدًا على التتارِ. فتخيَّل من ذلك وخاف أن ينتصرَ عليه، فكرَّ راجعًا إلى ناحيةِ تيهِ بني إسرائيلَ، ودخَل عامةُ مَن كان معه إلى الديارِ المصريةِ وأكْرَم المُظَفَّرُ الملكَ صاحبَ حماةَ، ووعَده ببلدِه، ووفَّى له بذلك، ولم يَدْخُلِ الناصرُ وليتَه فعل فإنه كان على كلِ حالٍ أيْسَرَ عليه مما صار إليه، ولكنه خاف منهم لعداوةِ ما بينه وبينهم، فعدَل إلى ناحيةِ الكَرَكِ، فتحَصَّن بها، وليتَه اسْتَمَرَّ فيها، ولكنه قلِق، فركِب نحوَ البَرِّيَّةِ - وليتَه ذهَب فيها - واسْتَجار ببعضِ أمراءِ الأعرابِ، فقصدَته التَّتارُ، وأتْلَفوا تلك الديارَ ونهَبوا ما هنالك من الأموالِ، وقتَلوا الكِبارَ والصغارَ، وهجَموا على الأعرابِ التي بتلك النَّواحي، فقتَلوا منهم خلقًا كثيرًا، وسَبَوْا من نسائِهم وأبنائِهم، وقد اقتص منهم العربُ بعدَ ذلك، فأغاروا على خيلِ جِشارِهم في نصفِ شعبانَ، فساقوها بأسْرِها، فساقَت وراءَهم التَّتارُ، فلم يُدْرِكوا منهم الغُبارَ، ولا اسْتَرَدُّوا منهم فرسًا ولا حمارًا، ومازال التَّتارُ وراءَ الناصرِ حتى أخَذوه وأسروه عندَ بِرْكةِ زَيْزاءَ، وأرْسَلوه مع ولدِه العزيزِ وهو صغيرٌ، وأخيه إلى ملكِهم هُولاكُو وهو نازلٌ على حلَب، فكانوا في أسْرِه حتى قتَلهم في السنةِ الآتيةِ، كما سنَذْكُرُه.

والمقصودُ أن المُظَفَّرَ لما بلَغه ما كان مِن أمرِ التَّتارِ بالشامِ المَحْروسةِ، وأنهم عازِمون علىٰ الدخولِ إلىٰ الديارِ المصريةِ بعدَ تمهيدِ مملكتِهم بالشامِ، بادَرهم هو قبلَ أن يُبادِروه، وبرَز إليهم، أيَّده اللَّهُ تعالىٰ، وأقْدَم عليهم قبلَ أن يُقْدِموا عليه، فخرَج بالعَساكرِ المصريةِ، وقد اجْتَمَعت الكلمةُ عليه، حتىٰ انْتَهَىٰ بمن معه مِن العساكرِ المنصورةِ إلىٰ الشامِ، واسْتَيْقَظ له عسكرُ المَغولِ، وعليهم كَتْبُغَا نُوين، وكان إذ ذاك في البِقاعِ، فاسْتَشار الأشْرفَ صاحبَ حِمْصَ والقاضيَ مجيرَ الدينِ بنَ الزَّكِيِّ في لقاءِ المظفرِ، فأشار بعضُهم بأنه لا قِبَلَ له بالمُظَفَّرِ حتىٰ يَسْتَمِدَّ هُولاكُو، فأبَىٰ إلا أن يُناجِزَه سريعًا، فصمَدوا إليه، فكان اجْتماعُهم علىٰ عَيْنِ جالوتَ يومَ الجمعةِ الخامسَ والعشرين مِن رمضانَ، فقْتَتلوا قِتالاً عظيمًا شديدًا، فكانت النُّصْرةُ، ولِلَّهِ الحمدُ، للإسلامِ وأهلِه، فهزَمهم المسلمون هزيمةً هائلةً، وقُتِل كَتْبُغا نُوينُ وجَماعةٌ مِن بنيه، وقد قيل: إن الذي قتَل كَتْبُغا نُوينَ الأميرُ جمالُ الدينِ آقُوش الشَّمْسِيُّ، واتَّبَعهم الجيشُ الإسْلاميُّ يُقَتِّلونهم في كلِّ موضعٍ وفي كلِّ مأزقٍ، وقد قاتَل الملكُ المنصورُ صاحبُ حَماةَ مع الملكِ المُظَفَّرِ في هذه الوقعةِ قتالاً عظيمًا، وكذلك الأميرُ فارسُ الدينِ أَقْطاي المُسْتَعْرِبُ، وكان أتابَكَ العَسْكَرِ، وقد أُسِرَ مِن جماعةِ كَتْبُغَا نَوين الملكُ السعيدُ بنُ العزيزِ بنِ العادلِ، فأمَرَ المُظَفَّرُ بضربِ عنقِه، واسْتَأْمَن الأشرفُ صاحبُ حمصَ وكان مع التَّتارِ، وقد جعَله هُولاكو نائبًا علىٰ الشامِ كلّه، فأمَّنه الملكُ المُظَفَّرُ، وردَّ إليه حمصَ، وكذلك ردَّ حَماةَ إلىٰ المنصورِ، وزادَه المَعَرَّةَ وغيرَها، وأطْلَق سَلَمْيَةَ للأميرِ شرفِ الدينِ عيسىٰ بنِ مُهَنَّا بنِ مانعٍ أميرِ العربِ، واتَّبَع الأميرُ ركنُ الدينِ بَيْبَرْسُ البُنْدُقْدارِيُّ وجماعةٌ مِن الشُّجْعانِ التَّتارَ يُقَتِّلونهم في كلِّ مكانٍ، إلىٰ أن وصَلوا خلفَهم إلىٰ حلَبَ، وهرَب مَن بدمشقَ منهم، وكان هربُهم منها يومَ الأحدِ السابعَ والعشرين مِن رمضانَ صبيحةَ النصرِ الذي جاءت فيه البِشارةُ بالنصرةِ علىٰ عينِ جالوتَ، فتبِعهم المسلمون مِن دمشقَ يُقَتِّلون ويأسِرون ويَنهَبُون الأموالَ فيهم، ويَسْتفِكُّون الأُسارَىٰ مِن أيديهم قَهْرًا ولِلَّهِ الحمدُ والمنُّ علىٰ جبرِه الإسلامَ، ومعاملتِه إيَّاهم بلُطْفِه الحسنِ. وجاءت بذلك البِشارةُ السارةُ، فجاوَبَتها البَشائرُ مِن القلعةِ المنصورةِ وفرِح المؤمنون يومئذٍ بنصرِ اللَّهِ فرحًا شديدًا، وأيَّد اللَّهُ الإسلامَ وأهلَه تأْييدًا، وكُبِت أعداءُ اللَّهِ النَّصارَىٰ واليهودُ والمُنافِقون، وظهَر دينُ اللَّهِ وهم كارِهون، ونصَر اللَّهُ دينَه ونبيَّه ولو كره الكافرون، فتَبادَر عندَ ذلك المسلمون إلىٰ كنيسةِ النَّصارَىٰ التي خرَج منها الصَّليبُ، فانْتَهَبوا ما فيها، وأحْرَقوها وألْقَوُا النارَ فيما حولَها، فاحْتَرَقَت دُورٌ كثيرةٌ للنَّصارَىٰ، ومَلأ اللَّهُ بيوتَهم وقبورَهم نارًا، وأُحْرِق بعضُ كَنيسةِ اليَعاقبةِ، وهمَّت طائفةٌ بنهبِ اليهودِ، فقيل لهم: إنهم لم يكُنْ منهم فيما ظهَر مِن الطُّغْيانِ كما كان مِن عَبَدةِ الصُّلْبانِ. وقتَلَت العامَّةُ في وسطِ الجامعِ شيخًا رافضيًّا كان مُصانِعًا للتَّتارِ علىٰ أموالِ الناسِ يقالُ له: الفخرُ محمدُ بنُ يوسفَ الكَنْجِيُّ. كان خَبيثَ الطَّوِيَّةِ مَشْرِقيًّا مُمالِئًا

لهم على أموال المسلمين، قبَّحه اللَّهُ تعالى، وقتلوا جماعةً مثلَه من المُنافقين الممالئين على المسلمين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وقد كان السلطانُ هُولاكُو أرْسَل تَقْليدًا بولاية القَضاء على جميع المَدائن، الشام، والجزيرة، والموصل، وماردينَ، ومَيّافارقينَ، والأكراد وغير ذلك، للقاضي كمال الدين عمرَ بنِ بُندارٍ التَّفْليسيِّ. وقد كان نائبَ الحكم بدمشقَ عن القاضي صدْر الدين أحمدَ بنِ يحيى بنِ هبة اللَّه بنِ سَنيِّ الدولة من مدة خمسَ عشرةَ سنةً، فحينَ وصَل التَّقْليدُ في سادسِ وعشرين ربيع الأول قُرِئَ بالمَيْدان الأخْضَر، فاستَقلَّ بالحكم في دمشقَ، وكان من الفضلاء، فسار القاضيان المَعْزُولان صدرُ الدين ابنُ سَنِيِّ الدولة ومُحْيِي الدين ابنُ الزَّكيِّ إلى خدمة السلطان هُولاكو إلى البلاد الحلبية، فخدَع ابنُ الزكيِّ لابن سَنِيِّ الدولة، وبذَل أموالاً كثيرةً، وتولَّى القضاءَ بدمشقَ ورجَعا، فمات ابنُ سَنِيِّ الدولة ببَعْلَبَكَّ، وقدم ابنُ الزَّكيِّ على القَضاء، ومعه تَقْليدُه وخِلْعةٌ مُذَهَّبةٌ، فلبسها وجلَس في خدمة إيل سبان تحتَ قُبَّة النَّسْر عندَ الباب الكبير، وبينَهما الخاتونُ زوجةُ إيل سبان حاسرةً عن وجهها، وقُرِئَ التَّقْليدُ هنالك والحالُ كذلك، وحينَ ذُكر اسمُ هولاكو، لعَنه اللَّهُ تعالى، نُثِر الذهبُ والفضةُ فوقَ رءوسِ الناسِ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، قبَّح اللَّهُ ذلك القاضيَ والأميرَ والزوجةَ والسلطانَ.

وذكَر أبو شامةَ أيضًا أنه استَحْوَذ على مدارسَ كثيرةٍ في مدته هذه القصيرة، فإنه عُزِل قبلَ رأسِ الحَوْل، فأخَذ العَذْراويةَ والسُّلْطانيةَ والفَلَكيةَ والرُّكْنيةَ والقَيْمُريَّةَ والعَزيزيةَ مع المدرستَيْن اللتين كانتا بيده؛ التَّقَوية والعَزيزية، وأخَذ لولده عيسى تَدْريسَ الأمينية ومَشْيَخةَ الشُّيوخ، وأخَذ أمَّ الصالح لبعضِ أصحابِه، وهو العمادُ المِصْريُّ، وكذا أخَذ الشاميةَ البَرَّانيةَ لصاحبٍ له، واستَناب أخاه لأمِّه شهابَ الدين إسماعيلَ بنَ أسْعَدَ بن حُبَيْشٍ في القَضاء، وولَّاه الرواحيةَ والشاميةَ البَرَّانيةَ. قال أبو شامةَ: مع أن شَرْطَ واقفِها أن لا يُجْمَعَ بينَها وبينَ غيرِها.

ولما رَجَعَت المملكةُ إلى المسلمين سعَى القاضي محيي الدين وبذَل أموالاً جزيلةً ليستمرَّ في القضاء والمدارس التي استولى عليها في مدة هذه الشهور، فلم يَسْتَمِرَّ بل عُزِل بالقاضي نَجْم الدين أبي بكر ابنِ صَدْر الدين ابنِ سَنِيِّ الدولة، فقُرِئَ تَوْقيعُه بالقَضاء يومَ الجمعة بعدَ الصلاة في الحادي والعشرين من ذي القَعْدة بالشُّبَّاك الكَماليِّ من مَشْهَد عثمانَ من جامع دمشقَ. وللَّه الحمدُ.

ولما كسَر الملكُ المُظَفَّرُ قُطُز عساكرَ التَّتار بعَيْن جالوتَ ساق وراءَهم، ودخَل دمشقَ في أُبَّهةٍ عظيمة، وفرِح الناس به فرَحًا شديدًا، ودعَوا له دُعاءً كثيرًا، وأقَرَّ صاحبَ حمصَ الملكَ الأشْرفَ على بلده، وكذلك المنصورَ صاحبَ حَماةَ، واسْتَرَدَّ حلَبَ أيضًا من أيدي التتار، وعاد الحقُّ إلى نصابه، ومهَّد القَواعدَ، وكان قد أرْسَل بينَ يديه الأميرَ رُكْنَ الدين بَيْبَرْسَ البُنْدُقْداريَّ ليَطْرُدَ التَّتارَ

ويتسلمَ مدينةَ حلَبَ، ووعَده بنيابتِها، فلما طرَدهم عنها، وأخرَجهم منها، وتسلَّمها المسلمون استَنابَ عليها غيرَه، وهو علاءُ الدينِ بنُ صاحبِ الموصلِ، وكان ذلك سببَ الوَحْشةِ التي وقَعَت بينَهما، واقْتَضَت قتلَ الملكِ المُظَفَّرِ قُطُز سريعًا، ولِلَّهِ الأمرُ.

وعزَم المُظَفَّرُ على الذهابِ إلى الديارِ المصريةِ فاستَنابَ على دمشقَ الأميرَ عَلَمَ الدينِ سَنْجَرَ الحلبيَّ الكبيرَ والأميرَ مُجيرَ الدينِ بنَ الحسينِ، وعزَل ابنَ الزَّكيِّ عن قَضاءِ دمشقَ، وولَّى عليها نجمَ الدينِ ابنَ سَنِيِّ الدولةِ، ثم عاد إلى الديارِ المصريةِ، والعَساكرُ الإسلاميةُ في خدمتِه، وعُيونُ الأعْيانِ تَنْظُرُ إليه شَزْرًا من شدةِ هَيْبتِه.

ذكرُ سَلْطنةِ الملكِ الظاهرِ وهو الأسدُ الضاري بِيْبَرْسُ البُنْدُقْداريُّ

وذلك أن السلطانَ الملكَ المُظَفَّرَ قُطُز لما عاد بالعساكرِ قاصدًا الديارَ المصريةَ، فوصل إلى ما بينَ الغُرابيِّ والصَّالحيةِ، عدا عليه الأمراءُ، فقتَلوه هنالك، وقد كان رجلًا صالحًا، كثيرَ الصلاةِ في الجماعةِ، ولا يَتَعاطَى الشرابَ ولا شيئًا مما يَتعاطاه الملوكُ، وكانت مدةُ ملكِه مِن حينَ عزَل ابنَ أُستاذِه المنصورَ عليَّ بنَ المُعزِّ التُّرْكُمانيَّ إلى هذه المدةِ، وهي أواخرُ ذي القَعْدةِ نحوًا من سنةٍ، رحمه اللَّهُ، وجزاه عن الإسلامِ وأهلِه خيرًا. وكان الأميرُ رُكْنُ الدينِ بِيْبَرْسُ البُنْدُقْداريُّ قد اتَّفَق مع جَماعةٍ من الأُمراءِ على قتلِه، فلما وصَل إلى هذه المنزلةِ ضرَب دِهْليزَه، وساق خلفَ أرنبٍ، وساق معه أولئك الأُمراءُ، فشفَع عندَه رُكْنُ الدينِ بِيْبَرْسُ في شيءٍ فشفَّعه، فأخَذ يدَه ليُقَبِّلَها فأمْسَكها، وحمَل عليه أولئك الأُمراءُ فضربوه بالسُّيوفِ، وألْقَوه عن فرسِه، ورشَقُوه بالنُّشَّابِ حتى أجْهَزوا عليه، ثم كرُّوا راجعين إلى المُخَيَّمِ، وبأيديهم السيوفُ مُصْلَتَةً، فأخْبَروا مَن هناك بالخبرِ، فقال بعضُهم: مَن قتلَه؟ فقال رُكْنُ الدينِ: أنا. فقيل له: أنت الملكُ. وقيل: لما قُتِل حار الأُمراءُ بينَهم فيمَن يُوَلُّون المُلْكَ، وصار كلُّ واحدٍ منهم يَخْشَى غائلةَ ذلك، وأن يُصيبَه ما أصاب غيرَه سريعًا، فاتَّفَقَت كلمتُهم على أن بايَعوا الأميرَ ركنَ الدينِ بِيْبَرْسَ البُنْدُقْداريَّ، ولم يَكُنْ من أكابرِ المُقَدَّمين فيهم، ولكن أرادوا أن يُجَرِّبوا فيه، ولقَّبوه الملكَ الظاهرَ، فجلَس على سَريرِ المَمْلكةِ وحكَمه، ودقَّت البَشائرُ، وضُرِبَت الطُّبولُ والبُوقاتُ، وصفَّرَت الشَّبَّابةُ، وزعَقَت الشاوُوشيةُ بينَ يديه، وكان يومًا مشهودًا، وتوكَّل على اللَّهِ واسْتَعان به، ثم دخَل مصرَ والعساكرُ في خدمتِه، فدخَل قلعةَ الجبلِ، وجلَس على كرسيِّها، وحكَم فعدَل، وقطَع ووصَل، وكان شهْمًا شُجاعًا، أقامه اللَّهُ للناسِ لشدةِ احْتياجِهم إليه في هذا الوقتِ الشديدِ والأمرِ العَسيرِ، وكان أولًا قد لقَّب نفسَه بالملكِ القاهرِ، فقال له الوزيرُ: إن هذا اللقبَ لم يُفْلِحْ مَن تَلَقَّبَ به؛ تلَقَّب به القاهرُ بنُ المعتضدِ فلم تَطُلْ أيامُه حتى خُلع وسُمِل، ولُقِّب

به القاهرُ صاحبُ الموصلِ، فسُمَّ فمات. فعدَل عن هذا اللَّقبِ إلى الملك الظاهر، ثم شرَع في مَسْكِ مَن يَرَىٰ في نفسه رئاسةً من أكابرِ الأمراء حتى مهَّد المُلْكَ كما يريدُ، واللَّهُ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ. وقد كان السلطانُ هُولاكُوقان لما بلَغه ما جرىٰ على جيشِه بعَيْنِ جالوتَ أرْسَل جماعةً كثيرةً من جيشِه إلى بلادِ الشامِ ليَسْتَعِيدوه من أيدي جيشِ الإسلامِ، فحيل بينَهم وبينَ ما يَشْتَهون، ورجَعوا وهم خائبون خاسرون، وذلك أنه نهَض إليهم الهِزَبْرُ الكاسرُ والسيفُ الباترُ السلطانُ الملكُ المؤيَّدُ الظاهرُ، فقدِم إلى دمشقَ، وأرْسَل الجيوشَ من كلِّ جانبٍ؛ لحفظ الثُّغورِ والمَعاقلِ بالأسلحة التامَّة والجَحافلِ، فلم يَقْدِرِ التَّتارُ على الدُّنُوِّ إليه، ولا القدومِ عليه، ووجَدوا الدولةَ قد تغيَّرَت، والسَّواعدَ قد شُمِّرَت، والسيوفَ البواترَ قد سُلَّت، والرماحَ الخَطِّيَّةَ قد اعتُقلت، والقِسِيَّ قد وُتِّرَت، والنبالَ قد حُصِّلَت، والخيولَ قد ضُمِّرت، والطبولَ قد حُصِّلت، وعنايةَ اللَّه بأهلِ الشامِ قد تنزَّلَت، ورحمتَه بهم قد تَدارَكت، فعندَ ذلك نكَصَت شَياطينُهم على أعْقابِها، وكرَّت راجعةَ القَهْقَرىٰ على أذنابِها، والحمدُ للَّه الذي بنعمته تَتِمُّ الصالحاتُ، وتكمُلُ المَسَرَّاتُ، في هذه الحياة الدنيا وبعدَ المماتِ.

وقد كان الملكُ المُظَفَّرُ قُطُز، رحمه اللَّهُ استَناب على دمشقَ الأميرَ عَلَمَ الدينِ سَنْجَرَ الحَلَبيَّ أحدَ الأتراكِ، فلما بَلَغَه مَقْتَلُ المُظَفَّرِ دخَل القلعةَ، ودعا لنفسه وتسَمَّى بالملك المُجاهدِ، فلما جاءَت البَيْعةُ للملك الظاهرِ خطَب له يومَ الجمعة السادسَ من ذي الحِجَّة، فدعا الخطيبُ أولاً للمُجاهدِ، ثم للظاهرِ ثانيًا، وضُرِبَت السِّكَّةُ باسمهما معًا، ثم ارتَفَع المُجاهدُ هذا من البينِ، كما سيأتي.

وقد اتَّفَق في هذا العام أُمورٌ عجيبةٌ، وهي أن أولَ هذه السنة كانت الشامُ للسلطانِ الناصرِ بنِ العزيزِ، ثم في المُنْتَصَف من صفرٍ صارت لهولاكوقان ملكِ التتارِ، ثم في آخرِ رمضانَ صارت للمُظَفَّرِ قُطُز، ثم في أواخرِ ذي القَعْدة انتقَلت إلى مملكة السلطانِ الظاهرِ بَيْبَرْسَ، وقد شرِكه في دمشقَ الملكُ المُجاهدُ علمُ الدينِ سَنْجَرُ، كما ذكرنا، وكذلك كان القَضاءُ في أولها بالشام لصَدْرِ الدينِ ابنِ سَنِيِّ الدولةِ، ثم للكَمالِ عمرَ التَّفْليسيِّ، ثم لمُحْيِي الدينِ ابنِ الزَّكيِّ، ثم لنَجْمِ الدينِ ابنِ سَنِيِّ الدولة. وكذلك كان خطيبَ جامعِ دمشقَ عمادُ الدينِ ابنُ الحَرَسْتانيِّ من سنينَ مُتَطاولةٍ، فعُزِل في شوالٍ من هذه السنةِ بالعمادِ الإسْعَرْديِّ، وكان صيِّتًا قارئًا مُجيدًا، ثم أُعيد العمادُ الحَرَسْتانيُّ في أولِ ذي القَعْدة منها. فسبحانَ مَن بيده الأمورُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ ويَحْكُمُ ما يُريدُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

قاضي القُضاة صَدْرُ الدين ابنُ سَنِيِّ الدولة أحمدُ بنُ يحيى بن هبة اللَّه بن الحسن بن يحيى بن محمد ابن عليِّ بن يحيى بن صَدَقَةَ بن الخَيَّاط، قاضي القُضاة صَدْرُ الدين أبو العباسِ ابنُ سَنِيِّ الدولة التَّغْلبيُّ الدمشقيُّ الشافعيُّ، وسَنِيُّ الدولةِ هو الحسنُ بنُ يحيى المذكورُ كان كاتبًا لبعضِ مُلوكِ دمشقَ في

حدود الخمسمائة، وله أوقافٌ على ذرِّيَّته. وابنُ الخيَّاط الشاعرُ صاحبُ الديوان، هو أبو عبد الله أحمدُ بنُ محمد بن عليِّ بن يحيى بن صَدَقَة التَّغلبيُّ، عمُّ سَنِي الدولة.

وُلِد القاضي صَدْرُ الدِّين سنةَ تسع وثمانينَ وخمسمائة، وسمع الخُشُوعيَّ وابنَ طَبَرْزَد والكِنْديَّ وغيرَهم، وحدَّث ودرَّس في عدة مَدارسَ وأفتى، وكان فاضلاً عارفًا بالمَذهب، مَشكورَ السِّيرة، ولكن الشيخُ شهابُ الدين أبو شامة يَنالُ منه. فاللَّهُ أعلمُ.

وقد ولي الحكمَ بدمشقَ استقلالاً سنةَ ثلاث وأربعين، واستَمَرَّ إلى هذه السنة، فسار حينَ عُزِل بالكَمال التَّفْليسيِّ هو والقاضي مُحيي الدين بنُ الزَّكيِّ إلى هولاكو، ثم عاد من عنده وقد تولَّى ابنُ الزَّكيِّ القَضاءَ، فاجتاز ابنُ سَنِيِّ الدولة ببَعْلَبَكَّ وهو مُتَمَرِّضٌ، فمات بها، ودُفن عندَ الشيخ عبد الله اليُونينيِّ، رحمه اللهُ تعالى، وقد كان الملكُ الناصرُ يُثني عليه كما كان الملكُ الأشرفُ يُثني على والده قاضي القُضاة شمس الدين بن سَنِيِّ الدولة. ولما استَقَرَّ أمرُ السُّلطان الملك الظاهر بَيْبَرْسَ ولَّى ولدَه القاضيَ نَجْمَ الدين أبا بكر بنَ قاضي القُضاة صدر الدين القضاءَ بدمشقَ، وعزَل ابنَ الزَّكيِّ، ثم عزَله بعدَ سنة، وثنَّى بابن خَلِّكانَ على ما سيأتي بيانُه، وباللَّه المستعانُ. والقاضي صدرُ الدين ابنُ سَنِيِّ الدولة هذا هو الذي أحدَث في زمن المِشْمِش بَطالةَ الدُّروس؛ لأنه كان له بُستانٌ بأرض السهم، فكان يَشُقُّ عليه النُّزولُ في ذلك الوقت إلى الدَّرْس، فبطَّل للناس هذه الأيامَ، فاتَّبَعوه في ذلك.

وفيها تُوُفِّي صاحبُ ماردينَ الملكُ السعيدُ نَجْمُ الدين إيلْ غازي بنُ المنصور أَرْتُق أرسَلان بن إيلْ غازي بن أَلْبي بن تمرْتاش بن إيلْ غازي ابن أرتُق، وكان شُجاعًا معظَّمًا، ملَك يومًا في قلعته.

تُوران شاه بنُ الملك صلاح الدين يوسفَ بن أيوبَ، كان نائبًا للملك النَّاصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر على حَلَبَ حتى تَمَلَّكَ دمشقَ، وقد حصَّن حلبَ من أيدي المَغول مدةَ شهر، ثم سَلَّمها بعد مُحاصَرة شديدة صُلْحًا. ثم كانت وفاتُه في هذه السنة ودُفن بدهْليز داره.

وفيها قُتل الملكُ السعيدُ حسنُ بنُ العزيز عثمانَ بن الملك العادل أبي بكر بن أيوبَ، كان صاحبَ الصُّبَيْبة وبانياسَ بعدَ أبيه، ثم أُخذَتا منه، وحُبس بقلعة البِيرَة، فلما جاءت التَّتارُ كان معهم، وردُّوا عليه بلادَه، فلما كانت وَقْعةُ عين جالوتَ أُتي به أسيرًا بينَ يَدَي المَلِك المُظفَّر قُطُز، فضرَب عنقَه؛ لأنه كان قد لبِس سراقوجَ التَّتار، وناصَحهم.

عبدُ الرحمن بنُ عبد الرَّحيم بن عبد الرحمن بن الحسن بن عبد الرحمن بن طاهر بن محمد بن الحسين بن عليٍّ، أبو طالب شَرَفُ الدين بنُ العَجَميِّ الحَلَبيُّ الشافعيُّ، من بيت العلم والرِّياسة بحَلَبَ، درَّس بالظاهرية، ووقَف مدرسةً بها، ودُفن بها، وكانت وفاتُه حينَ دخلَت التَّتارُ حلبَ في صفر، فعذَّبوه بأن صبُّوا عليه ماءً باردًا في الشتاء، فتشنَّج حتى مات، رحمه اللَّهُ تعالى.

الملكُ المُظفَّرُ قُطُز بنُ عبد اللَّه سيفُ الدين التُّركيُّ، أخصُّ مماليك الملك المُعزِّ عزِّ الدين أيبكَ التُّركُمانيِّ، أحدُ مماليك الصالح أيوبَ، ثم إنه لما قُتِل أُستاذُه المُعزُّ قام في تولية ابنِ أستاذه المنصورِ نورِ الدِّين عليٍّ، فلما سمع بأمرِ التَّتارِ خاف أن تَختلفَ الكلمةُ بسبب صغرِ ابنِ أُستاذه، فعزَله ودعا إلى نفسه، فبُويع في ذي القَعْدة سنةَ سبع وخمسين وستِّمائة كما تقدَّم، ثم سار إلى التَّتارِ، فجعَل اللَّهُ على يديه نُصرةُ الإسلامِ كما ذكَرْنا بعيْنِ جالوتَ، وقد كان شُجاعًا بطلاً، كثيرَ الخيرِ، مُمالئًا للإسلامِ وأهله، وهم يُحبُّونه.

ذُكِر عنه أنه لمَّا كان بالمعركة يومَ عين جالوتَ قُتِل جَوادُه، ولم يَجِدْ أحدًا في الساعة الراهنة من الوشاقيَّة الذين معهم الجنائبُ، فترَجَّل وبقِي واقفًا كذلك على الأرض ثابتًا في محَلِّ المعركة وموضع السَّلْطنة من القلب، فلما رآه بعضُ الأمراء ترَجَّل عن فرسه، وحلَف على السلطان ليَرْكَبَ، فامْتَنَع السلطانُ وقال: ما كنتُ لأحْرِمَ المسلمين نفعَك. ولم يَزَلْ كذلك حتى جاءت الوشاقيةُ فركب، فلامَه بعضُ الأمراء وقال: يا خُونْدُ، لمَ لا ركِبْتَ فرسَ فلانٍ؟ فلو كان رآك بعضُ الأعداء لَقَتَلَك وهلَك الإسلامُ بسببك. فقال: أما أنا فكنتُ أَرُوحُ إلى الجنة، وأما الإسلامُ فله ربٌّ لا يُضيِّعُه، قد قُتِل فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ - وعدَّد خلقًا من الملوك - فلم يُضيِّعِ اللَّهُ الإسلامَ.

وكان حينَ ساق من الديارِ المصرية في خدمته خلقٌ من كبارِ الأمراء البَحْرية وغيرِهم، ومعه المنصورُ صاحبُ حَماةَ وجماعةٌ من أبناء الملوك، فأرْسَلَ إلى صاحب حَماةَ يقولُ له: لا تتعنَّ بمَدِّ سِماطٍ في هذه الأيام، ولْيَكُنْ مع الجنديِّ لَحمةٌ في سَوْلَقِه يأكُلُها، والعَجَلَ العَجَلَ. وكان اجتماعُه بعدوِّه كما ذكَرْنا في العشْرِ الأخيرِ من رمضانَ يومَ الجمعة، وهذه بِشارةٌ عظيمةٌ، فإن وقعةَ بدرٍ كانت يومَ الجمعة في شهرِ رمضانَ، ولهذا نصرَ اللَّهُ الإسلامَ نصرًا عزيزًا، ولما قدم دمشقَ في شوالٍ أقام بها العَدْلَ، ورتَّب الأمورَ كما ذكَرنا، وأرْسَلَ الأميرَ رُكنَ الدين بَيْبَرْسَ البُنْدُقْداريَّ خلفَ التتارِ ليُخْرِجَهم ويَطْرُدَهم عن حلبَ، ووعَده بنيابتها، فلم يَفِ له، فوقَعَت الوَحْشَةُ بينَهما بسبب ذلك، فلما عاد المُظفَّرُ قُطُز إلى مصرَ تَمالأ عليه البُنْدُقْداريُّ وغيرُه من الأمراء فقتَلوه بينَ الغُرابيِّ والصالحيَّة، ودُفِن بالقَصْرِ، وكان قبرُه يُزارُ، فلمَّا تمكَّن الظاهرُ من المُلْك بعَث إلى قبره فغيَّبَه عن الناسِ، فكان لا يُعْرَفُ بعدَ ذلك، وكان مَقْتَلُه يومَ السبتِ سادسَ عشَرَ من ذي القَعْدة، رحمه اللَّهُ تعالى.

وحكَى الشيخُ قُطْبُ الدين اليُونينيُّ في «الذَّيلِ على المِرْآة» عن الشيخ عَلاء الدين بنِ غانمٍ، عن المَوْلَى تاج الدين أحمدَ بنِ الأثيرِ كاتبِ السرِّ في أيام الناصرِ صاحبِ دمشقَ، قال: لما كانا مع السلطان الناصرِ بوطَأةِ بَرْزَةَ جاءت البَريديةُ يُخبرون بأنَّ المُظفَّرَ قُطُز قد تولَّى السَّلْطنةَ بالدِّيارِ المصرية، فقرأتُ ذلك على السلطانِ، فقال: اذْهَبْ إلى فلانٍ وفلانٍ فأخْبِرْهم بهذا. قال: فلما خرَجْتُ من عنده لقِيَني

بعضُ الأجْناد فقال لي: جاءكم الخبرُ من الديار المصرية بأن قُطُز قد تملَّك؟ فقلتُ: ما عندي من هذا علمٌ، وما يُدْريك أنت بهذا؟ فقال: بلى واللَّه إنه سيَلِي المَمْلكةَ، ويَكْسِرُ التتارَ، فقلتُ: من أين تَعْلَمُ هذا؟ فقال: كنتُ أخْدُمُه وهو صغيرٌ، وكان عليه قَمْلٌ كثيرٌ، فكنتُ أَفْليه وأُهينُه، فقال لي يومًا: ويلَك، أَيْش تُريدُ أن أُعطيَك إذا مَلَكْتُ الديارَ المصريةَ؟ فقلتُ له: أنت مجنونٌ؟! فقال: لقد رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ في المَنام، وقال لي: أنت تَمْلِكُ الديارَ المصريةَ، وتَكْسِرُ التَّتارَ. وقولُ رسولِ اللَّهِ ﷺ حقٌّ لا شكَّ فيه. فقلتُ له حينئذٍ - وكان صادقًا - أُريدُ منك إمْرَةَ خمسين فارسًا. فقال: نعم. قال ابنُ الأثير: فلما قال لي هذا قلتُ: هذه كتبُ المصْريين بأنه قد تولَّى السَّلْطنةَ. فقال: واللَّه لَيَكْسِرَنَّ التَّتارَ. فكان كذلك كما قال. ولما رجَع الناصرُ إلى ناحيةِ الديارِ المصرية، وأراد دُخولَها، ورجَع عنها ودخَلها أكثرُ الجيوشِ الشامية كان هذا الأميرُ الحاكي في جملةِ مَن دخَلها، فأعطاه المُظَفَّرُ إمْرَةَ خمسين فارسًا، ووفَى له بالوعد، وهو الأميرُ حسامُ الدينِ البَرَكَةْ خانيُّ. قال ابنُ الأثير: فلقِيَني بالدِّيارِ المصريةِ بعدَ أن تأمَّر، فذكَّرَني بما كان أخبَرَني عن المُظَفَّرِ، فذكَرْتُه، ثم كانت وقعةُ التتارِ على إثْرِ ذلك، وللَّه الحمدُ والمنَّةُ.

وفيها: هلَك كَتْبُغا نُوين نائبُ هولاكو على بلادِ الشام، لعَنهما اللَّهُ، ومعنى نُوين يَعْني أميرَ عشَرةِ آلاف، وكان هذا الخَبيثُ قد فتَح لأُستاذه هولاوو من أقصَى بلادِ العَجَم إلى الشام، وقد أدرَك جِنْكِزْخان جدَّ هولاوو، وقد كان كَتْبُغا هذا يَعْتَمِدُ في حُروبه للمسلمين ببلاد خراسان والعراق أشياءَ لم يَسْبِقْه إليها أحدٌ، كان إذا فتَح بلدًا ساق المُقاتلةَ منه إلى البلدِ الذي يَليه، ويَطْلُبُ من أهلِ البلد أن يُؤْووا هؤلاءِ إليهم، فإن فعَلوا حصَل مَقْصودُه في تَضْييقِ الأطْعمة والأشْربة عليهم، فتَقْصُرُ مُدَّةُ الحِصارِ عليه، وإن امْتَنعوا من إيوائهم عندَهم قاتَلهم بهؤلاء حتى يَفْنَى هؤلاء، فإن حصَل الفتحُ وإلا كان قد أضعَف أولئك بهؤلاء ثم استأنَف قتالَهم بمَن عندَه حتى يَفْتَحه. وكان يَبْعَثُ إلى الحصنِ يقولُ لهم: إن ماءَكم قد قلَّ، فافْتَحوا صُلحًا قبلَ أن نأخُذَكم قَسْرًا. فيقولون: إن الماءَ عندَنا كثيرٌ فلا نَحْتاجُ إلى ماءٍ. فيقولُ: لا أُصَدِّقُ حتى أبعَثَ من عندي مَن يُشْرِفُ عليه، فإن كان كثيرًا انْصَرَفْتُ عنكم. فيقولون: ابْعَثْ مَن يُشْرِفُ على ذلك. فيُرْسِلُ رجالًا من جيشِه، معهم رماحٌ مجَوَّفةٌ مَحْشُوَّةٌ سُمًّا. فإذا دخَلوا ساطوا ذلك الماءَ بتلك الرماحِ، فيَنْفَتِحُ ذلك السُّمُّ ويَسْتَقِرُّ في الماءِ، فيكُونُ سببَ هَلاكِهم وهم لا يَشْعُرون، لعَنه اللَّهُ لَعْنَةً تَدْخُلُ معه في قبرِه. وكان شيخًا كبيرًا قد أسَنَّ، وكان يَميلُ إلى دينِ النصارى، ولكن لا يُمْكِنُه الخروجُ عن حكمِ جِنْكِزْخان في الياساق.

قال الشيخُ قُطْبُ الدينِ اليُونينيُّ: وقد رأيتُه ببعلَبَكَّ حينَ حاصَر قلعتَها، وكان شيخًا حسَنًا، له لحيةٌ طويلةٌ مُسْتَرْسِلةٌ رقيقةٌ قد ضفَرها مثلَ الدَّبُّوقةِ، وتارةً يُعلِّقُها في حلقةٍ بأُذُنه، وكان مَهيبًا، شديدَ

السَّطْوة. قال: وقد دخَل الجامعَ، فصعِد المَنارةَ ليَتَأَمَّلَ القلعةَ منها، ثم خرَج من الباب الغربيِّ، فدخَل دُكَّانًا خَرابًا، فقضَى حاجتَه والناسُ يَنظُرون إليه، وهو مَكْشوفُ العَوْرة، فلما فرَغ مسَحه بعضُ أصحابِه بقطنٍ مُلَبَّدٍ مَسْحةً واحدةً.

قال: ولما بلَغه خروجُ المُظفَّرِ إليه بالعساكرِ المصرية تلَوَّم في أمرِه، ثم حمَلَته نفسُه الأبيَّةُ على لقائهم، وظنَّ أنه يَنْتَصِرُ كما كانت عادتُه، فحمَل يومَئذٍ على المَيْسَرة فكسَرها، ثم أيَّد اللَّهُ المسلمين وثبَّتهم، فحمَلوا حملةً صادقةً على التَّتارِ، فهزَموهم هزيمةً لا تُجْبَرُ أبدًا، وقُتِل كَتْبُغا نُوين في المعركة، وأُسِر ابنُه، وكان شابًّا حسنًا، فأُحْضِر بينَ يدي المُظَفَّرِ قُطُز، فقال له: أهَرَب أبوك؟ قال: إنه لا يَهْرُبُ. فطلَبوه فوجَدوه بينَ القَتْلَى، فلما رآه ابنُه صرَخ وبكَى، فلما تحقَّقه المُظَفَّرُ قال: نام طَيِّبًا، كان هذا سَعادةَ التَّتارِ، وبقتله ذهَب سَعْدُهم. وهكذا كان كما قال، ولم يُفْلِحوا بعدَه أبدًا، وكان قتلُه يومَ الجمعة الخامسَ والعشرين من رمضانَ، لعَنه اللَّهُ تعالى، وكان الذي قتَل كتْبُغانوين الأميرُ جمالُ الدين آقوشُ الشَّمْسيُّ، رحمه اللَّهُ تعالى.

الشيخُ محمدٌ الفقيهُ اليُونينيُّ الحنبليُّ البَعْلَبَكِّيُّ الحافظُ، هو محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عيسى بنِ أبي الرجالِ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ الحسينِ بنِ إسحاقَ بنِ جعفرٍ الصادقِ. كذا نقَل هذا الانتسابَ الشيخُ قُطْبُ الدينِ اليُونينيُّ من خطِّ أخيه الأكبرِ أبي الحسينِ عليٍّ، وأخبَره أن والدَه قال له: نحن من سُلالة جعفرٍ الصادقِ. قال: وإنما ذكَر له هذا عندَ الموتِ ليَتَحَرَّجَ من قَبولِ الصَّدقة - أبو عبدِ اللَّهِ بنُ أبي الحسينِ اليُونينيُّ الحنبليُّ تَقيُّ الدينِ الفَقيهُ الحَنْبَليُّ الحافظُ المُفيدُ البارعُ العابدُ الناسكُ، وُلِد سنةَ ثنتَيْن وسبعين وخمسمائة، وسمع الخُشُوعيَّ وحَنْبَلاً والكِنْديَّ والحافظَ عبدَ الغَنيِّ المَقْدسيَّ، وكان يُثْني عليه، وتفقَّه على الشيخِ المُوَفَّقِ، ولزِم صحبةَ الشيخ عبدِ اللَّهِ اليُونينيِّ، وانْتَفَع به، وكان الشيخُ عبدُ اللَّهِ يُثْني عليه، ويُقَدِّمُه ويَقْتَدي به في الفَتاوَى الشرعية، وقد لبِس الخِرْقةَ من الشيخ عبدِ اللَّهِ البَطائحيِّ، وبرَع في علم الحديث، وحفِظ «الجمعَ بينَ الصحيحَيْن» بالفاءِ والواوِ، وحفظ قطعةً صالحةً من «مُسْنَد الإمامِ أحمدَ»، وكان يَعْرِفُ العربيةَ، أخَذ ذلك عن التاجِ الكِنْديِّ، وكتَب مَليحًا حسنًا، وكان الناسُ يَنْتَفِعون بفُنونِه الكثيرة، ويَأْخُذون عنه الطريقةَ الحسنةَ، وحصَلَت له وَجاهةٌ عظيمةٌ عندَ الملوكِ وغيرِهم، تَوَضَّأ مرةً عندَ الملكِ الأشرفِ وهو عندَه بالقلعة حالَ سَماعِ «البُخاريِّ» على الزَّبيديِّ، فلما فرَغ من الوضوءِ نفَض السلطانُ تَخْفيفةً، وبسَطها على الأرضِ ليَطَأَ عليها، وحلَف السلطانُ له أنها طاهرةٌ ولابد أن يَطَأَها برِجْلِه، ففعَل ذلك. ولما قدِم الكاملُ على أخيه الأشرفِ دمشقَ، أنْزَلَه القلعةَ، وتَحَوَّلَ الأشْرفُ لدارِ السعادة، وجعَل يَذْكُرُ للكاملِ مَحاسنَ الشيخِ الفقيهِ، فقال: أشْتَهي أن أَراه. فأرْسَل إليه إلى بَعْلَبَكَّ بطاقةً، فاستَحْضَره فوصَل إلى دارِ السَّعادة،

فنزَل الكاملُ إليه، وتحادَثا وتَذاكَرا شيئًا من العلمِ، فذُكِرتْ مسألةُ القتلِ بالْمُثقَّلِ، وجرَىٰ ذكرُ حديثِ الجاريةِ التي قتَلها اليهوديُّ، فرَضَّ رأسَها بينَ حجَرَيْن، فأمَر رسولُ اللَّهِ ﷺ بقتلِه[1]، فقال الكاملُ: إنه لم يَعْتَرِفْ. فقال الشيخُ الفقيهُ: في «صحيحِ مسلمٍ»: فاعترف. فقال الكاملُ: أنا اخْتَصَرْتُ «صحيحَ مسلمٍ»، ولم أَجِدْ هذا فيه. فقال: بلىٰ. فأرْسَل الكاملُ، فأحْضَر خمسَ مجلداتِ اختصارِه «لمسلمٍ»، فأخَذ الكاملُ مجلدًا، والأشرفُ مجلدًا، وعمادُ الدينِ بنُ مُوسَك آخرَ، والملكُ الصالحُ مجلدًا، وأخَذ الشيخُ الفقيه مجلدًا، فأولَ ما فتَحه وجَد الحديثَ كما قال الشيخُ الفقيهُ، فتعَجَّب الكاملُ من استحضارِه وسُرْعةِ كشفِه، وأراد أن يَأْخُذَه معه إلى الديارِ المصريةِ، فأرْسَله الأشرفُ سريعًا إلى بَعْلَبَكَّ، وقال للكاملِ: إنه لا يُؤْثِرُ ببَعْلَبَكَّ شيئًا. فأرْسَل له الكاملُ ذهبًا كثيرًا. قال ولدُه قُطْبُ الدينِ: كان والدي يَقْبَلُ برَّ الملوكِ، ويقولُ: أنا لي في بيتِ المالِ أكثرُ من هذا. ولا يَقْبَلُ من الأمراءِ ولا من الوُزراءِ شيئًا إلا أن يكونَ هديةَ مأكولٍ ونحوِه، ويُرْسِلُ إليهم من ذلك، فيَقْبَلونه على سبيلِ التَّبَرُّكِ والاستشفاءِ. وذكَر أنه كثُر مالُه وأثْرَىٰ، وصار له سَعَةٌ من المالِ كثيرةٌ، وذُكِر له أن الأشرفَ كتَب له كتابًا بقريةِ يُونِين، وأعْطاه لُمحْيي الدينِ ابنِ الجوزيِّ ليَأْخُذَ عليه خطَّ الخليفةِ، فلما شعَر والدي بذلك أخَذ الكتابَ ومزَّقه، وقال: أنا في غُنْيةٍ عن ذلك. قال: وكان والدي لا يَقْبَلُ شيئًا من الصدقةِ، ويَزْعُمُ أنه من ذريةِ جعفرٍ الصادقِ بنِ محمدٍ الباقرِ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، رضي اللَّهُ عنه. قال: وقد كان قبلَ ذلك فقيرًا لا شيءَ له. وكان للشيخِ عبدِ اللَّه زوجةٌ، ولها ابنةٌ جميلةٌ، وكان الشيخُ يقولُ لها: زَوِّجيها من الشيخِ محمدٍ. فتقولُ: إنه فقيرٌ، وأنا أُحِبُّ أن تكونَ ابنتي سعيدةً. فيقولُ لها: كأني أَنْظُرُ إليهما إياه وإياها في دارٍ فيها بِرْكةٌ، وله رزقٌ كثيرٌ، والملوكُ يَتَرَدَّدُون إلى زيارتِه. فزوَّجَتْها منه، فكان الأمرُ كذلك، وكانت أُولَىٰ زوجاتِه، رحِمه اللَّهُ تعالى.

وكانت الملوكُ كلُّها تجيءُ مدينتَه، ويُعظِّمونه جدًّا؛ بنو العادلِ وغيرُهم، وكذلك كان مَشايخُ الفقهاءِ كابنِ الصلاحِ، وابنِ عبدِ السلامِ، وابنِ الحاجبِ، والحَصِيريِّ، وشمسِ الدينِ ابنِ سَنِيِّ الدولةِ، وابنِ الجوزيِّ، وغيرِهم يُعَظِّمونه ويَرْجِعون إلى قولِه لعلمِه وعملِه وديانتِه وأمانتِه.

وقد ذُكِرَت له أحوالٌ ومُكاشَفاتٌ وكَراماتٌ كثيرةٌ، قدَّس اللَّهُ رُوحَه، وزعَم بعضُهم أنه قُطْبٌ منذ ثنتَيْ عشْرَةَ سنةً. فاللَّهُ أعلمُ. وذكَر الشيخُ الفقيهُ قال: كنتُ عزَمْتُ مرةً على الرحلةِ إلى حَرَّانَ، وكان قد بلَغَني أن رجلًا بها يَعْلَمُ علمَ الفَرائضِ جيدًا، فلما كانت الليلةُ التي أُريدُ من صبيحتِها أسافرُ جاءَتْني رسالةُ الشيخِ عبدِ اللَّهِ اليُونِينيِّ يَعْزِمُ عليَّ إلى القدسِ الشريفِ، وكأني كرِهْتُ ذلك، وفتَحْتُ المُصْحفَ، فطلَع قولُه: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١]. فخرَجْتُ معه إلى القدسِ،

---

(١) حديثٌ صحيح أخرجه البخاري (٢٤١٣) ومسلم (١٦٧٢) من حديث أنس.

فوجَدْتُ ذلك الرجلَ الحَرَّانيَّ بالقدسِ الشريفِ، فأخَذْتُ عنه علمَ الفَرائضِ حتى خُيِّل لي أني قد صِرْتُ أبْرَعَ فيه منه.

وقال الشيخُ أبو شامةَ: كان رجلاً ضخمًا، وحصَل له قَبولٌ كثيرٌ من الأمراءِ وغيرِهم، وكان يَلْبَسُ قُبَّعًا صوفُه إلى خارجٍ، كما كان شيخُه عبدُ اللَّهِ اليُونينيُّ. قال: وقد صنَّف شيئًا في المِعْراجِ، فردَدْتُ عليه في كتابٍ سمَّيْتُه «الواضحَ الجليَّ في الردِّ على الحنبليِّ». وذكَر ولدُه قُطْبُ الدينِ أنه مات في التاسعَ عشَرَ من رمضانَ من هذه السنةِ عن ثمانٍ وثمانين سنةً، رحِمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ خَليلِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ بنِ بدرٍ، أبو عبدِ اللَّهِ البَيْطارُ الأكَّالُ، أصلُه من جبلِ بني هلالٍ، ووُلِد بقصرِ حَجَّاجٍ، وكان مُقيمًا بالشاغورِ، وكان فيه صلاحٌ ودينٌ وإيثارٌ للفقراءِ والمَحاويجِ والمَحابيسِ، وكانت له حالٌ غريبةٌ؛ لا يأكُلُ لأحدٍ شيئًا إلا بأُجْرةٍ، وكان أهلُ البلدِ يَترامَوْن عليه ليأكُلَ لهم الأشياءَ المُفْتَخَرةَ الطيبةَ، فيَمْتَنِعُ إلا بأُجْرةٍ جيدةٍ، وكلما تمنَّع من ذلك حلا عندَ الناسِ، وأحَبُّوه ومالوا إليه، فيأتُونه بأشياءَ كثيرةٍ من الحَلاواتِ والشِّواءِ وغيرِ ذلك، وأُجْرةٍ جيدةٍ مع ذلك، وهذا غريبٌ جدًّا، رحِمه اللَّهُ تعالى، ورضِي عنه بمنِّه وكرمِه آمينَ.

* * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة

استَهلَّت بيوم الإثنين لأيام خَلَوْن من كانونَ الأول، وليس للمسلمين خليفةٌ، وصاحبُ مكةَ أبو نُمَيٍّ بنُ أبي سعد بنِ عليِّ بنِ قَتادةَ الحسَنيُّ، وعمُّه إدريسُ بنُ عليٍّ شَريكُه، وصاحبُ المدينة الأميرُ عزُّ الدينِ جَمَّازُ بنُ شيحَةَ الحُسَيْنيُّ، وصاحبُ الديارِ المصرية والشامية السلطانُ الملكُ الظاهرُ ركنُ الدينِ بَيْبَرْسُ البُنْدُقْدَاريُّ، وشريكُه في دمشقَ وبَعْلَبَكَّ والصُّبَيبةِ وبانياسَ الأميرُ علمُ الدينِ سَنْجَرُ الحلبيُّ المُلَقَّبُ بالملك المجاهد، وشَريكُه في حلَبَ الأميرُ حُسامُ الدينِ لاجين الجُوكَنْدار العَزيزيُّ، والكَرَكُ والشَّوْبَكُ للملك المُغيث فتح الدين عمرَ بن العادل سيف الدين أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل الكبيرِ سيفِ الدين أبي بكرِ بنِ أيوبَ. وحصْنُ صِهْيَونَ وبَرْزَيَةَ في يد الأميرِ مُظَفَّرِ الدينِ عثمانَ بنِ ناصرِ الدينِ مَنْكورس، وصاحبُ حَماةَ الملكُ المنصورُ ابنُ تَقيِّ الدينِ محمودٍ، وصاحبُ حِمْصَ الأشرفُ ابنُ المنصورِ إبراهيمَ ابنِ أسدِ الدينِ الناصرِ، وصاحبُ المَوْصِلِ الملكُ الصالحُ إسماعيلُ بنُ البدرِ لؤلؤ، وأخوه الملكُ المُجاهدُ صاحبُ جَزيرةِ ابنِ عمرَ، وصاحبُ ماردينَ الملكُ السعيدُ نَجْمُ الدينِ إيل غازي بنُ أُرْتُق، وصاحبُ بلادِ الرومِ رُكْنُ الدينِ قليج أرسَلان بنُ كَيْخُسْرُو السَّلْجوقيُّ، وشَريكُه في الملك أخوه كَيْكاوُس والبلادُ بينَهما نصفين، وسائرُ بلادِ المشرقِ من خُراسان والعراقِ بأيدي التَّتارِ أصحابِ هُولاكوقان، وبلادُ اليمنِ يَمْلِكُها غيرُ واحدٍ من الملوك، وكذلك بلادُ المغرب، في كلِّ قُطْرٍ منها مَلِكٌ.

وفي هذه السنة أغارت التَّتارُ على بلاد حلَبَ، وانجفَل الناسُ وحصَلَ لهم رعبٌ شديدٌ والتقى التَّترُ مع نائبِ حلبَ الأميرِ حسامِ الدينِ الجُوكَنْدار العَزيزيِّ، والمنصورِ صاحبِ حَماةَ، والأشرَفِ صاحبِ حِمْصَ، وكانت الوَقْعةُ عند حمصَ قريبًا من قبرِ خالدِ بن الوليد، والتَّتارُ في ستة آلافٍ، وإنما كان مع هؤلاء من المسلمين ألفٌ وأربعُمائة، فهزَمهم اللَّهُ تعالى، وقتلوا أكثرَ التتارِ ولله الحمدُ، فرجَع التَّتارُ إلى حلبَ، فحصَروها أربعةَ أشهرٍ، وضيَّقوا عليها الأقواتَ، وقتَلوا من الغُرباء خلقًا كثيرًا صبْرًا، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، والجيوشُ الذين كسَروهم على حمصَ لم يَرْجِعوا إلى حَلَبَ، بل ساقوا إلى الديارِ المصرية فتَلقَّاهم السلطانُ الملكُ الظاهرُ في أُبَّهةِ السَّلْطنة، وأحْسَن إليهم، وبقِيَت حلبُ مُحاصَرةً لا ناصرَ لها في هذه المدة، ولكن سلَّم اللَّهُ سبحانَه وتعالى.

وفي يوم الإثنين سابعِ صفرٍ ركِب الملكُ الظاهرُ في أُبَّهةِ المُلْك، ومشَى الأمراءُ والأجنادُ بين يديه، وكان ذلك أولَ رُكوبه، واستَمرَّ بعدَ ذلك يُتابِعُ الرُّكوبَ واللَّعِبَ بالكرة.

وفي الحادي عشَرَ من صفرٍ خرَج الأُمراءُ بدمشقَ على الأميرِ علَمِ الدينِ سَنْجَرَ الحلبيِّ، فقاتَلوه فهزَموه، وألجئوه إلى القلعة، وحَصَروه فيها، فهرَب منها إلى قلعةِ بَعْلَبَكَّ، وتسَلَّم قلعةَ دمشقَ الأميرُ

علاءُ الدين أيدكين البُنْدُقْداريُّ، وكان مملوكًا لجمال الدين بن يَغْمُور، ثم للصالح أيوبَ بن الكامل، وإليه يُنْسَبُ الملكُ الظاهرُ، فأرسَله السلطانُ ليتَسلَّمَ دمشقَ من الحَلَبيِّ عَلَم الدين سَنْجَر، فأخَذها وسكَن القلعةَ بها نيابةً عن الملك الظاهر، ثم حاصَروا الحَلَبيَّ ببَعْلَبَكَّ، حتى أخرجوه منها على بَغْل، وأرسلوه إلى خدمة السلطان الملك الظاهر، فدخَل عليه ليلاً، فعاتَبه ثم أطْلَق له أشياءَ وأكْرَمه.

وفي يوم الاثنين ثامن ربيع الأول استَوْزَر الملكُ الظاهرُ بَهاءَ الدين عليَّ بنَ محمد، المعروفَ بابن الحِنَّا.

وفي ربيع الآخر قبَض الظاهرُ على جَماعة من الأمراء بلَغه عنهم أنهم يُريدون الوُثوبَ عليه. وفيه أرْسَل إلى الشَّوْبَك فتسلَّمها من أيدي نُوَّاب المُغيث صاحب الكَرَك.

وفيها: جهَّز الظاهرُ جيشًا إلى حلَبَ ليَطْرُدوا التَّتارَ عنها، فلما وصَل الجيشُ إلى غَزَّة كتَب الفرنجُ إلى التَّتار يُنذرونهم، فرحَلوا عنها مُسْرعين، واستَوْلَى على حلَبَ جَماعةٌ من أهلها، فصادَروا ونهَبوا وبلَغوا أغْراضَهم، وقدم إليها الجيشُ الظاهريُّ، فأزالوا ذلك كلَّه، وصادَروا بعضَ أهلها بألف ألف وستِّمائة ألف، ثم قدم الأميرُ شمسُ الدين آقوشُ البَرْلي من جهة الظاهر، فاستولى على البلد واستحوذ عليها، فقطَع ووصَل وحكَم ولكن ما عدَل.

وفي يوم الثلاثاء عاشر جُمادَى الأولى باشَر القَضاءَ بالديار المصرية العَلامةُ الشيخُ تاجُ الدين عبدُالوهَّاب ابنُ بنت القاضي الأعَزِّ أبي القاسم خلف ابن القاضي رَشيد الدين أبي الثَّناء محمود بن بدر العَلاميُّ، وذلك بعدَ شُروط ذكَرها للظاهر شديدة، فدخَل تحتَها الملكُ الظاهرُ، وعُزِل عن القَضاء بدرُ الدين أبو المَحاسن يوسُفُ بنُ عليٍّ السِّنْجاريُّ، ورُسِم عليه أيامًا، ثم أُفْرِج عنه.

ذكر البيعة بالخلافة للمُستنصر بالله أبي القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي العباس أحمد العباسي وهو عمُّ المستعصم

وكان مُعْتَقَلاً ببغدادَ ثم أُطْلِق، فكان مع جَماعة الأعراب بالعراق، ثم قصَد الظاهرَ حين بلَغه مُلْكُه، فقدم مصرَ صُحْبةَ جَماعة من أمراء الأعراب عشرة، منهم الأميرُ ناصرُ الدين مُهَنَّا، وكان دخولُه إلى القاهرة في ثامن رجب، فخرَج السلطانُ ومعه الوزيرُ والقاضي تاجُ الدين والشهودُ والمُؤَذِّنون فتلَقَّوْه، وكان يومًا مشهودًا، وخرَج أهلُ التَّوْراة بتَوْراتهم، والنَّصارَى بإنْجيلهم، ودخَل من باب النصر في أُبَّهة عظيمة، ولله الحمدُ والمنةُ، فلما كان يومُ الإثنين ثالثَ عشَرَ رجب جلَس السلطانُ والخليفةُ في الإيوان بقلعة الجبل، والوزيرُ والقاضي والأُمراءُ على طَبَقاتهم، وأُثبت نسبُ الخليفة المذكور على الحاكم تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعَزِّ.

وهذا الخليفةُ هو أخو المُستَنْصِرِ باني المُستَنْصِرِيةِ، وعمُّ المُستَعْصِمِ، بُويع بالخِلافةِ بمصرَ، بايَعه الملكُ الظاهرُ والقاضي والوزيرُ والأُمراءُ، وركِب في دَسْتِ الخِلافةِ بديارِ مصرَ والأُمراءُ بينَ يديه، والناسُ حولَه، وشقَّ القاهرةَ، وكان يومًا مشهودًا، وذلك في الثالثِ عشَرَ مِن رجبٍ مِن هذه السنةِ، وهذا الخليفةُ هو الثامنُ والثلاثون مِن خُلفاءِ بني العباسِ، بينَه وبين العباسِ أربعةٌ وعشرون أبًا، وكان أولَ مَن بايَعه يومئذٍ القاضي تاجُ الدينِ عندما ثبت عندَه نسبُه، ثم السلطانُ الملكُ الظاهرُ ثم الشيخُ عزُّ الدينِ ابنُ عبدِ السلامِ والأُمراءُ والدولةُ، ولِلَّهِ الحمدُ والمنةُ، وخُطِب له على المَنابرِ، وضُرِب اسمُه على السكَّةِ، وكان مَنْصِبُ الخِلافةِ شاغِرًا منذُ ثلاثِ سنينَ ونصفٍ؛ لأن المُستَعْصِمَ قُتِل في أولِ سنةِ ستٍّ وخمسين وستِّمائةٍ، وبُويع هذا في يومِ الإثنين في الثالثِ عشَرَ مِن رجبٍ مِن هذه السنةِ - أعْني سنةَ تسعٍ وخمسين وستِّمائةٍ - وكان أسمرَ وَسيمًا، شديدَ القُوَىٰ، عاليَ الهِمَّةِ، له شَجاعةٌ وإقْدامٌ، وقد لقَّبوه بالمُستَنْصِرِ كما كان أخوه باني المدرسةِ ببغدادَ تلقَّب، وهذا أمْرٌ لم يُسْبَقْ إليه؛ أن خليفتَيْن أخوين يُلَقَّبُ كلٌّ منهما بالآخَرِ، وقد ولِي الخلافةَ أخواه كهذين؛ السَّفَّاحُ وأخوه المنصورُ ولَدَا محمدِ ابنِ عليِّ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ العباسِ، والهادي والرشيدُ ابنا المهديِّ بنِ المنصورِ، والواثقُ والمتوكلُ ابنا المعتصمِ بنِ الرشيدِ، والمُستَرْشِدُ والمُقْتَفي ولَدا المُستَظْهِرِ، وأما ثلاثةٌ؛ فالأمينُ والمأمونُ والمُعْتَصِمُ أولادُ الرَّشيدِ، والمُنْتَصِرُ والمُعْتَزُّ والمُعْتَمِدُ أولادُ المُتَوكِّلِ، وأما أربعةٌ فأولادُ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ؛ الوليدُ وسليمانُ ويزيدُ وهشامٌ.

وقد ولِيَ هذا الخلافةَ بعدَ ابنِ أخيه المستعصمِ بنِ المستنصرِ، ولم يكنْ هذا قبلَه إلاَّ في خلافةِ المقتفِي بنِ المستظهرِ؛ فإنه ولِيَها بعدَ ابنِ أخيه الراشدِ بنِ المسترشدِ بنِ المستظهرِ، واللَّهُ أعلمُ وكانت مدةُ خلافتِه إلىٰ أن فُقِد - كما سيأتي بيانُه - خمسةَ أشهرٍ وعشرين يومًا، وكان أقْصَرَ مدةً مِن جميعِ خلفاءِ بني العباسِ.

وأما بنو أميةَ فكانت مُدةُ خلافةِ مُعاويةَ بنِ يزيدَ بنِ مُعاويةَ أربعين يومًا، وإبراهيمَ بنِ الوليدِ سبْعين يومًا، وأخيه يزيدَ بنِ الوليدِ خمسةَ أشهرٍ. وكانت مدةُ خلافةِ الحسنِ بنِ عليٍّ بعدَ أبيه سبعةَ أشهرٍ وأحدَ عشَرَ يومًا، وكانت مدةُ مَرْوانَ بنِ الحكمِ تسعةَ أشهرٍ وعشَرةَ أيامٍ، وقد كان في خُلفاءِ بني العباسِ مَن لم يَستَكْمِلْ سنةً؛ منهم المُنْتَصِرُ بنُ المُتَوكِّلِ ستةَ أشهرٍ، والمُهْتَدي بنُ الواثقِ أحَدَ عشَرَ شهرًا وأيامًا.

وقد أُنْزِل الخليفةُ المستنصرُ هذا بقلعةِ الجبلِ في بُرْجٍ هو وحَشَمُه وخَدَمُه، فلما كان يومُ سابعَ عشَرَ رجبٍ ركِب في أُبَّهةِ السَّوادِ، وجاء إلىٰ الجامعِ بالقلعةِ، فصعِد المنبرَ، وخطَب الناسَ خُطْبةً ذكَر فيها شرفَ بني العباسِ، ثم استَفْتَح، فقرأ صدرًا مِن «سورةِ الأنعامِ»، ثم صلَّي علىٰ النبيِّ ﷺ، وترَضَّي عن الصحابةِ، ودعا للسلطانِ الظاهرِ، ثم نزَل فصلَّي بالناسِ، فاستَحْسَنوا ذلك منه، وكان وقتًا حسنًا ويومًا مشهودًا.

تولية الخليفة المستنصر بالله الملكَ الظاهرَ السَّلطنة

لما كان يومُ الإثنين الرابعُ من شعبانَ ركب الخليفةُ والسلطانُ والوزيرُ والقُضاةُ والأمراءُ وأهلُ الحَلِّ والعَقْدِ إلى خَيْمةٍ عظيمةٍ قد ضُرِبَت ظاهرَ القاهرةِ، فألْبَس الخليفةُ السلطانَ بيده خِلْعةً سوداءَ، وطَوْقًا في عنقِه، وقَيْدًا في رجلَيه، وهما من ذهبٍ، وصعد فخرُ الدينِ إبراهيمُ بنُ لُقْمانَ رئيسُ الكُتَّابِ مِنْبرًا، فقرأ عليه تَقْليدَ السلطانِ، وهو من إنشائه وبخطِّه نفسه، ثم ركب السلطانُ بهذه الأُبَّهةِ، والقَيْدُ في رجليه، والطَّوْقُ في عنقه، والوزيرُ بينَ يديه، وعلى رأسه التَّقْليدُ، والأمراءُ والدولةُ في خدمته مُشاةً سوى الوزيرِ، فشقَّ القاهرةَ، وقد زُيِّنَت له، وكان يومًا مشهودًا يَقصُرُ اللسانُ عن وصفِه، وقد ذكَر الشيخُ قُطْبُ الدينِ هذا التَّقْليدَ بتمامه، وهو مُطَوَّلٌ.

ذكر تجهيز الخليفة قاصدًا إلى بغداد

ثم إن الخليفةَ طلَب من السلطانِ أن يُجَهِّزَه إلى بغدادَ، فرتَّب له جندًا هائلةً، وأقام له من كلِّ ما ينبغي للملوكِ والخلفاءِ من الحشمِ والخدمِ والطبلخاناه وغيرِ ذلك، ثم سار السلطانُ صُحْبَتَه قاصدين دمشقَ المحروسةَ، وكان سببَ خروجِ السلطانِ إلى الشامِ أن البُرْلي، كما تقدَّم، كان قد اسْتَحْوذَ على حلَبَ، فأرْسَل إليه الظاهرُ الأميرَ عَلَمَ الدينِ سَنْجَرَ الحلبيَّ الذي كان قد تغلَّب على دمشقَ، فطرَده عن حلبَ، وتسلَّمها منه، وأقام بها نائبًا عن السلطانِ، ثم لم يَزَلِ البُرْلي حتى اسْتَعادها منه، وأخْرَجه منها هاربًا واستولى عليها كما كان، فاسْتَنابَ الظاهرُ على مصرَ عزَّ الدينِ أَيْدَمُرَ الحِلِّيَّ، وجعَل تَدْبيرَ المملكةِ إلى الوزيرِ بَهاءِ الدينِ بنِ الحِنَّا، واستَصحب ولدَه فخرَ الدينِ بنَ الحِنَّا وزيرَ الصحبة.

وجعَل تدبيرَ العَساكرِ والجُيوشِ إلى الأميرِ بدرِ الدينِ بِيلِيك الخازندار، ثم كان دخولُ السلطانِ صحبةَ الخليفةِ إلى دمشقَ في يومِ الإثنين سابعِ ذي القَعْدةِ، وكان يومًا مشهودًا، وصلَّيا الجمعةَ بجامعِ دمشقَ، وكان دُخولُ الخليفةِ من بابِ البَريدِ، ودخَل السلطانُ من بابِ الزيادةِ، وكان يومًا مشهودًا أيضًا، ثم جهَّز السلطانُ الخليفةَ وأَصْحَبه أولادَ صاحبِ الموصلِ، وأنْفَق عليه وعليهم وعلى مَن استَقَلَّ معه من الجيشِ - الذين يَرُدُّون عنه ما لم يُقَدِّرِ اللَّهُ - من الذهبِ العينِ ألفَ ألفِ دينارٍ، وأطْلَق له وزاده، فجزاه اللَّهُ خيرًا، وقدم إليه صاحبُ حمصَ الملكُ الأشرفُ، فخلَع عليه، وأطْلَق له، وزاده تَلَّ باشرٍ، وقدِم صاحبُ حَماةَ المنصورُ، فخلَع عليه، وأطْلَق له، وكتَب له تَقْليدًا ببلاده، ثم جهَّز جيشًا صُحْبةَ الأميرِ عَلاءِ الدينِ البُنْدُقْداريِّ إلى حلبَ لمُحارَبةِ البُرْليِّ المُتَغَلِّبِ عليها المُفْسِدِ فيها، وقد أقام البُرْليُّ بحَلَبَ خليفةً آخرَ لقَّبَه بالحاكمِ، فلمَّا اجْتاز به المُسْتَنْصِرُ سار معه إلى العراقِ، واتَّفَقا على

المَصْلَحة وإنفاذِ الحاكمِ للمُسْتَنْصِرِ، لكونه أكبرَ منه، ولله الحمدُ. لكن خرَج عليهما في آخرِ السنة طائفةٌ من التَّتارِ، ففرَّقوا شمْلَهما، وقتلوا خلقًا ممَّن كان معهما، وعُدِم المُسْتَنْصرُ، وهرَب الحاكمُ مع الأعْرابِ. فإنا للَّه وإنا إليه راجعون. وقد كان المُسْتَنْصِرُ هذا فتَح بُلْدانًا كثيرةً في مسيرِه إلى العراقِ، ولما قاتَله بَهَادِرُ عليٌّ شِحْنةُ بغدادَ كسَره المُسْتَنْصِرُ، وقتَلَ أكثرَ أصحابِه، ولكن خرَج كَمينٌ من التَّتارِ، فهرَب العُرْبانُ والأكْرادُ الذين كانوا مع المُسْتَنْصِرِ، وثبَت هو في طائفةٍ ممَّن كان معه من الترك، فقُتِل كثيرٌ منهم أو أكثرُهم، وفُقِد هو من البَيْنِ، ونجا الحاكمُ في طائفةٍ، وكان هذا في أوَّل المحرمِ من سنةِ ستين وستمائةٍ رحمه اللَّهُ وأكْرَمَ مَثْواه. وهذا هو الذي أشْبَه الحسينَ بنَ عليٍّ في توَغُّله في أرضِ العراقِ مع كثرةِ جنودِها، وكان الأَوْلَى لهذا أن يَسْتَقِرَّ في بلادِ الإسلامِ حتى تَتَمَهَّدَ الأمورُ وتَصْفُوَ الأحْوالُ، ولكن قدَّر اللَّهُ وما شاء فعَل.

وجهَّز السلطانُ الملكُ الظاهرُ جيشًا آخَرَ من دمشقَ إلى بلادِ الفرنجِ، فأغاروا وقتلوا، وسبَوْا ورجَعوا سالمين، وطلَبَت الفرنجُ من السلطانِ الصلحَ، فصالَحهم مدةً لاشْتغاله بحلَبَ وأعمالِها، وكان قد عزَل في شوالٍ عن قَضاءِ مصرَ وحدَها تاجَ الدينِ عبدَ الوهَّابِ ابنَ بنتِ الأعَزِّ، وولَّى عليها بُرْهانَ الدينِ الخَضِرَ بنَ الحسنِ السِّنْجاريَّ، وعزَل قاضيَ دمشقَ نجمَ الدينِ أبا بكرِ بنَ صَدْرِ الدينِ أحمدَ بنِ شمسِ الدينِ يَحيَى بنِ هبةِ اللَّه بنِ سَنِيِّ الدولةِ، وولَّى قاضيَ القُضاةِ شمسَ الدينِ أحمدَ بنَ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ أبي بكرِ بنِ خَلِّكانَ، وقد ناب في الحكم بالقاهرةِ مدةً طويلةً عن بدرِ الدينِ السِّنْجاريِّ، فأضاف إليه مع القَضاءِ نظَرَ الأوْقافِ والجامعِ والمارَسْتانِ وتَدْريسَ سبعِ مَدارسَ؛ العادليةِ والناصريةِ والعذراويةِ والفَلَكيةِ والرُّكْنيةِ والإقباليةِ والبَهنسيَّةِ، وقُرِئ تَقْليدُه يومَ عرفةَ يومَ الجمعةِ بعدَ الصلاةِ بالشُّبَّاكِ الكَماليِّ من جامعِ دمشقَ، وسافَر القاضي المَعْزولُ مرسَّمًا عليه، وقد تكَلَّم فيه الشيخُ أبو شامةَ، وذكَر أنه خان في وديعةِ ذهبٍ جعَلها فُلوسًا، فاللَّهُ أعلمُ. وكانت مدةُ ولايتِه سنةً وأشهرًا، وفي يومِ العيدِ يومِ السبتِ سافَر السلطانُ بالعَساكرِ المنصورةِ راجعًا إلى الديارِ المصريةِ، وقد كان رسولُ الإسماعيليةِ قدِم على السلطانِ بدمشقَ يَتَهَدَّدُه ويَتَوَعَّدُه ويَطْلُبون منه إقْطاعاتٍ كثيرةً، فلم يَزَلْ يُوقِعُ بينَهم حتى اسْتَأْصَل شَأْفَتَهم واسْتَوْلَى على بلادِهم، نصَره اللَّهُ تعالى، ومكَّن به في البلادِ، ونصَر به عبادَه المؤمنين، آمين.

وفيها: في السادسِ والعشرين من ربيعٍ الأولِ عُمِل عَزاءُ السلطانِ الملكِ الناصرِ صلاحِ الدينِ يوسفَ بنِ العزيزِ محمدِ بنِ الظاهرِ غازي بنِ الناصرِ صلاحِ الدينِ يوسفَ بنِ أيوبَ بنِ شادي فاتحِ بيتِ المقدسِ، وكان عُمِل هذا العَزاءُ بقلعةِ الجبلِ من الديارِ المصريةِ بأمرِ السلطانِ الملكِ الظاهرِ رُكْنِ الدينِ بَيْبَرْسَ، وذلك لما بلَغهم أن هُولاكو مَلِكَ التتارِ قتَله، وقد كان في قَبْضتِه، كما تقدم ذكرُه، فلما بلَغه

كَسْرُه أصحابَه بعينِ جالوتَ طلَبه إلىٰ بين يديه، وقال له: أنت أرْسَلْتَ الجُيوشَ إلىٰ الديارِ المصريةِ حتىٰ اقْتَتَلوا مع المُغُولِ، فكسَروهم. ثم أمَر بقتله، ويقالُ: إنه اعْتَذَر إليه، وذكَر أن المصريين كانوا أعْداءَه، وبينَه وبينَهم شنَآنٌ وقتالٌ، فأقاله ولكنه انْحَطَّت رُتبتُه عندَه، وقد كان مُكَرَّمًا في خدمته، وقد وعَده أنه إذا ملَك الديارَ المصريةَ استَنابه في الشام، فلما كانت وَقْعةُ حِمْصَ في هذه السنة، وقُتِل فيها أصحابُ هولاكو مع مُقَدَّمِهم بَيْدَرَةَ غضِب وقال له: أصحابُك من العزيزيةِ أُمراءِ أبيك والناصريةُ من أصحابِك قتَلوا أصحابَنا. ثم أمَر بقتله، وقد ذُكر أنه رماه بالنُّشَّابِ وهو واقفٌ بينَ يديه، وهو يَسْأَلُ العَفْوَ، فلم يَفْعَلْ حتىٰ قتَله وقتَل أخاه شقيقَه الملكَ الظاهرَ عليًّا، وأطْلَقَ ولَدَيْهما العزيزَ محمدَ بنَ الناصرِ وزبالةَ بنَ الظاهرِ، وكانا صغيرين من أحسنِ أشْكالِ بني آدمَ، فأما العزيزُ فإنه مات هنالك في أسْرِ التَّتارِ، وأما زبالةُ فإنه صار إلىٰ الديارِ المصريةِ، فكان أحسنَ مَن بها، وكانت أمُّه أمَّ ولدٍ يقالُ لها: وجهُ القمرِ. فتزَوَّجها بعضُ الأمراءِ بعدَ أستاذِها المذكورِ.

ويقالُ: إن هولاكو لما أراد قتلَ الناصرِ أمَر بأربعٍ من الشجرِ مُتَباعداتٍ، فجُمِعَت رءوسُها بحبالٍ، ثم رُبِط الناصرُ في الأربعِ بأربعته، ثم أُطلِقَت الحبالُ، فرجَعَت كلُّ واحدةٍ إلىٰ مركزِها بعضوٍ من أعضاءِ الناصرِ، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ. وقد قيل: إن ذلك كان في الخامسِ والعشرين من شوالٍ سنةَ ثمانٍ وخمسين، وكان مولدُه في سنةِ سبعٍ وعشرين بحلبَ، ولما تُوُفِّي أبوه في سنةِ أربعٍ وثلاثين بُويِع بالسَّلْطنةِ بحلبَ، وعمرُه سبعُ سنينَ، وقام بتَدْبيرِ مملكته جماعةٌ من مَماليك أبيه العزيزِ، وكان الأمرُ كلُّه عن رأيِ جدَّته أمِّ أبيه صبغةَ خاتون بنت الملك العادلِ أبي بكرِ بنِ أيوبَ، فلما تُوُفِّيَت في سنةِ أربعين وستِّمائةٍ استَقَلَّ الناصرُ بالمُلْكِ، وكان جيدَ السِّيرةِ في الرَّعايا مُحَبَّبًا إليهم، كثيرَ النَّفَقاتِ، ولاسيَّما لَمَّا ملكَ دمشقَ مع حلبَ وأعمالِها وبَعْلَبَكَّ وحَرَّانَ وطائفةٍ كثيرةٍ من بلادِ الجزيرةِ، فيقالُ: إن سِماطَه كان كلَّ يومٍ يَشْتَمِلُ علىٰ أربعمائةِ رأسِ غنمٍ سوىٰ الدَّجاجِ والإوزِّ وأنواعِ الطيرِ مطبوخًا بأنواعِ الأطعمةِ والقلويات، وكان مَجموعُ ما يَغْرَمُ علىٰ السِّماطِ في كلِّ يومٍ عشرين ألفًا، وعامَّته يَخْرُجُ من بينِ يديه كما هو كأنه لم يُؤْكَلْ منه شيءٌ، فيُباعُ علىٰ بابِ القلعةِ بأرْخَصِ الأثمانِ حتىٰ إن كثيرًا من أهلِ البيوتاتِ لا يَطْبُخون في بيوتِهم شيئًا من الطُّرَفِ والأطعمةِ بل يَشْترون ذلك برُخْصٍ، وكانت الأرزاقُ كثيرةً دارَّةً في زمانه وأيامِه، وقد كان خَليعًا ظَريفًا حسنَ الشكلِ، أديبًا يقولُ الشعرَ المُتوسطَ، القويَّ بالنسبةِ إليه وقد أوْرَد له الشيخُ قُطْبُ الدينِ في «الذَّيْلِ» قطعةً صالحةً من شعرِه، وهي رائقةٌ لائقةٌ، قُتِل ببلادِ المشرقِ، ودُفِن هنالك وقد كان أعَدَّ له تربةً برباطِه الذي بناه بسفحِ قاسيونَ، فلم يُقَدَّرْ دفنُه بها، والناصريةُ البَرَّانيةُ بالسفحِ من أغربِ الأبنيةِ وأحسنِها بنيانًا من الموكدِ المُحْكَمِ قبليَّ جامعِ الأفرمِ، وقد بُني بعدَها بمدةٍ طويلةٍ وكذلك الناصريةُ الجَوَّانيةُ التي بناها داخلَ بابِ الفراديسِ

هي مِن أحسنِ المدارسِ، وبنَى الخانَ الكبيرَ تُجاهَ الزنجاريِّ وحُوِّلَت إليه دارُ الطعمِ، وقد كانت قبلَ ذلك غربيَّ القلعةِ في إصْطَبْلِ السلطانِ اليومَ. رحمه اللَّهُ.

وهذا كلُّ ما بَلَغَنا مِن وَقائعِ هذه السنةِ مُلَخَّصًا.

ثم دخلت سنة ستين وستمائة

في أوائلِ هذه السنةِ في ثالثِ المُحَرَّمِ قُتِلَ الخليفةُ المُسْتَنْصِرُ باللَّهِ الذي بُويِع له في رجبٍ في السنةِ الماضيةِ بمصرَ، وكان قتْلُه بأرضِ العراقِ، كما ذكَرنا بعدَما هُزِم مَن كان معه مِن الجنودِ والجيشِ، فإنا للَّهِ وإنا إليه راجعون، واسْتَقَلَّ المَلِكُ الظاهرُ بجميعِ الشامِ ومصرَ، وصفَت له الأمورُ، ولم يَبْقَ له مُنازِعٌ سوى البُرْلِيِّ، فإنه قد استحوَذ على البيرةِ، وعصى عليه هنالك.

وفي اليومِ الثالثِ مِن المُحَرَّمِ مِن هذه السنةِ خلَع السلطانُ الملكُ الظاهرُ ببلادِ مصرَ على جميعِ الأمراءِ والحاشيةِ وعلى الوزيرِ والقاضي تاجِ الدينِ ابنِ بنتِ الأعزِّ، وعزَل عنها بُرْهانَ الدينِ السِّنْجاريَّ.

وفي أواخرِ المحرمِ أعْرَس الأميرُ بدرُ الدينِ بِيلِيك الخَزْنَدارُ على بنتِ الأميرِ لؤلؤٍ صاحبِ الموصلِ، واحْتَفل الظاهرُ بهذا العُرْسِ احْتِفالاً بالغًا.

قال ابنُ خَلِّكانَ: وفي هذه السنةِ اصْطاد بعضُ أمراءِ الظاهرِ بجَرُودَ حمارَ وَحْشٍ، فطَبَخوه فلم يَنْضَجْ ولا أثَّر فيه كثرةُ الوَقودِ، ثم افْتَقَدوا أمرَه، فإذا هو موسومٌ على أذنه: بَهْرام جُور. قال: وقد أحْضَروه إليَّ، فقرَأْتُه كذلك، وهذا يَقْتَضِي أن لهذا الحمارِ قريبًا مِن ثمانِمائةِ سنةٍ، فإن بَهْرام جُور كان قبلَ المَبْعثِ بمدةٍ مُتطاولةٍ، وحُمُرُ الوَحْشِ تَعيشُ دَهْرًا طويلاً.

قلتُ: يَحْتَمِلُ أن يكونَ هذا بَهْرام شاه الملكَ الأمْجَدَ، إذ يَبْعُدُ بَقاءُ مثلِ هذا بلا اصْطِيادٍ هذه المدةَ الطويلةَ، ويكونُ الكاتبُ قد أخْطَأ، فأراد كتابةَ: بَهْرام شاه. فكتَب بَهْرام جُور، فحصَل اللَّبْسُ مِن هذا. واللَّهُ أعلمُ.

ذكرُ بَيْعةِ الحاكمِ بأمرِ اللَّهِ العباسي

في السابعِ والعشرين مِن ربيعٍ الآخِرِ دخَل الخليفةُ أبو العباسِ الحاكمُ بأمرِ اللَّهِ أحمدُ ابنُ الأميرِ أبي عليٍّ القُبِّيِّ ابنِ الأميرِ عليٍّ ابنِ الأميرِ أبي بكرِ ابنِ الإمامِ المُسْتَرْشِدِ باللَّهِ ابنِ المُسْتَظْهِرِ باللَّهِ أبي العباسِ أحمدَ مِن بلادِ الشرقِ، وصُحْبَتُه جَماعةٌ مِن رُءوسِ تلك البلادِ، وقد شهِد الوَقْعةَ صُحْبةَ المُسْتَنْصِرِ، وهرَب هو في جماعةٍ مِن المعركةِ فسلِم، فلما كان يومُ دُخولِه تلَقَّاه السلطانُ الملكُ الظاهرُ، وأظْهَر السُّرورَ والاحْتِفالَ، وأنزَله في البُرْجِ الكبيرِ مِن قلعةِ الجبلِ، وأَجْرَى عليه الأرْزاقَ الدارَّةَ والإحسانَ.

وفي ربيع الآخر عزَل الملكُ الظاهرُ الأميرَ جمالَ الدين آقوش النَّجيبيَّ عن أستاذ داريته، واستبدَل به غيرَه، وبعدَ ذلك أرسَله نائبًا على الشام كما سيأتي.

وفي يوم الثلاثاء تاسع رجب حضَر السلطانُ الظاهرُ إلى دار العَدْل في مُحاكمة في بئر إلى بين يدَي القاضي تاج الدين عبد الوهَّاب ابن بنت الأعَزِّ، فقام الناسُ إلا القاضي، فإنه أشار عليه أن لا يقومَ، وتَداعَيا، وكان الحقُّ مع السلطان، وله بيِّنةٌ عادلةٌ، فانتُزعت البئرُ من يد الغَريم، وكان أحدَ الأمراء.

وفي شوال استَناب السلطانُ الملكُ الظاهرُ على حلَبَ الأميرَ علاءَ الدين أَيدكين الشِّهابيَّ، وحينَئذٍ انحاز عَسكرُ سيس على الفُوعَة من أرض حلبَ، فركِب إليهم الشِّهابيُّ، فكسَرهم وأسَر منهم جَماعةً، فسيَّرهم إلى مصرَ فوُسِّطوا.

وفيها استَناب السلطانُ على دمشقَ الأميرَ جمالَ الدين آقوشَ النَّجيبيَّ، وكان من أكابر الأمراء، وعزَل عنها علاءَ الدين طَيْبَرْسَ الوَزيريَّ، وحُمِل إلى القاهرة.

وفي ذي القَعْدة خرَج مَرْسومُ السلطان إلى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعَزِّ أن يَسْتَنيبَ من كلِّ مَذهب من المَذاهب الثلاثة نائبًا، فاستَناب صَدْرَ الدين سليمانَ الحَنَفيَّ، والشيخَ شمسَ الدين محمدَ ابنَ الشيخ العماد الحنبليَّ، وشرفَ الدين عمرَ السُّبْكيَّ المالكيَّ.

وفي ذي الحِجَّة قدمَت وفودٌ كثيرةٌ من التَّتار على الملك الظاهر مُسْتَأْمِنين، فأكرَمَهم وأحْسَن إليهم، وأقطَعَهم إقْطاعاتٍ حسنةً، وكذلك فعَل بأولاد صاحب الموصل، ورتَّب لإخوانهم رَواتبَ كافيةً.

وفي هذه السنة أرْسَل هولاكو طائفةً من جُنده نحوًا من عشَرة آلاف، فحاصَروا الموصلَ، ونصَبوا عليها أربعةً وعشرين مَنْجَنيقًا، وضاقَت بهم الأقْواتُ.

وفيها أرْسَل الملكُ الصالحُ إسماعيلُ بنُ لؤلؤ إلى البُرْليِّ يَسْتَنْجِدُه، فقدم إليه، فهُزِمَت التَّتارُ، ثم ثبَتوا فالْتَقَوا معه، وإنما كان معه تسعُمائة مُقاتل، فهزَموه وجرَحوه، وعاد إلى البيرَة، وفارَقه أكثرُ أصحابه إلى الديار المصرية، ثم دخَل هو إلى بين يدَي السلطان الملك الظاهر، فأنْعَم عليه، وأحْسَن إليه، وأقْطَعه تسعين فارسًا، وأما التَّتارُ فإنهم عادوا إلى الموصل، ولم يزالوا حتى استَنْزَلوا صاحبَها الملكَ الصالحَ إليهم، ونادَوْا في البلد بالأمان حتى اطْمَأَنَّ الناسُ، ثم مالوا عليهم، فقتَلوهم تسعةَ أيام، وقتَلوا الملكَ الصالحَ إسماعيلَ وولدَه علاءَ الدين، وخرَّبوا أسْوارَ البلد، وتركوها بَلاقعَ، ثم كرُّوا راجعين، قبَّحَهم اللَّهُ أجْمَعين.

وفيها وقَع الخُلْفُ بينَ هولاكو وبينَ السلطان بَرَكةَ ابن عمِّه، وأرْسَل إليه بَرَكةُ يَطْلُبُ منه نَصيبًا مما

فتَحه مِن البلادِ، علىٰ ما جرَت به عادتُهم، فقتَل رسلَه، فاشْتَدَّ غضبُ بَرَكَةَ، وكاتَب الظاهرَ ليَتَّفِقا علىٰ هُولاكُو.

وفيها وقَع غَلاءٌ شديدٌ بالشامِ، فأبيع القمحُ الغِرارةُ بأربعمائةٍ وخمسين، والشَّعيرُ بمائتين وخمسين، واللحمُ الرَّطْلُ بستةٍ وبسبعةٍ، فباللَّهِ المستعانُ.

وحصَل في النصفِ مِن شعبانَ خوفٌ شديدٌ مِن التَّتارِ، فتجَهَّز كثيرٌ مِن الناسِ إلىٰ الديارِ المصريةِ، وأبيعَت الغَلَّاتُ حتىٰ حَواصِلُ القَلعةِ والأمراءِ، ورسَم ولاةُ الأمورِ علىٰ مَن له قدرةٌ أن يُسافِرَ مِن دمشقَ إلىٰ مصرَ، ووقَعَت الرَّجْفةُ في الشامِ وفي بلادِ الرومِ أيضًا، ويقالُ: إنه حصَل لبلادِ التَّتَرِ خوفٌ شديدٌ أيضًا، فسبحانَ الفَعَّالِ لما يُريدُ، الذي بيدِه الأمرُ. وكان الآمرَ لأهلِ دمشقَ بالتَّحَوُّلِ منها إلىٰ مصرَ نائبُها الأميرُ عَلاءُ الدينِ طَيْبَرْسُ الوَزيريُّ، فأرْسَل السلطانُ إليه في ذي القَعْدةِ، فأمْسَكه وعزَله واسْتَناب عليها جمالَ الدينِ آقوشَ النَّجيبيَّ، واسْتَوْزَر بدمشقَ عزَّ الدينِ بنَ وَداعةَ.

وفي هذه السنةِ نزَل القاضي شمسُ الدينِ بنُ خَلِّكانَ عن تَدْريسِ الرُّكْنيّةِ للشيخِ شهابِ الدينِ أبي شامةَ، وحضَر عندَه حينَ درَّس، وأخَذ في أولِ «مُخْتَصَرِ المُزَنيِّ»، أثابه اللَّهُ تعالىٰ.

وفيها تُوُفِّيَ مِن الأعْيانِ:

الخليفةُ المُسْتَنْصِرُ باللَّهِ بنُ الظاهرِ بأمرِ اللَّهِ العباسيُّ الذي بايعه الظاهرُ بمصرَ في رجبٍ مِن السنةِ الماضيةِ، كما ذكَرْنا، وكان قتلُه في ثالثِ المحرمِ مِن هذه السنةِ، وكان شَهْمًا شُجاعًا، بطلًا فاتكًا، وقد كان السلطانُ الظاهرُ أنفَق عليه حتىٰ أقام له جيشًا بألفِ ألفِ دينارٍ وأزْيَدَ، وسار في خدمتِه خَلْقٌ مِن أكابرِ الأمراءِ وأولادِ صاحبِ الموصلِ، وكان الملكُ الصالحُ إسماعيلُ مِن الوفدِ الذين قدِموا علىٰ الظاهرِ، فأرْسَله صُحْبَةَ الخليفةِ، فلما كانت الوقعةُ فُقِد المُسْتَنْصِرُ، ورجَع الصالحُ إلىٰ بلادِه، فجاءته التَّتارُ، فحاصَروه كما ذكَرْنا، وقتَلوه وخرَّبوا بلادَه، وقتَلوا أهلَها، فإنا للَّهِ وإنا إليه راجعون.

العزُّ الضَّريرُ النحويُّ اللُّغويُّ واسمُه الحسنُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ نَجَا، مِن أهلِ نَصِيبِينَ، ونشَأ بإرْبِلَ، فاشْتَغَل بعلومٍ كثيرةٍ مِن علومِ الأوائلِ، وكان يَشْتَغِلُ عليه أهلُ الذِّمَّةِ وغيرُهم، ونُسِب إلىٰ الانْحِلالِ وقلةِ الدينِ، وتَرْكِ الصلواتِ، وكان ذَكِيًّا، وليس بزَكِيٍّ؛ عالمَ اللسانِ، جاهلَ القلبِ، ذَكيَّ القولِ، خبيثَ الفعلِ، وله شعرٌ جيدٌ رائقٌ أورَد منه الشيخُ قطبُ الدينِ قطعةً في ترجمتِه، وهو الضريرُ شَبيهٌ بأبي العَلاءِ المَعَرِّيِّ، قبَّحَهما اللَّهُ.

ابنُ عبدِ السلامِ: عبدُ العزيزِ بنُ عبدِ السلامِ بنِ أبي القاسمِ بنِ الحسنِ بنِ محمدِ بنِ المُهَذَّبِ، الشيخُ عزُّ الدينِ أبو محمدٍ السُّلَميُّ الدمشقيُّ الشافعيُّ، شيخُ المذهبِ ومُفيدُ أهلِه، وصاحبُ مُصَنَّفاتٍ حِسانٍ؛ منها «التَّفْسيرُ»، و«اخْتِصارُ النهايةِ»، و«القَواعدُ الكُبرَىٰ» و«الصُّغْرَىٰ»، و«كتابُ الصلاةِ»،

و«الفَتاوىٰ المَوْصليَّة»، وغيرُ ذلك. وُلِد سنةَ سبعٍ أو ثمانٍ وسبعين وخمسمائة، وسمع كثيرًا، واشْتَغَل على فخرِ الدينِ ابنِ عساكرَ وغيرِه، وبرَع في المَذْهَبِ، وعلومٍ كثيرةٍ، وأفاد الطلبةَ، ودرَّس بعدة مَدارسَ بدمشقَ، وولي خَطابتَها، ثم انتقَل عنها إلى الديارِ المصرية، فدرَّس بها، وخطَب وحكَم، وانْتَهَت إليه رئاسةُ المذهب، وقُصِدَ بالفَتاوىٰ من الآفاقِ، وكان لَطيفًا ظريفًا يَسْتَشْهِدُ بالأشعارِ، وقد كان خُروجُه من الشام بسبب ما كان أنكره على الصالح إسماعيلَ من تَسْليمِه صَفَدَ والشَّقيفَ إلى الفرنج، ووافَقه الشيخُ أبو عمرٍو ابنُ الحاجبِ المالكيُّ، فأخْرَجَهما من بلدِه، فسار أبو عمرٍو إلى الناصرِ داودَ صاحبِ الكَرَكِ فأكْرَمَه، وسار ابنُ عبدِ السلام إلى الملكِ الصالحِ أيوبَ بنِ الكاملِ صاحبِ مصرَ، فأكْرَمَه واحترَمه وولاَّه قَضاءَ مصرَ وخَطابةَ الجامعِ العَتيقِ، ثم انْتَزَعَهما منه، وأقَرَّه على تَدْريسِ الصالحية، فلما حضَرَه الموتُ أوْصَىٰ بها للقاضي تاجِ الدينِ ابنِ بنتِ الأعَزِّ، وتُوُفِّي في عاشرِ جُمادَىٰ الأولىٰ، وقد نَيَّف على الثمانين، ودُفِن من الغدِ بسفحِ المُقَطَّمِ، وحضَر جنازتَه السلطانُ الظاهرُ وخَلْقٌ كثيرٌ، رحمه اللَّهُ تعالى.

كَمالُ الدينِ ابنُ العَديمِ الحَنَفيُّ: عمرُ بنُ أحمدَ بنِ هبةِ اللَّهِ بنِ محمدِ بنِ هبةِ اللَّهِ بنِ أحمدَ بنِ يحيى ابنِ زُهَيْرِ بنِ هارونَ بنِ موسى بنِ عيسى بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ محمدِ بنِ أبي جَرَادةَ عامرِ بنِ ربيعةَ بنِ خُوَيْلدِ ابنِ عوفِ بنِ عامرِ بنِ عُقَيْلٍ الحلَبيُّ الحَنَفيُّ، كمالُ الدينِ أبو القاسمِ بنُ العَديمِ، الأميرُ الوزيرُ الرَّئيسُ الكبيرُ، وُلِد سنةَ ستٍّ وثمانين وخمسمائة، سمع الحديثَ، وحدَّث وتفَقَّه وأفْتَىٰ ودرَّس وصنَّف، وكان إمامًا في فُنونٍ كثيرةٍ، وقد ترَسَّل إلى الخلفاءِ والملوكِ مرارًا عَديدةً، وكان يَكْتُبُ حسنًا طريقةً مشهورةً، وصنَّف لحلبَ تاريخًا مُفيدًا يَقْرُبُ من أربعين مجلدًا، وكان جيدَ المعرفة بالحديث، حسنَ الظَّنِّ بالفُقراءِ والصالحين، كثيرَ الإحسانِ إليهم، وقد أقام بدمشقَ في الدولةِ الناصريةِ المتأخرة، وكانت وفاتُه بمصرَ، ودُفِن بسفحِ المُقَطَّمِ بعدَ الشيخِ عزِّ الدينِ بعشَرةِ أيامٍ، وقد أوْرَد له قُطْبُ الدينِ أشعارًا حسنةً.

يوسفُ بنُ يوسفَ بنِ يوسفَ بنِ سلامةَ بنِ إبراهيمَ بنِ الحسنِ بنِ إبراهيمَ بنِ موسى بنِ جعفرِ بنِ سليمانَ بنِ محمدٍ القاقانيِّ الزَّيْنَبيِّ بنِ إبراهيمَ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عباسِ بنِ عبدِ المطلبِ، مُحْيي الدينِ أبو المُعِزِّ، ويُقالُ: أبو المَحَاسِنِ. الهاشميُّ العباسيُّ المَوْصليُّ، المعروفُ بابنِ زبلاقٍ الشاعرُ، قتَلَه التَّتارُ لما أخَذوا الموصلَ في هذه السنة عن سبعٍ وخمسين سنةً، ومن شعرِه قولُه:

بعَثْتَ لنا من سحرِ مُقْلَتك الوَسْنَىٰ ... سُهادًا يَذودُ الجَفنَ أن يَألَفَ الجَفْنَا
وأبصَرَ جسمي حُسْنَ خَصْرِك ناحلًا ... فحاكاه لكن زاد في دقَّةِ المعْنَىٰ
وأبْرَزْتَ وجْهًا أخجَل الصبحَ طالعًا ... وملتَ بقدٍّ علَّم الهَيْفَ الغُصْنَا
حكَيْتَ أخاك البدرَ ليلةَ تمِّه ... سَنًا وسَناءً إذ تَشابَهْتُما سنَا

وقال أيضًا، وقد دُعي إلى موضع، فبعَث يَعْتَذِرُ بهذين البيتَيْن:

أنا في منزلي وقد وهَب الـ ـلهُ نَديمًا وقينةً وعُقارًا
فابسطوا العذرَ في التأخرِ عنكمْ شَغَلَ الحَلْيَ أهلُه أن يُعارا

قال أبو شامةَ: وفيها في ثانيَ عشرَ جُمادىٰ الآخرة تُوُفِّي:

البَدْرُ المَرَاغيُّ الخلافيُّ المعروفُ بالطويلِ، وكان قليلَ الدينِ، تاركًا للصلاةِ، مُغْتَبِطًا بما كان فيه من معرفةِ الجَدَلِ والخلافِ على اصْطلاحِ المتأخرين، رحِمنا اللَّهُ تعالىٰ وجميعَ المسلمين.

وفيها تُوُفِّي محمدُ بنُ داودَ بنِ ياقوت الصارميُّ المُحَدِّثُ، كتبَ كثيرًا؛ الطِّبَاقَ وغيرَها، وكان دَيِّنًا خَيِّرًا، يُعيرُ كتبَه، ويُداومُ على الاشْتِغالِ بسَماعِ الحديثِ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمائة

اسْتَهَلَّت وسلطانُ الدِّيارِ المصريةِ والبلادِ الشاميةِ المَلِكُ الظاهرُ بَيْبَرْسُ البُنْدُقْداريُّ، ونائبُه على الشامِ جمالُ الدينِ آقوشُ النَّجِيبيُّ، وقاضيه شمسُ الدينِ ابنُ خَلِّكانَ، والوزيرُ بها عزُّ الدينِ ابنُ وَدَاعةَ، وليس للناسِ خليفةٌ، وإنما تُضْرَبُ السِّكَّةُ باسمِ المُسْتَنْصِرِ الذي قُتِل في السنةِ الماضيةِ.

ذكرُ خلافةِ الحاكمِ بأمرِ اللَّهِ أبي العباسِ أحمدَ ابنِ الأميرِ أبي عليٍّ القُبِّي ابنِ الأميرِ عليٍّ ابنِ الأميرِ أبي بكرٍ ابنِ الإمامِ المسترشدِ باللَّهِ أميرِ المؤمنين أبي منصورٍ الفضلِ ابنِ الإمامِ المستظهرِ باللَّهِ أبي العباسِ أحمدَ العباسيِّ الهاشميِّ

فلما كان يومُ الخميسِ ثاني المحرمِ، جلَس السلطانُ الملكُ الظاهرُ ركنُ الدينِ بَيْبَرْسُ وأمراؤه وأهلُ الحَلِّ والعقدِ في الإيوانِ الكبيرِ بقلعةِ الجبلِ، وجاء الخليفةُ الحاكمُ بأمرِ اللَّهِ راكبًا حتىٰ نزَل عندَ الإيوانِ، وقد بُسط له إلىٰ جانبِ السلطانِ، وذلك بعدَ ثبوتِ نسبِه، فقُرِئَ نسبُه على الناسِ، ثم أقْبَل عليه المَلِكُ الظاهرُ بَيْبَرْسُ، فبايَعه وبايَعه الناسُ بعدَه، وكان يومًا مشهودًا.

فلما كان يومُ الجمعةِ ثانيه خطَب الخليفةُ بالناسِ، فقال في خطبتِه: الحمدُ للَّهِ الذي أقام لآلِ العباسِ رُكْنًا ظَهيرًا، وجعَل لهم من لدُنْه سُلطانًا نَصيرًا، أحْمَدُه على السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، وأسْتَعِينُه على شكرِ ما أسْبَغ مِن النَّعْماءِ، وأسْتَنْصِرُه على دَفْعِ الأعْداءِ، وأشْهَدُ أن لا إله إلا اللَّهُ وحدَه لا شَريكَ له، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم وعلى آلِه وصحبِه نُجومِ الاهْتِداءِ، وأئمةِ الاقْتِداءِ الأربعةِ، وعلى العباسِ عمِّه وكاشفِ غَمِّه أبي السادةِ الخلفاءِ الراشدين وأئمةِ المَهدِيين، وعلى بقيةِ

الصحابة أجمعين والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أيُّها الناسُ، اعْلَموا أن الإمامةَ فرضٌ من فروض الإسلام، والجهادَ محتومٌ على جميع الأنام، ولا يَقومُ عَلَمُ الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سُبِيَت الحُرَمُ إلا بانتهاك المَحارم، ولا سُفِكَت الدماءُ إلا بارْتكاب الجَرائم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام لما دخلوا دار السلام واستباحوا الدماء والأموال وقتَلوا الرجالَ والأطفالَ، وهتكوا حَرَمَ الخلافة والحَريم، وأذاقُوا مَن استَبْقَوا العذابَ الأليمَ، فارتفَعت الأصواتُ بالبكاء والعويل، وعلَت الضَّجّاتُ من هَوْل ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خُضِبَت شيبتُه بدمائه، وكم من طفلٍ بكَى فلم يُرْحَمْ لبُكائه، فشمِّروا عن ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦] فلم يَبْقَ مَعْذرةٌ في القُعود عن أعداء الدين، والمُحاماة عن المسلمين، وهذا السلطانُ الملكُ الظاهرُ السيدُ الأجلُّ العالمُ العادلُ المُجاهدُ المُؤيَّدُ رُكْنُ الدنيا والدِّين، قد قام بنصر الإمامة عندَ قلة الأنصار، وشرَّد جيوشَ الكفر بعدَ أن جاسوا خلالَ الديار، فأصْبَحَت البَيْعةُ باهتمامه مُنْتَظِمةَ العُقود، والدولةُ العباسيةُ به مُتكاثِرةَ الجنود، فبادروا عبادَ اللَّه إلى شُكْرِ هذه النعمة، وأخْلصوا نياتكم تُنْصَروا، وقاتلوا أولياءَ الشيطان تَظْفَروا، ولا يَرُوعنَّكم ما جرَىٰ، فالحربُ سِجالٌ والعاقبةُ للمتقين، والدهرُ يومان، والأجرُ للمؤمنين، جمَع اللَّهُ على الهُدَىٰ أمْرَكم، وأعَزَّ بالإيمان نصرَكم، وأسْتَغْفِرُ اللَّهَ العظيمَ لي ولكم ولسائر المسلمين، فاستَغْفِروه إنه هو الغفورُ الرحيمُ. ثم خطَب الثانيةَ، ونزَل فصلَّى.

وكتَب بيعَته إلى الآفاق ليُخْطَبَ له، وضُرِبَت السِّكَّةُ باسمه. قال أبو شامةَ: فخُطِب له بجامع دمشقَ وسائر الجوامع يومَ الجمعة سادسَ عشَرَ المحرم من هذه السنة. وهذا الخليفةُ هو التاسعُ والثلاثون من خلفاء بني العباس، ولم يَلِ الخلافةَ من بني العباس مَن ليس والدُه وجدُّه خليفةً بعدَ السَّفّاح والمنصور سوىٰ هذا، فأما مَن ليس والدُه خليفةً فكثيرٌ، منهم المُسْتَعينُ أحمدُ بنُ محمد بن المُعتَصِم، والمُعْتَضِدُ بنُ طلحةَ بن المُتَوكِّل، والقادرُ بنُ إسحاقَ بن المُقْتَدِر، والمُقْتَدي بنُ الذَّخيرة بن القائم بأمر اللَّه.

ذكرُ أخذ الظاهر الكَرَكَ وإعدام صاحبها

وفيها: ركِب الملكُ الظاهرُ من الديار المصرية في العَساكر المَنْصورة قاصدًا ناحيةَ بلاد الكَرَك، واسْتَدعَىٰ صاحبَها الملكَ المُغيثَ عمرَ بنَ العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل، فلما قدم عليه بعدَ جَهْدٍ أرْسَله إلى الديار المصرية مُعْتَقَلاً فكان آخرَ العهد به، وذلك أنه كاتَب هولاوو، وحثَّه على القُدوم إلى الشام مرةً أخرَىٰ، وجاءته كتبُ التَّتار بالثَّبات ونيابة البلاد، وأنه سيقْدَمُ عليه عشرون ألفًا لفتح الديار المصرية، وأخرَج السلطانُ فَتاوَىٰ الفُقهاء بقتله، وعرَض ذلك على ابن خَلِّكانَ- وكان قد

استدعاه من دمشق - وعلى جماعةٍ من الأمراء، ثم سار فتسلّم الكرَكَ يومَ الجمعة ثالثَ عشرَ جُمادىٰ الأولىٰ، ودخلها يومئذٍ في أُبّهةٍ عظيمةٍ، ثم عاد إلىٰ الديار المصرية مُؤيَّدًا منصورًا.

وفيها: قدمَت رسلُ بَرَكَة خان إلىٰ الظاهرِ يقولُ له: قد علمْتَ محبَّتي لدينِ الإسلام، وعلمْتَ ما فعَل هولاكو بالمسلمين، فاركَبْ أنت من ناحيةٍ، وآتيه أنا من ناحيةٍ حتىٰ نَصْطَلِمَه أو نُخرِجَه من البلاد، وأُعطيَك جميعَ ما كان بيدِه من البلاد. فاستصْوَبَ الظاهرُ هذا الرأيَ، وشكَره وخلَع علىٰ رُسُلِه وأكرَمَهم.

وفيها: زُلزِلَت الموصلُ زَلزَلةً عظيمةً وتهدَّمَت أكثرُ دُورِها.

وفي رمضانَ جهَّز الملكُ الظاهرُ صُنَّاعًا وأخشابًا وآلاتٍ كثيرةً لعمارةِ مسجدِ رسولِ اللَّه ﷺ بعدَ حَريقِه، فطِيف بتلك الأخشابِ والآلاتِ بالدِّيارِ المصريةِ فرحةً بها وتعظيمًا لها، ثم ساروا بها إلىٰ المدينةِ النبوية.

وفي شوالٍ سارَ الظاهرُ إلىٰ الإسكندريةِ، فنظَر في أحوالِها وأمورِها، وعزَل قاضيَها وخطيبَها ناصرَ الدينِ أحمدَ بنَ المُنيِّرِ، وولَّىٰ غيرَه.

وفيها: التَقَىٰ بَرَكَةُ قان وهولاوو ومع كلٍّ واحدٍ جُيوشٌ كثيرةٌ، فاقْتَتَلوا فهُزِم هولاكو هزيمةً فَظيعةً، وقُتِل أكثرُ أصحابِه، وغرِق أكثرُ مَن بقِي، وهرَب هو في شِرْذمةٍ قليلةٍ من أصحابِه، وللَّه الحمدُ. ولما نظَر بَرَكَةُ قان إلىٰ كثرةِ القَتْلىٰ قال: يَعِزُّ عليَّ أن يَقْتُلَ المَغولُ بعضُهم بعضًا، ولكن كيف الحيلةُ فيمَن غيَّر سُنَّةَ جِنْكِزخان؟! ثم أغار بَرَكَةُ علىٰ بلادِ القُسْطَنطينيَّةِ، فصانَعه صاحبُها، وأرسَل الظاهرُ هَدايا عَظيمةً إلىٰ بَرَكَةَ وتحفًا كثيرةً هائلةً.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ محمدِ بنِ يحيىٰ بنِ سيِّد الناس، أبو بكرٍ اليَعْمُريُّ الأندَلُسيُّ الحافظُ، وُلِد سنةَ سبعٍ وتسعين وخمسمائةٍ، وسمع الكثيرَ، وحصَّل كتبًا عظيمةً، وصنَّف أشياءَ حسنةً، وخُتِم به الحُفَّاظُ في تلك البلادِ، تُوُفِّي بمدينةِ تُونُسَ في الرابعِ والعشرينَ من رجبٍ من هذه السنة.

عبدُ الرزاقِ بنُ رزقِ اللَّهِ بنِ أبي بكرِ بنِ خلفٍ عزُّ الدين، أبو محمدٍ الرَّسْعَنيُّ، المُحدِّثُ المُفسِّرُ، سمع الكثيرَ وحدَّث، وكان من الفُضلاءِ الأُدباءِ، له مَكانةٌ عندَ البَدْرِ لؤلؤٍ صاحبِ الموصلِ، وكذلك عندَ صاحبِ سِنْجارَ، وبها تُوُفِّي في ليلةِ الجمعةِ الثاني عشرَ من ربيعٍ الآخِرِ، وقد جاوَز السبعين، ومن شعرِه:

نعَب الغرابُ فدلَّنا بنَعيبِه ... أن الحبيبَ دنا أوانُ مَغيبِه

يا سائلي عن طيبِ عيشي بعدَهمْ ... جُدْ لي بعيشٍ ثم سَلْ عن طيبِه

محمدُ بنُ أحمدَ بن عنْتر السُّلَميُّ الدمَشقيُّ مُحْتَسِبُها، وكان من عُدولها وأعْيانها، وله بها أملاكٌ وثروةٌ وأوقافٌ، تُوُفِّي بالقاهرة، ودُفِن بالمُقَطَّم.

عَلَمُ الدين أبو محمد القاسمُ بنُ أحمدَ ابن المُوَفَّق بن جعفر المُرْسيُّ اللَّورْقيُّ اللغويُّ النحويُّ المُقرِئُ، شرَح «الشاطبية» شرحًا مختصرًا، وشَرح «المُفَصَّل» في عدة مجلدات، وشرَح «الجُزُولية» وقد اجْتَمَع بمُصَنِّفِها، وسأَله عن بعضِ مسائلها، وكان ذا فُنونٍ مُتَعَدِّدَةٍ، حسنَ الشكلِ، مليحَ الوجهِ، له هيئةٌ حسنةٌ وبزَّةٌ وجمالٌ، وقد سمع الكِنْديَّ وغيرَه.

الشيخُ أبو بكر الدِّيْنَوَريُّ، وهو باني الزاوية بالصالحية، وكانت له فيها جَماعةٌ مُريدون يَذْكُرون اللَّهَ بأصواتٍ حسنةٍ طيبةٍ، رحمه اللَّهُ.

مَوْلدُ الشيخِ تَقِيِّ الدين ابنِ تَيْمِيَّةَ شيخِ الإسلام، قال الشيخُ شمسُ الدينِ الذَّهبيُّ: وفي هذه السنة وُلد شيخُنا تَقيُّ الدينِ أبو العباسِ أحمد بنُ الشيخِ شِهابِ الدينِ عبدِ الحَليم بنِ أبي القاسم ابنُ تَيْميةَ الحَرَّانيُّ بحَرَّانَ يومَ الإثنين عاشرَ ربيعِ الأول من سنة إحدىٰ وستين وستِّمائة.

الأميرُ الكبيرُ مُجيرُ الدينِ أبو الهيْجاء بنُ عيسى بن خُشْتَرين الأزْكُشيُّ الكُرْديُّ الأُمَويُّ، كان من أعيانِ الأُمراءِ وشُجْعانهم، وله يومَ عينِ جالوتَ اليدُ البيضاءُ في كسرِ التَّتارِ، ولما دخَل الملكُ المُظَفَّرُ إلىٰ دمشقَ بعدَ الوَقْعة جعَله مع الأميرِ عَلَم الدين سَنْجَرَ الحلبيِّ نائبِ البلَد مُسْتَشارًا ومُشاركًا في الرأيِ والمَراسيمِ والتَّدْبيرِ، وكان يَجْلِسُ معه في دارِ العدلِ، وله الإقْطاعُ الكاملُ والرِّزْقُ الواسعُ، إلىٰ أن تُوُفِّي في هذه السنة. قال أبو شامةَ: ووالدُه الأميرُ حُسامُ الدينِ تُوُفِّي في حَبْسِ الملكِ الأشرفِ ببلادِ الشرقِ هو والأميرُ عمادُ الدينِ أحمدُ بنُ المَشْطوب، رحمهما اللَّهُ تعالىٰ.

قلتُ: وولدُه الأميرُ عزُّ الدينِ تَوَلَّىٰ ولاية هذه المدينة - أعني دمشقَ - مدةً، وكان مَشكورَ السِّيرةِ، وإليه يُنْسَبُ دَرْبُ سقون بالصاغة العَتيقة، فيقالُ: دربُ ابنِ أبي الهَيْجاء. لأنه كان به سكَنُه، وكان يَعْمَلُ الوِلايةَ فيه، فعُرِف به، وبعدَ موته بقليلٍ كان فيه نُزولُنا حينَ قدِمْنا من حَوْرانَ وأنا صغيرٌ، فخَتَمْتُ فيه القرآنَ العظيمَ، ولله الحمدُ.

* * *

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وستمائة

استَهَلَّت والخليفةُ الحاكمُ بأمرِ اللَّه العباسيُّ، وسلطانُ الإسلام الذابُّ عن حَوْزته الملكُ الظاهرُ ركنُ الدين بَيْبرسُ البُنْدُقداريُّ - أيده اللَّهُ وشدَّ عَضُدَه - ونائبُ الشام الأميرُ جمالُ الدين آقوش النجيبيُّ، وقاضيه شمسُ الدين ابنُ خَلِّكانَ.

وفيها: في أولها كمَلت المدرسةُ الظاهريةُ التي بينَ القَصْرَيْن، ورُتِّب لتَدْريسِ الشافعيةِ بها القاضي تقيُّ الدينِ محمدُ بنُ الحسينِ بنِ رَزِين، ولتَدْريسِ الحنفيةِ مجدُ الدينِ عبدُ الرحمنِ بنُ كمالِ الدينِ عمرَ ابنِ العَديمِ، ولمشيخةِ الحديثِ بها الشيخُ شرفُ الدينِ عبدُ المؤمنِ بنُ خلفٍ الحافظُ الدِّمْياطيُّ.

وفيها عمَّر الظاهرُ بالقدسِ الشريفِ خانًا، ووقَف عليه أوْقافًا للنازلين به من إصلاحِ نعالِهم وأكْلِهم وغيرِ ذلك، وبنَى به طاحونًا وفُرْنًا.

وفيها: قدمَت رسلُ الملكِ بَرَكةَ قان إلى الملكِ الظاهرِ، ومعهم الأشرفُ بن شهابِ الدينِ غازي بنِ العادلِ، ومعهم مِن الكتبِ والمُشافَهاتِ ما فيه سُرورٌ للإسْلامِ وأهلِه مما حلَّ بهولاكو وأهلِه.

وفي جُمادَى الآخرةِ منها درَّس الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامةَ عبدُ الرحمنِ بنُ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ المَقْدسيُّ بدارِ الحديثِ الأشرفيةِ، بعدَ وفاةِ القاضي عمادِ الدينِ بنِ الحَرَسْتانيِّ، وحضَر عندَه القاضي شمسُ الدينِ ابنُ خَلِّكانَ وجَماعةٌ مِن الفضلاءِ والأعيانِ، وذكَر خُطْبةَ كتابِه «المَبْعَث»، وأوْرَد الحديثَ بسنده ومتنه، وذكَر فَوائدَ كثيرةً مُسْتَحْسَنَةً، ويقالُ: إنه لم يُراجِعْ شيئًا حتى أورد درْسَه، ومثلُه لا يُسْتَكثَرُ عليه ذلك. رحمه اللَّهُ تعالى.

وفيها: قدم نَصيرُ الدينِ الطُّوسيُّ إلى بغدادَ مِن جهةِ السلطانِ هولاكو قان، فنظَر في الأوقافِ وأحوالِ البلدِ، وأخَذ كتبًا عظيمةً كثيرةً مِن سائرِ المدارسِ، وحوَّلها إلى الرَّصَدِ الذي بناه بمَراغةَ، ثم انْحَدَر إلى واسطٍ والبصرةِ.

وفيها: **كانت وفاةُ**:

الملك الأشرف موسى ابن الملك المنصور إبراهيمَ ابن الملك المُجاهد أسد الدين شيركُوه ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركُوه الكبير، كانوا مُلوكَ حمصَ كابرًا عن كابرٍ إلى هذا الحينِ، وقد كان مِن الكُرماءِ المَوْصُوفين، والكُبَراءِ الدماشقةِ المُتْرَفين، ويعتني بالمآكلِ والمَشاربِ، والملابسِ والمَراكبِ، وقَضاءِ الشَّهواتِ والمآربِ، وكثرةِ التَّنَعُّمِ بالمَغاني والحَبائبِ، ولما تُوُفِّي وُجِدَت له حَواصلُ مِن الجَواهرِ النَّفيسةِ والأموالِ الكثيرةِ، وعاد مُلكُه إلى الدولةِ الظاهريةِ.

وتُوفِّي معه في هذه السنة الأميرُ حُسامُ الدين الجُوكَنْدار نائبُ حلبَ.

وفيها: كانت كَسْرةُ التَّتارِ على حمصَ، وقُتِل مُقَدَّمُهم بَيْدَرَةُ بقضاءِ اللَّهِ وقَدَرِه الحسنِ الجميلِ.

وفيها: كانت **وفاةُ الرَّشيدِ العَطَّارِ** المُحدِّثِ بمصرَ، والذي حضرَ مَسْخَرةَ الملكِ الأشرفِ موسىٰ بنِ العادلِ.

والتاجرِ المشهورِ الحاجِّ **نصرِ بنِ تروس**، وكان ملازمًا للصلواتِ بالجامعِ، وكان مِن ذَوِي اليَسارِ والخيرِ.

الخَطيبُ عِمادُ الدينِ بنُ الحَرَسْتانيِّ: **عبدُ الكريمِ بنُ قاضي القضاةِ جمالِ الدينِ عبدِ الصمدِ بنِ محمدِ بنِ الحَرَسْتانيِّ**، كان خَطيبًا بدمشقَ، وناب في الحكمِ عن أبيه في الدولةِ الأشرفيةِ بعدَ ابنِ الصلاحِ، إلىٰ أن تُوُفِّي في دارِ الخَطابةِ في التاسعِ والعشرين مِن جمادىٰ الأولىٰ مِن هذه السنة، وصُلِّيَ عليه بجامعِ دمشقَ، ودُفِن عندَ أبيه بقاسيون، وكانت جنازتُه حافلةً، رحمه اللَّهُ تعالىٰ، وقد جاوَزَ الثمانين بخمسِ سنين، وقد تَوَلَّىٰ بعدَه الخَطابةَ والغَزَّاليةَ ولدُه مجيرُ الدينِ، وباشَرَ بعدَه مشيخةَ دارِ الحديثِ الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامةَ.

مُحْيِي الدينِ محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ الحسينِ بنِ سُراقةَ الحافظُ المُحدِّثُ الأنصاريُّ الشاطبيُّ، أبو بكرٍ المَغْرِبيُّ، عالمٌ فاضلٌ دَيِّنٌ، وأقام بحلبَ مدةً، ثم اجْتاز بدمشقَ قاصدًا الديارَ المصريةَ. وقد ولِي دارَ الحديثِ الكامليةَ بعدَ زكيِّ الدينِ عبدِ العظيمِ المُنْذريِّ، وقد كان له سَماعٌ جيدٌ ببغدادَ وغيرِها مِن البلادِ، وقد جاوَز السبعين.

الشيخُ الصالحُ محمدُ بنُ منصورِ بنِ يحيىٰ ابنِ الشيخِ أبي القاسمِ القَبَّاريُّ الإسْكَنْدَرانيُّ، كان مُقيمًا بغَيْطٍ له يَقْتاتُ منه، ويَعْمَلُ فيه ويَبْذُرُه، ويَتَوَرَّعُ جدًّا، ويُطْعِمُ الناسَ مِن ثمارِه، وكانت وفاتُه في سادسِ شعبانَ مِن هذه السنةِ بالإسْكَنْدريةِ، وله خمسٌ وسبعون سنةً، وكان يأمُرُ بالمعروفِ، ويَنْهَىٰ عن المنكرِ، ويَرْدَعُ الولاةَ عن الظلمِ، فيَسْمَعون منه ويُطيعونه، وإذا جاء الناسُ إلىٰ زيارتِه إنما يُكَلِّمُهم مِن طاقةِ المنزلِ، وهم راضون منه بذلك.

ومِن غريبِ ما حُكِي عنه أنه باع دابةً له مِن رجلٍ، فلما كان بعدَ أيامٍ جاءه الرجلُ فقال: يا سيدي، إن الدابةَ لا تأكُلُ عندي شيئًا. فنظَرَ إليه الشيخُ، فقال له: ما تُعاني من الصنائعِ؟ فقال: رَقَّاصٌ عندَ الوالي. فقال: إن دابَّتَنا لا تأكُلُ الحَرامَ. ودخَل منزلَه فأعْطاه دراهمَه ومعها دراهمُ كثيرةٌ قد اخْتَلَطَت بها فلا تُميَّزُ، فاشْتَرَىٰ الناسُ مِن الرَّقَّاصِ كلَّ درهمٍ بثلاثةٍ لأجلِ البركةِ، وأخَذ دابتَه، ولما تُوُفِّي ترك مِن الأثاثِ ما يُساوي خمسين درهمًا، فأبيع بمبلغِ عشرين ألفًا.

قال أبو شامةَ: وفي الثامنِ والعشرين مِن ربيعٍ الآخرِ **تُوُفِّي مُحْيِي الدينِ عبدُ اللَّهِ بنُ صَفِيِّ الدينِ إبراهيمَ بنِ مَرْزوقٍ** بدارِه بدمشقَ المُجاورةِ للمدرسةِ النُّوريةِ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

قلتُ: دارُه هذه هي التي جُعِلَت مدرسةً للشافعيةِ، وقَفَها الأميرُ جَمالُ الدينِ آقوشُ النَّجيبيُّ، التي

يقالُ لها: **النَّجِيبِيةُ**. تقبَّل اللَّهُ منه، وبها إقامتُنا، جعلَها اللَّهُ دارًا تَعْقُبُها دارُ القَرارِ في الفوز العظيم.

وقد كان **أبوه** صَفِيُّ الدينِ وزيرًا مدةً للملك الأشرف، وملَك من الذهبِ ستَّمائة ألف دينارٍ خارجًا **عن الأملاك** والأثاث والبَضائع، وكانت وفاةُ أبيه بمصرَ في سنةِ تسعٍ وخمسين، ودُفِن بتربتِه عندَ جبلِ **المُقَطَّم**. رحمه اللَّهُ تعالى.

قال أبو شامةَ: وجاء الخبرُ من مصرَ بوفاة الفخرِ عثمانَ المصريِّ المعروف بعيَنِ عين.

قال: وفي ثامنَ عشرَ ذي الحجَّة تُوُفِّي الشمسُ الوتارُ الموصليُّ، وكان قد حصَّل شيئًا من علمِ الأدب، وخطَب بجامع المِزَّةِ مدةً. فأنشَدني لنفسه في الشَّيْبِ وخِضابِه:

وكنتُ وإيّاها مُذِ اخْتَطَّ عارضي ... كرُوحَيْنِ في جسمٍ وما نَقَضَتْ عهدًا

فلمّا أتاني الشَّيْبُ يَقْطَعُ بينَنا ... توَهَّمْتُه سيفًا فألبَسْتُه غِمْدًا

وفيها: استَحضَر الملكُ هولاكو قان ملكُ التتارِ الزَّيْنَ الحافظيَّ، وهو سليمانُ ابنُ المؤيدِ بنِ عامرٍ العقربانيُّ المعروفُ بالزَّينِ الحافظيِّ، وقال له: قد ثبَت عندي خيانتُك. وقد كان هذا المُغْتَرُّ لما قدِم التَّتارُ مع هولاكو دمشقَ وغيرَها مالأ على المسلمين وآذاهم، ودلَّ على عَوْراتِهم، حتى سلَّطهم اللَّهُ عليه بأنواع العُقوبات والمُثْلاتِ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وفي الجملة مَن أعان ظالمًا سُلِّط عليه، فإن اللَّهَ يَنْتَقِمُ من الظالمِ بالظالمِ، ثم يَنْتَقِمُ من الظالمين جميعًا، نَسْأَلُ اللَّهَ العافيةَ من انتقامه وغضبِه وعقابِه وشرِّ عبادِه.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة

فيها: جهَّز السلطانُ الملكُ الظاهرُ عَسْكرًا جمًّا كثيفًا إلى ناحية الفُرات لطرْدِ التَّتارِ النازلين بالبِيرَةِ، فلما سمعوا بالعَساكرِ الظاهرية قد أقْبَلَت تولَّوا على أعقابِهم منهزمين، والحمدُ للَّه ربِّ العالمين، فطابَت تلك الناحيةُ، وأمِنَت تلك المُعامَلَةُ، وقد كانت قبلَ ذلك لا تُسكَنُ من كثرةِ الفَسادِ بها والخوفِ، فعمَرَت وأمِنَت وللَّه الحمدُ.

وفيها: خرَج الملكُ الظاهرُ في عَساكرَ أُخَرَ عظيمة، فقصَد بلادَ الساحلِ لحصارِ الفرنجِ، ففتَح قَيْساريَّةَ في ثلاث ساعاتٍ من يوم الخميس ثامنِ جُمادَى الأولى وهو يومُ نُزولِه عليها، وتسلَّم قلعتَها في يوم الخميسِ الآخَرِ خامسَ عشرَه فهدَمها، وانْتَقل إلى غيرِها، وللَّه الحمدُ والمنةُ، ثم جاء الخبرُ بأنه فتَح مدينةَ أَرْسُوفَ، وقتَل مَن بها من الفرنجِ، وجاءت البَريديةُ بذلك. فدقَّت البشائرُ في بلادِ المسلمين، وفرِحوا بذلك فرحًا شديدًا.

وفيها: ورَد خبرٌ من بلادِ المغرِب بأنهم انْتَصَروا على الفرنجِ، وقتَلوا منهم خمسةً وأربعين ألفَ مقاتلٍ وأسَروا عشَرةَ آلافٍ، واسْتَرْجَعوا منهم ثنتين وثلاثين بَلْدةً، منها شَرِيشُ وإِشْبِيلِيَةُ وقُرْطبةُ

ومُرْسِيَةُ، وكانت النُّصْرةُ في يوم الخميس الرابعَ عشَرَ من رمضانَ سنة ثنتين وستين.

وفي رمضانَ من هذه السنة شُرع في تَبْليط باب البريد من باب الجامع إلى القَناة التي عندَ الدَّرَج، وعُمل في الصفّ القِبْليّ منها بِرْكةٌ وشاذِرْوانٌ. وكان في موضعها قَناةٌ من القَنوات يَنْتَفعُ الناسُ بها عندَ انْقطاع نهرِ بانِياسَ، فغُيِّرت وعُمل هذا الشاذِرْوانُ. قلتُ: ثم غُيِّر ذلك وعُمل مكانَه دَكاكينُ.

وفيها: اسْتَدْعَى السلطان نائبَه على دمشقَ الأميرَ جمالَ الدين آقوش النجيبيَّ فسار إليه سَمْعًا وطاعةً، وقد ناب عنه الأميرُ عَلَمُ الدين الحِصْنيُّ حتى عاد مُكَرَّمًا مَعَزَّزًا.

وفيها: ولّى السلطانُ الملكُ الظاهرُ من بقية المذاهب قُضاةً في الديار المصرية مُسْتَقلِّين، يُولُّون من جهتهم في البُلْدان أيضًا كما يُولِّي الشافعيُّ، فكان للشافعية القاضي تاجُ الدين عبدُ الوهّاب ابنُ بنت الأعَزّ، وتولى قضاءَ الحنفية شمسُ الدين سليمانُ، وقضاءَ المالكية شمسُ الدين السبكيُّ، والحَنابلة شمسُ الدين محمدٌ المَقْدسيُّ، وكان ذلك يومَ الإثنين الثانيَ والعشرين من ذي الحجَّة بدار العدل، وكان سببَ ذلك كثرةُ تَوَقُّف القاضي تاج الدين ابن بنت الأعَزّ في أمورٍ تُخالفُ مَذْهَبَ الشافعيِّ، وتُوافقُ غيرَه من المذاهب، فأشار الأميرُ جمالُ الدين أَيْدُغْدي العَزيزيُّ على السلطان بأن يُوَلِّيَ من كلِّ مَذْهَبٍ قاضيَ قضاة وكان يُحبُّ رأيَه ومشورتَه، فأجابه إلى ذلك ففعَل كما ذكرنا، وبعَث بأخشاب ورَصاص وآلاتٍ كثيرة لعمارة مسجد رسول الله ﷺ، وأرْسَل منْبَرًا، فنُصب هنالك.

وفيها: وقَع حريقٌ عظيمٌ ببلاد مصرَ، واتُّهم النَّصارَىٰ، فعاقَبهم الملكُ الظاهرُ عُقوبةً عظيمةً.

وفيها: جاءت الأخبارُ بأن سلطانَ التَّتار هولاكو هلَك إلى لعنة الله وغضبه في سابع ربيع الآخر بمرض الصَّرْع بمدينة مَرَاغةَ، ودُفن بقلعة تَلا، وبُنيَت عليه قبةٌ، واجْتَمَعت التَّتارُ على ولده أَبْغَا، فقصَده الملكُ بَرَكةُ خان، فكسَره وفرَّق جُموعَه، ففرح الملكُ الظاهرُ بذلك فرحًا شديدًا، وعزَم على جمع العَساكر ليأخُذَ بلادَ العراق، فلم يَتَمَكَّنْ من ذلك لتَفَرُّق العَساكر في الإقْطاعات.

وفيها في ثاني عشَرَ شوالٍ سَلْطَن الملكُ الظاهرُ ولدَه الملكَ السعيدَ محمدَ بَرَكةَ قان، وأخَذ له البَيْعةَ من الأمراء، وأرْكَبَه ومشَى الأمراءُ بينَ يديه، وحمَل والدُه الغاشيةَ بنفسه، والأميرُ بدرُ الدين بَيْسَري الشمسيُّ حاملٌ الجترَ، والقاضي تاجُ الدين ابنُ بنت الأعزّ والوزير بَهاءُ الدين بنُ حنًا راكبان بينَ يديه، وأعيانُ الأمراء رُكْبانٌ، وبقيتُهم مُشاةٌ حتى شقُّوا القاهرةَ وهم كذلك، وكان يومًا مشهودًا.

وفي ذي القَعْدة ختَن السلطانُ ولدَه الملكَ السعيدَ المذكورَ، وخُتن معه جماعةٌ من أولاد الأمراء، وكان يومًا مشهودًا.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها:

الزينُ خالدُ بنُ يوسفَ بن سعد النابُلُسيُّ الشيخُ زينُ الدين الحافظُ، شيخُ دار الحديث النُّورية

بدمشقَ، كان عالمًا بصناعة الحديث، حافظًا لأسماء الرجال، اشْتَغَل عليه في ذلك الشيخُ مُحْيي الدين النَّواويُّ وغيرُه، وتولَّى بعدَه مَشْيَخةَ النُّوريَّة الشيخُ تاجُ الدينِ الفَزاريُّ، وكان الشيخُ زَيْنُ الدينِ حسَنَ الأخلاقِ، فَكِهَ النفسِ، كثيرَ المزاحِ على طريقةِ المُحَدِّثِين، وكان قد رحَل إلى بغدادَ، فاشْتَغَل بها، وسمع الحديثَ وكان فيه خيرٌ وصلاحٌ وعبادةٌ، وكانت جنازتُه حافلةً، ودُفِن بمقابرِ باب الصغيرِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

الشيخُ أبو القاسم الحُوَّاريُّ: هو أبو القاسم بنُ يوسُفَ بنِ أبي القاسمِ بن عبد السلامِ الأُمَويُّ الشيخُ المشهورُ صاحبُ الزاوية بحُوَّارى، تُوُفِّي ببلده، وكان خيِّرًا صالحًا، له أتباعٌ وأصحابٌ يُحبُّونَه، وله مُريدون كثيرٌ من قَرايا حَورانَ في الجُبَيلِ والبَثَنِيَّةِ، وهم حنابلةٌ لا يَرَوْن الضربَ بالدُّفِّ بل بالكَفِّ، وهم أمثلُ من غيرهم.

القاضي بدرُ الدين الكُرْديُّ السِّنْجاريُّ الذي باشَر القضاءَ بالديار المصرية مرارًا وكانت وفاتُه بالقاهرةِ. قال أبو شامةَ: وكانت سيرتُه معروفةً في أخذِ الرِّشَا من قُضاةِ الأطرافِ والشهودِ والمُتَحاكِمين، إلا أنه كان جَوَادًا كريمًا ثم صُودِر هو وأهلُه.

ثم دخلت سنة أربع وستين وستمائة

اسْتَهَلَّت والخليفةُ الحاكمُ العباسيُّ، وسلطانُ المسلمين الملكُ الظاهرُ، وقُضاةُ مصرَ أربعةٌ.

وفيها: استجدَّ بدمشقَ أربعةُ قُضاةٍ، كما فُعِل في العامِ الماضي في ديارِ مصرَ وسيأتي تفصيلُه، ونائبُ الشامِ آقوشُ النَّجِيبيُّ، وفيها وردت الولاياتُ لقَضاءِ القُضاةِ من المذاهبِ؛ فصار كلُّ مذهبٍ فيه قاضي قضاةٍ، فكان في منصبِ الشافعيةِ شمسُ الدينِ أحمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ خَلِّكانَ البَرْمَكيُّ، وصار على قضاءِ الحنفيةِ شمسُ الدينِ عبدُ اللَّه بنُ محمدِ بنِ عَطا، والحنابلةِ شمسُ الدينِ عبد الرحمنِ ابنُ الشيخِ أبي عمرَ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ قُدامةَ، وللمالكيةِ عبدُ السلامِ بنُ الزواويِّ، وقد امْتَنَع من الولايةِ، فأُلْزِم بها حتى قبِل، ثم عزَل نفسَه، ثم أُلْزِم بها، فقبِل بشرطِ أن لا يُباشِرَ أوقافًا، ولا يَأْخُذَ جامَكيةً على أحكامِه، فأجيب إلى ذلك، وكذلك قاضي الحنابلةِ لم يأخذْ على أحكامه أجرًا وقال: نحن في كفايةٍ. فأُعْفِي من ذلك أيضًا، رحمَهم اللَّهُ. وقد كان هذا الصَّنيعُ الذي لم يُسْبَقْ إلى مثلِه قد فُعِل في العامِ الماضي بالديارِ المصريةِ أيضًا، واسْتَقَرَّت الأحوالُ على هذا المنْوالِ وللَّه الحمدُ.

وفيها: كمَل عِمارةُ الحوضِ الذي شرقيَّ قناةِ بابِ البريدِ، وعمِل له شاذَرْوانُ، وفيه أنابيبُ يَجْرِي فيها الماءُ من القناةِ التي هي غرْبيُّه إلى جانبِ الدَّرَجِ الشَّماليةِ.

وفيها: قدم السلطانُ الملكُ الظاهرُ بعساكرِه ونازَل مدينةَ صَفَدَ، واسْتَدْعَى بالمَجانيقِ من دمشقَ، وأحاط بها، ولم يَزَلْ حتى افْتَتَحها، ونزَل أهلُها على حكمِه، فتسلَّم البلدَ في يومِ الجمعةِ ثامنَ عشرَ

شوالٍ من هذه السنة، وقتَل المُقاتلةَ، وسبَى الذُّرِّيَّةَ، وقد كان الملكُ صلاحُ الدينِ افتتحها في شوالٍ أيضًا في سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة، ثم استَعادوها أيضًا فانتزعها منهم قَسْرًا وقهرًا الملكُ الظاهرُ رحمه اللَّهُ في هذه السنة، ولِلَّه الحمدُ، وكان السلطانُ في نفسِه منهم شيءٌ كثيرٌ، فلما توَجَّه إلى فتحِها طلَبوا الأمانَ، فأجْلَس على سَريرِ مَمْلكتِه الأميرَ سيفَ الدينِ كرمونَ التَّتَريَّ، وجاءت رسلُهم، فحلَّفوه وانْصَرَفوا، ولا يَشْعُرون أن الذي أعْطاهم العُهودَ بالأمانِ إنما هو الأميرُ الذي أجْلَسه على السريرِ، والحربُ خَدْعةٌ، فلما خرَجَت الإسْبتاريةُ والداويَّةُ من القلعةِ، وقد فعَلوا بالمسلمين الأفاعيلَ، فأمكن اللَّهُ منهم، فأمَر السلطانُ بضَرْبِ أعناقِهم عن آخرِهم، وجاءت البشائرُ إلى القلاعِ بذلك، فدقَّت البشائرُ، وزُيِّنَت البلادُ وفرِح العبادُ ولِلَّه الحمدُ، ثم بُثَّت السَّرايا يمينًا وشمالًا في بلادِ الفرنجِ، فاستَوْلَى المسلمون على حصونٍ كثيرةٍ تُقارِبُ عشرين حصنًا، وأسَروا قريبًا من ألفِ أسيرٍ ما بينَ امرأةٍ وصبيٍّ، وغنموا شيئًا كثيرًا، ودقَّت البشائرُ في البُلْدانِ، وفرِح المسلمون بنصرِ اللَّهِ وتأييدِه.

وفيها: قدِم ولدُ الخليفةِ المُستَعْصِمِ بنِ المُسْتَنْصِرِ بنِ الظاهرِ بنِ الناصرِ العباسيِّ - واسمُه عليٌّ - إلى دمشقَ فأُكْرِمَ وأُنْزِل بالدارِ الأسَديةِ تُجاهَ المدرسةِ العَزيزيةِ، وقد كان أسيرًا في أيدي التَّتارِ، فلما كسرَهم بَرَكةُ خان تخلَّص من أيديهم، وصار إلى دمشقَ، ولما فتَح السلطانُ صَفَدَ أخبَرَه بعضُ مَن كان بها من أسْرَى المسلمين أن سببَ أسْرِهم أن أهلَ قريةِ قارا كانوا يأخُذونهم فيَحْمِلونهم إلى الفرنجِ، فيَبيعونهم منهم، فعندَ ذلك ركِب السلطانُ قاصدًا قارا، فأوْقَع بهم بأسًا شديدًا، وقتَل منهم خلقًا كثيرًا، وأسَر من أبنائِهم ونسائِهم أخْذًا بثأرِ المسلمين، جزاه اللَّهُ خيرًا. ثم أرسَل السلطانُ الملكُ الظاهرُ جيشًا هائلًا إلى بلادِ سِيسَ، فجاسوا خلالَ الديارِ، وفتَحوا سِيسَ عَنْوةً، وأسَروا ابنَ ملكِها وقتَلوا أخاه، ونهَبوها وقتَلوا أهلَها، وأخَذوا بثأرِ الإسلامِ وأهلِه منهم؛ وذلك أنهم كانوا أضرَّ شيءٍ على المسلمين زمنَ التَّتارِ، لما أخَذوا مدينةَ حلبَ وغيرَها أسَروا من نساءِ المسلمين وأطفالِهم خلقًا كثيرًا وجمًّا غفيرًا، ثم كانوا بعدَ ذلك يُغيرون على بلادِ المسلمين في زمنِ هولاكو، فكبَته اللَّهُ وأهانه على يدي أنصارِ الإسلامِ، ولِلَّه الحمدُ والمنَّةُ كثيرًا دائمًا، وكانت النُّصرةُ عليهم في يومِ الثلاثاءِ العشرين من ذي القَعْدةِ من هذه السنةِ، وجاءت الأخبارُ بذلك إلى البلادِ، وضُرِبَت البَشائرُ.

وفي الخامسِ والعشرين من ذي الحِجَّةِ دخَل السلطانُ الملكُ الظاهرُ دمشقَ المحروسةَ وبينَ يديه ابنُ صاحبِ سِيسَ وجَماعةٌ من ملوكِ الأرْمَنِ أُسارَى أذِلَّاءَ صَغَرةً والعساكرُ صُحْبتُه، وكان يومًا مشهودًا. ثم سار إلى الديارِ المصريةِ مُؤَيَّدًا منصورًا مسرورًا محبورًا ولِلَّه الحمدُ، وطلَب صاحبُ سِيسَ أن يُفاديَ ولدَه من السلطانِ فقال: لا نُفاديه إلا بأسيرٍ لنا عندَ التَّتارِ يقالُ له: سُنْقُرُ الأشْقَرُ. فذهَب صاحبُ سِيسَ إلى ملكِ التَّتَرِ، فتَذَلَّلَ وتخضَّع له، حتى أطْلَق له سُنْقُرَ الأشْقَرَ فأطلق السلطانُ ابنَ صاحبِ سِيسَ.

وفيها: عمَّر الظاهرُ الجسْرَ المشهورَ بينَ قَراوا ودامية، تولَّى عمارتَه الأميرُ جَمالُ الدينِ محمدُ بنُ نهارٍ وبدرُ الدينِ محمدُ بنُ رحالٍ والي نابُلُسَ والأغوارِ، ولما تمَّ بناؤه اضْطَرب بعضُ أركانه، فقلق السلطانُ لذلك، وأمَر بتأكيده، فلم يَسْتَطيعوا من قوةِ جَرْيَ الماءِ حينئذٍ، فاتَّفَق بإذنِ اللَّهِ أن انْسالَت على النهرِ أكَمَةٌ من تلك الناحيةِ، فسكَن الماءُ بمقدارِ ما أصْلَحوا ما يُريدون، ثم عاد الماءُ كما كان، وذلك بتَيْسيرِ اللَّهِ وعونه وعنايته العظيمةِ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها:

أَيْدُغْدي بنُ عبد اللَّه، الأميرُ جَمالُ الدين العَزيزيُّ، كان من أكابرِ الأمراءِ وأحْظاهم عندَ الملكِ الظاهرِ، لا يَكادُ يَخْرُجُ عن رأيه، وهو الذي أشار عليه بولايةِ القُضاةِ من كلِّ مذهبٍ على سَبيلِ الاسْتقلال، وكان، رحمه اللَّهُ تعالى، مُتَواضعًا لا يَلْبَسُ مُحَرَّمًا، كريمًا وَقورًا رئيسًا مُعَظمًا في الدولةِ، أصابَته جراحةٌ في حصارِ صَفَدَ فلم يَزَلْ مَريضًا منها حتى مات ليلةَ عرفةَ، ودُفِن بالرِّباطِ الناصريِّ بسفحِ قاسيونَ.

هُولاكُوقان بنُ تُولي قان بن جنكزخان ملكُ التَّتارِ ابنُ ملكِ التَّتارِ ابنِ ملكِ التَّتارِ، وهو والدُ ملوكِهم، والعامَّةُ يقولون هَولاوون مثل قلاوون، وقد كان مَلِكًا جبَّارًا عنيدًا، قتَل من المسلمين شرقًا وغربًا ما لا يَعْلَمُ عددَهم إلا الذي خلَقهم، وسيُجازيه على ذلك شرَّ الجزاء، كان، لعنه اللَّهُ، لا يَتَقَيَّدُ بدينٍ من الأدْيانِ، وإنما كانت زوجتُه ظفرخاتون قد تنَصَّرت، وكانت تُفَضِّلُ النصارى، وكان، لعنه اللَّهُ، يَترامَى على محبةِ المَعْقولاتِ، ولا يَتَصَوَّرُ منها شيئًا، وكان أهلُها من أفراخِ الفَلاسفةِ عندَه لهم وَجاهةٌ ومكانةٌ، وإنما كانت همَّتُه في تَدْبيرِ مملكته وتَمَلُّكِ البلادِ شيئًا فشيئًا، حتى أباده اللَّهُ في هذه السنةِ، وقيل: في سنةِ ثلاثٍ وستين، ودُفِن بمدينةِ تَلاَ، لا رحمه اللَّهُ، وقام في الملكِ من بعدِه ولدُه أَبْغَا في المملكةِ، وكان أَبْغَا أحدَ إخوةٍ عشَرةٍ ذكورٍ. واللَّهُ سبحانه أعلمُ، وهو حسبُنا ونعم الوكيلُ.

ثم دخلت سنة خمس وستين وستمائة

في يومِ الأحدِ ثاني المحرمِ تَوَجَّه السلطانُ الملكُ الظاهرُ من دمشقَ إلى الديارِ المصريةِ، وصُحْبتُه العساكرُ المنصورةُ، وقد اسْتَوْلَت الدولةُ الإسلاميةُ على بلادِ سِيسَ بكَمالِها، وعلى كثيرٍ من مَعاقلِ الفرنجِ في هذه السنةِ، وقد أرْسَل العَساكرَ بينَ يديه إلى غَزَّةَ، وعدَل هو إلى ناحيةِ الكَرَكِ ليَنْظُرَ في أحوالها، فلما كان عندَ بِرْكةِ زَيْزَى تصيَّد هنالك، فسقَط عن فرسه، فانْكسَرت فَخِذُه، فأقام هنالك أيامًا يَتَداوَى حتى أمْكَنه أن يَرْكَبَ في المحَفَّةِ، وسار إلى مصرَ، فبرأَت رجلُه في أثناءِ الطريقِ، فأمْكَنه الركوبُ وحدَه على الفرسِ. ودخَل القاهرةَ في أُبَّهةٍ عظيمةٍ، وتَجَمُّلٍ هائلٍ، وقد زُيِّنَت البلدُ، واحْتَفَل الناسُ له احتفالاً عظيمًا، وفرِحوا بقُدومه وعافيتِه فرحًا كثيرًا. ثم في رجبٍ منها رجَع من

القاهرة إلى صَفَدَ، وحفَر خَنْدَقًا حولَ قلعتها، وعمِل فيه بنفسه وأمرائه وجيشه، وأغار على ناحية عَكَّا، فقتَل وأسَر وغنِم وسلِم، وضرَبَت لذلك البَشائرُ بدمشقَ. وفي ثاني عشَرَ ربيع الأول صلَّى الظاهرُ بالجامع الأزهرِ الجمعةَ، ولم تَكُنْ تُقامُ به الجمعةُ من زمنِ العُبَيْدِيِّين إلى هذا الحينِ، مع أنه أولُ مسجدٍ وُضع بالقاهرةِ، بناه جَوْهَرٌ القائدُ، وأقام فيه الجمعةَ، فلما بنَى الحاكمُ جامعَه حوَّل الجمعةَ منه إليه، وترَك الأزهرَ لا جمعةَ فيه، فصار في حكمِ بقيةِ المساجدِ، وشعِث حالُه، وتغيَّرت أحوالُه، فأمَر السلطانُ بعمارتِه وبَياضِه وإقامةِ الجمعةِ، وأمَر بعمارةِ جامعِ الحُسَيْنيةِ، فكمَل في سنةِ سبعٍ وستين، كما سيأتي، إن شاء اللَّهُ تعالى.

وفيها: أمَر الظاهرُ أن لا يَبِيتَ أحدٌ من المُجاوِرين بجامعِ دمشقَ، وأمَر بإخْراجِ الخَزائنِ منه، والمَقاصيرِ التي كانت فيه، فكانت قريبًا من ثلاثمائة خِزانةٍ ومَقصورةٍ، ووجَدوا فيها قَواريرَ البولِ والفُرُشَ والسَّجاجيدَ الكثيرةَ، فاسْتَراح الناسُ والجامعُ من ذلك، واتَّسَع على المُصَلِّين.

وفيها: أمَر السلطانُ بعمارةِ أسْوارِ صَفَدَ وقلعتِها، وأن يُكْتَبَ عليها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفيها: الْتَقَى أَبْغَا ومَنْكُوتَمُر الذي قام مَقامَ بَرَكَةَ خان، فكسَره أَبْغَا وغنِم منه شيئًا كثيرًا.

وحكَى ابنُ خَلِّكان فيما نقَل من خطِّ الشيخِ قُطْبِ الدينِ اليُونينيِّ قال: بلَغَنا أن رجلًا بديرِ أبي سَلامةَ من ناحيةِ بُصْرَى، كان فيه مُجونٌ واسْتِهْتارٌ، فذُكِر عندَه السواكُ وما فيه من الفَضيلةِ، فقال: واللَّهِ لا أَسْتاكُ إلا في المَخْرَجِ. يعني دُبُرَه، فأخَذ سِواكًا، فوضَعه في مَخْرَجِه ثم أخْرَجه، فمكَث بعدَه تسعةَ أشهرٍ، فوضَع ولدًا على صفةِ الجُرْذانِ، له أربعةُ قَوائمَ، ورأسُه كرأسِ السمكةِ، وله دبرٌ كدبرِ الأرنبِ. ولما وضَعه صاح ذلك الحيوانُ ثلاثَ صَيْحاتٍ، فقامت ابنةُ ذلك الرجلِ فرضَخَت رأسَه فمات، وعاش ذلك الرجلُ بعدَ وضعِه له يومين، ومات في الثالثِ، وكان يقولُ: هذا الحيوانُ قتَلَني وقطَّع أمْعائي. وقد شاهَد ذلك جَماعةٌ من أهلِ تلك الناحيةِ وخُطَباءُ ذلك المكانِ، ومنهم مَن رأَى ذلك الحيوانَ حيًّا قبل أن يموتَ، ومنهم مَن رآه بعدَ موتِه.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

السلطانُ بركةَ خانِ بنُ تُولى بنِ جَنْكِزْخان بنِ خاقان وهو ابنُ عمِّ هُولاكُو، وقد أسْلَم بَرَكةُ خان هذا، وكان يُحِبُّ العُلماءَ والصالحين، ومن أكبرِ حَسَناتِه كَسْرُه لهولاكو وتَفْريقُه جُنودَه، وكان يُناصِحُ الملكَ الظاهرَ ويُعَظِّمُه ويُكْرِمُ رسلَه إليه، ويُطْلِقُ لهم شيئًا كثيرًا، وقد قام في الملكِ بعدَه بعضُ أهلِ بيتِه، وهو مَنْكُوتَمُر بنُ طغان بنِ باتو بنِ تُولى بنِ جَنْكِزْخان، وكان على طريقتِه ومِنْوالِه، وللَّهِ الحمدُ.

قاضي القُضاة بالديار المصرية تاجُ الدين عبدُ الوهَّاب بنُ خلف بن بدر ابن بنت الأعزِّ الشافعيُّ، كان دَيِّنًا عَفيفًا نزهًا، لا تأخُذُه في اللَّه لومةُ لائم، ولا يَقْبَلُ شَفاعةَ أحدٍ، وجُمِع له قَضاءُ الديار المصرية بكَمالها، والخَطابةُ والحِسْبةُ، ومَشْيَخةُ الشُّيوخ، ونَظَرُ الأحباس، وتَدْريسُ قُبَّةِ الشافعيِّ والصالحية وإمامةُ الجامع، وكان بيده خمسَ عشْرةَ وظيفةً، وباشَر الوزارةَ في بعض الأوْقات، وكان السلطانُ يُعَظِّمُه، والوزيرُ ابن الحَنَّا يَخافُ منه كثيرًا، وكان يُحبُّ أن يَنْكُبَه عندَ السلطان ويَضَعَه، فلا يَسْتَطيعُ ذلك، وكان يَشْتَهي أن يَأتيَ دارَه ولو عائدًا، فمرض في بعض الأحْيان، فجاءه القاضي عائدًا، فقام لتَلَقِّيه إلى وسَط الدار، فقال له القاضي: إنما جئْنا لعيادتك، فإذا أنت سَوِيٌّ صحيحٌ، سلامٌ عليكم. فرجَع ولم يَجْلِسْ عندَه. وكان مولدُه في سنةِ أربع وستِّمائةٍ، وتولَّى بعدَه القَضاءَ تَقِيُّ الدين بنُ رَزين.

واقفُ القَيْمُرِيَّة الأميرُ الكبيرُ ناصرُ الدين أبو المَعالي الحسينُ بنُ عزيز بن أبي الفَوارس القَيْمُريُّ الكُرْديُّ، كان من أعظم الأُمراءِ مكانةً عندَ الملوك، وهو الذي سلَّم الشامَ إلى الملك الناصر صاحب حلَبَ، حينَ قتِل تُورَانْشاه بنُ الصالح أيوبَ بمصرَ، وهو واقفُ المدرسة القَيْمُرِية عندَ مِئْذَنة فَيْرُوزَ، وعمِل على بابِها الساعاتِ التي لم يُسْبَقْ إلى مثلِها، ولا عُمِل على شكلِها، يقالُ: إنه غرِم عليها أربعين ألفَ درهم.

الشيخُ شهابُ الدين أبو شامة: عبدُ الرحمن بنُ إسماعيلَ بن إبراهيمَ بن عثمانَ بن أبي بكر بن عباس، أبو محمد وأبو القاسم المَقْدسيُّ، الشيخُ الإمامُ العلامةُ الحافظُ المُحَدِّثُ الفَقيهُ المُؤرِّخُ المَعْروفُ بأبي شامة، شيخُ دار الحديث الأشْرَفية، ومدرسُ الرُّكْنية، وصاحبُ المُصَنَّفات العَديدة المفيدة، له «اختصارُ تاريخ دمشق» في مجلدات كثيرة، وله «شرْحُ الشاطبية»، وله «الردُّ إلى الأمر الأول»، وله في البعث وفي الإسْراء، وكتابُ «الرَّوْضَتَيْن في الدولتَيْن النُّورية والصَّلاحية»، وله «الذَّيْلُ» على ذلك، وله غيرُ ذلك من الفَوائد الحسان والفرائد التي هي كالعِقْيان. وُلد ليلةَ الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنةَ تسع وتسعين وخمسمائة، وذكَر لنفسه ترجمةً في هذه السنة في «الذَّيْل»، وذكَر مَرْباه ومَنْشَأَه، وطلبَه العلمَ، وسَماعَه الحديثَ، وتفَقُّهَه على الفخر بن عساكرَ، وابن عبد السلام، والسيف الآمديِّ، والشيخ مُوَفَّق الدين بن قُدامةَ، وما رُئي له من المَنامات الحسنة. وكان ذا فُنون كثيرة، أخْبَرَني الشيخُ عَلَمُ الدين البِرْزاليُّ الحافظُ عن الشيخ تاج الدين الفَزاريِّ، أنه كان يقولُ: بلَغ الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ رُتْبةَ الاجْتهاد، وقد كان يَنْظِمُ أشْعارًا في أوقات، منها ما هو مُسْتَحْلًى، ومنها ما لا يُسْتَحْلَى. فاللَّهُ يَغْفِرُ لنا وله.

وبالجملة فلم يَكُنْ في وقته مثلُه في نفسه وديانته، وعِفَّته وأمانته، وكانت وفاتُه بسبب جماعة

ألّبوا عليه، فأرسلوا إليه مَن اغتاله، وهو بمنزلٍ له بطَوَاحِينِ الأُشْنان، وقد كان اتُّهم بأمرِ الظاهرُ بَراءتُه منه، وقد قال جماعةٌ من أهلِ الحديثِ وغيرِهم: إنه كان مظلومًا. ولم يَزَلْ يَكْتُبُ في «التاريخ» حتى وصَل إلى رجبٍ من هذه السنة، فذكَر أنه أُصِيبَ بمِحْنةٍ في منزلِه بطَوَاحِينِ الأُشْنان، وكان الذين قتَلوه جاءوه قبلُ، فضَرَبوه ليَموتَ، فلم يَمُتْ، فقيل له: ألا تَشْتَكي عليهم. فلم يَفْعلْ، وأنشأ يقولُ:

قلتُ لمَن قال ألا تَشْتَكي ... ما قد جرَى فهْو عظيمٌ جَليلْ
يُقيِّضُ اللَّهُ تعالى لنا ... مَن يَأْخُذُ الحقَّ ويَشْفي الغَليلْ
إذا توكَّلْنا عليه كفَى ... فحسْبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيلْ

وكأنهم عادوا إليه مرةً ثانيةً، وهو في المنزلِ المذكورِ، فقتَلوه بالكلية في ليلة الثلاثاء تاسعَ عشَرَ من رمضانَ، رحمه اللَّهُ. ودُفِن من يومِه بمقابرِ بابِ الفَرادِيسِ، وباشَر بعدَه مَشْيَخةَ دارِ الحديثِ الأشْرَفيةِ الشيخُ مُحْيي الدينِ النَّوويُّ.

وفي هذه السنةِ كان مَوْلدُ الحافظِ عَلَمِ الدينِ القاسمِ بنِ محمدٍ البِرْزاليِّ، وقد ذيَّل على تاريخِ الشيخِ أبي شامةَ، لأن مولدَه في سنةِ وفاتِه، فحذا حَذْوَه، وسلَك نحوَه، ورتَّب ترتيبَه، وهذَّب تهْذيبَه، وهذا ممَّن يقالُ فيه وفي أمثالِه في تراجمِهم:

مازلتَ تَكْتُبُ في التاريخِ مُجْتَهِدًا ... حتى رأيْتُك في التاريخِ مكتوبَا

ويُناسِبُ أن يُنْشَدَ هنا قولُ الشاعرِ:

إذا سيِّدٌ منا خَلاَ قام سيِّدٌ ... قَؤولٌ لما قال الكِرامُ فَعولُ

ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة

اسْتَهَلَّت هذه السنةُ والحاكمُ العباسيُّ خليفةٌ، وسلطانُ البلادِ الملكُ الظاهرُ، وفي أول جُمادَى الآخرةِ خرَج السلطانُ من الديارِ المصرية بالعَساكرِ المنصورةِ، فنزَل على مدينةِ يافَا بَغْتةً، فأخَذَها عَنْوةً، وسلَّم إليه أهلُها قلعتَها صُلحًا، فأجْلاهم منها إلى عكَّا، وخرَّب القلعةَ والمدينةَ أيضًا، وقد كان الفرنجُ اعتنَوا بعمارتِها وتحصينِها، فجعلها بلقعًا لئلا يكونَ لهم إليها عودةٌ، وسار منها في رجبٍ قاصدًا حصنَ الشَّقيفِ، وفي بعضِ الطريقِ أخَذ من بعضِ بَريديةِ الفرنجِ كتابًا من أهلِ عكَّا إلى أهلِ الشَّقيفِ يُعْلِمونهم بقُدومِ السلطانِ عليهم، ويأْمُرونهم بتَحْصينِ البلدِ، والمُبادَرةِ إلى إصلاحِ أماكنَ يُخْشَى على البلدِ منها. ففهِم السلطانُ كيف يَأْخُذُ البلدَ، وعرَف من أين تُؤْكَلُ الكَتِفُ، واسْتَدْعَى من

فَوْرِه رجلاً من الفرنج، فأمَرَه أن يَكْتُبَ بدلَه كتابًا على ألسنتهم إلى أهل الشَّقيف، يُحَذِّرُ الملكَ من الوزير، والوزيرَ من الملك، ويَرْمِي الخُلفَ بينَ الدولة. فوصَل إليهم، فأوْقَع اللَّهُ الخُلْفَ بينَهم بحوله وقوته، وجاء السلطانُ فحاصَرَهم ورماهم بالمَنْجَنِيق، فسلَّموه الحصنَ في التاسع والعشرين من رجب، وأجْلاهم إلى صُورَ، وبعَث بالأثقال إلى دمشقَ، ثم ركب جَرِيدةً فيمَن نشط من الجيش، فشنَّ الغارةَ على طَرابُلُسَ وأعْمالها، فنهَب وقتَل وأرْعَب، وكرَّ راجعًا مُؤَيَّدًا مَنْصورًا، فنزَل على حصن الأكْراد تحته في المَرْج، فحمَل إليه أهلُه من الفرنج الإقامات، فأبَى أن يَقْبَلَها وقال: أنتم قَتَلْتُم جُنْديًّا من جيشي، وأُريدُ ديَته مائةَ ألف دينار. ثم سار، فنزَل على حمصَ، ثم منها إلى حَماةَ، ثم إلى أفَامِيَة، ثم سار مَنْزِلةً أخرَى، ثم سار ليلاً، وتقَدَّم إلى العَسْكَر فلبِسوا العُدَّةَ، وساق حتى أحاط بمدينة أنْطاكِيَة.

فتح أنطاكية على يد السلطان الملك الظاهر

وهي مدينةٌ عظيمةٌ كثيرةُ الخير، يقال إن دَوْرَ سُورِها اثنا عشرَ ميلاً، وعددَ بُروجها مائةٌ وستةٌ وثلاثون بُرْجًا، وعددَ شُرفاتها أربعةٌ وعشرون ألفَ شرفة، كان نزولُه عليها في مُسْتَهَلِّ شهر رمضانَ، فخرَج إليها أهلُها يَطْلُبون منه الأمانَ، وشرَطوا شُروطًا عليهم له، فأبَى أن يُجيبَهم، وردَّهم خائبين، وصمَّم على حصارها، ففتَحها يومَ السبت رابعَ شهر رمضانَ بحول اللَّه وقوته وتأييده ونصره، وغنِم منها شيئًا كثيرًا، وأطْلَقَ للأُمراء أموالاً جزيلةً، ووجَد من أُسارى المسلمين من الحَلَبِيِّين فيها خلقًا كثيرًا، كلُّ هذا في مِقْدار أربعة أيام. وقد كان الأفريس صاحبُها وصاحبُ طَرابُلُسَ، من أشدِّ الناس أذيَّةً للمسلمين، حينَ ملكَ التَّتارُ حلبَ، وفرَّ الناسُ منها، فانْتَقَم اللَّهُ سبحانه منه بمَن أقامه للإسلام ناصرًا وللصليب دامغًا وكاسرًا، وللَّه الحمدُ والمنةُ، وجاءت البِشارةُ بذلك مع البَريدية، فجاوَبَتْها البَشائرُ من القلعة المنصورة، وأرْسَل أهلُ بَغْراسَ حينَ سمِعوا بقصد السلطان إليهم يَطْلُبون منه أن يَبْعَثَ إليهم مَن يَتَسَلَّمُها، فأرْسَل إليهم أستاذَ داره الأميرَ آقْسُنْقُرَ الفارقانيَّ في ثالثَ عشَرَ رمضانَ فتسلَّمها، وتسلَّموا حُصونًا كبيرةً وقلاعًا كثيرةً، وعاد السلطانُ مُؤَيَّدًا مَنْصورًا، فدخَل دمشقَ في السابع والعشرين من رمضانَ من هذه السنة في أُبَّهة عظيمة وهَيْبة هائلة، وقد زُيِّنَت له البلدُ، ودُقَّت له البَشائرُ فرَحًا بنُصْرة الإسلام على الكَفَرة الطَّغام، لكنه كان قد عزَم على أخْذ أراضٍ كثيرة من القُرَى والبَساتين التي بأيدي مُلاكِها بزَعْم أنه قد كانت التَّتارُ استَحْوذوا عليها، ثم اسْتَنْقَذها منهم، وقد أفْتاه بعضُ الفُقهاء من الحَنَفية بذلك، تَفْريعًا على أن الكفارَ إذا أخَذوا شيئًا من أموال المسلمين ملَكوها، فإذا اسْتُرْجِعَت لم تُرَدَّ إلى أصحابها، وهذه المسألةُ مشهورةٌ، وللناس فيها قولان؛

أصحُّهما قولُ الجمهورِ أنه يَجبُ ردُّها إلى أصحابها؛ لحديث العَضْباء ناقةِ رسول اللَّه ﷺ[1] ، حينَ استَرْجَعها رسول اللَّه ﷺ، وقد كان آخَذها المشركون، استَدلّوا بهذا وأمثاله على أبي حَنيفةَ رحمه اللَّهُ تعالى. وقال بعضُ العلماء: إذا أخَذ الكفارُ أموالَ المسلمين، وأسْلَموا وهي في أيديهم استَقرَّت على أملاكهم. واستَدَل على ذلك بقوله، عليه الصلاةُ والسلامُ: **«وهل ترَك لنا عَقيلٌ من رباع»**[2] . وقد كان استَحْوَذ على أملاك المسلمين الذين هاجَروا، وأسْلَم عَقيلٌ وهي في يده، فلم تُنتَزَعْ من يده، وأما إذا انْتُزِعَت من أيديهم قبلُ، فإنها تُرَدُّ إلى أربابها لحديث العَضْباء.

والمقصودُ أن الظاهرَ عقَد مجلسًا اجتَمَع فيه القُضاةُ والفُقهاءُ من سائرِ المَذاهب، وتكلَّموا في ذلك، وصمَّم السلطانُ على ذلك اعتمادًا على ما بيده من الفَتاوَى، وخاف الناسُ من غائلة ذلك، فتوَسَّط الصاحبُ فخرُ الدينِ ابنُ الوزيرِ بَهاء الدينِ ابنِ الحنَّا، وكان قد درَّس بالشافعيِّ بعدَ ابنِ بنت الأعَزِّ، فقال: يا خُوند، أهلُ البلدِ يُصالحونك عن ذلك كلِّه بألف ألف درهمٍ تُقَسَّطُ؛ كلُّ سنةٍ مائتا ألفِ درهمٍ. فأبَى إلا أن تكونَ مُعَجَّلةً بعدَ أيام، وخرَج مُتَوَجِّهًا إلى الديارِ المصرية، وقد أجاب إلى تَقْسيطها، وجاءت البِشارةُ بذلك وقُرِئَت على المنبرِ، ففرح الناسُ بذلك، ورسَم أن يُعَجِّلوا من ذلك أربعَمائة ألفِ درهمٍ، وأن تُعادَ إليهم الغَلاَّتُ التي كانو قد احْتاطوا عليها في زمنِ القَسْمِ والثِّمارِ، وكانت هذه الفَعْلةُ مما شعَّثَت خَواطرَ الناسِ على السلطان.

ولمَّا استَقَر أمرُ أبْغَا على التَّتارِ أمَر باستمرارِ وزيرِه نَصيرِ الدينِ الطُّوسيِّ، واستَناب على بلادِ الرومِ البَرْوَانَاه، وارْتَفَع قَدْرُه عندَه جدًّا، واستَقَلَّ بتَدْبيرِ تلك البلاد، وعظُم شأنُه فيها.

وفيها: كتَب صاحبُ اليمنِ إلى الظاهرِ بالخُضوعِ والانْتماءِ إلى جانبه، وأنه يَخْطُبُ له ببلادِ اليمنِ، وأرْسَل إليه هَدايا وتُحَفًا كثيرةً، فأرْسَل إليه السلطانُ هَدايا وخلَعًا وسَنْجَقًا وتَقْليدًا.

وفيها: رافَع ضِياءُ الدينِ ابنُ الفُقَّاعيِّ للصاحبِ بَهاءِ الدينِ ابنِ الحنَّا عندَ الظاهرِ، واستَظْهَر عليه ابنُ الحنَّا، فسلَّمه الظاهرُ إليه، فلم يَزَلْ يَضْرِبُه بالمَقارعِ ويَسْتَخْلِصُ أموالَه إلى أن مات، فيقالُ: إنه ضرَبه قبلَ أن يَموتَ سبعةَ عشرَ ألفَ مِقْرَعةٍ وسبعَمائة. فاللَّهُ أعلمُ.

وفيها: عمِل البَرْوَانَاه على قتلِ الملكِ عَلاءِ الدينِ صاحبِ قُونِيَةَ، وأقام ولدَه غياثَ الدينِ مكانَه وهو ابنُ عشرِ سنينَ، وتمكَّن البَرْوَانَاه في البلادِ والعبادِ، وأطاعه جيشُ الرومِ.

وفيها: قتَل الصاحبُ علاءُ الدينِ صاحبُ الدِّيوانِ ببغدادَ ابنَ الخُشْكريِّ النُّعْمانيَّ الشاعرَ، وذلك أنه اشتَهَر عنه أشياءُ عَظيمةٌ، منها أنه يَعْتَقِدُ فضلَ شعرِه على القرآنِ المَجيد، واتَّفَق أن الصاحبَ انْحَدَر

---

(١) الحديث بذلك تقدم.

(٢) **صحيح**: وهو طرف من حديث أخرجه مسلم برقم (١٣٥١) من حديث أُسامة بن زيد رضي الله عنه.

إلى واسطٍ، فلما كان بالنُّعمانية حضَر ابنُ الخُشكريِّ عندَه، وأنشَده قصيدةً قد قالها فيه، فبينَما هو يُنشِدُها بينَ يديه إذ أذَّن المُؤَذِّنُ، فاستَنصتَه الصاحبُ، فقال ابنُ الخُشكريِّ: يا مولانا، اسمَعْ شيئًا جديدًا، وأعْرِضْ عن شيءٍ له سنون. فثبَت عندَ الصاحب ما كان يقالُ عندَه عنه، ثم باسَطه وأظهَر أنه لا يُنكِرُ عليه شيئًا مما قال حتى استَعْلَم ما عندَه، فإذا هو زنديقٌ، فلما ركِب قال لإنسانٍ معه: استَفرِدْه في أثناء الطريقِ واقتُلْه. فسايَره ذلك الرجلُ حتى إذا انقَطَع عن الناسِ قال لجَماعةٍ معه: أنزِلوه عن فرسه. كالمُداعِبِ له، فأنزَلوه وهو يَشتُمُهم ويَلْعَنُهم، ثم قال: انزِعوا عنه ثيابَه. فسلَبوها وهو يُخاصِمُهم، ويقولُ: إنكم أجْلافٌ، وإن هذا لَعِبٌ باردٌ. ثم قال: اضرِبوا عنقَه. فتقدَّم إليه أحدُهم، فضرَبه بسيفِه، فأبان رأسَه.

وفيها تُوُفِّيَ:

الشيخُ عفيفُ الدين يوسفُ بنُ البَقَّال، شيخُ رِباطِ المَرْزُبانية، كان صالحًا ورِعًا زاهدًا، حكَى عن نفسه قال: كنتُ بمصرَ فبلَغَني ما وقَع من القتلِ الذَّريعِ ببغدادَ في فتنة التَّتارِ، فأنكَرْتُ في قلبي، وقلتُ: يا ربِّ، كيف هذا وفيهم الأطفالُ ومَن لا ذنبَ له؟ فرأيتُ في المَنام رجلًا وفي يده كتابٌ، فأخَذْتُه فقرَأْتُه، فإذا فيه هذه الأبياتُ، فيها الإنكارُ عليَّ:

دَعِ الإعتراضَ فما الأمرُ لكْ ... ولا الحكمُ في حَرَكاتِ الفَلَكْ
ولا تَسألِ اللَّهَ عن فعلِه ... فمَن خاض لُجَّةَ بحرٍ هلَكْ
إليه تَصيرُ أمورُ العبادِ ... دَعِ الإعتراضَ فما أجْهَلَكْ

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

الحافظُ أبو إبراهيمَ إسحاقُ بنُ عبدِ اللَّه بن عمرَ المعروفُ بابنِ قاضي اليمنِ، عن ثمانٍ وستين سنةً، ودُفِن بالشَّرَف الأعلى، وكان قد تفرَّد برواياتٍ جيدةٍ، وانتَفَع الناسُ به.

وفيها: وُلِد الشيخُ شرَفُ الدينِ عبدُ اللَّه ابنُ تَيْمِيةَ، أخو الشيخ تَقيِّ الدينِ ابنِ تَيمِيةَ، والخَطيبُ القَزْوينيُّ.

* * *

ثم دخلت سنة سبع وستين وستمائة

في صفَرٍ منها جدَّد السلطان الظاهرُ البيعةَ لولده من بعده الملك السعيد محمد بَرَكة خان، وأحْضَر الأمراءَ كلَّهم والقُضاةَ والأعيانَ، وأرْكَبه ومشىٰ بينَ يديه، وكتَب له ابنُ لُقْمانَ تَقْليدًا هائلاً بالمُلْك من بعدِ أبيه، وأن يَحْكُمَ عنه أيضًا في حالِ حياتِه، ثم ركِب السلطانُ في عساكرِه في جُمادَىٰ الآخرةِ قاصدًا الشامَ، فلما دخَل دمشقَ جاءته رسلٌ من أبْغَا ملكِ التَّتارِ، معهم مُكاتَباتٌ ومُشافَهاتٌ، فمن جملة المُشافَهاتِ: أنت مَمْلوكٌ أبِعْتَ بسِيواسَ، فكيف يَصْلُحُ لك أن تُخالِفَ مُلوكَ الأرضِ؟! واعْلَمْ أنك لو صَعِدْتَ إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصتَ مني فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبْغَا فلم يَلْتَفِتْ إلى ذلك، ولا عدَّه شيئًا، بل أجاب عنه أتَمَّ جوابٍ، وقال لرُسُله: أعْلِموه أني من ورائه بالمُطالَبةِ، ولا أزالُ حتى أنْتَزِعُ منه جميعَ البلادِ التي اسْتَحْوَذ عليها من بلادِ الخليفة، وسائرِ أقْطار الأرضِ.

وفي جُمادَىٰ الآخرةِ رسمَ السلطانُ الملكُ الظاهرُ بإراقة الخمورِ وتبطيل المُفْسِداتِ والخَواطئ بالبلادِ كلِّها، فنُهِبَت الخَواطئُ وسُلِبْنَ جميعَ ما كان معَهن وحُبِسن حتى يَتَزَوَّجْنَ، وكتَب إلى جميع البلادِ بذلك وأُسْقِطت المُكوسُ التي كانت مُرتَّبةً على ذلك، وعوَّض مَن كان مُحالاً على ذلك بغيرِها ولله الحمدُ والمنةُ.

ثم عاد السلطانُ بعَساكرِه إلى مصرَ، فلما كان في أثناء الطريق عندَ خَربةِ اللُّصوصِ تعَرَّضَت له امرأةٌ، فذكَرَت له أن ولدَها دخَل مدينة صُورَ، وأن صاحبَها الفرنْجيَّ غدَر به وقتَله، وأخَذ مالَه، فركِب السلطانُ وشنَّ الغارةَ على صُورَ، فأخَذ منها شيئًا كثيرًا، وقتَل خلقًا، فأرْسلَ إليه مَلِكُها: ما سببُ هذا؟ فذكَر له غَدْرَه ومَكْرَه بالتُّجارِ، ثم قال السلطانُ لمُقَدَّمِ الجُيوشِ: أوْهِمِ الناسَ أني مريضٌ، وأني بالمحفَّةِ، وأحْضِر الأطباء واستوصف لي منهم ما يصلح لمريض به كذا وكذا وإذا وصفوا لك فأحضر الأشربةَ إلى المحَفَّةِ، وأنتم سائرون. ثم ركِب السلطانُ على البَريدِ، وساق مُسْرِعًا حتى دخَل الديارَ المصريةَ، فكشَف أحْوالَ ولدِه، وكيفَ الأمرُ بالديارِ المصرية بعدَه، ثم عاد مُسْرِعًا إلى الجيشِ، فجلَس في المَحفَّةِ، وأظْهَروا عافيتَه، وتَباشَروا بذلك، وهذه جُرْأةٌ عظيمةٌ، وإقدامٌ هائلٌ.

وفيها: حجَّ السلطانُ الملكُ الظاهرُ، وفي صحبته الأميرُ بدرُ الدينِ الخزندار، وقاضي القُضاة صدرُ الدين سليمانُ الحَنَفيُّ، وفخرُ الدين بنُ لُقْمانَ، وتاجُ الدين بنُ الأثيرِ، ونحوٌ من ثلاثمائة مملوك، وأجنادٌ من الحلقة المنصورةِ، فسار على طريقِ الكَرَكِ، ونظَر في أحوالِها، ثم منها إلى المدينة النبويةِ، فأحْسَن إلى أهلِها، ونظَر في أحوالِها، ثم منها إلى مكةَ، فتصَدَّق على المجُاورين، ثم وقَف بعرفةَ، وطاف طَوافَ الإفاضةِ، وفُتِحَت له الكعبةُ، فغسَلها بماءِ الوردِ، وطيَّبها بيدِه، ثم وقَف ببابِ الكعبةِ،

فتناوَل أيديَ الناسِ ليَدْخلوا الكعبةَ، وهو بينَهم كأحدهم، ثم رجَع فرمَىٰ الجَمَرات، ثم تعَجَّل النَّفْر، فعاد علىٰ المدينة النبوية، فزار القبر الشريفَ مرةً ثانيةً، علىٰ ساكنه أفْضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم، وعلىٰ آله وأهلِ بيْته الطِّيبين الطاهرين وصحابته الكرام أجمَعين إلىٰ يوم الدين. ثم سار إلىٰ الكَرَك، فدخلَها في التاسع والعشرين من ذي الحِجَّة، وأرْسَل البَشير إلىٰ دمشقَ بقُدومِه سالمًا، فخرَج الأميرُ جمالُ الدين آقوشُ النَّجيبيُّ نائبها ليتلقي البشير في ثاني المحرم فإذا هو السلطان نفسه يسير في الميدان الأخضر، وقد سبَق الجميعَ، فتعَجَّب الناسُ من سرعةِ سَيره وصبره وجَلَده، ثم سار من فَوْره حتىٰ دخَل حلَبَ في سادسِ المحرم ليَتَفَقَّدَ أحْوالَها، ثم عاد إلىٰ حماةَ، ثم رجَع إلىٰ دمشقَ، ثم سار إلىٰ مصرَ، فدخَلها يومَ الثلاثاء ثالثَ صفرٍ من السنة المُقْبلة، رحمه اللهُ.

وفي أواخرِ ذي الحِجَّة هبَّت ريحٌ شديدةٌ أغرَقَت مائتَيْ مَرْكَبٍ في النِّيل وهلَك فيها خلقٌ كثيرٌ، ووقَع هنالك مطرٌ شديدٌ جدًّا، وأصاب الشامَ من ذلك صَقْعةٌ أهلَكَت الثِّمارَ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها: أوْقَع اللهُ تعالىٰ الخُلْفَ بينَ التَّتَارِ من أصحاب أبْغَا وأصحابِ ابنِ مَنْكُوتَمُر ابنِ عمِّه ونفَرَّقوا واشْتَغَلوا ببعضِهم بعضًا، ولله الحمدُ.

وفيها: خرَج أهلُ حَرَّانَ منها وقدموا الشامَ، وكان فيهم شيخُنا العَلَّامةُ أبو العباسِ أحمدُ بنُ تَيْميةَ صُحْبةَ أبيه، وعمرُه ستُّ سنينَ، وأخوه زَيْنُ الدينِ عبدُ الرحمنِ وشرفُ الدينِ عبدُ الله، وهما أصغرُ منه.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

الأميرُ عزُّ الدين أيْدَمُرُ بنُ عبد الله الحلِّيُّ الصالحيُّ: كان من أكابرِ الأمراء وأحْظاهم عندَ الملوك، ثم عندَ الملك الظاهرِ، كان يَسْتَنِيبُه إذا غاب، فلما كانت هذه السنةُ أخَذه معه، وكانت وفاتُه بقلعةِ دمشقَ، ودُفِن بتربته بالقربِ من اليَغْمُورية، وخلَّف أموالاً جَزيلةً، وأوْصَىٰ إلىٰ السلطانِ في أولاده، وحضر السلطانُ عَزاءَه بجامعِ دمشق.

شرفُ الدين أبو الطاهرِ محمدُ بن الحافظ أبي الخطابِ عمرَ بن دِحْيةَ المصْريُّ: وُلِد سنةَ عشرٍ وستِّمائة، وسمع أباه وجماعةً، وتولَّىٰ مشْيخةَ دارِ الحديث الكاملية مدةً، وحدَّث، وكان فاضلاً.

القاضي تاجُ الدين أبو عبد الله محمدُ بنُ وثَّاب بن رافع البجيليُّ الحنفيُّ: درَّسَ وأفْتَىٰ عن ابنِ عَطاءٍ بدمشقَ، ومات بعدَ خُروجِه من الحمام علىٰ مَساطِب الحمام فجأةً، ودُفِن بقاسيونَ.

الطبيبُ الماهرُ شرفُ الدين أبو الحسنِ عليُّ بن يوسفَ بن حَيْدرةَ الرَّحَبيُّ: شيخُ الأطباء بدمشقَ، ومدرسُ الدخْوارية عن وصيةِ واقفِها بذلك، وله التَّقْدُمةُ في هذه الصناعة علىٰ أقرانه من أهلِ زمانه،

ومن شعره قولُه:

يُساقُ بنو الدنيا إلى الحتفِ عَنوةً ... ولا يَشعُرُ الباقي بحالةِ مَن يمضي

كأنهمُ الأنعامُ في جهلِ بعضِها ... بما تمَّ من سَفكِ الدماءِ على بعضِ

الشيخُ نَصيرُ الدينِ المباركُ بنُ يحيى بن أبي الحسنِ، أبو البَركات بنُ الطباخِ الشافعيُّ: العَلاَّمةُ في الفقهِ والحديثِ، درَّس وأفتَى وصنَّف وانتُفع به، وعُمِّر ثمانين سنةً، وكانت وفاتُه في حادي عشرَ جُمادى الآخرةِ من هذه السنةِ، رحمه الله تعالى.

الشيخُ أبو الحسنِ عليُّ بن عبد الله بن إبراهيمَ الكُوفيُّ المَغربيُّ النَّحويُّ، المُلَقَّبُ بسيبَويه، وكان فاضلاً بارعًا في صناعةِ النحوِ، تُوُفِّيَ بمارَستانِ القاهرةِ في هذه السنةِ، عن سبعٍ وستين سنةً، رحمه اللهُ. ومن شعره:

عذَّبتَ قلبي بهَجرٍ منك مُتَّصلٍ ... يا مَن هواه ضميرٌ غيرُ مُنفَصِلِ

ما زادني غيرَ تأكيدٍ صدُّك لي ... فما عُدولُك من عطفٍ إلى بَدَلِ

وفيها: وُلد شيخُنا العَلاَّمةُ كمالُ الدينِ محمدُ بنُ عليٍّ الأنصاريُّ بنُ الزملكانيِّ، شيخُ الشافعيةِ.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمائة

في ثاني المحرمِ منها دخَل السلطانُ من الحجازِ على الهُجُن، فلم يَرُعِ الناسَ إلا وهو في المَيدانِ الأخضرِ يَسيرُ، ففرح الناسُ بذلك، وأراح الناسَ من تَلَقِّيه بالهدايا والتحفِ، وهذه كانت عادتَه، وقد عجِب الناسُ من سرعةِ مَسيره وعلوِّ همتِه، ثم سار إلى حلبَ، ثم سار إلى مصرَ، فدخَلها في ثالثِ الشهرِ مع الرَّكبِ المصريِّ، وكانت زوجتُه أمُّ الملكِ السعيدِ في الحجازِ هذه السنةَ، ثم خرَج في ثالثَ عشرَ صفرٍ هو وولدُه والأمراءُ إلى الإسكَندريةِ، فتصَيَّد هنالك، وأطلَقَ للأمراءِ الأموالَ الكثيرةَ والخِلَعَ، ورجَع مُؤيَّدًا منصورًا.

وفي المحرمِ منها قُتِل صاحبُ مرَّاكُشَ أبو العَلاءِ إدريسُ بن عبدِ الله بن محمدِ بن يوسفَ المُلَقَّبُ بالواثقِ، قتَله بنو مَرينٍ في حربٍ كانت بينَه وبينَهم بالقربِ من مَرَّاكُشَ.

وفي ثالثَ عشرَ ربيعٍ الآخرِ منها وصَل السلطانُ إلى دمشقَ في طائفةٍ من جيشِه، وقد لقُوا في الطريقِ مشقةً كثيرةً من البَرْدِ والوَحْلِ، فخيَّم على الزَّنبقيةِ، وبلَغه أن ابن أختِ زيتونٍ خرَج من عكَّا يَقصدُ جيشَ المسلمين، فركِب إليه سريعًا، فوجَده قريبًا من عكَّا، فدخَلها خوفًا منه.

وفي رجبٍ تسلَّم نُوَّابُ السلطانِ مِصْيافَ من الإسْماعيليةِ، وهرَب منها أميرُهم الصارمُ مباركُ بنُ الرَّضيِّ، فتحَيَّل عليه صاحبُ حَماةَ حتى أسَرَه، وأرسَله إلى السلطانِ، فحبَسه في بعضِ الأبرجةِ بالقاهرةِ.

وفيها: أرسَل السلطانُ الدَّرابزينات إلى الحجرة النبوية، وأمَر أن تُقام حولَ القبرِ صيانةً له، وعمل لها أبوابًا تُفتَحُ وتغلقُ من الديارِ المصرية، فركَّب ذلك عليها.

وفيها: استَفاضت الأخبارُ بقصدِ الفرنج بلادَ الشام، فجهَّز السلطانُ العَساكرَ لقتالِهم، وهو مع ذلك مُهْتَمٌّ بالإسْكَندرية خوفًا عليها، وقد حصَّنها، وعمِل جسورةً إليها إن دهَمها العدوُّ، وأمَر بقتلِ الكلاب منها.

وفيها: انقَرَضَت دولةُ بني عبدِ المؤمنِ من بلادِ المغرب، وكان آخرَهم إدريسُ بن عبدِ الله بن محمدِ بن يوسفَ صاحبُ مَرَّاكشَ، قتَله بنو مَرينٍ في هذه السنة.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الصاحبُ زينُ الدين يعقوبُ بن عبد الرَّفيع بن زيد بن مالك المصريُّ المعروفُ بابن الزُّبيريِّ، كان فاضلاً رئيسًا، وزَر للملك المُظَفَّر قطز، ثم للظاهرِ بيْبَرس في أوَّل دولته، ثم عزَله، وولَّى بَهاءَ الدين ابنَ الحِنَّا، فلزِم منزلَه حتى أدْرَكته مَنيَّتُه في الرابعَ عشَرَ من ربيعٍ الآخرِ من هذه السنة، وله نَظْمٌ جيدٌ.

الشيخُ مُوَفَّقُ الدين أحمدُ بن القاسم ابن خَليفةَ الخَزرجيُّ الطَّبيبُ، المعروفُ بابن أبي أُصيبِعةَ، له «تاريخُ الأطباء» في عشرِ مجلداتٍ لطافٍ، وهو وَقْفٌ بمشهدِ ابنِ عُرْوةَ بالأُمَويِّ، تُوُفِّي بصَرْخَدَ، وقد جاوزَ السَّبْعينَ.

الشيخُ زينُ الدين أحمدُ بن عبدِ الدائمِ بنِ نعمةَ بن أحمدَ بنِ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ أحمدَ بنِ بكيرٍ، أبو العباس المَقْدسيُّ النابُلُسيُّ:

تفرَّد بالروايةِ عن جماعةٍ من المشايخ، وُلد سنةَ خمسٍ وسبعين وخمسمائة، وقد سمع، ورحَل إلى بُلْدانٍ شتَّى، وكان فاضلاً يَكْتُبُ سريعًا، حكَى الشيخُ عَلَمُ الدينِ أنه كتَب «مُختصَرَ الخِرَقيِّ» في ليلةٍ واحدةٍ، وخطُّه حسنٌ قويٌّ حُلْوٌ، وقد كتَب «تاريخَ ابنِ عساكرَ» مرتين، واختصرَه لنفسه أيضًا، وأضَرَّ في آخرِ عمرِه أربعَ سنينَ، وله شعرٌ أورَد منه قُطْبُ الدينِ في «تَذْييلِه» تُوُفِّي بسفحِ قاسيونَ، وبه دُفِن في بُكْرةِ الثلاثاءِ عاشرِ رجبٍ، وقد جاوزَ التسعين، رحمه اللهُ تعالى.

القاضي مُحْيي الدينِ ابنُ الزكيِّ: أبو الفضلِ يَحْيَى ابنُ قاضي القُضاة مُحيي الدين أبي المعَالي محمد ابنِ عليِّ بنِ محمد بن يحيى بن عليِّ بن عبد العزيز بن عليِّ بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمنِ بن القاسمِ بن الوليدِ بن عبد الرحمن بن أبانِ بن عثمانَ بن عفَّانَ القُرشيُّ الأُمويُّ ابنُ الزَّكيِّ، تَوَلَّى قضاءَ دمشقَ غيرَ مرةٍ، وكذلك آباؤُه من قبلِه، كلٌّ قد وليها، وقد سَمع الحديثَ من حنبلٍ وابنِ طَبَرْزَد والكِنْديِّ وابنِ الحَرَسْتانيِّ وجماعةٍ، وحدَّث ودرَّس في مَدارسَ كثيرةٍ، وقد ولي قضاءَ الشامِ في الدولةِ الهَلاوُونيةِ، فلم يُحمَدْ على ما ذكَره أبو شامةَ، تُوُفِّي بمصرَ في الرابعَ عشَرَ من رجبٍ، ودُفِن

بالمُقَطَّم، وقد جاوَز السبعين. وله شعرٌ جيدٌ قويٌّ، وحكَىٰ الشيخُ قُطْبُ الدينِ في ذيله - بعدَ ما نسَبه كما ذكَرْنا - عن ولده القاضي بَهاء الدينِ أنه كان يَذْهَبُ إلىٰ تفْضيلِ عليٍّ علىٰ عثمانَ مُوافَقَةً لشيخِه مُحْيي الدينِ بنِ عَرَبي، ولَمنامٍ رآه بجامع دمشقَ مُعْرِضًا عنه بسببِ ما كان من بني أميةَ إليه في أيامِ صِفِّينَ، فأصْبَح فنظَم في ذلك قصيدةً يَذْكُرُ فيها ميلَه إلىٰ عليٍّ، وإن كان هو أمويًّا.

أدينُ بما دان الوَصيُّ ولا أرَىٰ سواه وإن كانت أُمَيَّةُ مَحْتِدي
ولو شهِدَتْ صِفِّينَ خَيْلي لأعْذَرَتْ وساءَ بني حربٍ هنالك مَشْهَدي
لكنتُ أسُنُّ البِيضَ عنهم مَواضِيًا وأرْوِيَ أرْماحي ولمَّا تَقَصَّدِ
وأجْلِبُها خَيلًا ورجْلًا عليهمُ وأمْنَعُهمْ نَيْلَ الخلافةِ باليدِ.

ومن شعره:

قالوا ما في جِلَّقٍ نُزْهَةٌ تُسْلِيك عمَّن أنت به مُغْرَىٰ
يا عاذلي دونك في لَحْظِه سَهْمًا وقد عارضه سطرًا

الصاحبُ فخرُ الدينِ محمدُ بن الصاحب بَهاء الدين عليِّ بن محمد بن سُلَيْم بن الحنَّا المصري: كان وزيرَ الصُّحبة، وقد كان فاضلًا، بنَىٰ رباطًا بالقَرافة الكبرىٰ، ودرَّس بمدرسةِ والده بمِصرَ، وبالشافعيِّ بعدَ ابنِ بنتِ الأعَزِّ، تُوفِّي في شعبانَ، ودُفِن بسفحِ المُقَطَّم، وفوَّض السلطانُ وزارةَ الصُّحبة إلىٰ ولده تاجِ الدينِ.

الشيخُ أبو نصر بنُ أبي الحسنِ بن الخرَّاز الصوفيُّ البغداديُّ الشاعرُ، لهُ ديوانٌ حسنٌ، وكان جميلَ المُعاشرَة، حسنَ المُذاكرَة، دخَل عليه بعضُ أصحابه، فلم يَقُمْ له، وأنْشَده قولَه:

نهَض القلبُ حينَ أقْبَلْتَ إجْلا لا لما فيه من صَحيحِ الوِدادِ
ونهوضُ القلوبِ بالوُدِّ أولى من نهوضِ الأجْسادِ للأجْسادِ.

ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة

في مُسْتَهَلِّ صفرٍ منها ركب السلطانُ من الديارِ المصرية في طائفةٍ من العَسْكَرِ إلىٰ عَسْقَلانَ، فهدَم ما بقي من سُورِها مما كان أُهْمِل في الدولة الصَّلاحية، ووجَد فيما هدَم كُوزَيْن، فيهما ألفا دينارٍ، ففرَّقهما علىٰ الأمراء، وجاءتْه البِشارةُ وهو هناك، بأن مَنْكُوتَمر كسَر جيشَ أبْغَا، ففرح بذلك، ثم عاد إلىٰ القاهرة.

وفي ربيعٍ الأول بلَغ السلطانَ أن أهلَ عَكَّا ضرَبوا رقابَ مَن في أيديهم من أسْرَىٰ المسلمين صَبْرًا بظاهرِ عَكَّا، فأمَر بمَن كان في يدِه من أسْرَىٰ أهلِ عَكَّا فضُرِبَت رقابُهم في صَبيحةٍ واحدةٍ، وكانوا قريبًا من مائة أسيرٍ.

وفيها: كمَل جامعُ المَنْشيَّة، وأُقيمَت فيه الجمعةُ في الثاني والعشرين من ربيع الآخِر.

وفيها: جرَت حُروبٌ يَطولُ ذكرُها بينَ أهلِ تونُسَ والفرنْجِ، ثم تَصالَحوا بعدَ ذلك على الهُدْنة ووضْع الحرب، بعدَ ما قُتِل من الفريقَيْن خلائقُ لا يُحْصَون.

وفي يوم الخميس ثامنَ رجبٍ دخَل الظاهرُ إلى دمشقَ، وفي صُحْبته ولدُه الملكُ السعيدُ وابنُ الحنَّا الوزيرُ وجُمهورُ الجيشِ، ثم خرَجوا مُتَفرِّقين، وتواعَدوا أن يَلْتَقُوا بالساحلِ، ليَشُنُّوا الغارةَ على جَبَلَةَ واللاذِقيَّةِ ومَرْقَبَ وعِرْقَةَ وما هنالك من البلاد، فلما اجْتَمَعوا فتَحوا صافيتا والمِجْدَلَ، ثم ساروا فنزَلوا على حصنِ الأكرادِ يومَ الثلاثاء تاسعَ عشرَ رجبٍ، وله ثلاثةُ أسْوارٍ فنصَبوا عليها المَنْجنيقات، ففتَحها قهرًا يومَ نصفِ شعبانَ، فدخلَ الجيشُ، وكان الذي يُحاصِرُه ولدُ السلطانِ الملكُ السعيدُ، فأطْلَق السلطانُ أهلَه، ومَنَّ عليهم وأجْلاهم إلى طرابُلُس، وتسَلَّم القلعةَ بعدَ عشرةِ أيامٍ من الفتحِ، فأجْلَى أهلَها أيضًا، وجعَل كنيسةَ البلدِ جامعًا، وأقام فيه الجمعةَ، وولَّى فيها نائبًا وقاضيًا وأمَر بعمارةِ البلدِ، وبعَث صاحبُ أنْطَرطوسَ بمفاتيح بلده يَطْلُبُ منه الصُّلْحَ على أن يكونَ نصفُ مُغَلِّ بلاده للسلطانِ، وأن يكونَ له بها نائبًا، فأجابه إلى ذلك، وكذلك فعَل صاحبُ المَرْقَب، فصالَحه أيضًا على المُناصَفة، ووضْع الحربِ عشرَ سنينَ، وبلَغ السلطانَ وهو مُخَيِّمٌ على حصنِ الأكرادِ أن صاحبَ جَزيرةِ قُبْرسَ قد ركِب جيشَه إلى عكَّا ليَنْصُرَ أهلَها خوفًا من السلطان، فأراد السلطانُ أن يَغْتَنِمَ هذه الفُرْصةَ، فبعَث جيشًا كثيفًا في سبْعَةَ عشَرَ شينيًّا ليَأْخذوا جزيرةَ قُبْرسَ في غَيْبة صاحبِها عنها، فسارت المَراكبُ مسْرِعةً، فلما قارَبَت الجزيرةَ جاءَتها ريحٌ قاصفٌ، فصدَم بعضُها بعضًا، فانْكَسر منها أربعةَ عشَرَ مَرْكَبًا بإذنِ الله تعالى، فغرِق خلقٌ، وأسَر الفرنْجُ من الصُّنَّاع والرجالِ قريبًا من ألفٍ وثمانمائة إنسانٍ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم سار السلطانُ، فنصَب المجَانيقَ على حصنِ عكَّا، فسأله أهلُها الأمانَ على أن يُجليَهم فأجابهم إلى ذلك، ودخل البلدَ يوم عيد الفطر فتسلمه وكان الحصن شديدَ الضَّرَرِ على المسلمين، وهو وادٍ بينَ جبَلَيْن، ثم سار السلطانُ نحوَ طَرابُلُسَ، فأرْسَل إليه صاحبُها يقولُ: ما مرادُ السلطان في هذه الأرضِ؟ فقال: جئت لأرعَى زُروعَكم، وأُخَرِّبَ بلادَكم، ثم أَعُودَ إلى حصارِكم في العامِ الآتي. فأرْسَل يَسْتَعْطِفُه ويَطْلُبُ منه المُصالَحةَ ووَضْعَ الحربِ بينَهم عشْرَ سنينَ، فأجابه إلى ذلك، وأرْسَل إليه الإسْماعيليةُ يَسْتَعطفونه على والدهم وكان مَسْجونًا بالقاهرة فقال: سلِّموا إليَّ العُلَيْقةَ، وانْزِلوا فخُذوا إقْطاعاتٍ بالقاهرةِ، وتسلَّموا أباكم.

فلما نزَلوا أمَر بحبسِهم بالقاهرةِ، واسْتَناب بحصنِ العُلَيْقة.

وفي يوم الأحدِ الثاني عشرَ من شوالٍ جاء سَيْلٌ عظيمٌ إلى دمشقَ، فأتْلَف شيئًا كثيرًا، وغرِق بسببه

ناسٌ كثيرٌ، لا سيَّما الحُجَّاجُ مِن الرومِ الذين كانوا نُزولاً بينَ النهرَيْن، أخذَهم السَّيْلُ وجمالَهم وأحمالَهم، فهلَكوا وغُلِّقَت أبوابُ البلدِ، ودخل الماءُ إلى البلدِ مِن مَرامي السُّورِ، ومِن بابِ الفَرادِيسِ، فغرَّق خانَ ابنِ المقدم وأتلف شيئًا كثيرًا، وكان ذلك في زمن الصيف أيام المشمش ودخل السلطان إلى دمشق يوم الأربعاء خامس عشرَ شوال فعزل القاضي ابن خلكان وكان له في القضاء عشر سنين، وولى القاضي عز الدين بن الصائغ وخلع عليه، وكان تقليده قد كتب بظاهر طرابلس بسفارة الوزير ابن الحنَّا، فاسر ابن خَلِّكانَ في ذي القَعْدةِ إلى مصرَ وفي حادي عشرَ شوالٍ دخَل خضرٌ الكُرديُّ شيخُ السلطانِ الملكِ الظاهرِ وأصحابُه إلى كَنيسةِ اليهودِ، فصلَّوْا فيها، وأزالوا ما فيها من شعائرِ اليهودِ، ومدُّوا فيها سماطًا، وعملوا سَماعًا، وبقُوا على ذلك أيامًا، ثم أُعيدَت إلى اليهود.

ثم خرَج السلطانُ إلى السواحلِ، فافْتَتَح بعضَها، وأشْرَف على عَكَّا وتأمَّلها، ثم سار إلى الديارِ المصرية، وكان مِقْدارُ ما غَرِمه في هذه المدةِ وفي الغَزَواتِ قريبًا من ثمانمائة ألف دينارٍ، وأخْلَفها اللهُ عليه، فكان وصولُه إلى القاهرةِ يومَ الخميسِ ثالثَ عشرَ ذي الحِجَّةِ. وفي اليومِ السابعَ عشرَ من وصوله أمْسَك على جماعةٍ من الأمراءِ، منهم الحَلَبيُّ، وغيرُه، بلَغه أنهم أرادوا مَسْكَه على الشَّقيفِ.

وفي اليومِ السابعَ عشرَ من ذي الحِجَّةِ أمَر بإراقةِ الخمورِ من سائرِ بلادِه، وتهَدَّد مَن يَعْصِرُها أو يَعتَصِرها بالقتلِ، وأسقَط ضمانَ ذلك، وكان ذلك بالقاهرةِ وحدَها، كلُّ يومٍ ضمانُه ألفُ دينارٍ، ثم سارَت البُرُدُ بذلك إلى الآفاقِ.

وفيها: قبَض السلطانُ على العزيزِ بنِ المُغيثِ صاحبِ الكَرَكِ، وعلى جماعةٍ من أصحابِه كانوا عزَموا على سَلْطنتِه.

وممَّن توُفِّي فيها من الأعْيانِ:

الملكُ تَقيُّ الدينِ عباسُ بنُ الملكِ العادلِ أبي بكرِ بنِ أيوبَ بنِ شادي وهو آخرُ مَن بقِي من أولادِ العادلِ، وقد سمِع الحديثَ مِن الكِنْديِّ وابنِ الحَرَسْتانيِّ، وكان مُحْتَرَمًا عندَ الملوكِ، لا يُرْفَعُ عليه أحدٌ في المجالسِ والمَواكبِ، وكان لَيِّنَ الأخْلاقِ، حسَنَ العِشرةِ، لا تُمَلُّ مُجالَستُه، تُوُفِّي يومَ الجمعةِ الثاني والعشرين مِن جُمادَى الآخرةِ بدربِ الرَّيْحانِ، ودُفِن بتربتِه بسفحِ قاسيونَ.

قاضي القُضاةِ شرفُ الدينِ أبو حفصٍ عمرُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ صالحِ بنِ عيسى السُّبْكيُّ المالكيُّ، وُلِد سنةَ خمسٍ وثمانين وخمسِمائةٍ، وسمِع الحديثَ، وتفَقَّه، وأفْتَى ودرَّس بالصَّالحيَّةِ، وولي حِسْبَةَ القاهرةِ، ثم ولي القَضاءَ سنةَ ستٍّ، وستين، لما ولَّوْا من كلِّ مذهبٍ قاضيًا، وقد امْتنَع أشدَّ الامْتِناعِ، ثم أجاب بعدَ إكْراهٍ، وشرَط أن لا يَأخُذَ على القَضاءِ جامكيةً، وكان مشهورًا بالعلمِ والدينِ، روَى عنه القاضي بدرُ الدينِ بنُ جَماعةَ وغيرُه. تُوُفِّي لخمسٍ بَقِين من ذي القَعْدةِ.

الطَّواشي شُجاعُ الدين مُرْشدٌ المُضَفَّرِيُّ الحَمَويُّ: كان شُجاعًا بطَلاً من الأبطال الشُّجعان، وكان له رأيٌ سَديدٌ، وكان أُستاذُه لا يُخالِفُه، وكذلك الملكُ الظاهرُ، تُوُفِّي بحَماةَ، ودُفِن بتربتِه بالقربِ من مدرسته بحَماةَ.

ابنُ سَبْعينَ: عبدُ الحقِّ بنُ إبراهيمَ بنِ محمد بن نصر بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين، قُطبُ الدين أبو محمدٍ المَقْدسيُّ الرُّقُوطيُّ: نسْبةً إلى رُقُوطةَ بَلْدةٍ قريبةٍ من مُرْسِيَةَ، وُلِد سنةَ أربعَ عشْرةَ وستِّمائةٍ، واشْتَغَل بعلْمِ الأوائلِ والفَلْسفةِ، فتولَّد له من ذلك نوعٌ من الإلحاد، وصنَّف فيه، وكان يعرف السِّيميا، فكان يُلَبِّسُ بذلك على الأغبياءِ من الأمراءِ والأغنياء، ويَزْعُمُ أنه حالٌ من أحوالِ القوم، وله من المُصنَّفات كتابُ «البُدِّ» وكتاب «الهُو» وقد أقامَ بمكةَ، واستَحْوَذ على عقلِ صاحبِها أبو نُمَيٍّ، وجاوَرَ في بعضِ الأوقات بغارِ حِراءَ يَرْتَجي - فيما يُنقَلُ عنه - أن يأتيَه فيه وَحْيٌ كما أتى النبيَّ ﷺ، بناءً على ما يَعْتقِدُه من العَقيدةِ الفاسدةِ من أن النبوة مُكْتَسَبةٌ، وأنها فَيْضٌ يَفيضُ على العقلِ إذا صفا، فما حصَل له إلا الخِزْيُ في الدنيا والآخرةِ، إن كان مات على ذلك، وقد كان إذا رأى الطائفين حولَ البيت يقولُ عنهم: كأنهم الحَميرُ حولَ المَدارِ، وإنهم لو طافوا به كان ذلك أفضلَ من طَوافِهم بالبيت. فاللهُ يَحْكُمُ فيه وفي أمثالِه، وقد نُقِلَت عنه عَظائمُ من الأقوالِ والأفعالِ، تُوُفِّي في الثامنِ والعشرين من شوالٍ بمكةَ.

ثم دخلت سنةُ سبعين وستمائةٍ من الهجرة

اسْتَهلَّت وخليفةُ الوقتِ الحاكمُ بأمرِ اللهِ أبو العباسِ أحمدُ العباسيُّ، وسلطانُ الإسلامِ الملكُ الظاهرُ.

وفي يومِ الأحدِ الرابعَ عشَرَ من المحرم، ركِب السلطانُ إلى البحرِ لإلقاءِ الشَّواني التي عُمِلَت عوضًا عما غرِق بجزيرةِ قُبْرُسَ، فركِب في شينيٍّ منها، ومعه الأميرُ بدرُ الدين الخَزْنَدارُ، فمالت بهم فسقطَ الخَزْنَدارُ في البحرِ، فغاص في الماء، فألْقَى إنسانٌ نفسَه وراءَه فأخَذ بشعرِه وأنْقَذه من الغرقِ فخلَع السلطانُ على ذلك الرجلِ، وأحْسن إليه.

وفي أواخرِ المحرمِ ركِب السلطان في نفرٍ يسيرٍ من الخاصَّكيةِ، والأمراءِ من الديارِ المصريةِ حتى قدم الكَرَكَ، واستَصْحَب نائبَها معه إلى دمشقَ، فدخَلَها في ثاني عشَرَ صفرٍ، ومعه الأميرُ عزُّ الدين أيْدَمُرُ نائبُ الكَرَكِ، فولَّاه نيابةَ دمشق، وعزَل عنها جمالَ الدينِ آقوشَ النَّجيبيَّ في رابعَ عشرَ صفرٍ، ثم خرَج إلى حَماةَ، وعاد بعدَ عشَرةِ أيامٍ.

وفي ربيعٍ الأولِ وصَلَت الجَفَّالةُ من حلَبَ وحَماةَ وحمصَ إلى دمشقَ بسببِ الخوفِ من التَّتارِ، وجفَل خَلْقٌ كثيرٌ من أهلِ دمشقَ.

وفي ربيع الآخر وصلَت العساكرُ المصريةُ إلى حَضْرة السلطان إلى دمشقَ، فسار بهم منها في سابع الشهر، فاجْتاز بحَماةَ، واسْتَصْحَب ملكَها المنصورَ، ثم سار إلى حلبَ، فخيَّم بالمَيْدان الأخضر بها، وكان سببَ ذلك أن عَساكرَ الروم جمَعوا نحواً من عشَرة آلاف فارس، وبعَثوا طائفةً منهم، فأغاروا على عَيْن تاب، ووصَلوا إلى قَسْطُونَ، ووقَعوا على طائفة من التُّرْكمان بينَ حارم وأنطاكيَةَ، فاستأْصَلوهم، فلما سمع التَّتارُ بوُصول السلطان، رجَعوا على أعقابهم، وكان بلَغه أن الفرنْجَ أغاروا على بلاد قاقُونَ، ونهَبوا طائفةً من التُّرْكُمان، فقبَض على الأمراء الذين هناك؛ حيث لم يَهْتَمُّوا بحفظ البلاد، وعاد إلى الديار المصرية.

وفي ثالث شعبانَ أمسَك السلطانُ قاضيَ الحَنابلة بمصرَ شمسَ الدين محمدَ بنَ العماد المقَدسيَّ، وأخَذ ما عندَه من الوَدائع، فأخَذ زكاتَها، وردَّ بعضَها إلى أربابها، واعتَقَله إلى شعبانَ من سنة ثنتين وسبعين، وكان الذي وشَى به رجلٌ من أهل حَرَّانَ يقالُ له: شَبيبٌ، ثم تبَيَّن للسلطان نَزاهةُ القاضي وبراءتُه، فأعاده إلى مَنصبه في سنة ثنتين وسبعين، وجاء السلطانُ في شعبانَ إلى أراضي عَكَّا، فأغار عليها، فسأله صاحبُها المُهادَنة، فأجابه إلى ذلك، فهادَنه عشْرَ سنينَ وعشَرةَ أشهر وعشَرةَ أيام وعشْرَ ساعات، وعاد إلى دمشقَ، فقُرِئ بدار السعادة كتابُ الصُّلح، واسْتَمَرَّ الحالُ على ذلك، ثم عاد السلطانُ إلى بلاد الإسماعيلية فأخَذ عامَّتَها. قال قُطْبُ الدين: وفي جُمادَى الآخرة ولدَت زَرافةٌ بقلعة الجبل، وأُرضعَت من بقرة. قال: وهذا شيءٌ لم يُعْهَدْ مثلُه.

وفيها توفِّي:

الشيخُ كمالُ الدين سَلاَّرُ بنُ حسن بن عمرَ بن سعيد الإرْبليُّ الشافعيُّ، أحدُ مَشايخ المذهب، وقد اشْتَغل عليه الشيخُ مُحْيي الدين النَّوويُّ، وقد اخْتَصَر «البحرَ» للرُّويانيِّ في مجلدات عديدة هي عندي بخطِّ يده، وكانت الفُتْيا تَدورُ عليه بدمشق، تُوُفِّي في عَشْر السبعين، ودُفن بباب الصغير، وكان مُعيدًا بالباذرائية من أيام الواقف، لم يَطْلُبْ زيادةً على ذلك إلى أن تُوُفِّي في هذه السنة.

وجيهُ الدين محمدُ بنُ عليِّ بن أبي طالب بن سُوَيْد التَّكْريتيُّ، التاجرُ الكبيرُ ذو الأموال الكثيرة، وكان مُعَظَّمًا عندَ الدولة، ولا سيَّما عندَ الملك الظاهر، كان يُجِلُّه ويكْرِمُه؛ لأنه كان قد أسْدَى إليه جَميلاً في حال إمرته قبلَ أن يَليَ السَّلْطنةَ، ودُفن برباطه وتربته بالقرب من الرِّباط الناصريِّ بقاسيونَ، وكانت كتبُ الخليفة تَرِدُ إليه في كلِّ وقت، وكانت مُكاتَباتُه مَقْبولةً عندَ جَميع الملوك، حتى ملوك الفرنج في السواحل وفي أيام التتار في أيام هَولاَوون، وكان كثيرَ الصَّدَقات والبرِّ.

نجمُ الدين يَحْيى بنُ محمد بن عبد الواحد بن اللبوديِّ واقفُ اللبودية التي عندَ حَمَّام الفلك المُسيري على الأطباء، ولديه فَضيلةٌ بمعرفة الطبِّ، وقد ولي نظَرَ الدَّواوين بدمشقَ، ودُفن بتربته عندَ اللبودية.

الشيخ عليٌّ البَكَّاءُ: صاحبُ الزاوية بالقرب من بلد الخليل، عليه السلام، كان مشهورًا بالصلاح والعبادة والإطْعام لمَن اجْتاز به من المارَّة والزُّوَّار، وكان الملكُ المنصورُ قَلاوُون يُثْني عليه ويذكرُ أنَّه اجتمع به وهو أميرٌ، وأنه كاشَفه في أشياءَ وقَعَت جميعُها، ومن جملتها أنه سيَمْلِكُ. نقَل ذلك قُطْبُ الدين اليُونِينيُّ، وذكَر أن سببَ بُكائه الكثير أنه صحب رجلاً كانت له أحْوالٌ وكَراماتٌ، وأنه خرَج معه من بغدادَ، فانْتَهوْا في ساعة واحدة إلى بَلْدة بينَها وبينَ بغدادَ مَسيرةُ سنة، وأن ذلك الرجلَ قال له: إني سأمُوتُ في الوقت الفُلانيِّ، فاشْهَدْني في ذلك الوقت، قال: فلما كان في ذلك الوقت حضَرْتُ عندَه وهو في السِّياق، وقد اسْتَدار إلى جهة الشرق، فحوَّلْتُه إلى القبلة، فاستَدار، إلى الشرق، فحوَّلْتُه أيضًا، ففتَح عينيه وقال: لا تتْعبْ فإني لا أَموتُ إلا على هذه الجهة. وجعَل يَتَكَلَّمُ بكلام الرُّهبان حتى مات، فحمَلْناه فجئْنا به إلى دَيْر هناك، فوجَدْناهم في حُزْن عظيم، فقلْنا لهم: ما شأنُكم؟ فقالوا: كان عندَنا شيخٌ كبيرٌ ابن مائة سنة، فلما كان اليومُ مات على الإسلام، فقلْنا لهم: خُذوا هذا بَدَلَه وسلِّموا إلينا صاحبَنا. قال: فولِيناه، فغسَّلْناه وكفَّنَّاه وصلَّيْنا عليه ودفَنَّاه مع المسلمين، وولَّوا هم ذلك الرجلَ فدفَنوه في مَقبرة النَّصارى، نَسْأَلُ اللهَ تعالى حُسْنَ الخاتمة، مات الشيخُ عليٌّ في رجبٍ من هذه السنة.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وستمائة

في خامس المحرم وصَل الظاهرُ دمشقَ من بلاد السَّواحل التي فتَحها وقد مهَّدها، وركِب في أواخر المحرم إلى القاهرة، فأقام بها سنةً، ثم عاد فدخَل دمشقَ في رابع صفر.

وفي المحرم منها وصَل صاحبُ النُّوبة إلى عَيْذَابَ، فنهَب تُجارها، وقتَل خلقًا من أهلها، منهم الوالي والقاضي، فسار إليه الأميرُ علاءُ الدين أيْدُغْدي الخَزندارُ، فقتَل خلقًا من بلاده، ونهَب وحرَّق وهدَ ودوَّخ البلادَ، وأخَذ بالثأر، ولله الحمد والمنةُ.

وفي ربيع الأول تُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين محمدُ بن مُظفَّر الدين عثمانَ بن ناصر الدين منْكورس صاحبُ صِهْيَونَ، ودُفن في تربة والده في عَشْر السبعين، وكان له في مُلك صِهْيَونَ وبَرْزَيَه إحدى عشْرَةَ سنةً، وتسلَّمها بعدَه ولدُه سابقُ الدين، وأرْسَل إلى الملك الظاهر يَسْتَأْذِنُه في الحُضور، فأذن له، فلما حضَر أقطعه خبزًا وبعَث إلى البلدَيْن نُوَّابًا من جهته.

وفي خامس جُمادَى الأولى وصَل السلطانُ بعسكره إلى الفُرات؛ لأنه بلغه أن طائفةً من التَّتار هنالك، فخاض إليهم الفُراتَ بنفسه وجُنده، وقتلَ من أولئك مَقْتَلةً وخلقًا كثيرًا، وكان أولَ من اقتحَم الفُرات يومئذ الأميرُ سيفُ الدين قلاوُون وبدرُ الدين بَيْسَري، وتبعَهما السلطانُ، ثم فعَل بالتَّتارَ ما فعَل، ثم ساق إلى ناحية البيرة، وقد كانت مُحاصَرةً بطائفة من التَّتار أخرى، فلما سمعوا

بقُدومه هرَبوا وتركوا أموالَهم وأثقالَهم، ودخَل السلطانُ إلى البِيرةِ في أُبَّهةٍ عظيمةٍ، وفرَّق في أهلِها أموالاً كثيرةً، ثم عاد إلى دمشقَ في ثالث جُمادَى الآخرة، ومعه الأسرَى وخرَج منها في سابعه إلى الديارِ المصرية، وخرَج ولدُه الملك السعيد لتلقيه، ودخلا إلى القاهرة، وكان يومًا مشهودًا وممّا قاله القاضي شِهابُ الدينِ محمودٌ الكاتبُ وأولادُه يقالُ لهم: بنو الشِّهابِ محمودٍ - في خَوْضِ السلطانِ الفُراتَ بالجيشِ:

سِرْ حيث شئتَ لك المُهيمنُ جارُ ... واحكُمْ فطَوْعُ مُرادِك الأقدارُ
لم يَبْقَ للدِّينِ الذي أظهرتَه ... يا رُكْنَه عندَ الأعادي ثارُ
لمّا تراقصَتِ الرءوسُ تحرَّكَت ... مِن مطرِباتِ قِسِيِّك الأوتارُ
خُضتَ الفُراتَ بسابحٍ أقْصَى به ... موجُ الصَّبا من فعلِه الآثارُ
حمَلَتْك أمواجُ الفُراتِ ومَن رأى ... بحرًا سِواك تُقلُّه الأنهارُ
وتقطَّعَت فِرَقًا ولم يكُ طودَها ... إذ ذاك إلا جَيْشُك الجرّارُ

وقال بعضُ مَن شاهد ذلك:

ولما تراءَيْنا الفُراتَ بخَيْلِنا ... سَكَرْناه منا بالقنا والصوارمِ
فأوقفتِ التيارَ عن جرَيانِه ... إلى حينِ عُدْنا بالغنى والغنائمِ

وقال آخرُ ولا بأسَ به

الملكُ الظاهرُ سلطانُنا ... نَفديه بالأموالِ والأهلِ
اقتحمَ الماءَ ليُطفِي به ... حرارةَ القلبِ مِن الغِلِّ

وفي يومِ الثلاثاء ثالثَ رجبٍ خلَع على جميعِ الأمراءِ من حاشيتِه ومُقَدَّمي الحَلْقة وأرْباب الدولة، وأعطَى كلَّ إنسانٍ ما يَليقُ به مِن الخيلِ والذهبِ والحوائصِ، وكان مَبْلَغُ ما أنْفَقَ بذلك نحوَ ثلاثِمائة ألفِ دينارٍ.

وفي شعبانَ أرْسَل السلطانُ إلى منكُوتَمُر هدايا عظيمةً.

وفي يومِ الإثنين ثاني عشرَ شوّالٍ استَدْعَى السلطانُ شيخَه الشيخَ خضِرًا الكُرْديَّ إلى بين يديه إلى القلعة، وحُوقِق على أشياء كثيرةٍ رُمِي بها، وعلى منكراتٍ كثيرةٍ ارتكَبها، فأمَر السلطانُ عندَ ذلك باعتقاله وحَبْسِه ثم باغتياله وكان آخرَ العهدِ به.

وفي ذي القعدة سلَّمَت الإسْماعيليةُ ما كان بقِي بأيديهم من الحصونِ، وهي الكَهْفُ والقَدْمُوسُ والمِينقةُ، وعُوِّضوا عن ذلك بإقطاعاتٍ، ولم يَبْقَ بالشامِ شيءٌ لهم مِن القِلاعِ، واستَناب السلطانُ فيها.

وفيها: أمَرَ السلطانُ بعمارةِ جُسُورةٍ في السَّواحلِ، وغرِمَ عليها مالاً كثيرًا وحصَلَ للناسِ بذلك رِفقٌ كبيرٌ.

ومِمن توفِّي فيها من الأعيان:

الشيخُ تاجُ الدين أبو الفضلِ يحيى بنُ محمد بن أحمدَ بن حمزةَ بن عليِّ بن هبة الله بن الحُبُوبيِّ، التَّغْلبيُّ الدمشقيُّ: كان من أعيانِ أهلِ دمشقَ، ولِيَ نظرَ الأيتام والحِسْبَةِ، ثم وكالةَ بيتِ المالِ، وسمع الكثيرَ، وخرَّج له ابن بَلَبانَ مشيَخةً قرأها عليه الشيخُ شرفُ الدينِ الفَزاريُّ بالجامع، فسمعها جَماعةٌ من الأعيانِ والفُضلاءِ، رحمه اللهُ.

الخطيب فخرُ الدينِ أبو محمد عبدُ القاهرِ بنُ عبد الغَني بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن تيْميَّةَ الحَرَّانيُّ، الخطيبُ بها، وبيتُه مَعروفٌ بالعلمِ والخَطابةِ والرِّياسةِ، ودُفِن بمَقْبرةِ الصوفيةِ، وقد قارَب الستين، رحمه اللهُ تعالى، وقد سمع الحديثَ من جدِّه الخطيبِ فخرِ الدينِ صاحبِ ديوانِ الخُطَبِ المشهورة، تُوُفِّي بخانْقاه القصرِ ظاهرِ دمشقَ.

الشيخُ خَضرُ بن أبي بكر المِهْرانيُّ العَدَويُّ: شيخُ الملكِ الظاهرِ بَيبَرْسَ، كان حَظيًّا عندَه مُكرَّمًا لديه، له عندَه المكانةُ الرَّفيعةُ، كان السلطانُ يَنْزِلُ بنفسِه إلى زاويته التي بناها له في الحُسَيْنيةِ في كلِّ أسبوعٍ مرةً أو مرتين، وبنَى له عندَها جامعًا يَخْطُبُ فيه للجمعة، وكان يُعْطيه مالاً كثيرًا، ويطلقُ له ما أراد، ووقَف على زوايته شيئًا كثيرًا جدًا، وكان مُعَظَّمًا عندَ الخاصِّ والعامِّ بسببِ حبِّ السلطانِ وتَعْظيمه له، وكان يُمازِحُه إذا جلَس عندَه، وكان فيه خيرٌ ودينٌ وصلاحٌ، وقد كاشَفَ السلطانَ بأشياءَ كثيرةٍ، وقد دخَل مرةً كَنيسةَ القُمامة بالمقدسِ، فذبَح قِسِّيسَها بيدِه، ووهَب ما فيها لأصحابِه، وكذلك فعَل بالكنيسةِ التي بالإسكندريةِ، وهي من أعظمِ كنائسِهم، نهَبها وحوَّلها مسجدًا ومدرسةً، أنفق عليها أموالاً كثيرةً من بيتِ المالِ، وسمَّاها المدرسةَ الخَضْراءَ، وكذلك فعَل بكنيسةِ اليهودِ بدمشقَ، دخَلها ونهَب ما فيها من الآلاتِ والأمتعة، ومدَّ فيها سماطًا، واتَّخَذَها مسجدًا مدةً، ثم سعَوْا إليه في ردِّها إليهم وإبقائها عليهم، ثم اتَّفق في هذه السنة أنه وقَعَت منه أشياءُ أنكرَت عليه، وحُوقِق عليها عند السلطانِ الملكِ الظاهرِ، فظهر له منه ما أوْجَبَ سَجْنَه، ثم أمَر بإعْدامِه وهَلاكِه وكانت وفاتُه في هذه السنةِ، ودُفِن بزاويته، سامَحه اللهُ، وقد كان السلطانُ يُحبُّه محبةً عظيمةً حتى إنه سمَّى بعضَ أولادِه خضرًا موافقةً لاسمِه، وإليه تُنْسبُ القُبَّةُ التي على الجبلِ غربيَّ الرَّبْوةِ التي يقالُ لها: قبةُ الشيخ خَضِرٍ.

مصنِّفُ «التَّعْجيز» العلَّامةُ تاجُ الدين عبدُ الرحيم بن محمد بن محمد بن يونُسَ بن محمد بن سعد ابن مالك، أبو القاسم الموصليُّ: من بيتِ الفقهِ والرِّياسةِ والتَّدْريس، وُلِد سنةَ ثمانٍ وتسعين

وخمسمائة، وسمع واشتغل وحصَّل وصنَّف، واختصر «الوجيز» في كتابه «التَّعجيز» واختصر «المحصول» وله طريقةٌ في الخلاف أخذها عن ركن الدين الطاوسيِّ، وكان جدُّه عمادُ الدين بنُ يونس شيخَ المذهب في وقته، كما تقدَّم.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وستمائة

في صفر منها قدم الملكُ الظاهرُ إلى دمشقَ، وقد بلغه أن أبغا وصل إلى بغدادَ، فتصيَّد بتلك الناحية، فأرسل إلى العساكر المصرية أن يتأهَّبوا للحضور، واستعدَّ السلطانُ لذلك.

وفي جمادى الآخرة أحضر ملكَ الكُرج إلى بين يديه بدمشقَ، وكان قد جاء متنكِّرًا لزيارة المقدس، فظُهر عليه، فحُمل إلى بين يديه، فسجنه بالقلعة.

وفيها: كمل بناءُ جامع دير الطِّين ظاهرَ القاهرة، وصُلِّيَ فيه الجمعةَ.

وفيها: سار السلطانُ إلى القاهرة، فدخلها في سابع رجب.

وفي أواخر رمضانَ دخل الملكُ السعيدُ بن الظاهر إلى دمشقَ في طائفة من الجيش، فأقام بها شهرًا ثم عاد.

وفي يوم عيد الفطر ختن السلطانُ ولدَه خضرًا الذي سمَّاه باسم شيخه، وخُتن معه جماعةٌ من أولاد الأمراء، وكان وقتًا هائلاً.

وفيها: فوَّض ملكُ التَّتار إلى علاء الدين صاحب الديوان ببغدادَ النظرَ في أمر تُستَرَ وأعمالها، فسار إليها ليتصفَّحَ أحوالَها، فوجد بها شابًّا من أبناء التُّجار يقال له: لي. قد قرأ القرآنَ وشيئًا من الفقه و«الإشارات» لابن سينا، ونظر في النجوم، ثم ادَّعى أنه عيسى بنُ مريمَ، وصدَّقه على ذلك جماعةٌ من جهلة تلك الناحية، وقد أسقط لهم من الفرائض صلاةَ العصر وعشاءَ الآخرة، فاستحضره وسأله عن ذلك فرآه ذكيًّا إنما يفعل ذلك عن قصد فأمر به فقتل بينَ يديه، جزاه الله خيرًا، وأمر العوامَّ فنهبوا أتباعَه.

وممن تُوفي فيها من الأعيان:

مؤيَّدُ الدين أبو المعالي الصدرُ الرئيسُ أسعدُ بنُ أبي غالب المظفَّر الوزير مؤيَّد الدين أسعدَ بن حمزةَ بن أسعدَ بن عليِّ بن محمد التَّميميُّ بنُ القلانسيِّ، جاوز التسعين، وكان رئيسًا كبيرًا واسعَ النِّعمة، لا يُباشرُ شيئًا من الوظائف، وقد ألزموه بعدَ ابن سُوَيْد بمباشرة مصالح السلطان، فباشرها بلا جامكيَّة، وكانت وفاتُه ببستانه، ودُفن بسفح قاسيونَ يومَ الثلاثاء ثالثَ عشرَ المحرم، والدُ الصدر عزِّ الدين حمزةَ رئيسُ البلدين دمشقَ والقاهرة، وجدُّهم مؤيَّدُ الدين أسعد بن حمزة الكبير، كان وزيرًا للملك الأفضل عليِّ بن الناصر فاتح القدس، كان رئيسًا فاضلاً، له كتابُ «الوصية في الأخلاق المرضيَّة» وغيرُ ذلك، وكانت له يدٌ جيدةٌ في النَّظم، فمن ذلك قولُه:

يا ربِّ جُدْ لي إذا ما ضمَّني جَدَثي ... برحمة منك تُنجيني من النار
أحْسِنْ جواري إذا أمْسَيْتُ جارَك في ... لَحْدي فإنَّك قد أوْصَيْتَ بالجار

وأمَّا والدُه حمزةُ بنُ أسْعَدَ بنِ عليِّ بن محمدٍ التَّميميُّ فهو العَميدُ، وكان يَكْتُبُ جيداً، وصنَّف تاريخاً فيما بعدَ سنة أربعين وأربعمائة إلى سنة وفاته في خمسٍ وخمسين وخمسمائة.

الأميرُ الكبيرُ فارسُ الدين أقْطاي المُسْتَعْرِبُ، أتابَك العساكرِ المصرية كان أولاً مَمْلوكاً لابنِ يُمْنٍ، ثم صار مملوكاً للصالح أيوبَ فأمَّره، ثم عظُم شأنُه في دولةِ المُظَفَّرِ، وصار أتابَكَ العَساكرِ، فلما قُتِل امْتَدَّت أطْماعُ أكابرِ الأمراءِ إلى المَملكة، فبايَع أقْطاي الملكَ الظاهرَ، فتبِعه الجيشُ على ذلك، وكان الظاهرُ يَعْرِفُها له ولا يَنْساها، ثم قبلَ وفاته بقليلٍ انْهَضَم عندَ الظاهرِ، ومات في هذه السنة بالقاهرة.

الشيخُ عبدُ الله بنُ غانم بن عليِّ بن إبراهيمَ بن عساكرَ بن الحسين المَقْدسيُّ: له زاويةٌ بنابُلُسَ، وله أشعارٌ رائقةٌ، وكلامٌ قويٌّ في علمِ التَّصَوُّفِ، وقد طوَّل اليُونينيُّ ترجمتَه، وأوْرَد من أشعاره شيئاً كثيراً.

قاضي القُضاة كَمالُ الدين أبو الفتح عمرُ بنُ بُنْدارِ بن عمرَ بن عليٍّ التَفْليسيُّ الشافعيُّ: وُلد بتَفْليسَ سنةَ إحدى وستِّمائةٍ، وكان فاضلاً أصوليًّا مُناظراً، ولِي نيابةَ الحكم مدةً، ثم استَقلَّ بالقَضاء في دولة هَلاوُون، وكان عَفيفا نزهاً، لم يَزْدَدْ منصباً ولا تَدْريساً مع كثرة عِياله وقلة ماله، ولما انْقضَت أيامُهم.

تغَضَّب عليه بعضُ الناس، ثم أُلْزِم بالمَسيرِ إلى القاهرة، فأقام بها يُفيدُ الناسَ، إلى أن تُوُفِّي في ربيع الأول من هذه السنة، ودُفِن بالقَرافة الصُّغرى.

إسماعيلُ بن إبراهيم بن شاكر بن عبد الله التَّنوخيُّ، وتَنُوخُ من قُضاعةَ، كان صدْراً كبيراً، وكَتَب الإنْشاءَ للناصرِ داودَ بن المُعَظَّم، تولَّى نظَرَ المارَسْتانِ النُّوريِّ وغيره، وكان مَشْكورَ السِّيرة، وقد أثْنَى عليه غيرُ واحدٍ، وقد جاوَز الثمانين، ومن شعره قولُه:

خابَ رَجاءُ امْرِئٍ له أملٌ ... بغيرِ ربِّ السماءِ قد وصَلَهْ
أيَبْتَغي غيرَه أخو ثقةٍ ... وهْو ببطنِ الأحْشاءِ قد كفَلَهْ

وله أيضاً:

خَرِس اللسانُ وكَلَّ عن أوصافكمْ ... ماذا يقولُ وأنتمُ ما أنتمُ
الأمرُ أعظمُ من مَقالةِ قائلٍ ... قد تاه عقلاً أن يُعَبِّرَ عنكمْ
العجزُ والتَّقصيرُ وَصْفي دائماً ... والبِرُّ والإحْسانُ يُعْرَفُ منكمْ

الشيخُ جَمالُ الدين بن مالك: محمدُ بن عبد الله بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائيُّ الجَيَّانيُّ النحويُّ: صاحبُ التَّصانيفِ المشهورةِ المُفيدة؛ منها «الكافيةُ الشافيةُ» و«شرحُها» و«التَّسْهيلُ»

و«شرحُه» و«الألفيةُ» التي شرَحها ولدُه بدرُ الدين شرحًا مفيدًا وُلِدَ بجيَّانَ سنة ستِّمائة، وأقام بحلبَ مدةً، ثم بدمشقَ، وكان كثيرَ الاجْتماع بابنِ خَلِّكانَ، وأثْنَىٰ عليه غيرُ واحدٍ، وروَىٰ عنه القاضي بدرُ الدينِ بنُ جَماعةَ، وأجاز لشيخنا عَلَم الدين البرزالي توفي ابن مالك بدمشق ليلةَ الأربعاءِ ثاني عشر رمضان ودُفِن بتربةِ القاضي عزِّ الدينِ بن الصائغ بقاسيونَ.

النصيرُ الطُّوسيُّ: محمدُ بن محمد بن الحسن أبو عبد الله الطوسي: كان يقالُ له: المولىٰ نَصيرُ الدينِ. ويقالُ: الخَواجَا نَصيرُ الدينِ. اشْتَغَل في شَبيبته، وحصَّل علمَ الأوائلِ جيدًا، وصنَّف في ذلك في علم الكلام، وشَرَح «الإشارات» لابنِ سينا، ووزَر لأصحابِ قِلاعِ الألموتِ من الإسْماعيلية، ثم وزَر لهولاكو، وكان معه في واقعة بغدادَ، ومن الناس مَن يَزْعُمُ أنه أشار علىٰ هُولاكو بأن يَقْتُلَ الخليفةَ، فاللهُ أعلمُ، وعندي أن هذا لا يَصْدُرُ من فاضلٍ ولا عاقلٍ، وقد ذكَره بعضُ البَغادِدة، فأثْنَىٰ عليه وقال: كان عاقلاً فاضلاً، كريمَ الأخلاقِ.

ودُفِن في مشهدِ موسىٰ بن جعفرٍ، و في سِرْدابٍ كان قد أُعِدَّ للخليفة الناصرِ لدينِ الله، وهو الذي كان قد بنَىٰ الرَّصَدَ بمَراغةَ، ورتَّب فيه الحُكماءَ من الفَلاسفة والمُتكلِّمين والفُقهاءِ والمُحدِّثين والأطباءِ وغيرهم من أنواع الفُضلاءِ، وبنَىٰ له فيه قبةً عظيمةً، وجعَل فيه كتبًا كثيرةً جدًّا، تُوفِّي ببغدادَ في ثاني عشَرَ ذي الحِجَّة من هذه السنة، وله خمسٌ وسبعون سنةً، وله شعرٌ جيدٌ، قويٌّ، وأصلُ اشْتغاله علىٰ المُعينِ سالمِ بن بدرانَ بنِ عليٍّ المصريِّ المُعْتزليِّ المُتَشيِّع، فنزعَ فيه عروقٌ كثيرةٌ منه، حتىٰ فسَد اعْتِقادُه.

الشيخُ مُسَلَّمٌ البَرْقيُّ البدَويُّ: صاحبُ الرِّباطِ بالقرافة الصغرىٰ، كان صالحًا مُتَعَبِّدًا يُقْصَدُ، للزِّيارة والتَّبَرُّك بدعائه، وله اليومَ أصحابٌ مَعْروفون علىٰ طريقه.

ثمَّ دخلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة

فيها: اطَّلع السلطانُ علىٰ ثلاثةَ عشَرَ أميرًا من المصريين، منهم قجقارُ الحَمَويُّ، وقد كانوا كاتَبوا التَّتَرَ يَدْعُونهم إلىٰ بلاد المسلمين، وأنهم معهم علىٰ السلطانِ، فأخذُوا فأقرُّوا بذلك، وجاءت كتبُهم مع البَريدية فكان آخرَ العهد بهم.

وفيها: أقْبَل السلطانُ بالعساكرِ، فدخَل بلادَ سِيسَ من ناحية الدَّرْبَنْدات فملكَها، وملَك إياسَ والمصِّيصةَ وأذَنَةَ، وكان دخولُه إلىٰ سِيسَ يومَ الإثنينِ الحادي والعشرين من رمضانَ، فقتَلوا خلقًا لا يَعْلَمُهم إلا اللهُ، وغنِموا شيئًا كثيرًا من الأبقارِ والأغْنام والأثْقال والدوابِّ والأنعام، فأبيع بأرخصِ ثمنٍ، ثم عاد فدخَل دمشقَ مُؤَيَّدًا منصورًا في شهرِ ذي الحِجَّة، فأقام بها حتىٰ انقضَت السنةُ.

وفيها: ثار علىٰ أهلِ الموصلِ رَمْلٌ حتىٰ عمَّ الأُفُقَ، وخرَجوا من دُورهم يبْتَهلون إلىٰ اللهِ حتىٰ

كشف ذلك عنهم والله تعالى أعلم.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

ابن عَطاء الحَنَفيُّ: قاضي القُضاة شمسُ الدين أبو محمد عبدُ الله بن الشيخ شرف الدين محمد بن عَطاء بن حسن بن عَطاء بن جُبَيْر بن جابر بن وُهَيْب الأذْرَعيُّ الحنفيُّ، وُلِدَ سنةَ خمس وتسعين وخمسمائة، سمع الحديثَ وتفقَّه على مذهب أبي حنيفةَ، وناب في الحكم عن الشافعيِّ مدةً، ثم استَقَلَّ بقضاء الحنفية أولَ ما وَلِيَتْ القُضاةُ من المذاهب الأربعة، ولما وقَعت الحَوْطةُ على أملاك الناس أراد السلطانُ منه أن يَحْكُمَ بها بمُقْتَضَى مذهبه، فغضب من ذلك وقال: هذه أملاكٌ بأيدي أربابها، وما يَحِلُّ لمسلم أن يَتَعَرَّضَ لها. ثم نهَض من المجلس فذهَب، فغضب السلطانُ من ذلك غضبًا شديدًا، ثم سكَن غضبُه، فكان يُثْني عليه بعدَ ذلك ويَمْدَحه، ويقولُ: لا تُثْبتوا كتابًا إلا عندَه كان ابن عطاء من العلماء الأخيار، كثيرَ التَّواضُع، قليلَ الرغبة في الدنيا، روَى عنه ابنُ جَماعةَ، وأجاز للبِرْزاليِّ. تُوُفِّي يومَ الجمعة تاسعَ جُمادَى الأولى، ودُفِن بالقرب من المُعظَّمية بسفح قاسيونَ، رحمه الله تعالى.

بيمُندُ بن بيمُندَ بن بيمُندَ، إبْرِنْسُ طرابُلُس الفرنْجيُّ، كان جدُّه نائبًا لبنت صنجلَ الذي تَمَلَّك طرابُلُس من ابن عَمَّار في حدود الخمسمائة، وكانت يَتيمةً تَسْكُنُ بعضَ جَزائر البحر، فتغَلَّب هذا على البلد لبُعدها عنه، ثم استَقَلَّ بها والدُه، ثم حفيدُه هذا، وكان شكلاً مَليحًا، قال قُطْبُ الدين اليُونينيُّ: رأيْتُه ببَعْلَبَكَّ في سنة ثمانٍ وخمسين وستِّمائة حينَ جاء مُسَلِّمًا على كتبُغَانُوين، ورام أن يَطْلُبَ منه بَعْلَبَكَّ، فشق ذلك على المسلمين. ولما تُوُفِّي دُفِن في كَنيسة طرابُلُس، ولما فتَحها المسلمون في سنة ثمانٍ وثمانين وستِّمائة نَبَش الناسُ قبرَه، وأخرَجوه منه، وألْقَوْا عظامَه على المَزابل للكلاب.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمائة

لما كان يومُ الخميس ثامنَ جُمادَى الآخرة، نزَل التتارُ على البِيرَة في ثلاثين ألفَ مُقاتل؛ خمسةَ عشَرَ ألفًا من المغُول، وخمسةَ عشَرَ ألفًا من الروم، والمُقَدَّمُ على الجميع البَرْوَاناه، بأمْر أبْغَا ملك التَّتر، ومعهم جيشُ المَوْصل وجيشُ ماردينَ والأكرادُ، ونصَبوا عليها ثلاثةً وعشرين مَنْجَنيقًا، فخرَج أهلُ البيرَة في الليل، فكبسوا عسكرَ التَّتار، وأحرَقوا المَنْجَنيقات، ونهَبوا شيئًا كثيرًا، ورجَعوا إلى بيوتهم سالمين، فأقام عليها الجيشُ مدةً إلى تاسعَ عشَرَ الشهر المذكور، ثم رجَعوا عنها بغَيْظهم لم يَنالُوا خيرًا، وكفَى اللهُ المؤمنين القتالَ، وكان اللهُ قويًّا عزيزًا.

ولما بلَغ السلطانَ نُزولُ التتر على البِيرة أنفَق في الجيش ستمائة ألف دينار، ثم ركِب سريعًا وفي صحبته ولدُه السعيدُ، فلما كان في أثناء الطريق بلغه رَحيلُ التَّتر عنها، فعاد إلى دمشقَ، ثم ركِب في

رجب إلى القاهرة، فدخَلها في ثامنَ عشرَ، فوجَد بها خمسةً وعشرين رسولاً من جهة مُلوك الأرض ينتظرونه، فتلقَّوه وحدَّثوه وقبَّلوا الأرضَ بينَ يديه، ودخَل القلعةَ في أبَّهة عظيمة.

ولما عاد البَرْوَاناه إلى بلاد الروم حلَّف الأمراءَ الكبار، منهم شرفُ الدين مسعودٌ وضياءُ الدين محمودٌ ابنا الخَطير، وأمينُ الدين ميكائيلُ، وحُسامُ الدين بيجارُ، وولدُه بَهاءُ الدين، على أن يكُونوا من جهة السلطان الملك الظاهر، ويُنابذوا أبْغَا، فحلفوا له على ذلك، وكتَب إلى الظاهر بذلك، وأن يُرْسِلَ إليه جيشًا، ويَحْملَ له ما كان يَحْمِلُه إلى التَّتار، ويكونَ غياثُ الدين كَيْخُسْرو على ما هو عليه، يَجْلِسُ على تَخْت مَمْلكة الروم.

وفي هذه السنة استَسقَى أهلُ بغدادَ ثلاثةَ أيامٍ ولاءً فلم يُسْقَوا.

وفيها: في رمضانَ منها وُجِد رجلٌ وامرأةٌ في نَهارِ رمضانَ على فاحشة الزِّنَا، فأمَر عَلاءُ الدين صاحبُ الدِّيوانِ برجمِهما فرُجما، ولم يُرْجَمْ ببغدادَ قبلَهما قطُّ أحدٌ منذُ بُنِيَت. وهذا غريبٌ جدًّا.

وفيها: استَسقَى أهلُ دمشقَ أيضًا مرتين؛ في أواخرِ رجبٍ وأوائلِ شعبانَ وكان ذلك في آواخرِ كانونَ الثاني - فلم يُسْقَوْا أيضًا.

وفيها: أرْسَل السلطانُ جيشًا إلى دُنْقُلَةَ، فكسَر جيشَ السُّودان، وقتَلوا منهم خلقًا، وأسَروا شيئًا كثيرًا من السودانِ بحيث أُبيعَ الرقيقُ الرأسُ بثلاثة دراهمَ، وهرَب ملكُهم داودُ إلى صاحب النُّوبة، فأرْسَله إلى الملك الظاهرِ مُحْتاطًا عليه، وقرَّر الملكُ الظاهرُ على أهلِ دُنْقُلَةَ جِزْيةً تُحْملُ إليه في كلِّ سنةٍ، كلُّ ذلك كان في شعبانَ من هذه السنة.

وفيها: عُقِد عَقد الملكِ السعيدِ بن الظاهرِ، على بنتِ الأميرِ سيفِ الدين قلاوُون الألْفيِّ، في الإيوانِ بحَضْرةِ السلطان والدولة على صَداقٍ خمسةِ آلافِ دينارٍ، يُعَجَّلُ منها ألفا دينار، وكان الذي كتَبه وقرَأه مُحْيي الدين بنُ عبدِ الظاهر، فأعْطِي مائةَ دينارٍ، وخُلِع عليه. ثم ركب السلطانُ مُسْرعًا، فوصَل إلى حصنِ الكَرَك، فجمَع القَيْمُريةَ الذين به فإذا هم ستمائة نفر، فأمَر بشَنْقِهم فشُفِع فيهم عندَه، فأطْلَقهم وأجْلاهم منه إلى مصرَ، وكان قد بلَغه عنهم أنهم يُريدُون قتلَ مَن فيه، ويُقيمُوا مَلكًا عليهم، وسلَّم الحصنَ إلى الطَّواشي شمسِ الدينِ رضوانَ السُّهَيْليِّ، ثم عاد في بقية الشهرِ إلى دمشقَ، فدخَلها يومَ الجمعة ثامنَ عشرَ الشهرِ.

وفيها: كانت زَلْزلةٌ بأخْلاطَ واتَّصلَت ببلادِ بكرٍ.

ومِمن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الشيخُ الإمامُ الأديبُ العَلَّامةُ تاجُ الدين أبو الثَّناء محمودُ بن عباد بن الحسين بن محمد بن عليٍّ التَّميميُّ الصَّرْخَديُّ الحَنَفيُّ، كان مشهورًا بالفقهِ والأدبِ، والعفةِ والصَّلاحِ، ونَزَاهةِ النفسِ ومَكارمِ

الأخلاق، وُلد سنةَ ثمانٍ وسبعين وخمسمائةٍ، وسمع الحديثَ وروَى، ودُفن بمَقابرِ الصُّوفيةِ في ربيعٍ الآخِرِ منها، وله ستٌّ وتسعون سنةً رحمه اللهُ.

الشيخُ الإمامُ عمادُ الدينِ عبدُ العزيز بن محمد بن عبد القادرِ بن عبد الخالق، بن خَليل بن مقلد الأنصاريُّ الدمشقي، المعروفُ بابن الصائغ، كان مُدَرسًا بالعَذراويةِ وشاهدًا بالخزانةِ بالقلعةِ، يَعْرفُ الحسابَ جيدًا، وله سَماعٌ وروايةٌ، ودُفن بقاسيونَ.

ابن الساعي المُؤرِّخُ: تاجُ الدينِ بن المُحتسبِ المَعْروفُ بابنِ الساعي البَغداديُّ، وُلد سنةَ ثلاثٍ وتسعين، وسمع الحديثَ، واعتَنى بالتاريخِ، وجمَع وصنَّف ولم يكنْ بالحافظِ ولا الضابطِ المُتقنِ. وقد أوْصَى إليه ابنُ النَّجَّارِ حينَ تَوُفِّي، وله تاريخٌ كبيرٌ عندي أكثرُه، ومُصَنفاتٌ أُخَرُ مُفيدةٌ، وآخرُ ما صنَّف كتابًا في الزُّهادِ، كتب في حاشيتِه زَكِيُّ الدينِ عبدُ اللهِ بن حَبيبٍ الكاتبُ:

ما زال تاجُ الدين طولَ المدى ... من عمرِه يُعْنَىٰ في السِّيَرْ
في طلبِ العلمِ وتدوينِه ... وفعلُه نفعٌ بلا ضَيْرْ
عَلا عليٌّ بتصانيفِه ... وهذه خاتمةُ الخَيْرْ

* * *

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة

في ثالثَ عشرَ المُحرَّم منها دخلَ السلطانُ إلى دمَشقَ، وسبَقَ العَساكرَ إلى بلاد حَلَبَ، فلما توافَتْ إليه أرْسَلَ بينَ يَدَيْه الأميرَ بدرَ الدينِ الاتابكيَّ بألف فارسٍ إلى البُلُسْتين، فصادَفَ بها جماعةً من عَسكرِ الرُّوم، فَركِبُوا إليه وحَملُوا إليه الإقامَات، وطَلَبَ جَماعةٌ منهم أنْ يَدْخُلوا بلادَ الإسْلامِ، فأذنَ لهم، فدخَلَ طائفةٌ؛ منهم بيجارُ وابنُ الخطيرِ، فرَسَمَ لهم أنْ يَدْخُلُوا القاهرَةَ، فتلَقَّاهم المَلكُ السعيدُ، ثم عاد السلطانُ من حلبَ إلى القاهرَة، فدَخَلَها في ثاني عشر رَبيع الآخرِ.

وفي خامسِ جُمَادَىٰ الأولَىٰ عملَ السلْطانُ عُرْسَ ولده الملك السعيد علىٰ بنت قلاوونَ، واحْتَفَلَ السلطانُ به احْتِفالاً عَظيمًا، وركِبَ الجَيشُ في المَيدانِ خمسةَ أيام يَلْعَبُونَ ويَتَطارَدُونَ، ويَحْمِلُ بعضُهم علىٰ بعضٍ، ثم خُلِعَ علىٰ الأمراءِ وأرْبابِ المناصبِ، وكان مَبْلَغُ ما خُلِعَ ألفًا وثلاثَمائةِ خِلْعَةٍ بمِصْرَ، وجَاءَتْ مَراسيمُه إلى الشام بالخِلَعِ علىٰ أهْلِها، ومَدَّ السُّلْطانُ سِمَاطًا عَظيمًا حَضَرَه الخاصُّ والعامُّ، والشاردُ والواردُ، وجَلَسَ فيه رسلُ التَّتارِ ورُسلُ الفِرنْجِ، وعليهم كلُّهم الخِلَعُ الهائلَةُ، وكان وَقْتًا مَشْهُودًا، وحَمَلَ صاحبُ حماةَ هدايا عَظِيمَةً، وركِبَ إلىٰ مصْرَ للتَّهْنئة.

وفي حادِي عَشَرَ شوَّالٍ طِيف بالمَحْمَلِ وبكُسْوَة الكعبة المُشَرَّفَة بالقاهرة، وكان يومًا مَشْهُودًا.

وقعة البُلُسْتين وفتح قيسارية

ركِبَ السلطانُ من مصرَ في العسَاكرِ، فدخلَ دمَشْقَ في سابع عشرَ شوَّالٍ، فأقامَ بها ثلاثةَ أيام، ثم سارَ حتىٰ دَخَلَ حَلَبَ في مُسْتَهَلِّ ذي القعدَة، فأقامَ بها يومًا، ورَسَمَ لنائب حَلَبَ أنْ يُقيمَ بعَسْكرِ حَلَبَ علىٰ الفُرات لحفْظِ المَعَابِرِ، وسارَ السُّلْطانُ فقَطَعَ الدَّرْبَنْد في نِصْفِ يوم، ووقَعَ سُنْقُرُ الأشْقَرُ في أثْناء الطريقِ بثلاثَةِ آلافٍ من المُغُول، فَهَزَمَهم يومَ الخَميسِ تاسعَ ذي القَعْدَة، وصَعَدَ العَسْكَرُ الجِبالَ، فأشْرَفُوا علىٰ وطْأةِ البُلُسْتَين، فرأَوُا التَّتارَ قد رتَّبُوا عسكرَهُم وكانُوا أحدَ عَشَرَ ألفَ مُقاتلٍ، وعزَلُوا عنهم عَسْكرَ الروم خَوْفًا من مُخامَرَتِهم، فلما تَراءَىٰ الجَمْعَان حَمَلَتْ مَيْسَرةُ التَّتارُ فصدَمَتْ سناجقَ السلطانِ، ودَخَلَتْ طائفَةٌ منهم بينَهم فَشَقُّوها، وساقَتْ إلى الميمَنَة، فلما رأىٰ السلطانُ ذلك أرْدَفَ المُسْلمينَ بنَفسه ومَن معه، ثم لاحَتْ منه الْتفَاتَةٌ، فرأىٰ الميسرة قد كادتْ أنْ تَتَحطَّمَ، فأمَرَ جَماعَةً من الأمراءِ بإرْدافها، ثم حَمَلَ بالعَسْكرِ جَميعه حَمْلَةً واحدَةً علىٰ التَّتارِ، فتَرَجَّلُوا إلى الأرْضِ عن آخرِهم، وقاتَلُوا المسلمينَ قِتالاً شديدًا، وصبرَ المسلمُونَ صَبْرًا عَظيمًا، فأنزلَ اللَّهُ نَصْرَه علىٰ المسلمينَ، فأحاطَتْ بالتَّتارِ العساكرُ من كلِّ جانبٍ، وقَتَلُوا منهم خَلْقًا كثيرًا، وقُتِلَ من المسلمينَ أيضًا جماعَةٌ، وكان في جُمْلَةِ مَن قُتِلَ من ساداتِ المُسْلمينَ الأميرُ الكبيرُ ضياءُ الدينِ ابنُ الخَطيرِ، وسيفُ

الدين قيماز، وسيفُ الدين قَفْجَق الجَاشنكير، وعزُّ الدين أيبَكُ الشقيفيُّ، وأسرَ جماعةٌ من أُمراءِ المَغُول ومن أُمراء الرُّوم، وهرَبَ البَرْوَاناه، فَنَجا بنَفْسه، ودَخَلَ قَيْساريَّةَ في بُكْرَة الاحَدِ ثاني عَشَرَ ذي القعْدَة، وأعْلَمَ أمراءُ الرُّوم مَلكَهُم بكَسْرَة التَّتار على البُلُسْتَين، وأشارَ عليهم بالهَزيمَة، فانْهزَمُوا منها وأخْلُوها، فَدَخَلها المَلِكُ الظاهرُ، وصلَّى بها الجُمُعَةَ سابعَ عشرَ ذي القَعْدَة، وخُطِبَ له بها، ثم كَرَّ رَاجعًا مُؤَيَّدًا مَنصُوراً. وسارَتْ بذلك البَشائرُ إلى البُلْدان، ففرحَ المُؤْمنُونَ يومَئذٍ بنَصْرِ اللَّه تعالى. ولما بلَغَ خبرُ هذه الوَقْعَة أبْغَا جاء حتى وَقَفَ بنَفْسه وجَيشه، وشاهَدَ مَكان المَعْرَكَة ومَن فيها من قَتْلَى المَغُول، فغاظَه ذلك وأعْظَمَه، وحنَقَ على البَرْوَاناه إذ لم يُعْلمْه بجَليَّة الحال، وكان يَظُنُّ أن أمرَ الملك الظاهر دونَ هذا كلِّه. ، واشْتَدَّ غَضَبُه على أهلِ قَيْسارية وأهلِ تلْكَ الناحية، فقَتَلَ منهم قريبًا من مائَتَيْ ألْف، وقيلَ: قَتَلَ منهم خمسمائَة ألْف من قَيْساريَّةَ وأرْزَن الروم، وكان في جُمْلَة مَن قُتِلَ القاضي جلالُ الدين حَبيبٌ، فإنا لله وإنا إليه رَاجعُونَ.

وممَّن توفِّي فيها من الأعْيان:

الشيخ أبو الفَضْل عيسَى بنُ الشيخ عُبَيْد بن عبد الخالق الدِّمَشْقيُّ، ودُفِنَ بالقُرْب من الشيخ رِسْلانَ. قال الشيخ علمُ الدين: وكان يَذْكُرُ أنَّ مَوْلِدَه كان سنة أرْبَع وستِّينَ وخَمْسمائَة.

الطَّواشي يمن الحَبَشيُّ، شيخُ الخُدَّام بالحَرَم الشريف النبوي، كان دَيِّنًا عاقلاً عدْلاً، صادقَ اللهجة، مات في عَشْر السَّبْعينَ، رَحمَه اللَّهُ.

الشيخُ المُحَدِّثُ شمسُ الدين أبو العَبَّاس أحمدُ بنُ محمد بن عبد اللَّه بن أبي بكر المَوْصليُّ ثم الدِّمَشْقيُّ الصُوفيُّ، سمعَ الكثيرَ، وكتبَ الكُتُبَ الكِبارَ بخَط رفيعٍ جَيِّدٍ واضحٍ، جَاوزَ السبْعينَ، وَدُفِنَ بباب الفَرَاديس.

الشاعرُ شهابُ الدين أبُو المَكَارِم محمدُ بنُ يوسفَ بن مسعود بن بَرَكَةَ بن سالم بن عبد اللَّه الشَّيْبانيُّ التَّلَّعْفَريُّ، صاحبُ ديوان الشِّعْر، جاوزَ الثمانينَ، تُوُفِّيَ بحَمَاةَ، وكان الشُّعَرَاءُ مُقرِّينَ له مُعْتَرِفينَ بفَضْله وتَقَدُّمه في هذا الفَنِّ. ومن شعْره قولُه:

لــســانـي طَريٌّ منك يا غــايــةَ المُنى ... ومن وَلَهي أنِّي خَطيبٌ وشــاعــرُ
فـهــذا لمَــعْنَى حُــسْنِ وَجْـهِك ناظمٌ ... وهـذا لـدَمْــعي في تَجَنُّيك ناثرُ

القاضي شمس الدين عليُّ بنُ محمود بن عليِّ بن عاصم الشَّهْرُزُوريُّ الدِّمَشْقيُّ، مُدَرِّسُ القَيْمُريَّة بشرط واقفها له ولذُريته من بعده التَّدْريس مَن تأهَّل منهم، فدرَّسَ بها إلى أنْ تُوُفِّيَ في هذه السنَة، ودرَّسَ بعدَه ولدُه صلاحُ الدين، ثم ابنُ ابنه بعد ابن جَمَاعَةَ، وطالتْ مُدَّةُ حَفيده. وقد وليَ شمسُ الدين عليٌّ نيابَةَ ابن خَلِّكَانَ في الولاية الأولَى، وكان فَقيهًا جيدًا نَقَّالاً للمَذْهَب، رَحمَه اللَّهُ، وقد سافرَ مع ابن العديم إلى بَغْدَادَ، فسمعَ بها، ودُفِنَ بمَقَابِر الصُّوفيَّة بالقُرْب من ابن الصلاح.

الشيخُ الصالحُ العالمُ الزاهدُ أبو إسْحاقَ إبْرَاهيمُ بنُ سعد اللّه بن جَمَاعَةَ بن عليٍّ بن جَمَاعَةَ بن حازِمِ بن صَخْرٍ الكِنَانيُّ الحَمَويُّ، له معْرِفةٌ بالفِقْه والحَديث، وُلِدَ سَنَةَ ستٍّ وتسْعينَ بحماةَ، وتُوُفِّيَ بالقُدْسِ الشَّريفِ، ودُفِنَ بماملا، وسمعَ مِن الفَخْرِ بنِ عساكِرَ، ورَوَىٰ عنه ولدُه قاضي القضاةِ بدرُ الدينِ بنُ جَمَاعَةَ.

الشيخُ الصالحُ جُنْدُلُ بنُ محمدٍ المَنِينيُّ، كانت له عِبَادَةٌ وزَهادَةٌ وأعْمالٌ صالحَةٌ، وكان الناسُ يَتَرَدَّدُونَ إلىٰ زِيارَتِه، زارَه المَلِكُ الظاهِرُ مراتٍ وكذلك الأمَراءُ بمَنِينَ، وكان يَتَكَلَّمُ بكلامٍ كثيرٍ لا يَفْهَمُه أحدٌ من الحاضرينَ، بألفاظٍ غَريبَةٍ، وحكَىٰ عنه الشيخُ تاجُ الدينِ أنَّه سمعَه يقُولُ: ما تَقَرَّبَ أحدٌ إلىٰ اللّه بمِثْلِ الذُّلِّ والتَّضرُّعِ إليه. وسمعَه يقُولُ: المُولَّهُ مَنْفِيٌّ من طريقِ اللّه يعْتَقِدُ أنَّه واصِلٌ ولو عَلِمَ أنَّه مَنْفِيٌّ رَجَعَ عمَّا هو فيه؛ لأنَّ طَريقَ القَوْمِ من أهْلِ السلوكِ لا يَثْبُتُ عليها إلا ذَوُو العُقُولِ الثابِتَةِ. وكان يقُولُ: السَّماعُ وَظِيفَةُ أهْلِ البَطَالَةِ. قال الشيخُ تاجُ الدينِ: وكان الشيخُ جُنْدُلٌ من أهْلِ الطريقِ وعلماءِ التَّحْقيقِ. قال: وأخْبَرَني في سنَةِ إحْدَىٰ وستينَ وستَّمائةٍ أنَّه قد بلَغَ من العُمْرِ خمسًا وتسْعينَ سنةً. قلتُ: فعلَىٰ هذا يكُونُ قد جَاوَزَ المائَةَ؛ لأنَّه تُوُفِّيَ في رَمَضَانَ من هذه السنَةِ، ودُفِنَ في زَاوِيَتِه المَشْهُورَةِ بقَريةِ مَنِينَ، ووَرَدَ الناسُ إلىٰ قَبْرِه يُصَلُّونَ عليه من دِمَشْقَ وأعْمَالِها، رَحِمَه اللّهُ تعالىٰ.

محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ مُحَمدٍ الحافظُ بدرُ الدينِ أبو عبدِ اللّه بنُ الفُوَيْرِه السُّلَمِيُّ الحَنَفيُّ، اشْتَغَلَ علىٰ الصدرِ سليمانَ وابنِ عَطاءٍ، وفي النحْوِ علىٰ ابنِ مالكٍ، وحَصَّلَ وبَرَعَ ونَظَمَ ونَثَرَ، ودَرَّسَ في الشِّبْلِيَةِ والقَصَّاعِينَ، وطُلِبَ لنِيابَةِ القضاءِ فامْتَنَعَ، وكتَبَ الكتابَةَ المَنْسُوبَةَ. وقد رآه بعضُ أصْحابِه في المَنامِ بعدَ وفاتِه، فقال له: ما فعَلَ اللّهُ بكَ؟ فأنْشَأَ يقُولُ:

ما كانَ لي من شافعٍ عندَه ... غيرُ اعْتِقَادي أنَّه واحِدُ

وكانت وَفاتُه في جُمَادَىٰ الأولَىٰ، ودُفِنَ بظاهِرِ دِمَشْقَ، رَحِمَه اللّهُ.

محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ بنِ مَنْصُورٍ شَمْسُ الدينِ أبو عبدِ اللّه الحَرَّانيُّ الحَنْبَليُّ، تِلْميذُ الشيخِ مجدِ الدينِ ابنِ تَيْمِيَةَ، وهو أوَّلُ مَن حَكَمَ بالدِّيارِ المِصْرِيَّةِ مِن الحَنَابلَةِ نيابَةً عن القاضي تاجِ الدينِ ابنِ بنتِ الأعَزِّ، ثم وَلِيَ شمسُ الدينِ بنُ الشيخِ العمادِ القَضَاءَ مُسْتَقِلًّا، فاسْتَنابَ به، ثم تركَ ذلكَ، ورَجَعَ إلىٰ الشامِ يَشْتَغِلُ ويُفْتِي إلىٰ أنْ تُوُفِّيَ، وقد نَيَّفَ علىٰ الستِّينَ، رَحِمَه اللّهُ.

* * *

ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمائة

فيها: كانت وَفَاةُ المَلِكِ الظاهرِ رُكْنِ الدينِ بِيبَرْسَ، صاحبُ البلادِ المصْريَّةِ والشاميَّةِ والحَلَبيَّةِ وغيرِ ذلك، وأقامَ وَلَدَه ناصرُ الدينِ أبا المَعَالِي محمدَ بَرَكَة خان المُلَقَّبَ بالملكِ السَّعِيدِ، مِن بعدِه، ووفاةُ الشيخِ مُحيي الدينِ النَّوَوِيُّ إمامُ الشَّافعيَّةِ فيها في اليومِ السابعِ مِن المُحَرَّمِ منها.

ودَخَلَ السُّلْطانُ المَلكُ الظاهرُ من بلادِ الرُّومِ، وقد كَسَرَ التَّتارَ على البُلُسْتين، ورَجَعَ مُؤيَّدًا مَنْصُورًا، فدَخَلَ دِمَشْقَ، وكان يومُ دُخُولِه يومًا مَشْهُودًا، فنَزَلَ بالقَصْرِ الأبلَقِ الذي بناه غَرْبيَّ دِمَشْقَ بينَ المَيْدانَيْنِ الأخْضَرَيْنِ، وتَوَاتَرَت الأخْبارُ إليه بأنَّ أبْغَا جاءَ إلى المَعْرَكَةِ، ونَظَرَ إليها، وتَأَسَّفَ على مَن قُتِلَ من المَغُولِ، وأمَرَ بقَتْلِ البَرْواناه، وذكَرُوا أنَّه قد عَزَمَ على قَصْدِ الشَّامِ، فأمَرَ السُّلْطانُ بجمعِ الأمَراءِ، وضربَ مَشُورَةً، فاتَّفَقَ مع الأمراءِ على مُلاقاته حيثُ كان، وتَقَدَّمَ بِضَرْبِ الدِّهْليزِ على القَصْرِ، ثم جاءَ الخَبَرُ بأنَّ أبْغَا قد رَجَعَ إلى بلادِه، فأمَرَ بردِّ الدِّهْليزِ، وأقامَ بالقَصْرِ الأبلَقِ يَجْتَمِعُ عنده الأعْيانُ والأمَراءُ والدولةُ في أسَرِّ حالٍ، وأنْعَمِ بالٍ. وأمَّا أبْغَا فإنَّه أمَر بقَتْلِ البَرْواناه ـ وكان نائبه على بلادِ الرومِ ـ وكان اسمُه مُعين الدينِ سليمانَ بنَ عليِّ بنِ محمدِ بنِ حسنٍ، وإنَّما قَتَلَه لأنَّ اتَّهَمَه بمُمَالأته للمَلكِ الظاهرِ، وزَعَم أنَّه هو الذي حسَّنَ له دخُولَ بلادِ الرومِ، وكان البَرْواناه شُجاعًا حازمًا كريمًا جَوَادًا، وله مَيْلٌ إلى المَلكِ الظاهرِ، وكان قد جاوَزَ الخَمْسينَ لمَّا قُتِلَ.

ثم لما كان يومُ السبتِ خَامسَ عشَرَ المُحَرَّمِ تُوُفِّيَ المَلكُ القاهرُ بهاءُ الدينِ عبدُ المَلكِ ابنُ السلطانِ المُعَظَّمِ عيسى ابنِ العادلِ أبي بكرِ بنِ أيُّوبَ، عن أرْبَعٍ وستِّينَ سنَةً، وكان رَجُلاً جَيِّدًا، سليمَ الصدْرِ، كريمَ الأخْلاقِ، ليِّنَ الكَلمةِ، كثيرَ التَّواضُعِ، يُعاني ملابسَ العَرَبِ ومَراكِبَهم، وكان مُعَظَّمًا في الدولةِ شُجَاعًا مقْدامًا، وقد رَوَى عن ابنِ اللَّتِّي، وأجَازَ للبِرْزالي. قال البِرْزالي: ويقال: إنَّه سُمَّ. وذكَر غَيْرُه أن السلطانَ الملكَ الظاهرَ سَمَّه في كأسٍ ثم ناولَه إيَّاه، فشرِبَه وقامَ السلطانُ إلى المُرْتَفَقِ، ثم عادَ وأخَذَ الساقي الكَأْسَ من يدِ القاهرِ، فملأه وناولَه السلطانَ الظاهرَ، والساقي لا يَشْعُرُ بشيءٍ مما جَرَى، وأنْسَى اللَّهُ السلطانَ ذلك الكَأْسَ، أو ظَنَّ أنَّه غَيْرُه لأمرٍ يُريدُه اللَّهُ ويقْضيه، وكان قد بَقِيَ في الكأسِ بَقِيَّةٌ كثيرةٌ من ذلك السُّمِّ، فشربَ الظاهرُ ما في الكأْسِ، ولم يَشْعُرْ حتى شَرِبَه، فاشْتَكَى بَطْنَه من ساعَتِه، ووجَدَ الوَهَجَ والحَرَّ والكَرْبَ الشديدَ من فَوْرِه، وأمَّا القاهرُ فإنَّه حُمِلَ إلى مَنْزِله وهو مَغْلُوبٌ، فماتَ من ليلته، وتَمَرَّضَ الظاهرُ من ذلك أيَّامًا حتى كانت وفاتُه يومَ الخَميسِ بعدَ الظهْرِ في السابعِ والعشْرينَ من المُحَرَّمِ بالقَصْرِ الأبْلَقِ، وكان ذلك يومًا عَظيمًا على الأمَراءِ، وحَضَرَ نائبُ السلْطَنَةِ عزُّ الدينِ أيْدَمُرَ وكبارُ الأمَراءِ والدولةُ، فَصلَوا عليه سِرًّا، وجَعَلوه في تابُوتٍ، ورَفَعُوه إلى القَلْعَةِ مِن السُّورِ، وجَعَلُوه في بيتٍ مِن بُيُوتِ البَحْرِيَّةِ إلى أن نُقِلَ إلى تُرْبَتِه التي بناها ولَدُه له بعدَ

مَوْته، وهي دارُ العقيقي تُجاهَ العادليَّةِ الكبيرةِ، ليلةَ الجُمْعَةِ خامسَ رَجَبٍ من هذه السنَةِ، وكُتِمَ مَوْتُه، فلم يَعْلَمْ جُمْهُورُ الناسِ به، حتىٰ إذا كان العَشْرُ الأخيرُ مِن ربيعٍ الأوَّلِ، وجاءتْ البَيعةُ لولَدِه السعيد مِن مِصْرَ، حَزِنَ الناسُ عليه حُزْنًا شديدًا، وتَرَحَّمُوا عليه تَرَحُّمًا كثيرًا، وجُدِّدتْ البَيْعَةُ أيضًا بدِمَشْقَ، وجاءَ تَقليدُ النيابَةِ بالشامِ مُجَدَّدًا إلىٰ عزِّ الدينِ أيْدَمُرَ نائبِها.

وقد كان المَلِكُ الظَاهِرُ شَهْمًا شُجَاعًا، عالِي الهِمَّةِ، بعيدَ الغَوْرِ، مِقْدامًا جَسُورًا، مُعْتَنِيًا بأمْرِ السلْطَنَةِ، يُشْفِقُ علىٰ الإسلامِ، مُتَحَلِّيًا بالمُلْكِ، له قَصْدٌ صالحٌ في نُصْرَةِ الإسْلام وأهْلِه، وإقامَةِ شعارِ المُلْكِ، واسْتَمَرَّتْ أيَّامُه مِن يومِ الأحَدِ سابعَ عشَرَ ذي القعْدَةِ سنَةَ ثمانٍ وخَمْسينَ إلىٰ هذا الحينِ، ففَتَحَ في هذه المُدَّةِ فُتُوحَاتٍ كثيرَةً؛ قَيْسارِيَّةَ وأرْسُوفَ ويافا والشَّقِيفَ وأنْطاكيَّةَ وبَغْرَاسَ وطَبَرِيَّةَ والقُصَيْرَ وحصنَ الأكْرادِ وحصنَ عكَّار والقُرَيْنَ وصافيتَا وغيرَ ذلك مِن الحُصُونِ المَنِيعَةِ التي كانت بأيْدي الفِرِنْجِ، ولم يَدَعْ مع الإسْمَاعِيلِيَّةِ شيئًا مِن الحُصُونِ، وناصَفَ الفِرِنْجَ علىٰ المَرْقَبِ وبانياسَ وبلادَ أنْطَرْطُوسَ، وسَائِرَ مَابَقِي بأيْديهم مِن البلادِ والحُصُونِ، وولَّىٰ في نَصيبِه مما ناصَفَهم عليه النَّوابَ والعُمَّالَ، وفَتَحَ قَيْسارِيَّةَ مِن بلادِ الرُّومِ، وأوْقَعَ بالرومِ والمَغُولِ علي البُلُسْتَينَ بأسًا شديدًا لم يُسْمَعْ بمِثْله مِن دهُورٍ مُتطاوِلَةٍ، واسْتَعادَ مِن صاحبِ سِيسَ بلادًا كثيرةً، وجَاسَ خلالَ ديارِهم وحُصُونِهم، واسْتَرَدَّ مِن أيدِي المُتَغَلِّبينَ من المسلمينَ بَعْلَبَك وبُصْرَىٰ وصَرْخَدَ وحِمْص وعَجْلُونَ والصَّلْتَ وتَدْمُرَ والرَّحْبَةَ وتَلَّ باشِرٍ وغيْرِها، والكَرَكَ والشَّوْبَكَ، وفَتَحَ بلادَ النُّوبَةِ بكمالِها مِن بلادِ السُّودانِ، وانْتَزَعَ بلادًا مِن التَّتارِ كثيرَةً؛ منها شَيْزَرُ والبِيرةُ، واتْسَعَتْ مملَكتُه من الفُراتِ إلىٰ أقْصَىٰ بلادِ النُّوبَةِ، وعَمَّرَ شَيئًا كثيرًا مِن الحُصُونِ والمَعاقِلِ والجُسُورِ علىٰ الأنهارِ الكبارِ، وبَنَىٰ دارَ الذَّهَبِ بقَلْعَةِ الجَبَلِ، وبَنَىٰ قُبَّةً علىٰ اثْنَي عَشَرَ عَمُودًا مُلَوَّنَةً مُذَهَّبَةً، وصَوَّرَ فيها صُوَرَ خَاصَّكيَّته وأشْكالِهم، وحَفَرَ أنْهارًا كثيرَةً وخُلْجَاناتٍ ببلادِ مصْرَ، منها نهْرُ السَّرْدُوسِ، وبَنَىٰ جَوامعَ كثيرَةً ومَساجِدَ عديدَةً، وجَدَّدَ بِناءَ مَسْجِدِ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ احْتَرَقَ، ووَضَع الدَّرابزِيناتِ حولَ الحُجْرَةِ الشريفَةِ، وعَمِلَ فيه مِنْبَرًا، وسقفَه بالذَّهَبِ، وجَدَّدَ المارَسْتَانَ بالمَدِينَةِ، وجَدَّدَ قَبْرَ الخَليلِ، عليه السلامُ، وزادَ في زاوِيَتِه وما يُصْرَفُ إلىٰ المُقِيمِينَ، وبَنَىٰ علىٰ المَكانِ المَنْسُوبِ إلىٰ قَبْرِ موسَىٰ، عليه السلامُ، قبةً قِبْلِيَّ أريحَا، وجَدَّدَ بالقُدْسِ أشْياءَ حَسَنَةً، مِن ذلكَ قبةُ السِلْسِلَةِ، ورَمَّمَ سقفَ الصَّخْرَةِ، وغيرِها، وبَنَىٰ بالقُدْسِ خانًا هائلًا بماملا، ونَقَلَ إليه بابَ قَصْرِ الخُلَفاءِ الفَاطِميينَ مِن مِصْرَ، وعَمِلَ فيه طاحُونًا وفُرْنًا وبُسْتَانًا، وجَعَلَ للوارِدِينَ إليه أشْياءَ تُصْرَفُ إليهم في نَفَقَةٍ وإصلاحِ أمْتَعَتِهم، رَحِمَه اللّٰهُ تعالىٰ. وبَنَىٰ علىٰ قَبْرِ أبي عُبَيْدَةَ بالقرب من عمْتَا مَشْهَدًا، ووَقَفَ عليه أشْياءَ للوارِدينَ إليه، وعَمَّرَ جِسْرَ دامِيَةَ، وجَدَّدَ قبرَ جَعْفَرٍ الطَّيارِ بناحيَّةِ الكَرَكِ، ووقَفَ علىٰ الزائِرِينَ له شيئًا كثيرًا، وجَدَّدَ قَلْعَةَ صَفَدَ وجَامعَها، وجَدَّدَ

جامعَ الرَّمْلَة، وغَيْرها في كثير من البلاد التي كانت الفرنْج قد أخَذَتْها، وخرِبَتْ جَوامعَها ومَساجدَها، وبَنَى بحَلَبَ دارًا هائلَةً، وبدمشْقَ القَصْرَ الأبْلَقَ والمَدْرَسَة الظاهرِيَّةَ، وغيرَها، وضَرَبَ الدراهمَ والدَّنانيرَ الجَيِّدَةَ الخالصَةَ على النُّصْحِ والمُعامَلَة الجيدة الجارية بينَ الناسِ، فرَحمَه اللَّهُ.

وله من الآثار الحَسَنَة والأماكن ما لم يُبْنَ في زَمَن الخلفاء ومُلُوك بني أيُّوبَ، مع اشْتغاله بالجهاد في سبيل اللَّه، واسْتَخْدَمَ من الجُيُوش شيئًا كثيرًا، وردَّ إليه نحوٌ من ثلاثة آلاف من المَغُول فأقْطَعَهم وأمَّرَ كثيرًا منهم، وكان مُقْتَصدًا في مَلْبَسه ومَطْعَمه، وكذلك جَيْشُه، وهو الذي أنْشَأ الدولَةَ العبَّاسيَّةَ بعدَ دُثُورِها وبَقِيَ الناسُ بلا خَلِيفَةٍ نحوًا من ثلاث سنينَ، وهو الذي أقامَ من كلِّ مَذْهَبٍ قاضيًا مُسْتَقلاً قاضيَ قُضاة.

وكان، رَحمَه اللَّهُ، متَيَقِّظًا شَهْمًا شُجاعًا، لا يَفْتُرُ عن الأعْداء ليلاً ولا نَهارًا، بل هو مُناجِزٌ لأعْداء الإسْلام وأهله، ولَمِّ شَعْثه واجْتماع شَمْله.

وبالجُمْلَة أقامَه اللَّهُ تعالى في هذا الوقْت المُتأخرِ عَوْنًا ونَصْرًا للإسْلام وأهْله، وشَجا في حُلُوقِ المارقِينَ من الفرنْج والتَّتارِ والمُشْركِينَ. وأبْطَلَ الخُمُورَ، ونَفَى الفُسَّاقَ من البلاد، وكان لا يَرَى شيئًا من الفَسَاد والمَفَاسد إلا سَعَى في إزَالَته بجهْده وطاقَته. وقد ذَكَرْنا في سيرَته ما أرْشَدَ إلى حُسْنِ طَويَّته وَسَريرَته، وقد جَمَعَ له كَاتبُه ابنُ عبد الظاهرِ سيرَةً مُطَوَّلَةً، وكذلك ابنُ شَدَّادٍ أيضًا.

وقَدْ تَرَكَ من الأوْلادِ عشرَةً؛ ثلاثةَ ذُكُورٍ وسبعَ إناثٍ، ومات وعُمْرُه ما بينَ الخَمْسينَ إلى السِّتِّينَ، وله أوْقافٌ وصِلاتٌ وصَدَقَاتٌ، تَقَبَّلَ اللَّهُ منه الحَسنَات، وتَجَاوزَ له عن السَّيِّئَات. واللَّهُ سُبْحَانَه أعْلَمُ.

وقامَ في المُلْك بعدَه ولَدُه السعيدُ بُمبايَعة أبيه له في حال حَيَاته، وكان عُمْرُ السعيد يومَئذٍ دونَ العشْرينَ سنَةً، وهو من أحْسَنِ الأشْكال وأتمِّ الرِّجال.

وفي صَفَر وَصلَتْ هَدايا من الفُنْش مع رُسله إلى الدِّيار المِصْريَّة، فوَجَدُوا السلطانَ قد مات، وقد أُقيمَ المَلكُ السعيدُ ولدُه مكانه، والدولةُ لمْ تتغَيَّرْ، والمَعْرفَةُ بعدَه ما تَنَكَّرَتْ، ولكن البلادَ قد فقَدَت أسَدَها بل أسَدَّها وأشَدَّها، بل الذي بَلَغَ أشُدَّها، وإذا انْفَتَحَتْ ثَغْرَةٌ من سور الإسْلام سَدَّها، وكلما انْحلَتْ عُقْدَةٌ من عُرَىٰ العزائم شَدَّها، وكلما رامَت فرْقَةٌ مارقَةٌ من طوائف الطَّغَام أنْ تَلجَ إلى حَوْمَةِ الإسْلام صدَّها وردَّها، فَسَامَحَه اللَّهُ، وبَلَّ بالرَّحْمَة ثَرَاه وَجَعَلَ الجَنَّةَ مُتَقَلَبَه ومثْواه.

وكانت العساكرُ الشَّاميَّةُ قد سارَتْ إلى الدِّيارِ المصْريَّة، ومعهم محَفَّةٌ يُظهرُونَ أنَّ السُّلْطانَ فيها مَريضٌ، حتى وَصَلُوا إلى القاهرة، فَجَدَّدُوا البَيْعَةَ للسعيد بعدَ ما أظْهَرُوا مَوتَ المَلِك السديد الذي هو إنْ شاءَ اللَّهُ شَهيدٌ.

وفي يوم الجُمُعَةِ السابع والعشرينَ من صفر خُطِبَ في جَميع الجوامع بالدِّيار المِصْرِيَّة للمَلِكِ السعيد، وصَلَّىٰ على والده المَلِك الظاهر، واستَهَلَّتْ عيناه بالدُّموع.

وفي مُنْتَصَفِ ربيع الأول ركبَ المَلِكُ السعيدُ بالعَصَائِب على عادَةِ والده، وبينَ يَدَيْه الجَيْشُ بكماله المصريُّ والشامِيُّ، حتىٰ وَصَلَ إلى الجَبلِ الأحْمَر، وفَرِحَ الناسُ به فَرَحًا شَديدًا، وعُمْرُه يومَئذٍ تسعَ عَشْرَةَ سنَةً، وعليه أُبَّهَةُ المُلْك ورياسَةُ السَّلْطَنَة.

وفي يوم الإثْنَيْن رابع جُمَادَىٰ الأولىٰ فُتِحَتْ مدرسةُ الأميرِ شمسِ الدينِ آقْسُنْقُرَ الفارِقَانيِّ بالقاهرة، بحارَةِ الوزيرِيَّة على مَذْهَبِ أبي حنيفَةَ، وعَمِلَ فيها مَشْيَخَةَ حديثٍ، وقارئٍ. ، بعدَه بيوم عُقِدَ عَقْدُ ابنِ الخَليفَة المُسْتَمْسِك باللَّه ابنِ الحاكمِ بأمْرِ اللَّه علىٰ ابنة الخليفَةِ المُسْتَنْصِرِ بنِ الظاهرِ، وحضَرَ والدُه والسُّلطانُ ووُجُوهُ الناسِ.

وفي يوم السبت تاسع جُمَادَىٰ الأولىٰ شُرِعَ في بناء الدار التي تُعْرَفُ بدار العَقِيقيِّ، تُجاه العادلية، لتُجْعَلَ مَدْرَسَةً وتُرْبَةً للمَلِك الظاهر ولم تكُنْ قبلَ ذلكَ إلا دارًا للعَقيقيِّ، وهي المُجَاوِرَةُ لحَمَّام العَقِيقِيِّ، وأسِّس أساس التُرْبَة في خامسِ جُمَادَىٰ الآخِرَة، وأُسِّسَتْ المَدْرَسَةُ أيضًا.

وفي رَمَضانَ طَلَعَتْ سَحَابَةٌ عَظِيمَةٌ بمدينَة صَفَدَ لَمَعَ منها بَرْقٌ شَديدٌ، وسطَعَ منها لسانُ نارٍ، وسُمِعَ منها صَوتٌ شَديدٌ هائِلٌ، ووَقَعَ منها على مَنارَةِ صَفَدَ صاعِقَةٌ شَقَّتْها من أعْلاهَا إلى أسْفَلِها شَقًّا يَدْخُلُ الكفُّ فيه.

ومَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

البَرْواناه في العَشْرِ الأوَّل من المُحَرَّم.

والمَلِكُ الظاهرُ في العَشْرِ الأخيرِ منه.

وقد تَقَدَّمَ شيءٌ من تَرْجَمتِهما.

الأميرُ الكبيرُ بدرُ الدين بيليك بنُ عبد اللَّه الخزندارَ، نائبُ الدِّيارِ المِصْرِيَّة للمَلِك الظاهرِ، كان جَوادًا مُمدَّحًا، له إلْمَامٌ ومَعْرِفَةٌ بأيام الناسِ والتَّواريخ، وقد وقَفَ درسًا بالجَامع الأزْهَر على الشَّافعيَّة، ويقالُ: إنَّه سمَّ فماتَ. فلما ماتَ انْتَقَضَ بعدَه حبلُ الملك السَّعيد، واضْطَرَبَتْ أمورُه.

قاضي القُضاة شَمسُ الدين الحَنْبَلِيُّ محمدُ بنُ الشَّيْخ العمَاد أبي إسْحَاقَ إبْراهيمَ بن عبد الواحد بن عليِّ بن سُرُور المَقْدِسيُّ، أولُ مَن وُلِّيَ قَضاءَ قُضاة الحنابِلَة بالديار المِصْرِيَّة، سمعَ الحديثَ حُضورًا على ابنِ طَبَرْزَدَ وغيره، ورَحَلَ إلى بَغْدادَ، واشْتَغَلَ بالفقه، وتَفَنَّنَ في علوم كثيرة، ووَلِي مَشْيَخَة سعيد السُّعَداء، وكان شَيْخًا مَهِيبًا، حَسَنَ الشَّيْبَة، كثيرَ التَّواضع والبِّر والصَّدَقَة، وقد اشْتَرَطَ في قَبُول الوِلايَة أنْ لا يكُونَ له عليها جَامَكِيَّةٌ لِيَقُومَ في الناس بالحَقِّ في حُكمه، وقد عَزَلَه الظاهرُ عن القَضاء

سنةَ سَبْعينَ، واعْتَقَلَه بسببِ الودائعِ التي كانت عندَه، ثم أطْلَقَه بعدَ سَنَتَيْنِ، فَلَزِمَ مَنْزِلَه، واستَقَرَّ بتدْريسِ الصَّالحيَّةِ إلى أنْ تُوفِّيَ في أواخرِ المُحرَّمِ، ودُفِنَ عندَ عَمِّه الحافظ عبدِ الغَنيِّ بسَفْحِ جَبَلِ المُقطمِ، وقد أجَازَ للبِرْزاليِّ.

قال الحافظ البِرْزاليُّ: وفي يومِ السبتِ ثاني عَشَرَ ربيعٍ الأوَّلِ ورَدَ الخَبرُ بمَوْتِ ستَّةِ أمَراءَ من الديارِ المصْريَّةِ؛ سنْقُرُ البَغْداديُّ، وبَسطا البلديُّ التَّتَريُّ، وبدرُ الدينِ الوزيريُّ، وسُنْقُرُ الرُّوميُّ، وأقْسُنْقُر الفارقَانيُّ، رحمَهم اللهُ.

الشيخُ خَضرُ الكُرْديُّ شيخُ المَلك الظاهرِ: خَضرُ بنُ أبي بكر بن مُوسَى الكُرْديُّ المِهْرانيُّ العَدَويُّ، ويُقالُ: إنَّ أصْلَه من قَرْيَةِ المُحمَّديَّةِ من جزيرَةِ ابنِ عمرَ. كان يُنْسَبُ إليه أحْوالٌ ومكَاشفَاتٌ، ولكنه لمَّا خالَطَ الناسَ افْتَتَنَ ببعْضِ بناتِ الأُمَراءِ، وكان يقُولُ عن المَلكِ الظاهرِ وهو أميرٌ: إنَّه سَيلي المُلْكَ. فلهذا كان المَلكُ الظاهرُ يَعْتَقدُه ويُبالغُ في إكْرَامه بعدَ أنْ وَليَ المَمْلَكَةَ، ويُعَظِّمُه تَعْظِيمًا زائدًا، وينْزِلُ إلى عنده إلى زَاويتِه في الأسْبوعِ مرةً أو مرَّتَيْنِ، ويَسْتَصْحبُه معه في كثيرٍ من أسْفارِه، ويُكْرِمُه ويَحْتَرمُه ويَسْتَشيرُه، فيُشيرُ عليه برأْيِه ومُكَاشفاتٍ صحيحةٍ مُطابقةٍ؛ إمَّا رَحْمانيَّةٍ أو شَيْطانيَّةٍ، أو حَالٍ أو اسْتِفَادةٍ، لكنَّه افْتَتَنَ لمَّا خالَطَ الناسَ ببعْضِ بناتِ الأُمَراءِ، وكُنَّ لا يَحْتَجبْنَ منه، فوقَعَ في الفتْنَةِ وهذا في الغالبِ واقعٌ في مُخَالَطَةِ الناسِ، فلا يَسْلَمُ المُخالطُ لهم من الفتْنَةِ، ولا سيَّما مُخالطةُ النِّساءِ مع تَرْكِ الاحْتجَابِ، فلا يَسْلَمُ العبدُ البَتَّةَ منهنَّ. فلما وقَعَ فيما وقَع فيه حُوقِقَ عندَ السُّلطانِ وبيسري وقَلاوون والفارسِ أقْطاي الأتابَك، فاعترَف فهمَّ بقَتْلِه، فقال له: إنَّما بيني وبينَك أيامٌ قلائلُ، فأمَرَ بسَجْنِه، فَسُجنَ سنينَ عديدةً من سنَةِ إحْدَىٰ وسَبْعينَ إلى سنَةِ ستٍّ وسَبْعينَ، وقد هَدَمَ بالقُدْسِ كَنيسةً، وذَبحَ قسِّيسَها، وعَملَها زاويةً، وقد قَدَّمْنا ترجمته قبل ذلك فيما تَقَدَّمَ، ثم لم يَزَلْ مَسْجُونًا حتى مَات في يومِ الخَميسِ سادسَ المُحرَّمِ من هذه السنَةِ، فأخْرجَ من القَلْعَةِ، وسُلِّمَ إلى قَرابته، فدُفِنَ في تُرْبَةِ أنْشَأَها في زَاويته. مات وهو في عَشْرِ الستِّين، وقد كان يُكَاشفُ السُّلْطانَ في أشْياءَ، وإليه تُنْسَبُ قُبَّةُ الشيخِ خَضرٍ التي على الجَبَلِ غَرْبيَّ الرَّبْوَةِ، وله زَاويةٌ بالقُدْسِ الشَّريفِ.

الشيخُ مُحْيي الدين النَّوَويُّ، يَحْيَى بن شَرَف بن مرَى بن حَسَن بن حسين بن جُمْعَةَ بن حزام الحزاميُّ العالمُ، مُحْيي الدين أبو زَكَريا النَّوَوي ثم الدِّمَشْقيُّ الشافعيُّ العلاَّمَةُ، شيخُ المَذْهَبِ، وكبيرُ الفُقَهَاءِ في زَمانه، وُلدَ بنَوَىٰ سنَةَ إحْدَىٰ وثلاثينَ وستِّمائةٍ، ونَوَىٰ قَرْيَةٌ من قُرىٰ حَورانَ، وقد قَدِمَ دمشقَ سنَةَ تسْعٍ وأربَعينَ، وقد حَفظَ القُرآنَ، فَشرَعَ في قراءَةِ «التَّنْبيه»، فيُقَالُ: إنَّه قَرأَه في أرْبَعَةِ أشْهُرٍ ونصْفٍ، وقرأَ رُبْعَ العباداتِ من «المُهَذَّبِ» في بقيَّةِ السنَةِ، ثم لَزِمَ المشايخَ تَصْحيحًا وشرحًا، فكان يقْرأُ في كلِّ يومٍ اثْنَيْ عَشَرَ درْسًا على المشايخِ، ثم اعتَنَى بالتَّصْنيفِ، فَجَمَعَ شيئًا كثيرًا، منها ما أكْمَلَه، ومنها مالم

يُكْمِلْه، فممَّا كمَّلَ «شرحُ مسلمٍ» و«الرَّوْضَةُ» و«المِنْهَاجُ» و«الرياضُ» والأذْكَارُ» «التبيان»، و«تَحْرِيرُ التَّنْبِيهِ وتَصْحِيحُه»، و«تَهْذِيبِ الأسْماءِ واللُّغاتِ»، و«طبقاتُ الفُقَهاءِ» وغيرُ ذلك. وممَّا لم يُتَمِّمْه - ولو كَمَلَ لم يَكُنْ له نَظِيرٌ في بابِه - «شَرْحُ المُهَذَّبِ» الذي سمَّاه «المَجْمُوعَ»، وصَلَ فيه إلى كتابِ الرِّبا، فأبْدَعَ فيه وأجَادَ وأفَادَ، وأحْسَنَ الانْتِقَادَ، وحرَّرَ الفِقْهَ فيه في المَذْهَبِ وغيرِه، وحرَّرَ فيه الحديثَ على ما يَنْبَغِي، والغَرِيبَ واللُّغَةَ وأشْياءَ مُهِمَّةً لا تُوجَدُ إلا فيه، وقد جَعَلَه نُخْبَةً على ما عَنَّ له، ولا أعْرِفُ في كتبِ الفِقْهِ أحْسَنَ منه، على أنَّه مُحْتَاجٌ إلى أشْياءَ كثيرة تُزَادُ فيه وتُضَافُ إليه.

وقد كان مِن الزَّهادَةِ والعِبادَةِ والوَرَعِ والتَّحَرِّي والانْجماعِ عن الناسِ على جَانبٍ كبيرٍ، لا يَقْدِرُ عليه أحدٌ مِن الفُقَهَاءِ غيرُه، وكان يَصُومُ الدهرَ، ولا يَجْمعُ بينَ إدامَيْن، وكان غالبُ قُوتِه ممَّا يَحْمِلُه إليه أبوه مِن نَوَى، وقد باشَرَ تَدْرِيسَ الإقْبالِيَّةِ نِيابَةً عن ابنِ خَلِّكَانَ، وكذلك نابَ في الفَلَكِيَّةِ والرُّكْنِيَّةِ، ووَلِيَ مَشْيَخَةَ دارِ الحَدِيثِ الأشْرَفِيَّةِ، وكان لا يُضَيِّعُ شَيْئًا مِن أوْقاتِه، وحَجَّ في مُدَّةِ إقَامَتِه بدِمَشْقَ، وكان يَأمُرُ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَى عن المُنْكَرِ للمُلُوكِ وغيرِهم. تُوُفِّيَ في ليلةِ أربَعٍ وعِشْرِينَ مِن رَجبٍ مِن هذه السنَةِ بنَوَى، ودُفِنَ هناكَ، رَحِمَه اللَّهُ وعفَا عنَّا وعنه.

عليُّ بنُ عليِّ بنِ أسْفَنْديارَ نجمُ الدين[1]، الواعِظُ بجامعِ دِمَشْقَ أيامَ السُّبُوتِ في الأشْهُرِ الثلاثَة، وكان شَيْخَ الخَانقاه المُجاهِدِيَّة، وبها تُوُفِّيَ في هذه السنَة، وكان فاضِلاً بارِعًا، وكان جَدُّه يَكْتُبُ الإنشاءَ للخَلِيفَةِ الناصرِ، وأصْلُهم مِن بُوشَنْجَ. ومِن شِعْرِ نَجْمِ الدينِ هذا قولُه:

إذا زَارَ بالجُثْمانِ غيري فإنَّني ... أزُورُ مع الساعاتِ رَبْعَك بالقَلْبِ
وما كلُّ ناءٍ عن دِيارٍ بنازِحٍ ... ولا كلُّ دانٍ في الحَقِيقَةِ ذو قُرْبِ

ثم دخلت سنة سبعٍ وسبعين وستمائة

كان أوَّلُها يومَ الأرْبعاءِ، وكان الخَلِيفَةُ الحاكمَ بأمْرِ اللَّهِ العباسِيَّ، وسلطانُ البلادِ شامًا ومِصْرًا وحَلَبًا المَلِكَ السعيدَ.

وفي أوائِلِ المُحَرَّمِ اشْتُهِرَ بدِمَشْقَ ولايَةُ القاضِي ابنُ خَلِّكانَ قَضاءَ دِمَشْقَ عَوْدًا على بَدْءٍ في أواخرِ ذي الحِجَّةِ، بعدَ عَزْلِ سَبعَ سِنِينَ، فامْتَنَعَ القاضِي عِزُّ الدينِ ابنُ الصائغِ مِن الحُكْمِ في سادسِ المُحَرَّمِ، وخَرَجَ الناسُ لِتَلَقِّي ابنِ خَلِّكانَ، فمنهم مَن وصَلَ إلي الرَّمْلَةِ، وكان دُخُولُه في يومِ الخَميسِ الثالثِ والعِشْرِينَ مِن المُحَرَّمِ، فَخَرَجَ نائبُ السلطنَةِ عِزُّ الدينِ أيْدُمُر بجَمِيعِ الأمَراءِ والمَواكِبِ لِتَلَقِّيه، وفَرِحَ الناسُ بذلكَ، ومَدَحَه الشُّعَراءُ، وأنْشَدَ الفَقِيهُ شمسُ الدينِ محمدُ بنُ جَعْوَانَ:

---

(١) ترجمته في «ذيل مرآة الزمان» (٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧).

لما تولَّى قضاءَ الشامِ حاكمُه قاضي القُضاة أبو العبَّاس ذو الكرَم
من بعد سبعٍ شداد قال خادمُه ذا العامُ فيه يُغاثُ الناسُ بالنِّعَم

وقال سعدُ اللَّه بنُ مَرْوانَ الفارقيُّ:

أذقتَ الشامَ سبعَ سنينَ جدبًا غداةَ هجرتَه هجرًا جميلا
فلما زرتَه من أرضِ مصرٍ مددتَ عليه من كفيكَ نيلا

وقال آخَرُ:

رأيتُ أهلَ الشامِ طُرا ما فيهمُ قطُّ غيرُ راضي
نالهم الخيرُ بعدَ شرٍّ فالوقتُ بسطٌ بلا انقباضِ
وعُوِّضوا فرحةً بحزنٍ قد أنصفَ الدهرُ في التَّقاضي
وسرَّهم بعدَ طولِ غمٍّ بُدورُ قاضٍ وعزلُ قاضي
وكلُّهم شاكرٌ وشاكٍ بحالِ مُستقبِلٍ وماضي

قال اليونينيُّ: وفي يوم الأربعاء ثالثَ عشرَ صَفر ذكرَ الدرسَ بالظَّاهريَّة، وحضرَ نائبُ السلطنة أيْدُمُر الظاهريُّ، وكان درسًا حافلاً حضرَه القُضاةُ، وكان مُدرِّسَ الشافعيَّة الشيخُ رَشيدُ الدين محمودُ بنُ إسْماعيلَ الفارقيُّ، ومُدرِّسَ الحَنَفيَّة الشيخُ صدْرُ الدين سليمانُ الحنفيُّ، ولم يكُن بناءُ المَدْرسةِ كمَل.

وفي جُمادَىٰ الأولىٰ باشرَ قضاءَ الحَنَفيَّة صدْرُ الدين سليمانُ المَذْكورُ عوضًا عن مَجْد الدين بن العَديم، بحُكْم وفاته، ثم تُوُفِّيَ صَدْرُ الدين سليمانُ المَذْكورُ في رمَضانَ، وتولَّىٰ بعده القضاءَ حُسامُ الدين أبو الفَضائِل الحسنُ بنُ أنُو شرْوانَ الرازيُّ الحَنَفيّ، الذي كان قاضيًا بمَلَطيَّة قبل ذلك. وفي العَشْر الأول من ذي القَعْدَة فُتحَتْ المَدْرَسَةُ النَّجيبيةُ، وحضرَ تَدْريسَها ابنُ خَلِّكانَ بنفسه، ثم نزَلَ عنها لولَده كمال الدين موسىٰ، وفُتحَت الخانْقاه النَّجيبيةُ، وقد كانتا وأوْقافُهما تحت الحَوْطَة إلىٰ الآن.

وفي يوم الثلاثاء خامسِ ذي الحجَّة دخَلَ السلطانُ السعيدُ إلىٰ دمَشْقَ، وقد زُيِّنَتْ له، وعُملَتْ له قبابٌ ظاهرةٌ، وخرَجَ أهْلُ البلد لتَلَقّيه، وفرِحُوا به فرَحًا عَظيمًا لمَحبَّتهم والدَه، وصلَّىٰ عيدَ النَّحْر بالمَيْدان، وعمِلَ العيدَ بالقَلْعَة المَنْصُورة، واسْتَوْزَرَ بدمَشْقَ الصاحبَ فَتْحَ الدين عبدَ اللَّه بن القَيْسَرانيّ، وبالديار المِصريَّة بعدَ موت بهاء الدين بن الحِنَّا الصاحبَ بُرْهانَ الدين بنَ الخضْر بن الحسن السِّنْجَاريَّ، وفي العَشْر الآخرِ من ذي الحجَّة جهَّزَ السُّلْطانُ العساكرَ إلىٰ بلاد سيس صُحْبَةَ الأمير سيفِ الدين قَلاوونَ الصالحيِّ، وأقامَ السُّلْطانُ بدمَشْقَ في طائفَة يسيرةٍ من الأمَراء والخاصَكية والخَواصّ، وجعَلَ يُكثرُ التَّردُّدَ إلىٰ الزَّنْبَقية.

وفي يوم الثلاثاء السادسِ والعشرينَ من ذي الحجَّة جلَسَ السلطانُ السعيدُ بدارالعدل داخلَ باب النَّصْر، وأسْقَطَ ما كان حَدَّدَه والدُه علىٰ بساتين أهلِ دمَشْقَ، فتَضاعفَتْ له منهم الأدْعيَةُ، وأحَبُّوه لذلكَ حُبًّا شَديدًا، فإنَّه كان قد أجْحفَ بكثيرٍ من أصْحَاب الأمْلاك، ووَدَّ كثيرٌ منهم لو تَخلَّصَ من

مُلْكه جُمْلَةً بسبب ما عليه.

وفيها: طُلِبَ من أهلِ دمَشْقَ خمسُونَ ألف دينار، ضُرِبَتْ أجْرَةً على أمْلاكهم مدةَ شَهْرَيْنِ، وجُبِيَتْ منهم على القَهْرِ والعَسْف.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

آقُوش بنُ عبد الله الأميرُ الكبيرُ جَمالُ الدين النَّجيبيُّ أبو سعيد الصالحيُّ، أعْتَقَه الملك الصالحُ نَجمُ الدين أيُّوبُ بنُ الكَاملِ، وجَعَلَه من أكَابِرِ الأمَراء، وولاَّه أُسْتَاذَدارِيته، وكان يَثقُ إليه ويَعْتمِدُ عليه، وكان مَوْلدُه في سنَة تسْعٍ أو عشْرٍ وستِّمائة، وولاَّه المَلِكُ الظاهرُ أيضاً أُسْتَاذَداريته، ثم اسْتَنَابه بالشام تِسْعَ سنينَ، فاتَّخذَ فيها المَدْرَسَةَ النَّجيبيةَ، ووقَفَ عليها أوْقافًا دارَّةً واسعةً، لكن لم يُقرِّرْ للمُسْتحَقينَ قَدْرًا يُنَاسِبُ ما وَقَفَه عليهم، ثم عَزَلَه السلطانُ واسْتَدْعاه لمصْرَ، فأقامَ بها مُدةً بطَّالاً، ثم مَرِضَ بالفالج أرْبَعَ سنينَ، وقد عادَه في بعْضِها المَلِكُ الظاهرُ، ولم يزَلْ به حتى كانت وفَاتُه ليلةَ الجُمعَةِ خامسَ شهْرِ ربيعٍ الآخرِ بالقاهرَةِ بداره بدربِ مُلُوخيّا، ودُفِنَ يومَ الجُمْعَةِ قبلَ الصلاة بتُرْبَته التي أنْشَأها بالقَرَافَةِ الصُّغْرىٰ، وقد كان بَنَىٰ لنفسه تُرْبَةً بالنَّجيبية، وفَتَحَ لها شُبَّاكَيْنِ إلى الطَّريقِ، فلم يُقَدَّرْ دَفْنُه بها. وكان كثيرَ الصَّدَقَة، مُحبًّا للعُلَماء، مُحسنًا إليهم، حسنَ الاعْتقاد شافعيَّ المَذْهَب، مُتَغاليًا في السُّنَّة ومَحَبة الصَّحابة وبُغْض الرَّوافض، ومَن جُمْلَة أوْقافه الحسان البُسْتانُ والأرَاضي التي أوْقَفَها على الجُسُورة التي قِبْلِيَّ جامع كَريمِ الدين اليومَ، وعلى ذلك أوْقافٌ كثيرةٌ، وجَعَلَ النَّظَرَ في أوْقافه لابن خَلِّكَانَ.

أيدكين بنُ عبد الله الأميرُ الكبيرُ علاءُ الدين الشِّهابي[1]، واقفُ الخانْقاه الشِّهابيَّة داخلَ باب الفَرَجِ، كان من كِبارِ الأمَراءِ بدَمَشْقَ، وقد ولاه الظاهرُ بحَلَبَ مُدَّةً، وكان من خِيارِ الأمَراء وشُجْعَانهم، وله حُسْنُ ظَنٍّ بالفُقَراءِ والإحْسان إليهم، ودُفِنَ بتُرْبَة الشَّيخ عُثْمانَ الرُّوميِّ بسَفْح قاسيونَ، في خامسَ عشرَ ربيعٍ الأول، وهو في عشْرِ الخَمْسينَ، وخَانَقاتُه داخلَ باب الفرَجِ، وكان لها شُبَّاكٌ إلى الطَّريقِ. والشِّهابيُّ نسبةٌ إلى الطَّواشيِّ شهاب الدين رَشيدِ الكبيرِ الصالحيِّ.

قاضي القُضاة صَدْرُ الدين سليمانُ ابنُ أبي العِزِّ وُهَيْب أبو الرَّبيع الحَنَفيُّ[2]، شيخُ الحَنَفيَّة في زَمانه، وعامُهم شَرْقًا وغَرْبًا، أقامَ بدمَشْقَ مُدَّةً يُفْتي ويُدَرِّسُ، ثم انْتَقَلَ إلى الدِّيارِ المصْريَّة يُدَرِّسُ بالصالحيَّة، ثم عادَ إلى دمشْقَ، فَدَرَّسَ بالظاهريَّة، ووَلِيَ القضاءَ بعدَ مَجْد الدين بن العَديم ثلاثَةَ أشْهُرٍ، ثم كانت وفَاتُه ليلةَ الجُمْعَة سادسَ شَعْبانَ، ودُفِنَ من الغَد بعدَ الصلاة بداره بسَفْح قاسيُونَ، وله ثلاثٌ وثلاثُونَ سنَةً، ومن لَطيفِ شعْرِه في مَمْلُوك تَزَوَّجَ جاريَةً للمَلِك المُعَظَّم:

يا صاحبيَّ قِفا لي وانْظُرا عَجَبًا	أتَى به الدَّهْرُ فينا من عَجائبِه
البدرُ أصْبَحَ فوقَ الشمس مَنْزلَةً	وما العُلُوُّ عليها من مَراتِبه
أضْحَى يُماثلُها حُسْنًا وصارَ لها	كُفْوًا وسارَ إليها في مَواكِبه
فأشْكَلَ الفَرْقُ لولا وَشْيُ نَمْنَمَة	بصُدْغه واخْضِرارٌ فوقَ شاربه

---

(١) ترجمه في «ذيل مرآة الزمان» (٣/ ٣٠١).

(٢) ترجمته في «ذيل مرآة الزمان» (٣/ ٣٠٢).

طه بنُ إبراهيمَ بن أبي بَكْرٍ كمالُ الدين الهَذْبانيُّ الإرْبليُّ[1]، كان أديبًا فاضلاً شاعرًا، له قُدْرَةٌ في تَصْنيف دُوبيت، وقد أقامَ بالقاهرةِ حتىٰ تُوُفِّيَ بها في جُمَادىٰ الأولىٰ من هذه السَّنَة وقد اجْتَمعَ مرةً بالمَلِكِ الصالحِ أيوبَ، فجَعَلَ يَتَكَلَّمُ في علمِ النُّجُومِ، فأنْشَدَه علىٰ البَديهَةِ هذين البيتَيْن:

دَعِ النُّجُومَ لطُرُقيٍّ يَعيشُ بها ... وبالعَزيمةِ فانْهَضْ أيُّها المَلِكُ
إنَّ النَّبيَّ وأصْحابَ النَّبيِّ نَهَوْا ... عن النُّجُومِ وقد أبْصَرْتَ ما مَلَكُوا

وكتبَ إلىٰ صاحبٍ له اسمُه شَمسُ الدينِ يَسْتَزيرُه بعدَ رَمَدٍ أصابَه فبَرَأَ منه:

يقُولُ ليَ الكَحَّالُ عينك قد هَدَتْ ... فلا تَشْغَلَنْ قلبًا عليها وطِبْ نَفْسًا
ولي مُدَّةٌ يا شَمْسُ لم أرَكُم بها ... وآيَةُ بُرْءِ العَيْنِ أنْ تُبْصِرَ الشَّمْسا

عبدُ الرَّحمنِ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ محمدِ بنِ الحسنِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ الحسنِ بنِ عثمانَ جَمالُ الدينِ ابنُ الشَّيخِ نَجْمِ الدينِ البادَرائيُّ البَغْداديُّ ثم الدِّمَشْقيُّ، دَرَّسَ بمَدْرَسَةِ أبيه من بَعْدِه حتىٰ حينَ وفاتِه يومَ الأربعاءِ سادسِ رجبٍ، ودفِنَ بسَفْحِ قاسيونَ، وكان رئيسًا حسنَ الأخْلاقِ، جاوزَ خَمْسينَ سنةً.

قاضي القُضاةِ مَجْدُ الدينِ عبدُ الرحمنِ بنُ كمالِ الدينِ عمرَ بنِ أحْمَدَ بنِ العَديمِ الحَلَبيُّ ثم الدِّمَشْقيُّ الحَنَفيُّ، وليَ قَضاءَ الحَنَفيَّةِ بعدَ ابنِ عَطاءٍ بدمَشْقَ، وكان رئيسًا ابنَ رئيسٍ، له إحسانٌ وكَرَمُ أخلاقٍ، وقد وَليَ الخَطابَةَ بجامعِ القاهرةِ الكبيرِ، وهو أوَّلُ حَنَفيٍّ وَليَه، تُوُفِّيَ بجَوْسَقةٍ بدمَشْقَ في ربيعٍ الآخرِ من هذه السنَةِ، ودُفِنَ بالتُّرْبَةِ التي أنْشَأَها عندَ زاويةِ الحَريريِّ علىٰ الشَّرَفِ القِبْليِّ غَرْبيَّ الزَّيْتُونِ.

الوزيرُ ابنُ الحنَّا: عليُّ بنُ محمدِ بنِ سُلَيْمِ بنِ عبدِ اللَّهِ الصاحبُ بهاءُ الدينِ أبو الحَسَنِ بنُ الحنَّا الوزيرُ المصْريُّ، وزيرُ المَلِكِ الظاهرِ وولَدِه السَّعيدِ إلىٰ أنْ تُوُفِّيَ في سَلْخِ ذي القَعْدَةِ، وهو جَدُّ جدٍّ، وكان ذا رأيٍ وعَزْمٍ وتَدْبيرٍ، ذا تَمَكُّنٍ في الدولةِ الظاهريَّةِ، لا تَمْضي الأُمورُ إلا عن رأيِه وأمْرِه، وله مَكارمُ علىٰ الأمَراءِ وغيرِهم، وقد امْتَدَحَه الشُّعَراءُ، وكان ابنُه تاجُ الدينِ وزيرَ الصُّحبةِ، وقد صُودِرَ في الدولةِ السَّعيديَّةِ.

الشيخُ محمدُ بنُ الظَّهيرِ اللُّغَويُّ: محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عمرَ بنِ أحمدَ ابنِ أبي شاكرٍ مَجْدُ الدينِ أبو عبدِ اللَّهِ الإربليُّ الحَنَفيُّ المَعْرُوفُ بابنِ الظَّهيرِ، وُلِدَ بإرْبِلَ سنَةَ ثِنْتَيْنِ وستِّمائَةٍ، ثم أقامَ بدمَشْقَ، ودَرَّسَ بالقَيْمازيَّةِ، وأقامَ بها حتىٰ تُوُفِّيَ بها ليلةَ الجمعةِ ثانيَ عشَرَ ربيعٍ الآخرِ، ودفِنَ بمَقابرِ الصُّوفيةِ، وكان بارعًا في النَّحْوِ واللُّغَةِ، وكانت له يَدٌ طُولىٰ في النَّظْمِ، وله ديوانٌ مَشْهُورٌ، وشِعْرٌ رائقٌ، فمن شِعْرِه قَولُه:

(١) انظر «ذيل مرآة الزمان» (٣/ ٣/ ٣٠٣-٣٠٥).

كلُّ حَيٍّ إلى المَمات مآبُهْ ... ومَدَى عُمْره سَرِيعٌ ذَهابُهْ
ثم مِن قَبْره سَيُحْشَرُ فردًا ... واقفًا وَحْدَه يُوَفَّى حسابَهْ
معه سائقٌ له وشهيدٌ ... وعَلى الحِرْصِ ويْحَه إكْبابُهْ
يُخرِبُ الدارَ وهْيَ دارُ بقاء ... ثم يُبْنَى عَمَّا قريب خَرابُهْ
عَجَبًا وهو في التُّراب غَريقٌ ... كيفَ يُلْهيه طيبُهُ وعِلابهْ
كلُّ يومٍ يَزيدُ نَقْصًا وإنْ عُمِّـ ... ـرَ حلت أوصالَهْ أوصابُهْ
والورَى في مَراحلِ الدَّهْرِ رَكْبٌ ... دائمُ السَّيْرِ لا يُرَجَّى إيابُهْ
فَتَزَوَّد إنَّ التُّقى خَيْرُ زاد ... ونَصيبُ اللَّبيب منه لُبابُهْ
وأخُو العَقْلِ مَن يَقْضِي بصدقٍ ... شَيْبَه في صَلاحه وشَبابهْ
وأخُو الجَهْلِ يَسْتَلِذُّ هَوَى النَّفْـ ... ـسِ فَيَغْدُو شَهْدًا لديه مصابُهْ

وهي طويلَةٌ جِدًّا قريبَةٌ مِن مِائَةٍ وخَمْسِين بيْتًا، وقد أوْردَ الشيخُ قُطْبُ الدينِ شيئًا كثيرًا مِن شِعْرِه الحسنِ الفائقِ الرائقِ.

ابنُ إسْرَائيلَ الحَريريُّ، محمدُ بنُ سَوَّارَ بنِ إسْرَائيلَ بن النحضرِ بنِ إسرائيلَ بن الحَسَنِ بنِ عليِّ بنِ محمد بنِ الحُسَين نجمُ الدينِ أبو المَعَالي الشَّيْبَانيُّ الدِّمَشْقيُّ، وُلِدَ ضُحَى يومِ الإثْنَيْنِ ثاني عشرَ رَبيعِ الأوَّلِ سنَةَ ثلاثٍ وستِّمائَةٍ، وصَحِبَ الشيخَ عليَّ ابنَ أبي الحَسَنِ بنِ مَنْصُورٍ البُسْرِيَّ الحَرِيرِيَّ، في سنةِ ثمان عَشْرَةَ، وكان قد لَبِسَ الخِرْقَةَ قبلَه من الشيخ شِهابِ الدينِ السُّهْرَوَرْدِيِّ، وزَعَمَ أنَّه أجْلَسَه في ثلاثِ خَلَوَاتٍ، وكان ابنُ إسْرائيلَ يَزْعُمُ أنَّ أهْلَه قَدِمُوا الشامَ مع خالد بنِ الوَليد فاسْتَوْطَنُوا دمَشْقَ، وكان أديبًا فاضِلاً في صِناعَةِ الشِّعْرِ، بارِعًا في النَّظْمِ، ولكن في كلامه ونَظْمه ما يُشيرُ به إلى نَوْعٍ من الحُلُولِ والاتْحَادِ على طريقة ابنِ عَرَبِي وابنِ الفارِضِ وشَيْخِه الحَريريِّ. واللَّهُ أعْلَمُ بحاله وحَقيقَةِ أمْرِه. تُوُفِّي بدِمَشْقَ ليلةَ الأحدِ الرابع عشَرَ مِن رَبيعِ الآخِرِ من هذه السنَةِ، عن أرْبَعٍ وسَبْعِينَ سنَةً، ودفِنَ بتُرْبَةِ الشيخِ رِسْلانَ معه داخِلَ القُبَّةِ، وكان الشيخُ رِسْلانُ شيخَ الشيخِ عليٍّ المغربلِ الذي تَخَرَّجَ على يدَيْه الشيخُ عليٌّ الحَريريُّ شيخُ ابنِ إسْرائيلَ، فمِن شِعْرِه قَوْلُه:

لقد عادَني مِن لاعجِ الشَّوْق عائدُ ... فهل عَهْدُ ذات الخال بالسَّفْحِ عائدُ
وهل نارُها بالأجْرَعِ الفرد تَعْتَلي ... لمُنْفَرِد شابَ الدُّجَى وهو شاهَدُ
نَديمَيَّ مِن سُعْدَى أديرَا حَديثَها ... فَذكْرى هَواها والمُدامَةُ واحِدُ
مُنَعَّمَةُ الأطْراف رَقَّتْ مَحَاسنًا ... كما جَلَّ في حُبِّي لها ما أُكَابِدُ
فللبَدْرِ ما لاثَتْ عليه خمارُها ... وللشَّمْسِ ما جالَتْ عليه القَلائِدُ

وله:

أيُّها المُعْتَاضُ بالنَّوْمِ السَّهَرْ ... ذاهلاً يَسْبَحُ في بَحْرِ الفكَرْ
سَلِّمْ الأمْرَ إلى مَالكه ... واصْطَبِرْ فالصَّبْرُ عُقْباه الظَّفَرْ
لا تَكُونَنَّ آيِسًا مِن فَرَجَ ... إنَّما الأيامُ تَأتِي بالغِيَرْ

كَدَرٌ يَحْدُثُ في وقت الصَّفَا ... وصَفًا يَحْدُثُ في وَقْت الكَدَرْ
وإذا ما ساءَ دهْرٌ مَرَّةً ... سر أهليه ومهما ساءَ سَر
فارْضَ عن ربِّكَ في أقْداره ... إنَّما أنْتَ أسيرٌ للقَدَرْ

وله قَصِيدةٌ في مدحِ النَّبِيِّ ﷺ طويلَةٌ حَسَنَةٌ سمِعَها الشَيخُ كمالُ الدينِ الزَّمْلَكَانِيُّ وأصْحابُه على الشيخِ أحمد الأعْفَفِ عنه، وأوْرَدَ له الشيخُ قُطْبُ الدينِ اليُونِينِيُّ أشْعارًا كثيرَةً، فمنها قَصِيدَتُه الدَّاليةُ المُطَوَّلَةُ التي أوَّلُها:

وَفَى ليَ مَن أهْواه جَهْرًا لَمْوعِدي ... وأرْغَمَ عُدًّ إليَّ عليه وحُسَّدي
وزارَ على شَحْطِ المَزَارِ مُطَوَّلاً ... على مُغْرَمٍ بالوَصْلِ لم يَتَعَوَّدِ
فيا حُسْنَ ما أبْدَى لعَينِي جمالُه ... ويا بَرْدَ ما أهْدَى إلى قَلْبِيَ الصَّدي
ويا صدقَ أحْلامِي بِبُشْرى وِصاله ... ويا نَيلَ آمالي ويا نُجْحَ مَقْصدي
تَجَلَّى وُجُودِي إذ تَجَلَّى لباطني ... بجَدٍّ سعيد أوْ بسعد مُجَدَّدَ
لقَدْ حُقَّ لي عشقُ الوجُودِ وأهْلِه ... وقد عَلِقَتْ كَفَاىَ جمعًا بمُوجِدي

ثم تَغَزَّلَ فأطالَ، إلىٰ أنْ قال:

فلما تَجَلَّى لي على كلِّ شاهد ... وسامَرَنى بالرَّمْزِ في كلِّ مَشْهَد
تَجَنَّبْتُ تَقْيِيدَ الجمال تَرَفُّعًا ... وطالَعْتُ أسْرارَ الجمال المُبَدَّدَ
وصار سَمَاعِي مُطْلَقًا منه بَدْؤُه ... وحاشَى لمِثْلِي من سماعٍ مُقَيَّدَ
ففي كلِّ مَشْهُود لقَلْبِيَ شاهدٌ ... وفي كلِّ مَسْمُوعٍ له لَحْنُ مَعْبَدَ
أراه بأوْصاف الجَمال جَمِيعها ... بغير اعتقادٍ للحُلُول المُبَعَّدَ
ففي كلِّ هَيْفَاء المَعاطَف غادَة ... وفي كلِّ مَصْقُولَ السَّوالَف أغيدَ
وفي كلِّ بَدْر لاحَ في لَيلِ شَعْرِه ... على كلِّ غُصْن مائس العطَف أمْلَدَ
وعندَ اعْتناقِي كلَّ قَدٍّ مُهَفْهَفَ ... ورَشْفي رِضابًا كالرَّحيق المُبَرَّدَ
وفي الدُّرِّ والياقُوت والطِّيب والحُلَى ... علي كلِّ ساجِي الطَّرْفَ لَدْنَ المُقَلَّدَ
وفي حُلَلِ الأثْوابِ راقَتْ لناظِري ... بزَبَرْجَها من مُذْهَبَ ومُوَرَّدَ
وفي الرَّاحِ والرَّيْحَانِ والسَّمْعِ والغَنَا ... وفي سَجْعِ تَرْجِيعِ الحمَامِ المُغَرِّدَ
وفي الدَّوْحِ والأنْهارِ والزَّهْرِ والنَّدَى ... وفي كلِّ بُسْتانٍ وقَصْرٍ مُشَيَّدَ
وفي الرَّوْضَة الفَيْحَاء تحتَ سمَائها ... يُضاحكُ نورَ الشَّمْسِ نَوَّارُها النَّدي
وفي صَفْوِ رَقْرَاقِ الغَدير إذا حَكَى ... وقد جَعَلَتْه الريحُ صَفْحَةَ مَبْرَدَ
وفي اللَّهْوِ والأفْراحِ والغَفْلَةَ التي ... تُمكِّن أهْلَ الفرق من كلِّ مَقْصد
وعندَ انْتَشاء الشَّرْبِ في كلِّ مجْلس ... بَهِيجٍ بأنْواعِ الثِّمارِ المُنَضَّدَ
وعندَ اجْتِماعِ الناسِ في كلِّ جُمْعَةٍ ... وعِيدٍ وإظْهَارِ الرياشِ المُجَدَّدَ

وفي لَمَعان المَشْرَفيَّات بالوَغَى   وفي مَيْلِ أعْطاف القَنا المُتَأوِّدِ
وفي الأعْوَجيَّات العتاق إذا انبَرَتْ   تُسابقُ وفْدَ الرِّيح في كلِّ مَطرد
وفي الشمسِ تُجْلَى وَهْي في بُرْجِ نورها   لدَى الأُفُق الشَّرْقي مرآةَ عَسْجَد
وفي البَدْر بدر الأفْق ليلةَ تمِّه   جلَتْه سَماءٌ مثْلُ صَرحٍ مُمَرَّد
وفي أنْجُمٍ زانَتْ دُجَاها كأنَّها   نَثارُ لآلٍ في بِساط زَبَرْجَد
وفي الغَيْث روَّى الأرْضَ بعدَ هُمُودها   قُبالَ نَداه مَتْهمٌ بعدَ مُنْجِد
وفي البَرق يَغْدُو موهنًا في سحابه   كباسمِ ثَغْرٍ أو حُسامٍ مُجَرَّد
وفي حسنِ تَنْميق الخطاب وسُرْعَة الـ   ـجواب وفي الخَطِّ الأنيق المجوَّد
وفي رِقَّة الأشْعار راقَتْ لسامعٍ   بَدَائعُها من مُقْصر ومُقَصَّد
وفي عَوْد عيد الوَصلِ من بعد جَفْوَةٍ   وفي أمْنِ أخْشاء الطَّريد المُشَرَّد
وفي رَحْمَة المَعْشُوق شَكْوَى مُحبِّه   وفي رِقَّة الألْفاظ عندَ التَّوددُّ
وفي أرْيحيَّات الكَريمِ إلى النَّدَى   وفي عاطفَات العَفْو من كلِّ سَيِّد
وحالةَ بَسْط العارفينَ وأنْسهمْ   وتَحريكهم عندَ السَّماعِ المُقَيَّد
وفي لُطف آياتَ الكتَاب التي بها   تَنسَّم رُوحُ الوَعْد بعدَالتَّوَعُّد
كذلك أوْصافُ الجلال مَظَاهرٌ   أشاهدُهُ فيها بغَيْرِ تَرَدُّد
ففي صَوْلَة القاضي الجَليلِ وسَمْته   وفي سَطْوَةالمَلْك الشَّديد التَّمَرُّد
وفي حدَّة الغَضْبان حالَةَ طَيْشه   وفي نَخْوَة القَرْمِ المهيب المُسَوَّد
وفي صَوْلَة الصَّهْباء حارَ مُديرُها   وفي بُؤْسِ أخْلاق النَّديم المُعَرْبَد
وفي الحَرِّ والبَرْد اللَّذَيْن تقَسَّما الـ   الزَمانَ وفي إيلام كلِّ مُجَسَّد
وفي سرِّ تَسْليط النُّفُوس بشَرِّها   عليَّ وتَحْسين التَّعَدِّي لمُعْتَدي
وفي عَسَرِ العادات يَسْتَعْرِفُ القضَا   وتَكْحُلُ عينُ الشَّمْسِ منه بإثْمد
وعندَ اصْطدام الخَيْلِ في كلِّ مَوْقف   يُعَثَّرُ فيه بالوَشيج المُنَضَّد
وفي شدَّة الليث الصَّئُول وبَأسه   وشدَّة عَيْشٍ بالسِّقَام مُنَكَّد
وفي جَفْوَة المَحْبُوب بعدَ وصاله   وفي غَدْره من بعد عَهْد مُؤَكَّد
وفي رَوْعَة البَيْن المُسيء ومَوْقف الـ   ـوداع لحَرَّان الجَوانح مُكْمَد
وفي فُرْقَة الألاَّف بعدَ اجْتماعهم   وفي كلِّ تَشْتيت وشَمْلٍ مُبَدَّد
وفي كلِّ دار أقْفَرَتْ بعدَ أُنْسها   وفي طَلَلٍ بالٍ دراسٍ مُعَهَّد
وفي هَوْل أمْواجِ البحار ووَحْشَة الـ   ـقفَارٍ وسَيلٍ بالمَزَاييب مُزبد
وعنْدَ قيامي بالفَرائضِ كلِّها   وحالة تَسْليم لسرِّ التَّعَبُّد
وعندَ خُشُوعي في الصلاة لعزة الـ   ـمُناجى وفي الإطْرَاق عندَ التَّهَجد
وحالة إهْلالِ الحَجيج بحَجِّهم   وإعْمالهم للعيسِ في كلِّ فدفد

وفي عُسْرِ تَخْليصِ الحلالِ وفَتْرَةِ الـ ... ـملالِ لقَلْبِ الناسكِ المُتَعَبِّدِ
وفي ذِكْرِ آياتِ العَذابِ وظُلْمَةِ الـ ... ـحِجَابِ وقَبْضِ الناسكِ المُتَزَهِّدِ
ويَبْدُو بأوْصافِ الكمالِ فلا أرَى ... برُؤْيَتِهِ شَيْئًا قَبيحًا ولا رَدِي
فكلُّ مُسيءٍ لي إليَّ كمُحْسِنٍ ... وكلُّ مُضِلٍّ لي إليَّ كمُرْشِدِ
فلا فَرْقَ عندي بينَ أُنْسٍ ووَحْشَةٍ ... ونورٍ وإظلامٍ ومُدْنٍ ومُبْعَدِ
وسيَّانَ إفطاري وصَوْمِي وفترتي ... وجَهْدِي ونَوْمي وادِّعاءُ تَهَجُّدي
أُرَى تارةً في حانَةِ الخَمْرِ خالعًا ... عِذاري وطَوْرًا في حَنِيَّةِ مَعْبَدِ
تَجَلَّى لسِرِّي بالحَقيقةِ مَشْرَبٌ ... فوقتي مَمْزُوجٌ بكَشْفٍ مُسَرْمَدِ
تَعَمَّرَتِ الأوْطانُ بي وتَحَقَّقَت ... مَظَاهِرُها عندي بعَيْني ومَشْهَدي
وقلبي مع الأشياءِ أجْمَعُ قُلَّبٌ ... وسِرِّي مَقْسُومٌ على كلِّ مَوْرِدِ
فَهيكلُ أوْثانٍ ودَيْرٌ لراهبٍ ... وبَيْتٌ لنيرانٍ وقِبْلَةُ مَسْجِدِ
ومَرْجٌ لغِزْلانٍ وحانَةُ قَهْوَةٍ ... ورَوْضَةُ أزْهارٍ ومَطْلَعُ أسْعُدِ
وأسرارُ عِرْفانٍ ومِفْتَاحُ حِكْمَةٍ ... وأنْفَاسُ وجْدانٍ وفَيْضُ تَبَلُّدِ
وجَيْشٌ لضِرْغامٍ وخِدْرٌ لكاعبٍ ... وظُلْمَةُ حَيْرانٍ ونورٌ لمُهْتَدي
تقابَلَتْ الأضْدادُ عندي جَميعُها ... كمِحْنَةِ مَجْهُودٍ ومنحةِ مُجْتَدى
وأحْكَمَتْ تَقْريرَ المَراتِبِ صورةً ... ومَعْنًى ومن عينِ التَفَرُّدِ مَوْردي
فما موْطِنٌ إلا ولي فيه مَوْقفٌ ... على قَدَمٍ قامَتْ بحَقِّ التَفَرُّدِ
فلا غَرْوَ إنْ فُتُّ الأنامَ بها وقد ... عَلِقْتُ بحَبْلٍ من حِبالِ مُحَمَّدِ
عليه صَلاةُ اللَّهِ تَشْفَعُ دائِمًا ... برَوْحِ تَحِيَّاتِ السَّلامِ المرَدَّدِ

ابنُ العُودِ الرافِضِيُّ أبو القاسِمِ بنُ الحسينِ بنِ العُودِ نَجيبُ الدينِ الأسَدِيُّ الحِلِيُّ، شيخُ الشيعَةِ وإمَامُهم وعالِمُهم في أنْفُسِهِم، كانت له فَضِيلَةٌ ومُشَارَكَةٌ في عُلومٍ كثيرَةٍ، وكان حَسَنَ المُحاضَرَةِ والمُعاشَرَةِ، لَطِيفَ النَّادِرَةِ، وكان كثيرَ التَّعَبدِ باللَّيلِ، وله شِعْرٌ جَيِّدٌ. وُلِدَ سنَةَ إحْدَى وثمانِينَ وخَمْسمِائَةٍ، وتُوُفِّيَ في رمَضَانَ من هذه السنةِ عن ستٍّ وتسعِينَ سنَةً. واللَّهُ أعْلَمُ بأحْوالِ عِبادِهِ وسَرَائِرِهِم ونِيَّاتِهم.

* * *

فهرست الجزء الثالث عشر